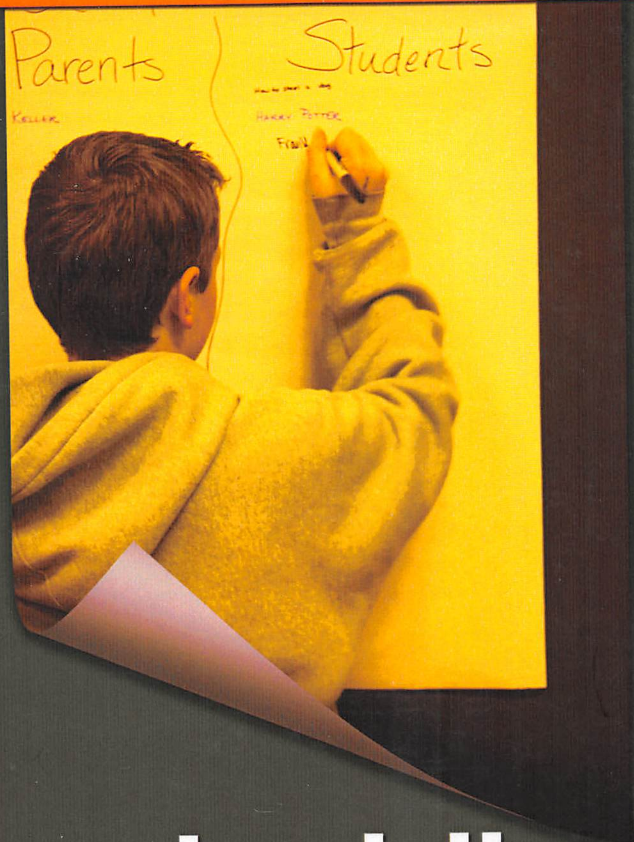
المركز القومى للترجمة



الفرض
فى التربية الليبرالية الجديدة

تحرير: كينيث سولتمان
ديفيد غابارد

ترجمة وتقديم:
مصطفى قاسم

1566
المركز القومى للترجمة



يقدم هذا الكتاب رؤية مفارقة للإصلاحات والمبادرات الحديثة داخل المدارس وحولها، تلك الإصلاحات والمبادرات التى تفرض الطاعة على الناس لتصورات الشركات وفرض ولائهم للدولة الواقعة تحت سيطرتها. ويدفع الكتاب بأن التربية بكل أشكالها وعبر كل مؤسساتها، خاصة التمدرس أو التعليم ما قبل الجامعى، تُتخَذ آلية وفضاءً لفرض أجندة الليبرالية الجديدة، ممثلة فى الشركات والدولة الخاضعة لها، وهو الفرض الذى أوجزه المحرران فى عسكرة المدارس والفضاء العام ككل، وإخضاعها لسيطرة الشركات. ففى التعليم ومؤسسات التربية الشكلية وغير الشكلية تفرض الليبرالية الجديدة رؤيتها للعالم عبر هاتين الآليتين.

فعبر فرض سيطرة الشركات على كل مؤسسات التربية بداية من المدرسة ومروراً بالثقافة الشعبية والألعاب والإعلام والفضاء العام يتم فرض رؤية الشركات للعالم وأجندتها المحلية والعالمية على المجتمع بأسره وليس على طلاب المدارس فحسب. وأيضًا من أجل صالح الشركات، وللتعامل مع أولئك الذين تفشل هذه الأدوات الأيديولوجية فى قولبتهم، تأتى العسكرة داخل أسوار المدارس وخارجها وعلى المستوى المحلى والعالمى لتفرض الطاعة كرهًا ولتضمن التوسع الآمن لمصالح الشركات، بالطبع على حساب القيم والممارسات الديمقراطية والمجتمع المدنى والفضاء العام.

الفرص فى التربية الليبرالية الجديدة

المركز القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : 1566
- الفرض فى التربية الليبرالية الجديدة
- كينيث سولتمان وديفيد غابارد
- مصطفى قاسم
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب :

Education As Enforcement

Edited by Kenneth J. Saltman and David A. Gabbard

Copyright © 2003 by Routledge Falmer

Routledge Falmer is an imprint of the Taylor & Francis Group.

All Rights Reserved

"Authorized Translation From English language edition Published by Routledge, Part of Taylor & Francis Group LLC."

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومى للترجمة .

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
E.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

الفرض
فى التربية الليبرالية الجديدة

تحـــــرير : كينيث سولتمان وديفيد غابارد
ترجمة وتقديم : مـــــصطفى قـــــاسم

2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

سولتمان؛ كينيث،
الفرض فى التربية الليبرالية الجديدة/ تحرير : كينيث سولتمان-
وديفيد غابارد ، ترجمة وتقديم : مصطفى قاسم
ط١ - القاهرة - المركز القومى للترجمة، ٢٠١٠
٦٠٨ ص، ٢٤ سم
١- التعليم - فلسفة
(أ) غاربارد ، ديفيد (محرر مشارك)
(ب) قاسم، مصطفى (مترجم ومقدم)
(جـ) العنوان ٣٧٠,١

رقم الإيداع ٢٠١٠/٤٥٣٠
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 479-908-2
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

تقديم المترجم

إن العنوان الأصلى للنص الأجنبى الذى يحوى الكتاب الحالى ترجمته هو "التربية كفرض: عسكرة المدارس وإخضاعها للشركات Education as Enforcement: Militarization and Corporatization of Schools، حيث يعالج الكتاب قضية اتخاذ التربية بكل أشكالها وعبر كافة مؤسساتها، خاصة التمدرس أو التعليم ما قبل الجامعى، آلية وفضاءً لفرض أجندة الليبرالية الجديدة، ممثلة فى الشركات والدولة الخاضعة لها، وهو الفرض الذى أوجزه المحرران كينيث سولتمان وديفيد غاباراد فى عسكرة المدارس والفضاء العام ككل، وإخضاع المدارس، وأيضًا الفضاء العام ككل، لسيطرة الشركات. ففى التعليم ومؤسسات التربية الشكلية وغير الشكلية تفرض الليبرالية الجديدة رؤيتها للعالم عبر هاتين الآليتين. ولذلك فإن المترجم عندما اتخذ من "الفرض فى التربية الليبرالية الجديدة" عنوانًا للترجمة العربية للكتاب لم يبتعد كثيراً عن مضمون الكتاب ورسالته. وهذا العنوان، وإن كان قد هرب من مصطلحى العسكرة والإخضاع للشركات، على اعتبار عدم استحسان استخدام مصطلحات منحوتة - مثل العسكرة - أو مركبة - مثل الإخضاع للشركات - فلم يسلم العنوان من مصطلح "الفرض" بدلالته الكثيرة فى اللغة العربية. إذ لم يجد المترجم بدًا منه نظرًا لأهميته باعتباره المقولة الأساسية للكتاب. ولذلك فقد وجبت الإشارة منذ البداية إلى عنوان النص الأصلى وعلاقته بعنوان الترجمة.

لكن ما العسكرة، وما الإخضاع للشركات، وما علاقتهما بالليبرالية الجديدة، وما انعكاساتهما على التربية والمؤسسة التعليمية، وما مضامين ذلك على المجتمع والتربية المصريين؟

إن الليبرالية الجديدة، على عكس اسمها، ليست جديدة فى شيء، فهى الليبرالية القديمة، أى الليبرالية كما ظهرت فى أوروبا فى القرن السابع عشر فى شكل نظريات سياسية مثل نظريات توماس هوبز وجون لوك واقتصادية مثل نظرية آدم سميث، وكما طُبقت فى أبشع صورها فى إنجلترا القرن التاسع عشر. لكن بدون الانتحالات التجميلية التى اضطرت لأن تتجمل بها على مدار جزء كبير من القرن العشرين، أو دون القيود التى قبلتها لأغراض المناورة والتكتيك، انتظاراً إلى أن تسنح الفرصة لكى تعود إلى شكلها المطلق المتحرر من كافة القيود والطارح لكل أشكال التجميل السابقة.

فالليبرالية الجديدة هى الليبرالية القديمة التى تقوم على مبادئ الفردية والحرية، خاصة حرية الملكية وحرية الأسواق، وأن السوق هو الأقدر على إدارة وتسيير شئونه، وأن الدولة لا يجب أن تتدخل فى حرية عمل السوق بأى شكل من الأشكال، سواء على المستوى المحلى أو الدولى. لكن هذه الليبرالية المنفلتة اضطرت بعد الحرب العالمية الثانية لأن تقدم تنازلات فى حريتها المطلقة وتقبل بتدخل الدولة فيما عرف برأسمالية الدولة أو دولة الرفاه، حيث سمحت للدولة بالتدخل لحماية الفقراء من خلال برامج الرفاه الاجتماعى والخدمات الاجتماعية كالتعليم والصحة وبدل البطالة وتوظيف المواطنين وتنظيم العمل بوضع حد أدنى للأجور والسماح للعمال بالتنظيم للدفاع عن مصالحهم، وغير ذلك.

لكن بداية من السبعينيات مع مارجريت تاتشر فى إنجلترا، وبعد ذلك فى الثمانينيات مع رونالد ريجان فى الولايات المتحدة، بدأت الليبرالية تنفض عن نفسها تلك القيود وتنبذ هذه التدخلات، وإن أطلقوا عليها اسم الليبرالية الجديدة. والسائد فى الأدبيات رد هذه العودة غير الحميدة لرأسمالية القرن التاسع عشر الفجة باسم الليبرالية الجديدة إلى الأزمات الاقتصادية العديدة التى تعرضت لها دولة الرفاه والخدمات الاجتماعية فى الغرب، وهى الأزمات التى نتجت كما قالوا عن تضخم جهاز الدولة بسبب برامج الرفاه الاجتماعى والتوظيف وغير ذلك. بينما

الأرجح أن هذه العودة كانت ناتجة أساسًا عن انتفاء مصدر التهديد الأيديولوجى بعد سقوط الماركسية وتطبيقاتها فى الدول الاشتراكية والشيوعية، وأن تلك الأزمات الاقتصادية التى تعرضت لها دولة الرفاه كانت مفتعلة ومدبرة من أجل الوصول إلى هذه النتيجة.

ففى أثناء وجود بديل ينافس الليبرالية السياسية والرأسمالية الاقتصادية، كانت الليبرالية لأغراض المنافسة وقطع الطريق على هذا البديل المغرى لجموع المواطنين، تقدم تنازلات، هى فى الأساس إعمال وتطبيق لبعض أفكار هذا المنافس مثل القبول بالتنظيمات العمالية ووضع حدود دنيا للأجور وضمان الدولة للخدمات الاجتماعية الأساسية. فمنطق الصراع أوجب على الليبرالية أن تقبل بهذه القيود من أجل الحفاظ على الوحدة الداخلية للتفرغ للصراع الخارجى، وقبل ذلك للحصول على ولاء المواطنين أو بالأحرى شراء ولائهم خوفًا من انتشار الأيديولوجيا المنافسة بينهم.

لكن بعد أن نجحت الليبرالية فى القضاء المبرم على الخصم الأيديولوجى ودولته، وهو ما صورته الليبرالية بنهاية عصر الأيديولوجيا أو "نهاية التاريخ"، وبعد أن أخذت تصور نفسها على أنها الخيار الوحيد الممكن وأنه "ليس ثمة بديل آخر"، وجدت أنه لم يعد هناك ما يبرر أن تستمر فى قبول هذه القيود وانتحال ذلك التجميل، فأخذت تنفض عن نفسها كل ذلك. فأجبرت الدولة على التخلى عن البرامج والخدمات الاجتماعية، وأن توقف التوظيف، وأن تتخلى عن دعم مكاسب العمال، وفى المقابل أن تُخَفِض الضرائب المفروضة على المشروعات والشركات.

وقد احتال رعاة الرأسمالية من أجل هذه النتيجة. فقد كانت الدولة الرأسمالية الأولى – الولايات المتحدة – تعمل بطريقة جيدة رغم تحملها تلك المسئوليات الاجتماعية، إلى أن جاء رونالد ريجان وقام فى آن واحد بتقديم تخفيضات ضريبية للشركات وللمشروعات، وزيادة الإنفاق العسكرى لمستويات لا يستدعيها الوضع الدولى فى أواخر الحرب الباردة: أى تقليص عوائد الدولة من جانب، وتمرير هذا الذى تقلص إلى الإنفاق العسكرى ومجمع السجون من جانب آخر. وقد كان من شأن ذلك

بالتأكيد أن تقع دولة الرفاه فى مشكلات لا يكون ثمة مخرج منها إلا بتراجع الدولة عن دورها الحمائى والتلطيفى الذى كانت تلعبه.

وليت الأمر اقتصر على تخلى الدولة عن مواطنيها وانكماشها إلى ما يعرف بدولة الحد الأدنى. بل إنها أُخْضِعت لأصحاب المصالح المالية، فأخذت تجند كل شيء تحت سيطرتها لخدمة أهدافهم بداية من السياسة الخارجية والمؤسسات الدولية على المستوى الدولى، والجيش والمؤسسات العامة على المستوى الداخلى. فالدولة، كما اتضح من التطبيقات السياسية المختلفة الماركسية والليبرالية، لا تستطيع أن تقف على الحياد بين السوق والمجتمع المدنى، أو أن تلعب دور الحارس والحامى والمنظِم المحايد، أو ربما كان ذلك قدرها .. أن تنحاز إلى أحد الجانبين.

فكما أكد ماركس يبدو أنه ليس ثمة شىء من قبيل الدولة "المحايدة" أو المستقلة، وأن فكرة التعارض أو التمايز بين المصالح العامة والمصالح الخاصة لم تكن سوى وهم روجته الدولة الحديثة، ليس له أساس فى الواقع. إن الدولة يمكن أن تظهر مستقلة، وتقف فوق المصالح الخاصة، وتعامل كل الذوات على أنها متساوية أمام القانون، لكن هذه الحيادية فى الواقع ليست إلا قناعًا لإعادة إنتاج أوجه اللامساواة الاجتماعية الكبيرة التى تؤكد عليها الدولة من خلال حماية الملكية الخاصة. ففى نقده لفلسفة هيجل عن القانون، فند ماركس مثالية تصور هيجل عن الدولة، واستبعد الفكرة المجوفة عن انفصال الدولة عن المجتمع المدنى. صحيح أن ماركس يتفق مع هيجل على وجود حيزين متمايزين تحليليًا فى المجتمع الحديث: حيز الدولة وحيز المجتمع المدنى، وهو حيز الأنانية والمصلحة الخاصة، لكنه مع ذلك ينكر أن يكون هذا الفصل أكثر من مجرد تمييز شكلى، ويؤكد على أن الدولة الرأسمالية لا يمكن أن تتجاوز "حرب الكل ضد الكل" من أجل تأمين "المصلحة المشتركة".

لذلك نجد الدولة فى النظم الليبرالية الجديدة، وتعميمًا فى النظم الرأسمالية قديمها وجديدها، تعمل بالكامل من أجل مصلحة أصحاب المصالح المالية، إن لم

تكن مجرد أداة فى أيديهم يطوعونها من أجل مصالحهم، سواء على المستوى الداخلى أو الخارجى. وفى ذلك يقول الدكتور أشرف منصور:

فبعد أن تم عزل الدولة عن المجال الاقتصادى من جراء العمليات المسماة بالتحرير الاقتصادى - تحرير الاقتصاد من الدولة- والقضاء على القطاع العام بالخصخصة، يتم الآن إدخال الدولة مرة أخرى باعتبارها هيكلاً تشريعيًا وإداريًا المطلوب منه تسهيل عمل السوق الحر وضمان سيره[1].

وبالطبع فإن سيطرة قطاع الشركات والمشروعات ورجال الأعمال على الدولة وتوجيهها لمصالحهم تتعارض مع مصالح القطاع الواسع من الشعوب: سواء كعمال أو مواطنين لدولة تخلت عن رعايتهم وحمايتهم من السوق، دولة تجندهم هم أنفسهم لخدمة مصالح الشركات سواء فى حروبها الإمبريالية من أجل استغلال موارد الشعوب الأخرى، أو فى مجمع السجون الآخذ فى التوسع على نحو غير مسبوق، أو عبر تبرير بطالتهم وعنفهم وجنوحهم بأسباب فردية ومَرضية فى كثير من الأحيان.

فعلى المستوى الخارجى، ونتيجة لسيطرة قطاع الشركات على الدولة، أخذت الدولة الأولى الحامية للرأسمالية - الولايات المتحدة - تفرض أجندة قطاع الشركات الأمريكى على المؤسسات الدولية المالية مثل البنك الدولى وصندوق النقد الدولى، والسياسية مثل الأمم المتحدة. وليس أدل على ذلك من عمليات دمج دول العالم الثالث فى الاقتصاد العالمى من خلال عمليات الخصخصة والتكيف الهيكلى من جانب، ومن جانب آخر حروب أمريكا الإمبريالية تأمينًا لمصالح شركات النفط الكبرى، سواء فى

---

(١) أشرف منصور (٢٠٠٨)، الليبرالية الجديدة جذورها الفكرية وأبعادها الاقتصادية، الهيئة المصرية العامة للكتاب - مكتبة الأسرة، القاهرة، ص ص ٢٢٤-٢٢٥.

منطقتنا العربية منذ العقد الأخير من القرن العشرين، أو فى دول أمريكا اللاتينية من قبل ذلك بوقت طويل. فمن أجل مصالح هذه الشركات يتم تحريك الجيش الأمريكى واستنفار المؤسسات الدولية على السواء.

وعلى المستوى الداخلى يتجلى وقوع الدولة تحت سيطرة أصحاب المصالح المالية فى عمليات العسكرة وإخضاع الفضاء العام للشركات، وهو الموضوع الرئيسى للكتاب الحالى.

وسيطرة الشركات على المدارس corporatization of schools، والتى ليست أكثر من جزء من سيطرة الشركات على الفضاء العام، تعنى من بين ما تعنى (١) خصخصة المؤسسات العامة التى تملكها الدولة، وعلى رأسها المدارس، (٢) إخضاعها لإدارة الشركات، (٣) اتخاذها نقطة انطلاق لفرض رؤية الشركات للعالم والمجتمع والبيئة والطبيعة وعملية الإنتاج.

فعلى صعيد الخصخصة تساهلت الدولة -الولايات المتحدة- أولاً فى جودة التعليم الذى يقدم فى المدارس العامة، بما يبرر التخلى عنها فيما بعد، وبما يرفع من أسهم المدارس الخاصة. وبعد ذلك طرحت مبادرات مثل مستندات الضامن التعليمية vouchers التى تقوم على فكرة أن تعطى الدولة مستندات صرف تكافئ ما تدفعه للطالب فى العام الدراسى مثلاً لكى ينفق بها على تعليمه فى المدرسة التى يريد، أو مدارس الوثيقة charters التى توجه أموال الدولة رأساً إلى المستفيدين ومقدمى الخط الأمامى التعليميين - المعلمين والمديرين - الذين يتوافقون على إنشاء مدرسة بشروط معينة يبرمونها مع الدولة فى عقد، أو عقود الأداء performance contracts التى لا تختلف كثيراً عن مدارس الوثيقة.

وعلى صعيد إخضاع المدارس للشركات استنت الولايات المتحدة نظاماً يجيز للولايات أن تستولى على المدارس التى تفشل لعدد من السنوات فى الوفاء بمستويات التحصيل القومية وأن تعرضها فى مزاد علنى لشركات الإدارة التعليمية لكى تديرها، وأيضاً بأموال الدولة.

فضلاً عن هيمنة لغة الشركات والمشروعات على خطاب الإصلاح التعليمى كما فى مفردات الاختيار والجودة والكفاءة والمحاسبية، وفتح المدارس إدارةً ومنهجًا وتنظيمًا للشركات والمشروعات كما فى المناهج التى تعدها الشركات وتطرحها مجانًا فى المدارس والأسواق، من النوع الذى وثقه كينيث سولتمان وربين تروث جودمان فى الفصل الثانى من هذا الكتاب.

ومن ضمن التناقضات التى تعج بها أجندة الليبرالية الجديدة أنه فى مقابل الاتجاه نحو تحرير الاقتصاد والفاعلين الاقتصاديين من كافة القيود التنظيمية dere-gulation، تسعى الإصلاحات التعليمية إلى الضبط الصارم والتنظيم المركزى للمدارس والمؤسسات العامة. فعلى النقيض تمامًا من رأسمالية الدولة أو دولة الرفاه التى كانت تفرض قيودًا تنظيمية regulation على قطاع الشركات والمشروعات بغرض تلطيف أو تخفيف التأثيرات الاقتصادية والاجتماعية السلبية على غالبية المواطنين، إلى جانب تبنى الدولة لمطالب المجتمع المدنى والمواطنين، رفعت الدولة كافة القيود عن الشركات وأخذت فى نفس الوقت فى تقييد المجتمع المدنى والفضاء العام ومصالح المواطنين. وتلك عملية متتامة، حيث يكون التحرير فى أحد الجانبين تقييداً على الجانب الآخر.

وبالتوازى مع إخضاع الفضاء العام لقطاع الشركات والمشروعات، تقوم العسكرة هى الأخرى بخدمة مصالح الشركات، وبشكل متمم لذلك الانتقاص من مصالح المجتمع المدنى والفضاء العام والمواطنين.

تُعَرَف العسكرة بأنها نسق من المعتقدات والقيم يشدد على استخدام الحرب والهيمنة باعتبارها الوسيلة الملائمة لحل المشكلات والحصول على القوة السياسية. فهى تعنى الميل إلى تبنى الحلول الأمنية والعسكرية التى تقوم على القوة الفجة والعنف كإجابة للمشكلات الاجتماعية على المستوى الداخلى، وكذلك فى السياسية الخارجية على المستوى الدولى. فالرد على عنف الأطفال والشباب فى المدارس لا يكون من خلال الحوار واجتثاث الأسباب الحقيقية للعنف، التى تقف الدولة والشركات ورائها بالطبع،

وإنما من خلال فرض الرقابة البوليسية وطرد الطلاب من المدارس وتحويلهم إلى نظام السجون. والرد على مظاهر العنف فى المناطق الحضرية التى تسكنها الأقليات، مثل السود واللاتينيين والمهاجرين وغير ذوى الأصول الأوروبية عموماً، لا يكون من خلال بحث الأسباب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى تدفع هذا العنف مثل البطالة ووقف الاستثمار والتنمية وانسداد أفق الحراك، وإنما من خلال عزل هذه المناطق وإغراقها بالوجود الأمنى وسن القوانين التى تحرم الناس من التجمع والحركة الطبيعية وتحولهم إلى نظام السجون على أقل المخالفات.

وهذه العسكرة مستوردة بالطبع من الفضاء الدولى أو السياسة الخارجية. ففى عصر العولمة الذى تشوشت فيه -عن قصد- الحدود بين ما هو خارجى وما هو داخلى، امتدت السياسات التى كانت فى السابق تميز الفضاء الدولى إلى الفضاء المحلى، وعلى وجه التحديد العسكرة والاحتواء. فكما أن الرد الوحيد على هجمات ١١ سبتمبر الإرهابية لا يتمثل فى اجتثاث الأسباب التى جعلت هؤلاء الناس يكرهون أمريكا ويقدمون على هذه الأعمال، وإنما يتمثل فى تعقبهم فى كل مكان واستهدافهم بأحدث أنواع الأسلحة، وكذلك كل من له صلة بهم من قريب أو بعيد، كذلك يتمثل الحل لمشكلات العنف فى المجتمع المحلى والمدارس فى العسكرة والاحتواء والحلول الأمنية والبوليسية.

لكن هل لهذه التطورات النظرية والتطبيقية مضامين على المجتمع المصرى والعربى ونظم التعليم ومؤسسات التربية فى مصر والوطن العربى؟

بعيداً عن مفهوم العولمة، فإن ما لم نقله عن الليبرالية الجديدة أو الرأسمالية القديمة - الجديدة هو أنها لا تقنع أبداً بحدود سوقها الداخلى ومواردها الخام الداخلية، أو سوق أو موارد المجتمعات التى تدخل معها طوعاً فى هذا النظام، وإنما تسعى بشتى الطرق الصريحة والملتوية والسلمية والعسكرية إلى إدخال كل ساكنى الأرض فى حظيرة السوق، أو بتعبير ديفيد غاربارد -فى الفصل الثالث من هذا الكتاب - "المساعدة" فى تلبية "حاجة" الجميع العمومية لأن "يُدمَجوا" فى الخلاص

الدنيوى للسوق: سواء على مستوى الدولة الواحدة أو على المستوى العالمى. فالسوق لا يرتاح إلا عندما يدخل الجميع تحت سطوته. ولذلك فإن كثيراً مما يقال عن التعليم والمجتمع الأمريكيين يقال عن التعليم والمجتمع المصريين، حيث فُرِضت الرأسمالية، بأجندة الليبرالية الجديدة، على كل الدول والمجتمعات.

فقد شقت الرأسمالية طريقها أو فُرضت على غالبية سكان الكرة الأرضية الآن. ففى مصر على سبيل المثال، وبالطبع تحت تأثير المؤسسات المالية الدولية، تمت خصخصة القطاع العام وبيع الشركات التى كانت مملوكة للدولة، وأخذ رجال الأعمال شيئًا فشيئًا يسيطرون على الحكومة، وتخلت الدولة عن خدمات اجتماعية كنا نعتبرها من صميم اختصاص الدولة مثل التوظيف ومحاربة البطالة، وفى طريقها إلى التخلى عن خدمات أخرى مثل التعليم والصحة، وإن كان ذلك لا يزال بشكل غير مباشر من خلال فتح المجال للمقدمين الخاصين للخدمات التعليمية والصحية، تمهيداً لأن يكون التوصيل الخاص لهذه الخدمات هو القاعدة وليس الاستثناء فيما بعد. إنه تصور دولة الحد الأدنى كما تروج له الليبرالية الجديدة، وإن كانت دولة الحد الأدنى فى توصيل الخدمات والحد الأقصى فى العسكرة وانتهاك حقوق المواطنين، تمامًا كما فى دولة المنشأ: الولايات المتحدة.

وفيما يلى سوف أكتفى بمثال واحد للتدليل على تشابه نتائج تطبيق الليبرالية الجديدة فى كل من مصر والولايات المتحدة. يتعلق هذا المثال بازدياد التقسيم الطبقى لمؤسسات التعليم ومخرجاته وخريجيه، وإلقاء اللائمة على البطالة على التعليم والخريجين وليس الاقتصاد وسوق العمل والدولة باختياراتها الأيديولوجية وانحيازها للسوق على حساب المواطنين والمجتمع المدنى.

يرى الخطاب المهيمن – فى كل من مصر والولايات المتحدة– الذى تروج له الدولة وقطاع الشركات أن مجتمع واقتصاد المعلومات يتطلب خريجين يتمتعون بمستوى عالى من المهارات والمعارف. والنتيجة المنطقية لذلك، كما يصرح كثيرون من أقطاب

الدولة والقطاع الخاص، هى أن البطالة فى صفوف خريجى التعليم تكون ناتجة فى الأساس عن افتقادهم لتلك المهارات، الذى يرجع بدوره إلى عجز نظام التعليم وتقصير الطلاب. فى حين أن واقع الحال يقول أن تلك هى نفسها مطالب هذا الاقتصاد المعلوماتى ما بعد الصناعى: قلة صغيرة للغاية جيدة التعليم أو قل فائقة التعليم، خاصة فى المجالات ذات الصلة بعلوم الحاسب وتكنولوجيا الإنسان الآلى تتولى إدارة وتشغيل هذا الاقتصاد، وغالبية ساحقة ليس لها مكان فى هذا الاقتصاد القائم على الإنتاج بلا عمال laborless production إلا فى الأعمال الخدمية، ومنها بالفعل الخدمة فى المنازل، والعمل فى وظائف مؤقتة غير محمية نقابيًا أو وظائف لبعض الوقت، بالطبع إلى جانب البطالة المتكررة أو المزمنة، أو الارتماء فى حضن السوق غير الرسمى من أجل البقاء. وفى ذلك تقول إنورا بروان فى الفصل السادس من الكتاب الحالى أن:

أتمتة الإنتاج تعجل بإعادة تنظيم غير مسبوقة للمجتمع، وتعدل بشكل دائم أشكال وطبيعة العمل، حيث تحل تكنولوجيا الإنسان الآلى والتسليع المستقل للمعلومات والمعرفة محل بيع قوة العمل، وتقضى على مركزية العمل البشرى فى العملية الإنتاجية. بل ويتوقع البعض أن الإنتاج الدائم للتجديد (أى "المعرفة الجديدة فى مجال صنع السلع") والمصانع المُحَوسَبة cyber factories **التى تتكون من "شبكة من الماكينات الذكية" ستكون هى مصدر الربح، وتُحَوِل دور البشر إلى وظائف إشرافية غير مركزية أكثر استقلالاً. ومع التباعد أكثر بين العمل اليدوى والعقلى، يكون من المتوقع تَكَوُن هرميات لوظائف إنتاج المعرفة.**

هذا بالطبع إلى جانب دفع غالبية طالبى العمل من خريجى التعليم إلى الأعمال المؤقتة منخفضة الأجر أو حتى البطالة الدائمة أو السوق غير الرسمى، أى عالم

الجريمة. وفى ذلك تقول بولين ليبمان فى الفصل الرابع من الكتاب الحالى أن العولمة وإعادة الهيكلة الاقتصادية:

تنتج قوة عمل مقسمة طبقيًا ومستقطَبة اقتصاديًا إلى درجة كبيرة من خلال عمليات رفع وتنزيل واستبعاد العمال المتزامنة. وفى منطقة شيكاغو الحضرية أدى التغير من اقتصاد التصنيع إلى اقتصاد المعلومات والخدمات إلى التطرف فى كلتا نهايتى متصل الأجور/المرتبات، بينما حدث النمو الأكبر فى الوظائف من خلال إبدال الوظائف الصناعية المحمية نقابيًا بوظائف منخفضة الأجور ومنخفضة المهارات، وفى الغالب فى الخدمات وبحماية اجتماعية أقل من الوظائف السابقة. وثمة قوة عمل عرضية من الوظائف المؤقتة متعددة المهام لبعض الوقت دون حماية تتكون فى المقام الأول من النساء والملونين والمهاجرين الذين يعمل كثير منهم فى ثلاث أو حتى أربع وظائف مؤقتة أو لبعض الوقت. بينما اضطر آخرون - الأقل حظًا - إلى اللجوء إلى الاقتصاد غير الرسمى من أجل البقاء.

وذلك، على خلاف ما يروج له الخطاب المهيمن المدعوم من الدولة والشركات، يؤكد أن تلك التغييرات الاقتصادية تؤدى بالنسبة لغالبية العمال وخريجى نظام التعليم إلى تبليدهم ونزع مهاراتهم deskilling وليس رفع مستوى مهاراتهم كما يدعى هذا الخطاب. وهذا التلبيد وقتل المهارة ضرورة لاقتصاد المعلومات والخدمات الذى لم يعد فى حاجة إلى كل هذه الأعداد من العمال ولا إلى مهاراتهم المتقدمة، باستثناء القلة التى تدير وتشغل النظام بالطبع.

فمن يتخلفون فى اقتصاد المعلومات لا يكون تخلفهم فى ميدان الاقتصاد ناتج عن تخلفهم السابق فى ميدان التعليم، وإنما فحسب لأن هذا الاقتصاد يتطلب ذلك.

فهو لا يحتاج إلا إلى أقلية صغيرة للغاية من الخريجين جيدى التعليم لشغل الوظائف المهنية والفنية والإدارية وغالبية كبرى فى أعمال الخدمات. والتعليم يستخدم لإنتاج هذه المكانات الاقتصادية المتباعدة، بما فى ذلك إنتاج الخريجين سيئى التعليم، من أجل حاجة هذا الاقتصاد. وفى ذلك تقول بولين ليبمان:

> **وسواء أكان ذلك مقصودًا أم لا، فإن منهج المهارات الأساسية للطلاب الأمريكيين الأفارقة وبعض الطلاب الأمريكيين اللاتينيين يتفق مع متطلبات التعليم الأساسى للأعمال الخدمية منخفضة الأجر ... فرغم التصور العام الذى يذهب إلى أن الاقتصاد الجديد يتطلب مهارات عالية من الجميع، ينبئ الواقع عن أن كثيرًا من الوظائف الخدمية منخفضة الأجر الجديدة تتطلب فقط مهارات القراءة والكتابة والحساب الأساسية والقدرة على إتباع التعليمات وتكييف الميول مع العمل. مما يؤكد ذلك أنه فى عام ١٩٩٨ طالب النادى التجارى بشيكاغو (منظمة تضم نخبة المدينة المالية والمشروعاتية والمدنية) بإعداد "موظفين أكثر مهارة من أى وقت سابق"، وعرف هؤلاء بأنهم أولئك الذين "يستطيعون، على أدنى تقدير، أن يقرءوا كتيبات التعليمات ويمارسوا الرياضيات الأساسية ويتواصلوا بشكل جيد". وإجراءات المحاسبية القاسية فى مدارس شيكاغو العامة تضمن أن الطلاب الذين يتخرجون من مدارسها يمتلكون الحد الأدنى من هذه المهارات. والمدارس عالية الجودة أساسية أيضًا لرغبة شيكاغو فى أن تكون مدينة عالمية، والمحاسبية والمعايير والإجراءات العددية للتحصيل هى لغة الجودة.**

فحاجة اقتصاد المعلومات والخدمات إلى قوة عمل متمايزة إلى هذا الحد، بل وحاجته إلى تبرير بطالة الغالبية الساحقة من خريجى التعليم العام، هى التى تشكل

أداء، أو بالأحرى بل تمايز أداء، المؤسسات التعليمية التى تعد كل من أبناء الأغنياء وأبناء الفقراء والأقليات. فالمؤسسات الأولى تتخصص بالطبع فى إعداد قادة ومديرى اقتصاد المعلومات والخدمات، بينما تعد الأخيرة مرتاديها إما للبطالة أو الوظائف المؤقتة أو لبعض الوقت أو العمل بتعاقد فى مقابل أجور منخفضة، وبالطبع مكانة اجتماعية منخفضة.

نفس هذا الموقف يتضح فى المجتمع المصرى فى السنوات الأخيرة التى تلت تخلى الدولة الصريح عن الاشتراكية أو رأسمالية الدولة، كما تجسد فى الخصخصة وبيع القطاع العام وفتح المؤسسات السياسية ومؤسسات إدارة الشأن العام لرجال الأعمال. فالخطاب المهيمن الذى تروج له الدولة وقطاع الشركات يرد البطالة إلى النظام التعليمى الذى فشل فى تزويد خريجيه بالمهارات والمعارف التى تمكنهم من العمل فى اقتصاد المعلومات، فى حين أن المتوفر من هذه الوظائف فى مصر -كما فى الولايات المتحدة وأى مجتمع آخر- لا يمكنه أن يسع إلا أقلية صغيرة للغاية من خريجى التعليم، فيما لا يبقى أمام الغالبية إلا العمل فى القطاع الخاص أو بالتعاقد. وفى ذلك يذهب مترجم الكتاب الحالى فى مؤلَف سابق له إلى أن هذا الخطاب يدعى أن:

> **البطالة سببها نظام التعليم الذى فشل فى تزويد خريجيه بما يلزمهم من مهارات تعزز وجودهم فى سوق العمل ... أما الاقتصاد وسوق العمل والنظام الحاكم بتفضيلاته السياسية والاقتصادية فلا تقع عليه أية مسئولية. فى حين أن الحقيقة هى أن البطالة فى أبسط معانيها وأكثرها مباشرية هى عدم وجود فرص عمل تقابل الأعداد الكبيرة من الخريجين. يغالى البعض فى ذلك فيذهبون إلى تصوير الأمر وكأن سوق العمل فى دولة كمصر يعج بفرص العمل، لكنها من النوع المتقدم الذى يحتاج إلى مهارات معقدة، وأن المعروض من العمالة - نتاج المؤسسة**

التعليمية - هو الذى تنقصه هذه المهارات، والحقيقة التى لا تحتاج إلى عناء إثبات هى أن سوق العمل فى مصر لا يحتاج إلا إلى مهارات من نوع: القوة العضلية والطاعة العمياء والصبر على الأذى النفسى والاستنزاف البدنى والعمل أطول الساعات بأتفه الأجور، لدى أصحاب عمل من نوع: محل بيع أحذية أو كشك بيع عطور أو مطعم مأكولات سريعة أو شركات نظافة أو شركات توزيع المنتجات فى الشوارع أو توصيلها إلى المنازل. معنى ذلك أن سوق العمل أو المعروض من الوظائف فى سوق العمل أقل تقدمًا من المعروض من المهارات فى هذا السوق، فالشاب الجامعى الذى يعمل عامل نظافة فى إحدى الشركات ستكون مهاراته بالتأكيد أرقى وأعقد من المهارات التى يتطلبها عمله ..[1].

مؤدى ذلك أن الليبرالية الجديدة بسعيها الدائم إلى دمج البشر فى "الخلاص الدنيوي" للسوق على حد تعبير ديفيد غابارد تنتج تأثيرات متماثلة فى كل المجتمعات، سواء فى العالم الأول أو العالم الثالث، طالما أنها سمحت بتسليم الدولة والفضاء العام لقطاع الشركات والمشروعات، لا فرق فى ذلك بين مصر والولايات المتحدة.

تلك عينة صغيرة لما يحويه هذا الكتاب من أفكار ونظرات قد تسهم فى إعادة النظر فى دور ووظيفة المدرسة مع التغيرات فى مجال الإنتاج، وتلك بعض التناظرات بين نتائج خطاب الفرض فى مجتمعات متباعدة تمامًا مثل مصر والولايات المتحدة الأمريكية. وهى نظرات وتناظرات يطول البحث فيها والغوص فى ثناياها. لكن ذلك قد يكون مصادرة على القارئ الذى من حقه أن يفهم النص ودلالاته من منظوره هو،

(١) مصطفى قاسم (٢٠٠٩)، التعليم والتحديث الثقافى: نقض الأسطورة، المؤسسة العربية للاستشارات العلمية وتنمية الموارد البشرية، القاهرة، ص ١٦.

وينزله على الواقع فى ضوء خبراته هو. لذلك سأترك للقارئ هذه المهمة، وفيما بقى من التقديم سوف أقدم ملخصاً من فقرة واحدة لكل فصل من فصول الكتاب. وللأمانة فإن هذا العرض لفصول الكتاب قد أخذه المترجم من محررَى الكتاب اللذين دأبا على التقديم لكل فصل بفقرة أو فقرتين. وفى العرض التالى، جمع المترجم هذه العروض المتناثرة على طول الكتاب وتدخل بينها فقط بالربط والتعليق الموجزين.

كتب هنرى جيرو تصديراً جامعًا للكتاب بعنوان "الديمقراطية والتمدرس وثقافة الخوف فيما بعد ١١ سبتمبر" يثبت فيه أن انتشار ثقافة الخوف فيما بعد ١١ سبتمبر، وربما من قبله، أفرزت شكلاً من "وطنية القطيع"، وطنية ترفض أى مناقشة أو خروج عن الصف، ولا تمنح تلك الصفة -الوطنية- إلا لمن يتفق بالكامل ودون أدنى اختلاف مع رؤى ونظرات أصحابها، وهى الوطنية التى كان باديًا أن الرئيس الأمريكى بوش وإدارته يتبنونها ويروجون لها، والتى ترجمت خارجيًا -وداخليًا أيضًا كما توضح معالجات الكتاب الحالى - فى مبدأ الرئيس الأمريكى "من ليس معى فهو ضدى". يشرح جيرو فى هذا التصدير جوانب الفرض التى تتخلل التربية، خاصة فى علاقتها، أو بالأحرى تبعيتها، لقوة الشركات من ناحية، والعسكرة المتنامية من جانب الدولة من ناحية أخرى. غير أن الهاجس الأساسى الذى يراود جيرو هو إن تلك العسكرة التى أخذت تجتاح المجتمع المدنى الأمريكى، وليس مؤسسات التربية فحسب، تنبئ عن نتائج كارثية على وعد الديمقراطية ذاته، ذلك أن العسكرة المتزايدة للمجتمع تقوى الاتجاهات الأبوية وتخنق المعارضة وترفض الصوت الآخر.

فى كتابه "إعاقة الديمقراطية" يكتب نعوم تشومسكى أنه من منظور أصحاب السلطة تمثل "الجماهير الوضيعة الأهداف الحقيقية لوسائل الإعلام ونظام التعليم العام الذى يهيئ للطاعة والتدريب على المهارات المطلوبة، بما فى ذلك مهارات تكرار الشعارات الوطنية فى مناسبات معينة"[١] إن حضور نعوم تشومسكى الطويل والبارز

(١) Noam Chomsky, Deterring Democracy (New York: Hill and Wang, 1991), 370.

فى ميدان التربية، الذى نتج عن أعماله الثورية فى النظرية اللغوية، قد توسع مؤخراً نتيجة لنشر عدد من الأعمال تجمع معاً رؤيته للوظائف الاجتماعية والسياسية للتربية. والكتابان "تشومسكى حول نقض التربية"(١) و"تشومسكى حول الديمقراطية والتربية"(٢) يمثلان تلك الأعمال، رغم أن نظراته حول سياسة التعليم تنتشر فى عدد لا يحصى من كتبه. أما الكتاب الذى قام بتحريره بعنوان "الحرب الباردة والجامعة"، فقد ركز على العلاقة بين سيطرة الشركات corporatization والعسكرة militarization فى التعليم العالى، أى إخضاعه لكل من الشركات والعسكر. وفى فصله فى الكتاب الحالى المعنون "وظائف المدارس: طرق السيطرة الماكرة والفجة" الذى أعيدت طباعته من كتابه "فهم القوة: تشومسكى الذى لا غنى عنه"(٣) يؤكد تشومسكى على الأدوار الحالية التى يؤديها التعليم باعتباره أداة لسيطرة الدولة والشركات، وذلك من خلال إنتاج وتأطير وتقطير المعرفة وتشجيع علاقات اجتماعية هى فى الأساس علاقات سلطوية ومعادية للديمقراطية. وفى هذا الفصل يشرح تشومسكى ببراعة وإحكام الدور الذى تؤديه المدارس فى تعليم التبعية والانقياد وعدم المشاركة السياسية، فضلاً عن علاقة التعليم العالى بنظام البنتاجون. كما تؤكد مناقشة تشومسكى على العلاقة بين بنية الاقتصاد ووظيفة المدارس. وفى هذا التحليل لسياسات التعليم يؤكد تشومسكى النظرات التى سبق أن خَلُص أليها منظرو إعادة الإنتاج الأوائل (مثل بولز وجينتز وبورديو وألتوسير وغيرهم) ومنظرو المنهج الخفى الذين يُشَرِحون العلاقات بين البنية الاقتصادية

(١) Noam Chomsky, *Chomsky on Mis-Education* (Landhan: Md.: Rowman & Little-field, 1999).

(٢) Carlos Otero, *Chomsky on Democracy and Education* (New York: Routledge, 2002).

(٣) Noam Chomsky, *Understanding Power: the Indispensable Chomsky* (New York: New Press, 2002)

والوظائف الاقتصادية والثقافية والاجتماعية للتعليم. إن تحليل تشومسكي الواضح يؤكد على الوظيفة السياسية للمدارس بوصفها أدوات للصراع الطبقى وإدارة المعرفة والميول، بما يجعل الناس نافعين للمصالح المادية والأيديولوجية لأصحاب السلطة ومذعنين لها.

ومما تجدر الإشارة إليه قبل أن نستكمل عرض بقية فصول الكتاب، أن فصل نعوم تشومسكى هو الفصل الوحيد فى هذا الكتاب الذى لم يكتب خصيصًا للكتاب الحالى. فمما يعطى الكتاب الحالى قوة أكثر أنه ليس من ذلك النوع من الكتب المحررة التى يقوم فيها المحرر أو المحررون فحسب بتجميع وإعادة طبع عدد من المقالات أو الدراسات المتعلقة بموضوع معين التى سبق نشرها بالفعل فى أماكن أخرى فى كتاب واحد. فكل فصول الكتاب الحالى، باستثناء فصل تشومسكى، كتبت خصيصًا كمساهمة فى الكتاب الحالى. وذلك بالطبع يعطى للكتاب قوة ناتجة عن تماسك ووحدة وتركيز المعالجة، أو قل قصدية واستهداف المعالجة.

وفى فصلهما "أنهار من نار" يوضح كينيث سولتمان وربين تروث جودمان طرق الانخراط المباشر للصناعات البترولية والكيماوية فى إنتاج مناهج المدارس بما يعزز أجندة الشركات، وذلك من خلال تصوير الطبيعة والعمل والفراغ والحياة ذاتها كما لو أنها تخضع لإدارة الشركات. يبرز الفصل الغياب المقصود فى مثل هذه المناهج للدور المباشر الذى تلعبه هذه الشركات فى العسكرة العالمية والتدخلات الخارجية المدمرة بقيادة الولايات المتحدة والتدمير البيئى. ومن خلال التركيز على أمثلة لبعض الصناعات البترولية والكيماوية وأفعالها فى كولومبيا، يوسع هذا الفصل نقد السياسة الأكاديمية والعامة للتتجير المدرسى school commercialization أبعد من التركيز التقليدى لهذا النقد على الطرق التى من خلالها تُحوِل شركات الإعلان الطلاب إلى جمهور أسير، وذلك لتوضيح أن قطاع الشركات يدرك أهمية الفصل المدرسى والمنهج فى تعزيز أجندة الشركات. وإلى جانب ذلك يكشف هذا الفصل كيف يتم انتحال بعض الطرق التعليمية التقدمية دعمًا لأجندة الليبرالية الجديدة الدافعة للعنف.

وعلى منوال الفصلين السابقين يؤكد ديفيد غابارد فى فصله الرائع "التربية فرض! مركزية التمدرس الإلزامى فى مجتمعات السوق" على أن فكرة التربية كفرض، أى باعتبارها شكلاً من الجبر والفرض، تزودنا بأكثر من مجرد استعارة تمسك بجوهر تلك الفترة الأخيرة من الإصلاح التعليمى. يتفرد هذا الفصل بكونه يعتمد على مجالين من مجالات التخصص الأكاديمى فى مجال اللاهوت (المبادئ الكنسية ecclesiology والطقوس الدينية liturgy) لتحليل كيف تعمل برامج التعليم الإلزامى التى ترعاها الدولة كطقوس تساعد الدولة فى أداء ما تعتبره مهمتها الأساسية: فرض السوق. فالدولة كما يدفع غابارد تصور نفسها وكأنها ملزمة أخلاقيًا بـ"المساعدة" فى تلبية "حاجة" الجميع العمومية لأن "يُدمَجوا" فى الخلاص الدنيوى للسوق. لكن فى الواقع لا يقوم هذا الإدماج على حاجة عمومية، بل هو إلزامى فحسب، وبالتالى لا بد من فرضه.

وتحت عنوان "الضبط الصارم: السياسة التعليمية بشيكاغو وتنظيم الشباب السود واللاتينيين" تتناول بولين ليبمان عبر دراسة نقدية محكمة العلاقة بين العالمى والمحلى وتركز على الطبيعة العرقية لخطاب الضبط، كما يطبق فى أوضح صوره فى السياسات والتطبيقات التعليمية بشيكاغو. واعتماداً على أعمال نظرية المدينة العالمية global city theory يعير هذا الفصل انتباهاً متفرداً فى هذا الكتاب للطرق التى من خلالها يخلق منطق ولغة الضبط، بما هما تعبيراً عن تصورات الليبرالية الجديدة، حساً عامًا لا يستسيغ فحسب، بل يقتضى السياسات القائمة على الفرض، مثل الاختبارات المقننة والمدارس العامة العسكرية والمناهج ذات المخطوطات، التى تتحدى أشكال التمدرس الديمقراطية الأكثر نقدية، وهو ما يؤدى بدوره إلى تأبيد تميز البيض. يوضح الفصل فضلاً عن ذلك طرق توظيف خطاب الفرض العنصرى فى الصراعات على الموارد الحضرية وإعادة صنع الحيز الحضرى فى عصر العولمة.

وبعد تحليل ليبمان لسياسات المدارس القائمة على الفرض فى المدينة العالمية يركز فصل بيبى ليزتينا "فى مواجهة القهر: أصوات الشباب من المقدمة" على أصوات

الشباب الذين هم ضحايا تلك السياسات التعليمية والاجتماعية القائمة على الضبط، وكذلك تَكَثُّف العسكرة المحلية الذى يقع فى الغالب على رؤوس الشباب الملونين. وكما توضح مناقشة ليزتينا ودراسته الإثنوغرافية فإن المدارس تعد أحد مكونات الاستجابة غير الكافية للمشكلات التى تواجه الشباب: المشكلات التى تأتى فى الأساس من اقتصاد تهيمن عليه الشركات، والفقر الذى تفرضه الشركات، إلى جانب العنف والعنصرية واليأس. على أن جزءًا مما يجعل فصل ليزتينا مميزًا فى الكتاب هو تركيزه على نظرات وخبرات الطلاب، وهم الأكثر تأثرًا بالتربية كفرض.

وتحت عنوان "الحرية للبعض والضبط للآخرين: بنية الجور فى التعليم" تقارن إنورا براون مدرسة قائمة على الضبط، غالبية طلابها من أبناء الطبقة العاملة غير البيض، مع مدرسة مجاورة غالبية طلابها من أبناء الطبقة المهنية البيض، وذلك من أجل توضيح الارتباطات الوثيقة بين ممكنات التوظف فى الاقتصاد وأشكال الجور العرقية التى يعاد إنتاجها من خلال التمدرس العام. ومن خلال البناء على أعمال منظرى إعادة الإنتاج عبر التمدرس مثل بورديو وألتوسير وأوكس وغيرهم يتناول هذا الفصل الارتباطات بين تغيرات اقتصادية مثل ما بعد التصنيع والأتمتة وتغيرات سياسية مثل العسكرة المحلية من جانب، والمطالبات بالخصخصة وبأنوا ع معينة من التمدرس لقطاعات مختلفة من السكان من جانب آخر. يحتل هذا الفصل مكانة خاصة فى هذا الكتاب نظرًا لمقاربته المقارنة واهتمامه الواضح بالعلاقات بين المطالب البنائية للاقتصاد والدولة وضرورات التمدرس العام، وتركيزه على الامتيازات الطبقية والعرقية وكذلك الإخضاع وظهور الأتمتة كعناصر أساسية للتحليل الوافى للتعليم كشكل من أشكال الفرض.

وبعد فصل بيبى ليزتينا الذى يدرك فيه الشباب المقهورون فى مدينة ماساشوستس أن قهرهم هو الميراث التاريخى للمشروع الاستعمارى الذى اسِتُهل بالتخلص من الأمريكيين الأصليين، وبعد فصل إنورا براون الذى رسم صورة لإنتاج الامتيازات العرقية والطبقية من خلال الاقتصاد وثقافة النظم المدرسية المختلفة، يأتى

فصل دون ترنت جاكويز "الهيمنة القوية: تحذير وحل من شعب هندي" ليقدم مناقشة لطرق استمرار مشروع الإبادة الجماعية الاستعمارى إلى اليوم من خلال محاولات الحكومة الفيدرالية سرقة أراضى السكان الأصليين لصالح الشركات ومن أجل إدامة الفقر واستمرار النزعات الثقافية المدمرة. إن فصل جاكويز يبرز على نحو متفرد استمرار ميراث العنف الاستعمارى، وكذلك طرق عمل العسكرة وسيطرة الشركات فى تلك السياقات الريفية المحددة.

وفى الفصل الثامن يناقش مارفن بيرلويتز وناتان لونج تاريخ ودور برنامج فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار JROTC كأحد الطرق الرئيسية لتجنيد الطلاب فى الخدمة العسكرية. يبرز الفصل أنه بالإضافة إلى التجنيد فى الجيش تؤدى هذه البرامج وظائف تربوية لتعليم الطلاب القيم والميول التى لها قيمة اجتماعية. وفضلاً عن ذلك يتناول الفصل الديناميات العرقية لبرامج فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار، ذلك أن هذه البرامج تتغذى فى الأساس على الشباب الملونين لخلق جيش هرمى عرقياً، جيش يضع الجنود الملونين فى مخاطر أكبر، فى الغالب من خلال إعدادهم لخوض الحروب من أجل قادة بيض وضد أمم أخرى ملونة.

وتحت عنوان "التربية من أجل الحرب فى إسرائيل: إعداد الأطفال لقبول الحرب كمكون طبيعى فى الحياة" تشرح هاجث جور مدى سيطرة النزعة العسكرية على التعليم الإسرائيلى. هذا الفصل هو الوحيد فى الكتاب الذى لا يركز على التمدرس فى سياق الولايات المتحدة. ومع ذلك فإن فصل جور يرتبط مباشرة بالولايات المتحدة بعدة طرق. أولاً تعد تحريفات التاريخ والأبعاد الأيديولوجية للمنهج الذى يحتفل بالقوة والعنف ويؤطر السلام والتفاهم كتصورات مستحيلة، تعد مألوفة للغاية فى المدارس والثقافة الأمريكية. ثانيًا توضح جور كيف تسهم المحرقة بوصفها حادثة جماعية تشكل الهوية، وكذلك بوصفها أيديولوجيا، فى تكوين الشكل العسكرى للتمدرس فى إسرائيل. وبالنسبة لأى قارئ فى الولايات المتحدة فإن أحداث ١١ سبتمبر، ورغم أنها لا تشبه المحرقة فى شىء، يمكن فهمهما من حيث تطبيعها هى الأخرى للعنف وتوفير الأساس

لأيديولوجيات العدوان المبرر من أجل البقاء. وكما تكشف جور فى آخر فصلها فإن هجوم الولايات المتحدة على أفغانستان يحمل نفس منطق الانقضاض الإسرائيلى على المدنيين الفلسطينيين. ثالثًا تكشف جور توازيًا مهمًا فيما يتعلق بنظرتها إلى أن الاستخدامات الأيديولوجية للمحرقة تتستر على مصالح عالمية، مثل صناعة السلاح التى تلعب دورًا رئيسيًا فى الصراع الإسرائيلى الفلسطينى. ويمكن قول الشيء نفسه عن الحرب الأمريكية على الإرهاب التى تتستر على مصالح عالمية، مثل النفط الذى يلعب دورًا رئيسيًا فى العدوان الأمريكى المكثف. وأخيرًا تعد إسرائيل دولة تابعة للولايات المتحدة تمكن الأخيرة من إبراز القوة فى المنطقة. والنزعة العسكرية المفرطة فى إسرائيل ترجع للسخاء العسكرى والمالى الأمريكى. فإسرائيل هى أكبر متلقى للمساعدات الاقتصادية الأمريكية -ثلاثة بلايين دولار سنوياً. حتى أصبحت إسرائيل قناة لتسليح الدول فى مختلف أرجاء العالم، بما فى ذلك نظام جنوب أفريقيا العنصرى، بالأسلحة الأمريكية.

أما جولى ويبر فتركز فى فصل "تأملات ما بعد كولمباين" على إعادة صياغة السياسة الخارجية الأمريكية، الذى جاء فى شكل توسيع إدارة بوش لمذهب القوة العسكرية، على اعتبار أن ذلك يسهم فى ثقافة العنف الأوسع التى تعد الأساس خلف العنف والأمن المدرسيين فى الولايات المتحدة. تشرح ويبر كيف أن الاستجابة الفردية غالبًا والقائمة على اللاتسامح إزاء العنف المدرسى تفشل فى التعامل مع أسباب هذا العنف، وأن تلك الاستجابة تعد جزءًا من محاولة أوسع لسحق أشكال التمدرس الأكثر ديمقراطية التى من شأنها أن تتفادى هذا العنف. وعلى حد تعبير ويبر فإن "البيئة التى تحدث فيها التربية (والتى لا تقتصر بحال على موقع المدرسة بل تعكس امتصاص المدرسة فى البيئة السياسية التى تستضيفها) تحدد الطرق التى يمكن أن تتخذها مقاومة الطلاب. ومن الأشياء الرئيسية لفهم هذا التأثير على المدرسة هو تأثير السياسة الخارجية والعسكرة على السكان الأهليين".

"من أجل مساعدة المعلمين فى التدريس وفقا للمعايير طورنا أطر المنهج وبرامج الدراسة وزودنا نماذج المنهج بدروس يومية. وتلك المواد تقوم على نماذج تدريبية صممها "مجلس القيادة العسكرية والأركان العامة"... إننا آخذون فى بناء علاقات تعاون مع القطاع الخاص" .. هذا ما جاء على لسان بول فالاس مدير عام مدارس شيكاغو العامة سابقًا ومدير عام مدارس فيلادلفيا العامة حالياً، بما يبرز العسكرة المتنامية للمدارس وخضوعها للعسكر وأصحاب الشركات. يبرز فصل شيلا لاندرز ماكرين "سَجن العقول: عنف التربية الليبرالية الجديدة" كيف يشكل خطاب الفرض نقاشات الإصلاح التعليمي، كما فى استيلاء ولاية بنسلفانيا على مدارس فيلادلفيا، وما تلا ذلك من تنازل عنها لشركات إدارة غير ربحية خاصة مثل شركة إديسون للمدارس. يبرز فصل ماكرين علاقة خطاب الضبط بإصلاحات الخصخصة التى تنقض على القطاع العام. يتمحور الفصل على نحو متفرد حول الشباب والمعلمين والمديرين الذين قاوموا الدولة وقطاع الشركات فى فيلادلفيا، والمعلمين والمديرين الذى يعارضون هذا الشكل من أشكال سيطرة الشركات الذى يسترشد بلغة ومنطق يقومان على الضبط.

وتحت عنوان "السيطرة: مرض الهوية والفاعلية فى الثقافة الافتراسية" يناقش رون سكاب ما أسماه بيتر ماكلارين "الثقافة الافتراسية" باعتبارها ثمرة للاقتصاد الرأسمالى وتهديداً للتربية الديمقراطية. يوضح سكاب كيف تتخلل الثقافة الافتراسية السياسة التعليمية مما يؤدى إلى تكاثر القيم العسكرية والداعمة للشركات. ويقرر سكاب أنه بإمكان المعلمين والمديرين أن يتحدوا الثقافة الافتراسية من مواقعهم من خلال ممارسة التربية النقدية. يشير هذا التحليل إلى الحاجة إلى إعادة صياغة التربية الديمقراطية بحيث ترتبط مع الحركات الأوسع التى تتحدى الاقتصاد الرأسمالى باعتباره أصل الثقافة الافتراسية.

أما فصل ساندرا جاكسون حول خطاب الإصلاح فيقدم رؤية واسعة للاستعارات المتقاطعة للحرب والمشروعات فى تشكيلها لجدل الإصلاح التعليمى فى السياق

الأمريكى. تركز مناقشة ساندرا على التقرير المَعلم "أمة فى خطر" مقارنة بوريثه تقرير "لن يُترك طفل يتخلف" الصادر فى عهد إدارة بوش. يوضح هذا الفصل مغزى اللغة كشكل من أشكال السياسة الثقافية فى الصراعات العامة حول الإصلاح التعليمى. كما يتفرد الفصل أيضًا فى تناوله للردة المحافظة ضد التعددية الثقافية فى علاقتها بتقارير الإصلاح القائمة على الفرض. تضع ساندرا هذه التقارير فى إطار الصراعات المادية والثقافية المحلية والعالمية، وتبرز سؤال العدالة الأساسى الذى تمحوه هذه التقارير استراتيجيًا من الاعتبار فى مناقشتها للإصلاح التعليمى.

يتفرد فصل كيفين فينسون وواين روس "سيطرة الصور: سلطة الاختبار عالى الرهان" فى الكتاب الحالى ليس فقط بتركيزه على نشأة هذا النوع من الاختبار القائم على الفرض فى المدارس، ولكن أيضًا بشرح هذه الظاهرة فى علاقتها بالعرض الذى تنتجه وسائل الإعلام الواقعة تحت سيطرة الشركات. واعتمادًا على أعمال ديبورد وبودريلارد وفوكو وتقاليد التربية النقدية يوضح الفصل الارتباطات التى لا تنفصم بين سياسة المدارس القائمة على الفرض والسياسة الثقافية لوسائل الإعلام.

يتناول روبين تروث جودمان ثقافة الشرطى العالمى من خلال مناقشة كيف يسهم الأدب البوليسى الشعبى فى تعليم المواطنين حول معنى الشرطة. يتناول هذا الفصل التقاطع بين تزايد أعمال الشرطة العالمية والانقضاض الأيديولوجى على الحيز العام عموماً، بما فى ذلك التعليم العام. يحلل هذا الفصل على نحو متفرد الدعم الذى تقدمه خطابات النسوية الشعبية لنجاحات النزعة الشركاتية والعسكرية الآخذة فى التوسع. كما يوضح أيضًا كيف يمكن للأدب الشعبى أن يتورط فى تعليم الناس الموافقة على السياسات الرأسمالية العالمية التى تقوض المؤسسات الديمقراطية.

ويركز فصل أوجين بروفنزو "الحرب الفاضلة: المحاكاة وعسكرة اللعب" على الدور التربوى لألعاب الفيديو العنيفة فى تعليم الصغار والكبار أن يفكروا فى الحرب على أنها ممتعة ومثيرة، وذلك من خلال تحويل العنف الحقيقى إلى مشهد، وهو ما يُخرِج الاعتبارات الأخلاقية والسياسية من الصورة. وبروفينزو، شأنه شأن فينسون

وروس، يهتم بتعقدات تحدى العنف التصويرى فى شكل عرض. يقدم الفصل رؤية تاريخية ليس فقط للكيفية التى نجحت بها صناعة الألعاب فى تسليع صور سلطة الدولة، بل أيضاً كيف استخدم الجيش ألعاب الفيديو العنيفة فى التدريب. وفى النهاية يطالب بروفينزو بمناقشة مكانة هذه التكنولوجيا فى مجتمع ديمقراطى.

وفى الفصل السابع عشر يشرح ويليام رينولدز وديفيد غابارد التهديدات التى تفرض على المجتمع والتمدرس من خلال إعادة كتابة الذاكرة العامة عن طريق الأهداف التربوية الثقافية لأفلام هوليود. يبدأ الفصل بعرض موجز لجهود الحكومة لاستخدام الدعاية للمساعدة على التغلب على عقدة فيتنام، تلك الجهود التى أفضت إلى اللقاء الأخير بين كارل روف المستشار الأول للرئيس بوش ومسئولى هوليود فى أكتوبر ٢٠٠١. ثم يستخدم الفصل بعد ذلك أحد أفلام فيتنام "كنا جنوداً" الذى أنتج عام ٢٠٠٢ ليشرح كيف أن إعادة كتابة الذاكرة العامة لهذه الحرب تنخرط بفاعلية فى إنتاج أشكال من التربية تؤيد تمديد سلطة الشركات والحرب على الإرهاب. ويختتم الفصل بالتشديد على أن المربين أيضاً فى مواقع قوة تمكنهم من إنتاج الذاكرة العامة بطرق ديمقراطية. وهذا الفصل متفرد فى الكتاب وذلك بسبب عنايته بالذاكرة العامة والتربية من خلال الأفلام فى علاقتهما بالعسكرة وسيطرة الشركات.

وفيما يفحص الفصل السابق العلاقات بين الإنتاج الثقافى وبناء الموافقة على الحرب على الإرهاب، خاصة فيما يتعلق بالأفلام، يولى مايكل آبل عناية خاصة لمعايشة الأمريكيين الفرديين، بما فيهم آبل نفسه، لأحداث الحادى عشر من سبتمبر. وهذا الفصل له أهمية خاصة فى إبراز السبب وراء ازدهار أشكال خطيرة من المواطنة ودور المعلمين فى التعامل مع ١١ سبتمبر.

وفى الفصل الأخير، وتحت عنوان "التربية الثورية النقدية عند نقطة الصفر: تجديد اليسار التربوى بعد ١١ سبتمبر"، يقدم بيتر ماكلارين ورامن فارهماندبور الشرح الأوفى فى الكتاب للتربية النقدية/الثورية من أجل تحدى التربية كفرض. ومن خلال توسيع المناقشة التى وردت فى مقدمة الكتاب يتوسع هذا الفصل فى طرق

مقاومة العولمة الشركاتية. وبعد ذلك ينتقد أشكال التربية التى يتبناها اليمين القائمة على الوطنية الشوفينية بعد أحداث ١١ سبتمبر، ثم يبنى على تربية الإرهاب لكوماموتو من أجل تقديم مقترحات عينية وعملية لبناء تربية نقدية لعلاج القضايا التى برزت فيما بعد ١١ سبتمبر.

وبعد، فقد تعددت فى الكتاب منظورات مقاربة موضوعه الرئيسي: "التربية كفرض". فهناك من يعالج الموضوع من منظور السياسات والإصلاحات التعليمية، وهناك من يعالجه من منظور السينما، وهناك من يعالجه من منظور الأدب، أو من منظور ألعاب الفيديو، أو من منظور الثقافة، أو من منظور علوم اللاهوت، إلخ. كل ذلك فى إطار الفكرة العامة للكتاب وهى عسكرة نظم التربية وإخضاعها المتزايد لسيطرة الشركات، بمعنى إخضاعها لاحتياجات الشركات ومطالب الدولة.

وهذا التعدد فى المعالجة ورائه بالطبع تعدد فى اهتمامات وتخصصات المؤلفين. فمن عالم اللغويات إلى أستاذ السياسة، ومن المتخصص فى الدراسات النسوية إلى أستاذ الدراسات الثقافية، ومن المتخصص فى ألعاب الفيديو إلى أساتذة التربية على اختلاف تخصصاتهم واهتماماتهم. ورغم تباين التخصصات العامة لكل هؤلاء إلا أنهم جميعًا يعالجون نفس الموضوع كل من زاويته ومحور اهتمامه. كما يتميز الكتاب فضلاً ذلك بالأسماء الكبيرة والهامات العالية فى مجال العلم النقدى عمومًا التى ساهمت فيه. فهناك نعوم تشومسكى الغنى عن التعريف، وهناك هنرى جيرو ومايكل آبل من أعلام التربية النقدية فى الوقت الراهن، وكثيرون غيرهم.

وفضلاً عما سبق فإن المترجم يرى أن ثمة قاعدة تحكم، أو يجب أن تحكم، اختيار أى كتاب أجنبى للترجمة، وهى أن يجيب الكتاب عن أسئلة نحن -فى الثقافة المتلقية- فى حاجة إلى طرح جديد حولها. وفى هذا الصدد أزعم أن الكتاب الحالى يعد خطوة كبيرة فى طريق بناء نظرية تربط المنظومات الاجتماعية الثلاث: السياسة والتربية والثقافة، وتحديداً من حيث نوعية الفرز الثقافى للتربية فى علاقته بالنظم السياسية الحاكمة للمجتمع والتربية. مؤدى هذه النظرية أن ممكنات الإنتاج الثقافى

للمؤسسة التعليمية، من حيث ديمقراطيته أو لاديمقراطيته وحداثيته أو لاحداثيته، تتحدد فى المقام الأول عن طريق السياسة المهيمنة وأجندة السياسيين وأصحاب القوة واختياراتهم وأفعالهم. فحتى فى مجتمعات عريقة فى الديمقراطية، كالولايات المتحدة، أدى تحول قصير زمنيًا فى توجهات النخبة السياسية إلى اتجاهات غير ديمقراطية إلى تأثير طاغ على المدخلات والعمليات، وبالتأكيد المخرجات الثقافية للمؤسسة التعليمية وكافة المؤسسات المربية الأخرى. ذلك أن اليمين الجديد أو الليبرالية الجديدة صاحبة الكلمة فى السياسة الأمريكية فى الوقت الحاضر بعسكرتها المتزايدة للمجتمع المدنى، وتغول أجهزة الأمن عليه، وسيطرة الشركات على الفضاء العام، وما أدى إليه ذلك من تقلص الحيزات العامة الديمقراطية، والشمولية البادية فى تناول الشأن العام وخنق المعارضة والحق فى الاختلاف، وكل ذلك بالطبع اختيار سياسى من جانب النخبة الحاكمة بتحالفاتها مع الشركات متعدية الحدود، أشاعت فى المجتمع روحًا - أى ثقافة- سلطوية شمولية إقصائية أثرت بالطبع على كل مؤسسات المجتمع ونظمه، بما فى ذلك التربية سواء الشكلية أو غير الشكلية.

وعلى المستوى العربى يتواتر فى الوقت الراهن جدلاً مكتومًا حول الدور الممكن للمؤسسة التعليمية فى إحداث التغيير الاجتماعى والسياسى والاقتصادى، خاصة التحديث الثقافى. وقد تزايد هذا الجدل مؤخرًا مع ارتفاع الأصوات المطالبة بالإصلاح السياسى والتحول الديمقراطى، مع اتضاح انسداد أفق هذا الإصلاح وذلك التحول. إذ غالبًا ما يَرِد التعليم والمؤسسة التعليمية فى هذا الجدل كأحد الآليات المساعدة فى إنجاز التحول الثقافى، وبالتالى السياسى، بما لها من دور فى تشكيل عقليات مرتاديها وبلورة رؤاهم للعالم. فهناك من يراهنون على قدرة المدرسة على فك الحصار واختراق حجب التقليدية الثقافية بخلق ونشر وتأصيل ثقافة حداثية تفترق عن الثقافة الراهنة بكل ما تكرسه من سلبية واستسلام وخضوع وخلاص فردى ونهم استهلاكى وخرافية فى التفكير. يستند أصحاب هذا الرأى، حتى وإن لم يصرحوا بذلك أو يعوه، إلى نظرية الثقافة السياسية التى طورها ألموند وفيربا، والتى تجعل من ثقافة الشعوب

الحاكم لمكنات التغير السياسى لهذه الشعوب، بجعلها تبلور الثقافة الديمقراطية شرطًا لازمًا وضروريًا للتحول إلى الديمقراطية السياسية، أى الديمقراطية كنظام حكم. وبعيداً عما يؤخذ على هذه النظرية من مآخذ كثيرة وما يوجه إليها من انتقادات عديدة، وفى مقابل أصحاب الرهان السابق، يثبت الكتاب الحالى أن أصحاب القوة والممسكين بزمام المجتمعات سياسيًا واقتصاديًا قادرون حتى على اغتيال حداثية المؤسسات التعليمية فى أعرق دول العالم حداثة. فما بالكم بمجتمعات فعل الميراث الاستعمارى ثم الاستبدادى بثقافتها الأفاعيل، وشوه الاستبداد "الحداثى" فى ثقافتها ما شوه!

وبعد فإن هذا الكتاب من المؤكد أنه سيعوض نقصًا ويملأ فجوة فى المكتبة العربية، وخاصة فى التخصصات الأكاديمية التى كتب فيها، وهى العلوم التربوية والدراسات الثقافية والعلوم الاجتماعية بوجه عام. فالمقاربة النقدية للكتاب فى معالجة قضايا التعليم والتربية والثقافة من شأنها أن تلحلح المقاربات والمعالجات المهيمنة على مجال الدراسات التربوية والتعليمية فى الوطن العربى، تلك المقاربات التى تدرس الظاهرة التربوية والتعليمية، وحتى الثقافية، منزوعة من سياقها المجتمعى، بما فيه من سياسة واجتماع واقتصاد وثقافة، وما يهيمن عليه ويوجهه من نخب ومصالح. والمتتبع لحركة العلم التربوى والاجتماعى فى الوطن العربى يلمس الحاجة الماسة إلى نشر المقاربات النقدية. فثمة ندرة حقيقية فى الدراسات والمقاربات النقدية فى مجال التربية والدراسات الثقافية فى المكتبة العربية، وهناك حاجة ماسة إليها من جانب المتخصص والأكاديمى العربى، فضلا عن القارئ والمثقف العام.

والله من وراء القصد

المترجم

تصدير

الديمقراطية والتمدرس
وثقافة الخوف فيما بعد ١١ سبتمبر

هنرى جيرو(*)

لكونه رئيساً فى زمن الحرب، يتمتع الرئيس جورج دبليو بوش بتقديرات مرتفعة لدرجة لا تصدق من الشعبية، لكن تحت تلك التقديرات المتضخمة، وتحت دعوة الرئيس إلى التوحد، ثمة مناشدة مزعجة إلى أشكال من الجماعة والوطنية تقوم على أحكام أخلاقية مطلقة، يعمل فيها خطاب الشر والإرهاب والأمن على خنق المعارضة وإفراغ الديمقراطية من مضمونها ونفى السياسة "إلى الحيز الذى يشغله أولئك الساخطين على الغرب والمطرودين من جانبه"(١). ودون خزى من الترمم على حمى زمن

(*) * هنرى جيرو Henry A. Giroux من أعلام التربية النقدية فى الوقت الراهن، وهو يشغل وظيفة أستاذ كرسى فى كلية واتربيرى Waterbury بجامعة بنسلفانيا ومدير منتدى واتربيرى للدراسات التربوية والثقافية بجامعة بنسلفانيا. له كتب وأبحاث كثيرة فى التربية النقدية من أحدثها: Channel Surfing: Racism, the Media and the Destruction of Today's Youth (St. Martin's Press, 1997), Pedagogy and the Politics of Hope (Wesrview/HarperCollins, 1997), The Mouse that Roared: Disney and the End of Innocence (Rowman &c Littlefield, 1999), Stealing Innocence: Youth, Corporate Power, and the Politics of Culture (St. Martin's Press, 2000), Impure Acts: the Practical Politics of Cultural Studies (Routledge, 2000), Public Spaces/Private Lives: Beyond the Culture of Cynicism (Rowman & Littlefield, 2001), Breaking Into the Movies: Film and the Culture of Politics (Basil Blackwell, 2002), and The Abandoned Generation (Palgrave, 2003).

الطوارئ واقتصاد الخوف، شرع الرئيس بوش وإدارته فى إعادة كتابة خطاب الجماعة community بحيث يفصلونه عن عالم السياسة والديمقراطية. وهم بذلك، أى بوش وأتباعه، لا يعملون فحسب على تكثيف قوتهم السياسية، بل يدفعون أيضًا سياسات فجة وإجراءات تقليصية تقلل الخدمات الأساسية والمساعدات العامة للفقراء، وتقدم لأطفال المدارس اختبارات أكثر تقنينًا، دون أن تقدم لهم رعاية صحية ملائمة أو غذاءً كافيًا، وتضحى بالديمقراطية الأمريكية والاستقلال الفردى من أجل وعد الأمن الداخلى، فى الوقت الذى يوزعون فيه الموارد ويخفضون الضرائب لصالح لأغنياء من خلال إنقاذ شركات الطيران وخفض الضرائب بأثر رجعى. وفى ظل النزعة القومية المقاتلة والعسكرة تُبنى الجماعة "من خلال المخاوف المشتركة، وليس من خلال المسئوليات المشتركة"، وترتكز أقوى المناشدات إلى الخطاب المدنى، فى المقام الأول، على الدفاع العسكرى والنظام المدنى والأمن الداخل (٢). وفى ضوء العسكرة المتزايدة للفضاء العام، وانفصال الأمن عن الحرية، وتآكل الحريات المدنية الأساسية يأتى كتاب "التربية كفرض: عسكرة المدارس وإخضاعها للشركات" عند مفصل حرج للمربين وغيرهم من المهتمين بمصير الديمقراطية فيما بعد ١١ سبتمبر.

وفى إطار لغة وثقافة المخاوف المشتركة، تصبح الوطنية مرادفًا للقبول غير الناقد للسلطة الحكومية، وخطابًا "يشجع الجهل بإبطاله للسياسة الحقيقية والتاريخ الحقيقى والقضايا الأخلاقية" (٣). ومناشدة الجماعة تبدو جارفة فى الولايات المتحدة، المغموسة كما هى اليوم فى أخلاق الليبرالية الجديدة باستخفافها الكامل بالحياة العامة والحيزات العامة الديمقراطية والمسئولية الأخلاقية، وفى مثل هذه الأوقات العصيبة تثمر أية مناشدة للجماعة، حتى وإن كان المفهوم يُستدعى طلبًا "لولاء غير مشروط، ويعامل كل شيء ينقصه مثل هذا الولاء بوصفه خيانة لا تغتفر" (٤). لكن كيف يمكن أن يتم احتضان أية فكرة حول الجماعة الديمقراطية أو المواطنة الناقدة من خلال لغة الوطنية المغشوشة التى تثير حفيظتها المعارضة فى الشوارع؟ وأية فكرة عن الجماعة تلك التى سمحت لمحرر صحيفة "الجمهورية الجديدة" بيتر بينارت Peter Beinart بأن

يلف نفسه فى علَم الوطنية والأحكام الأخلاقية المطلقة عندما شجب بقوة أولئك الذين ينتقدون سياسات بوش؟ يقول بينارت: "إن هذه الأمة فى حالة حرب، وفى مثل هذه البيئة تكون المعارضة السياسية الداخلية غير أخلاقية، إذا لم تقر مسبقًا بالوحدة الوطنية، أى أن تختار أحد الجانبين" (٥). غير أن الاتهامات بالمعارضة غير الوطنية لا توزع فحسب على المحتجين فى الشوارع أو الأكاديميين الذين جلبوا على أنفسهم حنق المجلس الأمريكى للأمناء والخريجين الذى تترأسه لين تشينى Lynne Cheney [زوجة ديك تشينى] بسبب عدم تجاوبهم بالحماسة الأمريكية الواجبة مع هجمات ١١ سبتمبر الإرهابية. فقد حدث ذلك أيضًا مع توم داشل Tom Daschle زعيم الأغلبية فى مجلس الشيوخ، عندما أبدا نقدًا خفيفًا لخطة بوش لشن ما بدا أنه حرب مفتوحة النهاية على الإرهاب. فقد علق ترنت لوط Trent Lott الزعيم الجمهورى على ذلك بتوبيخ قاسى مؤكدًا أنه ليس من حق داشل أن ينتقد الرئيس بوش "فيما نحن نشن حربنا على الإرهاب"(٦). بل ويبدو أن قيادة الحزب الجمهورى وأنصارها الأقوياء لم يكن لديهم وازع يمنعهم من زجر نقادهم بالطعن فى وطنيتهم. من ذلك مثلاً أن توم دافيز Tom Davisمن فرجينيا رئيس لجنة حملة الحزب الجمهورى لمجلس النواب يصم من ينتقدون سياسات بوش بأنهم "يقدمون العون والمساعدة لأعدائنا"(٧). بل وذهب مجلس بحوث الأسرة أبعد من ذلك عندما عرض إعلانات فى جنوب داكوتا "تشبه توم داشل بصدام حسين، لأن زعيم الأغلبية بمجلس الشيوخ عارض التنقيب عن البترول فى المحميات البرية الوطنية فى القطب الشمالى"(٨). إن الجماعة فى مثل هذه الحالة لا تتطلب الشجاعة أو الحوار أو المسئولية، بل مجرد الصمت والإذعان.

لقد لاحظ إريك هوبزباوم أن "كلمة الجماعة لم تستخدم أبدًا بمثل هذا الشكل المشوش والفارغ أكثر منها فى العقود التى كان من الصعب فيها إيجاد الجماعات بالمعنى السوسيولوجى فى الحياة الواقعية"(٩). وربما كان غياب الجماعات المكنة المنتظمة حول القيم الديمقراطية والحريات الأساسية هو ما يفسر "انحطاط" لغة الجماعة فى الوقت الحاضر "إلى انتشار الدعاية"(١٠). وإلا فكيف يمكن تفسير الغضب

الذى أظهره الإعلام المهيمن ضد كل من يبدو أنه يتساءل، من بين أشياء أخرى، حول دعم الولايات المتحدة للحكومات المستبدة الصديقة، ومنها نظام طالبان، أو قانون باتريوت الأمريكى بقمعه للحريات المدنية، أو حتى الإيحاء بالحاجة إلى مناقشة جادة حول إسهام السياسة الخارجية الأمريكية فى الفقر واليأس والعجز المنتشر عبر أرجاء العالم، وتقديمها بذلك الفرصة للعدمية الإرهابية "لأن تنمو فى التربة الثرية لإحساس الإقصاء وإحساس الضحية"[١١]. فى حين أن الجماعات الديمقراطية الحقيقية تنبذ تماماً الإحساس المغرور بالاستقامة الذاتية الذى يرفض التمييز بين تفسير الأحداث وتبريرها. وبتعبير جوديث بتلر:

> **فأن تسأل كيف وقعت أفعال سياسية واجتماعية معينة، مثل الهجمة الإرهابية الأخيرة على الولايات المتحدة، أو حتى أن تتحقق من مجموعة الأسباب، لا يعنى أنك تحدد مصدر المسئولية عن تلك الأحداث، أو حتى تشل قدرتنا على صنع أحكام أخلاقية حول ما هو صحيح وما هو خاطئ ... ولكنه يعنى أن تطلب من الولايات المتحدة أن تأخذ على عاتقها مسئولية من نوع مختلف عن إنتاج ظروف عالمية أكثر عدلاً من أجل المساواة والسيادة وإعادة التوزيع العادل للموارد[١٢].**

فمثل هذه الأسئلة لا توحى بأن الولايات المتحدة مسئولة عن الأعمال الإرهابية التى وقعت فى ١١ سبتمبر. بل على العكس من ذلك تؤدى هذه الأسئلة عملاً ضرورياً للسياسة من خلال محاولة وضع أفعال المسئولية الفردية فى إطار مجموعة الظروف الأوسع التى أدت إلى تلك الأعمال الفردية الإرهابية، بالتزامن مع طرح السؤال حول كيف يمكن للولايات المتحدة أن تتدخل بشكل مثمر أكثر فى السياسة العالمية من أجل إنتاج ظروف تجتث جذور الإرهاب، لا أن تعززه. وفى نفس الوقت توحى هذه الأسئلة بأن ممارسة القوة الضخمة لا يمكن أن تنفصل عن ممارسة السياسية والأخلاق، ومثل هذا الإدراك يتطلب درجة من المسئولية عن نتائج أفعالنا بوصفنا أقوى دولة فى العالم.

وكما ينبه لويس لافام فإنه "تحديداً فى لحظات الخطر الكبير نكون فى حاجة إلى أكبر قدر من الأسئلة يمكن لأى فرد أن يطرحه"(١٣).

إن لغة الإرهاب مهمة ليس فقط لأنها تعمل على مستويات عدة لإزكاء البؤس الإنسانى وتغمى التوازن الدقيق بين الحرية والأمن الضروريين لأى مجتمع ديمقراطى، ولكن أيضاً لأنها تحمل معها إحساساً غامراً بالإلحاح، وهو الإحساس الذى غالباً ما يعيد تعريف الجماعة فى مقابل إمكاناتها الديمقراطية وأشكالها المتحققة. فالإرهاب الذى ينشأ من تربة الإفقار والأصولية الدينية، إن هذا الإرهاب، فى أسوأ الأحوال، يستدعى ثقافة الخوف والولاء غير المشروط، ويستدعى تعريفاً ضيقاً للأمن من جانب أولئك الذين يتعاملون معه على أنه مرض، وليس سياسة. وهو ما يتضح جزئياً فى حرب بوش على الإرهاب التى، باغتذائها على دعوات التضحية العامة، تستنفذ نفسها فى خطاب الأحكام الأخلاقية المطلقة وأفعال الشجب العامة. وتلك السياسة الشمولية المضادة للإرهاب تنزع إلى لاتسييس السياسة بوضعها دائماً خارج عالم القوة، وتجرد الجماعة من القيم الديمقراطية بتعريفها حصرياً عبر محاولات التخلص مما يسميه مايكل ليدن خبير مكافحة الإرهاب السابق فى إدارة ريجان "عادات العقل الفاسدة التى لا تزال تحوم هنا وهناك"(١٤).

إن عسكرة الجماعة وتأبيد ثقافة الخوف وانعدام الأمن الضارية يؤديان إلى تضييق الجماعة والمناشدة المستمرة لأشكال شوفينية من الوطنية من أجل إلهاء الجمهور عن تناول القضايا الداخلية والخارجية الملحة، كما يسهمان أيضاً فى القمع المتزايد للمعارضة، وما أسماه أنتونى لويس، عن حق، التصعيد المتزايد للقوة السياسية المركزة وغير الخاضعة للمساءلة، وهو ما يهدد أساس الديمقراطية فى الولايات المتحدة(١٥). يتضح ذلك فى القرار الأخير للنائب العام جون أشكروفت John Ashcroft بتخفيف القيود المفروضة على قدرة مكتب التحقيقات الفيدرالى على التجسس الداخلى كجزء من الحملة ضد الإرهاب. وفى ظل هذه الأوضاع الجديدة يمكن لموظفى مكتب التحقيقات الفيدرالى أن يقوموا بتفتيش قواعد البيانات التجارية،

ومراقبة الشبكة العنكبوتية العالمية، وفحص سجلات التليفون والمكتبات، وتكوين ملفات للأفراد والجماعات من دون حاجة إلى إثبات ضلوعهم فى ارتكاب جريمة. وتلك القواعد الجديدة وفقًا للمسئولين فى اتحاد الحريات المدنية الأمريكى "تقول للشعب الأمريكى إنكم لم تعودوا فى حاجة لأن يصدر عنكم ما يخالف القانون حتى يطرق مكتب التحقيقات الفيدرالى بابكم"(١٦).

وفى القلب من فكرة بوش عن الجماعة والوطنية المفرطة تكمن فكرة المؤقتية temporality التى تقصى نفسها عن معانى التروى العام والمواطنة الناقدة والانخراط المدنى. وهى الفكرة التى يشير إليها جيروم بايند بأنها "زمن الطوارئ" emergency time، ويصفها بأنها "عالم تحكمه فعالية قصيرة المدى" يتجنب، فى ظل إلحاحات الضرورة القصوى والدعاوى العملية، التقييمات بعيدة المدى، ويعطى أولوية لمنطق "كل شيء فى حينه"، على حساب التروى الذى يستشرف المستقبل"(١٧). ووفقًا لبايند فإن زمن الطوارئ يفتح الطريق لما يسميه "استبداد الطوارئ". يشرح بايند ذلك قائلاً:

> **إن الطوارئ وسيلة فورية للاستجابة لا تترك وقتًا لا للتحليل ولا للتنبؤ ولا للمنع. إنها استجابة وقائية فورية، وليست بحثًا هادئًا عن حلول بعيدة المدى. إنها تتجاهل حقيقة أن المواقف يجب أن توضع فى سياقها، وأنه لا بد من الاستباق إلى الأفعال المستقبلية. فتطوير أية استجابة قوية لمشكلة إنسانية ... يتطلب النظر إلى الموقف من بعيد والتفكير فيه من منظور المستقبل(١٨).**

ونظرًا للافتقار إلى أية إشارة إلى الأهداف الجماعية الديمقراطية، فإن الاحتكام إلى زمن الطوارئ يقلص أفق المعانى ويُخرِج تطبيق القوة الحكومية من ميادين المسئولية الأخلاقية والسياسية. وزمن الطوارئ هذا يُعَرِف الجماعة فى مقابل إمكاناتها الديمقراطية، مُجَرِدًا الجماعة من تلك الظروف التى تعد المواطنين للتروى الجماعى حول المستقبل والدور الذى يجب أن يلعبوه فى خلق وتشكيل الظروف التى تمكنهم من أن تكون لهم كلمة فى صنع هذا المستقبل. وفى مثل هذه الظروف يحل

التفكير الذى يرتاب فى طيبة الطبيعة البشرية محل النقاش العقلانى، وتستبعد المقاومة الشعبية "للحرب" بوصفها "أعمال غوغائية فى الشوارع، بينما يُقَدِّم المستبدين لنا على أنهم ممثلين لدولهم يتسمون بالمسئولية"[١٩]. لكن زمن الطوارئ فى سياق حرب بوش على الإرهاب يرفض حتى العلمانية الراديكالية التى توجد فى القلب من الديمقراطية الحقيقية لصالح مفردات دينية. فميتافيزيقا الخطاب الدينى تعفى من مهمة الاشتباك الناقد مع – والتفسير الناقد – لتلك الشبكة المعقدة من العوامل التاريخية والاجتماعية والسياسية التى تعد الأساس وتعطى المعنى للتفسيرات الأوسع للإرهاب. وبدلاً من ذلك ينحل تعقد السياسة إلى لغة "الحروب الصليبية" و"الكفار" و"الخير" و"الشر". وفى مثل هذه الظروف، وكما يشير ستيفن لوكس وناديا أوربناتى، "نشأ خطاب طوارئ أُطْلِقت فيه المانوية(*) إلى منتهاها، ويُنظَر فيه إلى قيمنا (الأمريكية؟ الغربية؟) على أنها مهددة من جانب عدو يُنْظَر إليه على أنه تجسيد للشر، ويُحَدَّد أحيانًا على أنه أصولى، وأحيانًا على أنه إسلامى، كما يتجسد فى تنظيم القاعدة الذى جُسِّد بدوره فى شخص أسامة بن لادن"[٢٠].

إن تنحية السياسة وإضعاف الفضاءات العامة الديمقراطية هو الذى يعطى الفرصة للأيديولوجيا الدينية والغلو الدينى لأن يحددا أساس الجماعة والانخراط المدنى ومجال الاجتماعى. وفى مقابل تلك الفكرة عن زمن الطوارئ، لا بد للمربين ومحترفى العمل الثقافى وغيرهم أن يؤكدوا فكرة الزمن العام public time. وهذا الزمن العام، وحسب كلمات المُنَظِر الديمقراطى كورنيليوس كاستورياديس، يمثل "انبثاق بعد يمكن للجماعة فيه أن تفحص ماضيها باعتباره نتاج لأفعالها هى، وحيث يتيح المستقبل المفتوح مجالاً لأنشطتها"[٢١]. والزمن العام فى رأى كاستورياديس يضع المؤسسات الراسخة والسلطة المهيمنة موضع تساؤل. فبدلاً من تبنى اتجاه

(*) نسبة للفيلسوف الفارسى مانى الذى دعا إلى عقيدة ثنوية قوامها الصراع بين النور والظلام أو الخير والشر [المترجم].

سلبى نحو القوة، يتطلب الزمن العام ويشجع أشكال الفاعلية السياسية التى تقوم على عاطفة الحكم الذاتى، والأفعال التى تستحثها الأحكام الناقدة، والالتزام بربط المسئولية الاجتماعية بالتحويل الاجتماعى. والزمن العام يضفى شرعية على تلك الممارسات التربوية التى تقدم الأساس لثقافة التساؤل، تلك الثقافة التى توفر المعرفة والمهارات والممارسات الاجتماعية التى تشجع فرص المقاومة، والتى توفر فضاءً للتفسير وتكاثر الخطابات. كما أن الزمن العام لا يجعل الحس العام يصل إلى حالة استقرار، ويقلق السلطة، فى حين يشجع القيادة الناقدة والمسئولة. وكما يلاحظ روجر سيمون فإن الزمن العام "يقدم سؤال الاجتماعى، ليس باعتباره فضاءً لرؤى سابقة التجهيز يتم من خلالها حشد الفعل، وإنما باعتباره حركة يصبح فيها السؤال الأساسى حول إمكانية الديمقراطية هو الإطار الذى يكون فيه التعلم (والتساؤل) الراديكالى الضرورى ممكناً"(٢٢). وبصياغة أخرى فإن الزمن العام يؤكد على السياسة من دون ضمانات، كما يؤكد على فكرة الاجتماعى الذى يكون مفتوحًا وقابلاً للاحتمالات. ويقدم الزمن العام تصوراً للديمقراطية لا يصل أبدًا إلى مرحلة الكمال أو النهاية، ويظل مفتوحًا دائمًا لأنواع فهم مختلفة لممكنات قرارات الديمقراطية وآليات الإقصاء وعمليات القوة فيها(٢٣). فالزمن العام، فى أفضل الأحوال، يجعل القوة الحكومية ظاهرة، ويستبعد بذلك لغة الطقوس الدينية وإبطال الشروط الضرورية لتولى الحريات والحقوق الأساسية. وعلاوة على ذلك فإن الزمن العام يعتبر التربية المدنية الأساس للعدل، إن لم تكن البعد الأساسى له، وذلك لأنها تزود الأفراد بالمهارات والمعرفة والمشاعر اللازمة للرد على القوة، مع التأكيد فى نفس الوقت على ضرورة السؤال التى تصاحب أشكال الفاعلية السياسية القابلة للحياة، وكذلك تولى المسئولية العامة من خلال المشاركة النشطة فى عملية الحكم.

ففى مقابل تجاهل بوش للنقاش العام لسياساته، وهوسه بالسرية، وصراخه بفكرة عن الوطنية ترادف الامتثال الأعمى، وتباهيه بالقوة الرئاسية، يمكن للزمن العام أن يعطى مصداقية لفكرة عن الديمقراطية تنادى بإرساء الاستجواب غير المقيد فى كل

مجالات الحياة العامة. فالسياسة الديمقراطية والأفكار القابلة للتحقق حول الجماعة تُخْلَق وتتأكد عندما تتخلق فضاءات عامة تُمَكِن الأفراد والحركات الاجتماعية من ممارسة القوة على المؤسسات والقوى التى تحكم حياتهم. وفى مثل هذه الظروف لا تُنفَى السياسة إلى ميدان الآخر باعتبارها شكلاً من علم الأمراض، بل تكون أساسية فى بناء حيزات عامة وجماعات ديمقراطية نابضة بالحياة(٢٤).

إن ما بدا واضحًا فى خطاب بوش عن حالة الاتحاد عام ٢٠٠١، وفى السياسات التى أقرتها إدارته هو أنه ليس ثمة خطاب يدرك أن المجتمع الديمقراطى عليه التزام يجب أن يفى به نحو أجيال الماضى، وعليه التزامات يجب أن ينجزها تجاه أجيال المستقبل، خاصة الصغار الذين يتم التخلى عنهم على نحو متزايد من جانب الحكومة بكل مستوياتها. فخفض الضرائب الذى أقره بوش يعد امتيازًا للمصالح التجارية للأغنياء فى مقابل المسئوليات العامة نحو الفقراء وكبار السن والبيئة والأطفال. كما أن دعوته إلى إجراء محاكمات عسكرية لغير المواطنين، واحتجازه سرًا لأكثر من ١٢٠٠ عربى ومسلم لفترات مفتوحة، وسعيه لتقويض الحريات والحقوق الدستورية الأساسية من خلال تعزيز قدرات الشرطة وجماعات فرض النظام الأخرى يفرض تهديدًا كبيرًا على تلك الحريات المدنية الأساسية للديمقراطية(٢٥). وعلى نحو أكثر تحديدًا يدفع إدوارد سعيد بأن:

> **بوش والكونجرس المذعن له قد أوقفا أو أبطلا أو تجاوزا أجزاء كاملة من التعديل الدستورى الأول والرابع والخامس والثامن، واستنوا إجراءات قانونية لا تعطى للأفراد ملاذًا لا للدفاع اللائق ولا للمحاكمة العادلة، وتسمح بعمليات تفتيش سرية واحتجاز مفتوح، كما فى حالة معاملة المعتقلين فى خليج جوانتانامو، وتسمح للسلطة التنفيذية باختطاف السجناء واحتجازهم إلى أجل غير مسمى، وأن تقرر بمفردها ما إذا كان هؤلاء السجناء أسرى حرب، أو ما إذا كانت اتفاقية جينيف تسرى عليهم، وهى قرارات لا تتخذها دولة بمفردها(٢٦).**

والأهم من ذلك كله أن حرب بوش على الإرهاب تحجب تقويض الديمقراطية الذى يحدث من خلال محاولاتها المستمرة من أجل لاتسييس السياسة ذاتها. فذلك الذى بدأ بوصفه تشطين للإسلام السياسى تمدد الآن إلى تشطين للسياسة ذاتها، ذلك أن بوش ومجموعته طبقوا سياسات تحاول محو إمكانية تخيل مستقبل ديمقراطى أو فضاء ديمقراطى للاجتماعى أو معنى للجماعة الديمقراطية أو الممارسات التى تؤسس الحياة الديمقراطية. وكما يلاحظ بارنور هيس وسيد، عن بصيرة حادة، فإنه:

من خلال مثل هذه العمليات تبدو السياسة منفية. فعندما يُحْتَل المركز من جانب نظام عالمى يتحدث عن طبيعة بشرية جامدة، تُنْفَى السياسة من مجال النظام نفسه. وفى مقابل ذلك يصبح التفكير الذى يشك فى الدوافع البشرية أيديولوجية مهيمنة فى غرب ما بعد الأيديولوجيا. ففى العالم الغربى المحروم ظاهريًا من البدائل السياسية للرأسمالية الشركاتية والليبرالية الجديدة والتفاوتات الاجتماعية العالمية، فى هذا الغرب نُقِل ما كان يعد فى السابق من السياسة حصرًا إلى الفضاء الذى يشغله أولئك الساخطين على الغرب والمطرودين من جانبه[٢٧].

ومن خلال لاتسييس السياسة تصبح الحرب على الإرهاب تجريدًا فارغًا وإلهاءً استراتيجيًا. فارغًا لأن الإرهاب لا يمكن فهمه ولا معالجته من خلال خطاب الأحكام الأخلاقية المطلقة والحماسة الدينية. فالعمل العسكرى لا يصل إلى جذور الإرهاب، كل ما هنالك أنه يوفر التربة الخصبة للشروط التى أدت إلى نشأته فى الأصل. فالتدخل العسكرى يمكن أن يطيح بحكومات يسيطر عليها متعصبين متطرفين، مثل طالبان، لكنه لا يعالج الظروف العالمية التى يتزايد فيها الفقر، ويموت آلاف الأطفال يوميًا من المجاعة أو الأمراض التى يمكن منعها، ويضطر ٢٥٠ مليون شخص للعمل فى ظل شروط قاسية، ولا يجد حوالى ٨٤٠ مليون بالغ مأوى ملائمًا ورعاية صحية[٢٨]. وطالما بقيت أوجه اللامساواة تلك فسوف تظهر المقاومة، وسوف يكون الإرهاب هو النظام

المهيمن. فإسقاط آلاف القنابل على الدول الفقيرة (سواء مع أو دون عبوات المعونات الغذائية) لن يفشل فحسب فى حل المشكلة ، وإنما سيفاقم الشروط التى أدت إلى ظهور الإرهاب. وبدلاً من النظر إلى العمل العسكرى بوصفه الحل لابد أن نعيد التفكير فى إسهام السياسات الأمريكية فى صنع هذه الشروط بدعمها للديكتاتوريات العسكرية، وتجاهلها للمنظمات الدولية، ودعمها المستمر للسياسات القاسية لليبرالية الجديدة. وإعادة التقييم الأمينة من هذا النوع يمكن أن تساعدنا فى إدراك كيف أن خطاب الحرب على الإرهاب جرد بوش ومجموعته من الالتزامات بالمسئولية السياسية والأخلاقية على المستوى العالمى بتجاهلهم للروابط المعقدة التى تربط الأغنياء والأقوياء بالفقراء والعاجزين. وهى الروابط التى لا يمكن تفسيرها من خلال لغة القومية الجارفة أو الوطنية المفرطة أو الحماسة الدينية. وكما توضح جوديث بتلر فإن النزعة الأخلاقية البلهاء ليست بديلاً عن تولى المسئولية عن أفعال الفرد على المستوى العالمى. وفى ذلك تكتب بتلر:

إن الاستنكار الأخلاقى يقدم إشباعًا فوريًا، بل ويؤدى حتى إلى تطهير المتحدث مؤقتًا من أية علاقة بالذنب من خلال فعل الاستنكار القائم على الاستقامة الذاتية ذاته. لكن هل ذلك هو نفسه المسئولية، التى تُفْهَم على أنها العناية بعالمنا والإسهام فى تحوله الاجتماعى، بما يجعل العلاقات الدولية المساواتية التعاونية غير العنيفة المثال المرشد؟(٢٩).

إن النزعة الأخلاقية قد تقدم لبوش ومجموعته دعاوى البراءة، لكنها لا تقدم شيئًا لتعزيز ديناميات الديمقراطية أو الانخراط المدنى، بل ربما تعمل حتى، كما يرى إدجار وايدمان، على "إرهاب" أولئك الأمريكيين الذين تزعم أنها تعمل من أجلهم.

إن بوش بشن حربه الزائفة يحاول تفادى التقييم السلبى الذى تستحقه فترة رئاسته الأولى. وبدلاً من ذلك يرهب الأمريكيين

لكى نصدق أننا فى حاجة إلى زعيم زمن حرب يمتلك سلطات طوارئ غير مشروطة. فأنت لو استمعت جيدًا لما تحت مطالبته عالية النبرة بالتوحد القومى لفطنت إلى التنمر وخدمة المصالح الشخصية والفراغ الكامن فى مناشداته بالوطنية. استمع بعناية وسوف تسمع أيضًا ما لا يقوله: أننا نحتاج، فى الديمقراطية المليئة بالتناقضات والانقسامات غير القابلة للتسوية، إلى أصوات معارضة[٣٠].

وإذا كان وايدمان محقًا، وهذا ما اعتقده، فإن موقف بوش البريء الملفوف فى الخطاب المستقيم لمكافحة الإرهاب يوفر أيضًا إلهاءً شديدًا عن تناول القضايا السياسية التى تقع فى القلب من قياس الواقع فى مقابل وعد الديمقراطية الحقيقية. إن بوش يسلمنا إلى العالم المظلم لزمن الطوارئ، وهو عالم ينقسم بين الخير والشر، عالم تتلاشى فيه "قضايا الديمقراطية والكياسة المدنية والعدالة الاجتماعية، ناهيك عن الفوارق الدقيقة والتعقد والاعتماد المتبادل"[٣١]. وفى عالم زمن الطوارئ تنتحل السياسة طهرًا لا يترك مجالاً إلا لإجابة واحدة فقط صحيحة، ويكون من الضرورى الاختيار بين أحد جانبين. وزمن الطوارئ لا يقدم لبوش فحسب هوية سياسية تشبه تمامًا نوعًا من الاستشهاد، بل يجيزه أيضًا بوصفه السلطة الملائمة التى تتحدث اللغة الوحيدة المقبولة التى تعبر عن الموقف الوحيد المقبول[٣٢]. وزمن الطوارئ لا يرفض مساءلة افتراضاته فحسب، بل يرفض أيضًا الاعتراف بما يفتقر إليه، وهى القضايا أو الرؤى التى يتجاهلها أو يهمشها. ومن هنا فإن بوش باسم "شن حرب الحرية" يبنى رؤية للعالم تتجاهل الفجوة المتنامية بين الأغنياء والفقراء، وتغض النظر عن البطالة الضخمة، وتنكر الحرب ضد الشباب المهمش بسبب الطبقة أو اللون، وتغض الطرف عن الفقر واللامساواة، وتصرف النظر عن حماقة الانقضاض على القطاع العام، وتحجب التهديدات التى تفرضها الحكومة على البيئة.

إن فكرة بوش عن الجماعة تنزع إلى لاتسييس السياسة وتعمى التعقد والمسئولية المدنية. وإذا أردنا أن نتحدى سياساته، خاصة رغبته فى شن حرب على العراق(*)، فلا بد للمربين وغيرهم من أن يستعيدوا فكرة عن السياسة والتربية تتبنى فكرة عن الزمن العام تتعهد الانخراط المدنى والذكاء العام. وهذا يعنى على أقل تقدير خلق شروط تجعل السلطة الحكومية خاضعة للمساءلة عن أفعالها، إلى جانب حشد ظروف تمكن المواطنين من استعادة القوة الضرورية لتشكيل نظم القوة والسياسة التى تؤثر على حياتهم اليومية. فالصراع الأكبر الذى يواجهه الأمريكيون ليس الإرهاب، وإنما النضال من أجل العدالة والحرية والديمقراطية لكل مواطنى العالم، خاصة الشباب. وهذا لن يحدث، كما تؤكد سياسات بوش بشكل مفجع، بالقضاء على الديمقراطية أو محو الحقوق والحريات التى تضمنها أو السخرية من الجماعات المعارضة. بل على النقيض من ذلك لا بد من فهم النضال من أجل الديمقراطية من خلال السياسة، وليس من خلال النزعة الأخلاقية، وإذا ما أعيدت السياسة بوصفها مركز الفاعلية الفردية والاجتماعية، فإن الدافع لها لا ينبغى أن يكون ثقافة الخوف وإنما عاطفة الانخراط المدنى والمسئولية الأخلاقية ووعد الديمقراطية القابلة للتحقق.

إن استدعاء زمن الطوارئ يقيد تماماً اللغة والخيال المتاحين لنا لتطوير لغة النقد وإمكانية معالجة العلاقة بين أزمة الديمقراطية وأزمة الشباب. فتقييد الحريات المدنية، وتقليص البرامج الاجتماعية، وتعريف الديمقراطية على اعتبار أنها قابلة للاستهلاك كجزء من خطاب الطوارئ، ومناشدة ثقافة الخوف يقضى على الفرصة المتاحة للكبار للتركيز على الشباب بوصفهم رمز المستقبل، وخلق الشروط الرمزية والمادية اللازمة لإزكاء القيم والفضائل الضرورية لكى يصبحوا مواطنين نشطين وناقدين ولديهم الاستعداد للنضال من أجل ديمقراطية نابضة بالحياة.

(*) كان ذلك قبل حرب أمريكا على العراق واحتلاله [المترجم].

التحدى المفروض على المربين

مع أن التفكير فى هذا الكتاب كان سابقًا على أحداث ١١ سبتمبر، إلا أن تلك الأحداث والأحداث التى تلتها قد زادت من الحاجة إلى موضوعى الكتاب الأساسيين: عسكرة المدارس وإخضاعها للشركات. فأحداث ١١ سبتمبر تقدم للمربين فرصة مهمة لاستعادة المدارس بوصفها حيزات عامة ديمقراطية يمكن للطلاب فيها أن ينخرطوا فى حوار ونقد عميقين حول معنى القيم الديمقراطية، والعلاقة بين التعلم والانخراط المدنى، والارتباط بين التمدرس ومعنى المواطنة الناقدة والمسئوليات التى تقع على عاتق الفرد إزاء العالم الأكبر[٣٣].

إن فضاء الاجتماعى، بتعريفه فى المقام الأول من خلال مناشدة الخوف والدعوة إلى تقوية الأمن الداخلى، تمت عسكرته وتسليعه على نحو متزايد. وبذلك لا يكون هناك مجالاً كبيراً للحوار العام حول ربط الحيز الاجتماعى بالقيم الديمقراطية أو العدالة، أو ما يمكن أن يعنيه الصالح العام فى ضوء هذه الهجمة المرعبة بوصفه مرجعية أخلاقية وسياسية لاستنكار أفعال العنف الواسعة ومحاولة لصون الحرية والعدالة لكل الناس. لكن مثل هذه المهمة قد تتطلب، من بين أشياء أخرى، التعرف على المفردات والممارسات التى كانت تستخدم فيما يخص فضاء الاجتماعى والسياسى قبل ١١ سبتمبر، وما هى الأفكار المحددة حول الحرية والأمن والمواطنة التى كانت متاحة للأمريكيين، حيث يمنعهم هذا الميراث وتأثيره عن القيام بدور المواطنين الناقدين المنخرطين والقادرين على معالجة هذه الأزمة القومية. وهذا التحدى يواجه المؤلفين المشاركين فى هذا الكتاب. فمن الأهمية بمكان، بدلاً من النظر إلى الأزمة الحالية على أنها انقطاع عن الماضى، أن يبدأ الشعب الأمريكى فى فهم كيف يمكن للماضى أن يفيد فى تحديد معنى الحياة فى مجتمع ديمقراطى فيما بعد تفجيرات نيويورك وواشنطن. ويجب أن تلعب المدارس العامة دوراً حاسماً فى مساعدة الطلاب على رسم الحدود بين الماضى والحاضر وإنجاز فهم ناقد لتلك الأحداث، إلى غير ذلك مما يتم تجاهله فى الغالب فى المحاولات المعاصرة التى تُعَرِف الأدوار التى يمكن أن يؤديها

الطلاب كمواطنين ناقدين. وبالطبع لن يكون ذلك يسيرًا نظرًا لأن كثيرًا من المدارس العامة مثقلة بنظم الاختبار عالى الرهان(*) ونظم المحاسبية الصارمة المصممة لكى تجعل المعلمين يضيقون مناهجهم ويركزون فقط على زيادة درجات الاختبارات. وبناءً على ذلك فإن أى نضال من أجل جعل المدارس أكثر ديمقراطية وذات صلة اجتماعيًا سوف يكون عليه أن يربط المعركة من أجل المواطنة الناقدة بالنضال المتواصل ضد تحويل المدارس إلى مراكز اختبار والمعلمين إلى فنيين.

التعليم وتحدي إحياء الحياة العامة الديمقراطية

إن الدولة بتخليها المتزايد عن وظائف توفير الرفاه، تتراجع قدرتها على توفير الاحتياجات الاجتماعية الأساسية للناس التى تمتد من الرعاية الصحية إلى النقل العام، وتتخلى فى نفس الوقت عن التزامها بخلق تلك الحيزات العامة غير المسلعة التى يتعلم فيها الناس لغة الأخلاق والشجاعة المدنية والسياسة المشحونة ديمقراطيًا والتمكين الجماعى. ومع هذا التحول يتقدم تعريف للمدارس ليس على أنها صالح عام، وإنما على أنها مواقع للاستثمار المالى والتدريب على المشروعات، أى بوصفها صالح خاص.

ومع اختفاء الفضاءات العامة التى توفر منبرًا للنقاش حول المعايير والاشتباك الناقد مع الأفكار وتحويل القضايا الخاصة إلى قضايا عامة وتقييم الأحكام، مع اختفائها تحت ضربات سياسات الليبرالية الجديدة يصبح من الضرورى أن يطرح المربون أسئلة أساسية حول معنى إحياء الحياة العامة والسياسة والأخلاق بطرق تأخذ

(*) الاختبار على الرهان high-stake esting هو أى شكل من الاختبارات المقننة التى تطبق على نطاق واسع، فى الغالب على المستوى القومى أو مستوى الولاية، والذى يكون لاجتيازه من عدمه انعكاسات ومضامين مهمة على حياة الفرد ومستقبله مثل البقاء فى الصف للإعادة أو دخول الجامعة مثلا [المترجم].

بعين الاعتبار قيم مثل الوطنية "ومشاركة المواطنين ... والالتزام السياسي والحكم الاجتماعى الرشيد والجماعة"(٣٤)، خاصة فى وقت الأزمات القومية، حيث تصبح تلك المصطلحات أقل عرضة للتحليل وأقرب إلى التبجيل غير الناقد. إن الدعوة إلى إحياء السياسة وترسيخها فى ديمقراطية فعالة تتحدى ممارسات الغابة التى تميز الليبرالية الجديدة بتركيزها الجارف على علاقات السوق والتتجير والخصخصة وخلق اقتصاد عالمى من العمال المؤقتين، فى مقابل وعودها الطوباوية. غير أن هذا التدخل يواجه المربين بمشكلة - وكذلك بتحدٍ - تحليل وإشراك وتطوير تلك الحيزات العامة -الإعلام والتعليم العام والمؤسسات الثقافية الأخرى - التى توفر الشروط لخلق مواطنين قادرين على ممارسة حرياتهم، ومؤهلين لوضع الافتراضات الأساسية التى تحكم الحياة السياسية موضع تساؤل، ولديهم من المهارة ما يكفى للمشاركة فى تشكيل النظم الأساسية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التى تحكم حياتهم. وفى تلك الحيزات العامة تحديداً يجب أن تُناقَش أحداث ١١ سبتمبر، والعمل العسكرى ضد أفغانستان والعراق، ومسئولية الإعلام، والالتزام المدنى للمربين، ودور أمريكا فى العالم كقوة عظمى، لا أن تُخْمَد بدعوى شكل شوفينى من الوطنية.

ثمة عاملان يعوقان هذه المناقشة على أى مستوى. أولاً لم يعد هناك سوى القليل من الحيزات العامة التى توفر فضاءً لمثل هذه الحوارات. ثانيًا أصبح من الصعوبة بمكان على الشباب والكبار أن يتبنوا لغة نقدية، خارج السوق، تمكنهم من ترجمة المشكلات الخاصة إلى اهتمامات عامة، أو ربط القضايا العامة بالاعتبارات الخاصة. فبالنسبة لكثير من الشباب والكبار اليوم أصبح الحيز الخاص هو الفضاء الوحيد الذى يمكن أن يتخيلوا فيه أى معنى للأمل أو السعادة أو الإمكانية. أما المواطنة التى اخْتُزِلت إلى فعل استهلاك فهى "تتعلق فى الأساس بالنسيان وليس بالتعلم"(٣٥). وتراجع رأس المال الاجتماعى يمكن رؤيته فى الدراسات البحثية التى أجراها مشروع العدالة Justice Project عام ٢٠٠١ التى سُئل فيها عدد كبير من المراهقين والشباب حول معنى الديمقراطية، حيث تقف إجاباتهم دليلاً على اللاتسييس المتنامى للاجتماعى

فى الحياة الأمريكية، إذ جاءت الإجابات على النحو التالى: "لا شىء"، "لا أعرف"، "حقوقى، مثل الفخر، كما اعتقد، ودفع الضرائب"، "لا أعرف ما تعنيه، بل أعرف إنها مثل حكومتنا، لكنى لا أعرف ما تعنيه من الناحية الفنية"(٣٦). إن قوى السوق تركز على قضايا الاستهلاك والأمن المرتبطة بها، وليس على المعنى الاقتصادى والثقافى والسياسى للديمقراطية الحقيقية.

وعندما تُفْصَل الأفكار حول الحرية عن الأفكار حول الأمن، وعندما تُخْتَزَل الحرية إلى مطالب التبادل فى السوق، وعندما يُجَرَّد الأمن من الدفاع عن نسخة دولة الرفاه التى تتميز بتوفير الاحتياجات الاجتماعية وتقديم "وظائف المساعدة"، فإن الحرية لا تنهار فحسب إلى شكل وحشى من الفردية، بل تتجرد الدولة أيضًا من وظائف المساعدة، فى الوقت الذى تتضخم فيه وظائفها الأمنية إلى درجات مبالغ فيها. وحتى مع استفحال أسس دولة الأمن من خلال سياسة اللاتسامح وقوانين محاربة الإرهاب وزيادة معدلات الاحتجاز وتجريم الحمل والتحرى على أساس العرق وسياسات مكافحة الهجرة، يكون من الأهمية بمكان أن يتناول المربون والدارسون أحداث ١١ سبتمبر ليس من خلال رؤية أحادية الجانب للوطنية تخنق المعارضة وتساعد قوى العسكرة المحلية، وإنما بوصفها جزءًا من جهد أكبر لتوسيع الإمكانات الديمقراطية، وليس القمعية، للولايات المتحدة.

وعلى خلاف بعض المنظرين الذين يرون أن السياسة كموقع للنضال والتبادل والانخراط النقديين إما أنها ماتت أو أنها فى حالة قعود تام، يشترك معى المؤلفون المشاركون فى هذا الكتاب فى الاعتقاد بأن الحالة المحبطة الحالية للسياسة تشير إلى التحدى الملح لإعادة صوغ أزمة الديمقراطية على أنها جزء من الأزمة الأساسية فى الرؤية والمعنى والتربية والفاعلية السياسية. وإذا كان ثمة شىء يمكن أن "نكسبه" من أحداث ١١ سبتمبر فهو أن نفهمها على أنها فرصة للالتقاء القومى وتفتيش الأرواح، أى باعتبارها وقت لتوسيع الإمكانات الديمقراطية، وليس تقليصها. فالسياسة الخالية من الرؤية تنحط إما إلى شك فى الدوافع البشرية، أو إلى شكل قمعى من

الوطنية، أو قد تنتحل رؤية للقوة تنحصر تمامًا فى عسكرة كل من الفضاء المحلى ومبادرات السياسة الخارجية. وما يغيب عن مثل هذه الرؤية هو إدراك أن الديمقراطية لا بد من النضال من أجلها، ولو حتى فى وجه أشرس أزمة تتعرض لها الفاعلية السياسية. والمربون والدارسون وصناع السياسات يجب أن يبذلوا الجهد لإصلاح الانتباه الضعيف لحقيقة أن الصراع على السياسة والديمقراطية يرتبط حتمًا بخلق حيزات عامة يمكن للأفراد فيها أن يتعلموا كفاعلين سياسيين مزودين بالمهارات والقدرات والمعرفة التى يحتاجون إليها، ليس فقط من أجل العمل الفعلى كفاعلين سياسيين مستقلين، بل أيضًا من أجل الإيمان بأن هذه النضالات جديرة بالبذل. ومن الأسس التى تقوم عليها حجتى افتراض أن السياسة لا تتعلق فحسب بالقوة وإنما أيضًا، وكما يشير كورنيليوس كاستورياديس، "تتعلق بالأحكام السياسية والاختيارات القيمية"[٣٧] ، وهو ما يوضح أن أسئلة التربية المدنية – تعليم الأفراد كيف يصبحوا مواطنين ماهرين – أساسية للنضال من أجل الفاعلية السياسية والديمقراطية ذاتها. وأخيرًا، هناك الرفض المنتشر بين كثير من المربين وغيرهم للاعتراف بأن قضية التربية المدنية -بتأكيدها على التفكير الناقد، وتجاوز الفجوة بين التعلم والحياة اليومية، وفهم الارتباط بين القوة والمعرفة، واستخدام مصادر التاريخ لتوسيع الحقوق والهويات الديمقراطية- ليست فحسب الأساس لتوسيع وتمكين الفاعلية السياسية، بل إنها تحدث أيضًا عبر عديد من الحيزات العامة من خلال القوة المتنامية للثقافة المتوسطة عن طريق الإعلام[٣٨]. وإذا كان كثير من المصلحين التربويين يعتبرون التربية والتمدرس مترادفين، فإننا نؤكد أن التمدرس ليس سوى موقع واحد تحدث فيه التربية. فالتربية كممارسة أدائية تعتمل فى عديد من المواقع التربوية -بما فى ذلك الثقافة الشعبية والتليفزيون وشبكات الكابل والمجلات والإنترنت والكنائس والصحافة- حيث تعمل الثقافة على صون الهويات، كما تقوم بدور الجسر للتفاوض على العلاقة بين المعرفة والمتعة والقيم، وتجعل السلطة ضرورية وإشكالية فى إضفاء الشرعية على ممارسات اجتماعية معينة وجماعات معينة وأشكال معينة من القوة. ومفهوم التربية العامة public pedagogy كممارسة أخلاقية وسياسية تشير إلى الطرق الهائلة التى

من خلالها تبنى الثقافة الشعبية وثقافة الإعلام المعانى والرغبات والاستثمارات التى تمارس مثل هذا الدور المؤثر على رؤية الطلاب لأنفسهم وللآخرين وللعالم الأكبر. ومن المؤسف أن المغزى السياسى والأخلاقى والاجتماعى للدور الذى تلعبه الثقافة الشعبية كوسيط تربوى رئيسى للشباب لا يزال بعيداً عن التناول الجاد من جانب كثير من التربويين، ويبدو مستبعداً تماماً من كل النقاشات السياسية حول الإصلاح التربوى. كما يجب على المربين كذلك أن يتحدوا افتراض أن التربية تقتصر على التمدرس، وأن نصوص الثقافة الشعبية ليست بنفس الأهمية الكبيرة لمصادر التعلم التقليدية فى التدريس حول القضايا المهمة التى تُؤَطَر مثلاً من خلال العدسة الاجتماعية للفقر والصراع العرقى والتمييز على أساس النوع. إن ذلك يوحى ليس فقط بالحاجة إلى توسيع المناهج بحيث تسمح للطلاب بأن يكونوا ملمين نقديًا بتلك الثقافات البصرية والإلكترونية والرقمية التى تمارس مثل هذا التأثير الكبير على حياتهم، وإنما يوحى أيضًا بضرورة أن يتعلم الطلاب المهارات اللازمة لكى يكونوا منتجين ثقافيين cultural producer . فأن يتعلموا، مثلاً، كيف يقرءوا الأفلام نقدياً لا يقل أهمية عن تعلم كيف ينتجوا الأفلام. وفى نفس الوقت فإن الثقافة النقدية لا تتعلق فقط بجعل الأطفال يفهمون الإعلام حتى يصبحوا مستهلكين جيدين، بل تعنى أن نقدم لهم المعرفة والمهارات والأدوات اللازمة لإدراك متى تكون التكنولوجيا الجديدة والإعلام قوة لتوسيع العلاقات الديمقراطية ومتى تقضى على مثل هذه العلاقات. وهذه الثقافة الإعلامية تظل بلا معنى إلى أن يأخذ الطلاب هذا الشكل من الثقافة إلى القضية الأكبر المتعلقة بمعنى أن يكونوا مواطنين ناقدين وفاعلين سياسيين منخرطين ومستعدين لتوسيع وتعميق الحيزات العامة الديمقراطية. وفى إطار هذه المقاربة الموسعة للتربية، فإن فكرة ما يشكل معرفة ذات معنى وكذلك شروط الفاعلية النقدية يمكن أن تقود إلى فكرة أكثر اتساعًا وديمقراطية للتربية المدنية والفاعلية السياسية.

إن المربين على كل مستويات التمدرس لا بد أن يتحدوا افتراض أن السياسة إما أنها ماتت، أو أن أية فكرة ممكنة عن السياسة تتحدد حصراً من جانب القادة

والخبراء الحكوميين فى جو السعار الأخلاقى للانتقام من أولئك الذين هاجموا البنتاجون ومركز التجارة العالمى. ولا بد للمربين أن يتخذوا موقفًا نقديًا أكثر، وأن ينطلقوا من أن المعرفة النقدية والنقاش والحوار حول المشكلات الاجتماعية الملحة يقدم للأفراد والجماعات بعض الأمل فى تشكيل الظروف التى تؤثر على حياتهم. والانخراط العام الذى ينتج عن انخراط المواطنين يكون ملحًا إذا ما أريد استخدام مفاهيم الاجتماعى والعام لاستعاده لغة التربية المدنية والدمقرطة كجزء من خطاب أوسع حول الفاعلية السياسية والمواطنة الناقدة فى عالم معولم. إن ربط فكرة الاجتماعى بالقيم العامة الديمقراطية يمثل محاولة، وإن كانت غير كاملة، لربط الديمقراطية بالفعل العام، وتأسيس هذا الدعم فى الدفاع عن تفكير طوباوى مقاتل (فى مقابل النزعة المقاتلة غير المزخرفة) باعتباره جزءًا من محاولة شاملة لإحياء الشروط الملائمة للفاعلية الفردية والاجتماعية والنشاط المدنى ودخول المواطنين إلى دائرة صنع القرار، إلى جانب معالجة المشكلات الأساسية التى تواجه ممكنات العدالة الاجتماعية والديمقراطية العالمية.

والمربون فى المدارس العامة والتعليم العالى لا بد أن يواصلوا البحث عن طرق لدخول عالم السياسة، وذلك بإظهار المشكلات الاجتماعية وتوضيح تجلياتها وعلاقاتها بالدولة. كما أننا فى حاجة إلى أن نبنى على النظريات التربوية النقدية التى أُنتِجَت فى الماضى من أجل بعث العناصر التحريرية فى الفكر الديمقراطى، جنبًا إلى جنب مع إدراك تقاليدها التاريخية المعطِلة والمثقلة والاشتباك معها(٣٩). ونحن فى حاجة إلى أن ننبذ افتراضات كل من الليبرالية الجديدة واليسار التقليدى التى تستبعد الدولة على أنها مجرد أداة للقمع، بحثًا عن طرق تمكن من استخدام الدولة فى تحدى وإعاقة وتقييد التأثيرات المدمرة للرأسمالية. وعلى العكس من ذلك لابد أن يكون المربون فى طليعة المدافعين عن أكثر المكتسبات التقدمية للدولة. لقد كان عالم الاجتماع الفرنسى بيير بورديو محقًا عندما طالب بعمل جماعى من جانب المربين من أجل منع اليمين وغيره من الرجعيين من تدمير أعز الفتوحات الديمقراطية فى مجالات تشريعات العمل

والصحة والحماية الاجتماعية والتعليم[٤٠]. وعلى أقل تقدير فإن ذلك يفرض على المربين أن يدافعوا عن المدارس باعتبارها حيزات عامة ديمقراطية، وأن يناضلوا ضد محاولات تبليد deskilling المعلمين والطلاب، وأن يدفعوا بفكرة عن التربية تُؤَسَس على القيم الديمقراطية وليس الأيديولوجيات التى تدفعها الشركات أو نظم الاختبار التى تقيد بشدة الإمكانات الإبداعية والتحريرية للمعلمين والطلاب. وفى نفس الوقت يجب على المربين أن يقاوموا اختزال الدولة إلى وظائفها الأمنية، مع ربط النضال ضد الليبرالية الجديدة بالنضال من أجل توسيع وتعميق الحريات والحقوق والعلاقات الديمقراطية الحقيقية. تلك الدعوة لها صداها عند سمير أمين مُنَظِر ما بعد الاستعمار الذى يؤكد أن المربين يجب أن ينظروا إلى مشروع خلق ديمقراطية أكثر تحققًا كجزء من عملية الدمقرطة المتواصلة. والدمقرطة وفقًا لأمين "تشدد على الجانب الدينامى لعملية غير منتهية"، فيما ترفض أفكار الديمقراطية التى تُعْطَى صيغًا محددة ونهائية[٤١]. والمربون يقع على كاهلهم دور مهم فى النضال من أجل ربط العدل الاجتماعى والديمقراطية الاقتصادية بالمساواة أمام حقوق الإنسان والحق فى التعليم والصحة والبحث والفن والعمل. وعلى الجبهة الثقافية يمكن للمعلمين كمفكرين عامين public intellectuals أن يعملوا على إضفاء مسحة سياسية أكبر على التربوى من خلال الاشتباك فى نقد متواصل لنزعتهم المدرسية scholasticism وإزكاء وعى ناقد لوضع حد للقهر وأشكال الحياة الاجتماعية، التى تشوه الحياة المعاصرة وتهدد أية فكرة حقيقية حول الديمقراطية. ولا بد للمربين أن يقدموا فضاءات للمقاومة داخل المدارس العامة والجامعة تأخذ بعين الاعتبار تمكين الطلاب من أن يساءلوا السلطة ويعترضوا عليها، ويسترجعوا ما تم نسيانه أو تجاهله، ويصنعوا ارتباطات لم تُعْلَن لهم، كما يجب عليهم فى الوقت نفسه أن يوفروا المعرفة والمهارات التى توسع فهم الطلاب للاجتماعى وإمكاناتهم كفاعلين سياسيين قادرين على توسيع وتعميق الحياة العامة الديمقراطية. وعلى أقل تقدير يمكن للمربين أن يتحدوا الارتباط بين إفقار المجتمع وإفقار المفكرين عن طريق تقديم إمكانات غير تلك التى يقال لنا إنها ممكنة. أو بتعبير ألين باديو "توضيح كيف أن فضاء الممكن أوسع من ذلك المعطى لنا، وأن ثمة

أشياء أخرى ممكنة، ولكن ليس أن كل شيء ممكن"(٤٢). ففي أوقات الهيمنة المتزايدة على التعليم قبل الجامعي والجامعي يكون من الأهمية بمكان، كما يذكرنا جورج ليبستز، ألا ينعزل المربون -وكذلك الفنانون وغيرهم من محترفي العمل الثقافي- "داخل رغباتهم المجردة في التغيير الاجتماعي والحركات الاجتماعية الفعلية. فاتخاذ موقف لا يساوي شن حرب مواقف، وتغيير رأيك لا يكافئ تغيير المجتمع"(٤٣).

إن المقاومة يجب أن تصبح جزءًا من تربية عامة تعمل على وضع الأعمال النظرية الجادة والكيانات العامة ضد قوة الشركات وعسكرة الحيز البصري والعام، وربط الفصول الدراسية بالتحديات التي تواجه الحركات الاجتماعية في الشوارع، وتوفير فضاءات داخل الفصول والمواقع الأخرى لتحويل الجور الشخصي والإرهاب الخاص إلى اعتبارات ونضالات عامة. وهو ما يكشف عن ضرورة أن يعمل المربون على تشكيل تحالفات مع أولياء الأمور ومنظمي المجتمع ومنظمات العمل وجماعات الحقوق المدنية على المستويات المحلية والقومية والعالمية من أجل تحقيق فهم أفضل لطرق ترجمة المشكلات الخاصة إلى أفعال عامة، وإثارة المصالح العامة في المشكلات الاجتماعية الملحة، واستخدام وسائل جماعية من أجل تحقيق دمقرطة أقرب إلى الكمال للأبنية المؤسسية الاقتصادية والثقافية والاجتماعية المهيمنة في الولايات المتحدة وفي النظام العالمي الأوسع.

فيما بعد ١١ سبتمبر، يأتي كتاب "التربية كفرض" ليذكرنا بأن المشكلات الجماعية تستلزم حلولاً جماعية، وأن ما يتعرض للخطر ليس فحسب جيل من شباب الأقليات أو البالغين الذين يُصَوَّرون الآن على أنهم يمثلون تهديداً للأمن القومي، وإنما أيضًا وعد الديمقراطية ذاته. وكلما عملت العسكرة على تقوية الاتجاهات الأبوية والاعتداءات غير الديمقراطية على المعارضة، كان من الأهمية بمكان أن ينضم المربون إلى تلك الجماعات التي توحد جهودها في هذه الآونة للتصدي لتلك القوى التي تضحي بالحريات الدستورية الأساسية من أجل ضرورات الحرب في الخارج والعسكرة في الداخل.

الهوامش

(1) Barnor Hesse and S. Sayyid, "A War against Politics," Open Democracy, (November 28, 2001): 3, available at : openDemocracy@opendemocracy.net".

(2) Anatole Anton, "Public Goods as Commonstock: Notes on the Receding Commons," in Not for Sale: In Defense of Public Goods, edited by Anatole Anton, Milton Fisk, and Nancy Holmstrom (Boulder, Colo: Westview Press, 2000), 29.

(3) Edward Said, "Thoughts about America," Counterpunch (March 5, 2002): 5, available at "www.counterpunch.org/saidamerica.html".

(4) Zygmunt Bauman, Community: Seeking Safety in an Insecure World (Cambridge, UK: Polity, 2001), 4.

(5) Cited in Lewis H. Lapham, "American Jihad," Harper's Magazine (January 2002): 7.

(6) Cited in Frank Rich, "The Wimps of War," New York Times Op-Ed (March 30, 2002): A27.

(7) Ibid.

(8) Ibid.

(9) Eric Hobsbawm, The Age of Extremes (London: Michael Joseph, 1994), 428.

(10) Lapham, "American Jihad," 8.

(11) Susan George, "Another World is Possible," The Nation (February 18,2002): 12.

(12) Judith Butler, "Explanation and Exoneration, or What We Can Hear," Theory & Events, no. 4 (2002): 8, 16.

(13) Lewis H. Lapham, "Innocents Abroad," Harper's Magazine (June 2002): 7.

(14) Ledeen cited in Douglas Valentine, "Homeland Insecurity," Counterpunch (November 8, 2001); available online at "www.counterpunch.org/homelandl.html".

(15) Anthony Lewis, "Taking Our Liberties," New York Times (March 9, 2002), A

(16) Dan Van Natta, Jr., "Government Will Ease Limits on Domestic Spying by F.B.I." New York Times (May 20, 2002): Al.

(17) Jerome Binde, "Toward an Ethic of the Future," Public Culture 12, no. 1 (2000): 52.

(18) Ibid.

(19) Hesse and. Sayyid, "A War against Politics."

(20) Steven Lukes and Nadia Urbinati, "Words Matter," Open Democracy (November 27, 2001): 1 available at "openDemocracy@opendemocracy.net"

(21) Cornelius Castoriadis, "The Greek Polis and the Creation of Democracy," in Philosophy, Politics, Autonomy: Essays in Political Philosophy (New York: Oxford University Press, 1991), 113-14.

(22) Roger I. Simon, "On Public Time," Ontario Institute for Studies in Education. Unpublished paper (April 1, 2002), 4.

(23) Simon Critchley, "Ethics, Politics, and Radical Democracy_The History of a Disagreement," Culture Machine, available at "www.culturemachine.tees.ac.uk/frm_fl.htm"

(24) Cornelius Castoriadis, "The Crisis of the Identification Process," Thesis Eleven 49 (May 1997): 85-98.

(٢٥) إن ردود الفعل النقدية على إقدام إدارة بوش على إجراء جلسات استماع سرية للمهاجرين الذي احْتُجِزوا بعد ١١ سبتمبر لم تقتصر على المعارضين "غير الوطنيين". فقد احتج قاضى فدرالى فى نيوجيرسى مؤخراً على قمع الحكومة الشامل لحقوق المحتجزين من المهاجرين. انظر: Susan Sachs, "Judge Rejects U.S. Policy of Secret Hearings," New York Times (May 30, 2002): A21.

(26) Said, "Thoughts about America," 2.

(27) Hesse and Sayyid, "A War against Politics," 3.

(28) These figures are taken from Thomas W. Pogge, "The Moral Demands of Global Justice," Dissent (Fall 2000): 37-43.

(29) Judith Butler, "Explanation and Exoneration," 19.

(30) John Edgar Wideman, "Whose War," Harper's Magazine (March 2002), 33-

(31) Benjamin R. Barber, "Beyond Jihad vs. Mcworld: On Terrorism and the New Democratic Realism," The Nation (January 21, 2002): 17.

(٣٢) أود أن أشكر جين جوردون Jane Gordon على مساعدتها لى فى التفكير فى العلاقة بين السياسة والطهر التى تقع عبر الحدود الأيديولوجية.

(٣٣) للحصول على أمثلة ممتازة لممارسات تدريسية من هذا النوع انظر: the special issue of Rethinking Schools, 16, no. 2 (Winter 2001/2002), titled "War, Terrorism, and America's Classrooms."

(34) Carl Boggs, The End of Politics (New York: Guilford Press, 2000), ix.

(35) Zygmunt Bauman, Globalization: The Human Consequences (New York: Columbia University Press, 1998), 82.

(36) Cited in Anna Greenberg, "What Young Voters Want," The Nation (February 11, 2001): 15.

(37) Cornelius Castoriadis, "Institution and Autonomy," in A Critical Sense: Interviews with Intellectuals, edited by Peter Osborne (New York: Routledge, 1996), 8.

(38) See Henry A. Giroux, Public Spaces, Private Lives: Beyond the Culture of Cynicism (Lahnam, Md.: Rowman &: Littlefield, 2001).

(٣٩) أنا أشير هنا إلى الأعمال التى تمتد من جون ديوى إلى بعض المنظرين التربويين المعاصرين البارزين من أمثال باولو فريرى وأمى ستوارت ويلز.

(40) Pierre Bourdieu, Acts of Resistance (New York: Free Press, 1998).

(41) Samir Amin, "Imperialization and Globalization," Monthly Review (June 2001): 12.

(42) Alain Badiou, Ethics: An Essay on the Understanding of Evil (London: Verso, 1998), 115-16.

(43) George Lipsitz, "Academic Politics and Social Change," in Cultural Studies and Political Theory, edited by Jodi Dean (Ithaca, NY: Cornell University Press, 2000), 81.

مقدمة

كينيث سولتمان (*)

جنرالات عسكريون يديرون المدارس، وطلاب يرتدون أزياء رسمية، وأجهزة وبوابات كشف عن المعادن، وجود ملحوظ للشرطة، وبطاقات هوية متقدمة تكنولوجياً، وكاميرات مراقبة للوقت الحقيقى اعتماداً على الإنترنت، وكاميرات مراقبة خفية متنقلة، وخبراء أمن، وأسوار من سلاسل حديدية، وعمليات تفتيش فجائية ... وهكذا كلما استثمرت المدارس العامة الأمريكية أكثر فى تحقيق مستويات فائقة فى جهاز الأمن المدرسى ازدادت قرباً وشبهاً من الجيوش والسجون. لكن من الخطأ أن نفهم هوس الأمن المدرسى بوصفه مجرد مشهد إعلامى فى أثر حادث مدرسة كولمباين وغيرها من حوادث إطلاق النار الأخيرة فى المدارس الأمريكية التى حظيت بتغطيات إعلامية ضخمة. فقد يكون من أعراض قِصَر النظر أن نفشل فى إدراك مدى عسكرة المدارس العامة وتاريخها الحديث واستخداماتها، حتى من قبل الاهتمام المفاجئ الذى حظيت به بعد أحداث ١١ سبتمبر.

يدفع هذا الكتاب بأنه لا بد من فهم التربية المعسكرة **militarized education** فى الولايات المتحدة فى علاقتها بفرض مطالب الشركات العالمية، حيث تقوم الشركات

(*) كينيث سولتمان Kenneth J. Saltman أستاذ الأصول الاجتماعية والثقافية للتربية بجامعة ديبول DePaul. من أهم مؤلفاته: Public Schools_A Threat to Democracy (Rowman & Linlefield, 2001). كما شارك مع روبين تروث جودمان فى كتاب Strangelove, Or How We Learn to Stop Worrying and Love the Market (Rowman & Lirtlefield, 2002).

بتوسيع الأسواق من خلال العنف المادى والرمزى للحرب والتربية. كأحد موضوعات هذا الكتاب تبين هذه المقدمة كيف تتخلل العسكرة militarism السياسة الخارجية والداخلية والثقافة الشعبية والخطاب التربوى واللغة وتربية المواطنين على فضائل العنف. حيث يوضح الفصل الحالى كيف أن الارتياح الزائد للعسكرة المتصاعدة فى كل مجالات الحياة الأمريكية، خاصة فى التعليم، حتى من قبل أحداث ١١ سبتمبر، كيف مهد الطريق لردود الفعل المعسكرة على نحو متطرف إزاء أحداث ١١ سبتمبر، تلك الردود التى تضمنت مأسسة الحرب الدائمة وتعليق الحريات المدنية والعدوانية النشطة من جانب الدولة والإعلام إزاء محاولات معالجة الأسباب الأساسية التى تكمن وراء تلك الهجمات غير المسبوقة على الأراضى الأمريكية.

يمكن فهم التمدرس المعسكر militarized schooling فى أمريكا بطريقتين واسعتين على الأقل: "التربية العسكرية"، وما أسميه "التربية كفرض". تشير التربية العسكرية military education إلى الجهود الصريحة لتوسيع وإقرار التدريب العسكرى فى المدارس العامة. ومن أمثلة ذلك برنامج فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار JROTC، وبرنامج جنود إلى معلمين Troops to Teachers الذى يستخدم الجنود المتقاعدين فى المدارس، واتجاه استخدام الجنرالات العسكريين كمراقبين للمدارس أو مديرين عامين للإدارات التعليمية، وحركة الزى الرسمى، والمدرسة العامة التابعة لشركة لوكهيد مارتن Lockheed Martin فى جورجيا، وتطوير الجيش لأكبر برنامج تعليمى فى العالم على الإنترنت كإغراء للتجنيد فى الجيش. كما يمكن النظر إلى العدد الكبير من المدارس العسكرية الخاصة مثل أكاديمية فالى فورج العسكرية Valley Forge Military Academy سيئة السمعة التى تخدم الأكاديميات العسكرية العامة والجيش نفسه على أنها المثال الذى يجب أن تحتذيه عسكرة المدارس العامة. وتسعى التربية العسكرية إلى تشجيع التجنيد العسكرى كما فى حالة الـ٢٠٠,٠٠٠ طالب المسجلين فى وحدات فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار التى يقدمها الجيش والبالغ عددها ١,٤٢٠ وحدة على المستوى القومى. وهذه البرامج تناظر برامج

الكشافة للبنين والبنات من خلال تحويل التنظيم الهرمى والمنافسة وترابط الجماعة واستخدام الأسلحة إلى لهو ولعب. ومن خلال التركيز على أنشطة المغامرة تحقق هذه البرامج نجاحًا باهرًا، وهو ما يتضح من التحاق نصف خريجى "فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار" (٤٧٪) بالخدمة العسكرية.

وفضلاً عن تشجيع التجنيد، تلعب التربية العسكرية دورًا رئيسيًا فى إزكاء التركيز الاجتماعى على الضبط. وبإيجاز فإنه عند الحديث عن التربية المعسكرة فى سياق الولايات المتحدة لا يكفى أن نحدد أوجه الشبه المتزايدة بين المدارس من ناحية والجيش والسجون من ناحية أخرى. فتلك الظاهرة لا بد أن تُفْهَم كجزء من عسكرة المجتمع المدنى، كما تتمثل فى تصاعد العمل البوليسى المعسكر وصلاحيات الشرطة المتزايدة للتفتيش والاعتقال والقوانين المضادة للتجمع العام وسياسات "اللاتسامح" وتحويل الرفاه إلى برامج عمل عقابية. وقد اشتدت عسكرة المجتمع المدنى بعد أحداث ١١ سبتمبر، حيث استغل المحافظون ومعظم الليبراليين فرصة "التهديد الإرهابي" لتبرير إصدار قانون باتريوت الذى -كما تصفه نانسى تشانج من مركز الحقوق الدستورية - يضحى بالحريات السياسية ويركز القوة على نحو خطر فى السلطة التنفيذية.

> **إنه يحقق تلك الغايات غير الديمقراطية من خلال ثلاث طرق على الأقل. أولاً يضيع القانون حقوقنا فى التعبير والتجمع السياسى المنصوص عليها فى التعديل الأول، وذلك من خلال خلق جريمة "الإرهاب الداخلى" الجديدة، تلك الجريمة المطاطة، وإنكار حق غير المواطنين فى دخول الولايات المتحدة على أساس الأيديولوجيا. ثانيًا يُخَفِض القانون سقف توقعاتنا المنخفض أصلاً بالسرية من خلال منح الحكومة مزيدًا من سلطات المراقبة. ثالثًا يجور القانون على حقوق غير المواطنين فى المحاكمة القانونية بالسماح للحكومة بوضعهم قيد الاعتقال**

الإجباري وترحيلهم من الولايات المتحدة بناءً على أنشطة سياسية أعاد القانون تعريفها على أنها إرهابية[1].

وكما تدفع تشانج، على نحو مقنع، فإن قانون باتريوت لا يقدم الكثير لمكافحة الإرهاب، لكنه مع ذلك يهدد الضمانات الدستورية الأساسية، وعلى الأخص حرية المعارضة السياسية، التي تعد من نواحي كثيرة قوام الحياة للديمقراطية، وذلك لأنها تشكل الأساس للتروي العام public deliberation حول مستقبل الأمة. وتلك العناصر القمعية للدولة المتمثلة في ظواهر مثل النظام البوليسي المعسكر والنمو المتطرف في نظام السجون والرقابة المكثفة يلازمها تزايد في سيطرة الشركات على الحياة اليومية. وإخضاع الحياة اليومية للشركات يتسم بسيطرة الشركات على إنتاج وتوزيع المعلومات في شكل السيطرة على النشر الإعلامي والتعليمي، واستخدام الشركات لتكنولوجيا المعلومات في جمع معلومات حول هوية المستهلكين عن طريق شركات التسويق وبطاقات الائتمان، والانخراط المتزايد للشركات في التمدرس العام والتعليم العالي على مستويات عدة. إن عبارة "التربية كفرض"(*) تحاول تفسير الظاهرتين التوأمتين العسكرة militarization وسيطرة الشركات corporatization في تشكيلها ليس فقط لحقل التربية، وإنما أيضًا للمجتمع الأكبر. فالمصطلح يشير إلى التحولات في التعليم كمجال نتيجة لتلك الاتجاهات، ويشير كذلك إلى مدى مركزية التعليم في الأشكال الجديدة التي تتخذها القوة.

إن ما أسميه "التربية كفرض" يفهم التعليم العام المعسكر كجزء من عسكرة المجتمع المدني، التي يجب فهمها هي الأخرى كجزء من الحركات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية الأوسع للعولمة الشركاتية المسنودة من الدولة، تلك الحركات التي تسعى إلى تقليص القوة الديمقراطية العامة وتمديد وفرض قوة الشركات محليًا

(*) تجدر الإشارة - كما ورد في تقديم المترجم - إلى أن العنوان الرئيسي للنص الأجنبي هو "التربية كفرض" Education as Enforcement [المترجم].

وقوميًا وعالميًا. فيما يلى فى هذا الفصل سوف أطرح تلك الارتباطات. وبعد ذلك، ومن خلال قراءة التغطية الإخبارية لهجوم حلف شمال الأطلنطى على كوسوفو فى علاقته بحادث إطلاق النار فى مدرسة كولمباين الثانوية، سوف يوضح النصف الأخير من هذه المقدمة كيف أن كلا الحادثان كان ورائهما محرك واحد: منطق العنف العسكرى، ذلك المنطق الثقافى الذى تدفعه الشركات. وبعد ذلك سوف أناقش كيف أن الحركة ضد العسكرة فى التعليم يجب أن تتحدى الطرق الكثيرة التى من خلالها تعمل العسكرة، بما هى منطق ثقافى، على فرض تمديد قوة الشركات وتقليص القوة الديمقراطية العامة.

التربية من أجل فرض العولمة

إن العولمة الشركاتية corporate globalization، التى يجب النظر إليها كمذهب أكثر منها كظاهرة حتمية، تقف ورائها فلسفة الليبرالية الجديدة. يؤكد المذهب الاقتصادى والسياسى فى الليبرالية الجديدة على مناقب خصخصة وتحرير التجارة، ويؤمن بالتلازم مع ذلك بقدرة السوق على ممارسة الضبط الصارم لتسوية كل المشكلات الاجتماعية والفردية. وفى الولايات المتحدة تميزت سياسات الليبرالية الجديدة بمن يناصرونها باعتبارها "سياسات السوق الحر التى تشجع المشروع الخاص والاختيار الاستهلاكى، وتكافئ المسئولية الشخصية والمبادرة فى مجال المشروعات، وتقوض اليد الميتة للحكومة الطفيلية البيروقراطية غير الكفؤة، التى لا يمكن أن يصدر عنها شىء جيد، حتى وإن كانت حسنة النية، وهو ما لا يكون إلا نادرا"[٢]. ووفقا لرؤية الليبرالية الجديدة فإن الحيز العام public sphere إما يجب خصخصته، كما فى الدعوة إلى خصخصة المدارس العامة الأمريكية والمتنزهات العامة والضمان الاجتماعى والرعاية الصحية وما شابه ذلك، أو يجب أن يكون فى خدمة الحيز الخاص، كما فى حالة الإعانات الفيدرالية للشركات العاملة فى مجالات الزراعة والترفيه والدفاع.

وكما لاحظ كثير من النقاد فإن جهود العولمة لم تؤد إلى علاقات اجتماعية أكثر عدلاً، سواء من حيث إتاحة الوصول إلى القوه السياسية أو السيطرة الديمقراطية على الاقتصاد. فرغم الازدهار الاقتصادى الذى بشر به الإعلام الإخبارى الشركاتى عند منعطف الألفية، بلغ التفاوت فى الثروة مستويات أعلى مما كان عليه فى أثناء فترة الكساد الكبير[٣]، حيث يمتلك أغنى ٣٠٠ شخص فى العالم ثروة تفوق ما تملكه أفقر ٤٨ دولة فى العالم مجتمعة، وحيث يمتلك أغنى ١٥ شخص ثروة تفوق الناتج الإجمالى لأفريقيا جنوب الصحراء[٤].

وفقًا لأحدث تقارير برنامج الأمم المتحدة الإنمائى بلغ الاستهلاك العالمى من السلع والخدمات عام ١٩٩٧ ضعف ما كان عليه عام ١٩٧٥ وستة أضعاف ما كان عليه عام ١٩٥٠، ومع ذلك فإن مليار شخص لا يمكنهم إشباع حتى احتياجاتهم الأولية. ومن بين سكان الدول "النامية" البالغ عددهم ٤,٥ مليار شخص، يوجد ثلاثة من كل خمسة أشخاص محرومين من توفر البنى التحية الأساسية: فثلثهم لا يجدون مياه شرب صالحة، وربعهم ليس لديهم مسكن جدير بهذا الاسم، وخمسهم لا تقدم لهم خدمات صحية أو طبية. فضلاً عن أن واحداً من كل خمسة أطفال يقضون أقل من خمس سنوات فى أى شكل من التمدرس، ونسبة مماثلة تعانى نقصًا فى التغذية[٥].

إن الضوابط القاسية التى تفرضها منظمات التجارة الدولية مثل البنك وصندوق النقد الدوليين تضمن إدامة فقر الدول الفقيرة من خلال فرض "الضبط المالى" fiscal discipline عليها، فيما لا يطبق هذا الضبط على صناعات كاملة تتلقى إعانات ضخمة من القطاع العام فى الولايات المتحدة. وفيما يتراوح معدل البطالة الرسمى فى الولايات المتحدة حول ٥٪، فإن الأجور الحقيقية آخذة فى التناقص بشكل منتظم منذ السبعينات، لدرجة أنه لا يوجد فى أى مكان فى الولايات المتحدة مسكن من غرفة نوم

واحدة يمكن لعامل من ذوى الأجور المنخفضة أن يتحمله(٦). أما اتفاقيات التجارة الحرة مثل اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية NAFTA (وتوسعها إلى منطقة التجارة الحرة للأمريكتين FTAA) والجات GATT، فقد أدت إلى إثراء نخب الشركات فى المكسيك والولايات المتحدة، فى الوقت الذى كشفت فيه الفقر على طول الحدود(٧). فالتجارة الحرة تعنى طيران رأس المال وفقدان الوظائف وتفكيك اتحادات العمال فى الولايات المتحدة، وتزايد شروط عمل العبيد فى الدول التى تتلقى الإنتاج الصناعى مثل إندونيسيا والصين. لكن ربما يتجسد الفشل الأكبر للرأسمالية الليبرالية فى نجاحها فى نشر الكوكاكولا فى كل شبر على وجه الأرض، بينما فشلت فى توفير أدوية رخيصة للأمراض القابلة للمنع أو طعام مغذى أو أجور ملائمة لنفس مدن الأكواخ المتمددة فى إثيوبيا والبرازيل والولايات المتحدة. فـ ٤٧ مليون طفل فى أغنى ٢٩ دولة فى العالم يعيشون تحت خط الفقر. وقد تفاقم فقر الأطفال فى الدول الأكثر ثراءً مع تراجع الأجور الحقيقية، فى الوقت الذى كان الدخل القومى فيه يرتفع على مدار نصف القرن المنصرم(٨). إن تأثيرات العولمة على قاطنى العالم هى صرخة عميقة طلبًا للحرية.

إن الليبرالية الجديدة باعتبارها المذهب الذى يقف خلف الرأسمالية العالمية لا بد أن تُفْهَم فى علاقتها بممارسة ما تسميه إلين ميسكنز وود "الإمبريالية الجديدة" new imperialism، فالمسألة "ليست مجرد السيطرة على مناطق معينة، بقدر ما هى السيطرة على كامل الاقتصاد العالمى والأسواق العالمية فى كل مكان وطوال الوقت"(٩). ومشروع العولمة وفقًا لتوماس فريدمان المراسل الخارجى لجريدة نيويورك تايمز "هو مصلحتنا القومية الجامعة"، وهذا المشروع "يحتاج إلى بنية قوة مستقرة، وليس ثمة دولة أكثر أهمية لهذا المشروع من الولايات المتحدة"، ذلك لأن "لديها جيش دائم ضخم مزود بحاملات طائرات ومقاتلات نفاثة متقدمة وطائرات نقل وأسلحة نووية أكثر بكثير من أى وقت مضى، بما يجعلها قادرة على حشد قوة أكبر من أية دولة أخرى فى العالم ... فأمريكا تتفوق فى كل المقاييس الجديدة للقوة فى عصر العولمة". وكما يشرح

فريدمان فى أثناء الحشد من أجل القصف "الإنساني" لكوسوفو، فإن "اليد الخفية للسوق لن تنجح أبداً من دون القبضة الخفية، إذ لا يمكن لماكدونالد أن يزدهر من دون ماكدونل دوجلاس مصمم طائرات ف-١٥، أما القبضة الخفية التى تجعل العالم آمناً لتكنولوجيا وادى السليكون فتسمى الجيش والقوات الجوية والأسطول والقوات البحرية الأمريكية"(١٠). والسياسات العسكرية الجديدة لإدارة بوش القائمة على الحرب الدائمة تؤكد فرضية وود. فالعودة إلى مستويات الإنفاق العسكرى للحرب الباردة البالغ ٤٠٠ مليار دولار، مع ربط ١٠-١٥٪ منها فقط لمعايير مكافحة الإرهاب المعززة، يمكن تفسيرها كجزء من إستراتيجية أمريكية صريحة للتوسع الإمبريالى، سهلها التلفيق الإعلامى الماهر وسط مخاوف ما بعد ١١ سبتمبر. فتأطير تلك الأحداث مَكَّن ليس فحسب من التبنى العلنى لسياسة القوة العنيفة والأحادية الأمريكية العنيدة، بل مَكَّن أيضاً من تأطير مكثف للديمقراطية بوصفها رأسمالية استهلاكية. ومن ذا الذى يستطيع أن ينسى مناشدات الدولة والشركات للناس يوم ١٢ سبتمبر بأن يكونوا وطنيين ويخرجوا للتسوق. إن تلفيق ما بعد ١١ سبتمبر يعد مشروعاً تربوياً ناجحاً بامتياز. فجأة، وفى مقررات إعداد المعلمين، أخذ الطلاب الذين كانوا يعلنون بفخر أنهم لا يرون أية علاقة بين سياسات الولايات المتحدة الخارجية والتمدرس الأمريكى، أخذوا يعلنون، بفخر أيضاً، أن المعلمين يجب أن يعلموا التلاميذ فى نفس اتجاه الجهود القومية للهيمنة والسيطرة وشن الحروب على الأمم الأخرى التى يمكن أن تهدد هيمنتنا الاقتصادية والعسكرية، لأن لدينا أفضل "طريقة حياة"، و"لأنهم يغارون من حرياتنا" لأنهم "غير عقلانيين بسبب فشلهم فى إدراك أن طريقة حياتنا تفيد الجميع". لكن الإنفاق العسكرى الجديد لإدارة بوش ليس إلا جزءاً من الميراث الأطول للإنفاق العسكرى للحرب العالمية الثانية، ذلك الميراث الذى أدى، حسب تعبير عالم الاقتصاد سمير أمين، إلى اقتصاد أمريكى "مشوه بدرجة رهيبة"، حيث يعتمد ثلث النشاط الاقتصادى كله بشكل مباشر أو غير مباشر على المجمع العسكرى، وهو مستوى لم يصله من قبل إلا الاتحاد السوفيتى فى عهد بريجينيف، كما ينبه أمين(١١).

والقوة الإفقارية للعولمة توازى القوة العسكرية التدميرية للإمبريالية الجديدة التى تفرض السياسة الليبرالية الجديدة من أجل جعل العالم أمنًا للأسواق الأمريكية. ومع ذلك فإن الأسلحة ليست الوسيلة الأساسية لضمان موافقة الأمريكيين على السياسات الاقتصادية والترتيبات السياسية التى تُفْقِر العالم ماديًا وتختزل المستقبل المتصور إلى مجرد تكرار لحاضر كئيب. فالتربية ممثلة فى التمدرس الرسمى والتربية الثقافية الغالبة على الإعلام الشركاتى نجحت إلى درجة مثيرة فى جعل أوجه اللامساواة الضارية تبدو وكأنها من طبائع الأشياء، وفى تأطير القضايا لصالح الشركات، وإنتاج حالات من التوحد مع القوة الفجة، وتقديم التاريخ بطرق تنزع منه النضال الشعبى، وعلى وجه العموم تحويل مناقشة الصالح العام إلى مجازات السوق(١٢).

ومع أن الليبراليين والمحافظين استقبلوا الليبرالية الجديدة فى البداية، فى وقت إرساء ميلتون فريدمان لها إبان إدارة كينيدى، بحسبانها ترتيب راديكالى وشاذ، فقد بدأت تكتسب أرضًا فى عهد ريجان/تاتشر. ومما لا يخلو من دلالة أنه فى عهد ريجان أيضًا نُشِر تقرير "أمة فى خطر" الشهير عام ١٩٨٣. وضع هذا التقرير التعليم العام الأمريكى فى أزمة من خلال لغة الشركات العالمية والمنافسة العسكرية. بدأ التقرير بالقول بأنه "إذا حاولت قوة أجنبية غير صديقة أن تفرض على أمريكا هذا الأداء التعليمى العادى القائم اليوم، فلربما اعتبرنا ذلك عملاً عسكريًا". ويوحى التقرير بأن ثمة أزمة فى التعليم تتطلب إصلاحًا جذريًا. ولأن الأزمة صيغت بلغة اقتصادية وعسكرية، فإن الحل يجب البحث عنه فى هذين المجالين. وقد كان هذا الخطاب نقطة تحول فى التناول العام للتعليم الأمريكى. ففيما كانت المبادرات المبكرة مثل قانون إعادة تأهيل الجنود، ورد الفعل على القمر الصناعى الروسى سبوتنيك، توضح ارتباطًا قويًا بين الجيش والتعليم، فإن الشىء الجديد يكمن فى ربط العسكرة بإعادة تعريف التعليم من أجل صالح الشركات أكثر منه من أجل الصالح العام. بمعنى أن ذلك التحول كان بمثابة دمج لمصالح الشركات مع الصالح الاجتماعى، وبدايات لمحو فكرة العام. فقد غدا مديرو الشركات الناطقين الشرعيين باسم الإصلاح التعليمى. لدرجة أن لاعبين اقتصاديين بحجم لويس جيرستنر Louis Gerstner من مجموعة آى بى إم

IBM بدءوا فى التصريح بأن التعليم يجب أن يخدم احتياجات الشركات. وعلى نحو متزايد، وكما لاحظ ديفيد لابارى Divid Labaree، فإن هذا الاتجاه يميز تحولاً نحو تعريف دور المدارس العامة على أنه إعداد الطلاب للحراك الاجتماعى الصاعد من خلال الاستيعاب الاقتصادى. ولذلك، وعلى المستوى الاجتماعى، أصبحت المدارس يُنظَر إليها فجأة على أنها توجد من أجل صالح الاقتصاد القومى، ذلك الاقتصاد الواقع تحت سيطرة الشركات، وعلى المستوى الفردى أصبحت المدارس تجد تبريرها فى الانضواء داخل هذا الاقتصاد الذى تسيطر علية الشركات.

وحالة مايكل ميلكن Milken تعد مثالاً رائعًا للعلاقة بين إعادة تعريف الليبرالية الجديدة لأهداف التمدرس العام وحركة الخصخصة. فبُعَيد إعفائه من السجن لأكثر من ٩٨ تهمة احتيال وتجارة من الباطن أدت إلى استنزاف مليارات الدولارات من القطاع العام، دشن ميلكن على الفور مجموعة تعليمية تحمل اسم عالم المعرفة Knowledge Universe مع أصدقائه القدامى من بنك دريكسل Drexel للاستثمار. ومع شرائه لشركات تعمل فى خصخصة التمدرس العام، صرح ميلكن على موقعه الإلكترونى بأن المدارس يجب أن تخدم احتياجات الشركات. وقد لاقى ذلك منه عاصفة من الثناء من جانب الصحافة، وحتى صحف محترمة مثل نيويورك تايمز، بل وأعلنته صحيفة بنزنس ويك شخصية أعظم من الأم تريزا، وذلك لأنه خلص نفسه من الماضى الملوث بتلك الأعمال الجيدة فى التعليم. وإضافة إلى عالم المعرفة، أسس ميلكن معهد ميلكن الذى يروج للسياسات الاجتماعية لليبرالية الجديدة، كما أنشأ مؤسسة ميلكن للأسرة التى تمول البحوث وتمارس الضغوط من أجل خصخصة الاقتصاد ونظام التعليم الإسرائيلى من خلال مركز القدس للشئون العامة. كما مول ميلكن الهجوم المفترى لجستس ريد وينر Weiner فى مجلة كومنترى Commentary Magazine على المفكر التقدمى الفلسطينى والناطق باسم حقوق الإنسان الفلسطينية إدوار سعيد. وقد كان لميلكن دور بارز فى نمو مجموعة تايم/وارنر Time/Warner إلى حد الاحتكار، وهو ما تضمن ابتلاع تايم لشركة الأخوة وارنر وشركة تيرنر للبث، وكذلك نمو مجموعة إم سى أى MCI إلى درجة الاحتكار. وكما أوضح روبرت

ماكتشيسنى وإدوارد هيرمان وغيرهما فإن الاندماج المتطرف للإعلام الشركاتى بسيطرته الخانقة على إنتاج المعرفة أسهم إلى درجة كبيرة فى نجاح أيديولوجيا الليبرالية الجديدة(١٣).

حتى التسعينات لم تكن تصورات الليبرالية الجديدة تؤخذ مأخذ الجد، وذلك جزئيًا بسبب انهيار الاتحاد السوفيتى عام ١٩٩١. فقد جاء ذلك الانهيار ليدشن موجة من الادعاءات بأننا نعيش فى النظام الاجتماعى الأفضل والوحيد. وهذا النظام يتميز بما يسميه زيجمونت بومان فرضية "ليس ثمة بديل" للنظام الحالى(١٤). بدأت هذه الفرضية بمقولة "نهاية التاريخ" التى أطلقها فرانسيس فوكوياما، ثم انتقلت إلى كتاب "السيارة ليجزص وشجرة الزيتون" لتوماس فريدمان بمنطقه الدائرى: كل واحد فى العالم يود أن يكون أمريكيًا لأن نظامنا هو أفضل نظام ممكن على الإطلاق، وإذا كان هناك من لا يودون أن يكونوا أمريكيين فإن ذلك يثبت لاعقلانيتهم، ويجب علينا أن نقصفهم إلى أن يدركوا أن نظامنا هو أفضل نظام ممكن. وقد جاء تفكك النظام السوفيتى باعتباره رمزًا لبديل ممكن ليفسح الطريق لتزايد الإصرار من جانب الليبراليين الجدد على أنه إذا كان النظام الحالى هو النظام الوحيد الممكن، فإن المهمة يجب أن تتمثل فى فرض تصوراته وتنظيم المؤسسات والممارسات الاجتماعية وفقًا لتلك التصورات. من ذلك مثلاً أن تجد وليام راسبيرى الصحفى بالواشنطن بوست (الذى يؤيد الخصخصة الكاملة للمدارس العامة) يقول أن الدروس ذات المخطوطات(*)

(*) تشير الدروس ذات المخطوطات scripted lessons أو التدريس بمخطوطات scripted teaching إلى برامج القراءة التجارية التى تتكون من دروس محكمة التنظيم، وفى الغالب توزع الوقت بدقة لكل مهارة تدريسية محددة، وفى الغالب أيضًا تحدد للمعلم ما يقوله كلمة بكلمة. يوصف هذا التدريس فى العادة للمدارس التى لا يمتلك معلموها التدريب أو التأهيل الكافيين فى مجال التدريس، وكطريقة لتقنين جودة التدريس. يرى النقاد أن هذه البرامج تخنق ابتكار المعلمين وتقوض خبرتهم وتفشل فى الوفاء بالاحتياجات المتنوعة لكثير من الفصول، بينما يرى أنصارها أنها أسهل طريقة لتزويد المعلمين بالعناصر الأساسية للتدريس الفعال للقراءة [المترجم].

قد تبدو جافة لكنها "تنجح"(١٥). ومثل هذه المقاربة الذرائعية للتعليم، التي تعتمد صراحة على مقاييس "نجاح" يفترض أنها متحررة من القيم وقابلة للتكميم، تفشل في الإقرار بضرورة فهم الكفاءة في علاقتها بالسياقات الاجتماعية الأوسع والتواريخ والأفكار المتنافسة حول ما يعد معرفة ذات قيمة. ومن ذلك على سبيل المثال: كيف وصلت مجموعة المبادئ التي يروج لها هيرش الابن Hirsch Jr من خلال مدارس المعرفة الأساسية(*). التابعة له لأن تكون معرفة ذات قيمة اجتماعية؟ أية منظورات طبقية أو عرقية أو منظورات خاصة بالنوع تلك التي تمثلها هذه المعرفة؟ وبالتأكيد تترتب تكاليف اجتماعية مرتفعة على إجراءات مثل كتابة مخطوطات المناهج والتقنين وهوس الاختبارات. ففي هذا السياق تُعَرَف المواطنة بأنها الإتباع غير الناقد للسلطة، وتُقَدَم المعرفة على نحو خاطئ على أنها وحدات متحررة من القيم يجب تخزينها ميكانيكيًا، ويحاكي التمدرس المنطق الاجتماعي الجديد الذي يؤكد على الحراك الاجتماعي الاقتصادي أكثر منه على التحويل الاجتماعي، بمعنى أنه ينظر إلى المجتمع على أنه موقف معيب لكن غير قابل للتغيير يجب على الأفراد فيه أن يسعوا إلى الانضواء في "النظام العالمي الجديد".

على أن هذا النقد للتعليم الذرائعي ليس جديدًا بطبيعة الحال. ففي مجال التربية أسهمت تقاليد التربية النقدية التي تشمل فريري وآبل وجيرو وآخرين في جعل هذه النظرة النقدية مبدأ أساسيًا. لكن ما يميز الذرائعية في ظل مطالب الليبرالية الجديدة هو غياب التصورات القبلية المأخوذة مأخذ المسلمات حول نظام تعليمي يُقْصَد به أن يحسن وينور ويكمل الفرد والمجتمع. فالمسألة بالنسبة لليبرالية الجديدة لا تقتصر على النزعة الفردية المتطرفة والاحتفاء بالمشروعات والمنافسة بوصفها فضيلة، بل هي مسألة حظر التفكير في الاجتماعي بوصفه عامًا. وبتعبير مارجريت تاتشر فـ"ليس ثمة

(*) مدارس المعرفة الأساسية Core Knowledge Schools مناهج تفرض على المدارس والطلاب أنواع المعارف التي يرى أنصارها أنها مهمة، وهي في الغالب تعزز الحفظ والاستظهار وتتفق مع اتجاه التقنين والاختبارات عالية الرهان [المترجم].

شيء من قبيل المجتمع الإنجليزى"، غاية ما هنالك أسر إنجليزية فحسب(١٦). وفرضية "ليس ثمة بديل" ماكرة فعلاً. فعندما لا يكون هناك بديل للنظام الحالى، يكون السؤال الوحيد هو كيف نحقق الهدف وهو محو أى شيء وأى شخص يشكك فى النظام الحالى. لذلك كان من السهل بعد ١١ سبتمبر أن تناقش طرق تتناقض جذرياً مع تقاليد الديمقراطية الليبرالية فى الحرب على الإرهاب (وليس من قبيل المصادفة أن الحرب الجديدة أُعلنت على طريقة حرب محددة وليس على خصم أيديولوجى أو أمة أخرى. وذلك تحديداً لأنه ليس ثمة بديل للنظام الحالى، فقيم وأيديولوجيات ومعتقدات الخصم غير قابلة للناقش. والأخلاق مسألة استراتيجية ليس أكثر). وعليه كان تعذيب السجناء واختفاء المشتبه بهم، والتجسس على الناس من دون حدود، والمستوى غير المسبوق لسرية أعمال الحكومة، كانت أمثلة قليلة للتطورات الفاشية التى تحققت فى العام الأول بعد ١١ سبتمبر. لكن تدمير برجى مركز التجارة لم يكن هو نفسه السبب وراء اندفاع هذه النزعة الفاشية بقدر ما كان هذا السبب يتمثل فى نجاح أيديولوجيا الليبرالية الجديدة فى تحريم التفكير فى - ومناقشة وابتكار- نظام آخر أكثر عدلاً للتوزيع الاقتصادى والمشاركة السياسية والاعتراف الثقافى.

دخل رونالد ريجان البيت الأبيض بخطط لتفكيك وزارة التعليم الأمريكية وتنفيذ مخططات مستندات الضامن المدرسية(*) voucher schemes التى تستند إلى نظام

(*) مستندات ضامن المدرسة school voucher أو ضامن التعليم education voucher أو مدرسة الضامن بالتعبير المتداول عبارة عن شهادة تصدرها الحكومة ويستطيع أولياء الأمور بمقتضاها أن يدفعوا تكاليف تعليم أطفالهم فى المدرسة التى يختارونها وليس المدرسة العامة التى يُوَزَّع أطفالهم عليها. يرى أنصار هذا النظام أنه يعزز منافسة السوق الحر بين المدارس من كل الأنواع، بما يقدمه من حوافز للمدارس لكى تحسن نفسها، حيث ستتمكن المدارس الناجحة من جذب الطلاب، بينما لا يكون أمام المدارس السيئة إلا أن تصلح نفسها أو تُغْلَق. وهذا النظام بذلك يجعل المحاسبية فى أيدى المستفيدين النهائيين من الخدمة التعليمية بدلاً من الاعتماد على المعايير الحكومية. كما أن هذا النظام يرفع الظلم عن المواطنين الذين يُلْحِقون أبنائهم فى مدارس خاصة، ويدفعون فى نفس الوقت ضرائب تذهب إلى تمويل المدارس العامة التى لا يستفيدون منها. وفى المقابل يرى النقاد أن هذا النظام محاولة للقضاء على المدارس العامة وخصخصة التعليم وتوفير مجالات جديدة للشركات للربح، وأن سندات الضامن ستذهب فى المقام الأول إلى الأغنياء الذين يعلمون أبنائهم بالفعل فى مدارس خاصة [المترجم].

السوق. لكن المبادرتان فشلتا، وذلك فى المقام الأول بفضل اتحادات المعلمين، علاوة على أنه كان لابد من إقناع الرأى العام عن طريق جيل من حملات العلاقات العامة الممولة من الشركات حتى تبدو تصورات الليبرالية الجديدة وكأنها من طبائع الأمور[١٧]. ورغم هذا الفشل، انتحل ريجان بنجاح فى دورته الرئاسية الثانية نموذج مستندات ضامن المدرسة الجذابة(*). ذلك النموذج العرقى الجذاب القائم على العدالة الذى طوره الليبراليون، ليعلن -أى ريجان- أن نموذج السوق (وليس الفعل الفيدرالى السلطوى ضد العرقية) هو المسئول عن الجودة العالية فى هذه المدارس[١٨]. ومما لا يجب أن يفوتنا هنا أن الانتصار الفعلى لمثل هذا الخطاب كان من شأنه أن يحول مناقشة التمدرس العام فى أمريكا بعيداً عن الانشغالات السياسية بالدور الذى يجب أن يلعبه التعليم فى إعداد المواطنين للمشاركة الديمقراطية. فأخذت استعارات السوق تعيد تعريف التعليم العام باعتباره سلعة أو خدمة يستهلكها الطلاب وأولياء الأمور مثل ورق أو صابون الحمام. فرغم تاريخ القهر العرقى والطبقى الذى يعود بدرجة ليست صغيرة إلى حقيقة أن التمدرس العام الأمريكى كان يرتبط بالثروة المحلية، وبالتالى كان يتم توزيعه على نحو غير متكافئ باعتباره أحد الموارد، رغم ذلك ظل التمدرس العام موقعاً للتروى الديمقراطى تلتقى فيه الجماعات لتتصارع حول القيم. فرغم القيود المادية والأيديولوجية التى يواجهها المعلمون والمديرون فى الغالب، فإن الطابع العام لهذه المدارس خولها إمكانية أن تكون أماكن يمكن فيها للمناهج وممارسات المعلمين

(*) المدرسة الجاذبة magnet school فى الولايات المتحدة هى مدارس ذات مقررات أو مناهج متخصصة، وتسمى جاذبة لأنها تأخذ طلابها من منطقة واسعة يحددها القانون، وتكون فى العادة إدارة تعليمية. من هذه المدارس مدارس أولية ومتوسطة وثانوية. جاءت هذه الصيغة التعليمية رداً على هرب البيض من المدارس العامة سيئة الأداء إلى المدارس الجديدة فى الضواحى، وما نتج عن ذلك مما بدا أنه فصل عنصرى فى المدارس، حيث تتيح هذه المدارس القيد لكل الطلاب من الإدارة التعليمية بصرف النظر عن انتمائهم العرقى. لكن فى التطبيق، ونتيجة لمتطلبات القبول، استحوذ الطلاب البيض والأغنياء على هذه المدارس، لتنضم إلى سلسلة من الإصلاحات التعليمية التى نجحت محاولات التميز والفصل العرقى من جانب البيض والأغنياء فى إفشالها [المترجم].

أن تعبر عن رؤية للمستقبل أوسع من تلك التى تتصورها الشركات عابرة الحدود. وعلى ذلك فعند الحديث عن التمدرس العام المعسكر فى الولايات المتحدة لا تكفى الإشارة إلى تزايد الشبه بين مدارس معينة (خاصة مدارس غير البيض الحضرية) والجيش أو السجون، ولا يكفى إبراز طرق استخدام المدارس العامة فى التجنيد العسكرى. فلا بد من فهم التمدرس العام المعسكر فى علاقته بفرض العولمة من خلال تنفيذ كل السياسات والإصلاحات التى تتوجه صوب مثال الليبرالية الجديدة. فالعولمة تُفْرَض من خلال مخططات الخصخصة مثل نموذج مستندات الضامن ونموذج مدرسة الوثيقة(*) والتعاقد على الأداء performance contracting والتتجير commercialization، والمعايير ومخططات المحاسبية التى تسعى إلى فرض منهج موحد والتأكيد على الاختبار والأداء القابل للقياس، والتقييم والاعتماد (فى التعليم العالى) والمناهج التى تحتفى بقيم السوق وثقافة أصحاب القوة أكثر منها بالقيم الإنسانية الديمقراطية. فمثل هذه المناهج والإصلاحات تصمم بطريقة تتجنب الأسئلة النقدية حول العلاقات بين إنتاج المعرفة والقوة والسلطة والسياسة والتاريخ والأخلاق. ورغم أن بعض الشركات متعدية الحدود، مثل شركة ديزنى و"مدرسة المشاهير" Celebration School التابعة لها، وشركة النفط البريطانية فى كولومبيا (انظر الفصل الثانى) ومنهج علوم المرحلة المتوسطة الذى تروجه، رغم أن أمثال هذه الشركات انتحلت طرقًا تربوية تقدمية، إلا أن تلك المناهج، شأنها فى ذلك شأن الإعلانات، تسعى إلى دعم رؤية للعالم تتحقق على أفضل نحو فى ظل إدارة هذه الشركات التى تتسم بالخيرية.

(*) مدارس الوثيقة charters هى مدارس أولية وثانوية فى الولايات المتحدة تتلقى التمويل العام ولا يسمح لها بفرض أية رسوم إضافية على الطلاب، لكنها تتحرر من بعض القيود والتشريعات التى تُطبق على المدارس العامة فى مقابل شكل من المحاسبية عن إنتاج نتائج معينة تُحدَّد فى وثيقة إنشاء المدرسة. بعض هذه المدارس يقدم منهج يتخصص فى مجال معين مثل الفنون أو الرياضيات، وبعضها يحاول أن يقدم تعليمًا عامًا أفضل من المدارس العامة المجاورة. وبعض هذه المدارس ينشئها المعلمون أو أولياء الأمور أو النشطاء الذين يشعرون أن المدارس العامة التقليدية تقيدهم بشكل ما. وبعضها يتبع الولايات مباشرة وليس الإدارات التعليمية المحلية، وهذه تنشئها الجماعات غير الربحية والجامعات وبعض الهيئات الحكومية. وبعض الإدارات التعليمية تسمح للشركات بفتح سلاسل من المدارس غير الربحية [المترجم].

إن برنامج فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار JROTC ومستويات التجنيد فيما قبل ١١ سبتمبر أثبتت أنها غير كافية لتزويد الجيش الأمريكى، وفقا لنظام التطوع، بكفايته من الجنود، بما يمكنه من استخدام -بحسب كلمات توماس فريدمان- "القبضة الخفية التى تجعل العالم آمنا لتكنولوجيا وادى السيليكون وماكونالد"[١٩]. فقد شهد التجنيد العسكرى فى الولايات المتحدة أزمة فى السنوات القليلة الماضية. ففى ١٩٩٩ وصل الجيش إلى أسوأ مستويات العجز فى التجنيد منذ ١٩٧٩، حيث وصل العجز إلى سبعة آلاف مجند دون القوة المطلوبة وقدرها ٧٤,٥٠٠ مقاتل. وشهدت القوات الجوية عجزًا قدره ١٥٠٠-١٨٠٠ فردًا، فيما كان على الأسطول أن يقلل الأعداد المستهدفة بسبب عدم الإقبال[٢٠]. ونتيجة لعدم استيفاء الأعداد المستهدفة من المجندين استثمر الجيش بسخاء فى عدد من الحملات الإعلامية الجديدة، التى تعيد جذريًا تعريف صورة الجيش وتستخدم "التداؤب" synergy للارتقاء بصورة أفرع الخدمة بالجيش فى أفلام هوليود وفى التليفزيون. من أمثلة ذلك استخدام إعلانات الأسطول للقطات من فيلم "رجال شرفاء" Men of Honor مع بث إعلان عسكرى قبل الفيلم. ونظرًا لأن الجيش الأمريكى يجب أن يعتمد بالكامل على الموافقة وليس الإكراه فى ملء صفوفه، فإنه يُصَوَّر فى الإعلانات باعتباره متعة وإثارة، كما تُرْبَط بطولة الخدمة فى الجيش بصور عاطفية مثيرة تلعب على براءة الطفولة وأمن الأسرة من أجل بيع الشباب فى مشروع القتل.

إن الحملة الجديدة للقوات الجوية التى تحمل اسم "هدهدة" تعزز الشعار الجديد للقوات الجوية "لا أحد يمكنه أن يقترب". ومن خلال مضاعفة ميزانيتها الإعلامية أربعة أضعاف لتبلغ ٧٦ مليون دولار (كل أفرع الخدمة تنفق على الإعلان ١١ ألف دولار للمجند الواحد)[٢١]، ومن خلال شراء أوقات على التليفزيونات الوطنية لأول مرة، واستخدام مقاربة "العلامات التجارية"، يسعى التسويق الجديد إلى استمالة المتطوعين من خلال إغراق موجات الأثير بإعلانات "مليئة بالقيم" تؤكد على القيمة "غير الملموسة" للخدمة العسكرية[٢٢]. من أمثلة ذلك:

يعرض الإعلان المسمى "هدهدة"، على سبيل المثال، لقطات فيديو منزلية لأطفال سعداء معهم أمهاتهم، وفى الخلفية صوت غناء خفيض [هدهدة]. ومع الكلمات "الملائكة الحارسون سوف يسهرون على حمايتك طوال الليل" تتحول الصورة البصرية إلى مقاتلات "متسللة" من طراز ف - ١١٧ وهى تجأر فى سماء سوداء. ولا تظهر المناشدة الصريحة الوحيدة للمتطوعين إلا فى الثانية الأخيرة، عندما يظهر شعار القوات الجوية الجديد "لا يمكن لأحد أن يقترب" على خلفية سوداء، تليها مباشرة الكلمات "انضم إلينا"(٢٣).

ومن الاستراتيجيات الرئيسية فى هذه الحملة، كما فى حملة الجيش الجديدة "جيش من واحد"، الإيحاء بحصر البطولة فى الخدمة فى هذا الفرع أو ذاك من أفرع الجيش. فكل الأفرع تتبع الحملة الناجحة للقوات البحرية التى "تصور التطوع على أنه فرصة للمجند لكى يصبح الفارس الذى يذبح التنين فى درعه المتلألئ. وقد صممت إعلانات القوات البحرية لإقناع الشباب بأن الانضمام إلى القوات البحرية ليس مجرد فرصة عمل فحسب، بل إعلان قوى من جانب الشباب عن نوعية حياة البالغين التى ينتوون أن يحيونها"(٢٤).

أما إعلان القوات الجوية فيضرب على وتر الخيال اليهودى - المسيحى لإله تكنولوجى متوعد وحامى. فمن خلال الانضمام إلى القوات الجوية يمكن للمرء أن يصير الحامى للأبرياء وأن يقترب من القوة المطلقة للإله القدير والمتبدل فى ذات الوقت والقوة التكنولوجية التى ليس لها نظير التى ينتجها لوكهيد مارتن وبوينج وماكدونيل - دوجلاس ورايثيون(*). كما يوحى الإعلان بأن الانضمام إلى القوات الجوية يعنى

(*) صناعات أسلحة أمريكية مختلفة كالطائرات والصواريخ وغيرها [المترجم].

الانضمام إلى النخبة وحيازة مكانة قوية وأخلاقية واستثنائية. وإلى جانب ذلك ثمة مجموعة أخرى من إعلانات الخدمة العامة موجهة للبالغين تسعى إلى "ضمان أن يكون لدى أولياء الأمور والمعلمين وغيرهم من "البالغين المؤثرين" المعرفة بالبرامج التعليمية بحيث يمكنهم بدورهم أن يقدموا النصح للشباب"[٢٥]. تؤكد هذه الإعلانات على المكافئات الملموسة التى يمكن أن يتمتع بها الطلاب كالفرص التعليمية والتدريب على المهارات التكنولوجية المتقدمة والخبرة الإدارية، التى يمكن أن تترجم فيما بعد إلى أموال فى قطاع الشركات.

ومع أن الولايات المتحدة لا تقدم برنامجًا عموميًا عامًا للتعليم العالى فى المجتمع المدنى، فإنها تقوم بذلك من خلال الجيش. فتصريح ريان Ryan حول الدعوة عالية النبرة لخدمة الأمة ليس بحال من الأحوال مجرد عاطفة يدخرها لمؤسسة عسكرية محافظة. فالليبراليون والمحافظون يجتمعون على المناداة بفضائل شكل عسكرى من الخدمة العامة، فى وقت يتزايد فيه الإنفاق العام على الحلول العسكرية للمشكلات الاجتماعية المدنية. تلك الحلول العسكرية تُرْجِمت إلى امتلاك الولايات المتحدة لأكبر نظام سجون فى العالم على الإطلاق، يحتجز بين جدرانه أكثر من مليونى سجين. والاستثمار المتنامى بسرعة فى مجمع صناعة السجون الذى يضم سجون ربحية وأعمال أمنية متقدمة تكنولوجيًا، توازيه الخصخصة المتسارعة للقطاع العام[٢٦]. وحيث أن المواطنين الأمريكيين لا يتمتعون سوى بالقليل من شبكات الأمان الاجتماعى فى مجالات الرعاية الصحية العامة أو التعليم أو الرفاه، تلك التى يتمتع بها مواطنو معظم الدول الصناعية، فإن المؤسسات العامة الأمريكية كالمستشفيات والمدارس والأمن الاجتماعى تتعرض لدعوة محمومة للخصخصة. وبينما يكتسب الاستثمار العام فى عسكرة المجتمع المدنى رواجًا، اكتشفت طبقة المشروعات الأناقة العسكرية. من ذلك أن العدد الأول فى الألفية الجديدة من مجلة هاربرز بازار Harper's Bazaar يعرض نموذجًا لإوزة جادة المظهر وهى تمشى على مدرج طائرات فى زى رسمى، فيما يقول النص المصاحب "انقلاب عسكرى. ألم تتخيل أبدًا أنك يمكن أن تحتاج إلى التمويه؟

فكر ثانيةً ... إن خطوط الموضة العسكرية سوف تجعل حتى أكثر المتسوقين مقاومة يستسلمون لأحدث الصيحات"[٢٧]. وقد كُتِب على السترة التى يرتديها النموذج ثمن ١٥٠٠ دولار، فيما كُتب على الجزء السفلى المصنوع من القطن ٣٧٠ دولار. وقد امتدت الأناقة العسكرية لنخب الشركات إلى اتجاه قومى نحو الملابس الرياضية على غرار زى الأسطول.

نفس هذه الاستراتيجيات التسويقية المصممة لاستمالة المجندين يستخدمها أصحاب مصانع السلاح لوكهيد مارتن وبوينج (إلى جانب الأموال الضخمة) لكسب تأييد الكونجرس الأمريكى لاستمرار الإنفاق على برامج تسليح فاشلة بالفعل ومكلفة بشكل لا يصدق وغير ضرورية مثل الطائرة المقاتلة ف-٢٢ و"حرب النجوم"[٢٨]. وكما يلاحظ مارك كريسبن ميللر فإن إعلانات صناعات الدفاع توحى بمكر بأن على الجمهور أن يمول مشروعات التسليح، وإلا سيموت أفراد الأسر الأمريكية فى الحروب الخارجية وفى الهجمات الإرهابية فى الداخل[٢٩]. كما يستخدم أصحاب مصانع الأسلحة الإعلانات أيضًا للإيحاء بأن السلام لا يكون إلا نتيجة لاستثمار عسكرى كثيف، مما يقلل الحاجة إلى الحركات الاجتماعية من أجل السلام، كتلك التى كان لها الفضل فى إنهاء حرب فيتنام.

إن حملة الجيش الجديدة "جيش من واحد" An Army of One جاءت لتحل محل شعار " كن كل ما تستطيع أن تصير إليه" Be All That You Can Be الذى كان الشعار المجلجل الثانى على مدار القرن العشرين بعد شعار ماكدونالد "إنك تستحق راحة اليوم"[٣٠]. وحملة "جيش من واحد"، مثل سابقتها، تؤكد على تحقيق الذات الفردى، لكنها تذهب خطوة أبعد مؤكدة على مثال النزعة الفردية المتطرفة: مجند وحيد يجرى فى الصحراء فى كامل عدته، بينما تمر القوات فى الاتجاه المعاكس. إن مثل هذه الصور يبدو أنها تدفع فى عكس ضرورة التضحية بالذات والعمل فى فريق التى تميز الجيوش أكثر من غيرها من السمات. تؤكد الإعلانات الجديدة على أن كل جندى بطل، بل جيش كامل. والوعد ليس فقط أن تكون على "أفضل" ما فى وسعك،

إذ يتضـمـن ذلك أن هـناك دائمًا من هو أفضل، فيما يتوقع شـعار "جيش من واحد" أن يستـدمج الفـرد الجـيش فى ذاته، وأن ينـكر ذاته ويصـبح بالفـعل الجـيش بكل قوته وتقنيتـه. وشـعـار الجيش هذا يتمـاشى مع الجـولة الافـتراضـية التى تقدمـها القـوات البـحرية. فـهـذه الجـولة تبـدأ بالربط الصـريح بين إنكار الذات العـسكرى والمجازات الاقتصادية:

> **أولاً لابد أن يتجرد المرء. فيتحرر من كل أفكار الذات. والقوات البـحـرية هى التى سـوف تنزع الخـبث الذى يخـتلط بالنفس بسـهولة. إنهـا القـوات التى سـوف تقـدم الألم اللازم "لشـراء" الحـقيقـة. وفى النـهاية سوف "يمتلك" الجـميع مـيزة النظر إلى داخل نفسه لاكتشاف ما يستقر حقيقة داخلها[٣١].**

أن ينكر المرء نفسـه ... أن يجـتاز المرء عذابات الجـسد ... لكن هـذا الألم الذى يُبْذَل خلال التدريب هو العملة التى تمكن الفرد من أن يشترى معرفته بذاته الجديدة. وفى نهاية الجولة يتعلم المرء أن إنكار الذات والألم والهدم وإعادة البناء وشراء المعرفة بالذات تؤدى إلى الوحدة الاجتماعية المخصـخصة: "جئنا يتامى وها نحن نفترق أسرة" كما تُختتم الجولة البحرية.

وكما أن استعادة الأسرة تصبح هدف الحرب فى إعلان البحرية، يظهر نفس هذا الهدف فى أفلام التفجيرات مثل "إنقاذ الجندى رايان" Saving Soldier Ryan و"رجال شرفاء" Men of Honor و"ثلاثة ملوك" Three Kings و"الخط الأحمـر الرفيع" The thin Red Line. فالتجديد الذكى فى فيلم "إنقاذ الجندى رايان" يكمن فى جعل هـدف الحرب الجيدة ليس حماية الجمهور بقدر ما هو الحفاظ على وحدة الأسرة الخاصة. فـ"إنقاذ الجندى رايان" يحول المُثُل الديمقراطية إلى مجاز السوق. فالحرية، كما يقال لنا فى نهاية الفيلم، لابد أن "يكتسبها" الأفراد. وفقط عندما يكتسبون حريتهم يكون بمقدورهم العودة إلى الوطن.

العودة إلى الوطن فى كوسوفو

قبل خمسين عامًا كانت الأفلام السينمائية متجانسة ويقصد بها أن تخاطب الأسرة بأكملها. أما الآن فقد تبلقنت [نسبة لمنطقة البلقان]. الثقافة الشعبية ... فأفلام المراهقين الأخيرة، سواء الرومانسية أو أفلام الرعب، تدور بالفعل حول الحرب الطبقية. ففى كل فيلم تكون الكافيتريا بمثابة صورة مصغرة من يوغوسلافيا السابقة، حيث تكون كل جماعة منغلقة على ذاتها: الطلاب الرياضيين الصرب، وراكبى الدراجات البخارية البوسنيين، والثوار الكوسوفيين، إلخ. وأفلام الرعب عبارة عن صورة مصغرة للتطهير العرقى.

تقرير مجلة تايم حول حادث إطلاق النار فى مدرسة كولمباين.

يجب أن نعلم أطفالنا ... أن يسووا صراعاتهم بالكلمات، وليس بالأسلحة.

الرئيس بل كلنتون فى تعليقه على حادث إطلاق النار فى مدرسة كولمباين الثانوية، فى الوقت الذى كانت الولايات المتحدة قد أسقطت فيه على يوغوسلافيا السابقة قنابل أكثر مما أُسقِط فى الحرب العالمية الثانية.

يوضح هذا الجزء[٣٢] من الفصل الحالى كيف أن ثقافة الإعلام العنيفة التى تنتجها الشركات والرياضات التنافسية تشكلان كل من التمدرس العام الأمريكى والسياسة الخارجية الأمريكية. فبينما كان الإعلام ينقل أخبار الحرب فى كوسوفو من خلال قصص الأسر فى الخارج، جاء حادث إطلاق النار فى مدرسة فى ليتلتاون بكلورادو ليعيد تركيز انتباه الأمة على العنف فى الداخل: فى الوطن. ومع تكشف القصة بدأت "مذبحة لتلتاون" و"مذبحة كوسوفو" تنصهران معًا وتدمى كل منهما فى الأخرى. ففى العشرين من أبريل ١٩٩٩، الذى يوافق ذكرى ميلاد هتلر العاشرة بعد المائة، قام طالبان بيض يطلقان على نفسهما "مافيا سترة المطر Trenchcoat Mafia

بقتل اثنى عشر من زملاءهم وأحد المعلمين بالرصاص قبل أن يصوبا بنادقهما إلى نفسهما وينتحرا . كانت هذه الحادثة مأساة نشرت الرعب والحزن الكئيب على كثير من الناس. وقد جاءت التغطية الضخمة المثيرة للحادث، التي كانت بحجم تغطية ثورة لويزيانا عام ١٩٩٢، لتشارك فى الحوارات العامة الأوسع، خاصة فى محاولتها إلقاء اللوم بدرجات متفاوتة على أولياء الأمور كثيرى الغياب عن المنازل والأطفال المهووسين وعدم كفاية التواجد البوليسى وألعاب الفيديو العنيفة، مع تبرئة مؤسسات السلطة، خاصة فى طريقة تشكيلها للفاعلية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية. كم عدد الأطفال السود الذين قتلوا فى الولايات المتحدة فى ذلك اليوم بسبب العنف والبنادق، ولماذا تكون هناك صعوبة -مقارنة بالحادث السابق- فى الوصول إلى هذه المعلومات، خاصة فى مشهد إعلامى يبرز المخاطر التى يواجهها الأطفال فى المدارس العامة؟ لقد انخفض العنف فى المدارس بالفعل فى السنوات العشر الأخيرة، حتى وإن كان الناس يرون أنه فى ازدياد[٣٣]. بل ومما له صلة أكثر بموضوعنا، كم عدد الأطفال الصرب والألبان الذين قتلوا فى قصف حلف شمال الأطلنطى فى ذلك اليوم؟ إن البالغين يمثلون خطرًا على الشباب أكثر مما يمثله الشباب على بعضهم البعض[٣٤]. كيف تُصنَع هذه المدركات ومن أجل مصلحة مَنْ؟

أبرزت مجلة تايم فى عددها الصادر فى العشرين من ديسمبر ١٩٩٩ تغطية حصرية لـ"أشرطة كولباين: القاتلان يقولان لماذا فعلا ذلك، لقطات الفيديو المنزلية الخمسة التى صوراها قبل موتهما، ماذا تفعل الأسر لمنع مأساة أخرى". يعرض الغلاف إريك هاريس وديلان كليبولد وهما يُقَيمان الدمار الذى صنعاه من أحد لقطات الكاميرا التى تراقب كافتيريا المدرسة. افتح مجلة تايم لتجد بعد صفحة المحتويات مباشرة إعلان على صفحتين عن محرك بحث للانترنيت اسمه ألطا فيزتا Alta Vista. يعرض إعلان المحرك البحثى الطائرة ف - ١٦ المقاتلة [من إنتاج لوكهيد مارتن]. فى شكل بيانى مفصل مع تسمية كل جزء من أجزاء الطائرة الداخلية دون الخارجية. أما مربع البحث فى الموقع فمكتوب عليه "من سيوجه مركبتى هذه

الليلة؟" ومربع آخر باسم "تسوق عبر ألطا فيزتا" يضم فئة أولى "ابحث عن المنتجات" ومن محتوياتها "ف-١٦"، وفئة ثانية "قارن مع" ومن محتوياتها "حيوان الرنة". وإذا قلبت الصفحة ستجد الإعلان مستمر بزلاجة سانتا تجرها طائرة ف-١٦، وهي السلاح الذى استخدمه حلف شمال الأطلنطى بقيادة الولايات المتحدة فى قصف صربيا "وإعادتها إلى العصور الحجرية".

بفضل السرعة الفائقة ١,٣٢٠ ميل/ساعة لطائرات ف - ١٦ فإن سانتا سوف يوصل هداياك فى الأعياد القادمة أسرع من ذى قبل. كما أن تسلح ف - ١٦ بمدفع بثلاثة مواسير إطلاق من نوع م٦١أ١ عيار ٢٠ ميليمتر قادر على إطلاق ٥١٥ طلقة فى الدفعة الواحدة و٢٠,٤٥٠ رطلاً من المتفجرات يضمن الوصول الآمن لهداياك.

وفى أعلى الصفحة جنى صغير يرشف الصودا ومعه نص يقول:

من ذا الذى سيحتاج إلى الجن عندما يكون عنده موقع ألطا فيزتا للتسوق؟ على موقعنا يمكنك أن تبحث عن المنتجات التى لا تعرف عنها شيئًا: أجهزة استريو وكمبيوتر وتليفزيونات وكاميرات رقمية وألعاب بوكمون على سبيل المثال لا الحصر. هناك ١٢٦ شخصية من شخصيات بوكمون المختلفة وأكثر من ٢٠٠٠ من ألعاب بوكمون المرخصة فى السوق. واحد منها فقط يمكنه أن يجعلك تفوز بمكانة الوالد/الوالدة المفضل فى العام القادم. ونحن يمكن أن نساعدك فى الاختيار بين أبويك، أيهما الأفضل.

وفى أسفل الصفحة يوجد ثمانية من حيوانات الرنة تبدو جذابة وعاطلة، من الواضح أنها غير نقابية، ومعها مربع بحث مكتوب فيه "أين يمكننى أن أبيع ثمانى رنات صغيرة؟" وبين صفحات إعلان ألطا فيزتا الثلاث كتب ولتر إيزاكسون مدير تحرير تايم افتتاحية حول "لماذا عدنا إلى كولمباين". وهذا العنوان الذى يأتى فى سياق

فيض القصص الأخيرة حول العودة إلى فيتنام بعد ربع قرن تعلوه صورة للاعبى كرة قدم بيض منتصرين من أحد المدارس الثانوية ومع الصورة تعليق: "دَمْل الجراح: مدرسة كولمباين تحتفل ببطولة الولاية الأخيرة".

على أحد المستويات، ليس ثمة شيء جديد فى هذا الإعلان الطويل بمجلة تايم. إن عنف الذكر الأبيض فى كرة القدم ولُعَب الأسلحة وألعاب الفيديو العنيفة والمغامرات الإمبريالية العالمية مثل فيتنام وكوسوفو يأتى كأداة لاستعادة صحة الشباب والأسرة التى باتت مهددة بفعل التهور المجنون والعشوائى لقتلة كولمباين. فإعلان ألطا فيزتا يستعيد براءة التكنولوجيا والعدوان العنيف، أى تكنولوجيا الإنترنت التى استخدمها كليبولد وهاريس فى حربهم الصغيرة. فالإعلان يعيد تكنولوجيا الشبكة إلى البراءة من خلال ربطها بهجمات حلف شمال الأطلنطى المدمرة باسم الحب، أو على الأقل باسم التدخل الإنسانى، ولكن أيضًا من خلال ربط هذه التكنولوجيا بالنزعة الاستهلاكية.

إن قدراً كبيراً من عدم قدرة الجمهور على تصديق ما حدث فى مدرسة كولمباين ينشأ من الخط الدقيق للغاية بين ثقافة العنف "البريئة"، لكنها منتشرة، التى تبيع سلعًا استهلاكية، وثقافة العنف "المَرَضية" التى لا تبيع سلعًا استهلاكية ولا توسع الأسواق. إن ثقافة العنف "البريئة" تحول المجازر الإمبريالية إلى حب أسرى فى صبيحة عيد الميلاد وجاذبية غائمة. إنها تصور الرياضات الجماعية العنيفة التى تحاكى الحرب بحسبانها دواء وشفاء، مثل فريق "فتح الولاية" لكرة القدم بمدرسة كولمباين الثانوية. وتحول الأدوات العسكرية إلى عرض أزياء حتى يتوحد المشاهدين مع القوة المدمرة. ومن أساسيات استعاده ثقافة العنف "البريئة" تحويل العدالة إلى فعل استهلاك. يقول النص الأخير فى الإعلان:

> **هل يمكننى بالفعل أن أشترى طائرة عسكرية من خلال الإنترنت؟ دعنا نتكلم بهذه الطريقة: لو كانت الطائرات العسكرية متاحة للشراء من جانب الجمهور العام لما ترددنا فى مساعدتك،**

بل كنا سنجد لك صفقة تجعل وزارة الدفاع تغار منك. معنى ذلك أن موقع ألطا فيزتا للتسوق يُمَكِنك من الطواف بكامل الشبكة بحثا عن أى شىء يمكن أن تشتريه، حتى وإن كنا لا نبيعه.

إن الشىء الصادم بل والمرعب فى هذا الإعلان هو الاعتراف الصريح بأن العدوان العسكرى الأمريكى فى مناطق مثل البلقان والعراق يقوم فى الأساس على توسيع الأسواق.

لكن الكذبة الكبيرة هنا هى الإيحاء بأن إسقاط القنابل لا يختلف فى شىء عن إسقاط السلع الاستهلاكية (توسيع الأسواق)، فكلاهما يتم باسم الحفاظ على براءة الطفولة باعتبارها معقل حضارة يتهددها الخطر عندما تنحرف هذه القيم. فالإعلان يوحى بأن التدمير ليس إلا إثراءً للأماكن التى تقصف لأنه توسيع للثروة والأسواق والسلع الاستهلاكية الأمريكية. وفيما تصطف الشركات متعدية الحدود لقطف مزايا إعادة بناء البنية التحتية، قدرت بعض المصادر الوقت اللازم لإعادة بناء يوغسلافيا السابقة بعد القصف بخمسين عاماً. ولعل الأهم من ذلك أن تلك المناطق التى وافقت على الأمركة بدون قنابل عانت هى الأخرى بشدة من "التكيف الهيكلي". وإذا كان عنوان إيزاكسون الذى توسط إعلان ألطافيزتا "لماذا عدنا إلى كولمباين" يأتى فى سياق فيض المقالات حول لماذا عدنا إلى فيتنام، فإن ذلك لأن قصف كوسوفو كجزء من الإمبريالية الجديدة يعد بالفعل عودة إلى فيتنام. وعنوان إيزاكسون حول عودة مجلة تايم إلى كولمباين يعد فى الوقت نفسه عودة إلى فيتنام.

إن المغامرة الإمبريالية المتضمنة فى قصف كوسوفو تتكرر حقيقة فى الدعوة إلى مزيد من الضبط، خاصة فى الأحياء الفقيرة، تلك الدعوة التى تبعت مذبحة كولمباين. ففى الوقت الذى أطلق فيه كليبولد وهاريس وابل الرصاص على أطفال الضواحى الذين كانوا يتناولون وجبة الغداء فى هدوء أو يدرسون الكيمياء قبل الهجوم، فى ذلك الوقت دخلت المنازل مأساة ميلوسوفيتش القاسى الذى يمارس

التطهير العرقى. فاختلطت الحاجة إلى التدخل للدفاع عن الألبان العزل مع الحاجة إلى الدفاع عن أطفالنا فى الداخل من خلال تكثيف وجود الشرطة فى الأحياء الفقيرة. وكوسوفو التى انعكست فى تغطية مذبحة كولمباين ظهرت كأنها تصدير للأحياء الفقيرة. لقد دخلت تغطية مجزرة كولمباين فى خطاب حول براءة الشباب، وهو فى الأساس خطاب إمبريالى يلصق الجرم بالمستعمَرين. كما أنه يعامل الشباب بطرق مختلفة بناءً على العرق والطبقة. فعندما أنشأ هاريس وكليبولد موقعًا على الشبكة مجدا فيه هتلر وأعلنوا كراهيتهم للسود والآسيويين واللاتينيين، لم يصدق أحد أن أحدًا من أطفال الضواحى البيض يستطيع أن يقترف كل هذا العنف. وفى ذلك كتب هنرى جيرو:

> **لو كان هؤلاء الأطفال سودًا أو سمرًا لاتهموا ليس بأنهم مرضى نفسيين فحسب، بل بأنهم يحملون مرضًا اجتماعيًا. فضلاً عن أنه لو أظهر أطفال سمر أو سود تاريخ السلوك المنحرف السابق لإريك هاريس وديلان كليبولد، مثل اقتحام شاحنة وإرسال تهديدات بالقتل إلى زملائهم عبر الإنترنت، لما وُجِه لهم نصحًا قصيرًا فحسب، بل لأدينوا بقسوة وأودِعوا السجن فى الحال(٣٥).**

وبتعبير باتريشا ويليامز فإن كليبولد وهاريس:

> **قد لُفّا فى ثوب البراءة، حتى بعد أن اعترفا بحبهما لهتلر وأعلنا عن كراهيتهما للسود والآسيويين واللاتينيين على أحد مواقع الإنترنت، وبعد أن نَزّلا من الإنترنت إرشادات حول صنع القنابل، وأخذا فى تجميع مكوناتها وتخزينها على مرأى (وربما بمساعدة) من الوالدين والجيران غير المبالين، وبعد أن خَزّنا البنادق والذخيرة، وبعد أن حصلا على قنابل يدوية وسترات واقية، وبعد أن هددا أرواح زملائهم وقتلا بالفعل ثلاثة عشر**

نفسًا وجرحا كثيرين آخرين وانتحرا وحطما مبنى مدرستهم، ومع ذلك لا يزال المجتمع المحلى لا يبدو أنه يصدق أن ذلك حدث "هنا". ولا يزال معلموهم وزملاؤهم يحتجون بأنهما كانا طفلين جيدين وطالبين جيدين ومواطنين صلبين(٣٦).

إن ما تضيفه مجلة تايم وموقع ألطا فيزتا إلى ذلك السيناريو هو أن افتراض البراءة الذى يشيع فى تغطية حادث كولمباين يعزز براءة المهمة الإمبريالية فى كوسوفو.

العودة إلى فيتنام فى كوسوفو

فيما يشبه الخطاب العام فى بداية حرب الخليج، كان فيض المقالات حول حرب كوسوفو الجوية يركز على خطر الحرب البرية التى يمكن أن تجر الولايات المتحدة إلى "فيتنام أخرى". وكما ينبه نعوم تشومسكى فقد كان هناك مشروعًا طويلاً فى الإعلام لجعل الجمهور يتغلب على "عقدة فيتنام". فإحياء النزعة المحافظة فى العقود الثلاثة الماضية كان يتضمن جعل العدوان العالمى وقتل المقاتلين وغير المقاتلين فى الدول الأخرى أمرًا مستساغًا من الجمهور مرة أخرى. لكن كوسوفو تختلف عن فيتنام والحروب الساخنة فى أثناء الحرب الباردة فى أن مغامرات العولمة المعسكرة منذ نهاية الحرب الباردة لا تزال حتى الآن فى نظر الجمهور غير جديرة بأرواح الأمريكيين. وفى ذلك كتبت إلين ميسكنز وود:

يقول توماس فريدمان أن الأمريكيين الذين "كانوا مستعدين لدفع أى ثمن وتحمل أى عبئ فى الحرب الباردة" أصبحوا غير مستعدين للموت من أجل "نظام العولمة المجرد". ولهذا فليس ثمة مجال "للقتال من منزل إلى منزل، وليس أمامنا سوى الصواريخ والقاذفات". ولعله كان يريد أن يقول "لهذا تُستَبعَد القوات البرية

ويستخدم القصف المتقدم تكنولوجيًا. إننا لا نريد أن نقدم أرواحنا من أجل العولمة، لكننا فى الوقت نفسه لا نبالى بإزهاق أرواح الآخرين(٣٧).

وفى رأى وود فإن جزءًا من النجاح فى تحجيم المعارضة الشعبية، خاصة اليسارية، لحرب كوسوفو، على خلاف حرب فيتنام، كان يتمثل فى إقحام التدخل الإنسانى الذى عمى الإمبريالية.

إننا الآن أمام ما أسماه البعض "إمبريالية حقوق الإنسان" التى تقوم على تصور لحقوق الإنسان تحل فيه المصالح الخاصة للولايات المتحدة وأفعالها التعسفية محل المصالح المشتركة للبشرية والأدوات الدولية المصممة لتمثيل هذه المصالح. وفكرة "إمبريالية حقوق الإنسان" تمسك بكفاءة بعملية التعمية التى يبدو أنها حملت كثيرًا من اليساريين على تغيير مواقفهم فى حالة كوسوفو(٣٨).

وبالتوازى مع الادعاءات الصريحة فى نشرات الأخبار حول النزعة الإنسانية وراء القصف، هناك أيضًا أفلام الحرب الشعبية مثل "إنقاذ ريان الخاص" التى وصلت إلى ذروتها بفيلم "الوطنى" The Patriot الذى أعاد موضوع "الحرب الجيدة" بعد تاريخ طويل من أفلام "الحرب السيئة" حول فيتنام.

وإذا كان فيلم "إنقاذ ريان الخاص"، فيما قبل كوسوفو، قد أعاد اختراع الدوافع العامة والسياسية للحرب العالمية الثانية باعتبارها افتداء الخاص والحماية غير السياسية للأسرة، فقد أخذ فيلم "الوطنى"، فيما بعد كوسوفو، هذا الموضوع خطوات أبعد، بما يوحى بأن الثورة الأمريكية، التى كانت حربًا جيدة بامتياز، لم تكن حول شيء غير الأسرة: "ما الفرق بين أن يحكمنى مستبد واحد على بعد ثلاثة آلاف ميل أو يحكمنى ثلاثة آلاف مستبد على بعد ميل واحد" كما جاء على لسان شخصية مل جبسون فى اجتماع جنوب كارولينا حول ما إذا كان يجب عليهم أن يدخلوا الحرب فى

جانب المستعمرات، قبل انضمامه للدفاع عن أسرته الجنوبية فى المزرعة. بمعنى أن الحرب من أجل سياسة الديمقراطية تفرض مخاطر على صون الأسرة، وبالفعل فقد جبسون ولديه الكبيرين فى الصراع.

يبرز الفيلم، فضلاً عن ذلك، تمزق الأسرة من خلال استعباد البريطانيين للأيدى الزراعية السوداء الذين يزعمون أنهم يعملون كعمال أحرار، وهو النظام الذى تصر شخصيات كثيرة فى الفيلم على أن الثوريين يدافعون عنه. ففى الفيلم يزعم عمال المزرعة السود صراحة أنهم يعملون كعمال أحرار وليس كعبيد (إلى أن يعتقلهم البريطانيون المستبدون ويحولونهم إلى عبيد)، ومع ذلك فإن صور عمل السود مستوحاة بالتأكيد من المخزون الثقافى لصور العبودية التقليدية المألوفة. ويوحى الفيلم بأن الحرب كانت من أجل تحرير العبيد دفاعًا عن أفكار حق تقرير المصير وحرية الإرادة (ممثلة فى الدفاع عن الأسرة ضد سلطوية الدولة). وهذا هو هدف الحرب الجيدة: فقط عندما يهدد البريطانيون حق تقرير المصير بدخولهم المنزل وقتلهم أحد الأطفال واستعباد العمال السود، يمكن شن حملة دفاعية. وكما استعاض إعلان ألطا فيزتا عن لعبة الرنة الخيالية بطائرات مقاتلة حقيقية، تقوم شخصية مل جبسون فى "الوطني" بصهر جنود الرصاص[اللُعب التى كانت تخص ابنه]. إلى رصاص حقيقى للبنادق. إن الحملة ضد كوسوفو تضمنت التخلص من "عقدة فيتنام" من أجل العودة إلى "الحرب الجيدة" من خلال إعادة اختراع العدوان الإمبريالى فى شكل هدية محبة، على أن يصحب ذلك براءة الأطفال كما فى الرنة رودولف محمر الأنف وسانتا كلوز نفسه. عيد ميلاد سعيد يا كوسوفو، عيد ميلاد سعيد يا صربيا.

ألعاب الحرب: العودة إلى فيتنام فى لتلتاون

كانت تغطية حادث إطلاق النار فى مدرسة كولمباين هى الأخرى عودة إلى ميدان المعركة. وكما ذكرنا فى موضع سابق فإن عنوان إيزاكسون "لماذا عدنا إلى كولمباين"

يشير إلى العودة إلى فيتنام بعد ربع قرن بغرض فتح الأسواق. وقد وُضِع هذا العنوان جنبًا إلى جنب مع صورة لفريق مدرسة كولمباين لكرة القدم المنتصر. يبدأ إيزاكسون مقاله قائلاً:

أود أن أشرح لماذا عدنا إلى كولمباين هذا الأسبوع ونعرض صورة غلاف وقصص مهولة حول قتلة كان الأجدر بنا أن ننساهم ... لقد أرسلت المجلة مرة ثانية فريقًا إلى لتلتاون لبحث الدوافع الحقيقية للقاتلَين والكشف عما كان عليه حالهما بالفعل. ماذا يمكن أن نتعلم حول طرق اكتشاف -والتعامل مع- الشياطين التى تسكن داخل أرواح الأطفال الذين يبدون عاديين؟ إن مساعد رئيس التحرير الذى كان يقود الفريق دان جودجيم هو أب لثلاثة تلاميذ وزوج لمعلمة وكان متعاطفًا مع مخاوف الناجين وغيرهم فى المجتمع المحلى(٣٩).

ربما كان من قبيل المصادفة أن يكون اسم قائد فريق تايم الذى ذهب باحثًا عن "إجابات" حول كولمباين هو "جودجيم" Goodgame [لعبة جيدة]. لكن لم يكن من قبيل المصادفة أن يستخدم إيزاكسون استعارة "اللعبة الجيدة" عند مناقشة ومعالجة ومداواة كولمباين. إن إعلان ألطافيزتا يربط التجارة العالمية والمنافسة الاقتصادية بين الأمم بتنافس الوالدين على حب الأطفال "واحدة فقط [لعبة بوكمان] يمكن أن تجعلك تفوز بمكانة الوالد/الوالدة المفضل فى العام القادم".

إن الإشارة إلى الألعاب لم ترد فحسب فى افتتاحية تايم وإعلان ألطافيزتا. فصفحات المجلة واحدة بعد الأخرى مليئة بـ"أخبار" وإعلانات تسهب فى إبراز القوة الصحية النافعة للألعاب وكذلك مخاطرها. من ذلك فى الصفحة الثامنة عنوان: "هل كلبك رياضى؟"(٤٠)، والصفحة التاسعة: "ادخل لتكسب حزمة حماية القوة المنزلية APC"، وإعلان على الصفحتين الثانية عشر والثالثة عشر يعلن عن موقع كلير ستيشن دوت كوم: "كل ما هنالك أننى سوف أتنحى جانبًا إلى أن يتضح الاتجاه"، ثم اقلب

الصفحة لتجد كازينو شمس موهيجان يسأل: "من يحتاج إلى الكافيين بعد الآن؟ جرب ١٩٠ قائمة لعب وأكثر من ٣٠٠ ماكينة مقامرة slot machine i كل ذلك فى مكان يذهب بك بعيدًا". واقلب الصفحة لتجد جيمس بوند اللاعب العظيم المهذب الفذ الذى يطيح بخصومه. ثم اقلب الصفحة لتجد إعلان ملون على صفحتين لرجل فوق الأطواق الأولمبية يتحول إلى زئبق ومعلومات لأحد تطبيقات الشبكة اسمه أكاماى :Akamai " لماذا تتقبل الوسطية وتقع ضحية للامبالاة عندما تكون القوة والتأثير تحت أصابعك". ثم اقلب الصفحة لتجد اللعبة اليومية للبورصة تعلن عن أجهزة كمبيوتر كومباك. ثم اقلب لتجد مجموعة إكسوموبيل للنفط تخبرنا بأن اندماجها المضاد للمنافسة هو فى الحقيقة "مستقبل ستفوز فيه أفضل تشكيلة من الأفكار والتكنولوجيا والموهبة". واقلب الصفحة لتجد إعلان من صفحتين لعقار التهاب المفاصل لأب وابن فى ملعب كرة قدم: "يمكن للعقار فيوكس أن يسهل عليك أن تفعل الأشياء التى تود أن تفعلها، كأن تجلس فى أرض الملعب وتشاهد مباراة ابنك". لكن قد لا يكون بمقدورك أن تجلس طويلا لأنه "من الآثار الجانبية كثيرة الحدوث إصابة الجهاز التنفسى والإسهال والغثيان وارتفاع ضغط الدم". وبالطبع هناك محتويات إخبارية أخرى فى التايم تُؤطَر داخل المنافسة بدءًا من مقال التعليم حول مخاطر الغش إلى عمود "الرابحين والخاسرين عام ١٩٩٩" إلى مقالة أشرطة كولمباين ذاتها.

إن الصعوبة التى واجهت أولياء الأمور والمعلمين والشرطة فى التعرف على ثورة العنف من جانب هاريس وكليبولد ترجع جزئيًا إلى اعتياد مثل هذا العنف التنافسى الذى يتخم تقارير وإعلانات مجلة تايم ووسائل الإعلام بشكل عام، خاصة عندما تبيع الجمهور فى مزاد العولمة. مثل هذا الخيط الدقيق بين العنف التنافسى "الصحى" والعنف "المَرَضى" أصبح غائمًا لدرجة كبيرة عندما قال بل كلنتون نفسه، بعد المأساة، "يجب أن نعلم أطفالنا ... أن يسووا صراعاتهم بالكلمات وليس بالأسلحة"، فى الوقت الذى رفض فيه الحلول الدبلوماسية وكان جيشه يواصل حملة القصف على كوسوفو.

إن قصـه كولمباين تتضمن أفعال لعب من النوع المعتاد: "إريك هاريس يضبط كاميرا الفيديو الخاصة به على بعد أقدام قليلة، ثم يستقر فى كرسيه وفى يده زجاجة ويسكى، وفوق فخذه بندقية مفتوحة انتظاراً لحشوها بالطلقات. وهو يطلق على بندقيته اسم "أرلين"، تماماً كما فعلت شخصية مفضلة فى ألعاب الفيديو الدموية والكتب التى يهيم بها. يأخذ هاريس رشفة صغيرة من الشراب، يلسعه الويسكى، لكنه يحاول أن يخفى ذلك، كطفل صغير يلعب ألعاب البالغين". "يبدو أنها ستكون مثل لعبة الجحيم اللعينة، تيك تيك تيك هاهاً. إن هذه البندقية اللعينة قادمة من الجحيم". ولعله "من السهل أن نفطن إلى الإشارات: كيف أن ذراع التحكم joystick فى ألعاب الفيديو حوَّل هاريس إلى رامى مثل لاعب الغولف الذى يشاهد أفلام تيجر وودز(*)"(٤١). لكن فيما يساوى كلنتون بين "لعب ألعاب البالغين" واللعب بالكلمات، ساوى هاريس وكليبولد بين "لعب ألعاب البالغين" وعنف البالغين، من أمثال كلنتون، ورعايتهم للمنافسة العنيفة.

لقد تجاهلت التغطية الإخبارية حقيقة أن هاريس وكليبولد كانا يسويان صراعاً بطريقة تتفق مع العنف التنافسى المحيط بهم. وبدلاً من ذلك آثرت مجلة تايم التأكيد على ظمأ القتلة إلى الشهرة. كانت الصورة المصاحبة لتغطية تايم للاعبى كرة القدم الغاضبين والمصممين تحمل عنوان "الزميلان هاريس وكليبولد كان يشعران بغيظ هائل تجاه الجميع، وليس الطلاب الرياضيين فقط". فيما يكشف تعليق تالى أن القاتلان كان يسعيان إلى الانتقام من ثقافة العنف التى استهدفتهم.

إن إيفان تود لاعب خط الدفاع]فى فريق كرة القدم بالمدرسة[، الذى يزن ٢٥٥ رطلاً، الذى جرح فى المكتبة، يصف مناخ المدرسة بالطريقة التالية: "كولمباين مكان نظيف وجيد باستثناء هؤلاء المنبوذين"، يقصد بذلك كليبولد وهاريس وأصدقائهم.

(*) سلسلة من ألعاب الفيديو أعدها لاعب الغولف المحترف تيجر وودز Tiger Woods المتخصص فى الألعاب الإلكترونية لتعليم الغولف [المترجم].

"معظم الأطفال لا يرغبون فى وجودهم. لقد كانوا كالسحرة المنبوذين. لا شك أننا كنا نضايقهم. لكن ماذا تنتظر من أطفال يأتون إلى المدرسة بتسريحات شعر شاذة واضعين قرونا على قبعاتهم؟ ليس الطلاب الرياضيين فقط بل كل المدرسة كانت تشعر نحوهم بالاشمئزاز. إنهم جماعة من الشواذ لا يتورع الواحد منهم عن التحرش بالأجزاء الخاصة فى جسمك. وإذا أردت أن تتخلص من أحدهم فما عليك إلا أن تضايقه. لذلك كانت المدرسة برمتها تطلق عليهم اسم الشواذ، وعندما كانوا يفعلون شيئًا يدعو للاشمئزاز، كنا نقول لهم "أنتم مقززون"(٤٢).

إن تعليق تايم وفقًا لتقاليد علم الأعراق فى القرن التاسع عشر يضع هاريس وكليبولد فى موقع الرعايا المستعمَرين المتمردين الذين يوجهون لعنات سحرية ضد النخبة الحاكمة المستقيمة. ولأنهم يمارسون السحر، ولأنهم شواذ جنسيًا، فإن الطلاب الرياضيين، شأنهم شأن استعماريى القرن التاسع عشر، يكونوا هم المدافعين عن الأخلاق التى تتأسس عليها الحضارة والتى كانت تتهددها الممارسات الخرافية الشريرة والنوازع الجنسية المحرمة والآثمة. والعنف الخرافى من جانب هاريس وكليبولد يُستَخدَم لتبرير الاشمئزاز، وبالتالى العنف من جانب الطلاب الرياضيين حاملى راية الأخلاق.

ومما تجدر ملاحظته أن مجلة تايم تستخدم الاقتباس السابق كدليل على أن القاتلَين لم يتصرفا على هذا النحو استجابة للقسوة المنتظمة ضدهم من جانب الطلاب الآخرين. بل يصر المقال بدلاً من ذلك على الرغبة فى الشهرة كتفسير لما اقترفوه. لكن فى المقال التالى "الضحايا: لا يجب أن يتكرر ذلك ثانية" يقول والد الضحية دانيل روهربوف "يمكن للطلاب الرياضيين أن يفعلوا أى شىء محظور ويفلتوا من العقاب. فإذا أرادوا أن يلكموا طفلاً فى فمه ويبتعدوا، فبمقدورهم ذلك. ولو كنت أعرف ذلك لما كان ابنى هناك. إنهم لا يفعلون شيئًا لحماية الطلاب من بعضهم"(٤٣). إن عبارة روهربوف تشهد بوضوح كيف أن وجه البراءة الرقيق لا يكاد يغطى ثقافة العنف الشريرة. وتكشف الأشرطة ذاتها رغبة القتلة فى تسجيل عدم قدرتهم على المنافسة:

"يتذكر هاريس كيف كان عليه أن يتنقل كثيراً مع أسرته العسكرية، وكيف كان عليه فى كل مرة أن يبدأ من جديد، من أسفل السلم". كان الناس يسخرون منه باستمرار، "من وجهى، من شعرى، من قميصى. إنكم لا تتخيلون كم الغضب الذى أكنه على مدى السنوات الأربع الماضية اللعينة"(٤٤).

إن تغطية تايم تُحَمِل الشرطة وأولياء الأمور والمجتمع المحيط مسئولية الفشل فى إدراك أن خيال هاريس وكليبولد العنيف لم يكن تدفعه الرغبة فى الانتقام بقدر ما كانت تدفعه الرغبة فى الشهرة. "ولأن ذلك كان بدافع الشهرة والقسوة بنفس القدر"، فإن مارك هولستلو Mark Holstlaw من مكتب التحقيقات الفيدرالى يستنتج "إنهما كانا يريدان الشهرة، وقد تحققت لهما بالفعل، لكنها شهرة بالسوء. ومن المعتاد القول بأن الحياة هو أفضل انتقام، أما بالنسبة لهذين فقد كان القتل والموت بطريقة مشهدية هو أفضل انتقام"(٤٥). إن التركيز على رغبة القتلة فى الشهرة فى التغطية الإعلامية يقلل من أهمية الدوافع السياسية وراء الحادث، كما ينبه جيرو وويليامز. كما أن التركيز على الشهرة كعذر يطمس أيضًا حقيقة أن هذا الحادث أخذ ثقافة العنف التنافسية إلى أبعد مدى منطقى ممكن لها، حتى وإن حَوَل القاتلان نفسهما إلى سلع سيئة السمعة فى طرفة عين. فقد كان هاريس وكليبولد مستعدان حتى للتضحية بنفسهما للفوز فى اللعبة التى كانا يخسرانها على مدى سنوات.

يهيمن على التغطية الصحفية للحادث إحساس طاغى بأن الشرطة وأولياء الأمور خسروا فى المنافسة مع الأطفال بفشلهم فى التعرف على الأعراض، وفشلهم فى منع إطلاق النار فى المدرسة، وفشلهم حتى - نتيجة لانتحار القاتلَين - فى أداء محاكمة قانونية لاسترداد السلطة ولو رمزيًا. ومثلما أبرزت أفلام فيتنام الكثيرة، فى السبعينيات والثمانينيات، فى الوعى القومى فكرة جبهة التحرير الفيتنامية الشمالية كعدو لا يُرَى، عدو يوجد فى كل مكان ولا يوجد فى أى مكان، عدو يمثل فى الوقت نفسه معتدين أنذال وضحايا أبرياء، جاءت التغطية الإعلامية لكولمباين وكوسوفو لتؤطر الشباب فى ذات الوقت كضحايا أبرياء فى حاجة إلى إنقاذ وكمعتدين عنيفين نزاعين

إلى التدمير. إن أفلام فيتنام أنتجت حنيناً إلى الحرب الجيدة التى يكون العدو فيها ظاهراً، بما يسهم فى إزاحة النقاش العام العقلانى لدوافع العدوان الإمبريالى الأمريكى تاركاً المجال للإيحاء بأن المشكلة الحقيقية وراء الحرب التى تسببت فى قتل حوالى ستين ألف أمريكى وأكثر من مليونى فيتنامى كانت تكمن فى حرمان الولايات المتحدة من الفرصة فى خوض حرب جيدة. ومثل هذا التصوير ينكر السياسات التى تدفع العدوان الأمريكى العالمى، ويحول المعتدى إلى ضحية. وبالمثل أنتجت تغطية حادث مدرسة كولمباين حنيناً إلى "المدرسة الجيدة"، بثقافة العنف البريئة التى تشيع فيها والتى تتمثل فى المحاربين البيض فى ملعب كرة القدم. وهذه التغطية تنكر العلاقة بين ثقافة العنف المهيمنة التى تشكل واقع المدرسة المعاش بالنسبة لكثير من الطلاب، والأبنية الاجتماعية الأوسع التى يخدمها هذا العنف. وهذا الارتباط تحديداً هو ما ينكره محرر مجلة تايم فى افتتاحيته "لماذا عدنا إلى كولمباين". يقول نورمان بيرلستاين Norman Pearlstine رئيس تحرير المجلة مدافعاً عن تغطية المجلة القائمة على الإثارة: "إننا لا نميل إلى استخدام الإثارة فى الجرائم أو أن تتصدر جرائم الأسبوع أغلفة المجلة. لكن فى بعض الأحيان يمكن لصورة صادمة، كعملية إعدام أثناء الحرب أو عمل وحشى ما أو طفل يحمل بندقية، ومع الصورة تحليل للحكاية الكامنة خلفها، يمكن أن تفيد فى تركيز انتباهنا على أشياء قد نفضل أن نتجاهلها فى حين يجب علينا أن نسعى إلى فهمها"(٤٦). ومع ذلك، وفيما لا يختلف عن ممارسات حرب فيتنام التى كانت تقوم على قياس النجاح من خلال أعداد القتلى، فإن الفهم أو حتى العدل يصير فى النهاية مجسداً فى جمع أكبر قدر ممكن من التفاصيل الدقيقة حول الحدث من جانب فريق المجلة، وهم بذلك يضعون المشهد مكان المناقشة الواعية للدور الذى تلعبه ثقافة العنف البريئة فى إدامة النظام الاجتماعى فى خدمة الشركات.

وفى إطار مناخ ثقافة العنف البريئة، كانت الصور المتكررة بلا انقطاع لبرجى مركز التجارة المنهارين توضع بالكامل فى سياق المفاجأة الكاملة، مفاجأة السقوط من البراءة الأمريكية. وبدلاً من مواجهه المشكلة المتمثلة فى تدخل الولايات المتحدة فى

الشرق الأوسط وأمريكا الوسطى والجنوبية وأماكن أخرى باعتبارها العنف الأصلى الذى كان الأكثر وحشية فى القرن الماضى، تم تفسير الحادث على أنه استجابة غير معقولة وغير عقلانية، وليس استجابة سياسية، وهو ما يبرر تصعيد العنف فى الشرق الأوسط ووسط وجنوب آسيا وأمريكا الجنوبية. وفى إعلان الحرب الدائمة، ليس على عدو محدد، وإنما على طريقة حرب، فإن الانتقام المجنون يحجب فهم تاريخ العنف الإمبريالى الأمريكى خارج الحدود، ذلك العنف الذى تسبب فى هذا الرد الوحشى. فضلاً عن أنه يكون من غير الوارد مناقشة الالتزامات الأيديولوجية للعدو وقيمه الأساسية وعلاقته التاريخية بالولايات المتحدة، مع تحول أساس النقاش فى الحرب على الإرهاب إلى طرق الصراع. فالعدو يكون أى شخص فى العالم لا يقدم فروض الولاء والطاعة.

والتعليم بدوره يصبح على نحو متزايد مُبَرَرًا بدواعى الأمن القومى. وهو ما يتضح فى لجنة هارت – رودمان Hart-Rudman التى طالبت فى عام ٢٠٠٠ بتصنيف التعليم باعتباره قضية أمن قومى، وبزيادة التمويل الفيدرالى لأمن المدارس، مع خفض نفقات الأعمال البوليسية فى المجتمع المحيط بالمدرسة، وباستمرار برنامج "جنود إلى معلمين"، تمامًا كما جاء فى تقرير "أمة فى خطر" الأصلى. لماذا كل ذلك؟ إن ذلك يرتبط بالهجوم على الإنفاق الاجتماعى بوجه عام، وهذا هو جانب الليبرالية الجديدة المعادى للفدرالية، وهى سياسة احتواء أكثر منها سياسة استثمار، إنها الكفاءة السياسية فى جعل قطاعات كبيرة من السكان غير متعلمة أو سيئة التعليم، والكفاءة الاقتصادية فى جعل الأموال تتدفق إلى الدفاع وقطاعات التكنولوجيا المتقدمة بعيدًا عن قطاعات السكان التى يُنْظَر إليها على أنها غير مفيدة لرأس المال. إن الطبقة العاملة التى تعمل فى وظائف قطاع الخدمات منخفض المهارات ومنخفض الأجور من الممكن أن تشكو أو حتى تنظم نفسها إذا ما شُجِعت على أن تسأل وتفكر كثيرًا. فالتعليم ومعرفة القراءة والكتابة يرتبطان بالمشاركة السياسية. والمشاركة قد تعنى أن النخب غير المشروعاتية قد ترغب فى استثمار اجتماعى فى المشروعات العامة، أو على الأقل

المشروعات التى يمكن أن تفيد غالبية الناس. لكن ذلك لن يجدى نفعًا. فهناك أسباب تجعل الحكومة الفدرالية فى حاجة إلى جنود أكثر من حاجتها، مثلاً، إلى ذلك العدد الكبير من حاملى درجات الدكتوراه فى الفصول [المعلمين]. وعلاوة على ذلك فإن مبادرات العولمة الشركاتية مثل منطقة التجارة الحرة للأمريكتين FTAA تسعى إلى إدخال المنافسة الشركاتية فى القطاع العام بدرجات غير مسبوقة. نظريًا سيكون على المدارس العامة أن تتنافس مع مبادرات التمدرس الربحية التى تدشنها أى شركة فى العالم. ومن خلال إعادة تعريف التعليم باعتباره قضية أمن قومى يمكن استثناء التعليم من هذه العولمة المتطرفة التى تفرضها هذه الاتفاقيات على الأمم الأخرى. وبما يتفق مع هذا الاتجاه فإن التعليم من أجل الأمن القومى يُعَرِف الصالح العام من خلال خطاب الضبط discipline الذى ينتج الإصلاحات التى تُبَلِد المعلمين وتكبح التدريس باعتباره محاولة نقدية وعقلية تستهدف جعل جماعة المواطنين المشاركين قادرة على بناء الحيز العام.

ما العمل؟ كما يدفع سيمور ملمان Seymour Melman فى كتابه "بعد الرأسمالية"، فإن واحدة من المهام الرئيسية فى المستقبل هى تحويل اقتصاد الحرب إلى اقتصاد مدنى، ليس فقط بالنسبة لدول الاتحاد السوفيتى السابق، بل أيضًا بالنسبة للولايات المتحدة. وبالنظر إلى الطرق التى يعمل النظام المالى العالمى من خلالها على إدامة الفقر، والطرق التى ينتج النظام العسكرى من خلالها الحرب، يكون من المهام الأساسية للمربين أن يتصوروا دور التعليم على أنه وسيلة لتعبئة المواطنين من أجل فهم وتحويل هذه النظم فى اتجاه هدف الديمقراطية والعدل العالميين. إن التعليم المعسكر يمكن مقاومته على المستوى المحلى. وهو ما يمارسه بالفعل كثير من الناشطين والمربين النقديين. من أمثلة ذلك حملة "ليخرج الجيش من مدارسنا" التى بدأها ويديرها كيفين راميريز Kevin Ramirez التى تسعى إلى إخراج وحدات فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار من المدارس العامة. يوضح راميريز لأولياء الأمور والمعلمين والمديرين ومحررى الصحف أن العنف المدرسى امتداد للعنف الاجتماعى

الذى يتم تعليمه للطلاب. وإلى جانب راميريز، هناك منظمات مدنية ودينية أخرى تعمل من أجل إبعاد التجنيد العسكرى من المدارس. لقد دفعت فى هذا الفصل بأنه لا بد من فهم التربية المعسكرة فى الولايات المتحدة فى علاقتها بفرض المطالب الاقتصادية للشركات وفى علاقتها بثقافة "القانون والنظام" الناشئة التى تتخلل الثقافة الشعبية والخطاب التعليمى والسياسة الخارجية واللغة. والحركة المضادة للعسكرة فى التعليم يجب أن تذهب أبعد من تحدى التربية المعسكرة إلى تحدى الطرق الكثيرة التى من خلالها تفرِض العسكرة، بما هى منطق ثقافى، تمدد قوة الشركات وانكماش القوة الديمقراطية العامة. ومثل هذه الحركة المضادة "للتربية كفرض" يجب أن تتضمن ممارسة التربية النقدية، ويجب أن تتواصل مع الحركات العديدة المناهضة للقهر، مثل الحركات المناهضة للعولمة والحركات النسوية والعمالية والبيئية والمناهضة للتمييز العنصرى. إن تلك الحركات من ناحية وكل من الممارسة والنظرية التربويتين النقديتين من ناحية أخرى لا بد وأن يشكلوا الأساس لتخيل وإنجاز مستقبل عادل.

الهوامش

(1) .Nancy Chang, Silencing Political Dissent: How Post-September 11 Anti-Terrorism Measures Threaten Our Civil Liberties (New York: Seven Stories, 2002).

(2) Robert W. McChesney "Introduction," in Profit Over People Noam Chomsky (New York: Seven Stories Press, 1999), 7.

(3) "Shifting Fortunes," Chris Hartman, ed., "Facts and Figures" (September 18, 2000), available at http://www.inequality.org/factsfr.html

(4) Bauman, The Individualized Society, 115.

(5) Bauman, The Individualized Society, 114.

(6) "Index," Harper's Magazine (July 2000).

(٧) وفقًا لبيانات من تعداد عام ٢٠٠٠ يعيش ٧٥٪ من سكان المكسيك اليوم فى فقر (ثلثهم فى فقر مدقع) مقارنة بـ٤٩٪ عام ١٩٨١ قبل فرض النظام الليبرالى الجديد، وبعد اتفاقية التجارة الحرة لأمريكا الشمالية. انظر: Jerry W. Sanders, "Two Mexicos and Fox's Quandary." The Nation (February 26, 2001): 18-19.

(8) John Williams, "Look, Child Poverty in the Wealthy Countries Isn't Necessary," International Herald Tribune (July 24, 2000). See also Chris Hartman, ed., "Facts and Figures": nine states have reduced child poverty rates by more than 30 percent since 1993.

(9) Ellen Meiskins Wood, "Kosovo and the New Imperialism," in Masters of the Universe?, edited by Tariq Ali (New York: Verso, 2000), 199.

(10) Thomas L. Friedman, The Lexus and the Olive Tree (New York: Farrar Straus Giroux, 1999), 304, 373.

(11) Samir Amin, Capitalism in the Age of Globalization (New York: Zed Books, 2000), 48.

(١٢) أصبح التمدرس العام على نحو متزايد يوصف بلغة الاحتكار والمحاسبية والاختيار والفعالية، وعلى نحو أقل بلغة العام والمدنى والمجتمع والتضامن. من أجل مناقشة أطول للاستخدام السياسى للغة السوق فى السياسة التعليمية أنظر: Kenneth J. Saltman, Collateral Damage: Corporatizing Public School_a Threat to Democracy (Boulder, Colo.: Rowman & Littlefield, 2000).

(13) Robert W. McChesney, Rich Media Poor Democracy and McChesney and Edward Herman The Global Media: The New Missionaries of Corporate Capitalism (Washington, D.C.: Cassell, 1997).

(14) Zygmunt Bauman, In Search of Politics (Maiden, Mass.: Polity, 1999).

(15) William Raspberry, "Sounds Bad, but It Works," Washington Post March 30 1998, 25A.

(16) Zygmunt Bauman, Liquid Modernity (Maiden, Mass.: Polity) 2000, 30.

(17) McChesney "Introduction," 7.

(18) See Jeffrey Henig's Rethinking School Choice (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1994) for an excellent history of the appropriation of equity-based programs by privatization advocates.

(19) Friedman, 373.

(20) Steven Lee Myers, "Drop in Recruits Pushes Pentagon to New Strategy," New York Times, (September 27, 1999): AI.

(21) Robert Suro, "Army Ads Open New Campaign: Finish Education," (Washington Post, September 21, 2000): A3.

(22) Robert Suro, "Army Ads Open New Campaign: Finish Education," (Washington Post, September 21, 2000): A3.

(23) Ibid.

(24) Ibid.

(25) Ibid.

(26) Noam Chomsky. Profits Over People (New York: Seven Stories Press, 1999).

(27) Harper's Bazaar (January 2001): 35.

(28) See Ken Silverstein's Washington on $10 Million a Day for a detailed expose on the way the lobbying industry ensures that weapons manufacturers keep politicians voting in favor of their projects.

(29) Marketing Tomorrow's Weapons video produced by America's Defense

Monitor.

(30) News Services, "Army to Try New Advertising Manuever to Boost Recruiting," Star Tribune (Minneapolis) (January 8, 2000): 12A.

(31) Available at http//:www.marines.com.

(32) هذا الجزء أعيدت طباعته من: Goodman and my Strange Love, or How We Learn to Stop Worrying and Love the Market, (Lanham, MD: Rowman & Littlefield, 2002).

(33) See "Facts about Violence among Youth and Violence in Schools," a study published by the National Centers for Injury Prevention and Control and the 1999 annual School Safety Report published by the U.S. Department of Education. See also, Mike Males, Scapegoat Generation (Monroe, Maine; Common Courage Press, 1996).

(34) Mike Males, Framing Youth: Ten Myths About the Next Generation (Monroe, Maine: Common Courage Press, 1999), 10.

(35) Henry A. Giroux, Stealing Innocence (New York: St. Martin's Press, 2000), 8.

(36) Patricia J. Williams, "The Auguries of Innocence," The Nation (May 24, 1999): 9.

(37) Ellen Meiskins Wood, "Kosovo and the New Imperialism," 196-7.

(38) Ibid., 195 (italics added).

(39) Walter Isaacson, "Why We Went Back to Columbine," Time (December 20, 1999), 6.

(40) Kenneth Miller, "Is Your Dog an Athlete?" Time (December 20, 1999), 8.

(41) Nancy Gibbs and Timothy Roche, "The Columbine Tapes," Time (December 20, 1999): 40-41, 42, 44.

(42) Ibid., 50-51.

(43) Andrew Goldstein, "The Victims: Never Again," Time (December 20, 1999): 53.

(44) Gibbs and Roche, "The Columbine Tapes," 44.

(45) Ibid., 42.

(46) As cited in Isaacson, "Why We Went Back to Columbine," 6.

الفصل الأول

وظيفة المدارس

طرق السيطرة الماكرة والفجة

نعوم تشومسكى (*)

امرأة: كيف ينتهى الأمر بالمدارس لأن تكون نظام تلقين أو قولبة indoctrination system؟ أريد شرحاً مفصلاً لهذه العملية؟

حسنًا، النقطة الأساسية فى اعتقادى هى أن منهج المدرسة كله، من رياض الأطفال حتى مدارس الخريجين، يمكن تحمله فقط طالما أنه يواصل أداء دوره المؤسسى. خذى مثالاً على ذلك الجامعات، التى لا تختلف كثيرًا عن أجهزة الإعلام فى وظيفتها، مع أنها نظام أكثر تعقيداً بكثير بما يحول دون دراستها بشكل منظم. إن الجامعات لا تولد من الرسوم والمصروفات أموالاً تكفى لأن تعتمد على نفسها ماليًا، وهى لذلك مؤسسات طفيلية تحتاج إلى الدعم المالى من خارجها، وهذا يعنى أنها تعتمد على الخريجين الأثرياء وعلى الشركات وعلى الحكومة، وتلك جماعات

(*) نعوم تشومسكى Noam Chomsky أستاذ معهد وأستاذ اللغويات بمعهد ماساشوستس للتكنولوجيا. تشومسكى من أبرز الشخصيات فى مجال اللغويات وله نظريات شهيرة فى المجال. وهو أيضًا من أبرز أعلام الاتجاه النقدى وله كتابات كثيرة حول السياسات الأمريكية الداخلية والخارجية. من أشهر أعماله: Power and Prospects: Reflections on Human Nature and the Social Order, Year 501: The Conquest Continues, and Necessary Illusions: Thought Control in Democratic Societies.

تشـتـرك فـى نفس المصـالح الأسـاسـيـة. وعلى ذلك فطالما أن الجـامـعـات تخـدم تلك المصـالح، فإن هـذه الجمـاعات تمولها. لكن إذا توقفت عن خدمة تلك المصـالح، فإنها ولا شك ستقع فى مشاكل.

على سبيل المثال، بدا واضـحًا فى أواخـر الستينات أن الجامـعات لا تؤدى تلك الخدمة على الوجه اللائق، حيث كان الطلاب يطرحون تساؤلات، وكانوا يفكرون بشكل مستقل، وكانوا يرفضون كثيراً من النسق القيمى للمؤسسة، وكانوا يتحدون فى ذلك كل شيء، هنا بدأت الشركات بالرد على ذلك بعدة طرق. أولاً بدأت تُوجِد برامج بديلة، منها مثلاً برنامج التدريب المهنى الذى دشنته شركة آى بى إم IBM لإنتاج المهندسين، فإذا لم يؤد لها معـهد ماسشوستس للتكنولوجيا هذه الخدمة بالطريقة التى تريدها الشركات، فإنها ستؤديها بنفسها، وهذا كان يعنى أنها ستوقف تمويل المعهد. لكن الأمـور لم تخـرج عن السيطرة جـديًا فى الستينات، ولذلك كـانت التحـركات فى ذلك الاتجاه محدودة جداً. لكن تلك هى أنواع الضغوط القائمة.

حقيقة يمكن أن نرى أشياءً مماثلة حتى فى الوقت الراهن. خذى مثلاً كل ما دار حول ألان بلوم Allan Bloom وكتابه "انغلاق العقل الأمريكى"(*) الذى كان الجميع يتحدثون عنه وكان من الكتب الأكثر رواجًا. لا أدرى إن كنتِ قد أثقلتِ على نفسكِ بالنظر فى هذا الكتاب الغبى بكل معنى الكلمة. لقد قرأته ذات مرة فى السوق، بينما كانت زوجتى تتسوق، حيث وقفت هناك وقرأت هذا الشيء الملعون، الذى أخذ منى حوالى خمس عشرة دقيقة فى قراءته.

رجل: أنت بذلك تقرأ ألفى كلمة فى الدقيقة؟

(*) كتاب The Closing of the American Mind صدر عام ١٩٨٧، وعلى خلاف ما كان يتوقعه مؤلفه بلوم والناشر، حقق الكتاب مبيعات ضخمة. فى هذا الكتاب ينتقد بلوم الجامعات الأمريكية ويرميها بالفشل فى تعليم الطلاب، وذلك لأنها أهملت الكتب العظيمة للفكر الغربى والأفكار العظيمة للحضارة الغربية، ولعل ذلك بسبب تخصصه فى الفلسفة اليونانية وتاريخ الفلسفة [المترجم].

أعنى أننى قلبت الصفحات لأرى إن كان هناك شيئًا ليس غبيًا إلى أقصى حد. إن ما يقوله ذلك الكتاب أساسًا هو أن التعليم يجب أن يُدار على غرار القوات البحرية، حيث يتقدم الطلاب فحسب بناءً على "الأفكار العظيمة" التى يجب أن يتبناها الجميع. وسوف تجد أناسًا يقولون: "ها هى الأفكار العظيمة، الأفكار العظيمة للحضارة الغربية تتجسد فى هذه المجموعة، وما عليكم أيها الشباب إلا أن تجلسوا هناك وتتعلمونها، اقرءوها وتعلموها، وكونوا قادرين على ترديدها". وهذا هو النموذج الذى يدعو إليه بلوم.

وأى شخص سبق له أن فكر فى التعليم، أو انخرط فيه، أو حتى ذهب إلى مدرسة، يعرف أن تأثير ذلك هو أن ينتهى الطلاب إلى ألا يعرفوا شيئًا وألا يفهموا شيئًا. فلا يهم كثيرًا مدى عظمة الأفكار، إذا كانت تفرض عليك من الخارج، وأنت تُكرَه عليها خطوة بخطوة، وبعد أن تنتهى ستكون قد نسيت ما هى. أعنى أننى متأكد من أنكم جميعًا أخذتم عددًا من المقررات فى المدارس التى تعملون بها، وأنكم كنتم تؤدون واجباتكم المنزلية، وكنتم تجتازون الامتحانات، وربما حتى يكون معظمكم قد حصل على أعلى الدرجات، لكنكم بعد أسبوع لا تستطيعون أن تتذكروا حتى موضوع المقرر. فأنت تتعلم الأشياء وتتعلم كيف تفكر فقط عندما يكون هناك هدف للتعلم، وشيء من الدافعية النابعة من داخلك أنت بطريقة ما. وكل مناهج التعليم ليست فى الحقيقة أكثر من "جعل الطلاب يريدون أن يتعلموا". وبمجرد أن يريدوا أن يتعلموا، فإنهم سوف يفعلونها ويتعلموا.

والنقطة التى أود أن أؤكد عليها هى أن النموذج الذى يروج له بلوم وغيره ليس أكثر من جزء من الطريقة الكاملة لفرض الضبط/الانضباط discipline من خلال المدارس، ومنع الناس من أن يتعلموا كيف يفكرون لأنفسهم. وعلى ذلك فإن ما يجب عليك هو أن تجعل الطلاب يمرون بتلك المجموعة المسماة بـ"الكتب العظيمة" ويحفظونها، وأنتم بذلك تفرضونها عليهم، وبعد ذلك تفترضون أن أشياءً عظيمة ستحدث نتيجة لذلك. إنه شكل غبى جدًا من التعليم، وفى اعتقادى أنه اختير ويلقى

الدعم لصفته تلك، وبسبب بلادته تلك أيضًا حدثت الهستيريا الضخمة عندما أُخْضِع للنقد فى السنوات الماضية، فقط لأنه من الوظيفى تمامًا أن ندرب الناس ونضبطهم بمثل هذه الطرق. وشعبية هذا الشيء الذى أعده بلوم وانتشاره، كما أتخيل، تعد فى الأساس رد فعل على نوع التأثير التحريرى الذى أحدثته الحركة الطلابية فى الستينات والتحديات الأخرى للمدارس والجامعات.

امرأة: إن كل "الأفكار العظيمة" لألان بلوم هى من إنتاج نخبة الذكور البيض.

نعم بالتأكيد، لكن لا يهم كثيرًا أن تكون لديه مجموعة مختلفة من المواد، فذلك لن يفرق كثيرًا. والفكرة هى أن هناك بعض "الأفكار العميقة"، وأننا نحن الأشخاص الأذكياء سوف نلتقطها، وأنتم أيها الرفاق الأغبياء سوف تتعلمونها أو تحفظونها على الأقل، لأنكم لن تتعلمونها حقًا إذا كانت مفروضة عليكم، إنه هراء. فأنت إذا كنت جادًا، مثلاً، فى أن تقرأ أفلاطون، فهذا شيء جميل، لكن عليك أن تحدد ما هو الصحيح وما هو الخاطئ، وما الطريقة الأفضل لقراءته، ولماذا قال ذلك بينما كان يجب أن يقول شيئًا آخر، وما أخطاء التفكير الغريبة التى وقع فيها هنا، وما إلى ذلك. وتلك هى الطريقة التى يجب أن تقرأ بها الأعمال الجادة، وهو ذاته ما يجب أن تتبعه فى العلوم. لكنك لا يُفْتَرَض أن تقرأها بهذه الطريقة هنا، فمن المفترض أن تقرأها لأنها الحقيقة، أو الأفكار العظيمة، أو شيء من هذا القبيل. وهذا هو أسوأ شكل من اللاهوت.

ما أود أن أقوله هو أنه لا يهم ماذا تقرأ، وإنما كيف تقرأ ما تقرأه. وأنا لا أعنى بذلك أن كل الكتب هزلية، فهناك ثروة ثقافية ضخمة هنا وهناك، وأنت بمجرد أن تتعلم معنى الثراء الثقافى ستصير قادرًا على أن تستكشف أى شيء، فليس ثمة مجموعة كتب محددة تعد الأساس للحقيقة والفهم. أعنى أنك يمكن أن تقرأ "الكتب الجيدة"، وتحفظ ما قالته، وتنساه بعد أسبوع، إذا كانت لا تعنى أى شيء لك أنت نفسك، وربما يكون من المفضل ألا تقرأها. ومن الصعب جدًا أن تعرف ماذا ستعنى بالنسبة للناس المختلفين. لكن هناك وفرة فى الأدبيات الشيقة فى كل مكان فى العالم، وليس ثمة

سبب مطلقًا للاعتقاد بأنك إذا لم تقرأ اليونانيين ودانتى وما إليها من أعمال، ستفوتك أشياءً، أعنى أنك نعم ستفوتك أشياءً، لكنك ستفوتك أشياء أيضًا إذا أنت لم تتعلم شيئًا حول التقاليد الثقافية الأخرى كذلك.

ولك أن تلقى نظرة على الفلسفة، على سبيل المثال، وهى مجال أعرف عنه قدراً يسيراً. فبعض أفضل الفلاسفة وأكثرهم إثارة ونشاطًا فى العالم المعاصر، الذين أثروا بالفعل فى المجال، لا يستطيعون أن يميزوا بين أفلاطون وأرسطو، اللهم إلا بما يتذكرونه من مقرر الطلاب المبتدئين الذى أخذوه فى الجامعة. ليس معنى ذلك أنك يجب ألا تقرأ أفلاطون وأرسطو، وبالتأكيد هناك ملايين الأشياء التى يجب أن تقرأها، ولا أحد أبداً يقرأ أكثر من جزء ضئيل جداً من الأشياء التى كان يتمنى أن يعرفها. لكن مجرد قراءتها لا يقدم لك شيئًا، فأنت تتعلم فقط عندما تندمج المادة فى عملياتك الابتكارية بطريقة ما، وما عدا ذلك فإنها تمر خلال عقلك وتختفى فحسب. وليس ثمة شيء ذو قيمة فى ذلك، ولا يكون له من تأثير إلا مثل تأثير التلقين الشفهى الذى كان يُستخدَم فى الكتب الدينية المصاغة على شكل سؤال وجواب catechism أو حفظ الدستور أو ما إلى ذلك.

إن التعليم الحقيقى يعنى أن نجعل الناس يفكرون لأنفسهم، وذلك عمل يصعب تنفيذه بشكل جيد، لكنه يتطلب بالتأكيد أن أى شيء تطالعه يجب أن يثير اهتمامك بطريقة ما ويجعلك تريد أن تفكر، ويجعلك تريد أن تتابع وتستكشف. أما مجرد استفراغ أو تقيؤ "الكتب الجيدة" فهو يقينًا أسوأ طريقة للتعليم، فهو فحسب طريقة لتحويل الناس إلى آلات. وأنت يمكن أن تسمى ذلك تعليمًا إن شئت، لكنه حقًا نقيض التعليم، وهو لذلك يحظى بتأييد أناس من أمثال وليام بينيت [William Bennett وزير التعليم فى عهد ريجان [وألان بلوم ومن هم على شاكلتهم.

امرأة: هل تقول أن الغرض الحقيقى للجامعات والمدارس هو فقط أن تقولب الناس، وليس شيئًا آخر؟

حسناً، أنا لا أقول ذلك بالضبط. ولا أقول أنه ليس ثمة عمل ذو معنى يحدث فى المدارس، أو أنها توجد فقط لتوفر القوة البشرية لنظام الشركات أو شيء كهذا، فالمدارس والجامعات، على كل، نظم معقدة جداً. لكن الدور والوظيفة المؤسسية الأساسية للمدارس، والسبب وراء دعمها، هو أنها تقدم خدمة أيديولوجية: فثمة انتخاب حقيقى من أجل الطاعة والامتثال. بل وأعتقد أن تلك العملية تبدأ حقيقة من رياض الأطفال.

دعونى أروى لكم قصة شخصية. إن أقدم وأقرب أصدقائى رجل جاء إلى الولايات المتحدة من لاتفيا وهو فى عمر الخامسة عشر هرباً من هتلر. لقد هرب إلى نيويورك مع أبويه، وذهب إلى مدرسة جورج واشنطن الثانوية، التى كانت، فى تلك الأيام على الأقل، مدرسة الأطفال اليهود النابهين فى مدينة نيويورك. وقد أخبرنى صديقى ذات مرة بأن أول شيء صعقه فى المدارس الأمريكية كان حقيقة أنه إذا حصل على تقدير ضعيف فى المقرر، فلا أحد يكترس، لكنه إذا وصل المدرسة متأخراً ثلاث دقائق فإنهم يرسلونه إلى مكتب المدير، وتلك ممارسات معممة. وقد أدرك صديقى أن ما يعنيه ذلك هو أن الذى يثمنونه هنا هو القدرة على العمل فى خط تجميع assem-bly line، حتى وإن كان خط تجميع عقلى. فالشيء المهم هو أن تكون قادراً على طاعة الأوامر، وأن تعمل ما يُطلَب منك، وأن تكون فى المكان الذى يُفترَض أن تكون موجوداً فيه. فالقيمة أنك ستصبح عامل مصنع فى مكان ما - قد يطلقون على هذا المصنع اسم جامعة- وسيكون عليك أن تتبع أوامر شخص آخر، وأن تقوم بعملك فحسب بالطريقة الموصوفة. إن ما يهم، إذن، هو الضبط/الانضباط، وليس أن تفهم الأشياء بنفسك، أو أن تفهم الأشياء التى تهمك، فتلك أشياء هامشية، وكل ما عليك هو أن تتأكد أنك تفى بمتطلبات المصنع.

هذا هو تقريباً واقع المدارس فى رأيى، فهى تكافئ الانضباط والطاعة، وتعاقب استقلال العقل. فإذا تصادف وكنت مبتكراً إلى حد ما، أو تنسى أن تأتى إلى المدرسة فى يوم ما لأنك كنت تقرأ كتاباً أو شيء كهذا، تكون مأساة، بل جريمة، لأنه لا يُفترَض

فيك أن تفكر، وإنما يُفترَض فيك أن تطيع، وأن تسير فحسب خلال المادة بالطريقة المطلوبة أيًا كانت.

وفى الحقيقة فإن أغلب الناس الذين نجحوا فى النظام التعليمى والتحقوا بجامعات النخبة تمكنوا من ذلك فحسب لأنهم كانوا مستعدين لأن يطيعوا كثيراً من الأوامر الغبية لسنوات وسنوات، وتلك هى الطريقة التى نجحت أنا بها فى هذا النظام التعليمى. فأنت مثلاً يقول لك معلم غبى "افعل هذا"، وأنت تعرف أن هذا الذى يطلبه لا معنى له مطلقًا، لكنك تفعله، وأنت إذا فعلته تنتقل إلى الصف التالى، ثم تطيع الأمر التالى، وأخيرًا تتخرج لتشق طريقك، وهم من جانبهم يعطونك أحرف [تشير إلى تقديرات مثل A]. إن كمًا كبير من التعليم يسير على ذلك النحو منذ البداية. بعض الناس يسايرونه لأنهم يقولون لأنفسهم: "حسنًا سأفعل أى شيء غبى يطلبه هذا المتسكع لأننى أريد أن أتقدم"، بينما يسايره آخرون لأنهم استدمجوا القيم، لكن بعد فترة يتلاشى الفرق بين الاثنين. وعمومًا فأنت إما أن تسايره أو يكون الطرد مصيرك، فأنت فى هذه الحالة الأخيرة تثير أسئلة كثيرة وتقع بالتالى فى مشاكل.

لكن هناك أيضًا أناس لا يسايرون هذا النظام، وهم من يأخذون ألقاب "ذوى المشكلات السلوكية" أو "فاقدى الدافعية"، أو ألقاب من هذا النوع. وإذا أردنا الدقة قلنا أن هناك بالفعل أطفال "ذوى مشكلات سلوكية"، لكن مشكلة كثيرين منهم تكمن فقط فى أنهم ذوى عقول مستقلة، أو لا يحبون أن يمتثلوا، أو يريدون فحسب أن يسيروا بطريقتهم. وهؤلاء يقعون فى متاعب منذ البداية، وهم فى العادة يتم التخلص منهم. لقد مارست التدريس لأطفال صغار أيضًا، وأعلم أنه يكون هناك دائمًا بعض الأطفال الذين لا يثقون فى كلامك. والنزوع المؤسف فعلاً هو أننا نشتد على هؤلاء، لأنهم يكونوا كالغصة فى الحلق. لكن هؤلاء يجب أن يُشَجَعوا. نعم لماذا تثق فى كلامي؟ من أنا بحق الجحيم؟ فكر أنت فى ذلك. ذلك هو ما يجب أن يتمحور حوله التعليم الحقيقى.

حقيقةً كنت محظوظًا جدًا بأننى التحقت بمدرسة تقدمية-تجريبية تتبع فلسفة جون ديوى، من حوالى عمر سنة ونصف إلى عمر اثنى عشر سنة]كان جون ديوى فيلسوفًا ومصلحًا تربويًا أمريكيًا .[وكانت الأمور هناك تسير بشكل روتيني: يُشجَع الأطفال على أن يتحدوا كل شيء، وأن يفعلوا أى شيء، وكان من المفترض أن نفكر فى الأشياء بأنفسنا، إنها الخبرة الحقيقية. وقد كان تغييراً صادمًا لى أن تنتهى هذه المدرسة وأن انتقل إلى المدرسة الثانوية بالمدينة، التى كانت فخر النظام التعليمى بالمدينة. كانت هذه المدرسة مخصصة للأطفال ذوى التوجه الأكاديمى فى فيلادلفيا، لكنها فى الحقيقة كانت أسوأ مكان دخلته على الإطلاق. لقد كان الأمر بالنسبة لى يشبه السقوط إلى ثقب أسود أو شيء كهذا. فمن ناحية، كانت هذه المدرسة تنافسية جداً، لأن تلك هى أفضل طريقة للسيطرة على الناس. لذلك كان الجميع مصنَفين أو مرتَبين، وأنت تعرف دائمًا أين ترتيبك بالضبط: هل أنت الثالث فى الفصل، أم تراك نزلت إلى الرابع؟ وكل هذا الهراء يوضع فى رؤوس الناس بطرق مختلفة فى المدارس: إنك يجب أن تصرع الشخص الذى يليك، وأن تهتم بنفسك فقط. وفى هذه المدرسة كانت تخلق أشياءً أخرى مماثلة.

ما أود أن أؤكده أنه ليس ثمة ما يستلزم ذلك التعليم. وأنا، لأنى ذهبت إلى بديل لهذا النظام، أعرف أن ذلك يمكن تنفيذه بالتأكيد. لكن مع وجود بنية القوة الخارجية للمجتمع الذى تعمل فيه المدارس الآن، فإن دورها المؤسسى فى الغالب يكون فحسب أن تدرب الناس على الطاعة والامتثال، وتجعلهم قابلين للسيطرة والقولبة، والمدارس طالما أنها تنجز ذلك الدور، فإنها تكون فى مأمن.

إن المدارس الآن لا تعمل مائة بالمائة، بالطبع، ولذلك فأنتم تصادفون بعض الناس الذين لا يسايرون النظام. وكما أقول دائمًا فإنه فى العلوم، على الأقل، يجب أن يُدرَب الناس على الابتكار والتمرد؛ وذلك لأنه ليس ثمة طريقة أخرى للتعامل مع العلم. لكن فى الإنسانيات والعلوم الاجتماعية، وفى مجالات مثل الصحافة والاقتصاد وما شابهها، ينطبق ذلك بدرجة أقل كثيراً: فالناس فى هذه الميادين يجب أن يُدرَبوا لكى

يكونوا مديرين وفارضى سيطرة، وأن يتقبلوا الأشياء، وألا يسألوا كثيراً. وذلك يُنتِج نوعًا مختلفًا تمامًا من التعليم. والناس الذين يخرجون عن الخط يتم التخلص منهم أو يُعاقَبوا بكافة الوسائل.

وذلك ليس شيئًا مجرداً، فأنت، مثلاً، لو كنت شابًا فى كلية، أو فى الصحافة، أو فى حالتنا هذه تلميذ فى الصف الرابع، وتتمتع بعقل مستقل أكثر من اللازم، فإن هناك تشكيلة كاملة من الأدوات التى سوف تُستخدَم لتعدل مسارك بعيداً عن هذا الخطأ. أما إذا لم يكن من الممكن السيطرة عليك، فإن مصيرك سيكون التهميش أو الطرد. ففى الصف الرابع تكون من "ذوى المشكلات السلوكية"، وفى الكلية تكون "غير مسئول" أو "شخص غريب الأطوار" أو "ليس من نوع الطلاب الجيدين". وإذا فعلت ذلك فى الكلية، فسوف تفشل فيما يسمى أحيانًا "التأقلم مع جو الكلية" collegiality، أى الانسجام مع زملائك. أما إذا كنت صحفيًا شابًا فسوف تجرى وراء القصص التى يفهمها الناس فى المستوى الإدارى الذى يعلوك، إما حدسيًا أو صراحة، وإذا فعلت خلاف ذلك فسوف تُنقَل إلى قسم الحوادث، وتتلقى نصحًا بأن لا يكون لديك "معايير صحيحة للموضوعية". وهناك مدى كامل من هذه الأساليب.

إننا نعيش فى مجتمع حر، ولذلك فلن تُرْسَل إلى غرف الغاز، ولن يرسلوا فرق الموت خلفك، كما يحدث دائمًا، وليس بعيداً عن هنا، فى المكسيك مثلاً لكن هناك، مع ذلك، وسائل ناجحة جداً، ماكرة وفجة فى الوقت ذاته، لضمان عدم انتهاك الصواب المذهبى.

طرق السيطرة الماكرة

دعونى أبدأ بالطرق الأكثر مكراً، وسوف أعطيكم مثالاً. بعد أن أنهيت الكلية، ذهبت إلى ذلك البرنامج المسمى "جمعية الزملاء" society of fellows فى جامعة هارفارد، وهو نوع من المدرسة التأهيلية للنخبة، يعلموك فيها كيف تكون أستاذاً فى

هارفارد أو يل، وكيف تشرب النبيذ الصحيح، وكيف تقول الأشياء الصحيحة، وما إلى ذلك. بمعنى أن كل موارد هارفارد تكون طوع أمرك، ومسئوليتك الوحيدة هى أن تحضر عشاءً أسبوعيًا. ولذلك كان هذا الوقت فرصة جيدة لأن تقوم بأعمالك الأخرى إذا أردت. لكن النقطة الأساسية فى كل الموضوع كانت التطبيع socialization: أن يعلموك القيم الصحيحة.

ولا أزال أذكر، على سبيل المثال، أن هارفارد فى ذلك الوقت كان يهيمن عليها حب إنجلترا، فقد كان من المفترض أن تلبس ملابس بريطانية، وأن تتظاهر بأنك تتحدث بلهجة بريطانية، وأشياء من ذلك القبيل. وبالفعل كان هناك زملاء كنت أعتقد أنهم بريطانيين. لأفاجأ بأنهم لم يخرجوا من الولايات المتحدة قط. وإذا كان من بينكم من درس الأدب أو التاريخ أو ما شابه ذلك، فإنه قد يدرك ما أقول، ففى هذه الفروع المعرفية تجد انجلترا عادة. لكننى أفلحت بطريقة ما فى أن أنجو من ذلك، وإن كنت لا أعرف كيف على وجه التحديد، لكن كثيرون غيرى لم يفلحوا فى ذلك. إن ما اكتشفته هو أن جزءًا كبيرًا من التعليم فى مؤسسات النخبة يكون مجرد تهذيب وتدريس للفضائل الاجتماعية: ما نوع الملابس التى يجب أن تلبسها، وكيف تشرب مشروب البورت بالطريقة الصحيحة، وكيف تدخل فى محادثة مهذبة دون أن تتحدث حول موضوعات جادة، لكن يمكنك بالطبع أن تتحدث فى موضوعات جادة إذا كنت سوقيًا لدرجة تجعلك تجرؤ على ذلك، وكل أنواع الأشياء التى يُفترَض بالمفكر أن يعرف كيف يفعلها. كان ذلك هو الهدف الرئيسى للبرنامج فى اعتقادى.

وهناك حقيقةً حالات أكثر أهمية، تكشف بدرجة أوضح عن دور مدارس النخبة. على سبيل المثال، كان عقد الثلاثينات فترة نضال عمالى كبير وكفاح العمال فى الولايات المتحدة، وقد كان الأمر يفزع مجتمع المشروعات هنا؛ ذلك لأن العمال أخيرًا انتزعوا حقهم فى التنظيم، فضلاً عن أنه كانت هناك انتصارات تشريعية أخرى. وقد بُذِلت جهود كبيرة للتغلب على ذلك ،منها ما قدمته هارفارد بوصفه "برنامج اتحاد العمال". وما فعله هذا البرنامج هو انه جمع الشباب الصاعد فى الحركة العمالية،

أولئك الشباب الذين يبدو أنهم سيصبحون الرؤساء المحليين فى العام التالى، وأسكنهم فى نُزُل مدرسة التجارة، وأخضعهم لعملية تطبيع كاملة، وساعدهم فى التشارك فى بعض قيم ومفاهيم النخبة، وعلمهم "أن وظيفتنا هى أن نعمل معًا"، وما إلى ذلك. أعنى أنه يوجد دائمًا خطين: للجمهور يقولون "كلنا معًا الإدارة والعمال يتعاونون، إنه مشروع مشترك وتناغم" وما شابه ذلك، وفى الوقت ذاته تكون المشروعات تشن حربًا طبقية شرسة على الجانب الآخر. وذلك الجهد لتطبيع ودمج نشطاء اتحادات العمال، مع أننى لم أقم بقياس نجاحه، فإننى متأكد من أنه كان ناجحًا جدًا. وهذه العملية مشابهة لما عايشته ورأيته بنفسى فى تعليم هارفارد.

وإليكم قصة أخرى سمعت بها قبل عشرين عامًا من ناشط حقوق مدنية أسود جاء للدراسة فى مدرسة القانون بهارفارد، وهى تضرب المثل على بعض الضغوط الأخرى التى تُمارَس هنا وهناك. قدم هذا الزميل خطبة وصف فيها كيف أن الشباب الذين يبدءون فى كلية الحقوق بهارفارد يأتون بشعر طويل وحقائب ظهر ومُثُل اجتماعية، وأنهم جميعًا سينضمون إلى قانون الخدمة العامة ليغيروا العالم، وما شابه ذلك من عبارات، وقد كان ذلك فى السنة الأولى. وفى الربيع التالى، جاء أصحاب الأعمال الذين يعرضون وظائف صيفية سهلة بشركات المحاماة فى وول ستريت، وقد فكر هؤلاء الطلاب: "كل المسألة أن ارتدى رابطة عنق وسترة وأن أحلق ذقنى فى ذلك اليوم، فقط لأننى أحتاج ذلك المال، ولماذا لا آخذه؟" لذلك ارتدى الشباب رابطات العنق والسترات من أجل ذلك اليوم، وحصلوا على العمل، وبعد ذلك خرجوا فى الصيف، وعندما عادوا فى الخريف كانوا قد اكتشفوا أن الأمر ليس أكثر من رابطات العنق والسترات والطاعة. إنه تغيير فى الأيديولوجيا. وهذا أحيانًا يأخذ سنتين.

نعم لعل زميلنا أفرط فى رسم الصورة، لكن تلك الأنواع من العوامل مؤثرة جدًا أيضًا. وقد أحسست بذلك طوال حياتي: فمن السهل جدًا أن تُمْتَص فى الثقافة المهيمنة، فهى جذابة جدًا. وهناك الكثير من المكافآت. والأكثر من ذلك أن الأشخاص

الذين تلتقى بهم هناك لا يكونوا مثل الأشخاص السيئين الذين تنفر من أن تجالسهم. وربما يكونوا أناسًا لطيفين جدًا. ولذلك تحاول أن تكون لطيفًا، وربما حتى تُكَوِن صداقات. إنك بذلك تكون على أول الطريق إلى الامتثال والتكيف، وتبدأ فى تهذيب الحافات الحادة، وسرعان ما تجد أن ذلك حدث بالفعل، بطريقة التسرب. والتعليم فى مكان مثل هارفارد موجَه أساسًا فى هذا الاتجاه، وإلى مدى بعيد حقًا.

وهناك آليات أخرى ماكرة كثيرة تسهم أيضًا فى السيطرة الأيديولوجية، منها مجرد أن الجامعات تدعم وتشجع الناس على أن يشغلوا أنفسهم بأعمال غير ذات صلة وغير ضارة.

أو خذوا فقط حقيقة أن بعض الموضوعات لا يمكن دراستها فى المدارس لأنه ليس لها مكان؛ ذلك أن النظم المعرفية أو التخصصات مقسمة بطريقة تحول دون دراسة هذه الموضوعات. خذوا مثلاً مسألة المنافسة الاقتصادية مع اليابان التى كانت تشغل الناس جدًا فى الولايات المتحدة لسنوات وسنوات. لقد كنت أرى دائمًا أن الحديث حول "التراجع الأمريكى" و"السّبْق اليابانى" حديث مُبالَغ فيه بدرجة كبيرة، تمامًا كما تتم المبالغة فى فكرة لاحقة حول "التراجع اليابانى". فاليابان حقيقة تحتفظ بتقدم بارز فى مجالات التصنيع المهمة، خاصة التكنولوجيا المتقدمة. لقد وقعت اليابان فى متاعب بسبب سوق الأسهم المالية الضخم والازدهار العقارى الذى انهارا فيها، لكن الاقتصاديون الجادون لا يرون أن اليابان فقدت تنافسيتها حقًا فى هذه المجالات.

لكن لماذا كانت اليابان تنافسية جدًا اقتصاديًا؟ أعنى أن هناك أسبابًا كثيرة لذلك، لكن السبب الرئيسى واضح تمامًا. إن كل من اليابان والولايات المتحدة (وكل الدول الصناعية الأخرى فى العالم حقيقة) تمتلك اقتصادات تنسقها الدولة state-coordinated economies لكن نظامنا التقليدى للتنسيق من جانب الدولة أقل كفاءة منهم.

تذكروا أن الحديث حول "التجارة الحرة" يحظى بمكانة عالية فى افتتاحيات الصحف، لكن لا أحد يمارسه حقيقة فى الواقع: ففى كل الاقتصادات الحديثة يقدم دافعو الضرائب العون للشركات الخاصة التى تحتفظ بالأرباح لنفسها. لكن النقطة المهمة هى أن الدول المختلفة تتميز بطرق مختلفة لتنظيم تلك الإعانات. انظر مثلاً إلى الأجزاء التنافسية من الاقتصاد الأمريكى، تلك الأجزاء الناجحة فى التجارة الدولية. والزراعة الرأسمالية الكثيفة مثال مشهور على ذلك، فهذه الزراعة تستطيع المنافسة دوليًا فقط لأن الدولة تشترى فائض الإنتاج وتخزنه وتدعم مُدخلات الطاقة وما إلى ذلك.

أو انظر إلى صناعة التكنولوجيا المتقدمة ستجد أن البحوث والتطوير فى مجال التكنولوجيا المتقدمة مكلفة جداً وأن الشركات لا تحقق أرباحًا منها مباشرة، لذلك يجعلون دافعى الضرائب يدفعون ثمنها. وفى الولايات المتحدة يحدث ذلك عادة وبشكل رئيسى من خلال وزارة الدفاع الأمريكية، حيث تدفع وزارة الدفاع الأمريكية ثمن البحوث والتطوير فى مجال التكنولوجيا المتقدمة، ثم إذا نتج عنها شيء يمكن تسويقه فإنه يُعطَى للشركات الخاصة، وهى بذلك يمكن أن تحقق أرباحًا. والبحوث فى الغالب لا تكون فى "الأسلحة"، وإنما فى أشياء مثل الحاسبات التى تقع فى صميم أى اقتصاد صناعى حديث، وقد طُورت من خلال نظام وزارة الدفاع الأمريكية فى الولايات المتحدة، ونفس الشيء ينطبق على كل التكنولوجيا المتقدمة حقيقة. علاوة على أن هناك دعمًا مهمًا آخر يتمثل فى أن وزارة الدفاع الأمريكية تشترى ناتج صناعة التكنولوجيا المتقدمة أيضًا، فهى تعمل كسوق تضمنه الدولة للفضلات وذلك من خلال عقود تطوير نظم الأسلحة. والجيش لا يستخدم فعليًا هذه الأسلحة التى تدفعون ثمنها، وإنما يدمرها فحسب خلال سنوات قليلة ليشترى بدلاً منها النظم التالية، أو أسلحة أخرى أكثر تقدمًا لسنا فى حاجة إليها. لكن تلك بالطبع طريقة مثالية لصب أموال دافعى الضرائب المتدفقة فى صناعة التكنولوجيا المتقدمة، وفقط بسبب هذه الإعانات المالية الهائلة تحقق التكنولوجيا المتقدمة الأمريكية تنافسية عالميًا.

واليابان كذلك أدارت اقتصادها بنفس الطريقة التى نديره بها تقريبًا، ما عدا اختلاف واحد مهم. فبدلاً من استخدام النظام العسكرى، تمثلت المؤسسة التى يتم من خلالها جنى الإعانات المالية العامة فى وزارة التجارة الدولية والصناعة التى تجلس مع الشركات الكبيرة والتكتلات والشركات المصرفية، وتخطط نظامها الاقتصادى فى السنوات التابعة، فتخطط مثلاً كم الاستهلاك المستقبلى وكم الاستثمار المستقبلى وأين يجب أن يوجه الاستثمار وما إلى ذلك. وهذا نظام أكثر كفاءة. وحيث أن اليابان مجتمع منضبط ومطيع جدًا ثقافيًا، فإن الناس هناك يفعلون فقط ما يقال لهم، ولا أحد أبدًا يثير أية أسئلة حوله.

ولكى نرى كيف كان تأثير هذا الاختلاف على مر السنين يمكن أن ننظر فحسب إلى برنامج "حرب النجوم" فى الولايات المتحدة. فحرب النجوم [مبادرة الدفاع الإستراتيجى]. تمثل ذريعة لمبالغ ضخمة فى الإنفاق على البحوث والتطوير من خلال نظام وزارة الدفاع الأمريكية، فهذه هى طريقتنا فى تمويل الجيل الجديد من تكنولوجيا الحاسبات أو الليزر أو البرمجيات وما إليها. وعمومًا فإننا إذا نظرنا إلى توزيع نفقات حرب النجوم سيتضح أنه كان نفس توزيع التمويل الذى اتبعه النظام الاقتصادى اليابانى الموجه من جانب الدولة خلال نفس الفترة: ففى تلك السنوات نفسها صاغت وزارة التجارة الدولية والصناعة هناك أحكامًا حول طريقة توزيع مصادرهم بنفس طريقتنا، فهم ينفقون نفس النسبة فى منتجات الليزر، ونفس النسبة فى البرمجيات، وغيرها. والسبب هو أن كل هؤلاء المخططين يصنعون نفس الأحكام تقريبًا حول التكنولوجيا الجديدة المحتملة.

لكن لماذا كانت اليابان تنافسية جدًا اقتصاديًا مع الولايات المتحدة رغم ظروفها غير المواتية تمامًا؟ هناك أسباب كثيرة. لكن السبب الرئيسى هو أنهم وجهوا إعاناتهم المالية العامة مباشرة إلى السوق التجارية. ولذلك فلكى يعملوا فى مجال الليزر حاولوا أن يجدوا طرقًا لإنتاج الليزر للسوق التجارية، ونجحوا فى ذلك بالفعل. لكننا عندما نريد أن نطور الليزر للسوق التجارية فإن ما نفعله هو أن نصب الأموال فى وزارة الدفاع التى تحاول عندئذ أن تجد طرقًا لاستخدام الليزر فى إطلاق القذائف على بعد

عشرة آلاف ميل، وبعد أن يفعلوا ذلك يبحثون عن بعض الأرباح التجارية العرضية التى يمكن أن تنتج عن كل ذلك. وتلك طريقة أقل كفاءة. وحيث أن اليابانيين ليسوا أكثر غباءً منا فإنهم يمتلكون نظامًا كُفئًا للتنسيق من جانب الدولة، بينما نمتلك نحن نظامًا أقل كفاءة، وعلى مر السنين نجح اليابانيون فى المنافسة الاقتصادية.

وعمومًا تشكل هذه الظواهر ظواهر كبرى فى الحياة الحديثة، لكن أين نذهب لدراستها فى الجامعات أو المهن الأكاديمية؟ وهذا سؤال مهم جداً. فأنت لا تستطيع أن تذهب إلى قسم الاقتصاد، لأن هذه الظواهر ليست مما يعالجونه؛ فأقسام الاقتصاد المحمومة تهتم بالنماذج المجردة حول طرق عمل اقتصاد المشروع الحر مثلاً، وتلك لو تعلمون تعميمات حول فضاء عشرى الأبعاد لنظام سوق حر غير موجود أصلاً. ولا يمكنك أيضًا أن تذهب إلى قسم العلوم السياسة، لأنه يهتم بالإحصاءات الانتخابية وأنماط التصويت والبيروقراطية الصغرى micro-bureaucracy ومنها الطريقة التى يتحدث بها البيروقراطى الحكومى مع آخر بالتفصيل. وكذلك لن تتوجه إلى قسم الأنثروبولوجيا، لأنهم يدرسون قبيلة التل فى غينيا الجديدة. ولن تذهب إلى قسم علم الاجتماع، لأنهم يدرسون الجريمة فى الأحياء الفقيرة. وبالفعل لن تجد أى مكان تذهب إليه لأنه ليس هناك ميدان يتعامل مع هذه الموضوعات. وليس ثمة مجلة تتعامل معها. بل إنه ليس ثمة مهنة تهتم بالمشكلات المركزية للمجتمع الحديث. لكن يمكنك أن تذهب إلى مدرسة التجارة، وستجدهم جميعًا يتحدثون عن هذه الموضوعات لأن أولئك الناس يعيشون فى العالم الواقعى. لكن ليس فى الأقسام الأكاديمية، فلا أحد هناك سيقول لك شيئًا عما يجرى حقًا فى العالم.

وعدم وجود ميدان يدرس هذه الأسئلة أمر مهم للغاية، لأنه لو وُجِد هذا الميدان لتوصل الناس إلى فهم الكثير، وفى مجتمع حر نسبيًا مثل مجتمعنا، فإن من يفهمون قد يشرعوا فى فعل شىء ما بهذا الفهم. لكن حقيقة لن تجرؤ أية مؤسسة على أن تشجع ذلك. أعنى أنه لا شىء مما قلته توًا لا تستطيعون أن تشرحوه لطلاب المدرسة الثانوية، فهى أمور بسيطة ومباشرة. لكنه ليس مما تُدَرِسونه فى مقرر التربية المدنية

بالمدرسة الثانوية، فما تُدَرِسونه هناك هو الدعاية حول الطرق التى يُفترَض أن تعمل بها النظم، لكنها لا تعمل بها.

وبالمناسبة فإن جزءًا من عبقرية هذا الجانب فى نظام التعليم العالى تكمن فى أنه يجعل الناس يبيعون أنفسهم بينما يعتقدون أنهم يفعلون الشىء الصحيح. ولذلك فإن بعض الشباب الذين يدخلون الأكاديمية يقولون لأنفسهم: "انظر سأكون راديكاليًا حقيقيًا هنا"، ويمكنه بالفعل أن يكون كذلك طالما أنه يكيف نفسه مع تلك التصنيفات التى تضمن أنه لن يسأل الأسئلة الصحيحة وأنه حتى لن ينظر إلى الأسئلة الصحيحة. لكنك لا تشعر بأنك تبيع نفسك، فأنت لا تقول "أنا أعمل لصالح الطبقة الحاكمة" أو أى شيء كهذا، فأنت لست هكذا، إنك اقتصادى ماركسى أو ما شابه. لكن النتيجة هى أنهم حيدوك كليًا.

وكل تلك الأساليب طرق ماكرة للسيطرة تستهدف الحيلولة دون الاستبصار الجاد حول الطريقة التى تعمل بها القوة فعليًا فى المجتمع. ومن المفيد للنظام أن يُبْنَى على هذا النحو؛ ذلك أن المؤسسات القوية لا تريد أن تُخضَع للبحث بالتأكيد. لماذا؟ لأنها لا تريد للجمهور أن يعرف كيف تعمل، وربما يكون الناس الذين بداخلها يفهمون كيف تعمل، لكنهم لا يريدون لأحد عداهم أن يعرف ذلك، لأن ذلك يهدد ويقوض قوتهم. ولذلك يجب أن نتوقع من هذه المؤسسات أن تعمل بطريقة تجعلها تحمى نفسها، وبعض الطرق التى تحمى نفسها بها تتمثل فى الأساليب الماكرة المختلفة للسيطرة الأيديولوجية من النوع الذى ذكرناه.

طرق السيطرة الفجة

وإلى جانب ما سبق، توجد أيضًا طرق فجة للسيطرة. فلو قرر عالم سياسى أو اقتصادى شاب أن يثير هذه الأنواع من الأسئلة، فإنه إما أن يُهَمَش، بطريقة أو بأخرى، أو يُطرَد تمامًا من المؤسسة. وعلى النهاية المتطرفة – الطرد – حدثت عمليات تطهير متكررة فى الجامعات الأمريكية. ففى الخمسينات، على سبيل المثال، تم تطهير

الجامعات من الفكر المعارض، حيث تم فصل الناس من كل الخلفيات وتم منعهم من التدريس. وقد كانت تأثيرات ذلك قوية جداً. وبعد ذلك فى أواخر الستينات، عندما بدأت الخميرة السياسية تعتمل بالفعل، بدأت حملات التطهير مجدداً، وكانت فى أغلب الأحيان عمليات فصل صريحة دون مواربة. ومما يدلل على ذلك أن كثيراً من أفضل دارسى آسيا من الولايات المتحدة يُدَرِسون الآن فى أستراليا واليابان لأنهم لا يستطيعون أن يحتفظوا بوظائفهم فى الولايات المتحدة، لأن أفكارهم خاطئة. فأستراليا بها بعض أفضل دارسى جنوب شرق آسيا فى العالم، ومعظمهم أمريكيون لا يجدون مكاناً فى النظام الأكاديمى الأمريكى، لأنهم فكروا فى أشياء خاطئة. لذلك إذا أردت أن تدرس كمبوديا مع عالم أمريكى كبير، سيتوجب عليك أن تذهب إلى أستراليا. وأحد أفضل مؤرخى اليابان فى العالم (هيربرت بيكس) يُدَرِس فى جامعة يابانية، وهو أمريكى، لكنه لا يستطيع أن يحصل على عمل فى الولايات المتحدة.

سأروى لكم قصة كاشفة جداً حول معهد مساشوستس للتكنولوجيا. تم تعيين أستاذ علوم سياسية شاب - أصبح الآن من علماء الصف الأول فى مجاله وهو بالمصادفة توماس فيرجسون Thomas Ferguson- أستاذاً مساعداً بالمعهد بعد حصوله على الدكتوراه من جامعة برنستون. ومنذ أن كان فى برنستون وهو راديكالى جداً ,لكنه ذكى جداً أيضاً، ولذلك طلبه القسم. وفى أحد الأيام وأنا أجلس فى مكتبى دخل فيرجسون على وهو يغلى من الغضب، وقال لى أن رئيس القسم الذى يعمل به خرج تواً من مكتب فيرجسون بعد أن قال له صراحة: "إذا أردت أن يُجدِّد عقدك فى هذا القسم ابتعد عن أى شىء يخص الصفقة الجديدة(*)، يمكنك أن تكتب كل هرائك الراديكالى حتى تاريخ الصفقة الجديدة، أما إذا فعلت ذلك وكتبت

(*) الصفقة الجديدة New Deal هو الاسم الذى أعطاه الرئيس الأمريكى روزفلت لحزمة البرامج الاقتصادية المعقدة التى طبقها بين عامى ١٩٣٣ و١٩٣٥، وحدد المؤرخون أهدافها فى ثلاثة تبدأ كلها بحرف R : تقديم العون relief للمزارعين الذين أضيروا، وإصلاح reform الممارسات المالية بممارسات الشركات، وتعزيز تعافى recovery الاقتصاد فى أثناء الكساد الكبير [المترجم].

حول فترة ما بعد الصفقة الجديدة، فلن يكون لك مكان فى هذا القسم". لقد قالها له رئيسه دون مواربة. لكن ذلك لا يقال بهذه الصراحة، لكنك تستطيع أن تفهمه، من ردود الفعل التى تتلقاها.

يحدث هذا النوع من الهراء أيضًا مع الطلاب الخريجين. إننى ممن يُطلَق عليهم أستاذ معهد(*) فى معهد ماساشوستس للتكنولوجيا. وهو ما يعنى أننى يمكن أن أُدَرِس مقررات فى أى قسم بالجامعة. وعلى مر السنين دَرَستُ فى كل أقسام الجامعة، لكننى لو اقتربت فحسب من العلوم السياسية تبدأ المشاعر السيئة فى الخروج إلى السطح. ولذلك يُطلَب منى فى الغالب الانضمام إلى لجان الإشراف على طلاب الدكتوراه بالأقسام الأخرى، لكن ذلك لا يحدث فى قسم العلوم السياسية، وفى المرات القليلة التى حدث فيها ذلك، كان فى الغالب مع طالبات من العالم الثالث. وثمة سبب لذلك، وهو أن نساء العالم الثالث لا يتمتعن بقدر كبير من المناورة، ولأن القسم لا يريد أن يبدو عنصريًا أو جنسيًا بشكل فج، لذلك تكون هناك بعض الأشياء التى يستطيع هؤلاء النساء أن يفعلونها دون غيرهم.

من ذلك أنه منذ سنوات قليلة أرادت خريجة ذكية جداً فى قسم العلوم السياسية أن تسجل أطروحتها للدكتوراه حول الإعلام فى جنوب أفريقيا، وطلبت هى أن أكون أحد أعضاء لجنة الإشراف. وهذا الموضوع من الموضوعات التى اهتم بها وكتبت فيه أكثر من أى شخص آخر هناك، ولذلك لم تكن أمامهم طريقة لإبعادى. وبعد ذلك بدأ الروتين. تتمثل المرحلة الأولى فى عملية الدكتوراه فى أن يلتقى المرشح بعضوين من الكلية ويقدم مقترحه. وفى العادة لا يحدث ذلك. لكن مع طالبتى هذه اختلفت الأمور

(*) أستاذ معهد institute professor هو أعلى لقب يمنح لعضو هيئة التدريس بمعهد ماساشوستس للتكنولوجيا، ويُعطى للأستاذ تقديرًا لإنجازاته البحثية الفذة وتفانيه فى الكلية، ويتاح لهؤلاء الأساتذة مستوى عالى من الحرية والمرونة فى متابعة اهتماماتهم البحثية والتدريسية، بعيداً عن مسئوليات وقيود الأقسام والكليات [المترجم].

كثيراً، حيث تم تعميم تنبيه فى القسم يقول أن كل أعضاء الكلية يجب أن يجتمعوا بالطلاب. والسبب وراء ذلك هو وجودى فى هذه اللجنة، حيث كان عليهم أن يقاوموا هذا التأثير المؤذى. لذلك استعد جميعهم للاجتماع بالطالبة.

وأخيراً بدأت المرأة فى عرض مقترح أطروحتها، وأنتم تعلمون كيف تشحب وجوه الناس عندما تسوء الأمور. سألها أحدهم "ما فرضيتك؟"، يُفترَض أن يكون عندك فرضية، وكانت فرضيتها أن التغطية الإعلامية فى جنوب أفريقيا تتأثر بمصالح الشركات. ولدى سماع ذلك أُغمِي على الناس وقفز بعضهم من النوافذ. ثم بدأ التحليل النقدي: "ما المنهج الذى سوف تستخدميه؟ ما الاختبارات التى سوف تستخدميها؟" وتدريجياً تم بناء مستوى من الإثبات يصعب الوفاء به فى العلوم الاجتماعية. لم يكن الأمر يقتصر على أن "أقرأ الافتتاحيات وأحدد ما تقوله"، وإنما عليكِ أن تَعُدى الكلمات وأن تقومى بكل أنواع الهراء الإحصائى، وهكذا. لكنها قاتلت ولا تزال. وأخيراً طلبوا كثيراً من الغثاء فى أطروحتها، أشياءً كثيرة مزيفة وغير ذات صلة مما يُنسَب إلى العلوم الاجتماعية وأرقام ومخططات وأشياء بلا معنى لا تخرج منها بأى محتوى. لكنها فى النهاية تمكنت من إتمام أطروحتها، فقط لأنها كانت مستعدة لأن تقاتل من أجلها. وبالطبع تعرفون أن بإمكانكم أن تفعلوا مثل ذلك، لكنه ليس بالأمر اليسير. فبعض الناس يلقون حتفهم فعلاً فى هذا السبيل.

الفصل الثانى

أنهار من نار

تدخل شركات النفط فى محتوى مناهج التعليم

كينيث سولتمان وربين تروث جودمان (*)

إعلان

هذه محاكاة بالحاسب لتسرب النفط فى البحر. يجب أن يخطط الطلاب وينفذوا طرقًا للتعامل مع تسرب النفط فى البحر. وهذا المصدر مصمم للاستخدام من جانب الأفراد والجماعات فى مستوى المبتدئين والخبراء، وهو يدمج أشكالاً بيانية ومؤثرات صوتية ومجموعة من المواد المطبوعة ... السعر ٢٠ دولار ... أضف إلى عربة التسوق.

الخدمات التعليمية بالشركة البريطانية للنفط[1]

من مجموعتى ملصقات الحائط الملونة التى تحمل العلامة التجارية للشركة البريطانية للنفط (أموكو Amoco)، إلى المنهج الذى يحمل العلامة التجارية لشركة

(*) روبين تروث جودمان Robin Truth Goodman أستاذة اللغة الإنجليزية بجامعة ولاية فلوريدا من مؤلفاتها Infertilities: Exploring Fictions of Barren Bodies (University of Minnesota Press, 2000) وشاركت مع كينيث سولتمان فى تأليف كتاب Strangelove: Or How We Learn to Stop Worrying and Love the Market (Rowman & Littlefield, 2002)..

أموكـو، إلى إعـلانات أموكـو فى الأفلام المصاحبة للمنهج، نجد أن منهج إمباكت لعلوم المدرسة المتوسطة الذى توفره شركة أموكو النفطية الضخمة متعددة iMPACT الجنسيات يقدم لها ما يسميه متخصصو الإعلان "الانطباعات" المتعددة أو رؤية شعار الشركة[٢]. فهذا المنهج مصمم خصيصًا للترويج والإعلان عن أموكو إلى جمهور "أسير" فى المدارس العامة. تعرض الملصقات زاهية الألوان شخصيات كرتونية من نوع شخصيات عالم سمسم يركبون قطارًا مرتفعًا عن الأرض لتعلم الفيزياء، ويقوم غواص كرتونى وحيد بمواجهة وحش بحرى ضخم لتعلم البيولوجيا، وثمة جبل أسود مشئوم ينفجر بالمصهورات البركانية. وهذه الأعمال الكرتونية ذات الألوان المتلألأة تشتمل على أسهم تضيف مسميات علمية لكى تذكر الأطفال بأن كل هذه المتعة تعليمية. وأموكو تطبع شعار الشركة على المتعة والإثارة والفضول والاستكشاف والتعليم والطبيعة والعلم والعمل. ومن خلال فرض شعارها ذى الألوان الثلاثة الأحمر والأبيض والأزرق على فصول المدارس تظهر أموكو وكأنها "مواطن شركاتى مسئول" responsible corporate citizen يدعم بنزعته الخيرية الشركاتية المدارس العامة المحاصرة. فى حين أن قطاع الشركات يجفف أموال القطاع العام، ليس فقط من خلال التهرب من مسئوليته الضريبية عن سلع عامة مثل المدارس العامة، وإنما أيضًا من خلال دفع الاتجاه المتنامى نحو الخصخصة ومدارس الوثيقة الربحية والمدارس الجاذبة والتتجير commercialization وإعادة تعريف المدارس العامة على أنها تستهدف الربح الخاص[٣]. بل إن استخدام أموكو للجماليات البريئة ظاهريًا لثقافة الطفل ولجوئها إلى المرح والفضول الطفوليين يخفى حقيقة أن هذه الشركة النفطية ليست بحال بريئة من تقويض القطاع العام فى هذا البلد والانتهاكات الصريحة لحقوق الإنسان والتدمير البيئى الواسع واستئصال الشعوب الأصلية على مستوى العالم[٤].

إن وظيفة دروس أموكو المرحة، كشأن غيرها من مناهج الشركات، لا تقتصر على مجرد توفير ممر لإعلانات الشركات إلى الفضاء العام[٥]. فهذا المنهج يقوم

بوظيفة مزدوجة. فهو أولاً يعمل على صرف الانتباه العام عما تقوم به أموكو حول العالم، وثانيًا يؤدى وظيفة أيديولوجية، حيث يبنى رؤية للعالم موالية للشركات، رؤية تُعَرف هوية الشباب والمواطنة من خلال الاستهلاك، وتُعَرف الوطنية بأنها مصالح الشركات وليس الصالح العام. فمنهج أموكو يُنتِج أيديولوجيات الاستهلاك التى تدعم الأجندة العالمية للشركة، وهو يفعل ذلك تحت قناع المعرفة العلمية المنزهة عن الغرض والتكنولوجيا الخيرية والترفيه البرىء.

ومنهج أموكو بفصله للتربوى عن السياسى يخفى الطرق التى تقوم هذه الشركة من خلالها بتقويض مؤسسات ديمقراطية، مثل التمدرس العام، وتشارك فى إعاقة الديمقراطية، وترتكب انتهاكات لحقوق الإنسان ودماراً بيئيًا فى الخارج. وكما يكشف الاقتصادى من وارتون Wharton إدوارد هيرمان Edward Herman والناشطة الحقوقية سيسيليا زاراتلون Cecilia Zarate-Laun من منظمة المرصد الكولومبى فإن أكبر مستثمر فى كولومبيا – وهو شركة النفط البريطانية BP التى أصبحت تُعرَف الآن باسم باموكو -BPAmoco شكلت قوات مرتزقة تابعة لها واستوردت بريطانيين متخصصين فى مقاومة التمرد لتدريب الكولومبيين. وتسلم شركة النفط البريطانية تقاريرها الاستخباراتية إلى الجيش الكولومبى الذى يستخدمها لتعقب وقتل المخربين المحليين. وقد وثقت منظمة العفو الدولية ومرصد حقوق الإنسان Human Rights Watch أمثلة عديدة للتعاون بين وحدات الجيش الكولومبى وأشباه العسكريين الوحشيين الذين ارتكبوا أكثر من ٧٥٪ من انتهاكات حقوق الإنسان التى وقعت فى الحرب الأهلية فى كولومبيا[٦]. كما طورت شركات النفط الأخرى علاقات قوية مع الجيش والشرطة، واستأجرت أشباه عسكريين ومرتزقة أجانب لحماية أنابيب النفط التابعة لها[٧]. على أن سلوك باموكو فيما وراء البحار يجب أن يُفْهَم فى سياق العلاقة بين السياسة الخارجية الأمريكية ودعمها لقطاع الشركات. ومع أنه يقال أن المعونة الأمريكية كانت موجَهة تحديداً لحرب كولومبيا على المخدرات، وليس للجهود المعسكرة لمنع التمرد، فإن المعونة المقدمة لكولومبيا فيما قبل الحادى عشر من سبتمبر (أعلى

ثالث معونة عسكرية خارجية بعد إسرائيل ومصر) كانت مخصصة لمناطق معينة من الدولة، مثل أحواض الأمازون والأورينكو ومنطقة بوتومايو، وهى المناطق التى تأثرت أكثر بأفكار القوات المسلحة الثورية الكولومبية FARC. كما أن منع السلاح عن قطاعات من تجارة المخدرات وتوفيرها لقطاعات أخرى يكشف أن مبرر حرب المخدرات، كما كان الحال مع مقاومة الشيوعية فى الماضى، يحجب أهدافًا أكبر يمكن قراءتها مما يفعله الجيش والقوات شبه العسكرية: ترحيل وقتل وإسكات القطاعات الكبيرة من أهل الريف التى تقف فى طريق استغلال موارد كولومبيا (من جانب الشركات عابرة الحدود مثل باموكو)[٨].

فى البداية تحت ذريعة الحرب على المخدرات، وبعد ذلك فيما بعد ١١ سبتمبر تحت ذريعة الحرب على الإرهاب، تقوم الحكومة الأمريكية بتمويل الحرب الداخلية الكولومبية ضد القطاعات المعارضة أيديولوجيًا مثل القوات المسلحة الثورية الكولومبية FARC (التى يبلغ قوامها الآن ١٨٠٠٠ فرد)، وجيش التحرير الوطنى ELN الأصغر عددًا (٣٠٠٠ فرد حاليًا)[٩]. وفى يونيو ٢٠٠٠ صادق الكونجرس الأمريكى على حزمة معونات قيمتها ١,٣ مليار دولار لكولومبيا، تتضمن التدريب العسكرى والمروحيات والاستخبارات. وحتى قبل ١١ سبتمبر رفعت إدارة بوش هذه الحزمة بحوالى ٦٧٦ مليون دولار لمساعدة كولومبيا وجاراتها فى حربهم على المخدرات. وقد تضمن برنامج المعونات تنازل هذه الدول عن القيود التى تفرضها على الشركات الخاصة، وهو ما يكشف عن الاعتماد المتبادل العميق بين مشروعات النفط ومشروعات الحرب[١٠].

وفى ذلك تقرر كارلا آن روبنز Carla Anne Robbins من صحيفة وول ستريت أنه رغم الحظر الذى مارسته الولايات المتحدة فى السنوات العشر الماضية على توسيع معونات التنمية إلى كولومبيا بسبب الإدعاءات الكثيرة حول انتهاكات حقوق الإنسان، فقد نجحت الحكومة الكولومبية فى طمأنة واشنطن على أن معداتها العسكرية سوف تستخدم فقط مناورات مكافحة المخدرات، وليس مكافحة التمرد. ومع ذلك، وكما

أوضح جوستن ديلاكور Justin Delacour فإن إدارة كلنتون كانت "تعارض فرض أية شروط على المعونة تطالب الحكومة الكولومبية بأن تستأصل التواطؤ بين الجيش وأشباه العسكريين"(١١). وكما لاحظ مارك كوبر فإن:

وزارة الخارجية فى إدارة بل كلنتون قبل ساعات قليلة من انتقال السلطة إلى بوش استغلت ثغرة فى حزمة المعونة الأمريكية [خطة كولومبيا] وقررت "طوعًا" أن "تتجاوز عن" شرط التأكد من أن الحكومة الكولومبية تمتثل للمطالب الأمريكية المتعلقة بحقوق الإنسان الملحق بقانون خطة كولومبيا، خاصة القضاء على فرق الموت شبه العسكرية(١٢).

وتعترف صحيفة وول ستريت بأنه إذا لم تنحل الصلات الوثيقة بين القوات المسلحة الثورية الكولومبية وتجارة المخدرات فسوف تفشل النوايا الأمريكية لتحقيق السلام والإصلاح السياسى وإبدال المحاصيل فى المنطقة. ويؤكد خوزيه كوستا Jose Cuesta من "شبكة مواطنين من أجل السلام فى كولومبيا" أن "محاصيل الكوكا(*) ليست سوى استجابة عينية للتخريب الذى سببته سياسات السوق الحر غير المنضبطة"(١٣). فواشنطن لم تنفذ إلا ١٪ فقط من خطة معونة كولومبيا لإحلال المحاصيل، وهو ما يعنى أن الفلاحين لن يستطيعوا أن ينتجوا ما يكفى حد الكفاف دون الحفاظ على حقول الكوكا. "وبوجه عام يُباع كيلو الكوكايين بـ١,٥-١,٧ مليون بيزو (حوالى ٦٨٠٠-٧٧٠٠ دولار)، وصافى ربح للهكتار حوالى ٢٠٠٠٠٠ بيزو (حوالى ٩٠ دولارًا). وفى مقابل هذه الأسعار تُباع المائة كيلو من الذرة بـ٣٠٠٠٠ بيزو، وبعد دفع التكاليف لا يبقى للفلاح إلا ١٠٠٠٠ بيزو (حوالى ٤,٥٠ دولارًا) لكل مئة كيلو"(١٤). ومع أن صحيفة وول ستريت تعترف بأن المشكلة فى المناطق الواقعة

(*) الكوكا coca نبات يزرع فى أمريكا الجنوبية يستخرج منه الكوكايين، ويمثل مكون فى تجارة المخدرات حاليًا، وكان سكان الأنديز الأصليين يمضغون أوراقه المجففة كمنبهات [المترجم].

تحت سيطرة القوات المسلحة الثورية الكولومبية تنشأ عن تهريب المخدرات، فإنها أيضًا تُرْجِع الحاجة إلى العسكرة إلى الإصلاحات الاقتصادية التى أجرتها القوات المسلحة الثورية الكولومبية، خاصة محاولاتها لفرض الضرائب على قطاع الشركات:

> **فبينما كان المحافظون يشتكون من أن بوجوتا كانت تخضع للماركسيين [بسبب اتفاق الحكومة الكولومبية على التفاوض حول تسوية مع المسلحين] ، قَبِل مدير سوق الأوراق المالية بنيويورك ريتشارد جراسو Richard Grasso دعوة لزيارة المنطقة منزوعة السلاح فى كولومبيا لكى يعطى للقوات الكولومبية المسلحة الثورية درسًا حول مباهج الرأسمالية ... وقد أوضح [أحد المفاوضين عن القوات المسلحة الثورية الكولومبية] .... أنه بدلاً من الاختطاف العشوائى، سيفرض القانون الجديد رقم ٢ الذى استنته القوات المسلحة الثورية الكولومبية ضريبة على أى شخص تزيد أصوله على مليون دولار[١٥].**

إن توسيع اتفاقية التجارة لأمريكا الشمالية NAFTA لتشمل أمريكا الجنوبية رافقه توسيع الوجود العسكرى الأمريكى، ليس فقط فى كولومبيا من خلال توفير المروحيات العسكرية الهجومية ومعدات مكافحة التمرد للمناورات المخصصة ظاهريًا لمناهضة التهريب، وإنما أيضًا فى الإكوادور والسلفادور التى تُبنَى فيها قواعد جديدة للقوات الأمريكية. وهذه الحركة لرأس المال من خلال التوسع العسكرى تعد مثالاً عينيًا لأطروحة مراسل نيويورك تايمز الخارجى توماس فريدمان التى تقول بأن "اليد الخفية للسوق لن تعمل أبدًا بدون القبضة الخفية، فشركات ماكدونالد لا يمكن أن تزدهر من دون مادونيل دوجلاس مصمم طائرات إف - ١٥. والقبضة الخفية التى تجعل العالم آمنًا لتكنولوجيا وادى السيليكون تسمى الجيش الأمريكى والقوات الجوية والأسطول والقوات البحرية"[١٦]. وهذه العسكرة تفتح المنطقة للاستثمار الأمريكى، بينما هو يدمر

الحقول وأرزاق الفلاحين الفقراء بطرق لا تقل وحشية عن تلك التى تُنْسَب إلى القوات المسلحة الثورية الكولومبية. وإلى جانب العسكرة، واتساقًا معها، يمكن للتعليم أن يفتح آفاقًا أوسع لسوق الليبرالية الجديدة. ورحلة وول ستريت إلى المنطقة تكشف عن أن المستثمرين يفهمون كيف أن التعليم على "مباهج الرأسمالية" يفتح الطريق إلى تسرب الشركات[١٧]. ومن الواضح أن ما يسمى بالحرب على المخدرات جزء من عملية الإنتاج الأيديولوجى التى تتم جزئيًا من خلال عمليات العسكرة ذاتها.

يرجع هذا التدخل العسكرى فى الموقف السياسى فى كولومبيا إلى حقيقة أن الولايات المتحدة تستورد نفطًا من المنطقة أكثر مما تستورده من الشرق الأوسط (٢٦٠,٠٠٠ برميل من كولومبيا يوميًا). بل إن الإدعاء بأن الإدارة كانت تمول سياسات احتواء المخدرات يظل غير مقنع فى ضوء التقليص الكبير لتمويل المراكز العامة لعلاج الإدمان فى ميزانيات المدن والولايات والميزانية الفدرالية. وفى عام ١٩٩٤ كلف البيت الأبيض مؤسسة راند ببحث أكثر الطرق فعالية للسيطرة على المخدرات وتقليلها. وخَلُص تقرير راند إلى أن العلاج أرخص وأنجح بنسبة ٧٪ من الفرض المحلى و١١٪ من التحريم و٢٣٪ من سياسات الاستئصال من دولة المنشأ، وهى السياسة التى تبناها برنامج المعونات[١٨]. يتضح من ذلك أن إيقاف تمويل الدعم العام للعلاج يفيد فى الأخير القطاع الخاص النهم دائمًا إلى الربح. ولهذا السبب، وعلى خلاف مدافعين عامين مثل نعوم تشومسكى ورالف نادر، تؤيد الشركات الخاصة مثل باموكو عسكرة حرب كولومبيا على المخدرات:

> **إن استحقاق هذه السياسة لاسم مكافحة المخدرات أمر مشكوك فيه من أصله. فكثير من الشركات التى ليس لمصالحها أية علاقة بسياسة مكافحة المخدرات كانت تدفع برنامج كولومبيا من اليوم الأول. وكان من الشركات متعددة الجنسيات ومنتجى الأسلحة الأمريكيين الذين يؤيدون البرنامج شركة النفط الغربية وشركة إنرون وشركة باموكو وشركة كولجيت-بالموليف والشركة المتحدة**

للتكنولوجيا وشركة بل للمروحيات. وتأييد شركة النفط الغربية القوى للبرنامج ينشأ من حقيقة أن عملياتها النفطية الواسعة فى كولومبيا كانت كثيرًا ما تتعرض للتخريب من جانب المجموعات المسلحة التى تعترض على شروط الاتفاقية بين الحكومة الكولومبية وشركات النفط الدولية التى تعمل فى البلاد. حتى أن نائب رئيس شركة النفط الغربية لورانس مرياج Lawrence Meri-age استُدعى للشهادة أمام لجنة الكونجرس الفرعية حول سياسة مكافحة المخدرات، وهو ما جعل المراقبين يتعجبون من تحول مديرى شركات النفط فجأة إلى خبراء فى سياسة مكافحة المخدرات(١٩).

وفى الأخير يتحمل دافعو الضرائب الأمريكيين ملايين الدولارات لحماية خطوط أنابيب نفط شركة باموكو وشركة النفط الغربية (مساند قوى لآل جور وحملته الرئاسية) وشركة شل Shell وتكساكو Texaco، وهى شركات سكبت ١,٧ مليون برميل من النفط فى الأرض والأنهار على مدى السنوات الاثنى عشر الماضية. وإدارة بوش ودائرته الداخلية يشغلها مديرو شركات نفط سابقون وأعضاء فى الغرف التجارية فى البلدان التى تُفْتَح للاستغلال النفطى (بوش الابن وبوش الأب وتشينى ورايس وأرميتاج وبيكر وآخرين). وفى نفس الوقت أثُرت شركتا المنتجات الكيماوية الأمريكيتين مونسانتو Monsanto وداو Dow من رش المبيدات السامة (من نوع روانداب Roundup وسبايك Spike) بمساعدة الحكومة على نباتات الكوكا والأفيون فى كولومبيا:

إن مبيد روانداب الذى تنتجه شركة مونسانتو، الذى كان المادة الكيماوية الرئيسية التى تُرَش فى كولومبيا لتقليل محاصيل الكوكا والخشخاش، يحتوى على الفسفور الذى عندما يحتك بالماء يستخلص الأوكسجين فيقتل الأسماك فى البحيرات

والمستنقعات. كما يؤثر الرش أيضًا على المحاصيل الغذائية مثل نباتات المنيهوت ولسان الحَمَل والذرة والفواكه الاستوائية. كما أبلغ الفلاحون الذين تعرضوا للرش عن حالات إسهال وحمى وألم فى العضلات وصداع[٢٠].

إن ذلك لا يدمر فحسب ثانى أغنى نظام بيئى فى العالم (بعد البرازيل)، لكن نفس المخدرات التى تنجو من الإبادة بالرش الكيماوى (فإنتاج الكوكا فى ازدياد رغم ذلك) تُباع إلى الولايات المتحدة، وتُستخدَم الأرباح فى تمويل فرق الموت وأشباه العسكريين اليمينيين الذين يعملون لصالح الشركات متعددة الجنسيات والحكومة، وفى تمويل المسلحين اليساريين الذين يقاتلون ضد الحكومة والشركات متعددة الجنسيات[٢١].

وباختصار فإن أصحاب المصالح الذين يدعمون تهريب المخدرات يدعمون هم أنفسهم توسع الشركات متعددة الجنسيات فى المنطقة. فالمسألة ليست فحسب مسألة قوتين دمويتين -الحكومة والمتمردين- تتقاتلان على حساب الناس البسطاء، وإنما هو التلاعب الإمبريالى من أجل السيطرة الاقتصادية والأيديولوجية، وفيه تتربح الشركات من كلا جانبى الصراع. ومن خلال عسكرة تجارة المخدرات تتم عسكرة عملية توسع الشركات. ومع ذلك، ومع استبعاد أى ذكر للشبكة المعقدة القائمة على القتل والتلوث والسياسة التى تؤيد سعيها وراء الربح، تكذب أموكو على تلاميذ المدارس برسم صورة للعلم والتعليم بوصفهما بريئين ومتحررين من القوى المغرضة، فى هذه الحالة طمع الشركات. على أن منهج أموكو لا يتمحور فقط حول إخفاء العمليات الخفية للشركة فى الخارج تحت صور مشرقة لأطفال مبتسمين يلعبون ألعاب تبعث على السرور فى متنزهات نظيفة. فمنهج أموكو أيضًا يبنى ويغرس رؤية للعالم worldview تُسْحَق فيها الشواغل العامة تحت أقدام مغامرات النزعة المشروعاتية ونهم المستهلكين. وجزء من تعليم المواطنين على "مباهج الرأسمالية" يكمن، على سبيل المثال، فى جعل استغلال البيئات الطبيعية للأمم الأخرى ومواردها الأولية وقوة العمل فيها يبدو وكأنه صداقات

عاطفية أو حتى علاقات غرامية تُمَجَد فى الصور السعيدة للنظرات المتعجبة من انتصارات التمكن التكنولوجي. وتلك الصور تعرض دراما براعة الشركات، بما يلغى أية مخاوف ممكنة من أن تعمل هذه المناهج على إعادة بناء التمدرس العام ذاته ليكون فحسب ساحة تدريب لجيوش المستهلكين:

> **فى المستويين الابتدائى والثانوى كان إفساد نظام المدارس العامة يجرى منذ فترة طويلة على يد "مقاولى التعليم" educa-tion entrepreneurs الذين يروجون لأفكار "انضباط" السوق فى مقابل "تسيب" الحيز العام، وينشرون مفردات إدارة الشركات، وفى هذه اللغة يصبح الجمهور مستهلكًا والتعليم منتجًا تنافسيًا والتعلم أداة كفاءة. ولنتذكر تصريح لامار ألكساندر Lamar Alexander، قبل فترة قصيرة من تولية وزارة التعليم، بأنه على شركات بيرجر كنج Burger King وفيدرال إكسبريس Federal Express أن تجعل المدارس مثالاً للطريقة التى يدير بها القطاع الخاص الأمور؟ ... وحتى وإن كانت مدرستك الثانوية المحلية لم تُبع حتى الآن لشركة ماكدونالد، فإن مربين كثيرين يستخدمون بالفعل معينات تدريس وحزم مواد "تبرعت" بها الشركات، وهى أشياء مدهونة بدعاية الشركات المصممة لغرس الوعى بالمنتجات بين المستهلكين الصغار: دروس حول تاريخ رقاقات البطاطس تحت رعاية جمعية الوجبة السريعة أو برامج القراءة والكتابة التى تكافئ الطلاب الذين يصلون إلى أهداف القراءة الشهرية بشرائح بيتزا هت(٢٢).**

وفيما تغوى أموكو تلاميذ المدارس بسحر المعرفة المرحة، تنخرط فى ذات الوقت فى ممارسات تقوض العام بطريقة مباشرة. فبينما كانت أموكو توزع منهجها المسمى "أنهار من نار" Rivers of Fire فى الداخل فى شيكاغو، كانت تخلق أنهارًا حقيقية من

النار فى مشيغان وميزورى. ففى ريفر روج River Rouge بمشيغان كانت المدينة تناضل لإجبار أموكو على التوقف عن تسريب المنتجات النفطية المتفجرة فى نظام الصرف الخاص بالمدينة[٢٣]. فقد كان قادة المدينة قلقين من أن أموكو قد تتسبب مجدداً فى الظروف التى أحدَثت انفجار عام ١٩٨٢ الذى "أدى إلى اندلاع نيران وانفجارات صغيرة داخل أنابيب الصرف القريبة وتفجير نوافذ البنايات والسيارات"[٢٤]. وفى الوقت الذى كانت تُوزَع فيه أفلام منهج "أنهار من نار" فى شيكاغو، كانت الأسر فى مدينة شوجر كريك Sugar Creek بميزورى مضطرة للهرب من بيوتها، حيث أدى تنظيف أموكو للأرض والمياه والهواء التى تلوثها منذ عقود إلى دفع الهواء الملوث إلى بيوت السكان المحليين. وعائلة تشابل، التى نصحتها هيئة حماية البيئة بأن تبحث عن مسكن بديل، بدأت تجرى على أفرادها فحوصاً طبية فى منطقة تكثر فيها الإصابة بالسرطان[٢٥]. وفى نفس الوقت ردت باموكو عن نفسها الجريمة فى قضية الدفن غير القانونى لمواد كيماوية سامة.

> **إن منحدر ألاسكا الشمالى منطقة حساسة بيئيًا، وموقع الحفر التابع للشركة على بحر بيوفورت يهدد الطيور والحياة البحرية هناك، حيث تم تصريف مئات البراميل (سعة الواحد منها ٥٥ جالونًا) تحتوى على مواد كيماوية سامة وفقًا للمحققين الفدراليين[٢٦].**

جاء اتهام باموكو بعد معركة قانونية لمدة ستة عشر شهراً أنكرت باموكو خلالها معرفتها بتصريف المواد السامة فى البحر، رغم اتهام سابق لنفس الشركة بتهم مماثلة. فهذا التلوث أيضاً متواصل منذ سنوات.

تنتج أموكو منهج العلوم بالتعاون مع شركة سكولاستيك Scholastic لإدارة النفايات والتلفزيون العام وتوزعه مجاناً على مدارس شيكاغو العامة. والمصلحة الكبيرة للشركات من الاستثمار فى هذا المشروع أبعد ما تكون عن العمل الخيرى الإنسانى البرىء، حيث يشارك المنهج فى إستراتيجية شركاتية عامة لإنتاج

مواطنين شركاتيين عالميين وإعادة إنتاج الدوافع الربحية كقيم أخلاقية، أو بالأحرى تعليم الأطفال على "مباهج الرأسمالية". وكما أوضح أليكس مولنار، فإن شركة سكولاستيك نفسها أحد أكثر الأمثلة عدوانية ووقاحة فى سَجن الصغار فى السوق الاستهلاكى:

> **استطاع مارك إيفانز [نائب مدير شركة سكولاستك فى مقال له عام ١٩٨٨ فى مجلة عصر الإعلان [Advertising Age، أن يرسم صورة لغرض نبيل وحاجة مشروعاتية يلتقيان معًا فى تناغم مثالى لدفع صالح الطلاب الأمريكيين إلى الأمام. وربما لأنه لم يُرِد أن تنكشف نواياه المصلحية، أخفق إيفانز فى ذكر أنه فى الوقت الذى كان يكتب مقالته فيه كانت سكولاستك تعمل فى تأسيس قسمًا خاصًا بالتسويق التعليمى، وكانت تبحث عن عملاء شركاتيين. ذكر إيفانز فى أول مقالته بضع مشروعات تعليمية بدعم من الشركات تدلل، فى رأيه، على الطرق التى يمكن من خلالها للشركات الساعية إلى الربح والمدارس التى تحاول أن تربى طلابها على نحو أفضل أن يعملا معًا لدفع قضية التقدم الاجتماعى إلى الأمام. ثم انتقل إلى الأدب "البوليسى الجيد" ليصل إلى النقطة: "إن شركات أكثر وأكثر أخذت تنظر إلى التسويق التعليمى بوصفه أقوى وأفعل طريقة لبناء شراكة بين العقل والسوق فى القرن الحادى والعشرين". وبعد ذلك ينحى إيفانز جانبًا أى إدعاء حول وجود غرض تربوى واجتماعى سامى، عندما اختار نموذجًا لكى يحاكيه الجميع: "ترعى شركة جيليت Gillette حاليًا برنامجًا مدرسيًا متعدد الوسائط مصمم لتعريف المراهقين بشفراتهم الآمنة، وهى بذلك تبنى ولاءً للعلامة التجارية والمنتَج من خلال تنميط أسلوب الحياة المتمركز على الفصل الدراسى والمدفوع من الرفاق"(٢٧).**

وإلى جانب أهداف الشركة هذه، يبين منهج أموكو أيضًا كيف تحل الأرباح وقيم السوق محل الهدف الاجتماعى فى تعليم المواطنين. فمنهج أموكو يُظهِر كيف تستخدم الشركات المدارس لتعليم قيم السوق وغرس هذه القيم فى الحس العام، بل ويُظهِرها وكأنها أساس الأخلاق. وشركات النفط على وجه الخصوص، كما يشير ديفيد كروموبل، تستخدم المناهج الدراسية لنشر دعاية تقول أن "الحضارة الحديثة تعتمد على عمل شركات الهيدروكربون"[٢٨]؛ وذلك لأن ترويج هذا الاعتقاد ضرورى لبقاء الصناعة. وعلى وجه التحديد، وكما سيرد تفصيل ذلك فيما يلى، فإن منهج أموكو يصور الطبيعة والمعرفة والعمل والتعليم والعلوم عبر خيال ثقافة الشركات.

الطبيعـة

إن كل أفلام الفيديو المكونة لمنهج "أنهار من نار" تبدأ وتنتهى بإعلانات لأموكو. "إن جزءًا كبيرًا من تمويل برنامج المستكشفين الجدد New Explorers تقدمه أموكو وهى تحتفل بمغامرة الاكتشاف العلمى فى عام ٢٠٠٠ وما بعده" يدوى هذا الصوت عبر الفيلم مصحوبًا بصور لطبيعة نظيفة: القمر ونسر يحلق فوق بحيرة هادئة. ثم يلتحم شعار أموكو بلونه الوطنى الأحمر والأبيض والأزرق مع النسر، موحيًا بأن العلامة التجارية يمكن أن تحل محل العلم الأمريكي. وفى سياق الفصول الدراسية العامة، المليئة بالأعلام الأمريكية، يمكن لهذا الاندماج للمجازات المنتشرة أن يعيد تشكيل فكرة المواطنة القومية باعتبارها العلامة التجارية للشركات.

تقدم هذه الإعلانات التأطيرية مشاهد هادئة لطبيعة مثالية، وإن كانت منزوعة من السياق، تحمل شعار شركة النفط، بما يوحى بالاتفاق والوفاق بين الصحة البيئية وشركة أموكو. يلى الإعلان عن أموكو إعلانًا عن شركة إدارة النفايات: "نساعد العالم فى التخلص من مشكلاته". إن هذه الصور والصوت المرافق الذى يبعث على الطمأنينة يقدمان الطبيعة على أنها فى اليد الأمينة لإدارة الشركات. والأفق النظيف الذى تشغله

سلسلة من الجبال المغطاة بالثلوج والألوان الصافية ومياه البحيرات الهادئة والطيور المحلقة فى الهواء تعمل على أمركة المشهد الطبيعى أكثر بوضع شعار الشركة فى السماوات الواسعة والسلاسل الجبلية الجميلة التى تتغنى بها أمريكا. والهواء الصافى والسكون يعطيان إحساساً بأن الزمن توقف، وأن الأيدى البشرية تركت سمو الطبيعة وروعتها دون مساس. بينما يكشف تاريخ شركة إدارة النفايات، بالطبع، عن قصة مختلفة تمامًا، بل إن الزعم بأن شركة إدارة النفايات تخلص العالم من المشكلات أقل مصداقية من زعم مضاد يقول أنها خلقت مشكلات جديدة. فمؤسس هذه الشركة، الملياردير واين هيوزنجا Wayne Huizenga بطل الدمج الرأسمالى والاندماجات وشراء الشركات، طالته أكثر من مرة إدعاءات حول ممارسات غير أخلاقية وتحديد غير قانونى للأسعار وإخفاء البضائع والفساد فى عالم الجريمة. علاوة على أن دوافعه الربحية أثبتت أنها ضارة بيئيًا، حيث أفسد ممارسات صناعة التخلص من النفايات بتربية الخنازير لأكل القمامة الصالحة للأكل، وقد طورت خنازيره أمراضًا خاصة لم تتضح فى مزارع منافسيه(٢٩). ومنذ أن باع هيوزينجا الشركة وهى تشارك فى نفض القيود التنظيمية عن رأس المال والتمويل، وإيجاد طرق للالتفاف على التشريعات البيئية التى تقيدها. والغرض التربوى هنا هو إظهار الطبيعة وكأنها قادرة على التنظيم الذاتى وعلى إنعاش وإعادة إنتاج نفسها دون تدخل إنسانى أو استثمارات من أى نوع. ثم يأتى شعار الشركة ليعمل على ربط الوفرة ونظافة الطبيعة (دون فرض ضوابط) بتقدم رأس المال الشركاتى النظيف والصحى.

تصور أفلام الفيديو الطبيعة ليس فقط على أنها تتلقى أفضل خدمة من إدارة الشركات، وإنما أيضًا على أنها تعبير عن ثقافة الشركات. تبدأ "أنهار من نار" بجولة عبر الغابة تشبه رحلة موظف الضواحى إلى وظيفته المكتبية. "وباستثناء النباتات الاستوائية تبدو وتيرة الجيولوجى فرانك تروسدال مثل رحلة أحد سكان الضواحى، لكن عندما يخرج لأول مرة بعيداً عن الطريق السريع المعبد، نلمح أنه ليس فى طريقه إلى وظيفته المكتبية فى بناية من المكاتب". فرحلة فرانك بالعجلات الأربع تندفع عبر

طريق ترابى محاط من الجانبين بنباتات عشبية. وبذلك تبدو الشركات نفسها وكأنها جزء من الطبيعة.

وفى مخيلة هذه الأفلام تظهر الطبيعة، فضلاً عن ذلك، بوصفها خطرة وفى حاجة إلى السيطرة، أو بوصفها منظر طبيعى مُرَوَّض من مناظر الضواحي. فـ"إذا فسد شيء هنا"، هكذا يحذرنا الراوى والمنتِج بيل كورتس Bill Kurtis فى فيلم "الغوص فى الظلام"، "فلن يكون هناك مهرب إلى السطح. فمنذ أن بدأ الغوص فى الكهوف البحرية فى الستينات، مات أكثر من ٣٠٠ شخص فى الكهوف فى فلوريدا والمكسيك والكاريبى وحدها". و"الفقد المؤقت للتزود بالهواء والفقد المؤقت للاتجاه والفقد المؤقت للمصابيح، ليست جميعها أسبابًا للموت فى الكهوف" كما يؤكد أحد الخبراء. فـ "السبب الذى يجعل الناس يموتون فى هذه المواقف هو الذعر والإجهاد المُدرَك. فهذا هو الذى يقتل الناس". "لكن رغم هذه الأخطار"، كما يقول الفيلم، "فأن أحدًا منهم]الغواصين[لن ينكص على عقبيه. فهى ليست مجرد وظيفة لهؤلاء الغواصين، إنها رسالة. فكشأن المستكشفين الأصليين فى الفضاء، يتحتم على هؤلاء أن يرسلوا أحدهم إلى هناك ليعرف ماذا يجرى فعلاً". فـ"أنهار من نار" يقدم العلماء كمغامرين ومستكشفين، وأيضًا فاتحين تدفعهم الرغبة فى السيطرة على تخوم نهائية غاضبة ومتقلبة، وكأن الأرض نفسها على وشك أن تطلق سوائل حارقة. يسجد بيل كورتس أمام سيل من الحمم البركانية تتدفق إلى المحيط وهو يشرح الخطر. وهنا يقول الصوت المصاحب: "فى يناير ١٩٨٣ كانت السماء زرقاء على جزيرة هاواى مترامية الأطراف، وكانت الشواطئ جذابة، كعادتها فى أى يوم آخر. لكن على بعد ثلاثين ميلاً تحت فوهة كيلوايا Kilowaya كانت الحمم المنصهرة تأخذ فى الارتفاع". يصاحب هذا السرد موسيقى مشئومة تستحضر تقاليد أفلام الرعب، كما فى فيلم الفك المفترس عندما يكون الوحش على وشك الانقضاض. ولقطات الفيلم المتتابعة تُخَلِل انفجار الحمم القاتلة بلقطات للتكنولوجيا البشرية: أجهزة الزلازل التى يشرح كورتس أنها ضرورية لمراقبة، وبالتالى السيطرة على الأرض المتقلبة وغير القابلة للتنبؤ. والحمم المتدفقة "تهدد المناطق

السكنية وغير السكنية التى تقع فى طريقها". ومن خلال تأطير الطبيعة على أنها عنيفة وفى حاجة إلى السيطرة عن طريق العلم والتكنولوجيا، يروج منهج "أنهار من نار" للدور الذى تلعبه الشركات، تحديداً شركة أموكو، فى حماية المواطنين والملكية من تهديد الطبيعة. فالآلات التكنولوجية توفر "طريقة لمنع الحمم من التهام من يعيشون حول البراكين".

فى هذه الحالة يقوم الفيلم بأكثر من مجرد تمويه الدور الحقيقى الذى يلعبه العلم والتكنولوجيا اللذان توظفهما شركة أموكو فى تهديد المواطنين والطبيعة، إذ ينكر أيضاً السبب التاريخى الحقيقى لإنشاء مرصد البراكين فى أوائل القرن العشرين وعلى يد مَنْ. فالمنهج لا يذكر أن المرصد موله فى البداية أحد رجال الأعمال الخمسة الذين أطاحوا بحكومة هاواى الوطنية وعينوا حكومة من الأغنياء. وقد صُمِم المرصد ليس لدراسة الطبيعة فحسب، وإنما أيضًا للتنبؤ بالتدفقات البركانية بحيث يمكن إقناع المستثمرين الأجانب الآخرين بأن استثماراتهم فى مشروعات التنمية والصناعة لن تدمرها الحمم. معنى ذلك أن الفيلم، باعتباره دراسة نزيهة للطبيعة، يقدم تاريخ الإمبريالية الاقتصادية والسياسية. وعندما تصف شركتا أموكو وسكولاستك هذه الدروس بأنها "بعثة أموكو للمستكشفين الجدد"، فإنهما يستبعدان تاريخ الغزو الذى مهد الطريق لقياس الطبيعة الذى يبدو اليوم نزيهًا. فإنشاء المرصد كان جزءاً من تعيين الحدود وضم هاواى ومواصلة التوسع فى اتجاه الغرب، وذلك جزء من التاريخ الأمريكى الذى تميز بالعنف والاستغلال وكانت تحركه الأرباح وليس الحماية الخيرية للمواطنين من طبيعة منفلتة:

> **إن كل تاريخ هذا البلد كان يدفعه العنف. فبنية القوة والنظام الاقتصادى جميعهما كانا يقومان فى الأساس على إبادة السكان المحليين وجلب العبيد. والثورة الصناعية كانت تعتمد على القطن الرخيص، الذى لم يكن رخيصًا وفقًا لمبادئ السوق، وإنما بالغزو. فانخفاض سعر القطن كان يتحقق من خلال الأرض المسروقة من السكان الأصليين، وبعد ذلك بقوة العمل**

الرخيصة للعبيد المستغَلين. وقد كان الغزو اللاحق للغرب وحشى جدًا هو الآخر. وبعد الوصول إلى نهاية التخوم، واصلنا الغزو أكثر وأكثر، إلى الفلبين وهاواى وأمريكا اللاتينية وغيرها. حقيقةً كان هناك نزوعًا متواصلاً إلى العنف على امتداد التاريخ العسكرى الأمريكى من "قتال الهنود" حتى الحرب فى فيتنام. والرجال الذين اشتركوا فى "قتال الهنود" هم أنفسهم الرجال الذى ذهبوا إلى الفلبين حيث نفذوا مذبحة مروعة؛ ونفس الرجال الذين حُوكِموا على جرائم الحرب فى الفلبين ذهبوا إلى هايتى حيث نفذوا مذبحة أخرى. وقد تواصل ذلك إلى فيتنام. فإذا نظرت إلى الأدب الشعبى حول فيتنام ستجده مليئًا بمقولة "إننا نطارد الهنود"(٣٠).

وفى أفلام أموكو تظهر الطبيعة، وليس التكنولوجيا أو الشركات أو النظام الاقتصادى الرأسمالى ذاته، وكأنها هى التى تهدد الأسر والاستهلاك والمتع البريئة للتسكع على الشواطئ. علاوة على أن الطبيعة تعمل كامتداد للشركات وتصبح جديرة بالنهب وبديلاً عن مكان العمل. ومثل هذا الفهم للطبيعة بحسبانها مكان عمل يخدم أموكو راعية التنقيب عن النفط التى تريد من الطلاب أيضًا أن يروا أن الطبيعة خطرة على الحضارة وفى حاجة إلى السيطرة والتحايل والقياس المستمر من جانب العلماء. ففى فيلم "الغوص فى الظلام" يُذكِر العالِم المشاهدين بأن الطبيعة تُدمَر، فـ"الأشياء تختفى بسرعة كبيرة مما يضطرنا إلى توثيقها".

المعرفــة

تتكون عِدة أموكو من ثلاثة أفلام فيديو وستة ملصقات حائط ملونة وأدلة للمعلمين وتعليمات علاقات عامة للمعلمين وأصحاب محطات البنزين لأن يضعوا صور

وقصص ترويجية حول "الشراكة" فى الصحف المحلية. ويقترح منهج أموكو أن التعليم يجب أن يكون مرحًا ومثيرًا واستكشافيًا وذا معنى للطلاب. وفى ذلك يقول أحد معلمى الفيزياء "أعتقد أن من المهم أن يرى الطلاب أشياءً كثيرة وهم فى طريقهم إلى البيت من تلك التى رأوها فى الفصل". ونجاح مثل هذه الممارسات التربوية ذات المعنى يتأكد فى الشهادات التى لا تحصى من الطلاب الذين لم يكن لديهم قبل ذلك أى اهتمام بالعلوم. وكما لاحظ أحد الطلاب: "يستطيع أى معلم أن يذهب إلى الكلية، وينال شهادتها، ويأتى للتدريس، وينفذ كل أنواع الكلام بالطباشير. لكن السيد هيكس جاء وجعل التدريس مرحًا. إنه يحب كل واحد منا ... فنحن أسرة وهو يُدَرِس العلوم بحب".

يعتمد منهج أموكو على الأفكار الشائعة عن التربية التقدمية ليقترح أن التعليم يجب أن ينشأ عن الخبرة، وأن يشترك الطلاب فى "بناء" المعرفة من خلال المشاركة فى أنشطة ذات معنى بالنسبة لهم، وأن التعلم يجب ألا يفصل المعرفة عن العالم. فى كتابها "فى المدرسة المتوسطة"، تطالب نانسى أتويل Nancy Atwell، وهى نفسها معلمة بالمدرسة المتوسطة، بجعل التعلم ذى معنى من خلال إعطاء الأطفال قوة أكثر فى تقرير المنهج وما يحدث فى الفصل: "فنحن معًا سندخل إلى عالم الأدب وننخرط ونصنع ارتباطات بحياتنا والعالم وعالم الكتب الأخرى ونحقق الإشباع"(٢١). وقد رحبت الصحف العامة والتربوية بأتويل كمجددة تربوية، وأكدت على التعلم بالممارسة hands-on learning الذى يتحمل الأطفال فيه المسئولية عن تقرير المنهج وصياغة أنواع الموضوعات التى سيكتبون عنها من خلال المناقشات مع زملائهم. تقارن أتويل هذه الطريقة الجديدة للتدريس فى المدرسة المتوسطة بطرق التدريس التقليدية المتمركزة حول المعلم التى لا تمس ولا تنمى إمكانات الأطفال على الخيال والانخراط. لكنها لا تحدثنا حول الطريقة التى من خلالها تؤدى هذه الحرية فى التجريب التربوى إلى تعزيز الإحساس بالامتياز بين طلاب الضواحى البيض بالمدارس الخاصة، ولا تخبرنا كيف سيتاح لهذه الطرق تدريب أولئك الذين سيسيطرون على وسائل الإنتاج فى

المستقبل. على سبيل المثال، في وقت الفصل المخصص لكتابة الشعر دون تحديد مسبق لموضوعات معينة. يكتب تلميذ أتويل المدعو جو عن العواطف التي يمر بها عندما يكون وحده في غرفة نومه، وتعلق أتويل على ذلك قائلة "عندما قرأت قصيدة جو تذكرت غرفة نومي في بيت والدي والعلاقة المعقدة التي كانت تربطني بالفضاء الطبيعي"(٣٢). وتنسى أتويل أن تذكر أنواع الطلاب الذين يمتلكون غرف نوم خاصة، والسياسة العقارية التي توفر هذه الفضاءات الفارغة، وأنواع الجماعات التي تتمتع بامتيازات الخلوة بالنفس. وترى أتويل أن "تمكين" الطلاب يعني إعطائهم الإحساس بالثقة والقوة الشخصية. لكن أتويل لا تعي شيئًا حول المستويات المختلفة للقوة والامتياز والفاعلية والإحساس بالقوة التي يعايشها الطلاب المختلفون في السياقات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية المختلفة. إن أطفال أتويل في وضع طبقي يجعلهم يحصلون على القوة. وأتويل لا تساعد طلابها أصحاب الامتيازات على النظر إلى امتيازاتهم بوصفها جزءًا من نظام أوسع فشل في مد الخدمات الاجتماعية الأساسية إلى الطلاب في الأماكن الأخرى. وكذلك لا تقدم لطلابها الأدوات لتحدى القهر، مثل الحفاظ على بنية غير متساوية لتوزيع الموارد التعليمية. وأتويل بذلك تتبنى منهجًا تقدميًا عالي الفردية مقطوع الصلة بالرغبة السياسية والاجتماعية في إحداث تحول اجتماعي أكثر عدلاً.

وبالمثل يعرض فيلم أموكو حول الفيزياء درس فيزياء في فصل تقليدي باعتباره ذروة التعليم المجرد الممل المنزوع من السياق الذي يفشل بسبب فشله في إشراك الطلاب. وفي هذا الدرس تنهمك المعلمة بطريقة رتيبة ومملة في تسميع معادلات مقززة، بينما تنتقل الكاميرا إلى الطلاب ليتضح أن بعضهم يغط في النوم أو يلعبون مع بعضهم البعض أو يلعبون بالمضيغة [اللبان]. ويقول الراوي كيردز Kurds "هذه ليست طريقة لتدريس الفيزياء". ثم ينتقل الفيلم إلى الفصل الذي يركب القطار المعلق، وكورتس يصرخ من القطار "والآن تلك هي طريقة تعلم الفيزياء". وكما تقرر أتويل فإن "التعلم يرجح أكثر أن يحدث عندما يكون الطلاب يحبون ما يفعلون"(٣٣). لكن لا تأتي

هنا إشارة إلى أنواع الطلاب الذين تتاح لهم معايشة مثل هذه المتع والمباهج، وتحت أية ظروف، ولا أنواع القيم السياسية والمؤسسات وترتيبات القوة التى تدعمها مثل هذه المبادرات. فهذه المتع ليست بريئة بحال من الأحوال.

إن استخدام المغامرة والإثارة والأعمال الجريئة والسريعة فى منهج أموكو تأخذنا إلى خطاب عام أوسع حول الاقتصاد يروج لعدم الاستقرار والخوف والهلع المادى باعتبارها أهداف الحياة الجيدة. وبينما يعيد منهج أموكو تعريف طلب المعرفة باعتباره لعبة خطرة، تضع مجلة تايم وتلفزيون إم تى فى MTV الرياضة عالية المخاطرة جنبًا إلى جنب مع التجارة النهارية(*) والاستثمار الخطر فى الأسهم. وهنا يُشَبَّه ترك الوظائف وبدء مشروعات تجارية والاستثمار الخطر فى السوق بالقفز بالباراشوت وتسلق الجبال وغيرها من رياضات المغامرة. ويعرض تلفزيون إم تى فى القافزين وهم يستعدون للقفز، بينما يأتى إعلان تجارى إلكترونى فى الركن السفلى الأيمن من الشاشة ليضع الموقف من سياقه. ومن الواضح أن تايم وإم تى فى يروجان للاعتناق الشعبى للمغامرات القلقة والمجهولة ويضفيان مسحة رومانسية عليها. ويمكن النظر إلى ذلك كمجرد ذريعة للترويج للاقتصاد غير المستقر باعتباره تحدى مثير، يمكن للشجعان أن يتغلبوا فيه بجرأة. وهنا يظهر انعدام الأمن الوظيفى والمستقبل المالى المجهول والتفاوتات المتزايدة فى الثروة والدخل وكأنها عقبات مثيرة للتحدى فى الاقتصاد الجديد. وهنا أيضًا يتحول الاقتصاد إلى مجاز، بينما تقف الطبيعة هناك بوصفها جبل مثير للتسلق أو القفز فى الإعلان التجارى، وبذلك تُستخدَم رياضيات المغامرة من جانب وسائل الإعلام الشركاتية للترويج لانعدام الأمان الاقتصادى.

(*) يشير مصطلح التجارة النهارية day trading إلى ممارسة شراء الأدوات المالية وبيعها فى نفس اليوم [المترجم].

تعود فكرة التعلم بالممارسة إلى طرق التدريس التقدمية المعاصرة فى النظرية البنائية التى تمتد جذورها إلى نظرية بياجيه، إضافة إلى تأثير تقاليد جون ديوى، والانتحال الخاطئ لنقد باولو فريرى للتعليم البنكي. "هكذا يصبح التعليم"، كما يذهب فريرى، "فعل إيداع بنكى، حيث يكون الطلاب مستودعات والمعلمون مُودِعين. وبدلاً من أن يتواصل الطرفان، يصدر المعلم بيانات ويجرى عمليات إيداع يتلقاها الطلاب بصبر ويحفظونها ثم يرددونها"(٣٤). وتلك التقاليد التقدمية تشترك مع منهج أموكو فى الإصرار على مركزية المتعلم، والحاجة إلى توزيع سلطة المعلم فى الفصل، وأهمية المعرفة ذات المعنى باعتبارها القاعدة والأساس للمزيد من التعلم. ومنهج أموكو يبدو تقدميًا من خلال التظاهر بأنه يأخذ بجدية فكرة أن التعليم يجب أن يكون ذا معنى للطلاب، وأن بناء أو تنظيم الفصل لا يجب أن يعامل الطلاب بوصفهم مستودعات لمعرفة المعلم النادرة. ومع ذلك، ومثل كثير من الانتحالات الليبرالية الخاطئة لفكر باولو فريرى، يتعامل منهج أموكو مع المُثُل التربوية التقدمية بطريقة ذرائعية، أى باعتبارها طرقًا لزيادة امتصاص الطلاب لمعرفة لم تُخْضَع مبررات تدريسها بعد للتساؤل(٣٥). وفى حالة أفلام أموكو يعنى ذلك أنه لا تثار تساؤلات حول السبب فى وجوب تعلم الطلاب للفيزياء، ومصالح مَنْ تلك التى يخدمها تدريس هذه المعرفة، والغرض من استخدام هذه المعرفة فى العالم، وعلى حساب مَنْ ولمصلحة مَنْ. ومن هنا فإن طرق التدريس التقدمية فى ظاهرها ليست مُبَرَّرة نظريًا وتنتهى إلى مجرد نظام توصيل أكثر كفاءة للمعرفة المقبولة حول العلم.

تنظر أفلام أموكو إلى الطبيعة باعتبارها مورد. بمعنى أن الطبيعة تظهر وكأنها تحتاج إلى الترويض والتدجين اللذين يتحققان ضمن سيطرة العقلانية العلمية الممثلة فى الماكينات الآلية التى ترسم خطوطًا على الرسوم البيانية وتصنع معاني. والطبيعة تنتظر هناك لكى تُستَرَد وتُنقَل ثانية إلى المختبرات المجهزة بأحدث الأجهزة بغرض القياس والتخزين والتسمية والتصنيف من أجل البحوث المستقبلية. "تخيلوا مكانًا على

الأرض" - هكذا يقول رئيس التشريفات بيل كيردز وهو يقدم درس "الغوص فى الظلام"- "تُرِك دون استكشاف". ويستأنف قائلاً أن كهف ساجيتاريوس Sagittarius الموجود تحت الماء فى منطقة سويتنجز كى Sweetings Key فى البهاما "يعتبر عالمًا غير مدروس ينتظر الاكتشاف".

وعلى أية حال فإن طلب المعرفة هنا يُصَور مثل الدفع بالغيبة alibi. فالعلماء المتفرقون فى كل مكان على أسطح هذه المواضع البيئية يجدون فتحات طبيعية مملوءة بمصادر الطاقة: تسبح جيل ييجر Jill Yaeger من جامعة أنتيوتش عبر فتحات زرقاء تمتلئ بالفقاعات الزرقاء. هذه الفتحات الزرقاء، كما يشرح الصوت المصاحب، تبعث قوة مهولة، وهذه القوة عندما يعكسها المد تخلق حقولاً لولبية من القوة تكتسح السباحين وتسحبهم دون أن تترك لهم أى طريق للهرب أو الإفلات. وفى أثناء البحث عن المعرفة يتمكن فريق الاستكشاف العلمى من تفادى هذه الفخاخ البحرية العميقة. وحقول الطاقة ذاتها تعد مصادر يمكن استخدامها فى إنتاج المعرفة. وأموكو التى ترعى هذه الأفلام لا ترى ثمة ضرورة للتذكير بأنها هى نفسها تعمل فى مجال استغلال حقول الطاقة كمصادر للإنتاج. وهنا يصبح اكتساب المعرفة حول الطبيعة باعتبارها طاقة بديلاً وغطاءً على استغلال مصادر الطاقة الطبيعية من أجل ربح الشركات. ويصبح جمع أجزاء من المعرفة الطبيعية صمام أمان ودواء من الدمار الذى يمكن أن تسببه الطاقة الطبيعية إذا ما تُرِكَت دون استكشاف ودون استغلال، ويصبح أيضًا مبررًا مشبوبًا بالعاطفة لتوسيع السيطرة التكنوقراطية إلى الأراضى الأجنبية. ورؤية أموكو للطبيعة تنقل إلى المشاهد أن المعرفة المهمة حول الطبيعة هى كيف يمكن أن تُستخدَم من أجل التقدم الإنسانى والربح. فـ"العلماء يرون أن أسماك القرش ربما تحمل أسرارًا حول فوائد طبية مهمة للإنسان"، كما يقول فيلم "الغوص فى الظلام" للطلاب. و"هى حيوانات فى حاجة إلى الحماية والدراسة". ويتغاضى الفيلم عن ذكر أن الصناعة الإنسانية فى شكل الصيد التجارى للأسماك هى السبب

الأساسى لتعريض أسماك القرش للخطر. وبدلاً من ذلك تعمل الشواغل "الإنسانية" كتبرير لغوص بيجر فى الظلام فى مهمة تتمثل فى أن تعود بنوع مكتشف حديثًا من القشريات البحرية إلى مختبرها البحثى فى أوهايو. فهذه الحيوانات لا بد أن تُعْرَف وتُسمَى وتُصنَف من أجل بناء معرفة شاملة حول الحياة والتطور، كما يصرح الفيلم. بل إن الغوص فى البحر نفسه يُصَور باعتباره رحلات إلى الوراء عبر التطور، أى إلى الأصول المظلمة للحياة فى أعماق البحار، فيما تُصَور العودة المحفوفة بالمخاطر إلى سطح الماء بأنها انتصار للتنوير. لكن ما يجعل الرحلة الاستكشافية ناجحة جداً هو العودة الناجحة بهذه الفصيلة من القشريات البحرية من أجل البحث العلمى، أى جمع واكتساب المصادر. والأفلام تحول أنشطة الجمع إلى ترفيه أخلاقى من أجل التعلم واكتساب وتراكم المعرفة. وفكرة أن معرفة الطبيعة لا بد أن تكون كاملة تعنى هنا أن التمكن من الطبيعة يؤدى إلى تنوع أكبر فى المنتجات. كما أن الطبيعة تعرض تطورها الزمنى فى انتظار من يأتى به إلى الأماكن المتحضرة التى "تُعَلَم فيها [أى الطبيعة] كيف تأكل الغذاء المشترى من المتاجر"، كما تصرح بيجر. ولا تلمح أموكو إلى الطرق التى تُدمَر بها الطبيعة عندما تُنتَزع منتجاتها، ولا تلمح أيضًا إلى أن الطبيعة والنظام البيئى لم يُصممَا ببساطة لكى يُستغَلا من أجل الاستخدام البشرى الذرائعى، ولا إلى حقيقة أن كل الطبيعة لا تنتظر فى سلبية لكى تتحول إلى منتجات للاستهلاك وأشياء للعرض.

ديدان الأرض والإمبراطوريات

الصورة العامة: إن صورة شركة مونسانتو بوصفها عضو فى عالم الشركات مسئول ومهتم بصدق برفاهية بيئتنا ستتأثر عكسيًا بزيادة الدعاية.

مصادر التلوث: رغم أنه قد يكون هناك بعض التلوث فى التربة والهواء، فإن المشكلة الأكثر أهمية فى الوقت الحاضر هى تلوث

الماء ... فمنشآتنا الصناعية تصرف فى الماء كمية كبيرة من البيفينيل متعدد الكلورات PCB كل عام ...

مذكرة لجنة موسانتو ١٩٦٩(٣٦)

إن أموكو ليست الشركة الوحيدة التى تستخدم الطبيعة لتعليم الأطفال قيم ومباهج الرأسمالية. وفى هذه المناهج يُعاد تشكيل الطبيعة لكى تعبر عن العلاقات الاجتماعية لرأس المال وتعكسها، وبالتالى تبدو علاقات رأس المال غير المتساوية وكأنها جزء من الطبيعة. وقد كان معرض عام ٢٠٠٠-٢٠٠١ بعنوان "مغامرة تحت الأرض" فى متحف شيكاغو الميدانى للتاريخ الطبيعى، على سبيل المثال، رحلة مدهشة تحت سطح الأرض لاستكشاف عجائب التربة(٣٧). "لن يكون شعورك نحو التربة كما كان" تلك هى الكلمات التى ترحب بك فى رحلة التعلم "المرحة التى أعدتها مونسانتو لكل الأسرة. وعلى الجانب الآخر من صالة الترحيب المزودة بشاشة عرض والتى تسمى "القاعدة"، توجد ماكينة مونسانتو السحرية للتصغير التى تحول كل المخلوقات حول الزوار فجأة إلى وحوش ضخمة وخنافس بلاستيكية عملاقة وجذور نباتات منتفخة، كان من شأنها بالتأكيد أن تجعل كافكا وجاليفر(*) يضربان على رأسهما عجبًا. والرائع حقًا فى العرض ليس أن مونسانتو تخفى تدميرها لهذا الخصب فى التربة من خلال تدخلها الوراثى أو إبادتها لمثل هذه المخلوقات من خلال إنتاجها لمبيدات حشرية مثل راونداب Roundup أو احتكارها لتنوع الأنواع الحيوانية من خلال سيطرتها الأفقية على المنتجات الزراعية التى تخلق احتياجات أساسية بين المزارعين لمنتجات الشركة الأخرى، وليس مفاجئًا تمامًا، على أية حال، ألا تعترف مونسانتو فى هذا المعرض بانبعاثات مواد البيفينيل متعدد الكلورات PCB التى لوثت بها أجزاءً كبيرة من الأراضى الزراعية والرعوية فى غرب أنيستون West Anniston

(*) كافكا Kafka و جاليفر Gulliver اثنان من مؤلفى أدب الخيال العلمى والمغامرات [المترجم].

فى آلاباما ونشرت السرطان بين معظم السكان هناك، رغم معرفة الشركة الكاملة والموثقة للأضرار التى تسببها مركبات البيفينيل متعدد الكلورات(٣٨). وما يجعل دروس التاريخ الطبيعى لشركة مونسانتو سحرية حقًا هو تحديداً كيف تنجح الشركة فى عرض هذه الممارسات الرأسمالية غير الأخلاقية والتدميرية والتى تخل بتوازن النظام البيئى باعتبارها طريقة الطبيعة وليس الشركات الدولية.

تتضح أهداف مونسانتو من معرضها من اللحظة التى يدخل فيها الزائر إلى المعرض. فأول شىء يراه الزائر هو سلسلة صور لمركبات ميثاكريليت المثيلين المتعدد توضح أهمية التربة فى توفير المنتجات الاستهلاكية المختلفة. وهى ليست أية Plexigals منتجات استهلاكية وحسب، وإنما العلامات التجارية للشركات الكبرى. فتعرض إحدى الحالات، على سبيل المثال، بنطلون جينز أزرق قديم عليه العلامة الساطعة لشركة جاب ومكتوب على العلامة: "دون التربة لن يكون هناك ملابس جينز. فهذه الملابس Gap مصنوعة من الدينيم القطنى المخاط معًا بخيوط قطنية. والقطن والنيلة يأتيان من النباتات التى تحتاج إلى التربة لكى تنمو. لا تربة .. لا جينز". وبعد ذلك تأتى سلة من علب الكوكاكولا ومكتوب على العلامة: "الألمنيوم الداخل فى صناعة فى هذه العلب أُعيد تدويره مرات ومرات. لكن الألمنيوم الجديد يكون فى البداية متحداً داخل التربة مع خام يسمى البوكسايت. لا تربة .. لا ألمنيوم". لكن المعرض لا يعترف أبداً بما تهدده مونسانتو أو الرعاة الآخرون بالضياع عند عرض هذه المجموعة المحددة من السلع، مثل إنتاج مونسانتو للسكر الصناعى المعروف باسم نوتراسويت NutraSweet المستخدم فى مشروب الكوكا قليل السكر. بينما تعلن العلامة التالية بطريقة تنم عن الانتصار أنه "دون تربة لن يكون هناك بنسلين". لكن هذه العلامة لا تشير إلى استثمارات مونسانتو فى الصناعات الدوائية، ولا إلى اتحاد الشركات الدوائية الكبيرة وضغطه من أجل التمتع بالحماية التى توفرها حقوق الملكية الفكرية العالمية، وما يؤدى إليه ذلك من صعوبة وصول الدواء فى كافة أنحاء العالم إلى أولئك الذين يحتاجون إليه بإلحاح، وإنما تشير فحسب إلى الأعداد الغفيرة من الناس التى أُنقِذت حياتهم لأن البنسلين ينشا بوفرة من التربة.

من الواضح أن مونسانتو تخبر أنصارها الصغار بأن التربة، شأنها شأن مراكز التسوق، غنية بما تقدمه من أشياء مرحة ومتنوعة يتاح لنا لبسها وشرائها، كما لو كانت منتجات الشركات متعددة الجنسيات تنشأ مباشرة من الأرض، من دون أن يشترك الناس أو العمال أو العلاقات الاجتماعية فيها. معنى ذلك أن مونسانتو هنا تفسر حرفيًا لإدعاء الماركسى الكلاسيكى بأن التطبع naturalization يمحو عمليات الإنتاج من السلعة. فالطبيعة هنا تُبرَز على أنها تفيض بالمنتجات الرأسمالية، وهو ما يخفى التفاوتات وأشكال اللامساواة المتأصلة فى التصنيع الضخم للقطن أو الصبغة، أو أشكال الظلم التى تُمارَس فى ورش كل من العالم الثالث والأول التى تُخاط فيها، على سبيل المثال، معظم المنتجات التى تحمل علامة جاب على يد الفقراء والمستغَلين والمهمشين، أو عندما تُوَظِف شركة كوكاكولا الأم عمالة من الأطفال بحثًا عن الأجور المنخفضة فى البرازيل. ومما لا تُقَيمه مونسانتو أيضًا كيف تتورط هذه الشركات متعددة الجنسيات، مثلاً، فى تلويث التربة ذاتها التى يقولون أنهم يثرونها بتوزيع فضلات غير قابلة للتحلل وغير قابلة للتدوير، أو بالتخلص مما يزيد عنهم فى أسواق العالم الثالث للحفاظ على ارتفاع الأسعار، بما يجعل هذه المواد غير متاحة بالقدر الذى يتطلبه توليد التربة التلقائى لها.

إن أول شىء يراه الزائر بعد أن انكمش هو بنس أمريكى عملاق محفور عليه كلمات "إننا نستثمر فى التربة"، وهنا يتحكم رأس المال فى الطبيعة. وكذلك طلعة لينكولن البهية فى المدخل تستدعى سلطة الدولة والتاريخ الأمريكى ليكشف عن وجود ارتباط عضوى بين الدولة ونمو رأس المال هنا فى مروج شيكاغو السابقة. وببساطة أكثر فإن رؤية سلسلة من السلع التى تأتى من التربة أولاً، وبعد ذلك رؤية المال نفسه فى التربة يعنى أن الرسالة الصريحة التى تُنقَل إلى الزائر هى: "هناك أموال طائلة فى التربة". ومن أجل تأكيد أن التربة تُنظَم طبيعيًا بقوانين رأس المال، نجد فى "غرفة الجذور" علامات علمية تشير إلى وحدات زمنية موحدة على طول فرع شجرة يصبح أبعد أكثر وأكثر ليبين أن معدل نمو الفرع يتسارع. وهذا الاحتفاء بالتراكم والنمو غير

المحدودين يجعل مشروع رأس المال يبدو وكأنه يتقدم بقوة دفع النزعة الطبيعية نحو التوسع، وليس نحو النضوب والانقطاع كما يشير وليام جريدر. وفي ذلك كتب جريدر أن "الزعم الكاذب الذي لم ترد السلطات الحاكمة أن تدركه]في عام ١٩٩٢ [هو أن الوفرة المتزايدة نفسها، أو على الأقل كما كانت تُعَرَف وتُنجَز في ذلك الوقت، كانت تواجه قيوداً تحد منها. فالنظام العالمي وهو يولد نشاطًا جديداً لإنتاج الثروة كان يندفع نحو حائط، أي نقطة غير معروفة في الزمن عندها سيصطدم التوسع الاقتصادي مع القدرة المادية للنظام البيئي"(٣٩). وفي الواقع يمكن تقديس رؤية مونسانتو للنمو القوي والاستهلاك الكبير فقط من خلال نسيان التكاليف الاجتماعية للإنتاج المُعَجَل، وهي تكاليف لا توضع عادة في الحسبان في الميزانيات "مثل إزالة الأشجار والتصحير وزحف المدن urbanization وغيرها من الأنشطة التي أدت إلى اجتثاث العالم الطبيعي"(٤٠)، إضافة إلى التكاليف الأخرى التي تتمثل في إفقار الأماكن التي تقدم المواد الأولية، أو إلى وقوعها تحت هيمنة قوى أجنبية، مثل ضعف مؤسسات العدالة والتقشف المالي وأجور المجاعة وانعدام السلطة على فرض الضرائب على المشروعات الأجنبية. إن تثمير رأس المال لا يؤدي بالضرورة إلى جعل العالم أفضل لمعظم الناس. فضلاً عن أن المعرض لا يلمح إلى حقيقة أن نمو مونسانتو لم يحدث مطلقًا بشكل طبيعي. وإنما نتج عن فعل حكومي كان رداً على ضغوط من الشركات الكبرى: إصدار قانون حرية الزراعة عام ١٩٩٦ الذي أوقف الإعانات المالية الفدرالية للمزارعين، وبالتالي أغلق مشروعات صغار المزارعين. علاوة على أن القانون لم يعمل على تثبيت الأسعار ولا تقليل الفائض بدفع الأسعار لأعلى، وإنما فحسب فرض زيادة في الإعانات الحكومية للمزارعين (من ١٦ مليار دولار عام ١٩٩٨ إلى ٣٢ مليار دولار عام ١٩٩٩)، وذلك لأن الكونجرس أصدر إجراءات إغاثة "طارئة". وقد كان من نتائج ذلك، كما يستنتج جريدر، "أن تسارعت طاحونة تعذيب المزارعين التي تعمل بتحفيز رأس المال، وأصبحوا يتلهفون إلى تبني أي شيء جديد يمكنه أن يرفع العوائد. وعندما ارتفعت الأسعار الزراعية، بدأت مونسانتو وشركات أخرى في ترويج بذور

معدلة جينيًا للذرة والصويا، إلى جانب وعود تقليل التكلفة، وقد اكتسحت هذه التكنولوجيا الجديدة المشهد الطبيعي"[٤١].

والأفكار حول الضخامة والنمو المقدمة فى مدخل المعرض تحدد المعيار فى كافة أنحاء المعرض لربط الاستهلاك بتوسيع الحياة المرفهة الذى يعد به نمو الشركات. ومرتادو المتحف الفرديون يُفترَض أن يتوحدوا مع الآفات والمخلوقات، وكذلك جشع الشركات التى تريد منهم أن يستهلكوا ما يكفى لملء بطون الشركات. وأكثر من ذلك فعلى الطريق إلى الاستكشاف يُسمَى أحد الأقسام "إعادة تدوير المخلفات" وهو يحتوى على علامة كتب عليها: "شراكة أم تطفل: هل يمكنك أن تميز بينهما؟" وهذه البانوراما بالحجم الحقيقى تعرض ديدان وآفات عملاقة يأكل بعضها بعضًا فى "حالة سُعار". وعبر الطريق تقف ماكينة بيع، وأول مجال للاختيار فى هذه الماكينة يقول "أم أربعة وأربعين"، بينما تعرض الشاشة الزجاجية حزمة من النباتات المتحللة. وماكينة البيع تضع المشاهد فى نفس موقف سُعار الديدان المجاورة، وهو ما يبرهن على أن الطبيعة ليست أكثر من تجلى آخر لنوع الاستهلاك الذى تقدمه ماكينات البيع عندما تبيع الأطعمة التافهة والصودا. والديدان يبدو أنها تختار غذائها بالطريقة نفسها التى يختار بها المتسوقون، حتى وإن كانت بعض الأطعمة المختارة تسبب الموت والتحلل للآخرين. وكما هو الحال مع أموكو تقدم مونسانتو الطبيعة بوصفها علاقات استهلاكية تخضع لإدارة الشركات.

إن الكرتون الهزلى يجعل العنف جذابًا، وحتى عندما تلتهم الآفات بعضها بعضًا حتى الموت، لا يبدو أن أحدًا يتأذى، ويبدو أن الجميع على حد سواء يكتسبون تحسنات عضوية وفوائد. وهنا تظهر منافسة رأس المال كلعبة تدمير جريئة من خلال الاستهلاك، مثل سلسلة ألعاب الفيديو المسماة بوكمان Pokemon التى تروجها شركة تايم-ورنر التى تجعل المنافسة المدمرة مرحًا وليس أذى، كما كانت مثلاً بالنسبة لكارين ماكفارلين Karen McFarlane وأسرتها فى غرب أنيستون:

حيث وجدت كارين مركبات البيفينيل متعدد الكلورات فى دهون جسمها. ووفقًا للفحوصات التى أجراها الطبيب المحلى كان دم رايان به تقريبًا ثلاثة أضعاف المستوى "المعتاد" فى الولايات المتحدة، وضعفين فى حالة طفلهم تيفانى ابن الست سنوات، فيما كانت ناثان ابنة الثامنة تعانى من مشكلات نمو حادة، وكان الجميع فى الأسرة يعانون من مشكلات تنفسية وطفح جلدى يصاحب التعرض لمركبات البيفينيل متعدد الكلورات. أما كرس، ابن كارين ذى الأحد عشر ربيعًا فيعود إلى البيت من المدرسة باضطراب معوى، ويتمدد على الأريكة ويرفع فانلته الرياضية ليكشف عن بقع حمراء مسمرة على جانبى صدره، ويحذر رايان "إن رائحته كاللحم المتحلل. إنه كما لو كان متعفنًا"(٤٢).

من المؤكد أن التربة التى تزرع أسرة ماكفارلين فيها غذائها وغذاء ماشيتها لا توفر مواد استهلاكية من نوع ملابس جاب أو بنسات مبتسمة عملاقة أو الوعد بالصحة الذى يقدمه البنسلين. وبدلاً من ذلك فإن المخلوقات الفَرِحة التى تشارك بسعادة فى سُعار أنيستون الاستهلاكى تزيد من تعرض أسرة ماكفارلين لمركبات البيفينيل المميتة، مع اشتداد معدل نمو التلوث على طول سلسلة الغذاء. إن أسرة ماكفارلين وجيرانهم رفعوا الآن قضية أمام القضاء يحتمل جداً أن تستغرق سنوات قبل أن يروا نتائجها، فضلاً عن أنه قد بات من الواضح لهم أن الحكومة كانت ستضع مونسانتو تحت رقابة دقيقة وصارمة لو كان التلوث يحدث فى منطقة أكثر غنى وأشد بياضًا. إن مونسانتو وهى تترمم على الآفات والديدان المنكمشة وكذلك فى سعيها وراء النمو والربح غير المحدودين لم تعد تظهر كلعبة لطيفة وطفولية أو ممر مقنطر تحكمه الطبيعة وقوانين المنافسة الحرة، وإنما كإضعاف وتكاليف مفرطة تقع على المواطنين الضعفاء الذين تعود عليهم المخاطر بشكل غير عادل وغير طبيعى.

في عرض مونسانتو للطبيعة، لا تكون الكائنات الطبيعية مستهلِكة فحسب، بل تشكل أيضًا القوة العاملة. فثمة مخلوقات معينة تظهر وكأنها تبحث عن عمل، فتعرض سيرها الذاتية وتصنف مهاراتها مثل "يجب أن يعمل جيدًا مع الآخرين في علاقة رعاية و/أو افتراس"، أو "يجب أن يكون نشطًا ومستعدًا للعمل وقتًا إضافيًا" أو "عامل في خطوط التفكيك". وإذا كانت النقطة لم تتضح بعد، فلا يزال هناك حوضًا مائلاً مملوءً بالتربة يتدفق فيه الماء، وهو يعرض كيف ينتشر الماء عبر الأرض، وقد كُتِب على الحوض: "تأثير الرشح". واللغة الاقتصادية المحافظة المؤيدة للشركات هنا تصف علاقات الطبيعة موضِحةً، وكأن ذلك حقيقة ثابتة، كيف يستفيد الجميع وينمون ويتغذون عندما تكون الطبقات العليا مبللة. وكما تلاحظ دونا هاراوي حول التمثيلات التي تستحثها الشركات للتكنولوجيا الحيوية والاندماج الجيني عمومًا، فإن "المحتوى المستتر هو أن البيولوجيا - والحياة ذاتها - عبارة عن إستراتيجية لتراكم رأس المال في المجالات الرائعة، والعادية في نفس الوقت، للنظام العالمي الجديد. وبشكل محدد فإن النوع الطبيعي يصبح علامة مسجلة أو علامة تجارية أو علامة تحمي إدعاءات الملكية الفكرية في تعاملات الشركات"(٤٣). والزائر وهو يغادر المعرض يجد اقتباسات مشهورة حول الأرض مكتوبة عبر الحائط المواجه لصورة مجسمة مشكالية للعالم. والكرة الأرضية في هذه الصورة تتكون من أشجار وغيوم تندمج مع لقطات لحقول محروثة، تندمج بدورها مع مناطق سكنية. واتساقًا مع المعارض الأخرى، يقترح العالم المعروض هنا دورة كلية لانهائية للطبيعة، تلعب فيها أفعال الغيوم والأشجار والبرق والشركات والمستهلكين أدوارًا كقوى تخليصية للطبيعة. وفوق ذلك مباشرة يعلن الحائط بحروف كبيرة: "الأرض المحروثة تكون رائحتها كرائحة ديدان الأرض والإمبراطوريات".

إن سيطرة أموكو على الطبيعة باعتبارها مورد، تلك السيطرة التي تصورها الأفلام على أنها خيرية ومرحة، تمهد الطريق أمام سيطرتها واستغلالها للشعوب والأمم، وأفعالها العنيفة للسيطرة على عمال العالم الثالث من خلال العسكرة، ونسفها

لأية ظروف إنتاج محلية أو أكثر عدالة. بمعنى آخر، إن ما تعرضه الأفلام بوصفه فضول صحى من جانب العلماء ليس في الحقيقة سوى عنف الغزو الاستعمارى من أجل الكسب الرأسمالى، أو تقليص قيمة كل الأشياء أمام قيمة المال، وما يصاحب ذلك من إهدار للقيم الإنسانية. وكما يؤكد ديفيد هارفى فإن:

> **تفاوت القوة فى العلاقات الاجتماعية [بين دول العالمين الأول والثالث] يرتبط بقوة بالتفاوتات فى العلاقات البيئية، تمامًا كما استلزم مشروع السيطرة على الطبيعة مشروعًا للسيطرة على الناس. والتدهور البيئى والتكاليف المفرطة، على سبيل المثال، يمكن أن تتضح على الأفراد أو حتى الدول الأقل قوة فى صورة أخطار بيئية فى أماكن العمل وفى المجتمع. فتركيز الأوزون فى المدن الكبيرة فى الولايات المتحدة يؤثر على الفقراء و"الملونين" بشكل غير متكافئ؛ والتعرض للسموم فى أماكن العمل يبدو أنه مشروط طبقيًا. ومن هنا تنبثق القضايا البيئية وقضايا العدالة الاجتماعية(٤٤).**

بل إن معالجة أموكو للطبيعة تضرب المثل على معالجة أموكو للناس الذين يعيشون فى المناطق المحيطة بمواقع الاستكشاف. فجماعات السود فى سوينتجز كى فى البهاما لا يجدون فرص عمل مربحة غير أن ينتظروا مجىء Sweetings Key المستكشفين ليستخدمونهم فى أى أعمال يريدون. وهم فى ذلك يشبهون القشريات التى تجلس فى انتظار أن يضعها العلماء البيض فى عمل منتج. ففى خلفية الصورة يقف هؤلاء الناس بجانب المراكب وهم يتظاهرون بعدم الفهم بينما يقوم العلماء بشرح استخدامات الأجهزة لمشاهدى الفيلم. والعلماء وهم فى طريقهم إلى البحيرة يبدون مثقلين بأدوات الغطس الكبيرة والثقيلة، لأنهم كما يوضح بيل كورتس قد أحضروا معهم اثنين من كل جهاز تحسبًا للعيوب. ولذلك يطلبون من الأهالى أن يحملوا أسطوانات الهواء والأجهزة الثقيلة على ظهورهم ويتبعونهم خلال حقل مشجر فى

صورة تشبه المشهد الاستعماري التقليدي، من ذلك النوع الذي يصفه مايكل توسيج Michael Taussig لهنود كولومبيين وهم يحملون الأسبان عبر جبال الأنديز: "كان الحمل العادي للحمَال الواحد حوالي ١٠٠ رطل، بينما عُرف عن بعضهم أنهم كانوا يحملون ٢٠٠ رطل. وحتى بهذه الأثقال قيل أنهم كانوا يتسلقون الجبال بأكبر سهولة ولا يرتاحون إلا نادرًا"(٤٥). والعلاقة بين الأهالي والعلماء في فيلم أموكو تبدو ودية لكنها غير تواصلية، حيث أنهم يقومون بصمت بأعمال رتيبة وفقًا لأوامر هؤلاء المحسنين، ولا يُظهرون رغبة من عند أنفسهم أو أي نوع من المبادرة غير أداء الخدمة أو المهام التي يكلفهم بها العلماء. ومع أن الأهالي في فيلم أموكو يعملون بجد، فليس ثمة دليل على دفع المقابل أو العقود أو الصراع التنظيمي أو إمكانات مصلحة العامل الشخصية أو سيطرة العامل على شروط العمل. وبدلاً من ذلك يتحول الأهالي إلى مرايا شبه ميكانيكية وأداتية ومُشَيئة وفضولية للمعجزة العلمية، بما يثبت أن فضول العلماء طبيعي وبدائي وخام، أي جوهر الإنسانية. يحدق الرجال السود في المياه وتتباطأ آلة التصوير على وجوههم المشدودة، حيث تثير الكاميرا القلق حول مصير العلماء في هذه المياه الخطرة. وشجاعة العلماء في طلب المعرفة تبرز جلية في جلوس الأهالي على حافة المياه وهم لا يعرفون كنوز الاكتشاف التي تثمنها المؤسسة البيضاء بتفوقها عاليًا.

ما "تأثير" مثل هذه الصور الاستعمارية عندما تُعرَض في مدارس شيكاغو العامة ذات الأغلبية السوداء وذوي الأصول الإسبانية؟ ماذا تنقل هذه الأفلام لطلاب الطبقة العاملة حول علاقتهم بالمؤسسة البيضاء وبالعلم؟ إن كل الأفلام تبدأ برسالة من امرأة سوداء فاتحة البشرة تُدعَى بولا بانكس هي نائب رئيس شركة أموكو. إن بانكس وهي محاطة بعلامات محطات بنزين حمراء وبيضاء وزرقاء، قديمة وجديدة، تخص شركة أموكو، تشرح للمشاهدين الصغار أن العلوم يجب ألا يكون تعليميًا فقط وإنما مَرِح ومثير أيضًا. وهذا الفيلم الذي تم توزيعه على طلاب غير بيض في الأساس في مدارس شيكاغو العامة، يقترح أن الاصطفاف مع قوة الشركة للسيطرة على الطبيعة،

كما يفعل العلماء البيض، يأتي من خلال التَبَيُّض whitening. وبعيدًا عن إعطاء أموكو بضعة دقائق للإعلان عن شعارها، فإن هذه المقدمة تؤسس شركة النفط كشركة "متعددة الثقافات"، وتقدم بالتالى وعدًا بتوظيف محتمل للمشاهدين الصغار غير البيض. وما يغيب عن الفيلم هنا هو تلك الحقائق التاريخية التى تقرر أنه على المستوى الداخلى كانت الوظائف فوق مستوى "عامل" محطة خدمات غير متاحة للسود فى وقت استخدام علامات أموكو القديمة، وأنه على المستوى العالمى كان تاريخ استكشاف وإنتاج النفط من جانب الشركات هو تاريخ إمبريالية وإثراء البيض وإخضاع وإفقار السود. وهذا بالطبع غير الدعاوى القضائية الأخيرة ضد عمالقة النفط مثل أموكو وتكساكو وشركات أخرى على التمييز فى الترقيات والمضايقات العنصرية فى العمل، وعلى استغلالها البيئى لأراضى الغابات التى تقطنها الجماعات الأصلية فى الإكوادور وأماكن أخرى(٤٦).

وفضلاً عن ذلك فإن وجود امرأة سوداء فاتحة البشرة يدخل فى طيف عرقى يتجلى فى الأفلام، طيف يعكس الهرمية الجلدية - اللسانية لتفوق البيض. فالعرق يمتد من الأهليين البدائيين سود البشرة فى البهاما، إلى بولا بانكس السوداء فاتحة البشرة، إلى المستكشفين العلميين البيض. والتمثيلات العرقية فى الفيلم تصور السود على أنهم يعملون فى الطبيعة وجزء من الطبيعة، بينما يصور البيض على أنهم يسيطرون على الطبيعة ويُخْضِعونها للدراسة والتدخل. وفرانك تروسدال الأسود ذو البشرة الداكنة، موظف الغابات الفيدرالى، وليس أحد موظفى أموكو، هو العالم الوحيد غير الأبيض فى مجموعة الأفلام، الذى يعمل على البركان نفسه، يكشف عن علاقة رومانسية مع كرة أرضية أنثوية المزاج. وفى ذلك يقول الصوت المصاحب أن "فرانك يعرف بركانه معرفة جيدة جدًا تجعله يركن إلى الراحة" "لقد رأى كل حالاتها المزاجية: الجمال الساكن، والعجائب، والغضب". وعلى خلاف العلماء البيض يبدو تروسدال فى علاقة حميمية مع طبيعة مؤنسنة. "لقد كانت بداية صداقة جميلة بين فرانك والبركان"، هكذا يروى الصوت المصاحب تاريخ تروسدال المهنى. وهذه الألفة

تجعله أقرب إلى الطبيعة ومنخرطًا فيها. ففرانك ليس العالم الذى تراه يشغل الأجهزة التكنولوجية المتقدمة والماكينات والإبر الكبيرة وقضبان القياس التى ترسم آليًا تغييرات زلزالية دقيقة على رسم بيانى. "هذه الماكينات"، يقول الصوت المصاحب، "يمكن أن تسمع نبض قلب البركان". لكنه - أى تروسدال - العالم الذى يخرج إلى الميدان ليستكشف ويعايش الطبيعة مباشرة بقضيب معدنى بدائى يحفر به الحمم وبرميل من الماء لكى يبردها من أجل دراستها. وعمل تروسدال يكشف أن الطبيعة ابتلعته حتى أصبح جزءًا منها، بعيدًا عن التكنولوجيا التى تراقبه دون ملل، فترقب ما يجمعه، وعماله وهم يعالجون مجموعات البيانات التى جمعها التى تُختزَل إلى أرقام على مخطط بيانى.

إن الليبرالية الجديدة تصور عالمًا يخضع لسيطرة الشركات، عالمًا تُهمَش فيه الحقوق البيئية وحقوق الإنسان، وكذلك الديمقراطية، إن لم تُستأصَل بالكامل، فى أثناء السعى وراء القوة والربح والنمو. لكن كيف تصبح هذه الفكرة المخيفة حول المستقبل مقبولة بشكل واسع، بل حتى الإمكان الوحيد المتخيل؟ فى الوقت الراهن تعتبر المدارس الآليات الأيديولوجية التى تُنشَر من خلالها قيم العلاقات الرأسمالية الدولية. وكما ينبه هنرى جيرو فإنه "فى هذا السيناريو يتم الاستعاضة عن التعليم العام بالمطالبة بمؤسسات تعليمية ذات تمويل خاص، أو شراكات المدارس - الشركات التى يمكن أن تتجاهل الحقوق المدنية، وتقصى الطلاب المحرومين طبقيًا وعرقيًا، وتعمى الخطوط الفاصلة بين الدين والدولة"(٤٧). معنى ذلك أن الطلاب يتعلمون أن يروا مصالحهم متوافقة مع مصالح رأس المال العالمى، خاصة فى تلك الأماكن التى تكون مجموعتى المصالح هاتين متعارضة فيها تمامًا. وعوضًا عن ذلك، لا بد للمدارس أن تصبح أماكن يتعلم فيها الطلاب أن يعيدوا التفاوض حول علاقاتهم مع الأيديولوجيات التى ترعاها الشركات، وأن يصوغوا إمكانات لفاعلية سياسية معارضة.

إن مناهج أموكو والشركات الأخرى، وهى تواصل تحويل التمدرس إلى ميدان دعاية لمصالحها التدميرية، يتمثل أحد الحلول فى أن نوقف استخدام هذه المناهج

تماماً. وثمة حل آخر يتمثل فى تزويد المعلمين بالمصادر لبحث أجندات الشركات التى تمول وتوزع هذه المنتجات فى المدارس العامة والمتاحف بحيث تنقلب الوظائف الأيديولوجية للمناهج على أصحابها، وبحيث تنكشف الأجندات العالمية للشركات فى المناهج. وبهذه الطريقة يمكن للطلاب أن يتبينوا كيف تختلف مصالحهم ورؤاهم للعالم فعلياً عن الطريقة التى تُبنى بها مصالحهم ورؤاهم للعالم فى المناهج. وعلى أية حال، ففى وجه الفصول المزدحمة، والبيروقراطية المتزايدة لمهام المعلمين والأعمال الكتابية، وتقليص الدعم العام والأجهزة والبرامج والبنية التحتية فى المدارس، على سبيل المثال لا الحصر، لا يزال المعلمون ميالين أو حتى منكبين على استخدام لقطات الإعداد الموجزة التى توفرها مناهج الشركات مجاناً. والأفعال العامة مثل الاحتجاجات ضد منظمة التجارة العالمية والبنك الدولى وصندوق النقد الدولى فى سياتل وواشنطن تكشف حقائق مهمة حول عمل الشركات ضد المصلحة العامة، ودورها القوى فى تأبيد انتهاكات حقوق الإنسان والإساءات إلى البيئة، وخلق ظروف استغلال العمل الرخيص فى الخارج من خلال تدمير البنى التحتية الاقتصادية الداعمة للبيئة فى الدول الفقيرة، وإضعاف مؤسسات الديمقراطية على المستوى العالمى، مع سيطرة رأس المال على الحكم المدنى. وهذا النوع من تربية الجمهور المناهضة للهيمنة يعمل كنقيض للعالم دائم السعادة الكامن فى مباهج المعرفة البحتة التى تعد بها أموكو ومونسانتو، ويمثل نقطة انطلاق على الطريق الصعب لمساءلة الشركات عن جرائمها ضد الطبيعة والإنسانية. على أن مجرد تعليم الطلاب أن يقرءوا نقدياً لا يمكنه أن يواجه تبنى المصالح الرأسمالية العالمية فى المناهج المدرسية. فإضافة إلى ذلك، لا بد من إحياء المدرسة كقوة عامة تقف أمام المصالح الخاصة. وكما فى حالة جنوب أفريقيا، فى السبعينات، لا بد من ربط المدارس بساحات النضال الأخرى التى كانت تكافح من أجل القيم الديمقراطية والتحرر الإنسانى، وأيضاً بتلك القوى الشعبية التى تُنتِج الآن سيناريوهات مضادة لكذبة الإشباع المنزه عن المصالح فى الحيز العام الخاضع لسيطرة الشركات.

الهوامش

(1) BP Educational Services, available at www.bpes.com/default.asp.

(2) Al Ries and Laura Ries, "The 22 Immutable Laws of Branding," Harper Business (1999).

(٣) على سبيل المثال يقول إعلان تايم/ورنر الأسبوعى فى مجلة تايم للقراء أنهم يجب أن يهتموا بش أساسى بأرباح وول ستريت من خصخصة المدارس العامة، بدلاً من ذكر نتائج ذلك على الديمقراطية بتحويل المؤسسات ذات التمويل العام إلى مؤسسات يستغلها قطاع الشركات. من أجل مناقشة شاملة للأخطار التى تتهدد الديمقراطية بسبب خصخصة المدارس العامة انظر: Time (March 20, 2000), 56-57; Kenneth J. Saltman, Collateral Damage:Corporatizing Public Schools_A Threat to Democracy (Lanham, Md. and Boulder,Colo.: Rowman & Littlefield, 2000. See also, Henry A. Giroux, Stealing Innocence:Youth, Corporate Power and the Politics of Culture (New York: St. Martin's Press,2000) and Alex Molnar, Giving Kids the Business (Boulder, CO: Westview, 1996).

(٤) من أجل مناقشة للاستخدام السياسى لبراءة الطفولة انظر: Henry A. Giroux, The Mouse that Roared: Disney and the End of Innocence (Lanham, Md. And Boulder, Colo.: Rowman & Littlefield, 1999).

(٥) من أجل تحليل ممتاز لهذه الظاهرة فيما يتعلق بالخصخصة الأوسع للقطاع العام والإعلام الجماهيرى انظر: Robert McChesney, Rich Media, Poor Democracy (Urbana: University of Illinois Press, 1999). David Cromwell ("Oil Propaganda Wars," Z Magazine (March 2000): 7-8.

(6) Justin Delacour, "Human Rigths and Military Aid for Colombia: With 'Friends' Like the Senate Democrats, Who Needs Enemies?", available at www.lbbs.org/ZNETTOPnoanimation.html.

(7) Edward Herman and Cecilia Zarate-Laun, "Globalization and Instability: The Case of Colombia," Z-Net, available ww.lbbs.org/ZNETPOProanimation.html.

(8) Ibid.

(9) Marc Cooper, "Plan Colombia: Wrong Issue, Wrong Enemy, Wrong Country," The Nation (March 19, 2001): 14.

(١٠) من أجل شرح ممتاز لتوسع الجيوش الخاصة واستخدامها من جانب الشركات متعددة الجنسيات، انظر: Ken Silverstein's Private Warriors (New York: Verso, 2001).

(١١) من أجل تاريخ معمق للمساعدة التى قدمتها الجهود الأمريكية لاستئصال المخدرات فى المنطقة فى تعزيز عمليات ومؤسسات الاستخبارات فى أمريكا الجنوبية والوسطى التى أسست التعذيب والفساد بشكل دورى انظر: Peter Dale Scott and Jonathan Marshall, Cocaine Politics: Drugs, Armies, and the CIA in Central America, 2nd ed. (Berkeley, Los Angeles, London: University of California Press, 1991, 1998). يستشهد المؤلفان هنا، كمثال، بجهاز الاستخبارات الوطنى البيروفى SIN الذى أنشأته وكالة المخابرات المركزية ودربت عملائه. ترأس هذا الجهاز فلاديميرو مونتيكينوس Vldimiro Montecinos سيئ السمعة الآن الذى كُشف النقاب مؤخراً عن كونه الشبح الإرهابى وراء معظم الفساد فى نظام ألبيرتو فوجيموري. ورغم أن قبول مونتيكينوس للرشاوى أصبح علامة على انحطاطه الأخلاقى فى مشهد فضحته الصحافة الدولية فى عام ٢٠٠٠، ودفْعه لاستقالة فوجيمورى بالفاكس من اليابان، فإن نفس النوع من الغضب لم يوجَه نحو ما وثقه سكوت ومارشال بوصفها روابط لا مجال للتشكيك فيها بين مونتيكينوس واحتكارات المخدرات فى كولومبيا وأماكن أخرى (ص x-xi).

(12) (Marc Cooper, "Plan Colombia," 14.

(13) As cited in Marc Cooper, "Plan Colombia," 16.

(14) Cecilia Zarate-Laun, "Introduction to the Putumayo: The U.S.-assisted war inColombia," Z-Net (February 2001, available at www.lbbs.org/ZMag/articles/feb011aun.htm.

(15) Carla Anne Robbins, "How Bogota Wooed Washington to Open New War on Cocaine," Wall Street Journal June 23, 2000, 1: A12. وما لم يُذكر هنا هو نسبة الأصول الكبيرة الخاضعة للضريبة الآن التى ترتبط بتجارة المخدرات.

(16) Thomas Freidman, The Lexus and the Olive Tree (New York: Farrar Straus Giroux, 1999), 309.

(١٧) التقى راوول رييز Raul Reyes قائد القوات المسلحة الثورية الكولومبية مع ريتشارد جراسو Richard Grasso رئيس بورصة نيويورك الذى شرح لقائد الميليشيا كيف تعمل الأسواق. وعندما تعانق

الرجلان فى هذه المنطقة الخاضعة لسيطرة الميليشيا، قال جراسو لريز أن كولومبيا سوف تستفيد من زيادة الاستثمار الأجنبي، وأنه يتمنى أن يكون هذا اللقاء بداية لعلاقات جديدة بين الميليشيا والولايات المتحدة.
نقلاً عن: Peter McLaren, Che Guevara, Paulo Freire, and the Pedagogy of Revolution (Lanham, Md. and Boulder, Colo.: Rowman 8c Littlefield, 2000), 70.

(18) Delacour, Human Rights and Military Aid,"

(19) Ibid.

(20) Zarate-Laun, "Introduction to the Putumayo.

(21) Cecilia Zarate-Laun, "Crossroads of War and Biodiversity: CIA, Cocaine, and Death Squads" by the Eco-Solidarity Working Group in Covert Action Quarterly (Fall-Winter, 1999): 16-17.

(22) Andrew Ross, "The Mental Labor Problem," Social Text 63 (Summer 2000): 1-31.

(٢٣) لم تكن هذه المرة الأولى التى يُلوّث فيها هذا النهر من جانب الصناعات ذات العلاقة بالنفط. فهناك تاريخ طويل لهذا التلوث. "لقد احتفظ أصحاب الأعمال المعادين لاتحادات العمال، كما يمثلهم هنرى فورد، بقوات أمن خاصة بهم لإفساد إضرابات العمال. من ذلك أنه فى أثناء مسيرة الجائعين من جانب العمال العاطلين بقيادة الشيوعيين فى مارس ١٩٣٢ قتل رجال فورد بالرصاص أربعة عمال على أبواب مجمع ريفير روج الضخم. وبعد أن حضر أكثر من سبعين ألف متعاطف موكب الجنازة، رد فورد وأصحاب الأعمال الآخرون بتطهير آلاف من الراديكاليين المشتبه بهم من مصانعهم وإدراجهم فى القوائم السوداء." William M. Adler, Molly's Job: A Story of Life and Work on the Global Assembly Line (New York: Scribner, 2000), 104-105.

(24) Steve Pardo, "River Rouge Fears Explosion: City Sues BP/Amoco in Effort to Clean Up Sewers and Avoid Repeat of 1988 Blast," Detroit News (November 30, 1999): D3.

(25) Ibid.

(26) Ibid.

(27) Alex Molnar, Giving Kids the Business: The Commercialization of America's School (Boulder, Colo: Westview, 1996), 30-31.

(28) David Cromwell, "Oil Propaganda Wars," Z Magazine (March 2000): 8.

(٢٩) Martin S. Fridson, How to Be a Billionaire: Proven Strategies from the Titans of Wealth (New York: John Wiley & Sons, 2000), 148-50.
مذكرات الاستدعاء أمام القضاء

والغرامات على مضايقة المنافسين وتثبيت الأسعار لازمت إدارة النفايات أثناء فترة نموها المدهشة ... [حقق المحققون كثيرًا مع إدارة النفايات بسبب ما تكشف سابقًا عن سيطرة الجريمة المنظمة على نقل النفايات التجارى فى جنوب نيويورك وشمال نيو جيرسى ... وليست إستراتيجيات هيوزنجا المشروعاتية فحسب وإنما أيضًا ممارساته المالية أثارت كثيرًا من النقد. وقد اعترض المراقبون على الأسعار التى دفعها فى عمليات شراء معينة دافعين بأنها تجاوزت معايير الصناعة ... وكان على هيوزنجا أيضًا أن يواجه الاتهام بأن الشركات التى كونها عن طريق الضم لم تربح كثيرًا بعد أن ترك هو المشهد ... وأخيرًا انتقد النقاد ممارسة هيوزنجا لشراء الشركات من أجل مخزونها".

(30) Noam Chomsky, "Breaking Free: The Transformative Power of Critical Pedagogy," edited by Pepi Leistyna and Stephen Sherblom, Harvard Educational Review (1996): 111.

(31) Margaret Atwell, In the Middle: New Understandings about Writing, Reading, and Learning (Portsmouth, N.H.: Heinemann, 1998), 35.

32. Ibid., 52.

33. Ibid., 69.

34. Paulo Freire, Pedagogy of the Oppressed, trans. Myra Bergman Ramos (New York: Continuum, 1970, 1993), 53.

(٣٥) أموكو ليست الشركة الأولى التى تنتحل طرق التدريس التقدمية بطريقة تستبعد التحويل الاجتماعى النقدى بوصفه الغاية الأساسية. فمدرسة المشاهير التابعة لديزنى تضرب المثل أيضًا على هذا الإفساد. انظر: Giroux, The Mouse that Roared. As Donald Lazere has argued, Donald Lazere, "Spellmeyer's Naive Populism," CCC48 (May 1997): 291.

(36) Nancy Beiles, "What Monsanto Knew," The Nation (May 20, 2000): 18-22.

(٣٧) مونسانتو هى الراعى الرئيسى لهذا المعرض إلى جانب رعاة آخرين منهم: ConAgra Foundation, National Science Foundation, the Fort James Foundation, Chicago Park District, Abbott Laboratories, Pfizer Foundation, Prince Charitable Trusts, Service/Master Company, Marion S. Searle/Searle Family Trust, and the Chicago Board of Trade Foundation.

(٣٨) "البيفينيل متعدد الكلورات PCB مادة كيماوية دائمة تتكون فى البيئة. لذا لا يجب أن يسمح لها بالإفلات (Beiles, "What Monsanto Knew," 19).

(39) William Greider, One World, Ready or Not: The Manic Logic of Global Capitalism (New York: Touchstone, 1997), 455.

(40) Ibid., 456.

(41) William Greider, "The Last Farm Crisis," The Nation (November 20, 2000): 15.

(42) Beiles, "What Monsanto Knew," 19-20.

(43) Donna J. Haraway, odest-Witness@Second-Millennium.FemaleMan_Meeets_OncoMouse: Feminism and Technsoscience (New York and London: Routledge, 1997), 65-66.

(44) David Harvey, Justice, Nature and the Geography of Difference (Maiden, Mass, and Oxford, Eng.: Blackwell, 1996), 155.

(45) Michael Taussig, Shamanism, Colonialism, and the Wild Man: A Study in Terror and Healing (Chicago and London: University of Chicago Press, 1987), 298.

(46) Eyal Press, "Texaco on Trial," The Nation (May 31, 1999): 11-16.

(47) Henry A. Giroux, "Cultural Studies and the Culture of Politics: Beyond Polemics and Cynicism" (forthcoming).

الفصل الثالث

التربية فرض

مركزية التمدرس الإلزامي في مجتمعات السوق

ديفيد غابار(*)

لقد نظرت أنا وسولتمان إلى هذا الكتاب بما فيه من إسهامات متنوعة باعتباره جهدًا لإلقاء الضوء على المبادرات الحديثة داخل وحول المدارس لفرض الطاعة على الناس لتصورات الشركات والولاء للدولة. وكما يتضح في دعوة جورج بوش بعد ١١ سبتمبر إلى العودة إلى الحالة العادية، فإن المستفيدين والمدافعين الرئيسيين عن مجتمعات السوق يضخمون هذين الهدفين. فأن تكون مواطنًا جيدًا، كما أخبرنا بوش، يعني أن تكون مستهلكًا جيدًا، أي أن نستثمر طاقاتنا في إنتاج واستهلاك السلع والخدمات من السوق "من أجل صالح دولتنا".

قدم المؤلفون الآخرون المشاركون في هذا الكتاب جهدًا رائعًا من خلال توثيق بعض أهم الجهود الرامية إلى تقوية دور المدرسة في خدمة هذه الرؤية الشركاتية للمواطنة. كما وثق بعض المشاركين حالات لجأت فيها الدولة إلى إجراءات عسكرية

(*) ديفيد غابارد David A. Gabbard أستاذ المناهج وطرق التدريس بمدرسة التربية بجامعة شرق كارولينا. من مؤلفاته: Silencing Ivan Illich: A Foucauldian Analysis of Intellectual Exclusion (Austin & Winfield, 1993). كما حرر كتاب Knowledge and Power in the Global Economy: Politics and the Rhetoric of School Reform (Lawrence Erlbaum, 2000).

أكثر انكشافًا للتعامل مع تلك القطاعات من المجتمع المعرضة أكثر من غيرها للفشل فى التدريب على المواطنة، وهم أولئك الذين يرفضون أو يفشلون فى إدراك أن المدرسة هى المسار الشرعى الوحيد إلى الخلاص الدنيوى الذى يجدونه فقط فى السوق. لكننى أرى، مع ذلك، أننا لا يجب أن ننظر إلى الإخضاع للشركات والعسكرة بحسبانهما خاصيتين حديثتين للتعليم. فأنا أرى أن تعبير سولتمان "التربية كفرض"[1] يمثل شيئًا أكبر من مجرد مجاز ملائم للإمساك بهذه الفترة الأخيرة من الإصلاح التعليمى. فمقولة "التربية كفرض"(*) تقدم وصفًا حرفيًا ملائمًا لدور التمدرس الإلزامى فى مجتمعات السوق. فالدولة القومية الحديثة كانت دومًا تعتبر فرض مجتمع السوق مهمتها الأساسية. وعبر تاريخه، قدم التمدرس الإلزامى للدولة طقسًا حيويًا لفرض السوق باعتباره النمط الوحيد الجائز للتنظيم الاجتماعى. علاوة على ذلك، وبدلاً من النظر إلى التعليم كما لو كان فرضًا (أى مجازيًا)، فإننى أؤكد أن التعليم فرض Edu-cation IS Enforcement بالفعل.

وقبل أن أتقدم أبعد من ذلك، لا بد أن أؤكد أننى أدرك أن بعض المعلمين والطلاب يقاومون دومًا أنماط الفرض العامة التى تحيط بهم. وعلينا أن نشجع وندعم هذه الممارسات ونعترف بالمخاطر التى تنتج عن المقاومة والرفض.

السوق والدولة وجذور الفرض

إن مجتمعات السوق، ومنها مجتمعنا، كما يعرفها كارل بولانى، تختلف عن المجتمعات التقليدية فى جانب رئيسى واحد: أن المجتمعات التقليدية تطمر أنشطتها الاقتصادية فى علاقاتها الاجتماعية[2]. ودون إضفاء مسحة رومانسية على هذه

(*) "التربية كفرض" هى العنوان الرئيسى الأصلى للكتاب، كما وردت الإشارة إلى ذلك فى تقديم المترجم [المترجم].

المجتمعات، يصف بولانى كيف أن انشغال هذه المجتمعات بالرفاه العام للأعضاء الفرديين الآخرين فى الجماعة، جنبًا إلى جنب مع الحفاظ على أنماط التنظيم الاجتماعى المقررة ثقافيًا، يضع قيودًا حاسمة على تحول الاهتمامات الاقتصادية إلى قوة مهيمنة فى حياة الأفراد تقود أفكارهم وسلوكهم. والتوجه التَعَيّشى(*) للثقافات التقليدية يقودها إلى أن تأخذ من الطبيعة فقط ما تحتاجه الجماعة لبقائها الجماعى. ومن خلال تفنيد الزعم المنتشر بأن الميل نحو "المقايضة ودفع الأجر فى شكل سلع" barter and truck يمثل ثابتًا عابرًا للثقافات، يقدم بولانى أدلة أنثروبولوجية توضح أن التجارة مع الجماعات المجاورة كانت محدودة ونادرة. ويقدم بولانى أدلة مماثلة لإبراز حقيقة أن الأفراد فى المجتمعات التقليدية كانوا يكتسبون المكانة مما يسهمون به فى الجهد الجماعى. ومن هنا فقد كانت هذه المجتمعات تكافئ على الكرم. ولا تعلم أفرادها أبدًا أن يساووا بين المكانة الاجتماعية والكسب الاقتصادى للفرد أو القدرة على الكسب.

أما فى مجتمعات السوق، وكما يجادل بولانى، فإن الموقف معكوس. فبدلاً من طمر الاقتصاد فى العلاقات الاجتماعية، تقوم مجتمعات السوق بطمر العلاقات الاجتماعية فى الاقتصاد. فالكسب الفردى هو الذى يدفع النشاط الإنتاجى، وليس ما يسهم به النشاط الإنتاجى فى رفاه الجماعة. والأفراد يستمدون مكانتهم من مقدار الكسب الذى يحصلون عليه من نشاط السوق، وليس مما يسهمون به فى رفاه

(*) اقتصاد التَعَيّش subsistence هو ذلك النظام الاقتصادى الذى لا تحاول فيه الجماعة أن تنتج إلا بما يكفى استهلاكها وبقائها فى فترة معينة، فلا تسعى إلى مراكمة الثروة أو نقل الإنتاج من فترة إلى أخرى. وهى بذلك لا تعترف بمفهوم الثروة، وتعتمد على التجدد وإعادة الإنتاج فى البيئة الطبيعية. وقد كان هذا الاقتصاد هو السائد قبل اختراع النقود، ولا يزال سائداً فى بعض الجماعات المنعزلة إلى اليوم. وهناك أيضًا اقتصاد التقوت foraging وهو طريقة التعيش التى كانت ولا تزال سائدة فى مجتمعات الصيد والجمع، وتقوم على الحصول على الحيوانات والنباتات الصالحة للأكل من البرية عن طريق الصيد والالتقاط، دون اللجوء إلى تربية الحيوان أو الزراعة. على أن الحدود الفاصلة بين اقتصاد التعيش والتقوت والاقتصادات التى تعتمد على الزراعة وتربية الحيوان ليست قاطعة [المترجم].

الآخرين. والحرص على الكسب، حتى عندما يجرى باسم إعالة الأسرة، يضع روابط الصداقة والقرابة تحت ضغط مهول. وعلى حد وصف جوليت شور، فى كتابها "الأمريكى المثقل بالعمل"[٣]، فحتى فى عصر التكنولوجيا التى تقلل الحاجة إلى العمالة، يعمل أعضاء مجتمعات السوق ساعات أطول من ذى قبل، وذلك على حساب إهمال الروابط الأسرية والمجتمعية.

غير أن مركزية التمدرس الإلزامى فى فرض مجتمع السوق لا تتجلى لنا بشكل فورى. ولكى نساعد أنفسنا فى تقدير هذه المركزية، لا بد أن نعود إلى دراسة اللاهوت. لأننا فى تاريخ الكنيسة المسيحية، كما يشير إيفان إيلتش، نعثر على جذور كثير من الأفكار التى ساعدت الدولة القومية الحديثة فى تطوير آليات الفرض[٤]. فأولاً فى إطار اللاهوت يوجد مجال دراسة يُعرَف باسم علم الكنيسة ecclesiology، يصفه إليتش بأنه أصل علم الاجتماع[٥]. يهتم هذا العلم بجذور وتطور وبناء الجماعة التى تُسمَى الكنيسة. ومن حيث تعريفه الحرفى، يدرس علم الكنيسة دمج الأفراد فى كيان واحد، أى جماعة موحدة بدرجة ما. وهذه الجماعة تضم أعضاء أكثر بكثير من رجال الدين وغيرهم من موظفى الكنيسة. وفى شكلها المثالى، تكون هذه الجماعة "كاثوليكية". وهذه النزعة المثالية تُعَرِف رسالتها أيضًا. فالكنيسة تسعى إلى دمج الجميع فى جماعتها.

وثانيًا يشتمل علم الكنيسة على مجالات تخصص أكاديمى، يرتبط منها باهتمامنا هنا مجال الطقوس liturgy الذى يتطلب دراسة كيف تستخدم الكنيسة سلسلة متعددة من الطقوس لتطبيع الناس على الاعتراف بمكانتهم كأعضاء فى الكنيسة والحكم على هذه المكانة. ويدرس هذا المجال تكوين ما نسميه الضمير، تلك المحكمة الداخلية التى يقاضى الأفراد أمامها أنفسهم وحالتهم كأعضاء فى الكنيسة كما تتحدد بدرجة التزامهم المحسوسة بقواعد وقوانين الكنيسة. وعلم الكنيسة والطقوس معًا يدرسان الطريقة التى من خلالها توسع الكنيسة حجم جماعتها عن طريق كسب الالتزام من خلال الضمير، وبالتالى دون أن تكشف للناس مدى كون التزامهم إلزاميًا نتيجة

للمكانة القانونية للقواعد التى تُفْرَض سراً من خلال الطقوس التى تُطلَب مشاركتهم فيها. ومع أن التاريخ يزخر بأمثلة لجأت فيها الكنيسة، بالاتفاق مع كيانات الدولة التى تواطأت معها، إلى العسكرة والعنف الصريحين لزيادة عضويتها وقوتها، فإن هذه الأساليب كانت فحسب الملاذ الأخير. فالفرض الصريح يُقابَل عادة بمقاومة قوية واستياء كبير من جانب ضحاياه. وقد فهمت الكنيسة أن ردود الفعل من هذا النوع تضر بهدف الإذعان. فالضمير لم يثبت فحسب أنه أكثر فعالية فى كسب الإذعان، بل مَكَن أيضًا من إذعان أكثر صلابة وتحمسًا.

ومن أجل تكوين وممارسة الضمير، كان على الكنيسة أن تقدم للعالم صورة خيرية لنفسها، صورة تُعَرِف رسالتها المؤسسية على أنها ضرورة أخلاقية عمومية تولت الكنيسة مسئولية خدمتها. لكن الكنيسة لا يمكن لها أن تصوغ مثل هذه الضرورة الأخلاقية دون أن تنظر أولاً إلى أولئك الذين تسعى إلى دمجهم فى جماعتها على أنهم يفتقدون إلى سمة يمكن فقط أن يكتسبونها من خلال هذا الدمج. وقد وفرت "عقيدة الخطيئة الأصلية" للكنيسة هذه الضرورة الأخلاقية التى تحتاجها. ووفقًا لهذه العقيدة فإن جميع البشر يولدون ناقصين بالفطرة. إنهم يفتقدون إلى النعمة. ومن دون النعمة لا يمكنهم أن يحققوا الخلاص الأبدى، وإلا فسوف يعانون من اللعنة الأبدية.

لكن الكنيسة لم تدعى أنها قادرة على إمداد الناس بالنعمة ذاتها، وإنما فحسب الوسائل اللازمة لتحقيقها. والناس يمكنهم أن يكتسبوا تلك الوسائل فقط من خلال دمجهم فى الكنيسة ومن خلال مشاركتهم التالية فى طقوسها. فمن خلال مشاركتهم الإرادية فى هذه الطقوس، يتعلم الناس كيف يعيشون حياتهم مذعنين لكلام الله. وذلك هو السبيل، والسبيل الوحيد للنعمة والخلاص. وكلام الله كان دائمًا يُفَسَر ويُرَشَح من جانب الكنيسة، بل وقد تحول بالفعل إلى قانون كنسى عندما حاولت الكنيسة أن تقيم مملكة السماء هنا على الأرض. ومن هنا فإن الإذعان لكلام الله كان يعنى فى الواقع الإذعان لقانون الكنيسة. وكثير من طقوس الكنيسة، ومنها على وجه الخصوص

فريضة الاعتراف السنوى، كانت تسعى إلى أن تعلم الناس كيف يقاضوا أنفسهم وموقعهم على التقدم نحو النعمة من حيث درجة إذعانهم لهذا القانون. وقد كان ذلك هو ميلاد الضمير الذى سيكون فيما بعد أساسيًا للدولة القومية الحديثة فى تنمية فكرة المواطنة.

فى مقابل هذه الخلفية يمكننا بالفعل أن نخرج ببعض النظرات حول طرق استخدام الدولة للتمدرس الإلزامى كطقس لفرض مجتمع السوق. إن علم الكنيسة يقودنا إلى أن نعرف أولاً مَنْ الذين تكون الدولة مسئولة عنهم. وفى هذا الخصوص تقدم لغة العولمة أقصر الطرق إلى الإجابة. أنها مسئولة عن الجميع، تمامًا كما كانت الكنيسة مسئولة عن كل شيء كاثوليكى. ففى دورها الذى طالبت به لنفسها المتمثل فى توسيع وحماية الأسواق، تسعى الدولة إلى الإتيان بكل البشر الأحياء إلى حظيرة مجتمع السوق العالمى. وقبل وقت طويل من إمكانية النظر إلى مجتمع السوق من منظور عالمى، كان على الدول القومية الحديثة فى غرب وشمال أوروبا أن تهتم أولاً بإدخال سكانها المحليين فى هذه الحظيرة. و"حركة تسييج الأراضى(*)" التى بدأت فى انجلترا فى القرن السادس عشر، ووجدت طريقها بعد ذلك إلى دول أوروبية غربية وشمالية أخرى، مع أنها نادرًا ما تُدْرَس على هذا النحو، يجب النظر إليها بوصفها لحظة تجميع فى الانتشار التاريخى للعولمة. فقد حولت هذه الحركة الأرض، التى كانت قبل ذلك مشاعًا بين المزارعين الفلاحين لتوفير رزق الجماعات المحلية، إلى ملكية لإنتاج السلع لكى تُباع وتُشتَرى فى الأسواق. وهنا توقف النظر إلى الغذاء باعتباره مصدر قوت يُزرَع ويُحصَد جماعيًا، وأصبح الغذاء قيمة اقتصادية تُنتَج عن طريق العمال

(*) حركة تسييج الأراضى العامة enclosure movement عملية حدثت فى إنجلترا على مدى قرن امتد من أواخر القرن الخامس عشر إلى أواخر القرن السادس عشر، وفيها قامت الحكومات البريطانية المتعاقبة بتطويق الأراضى العامة وتحويلها إلى مراعى أغنام والتخلص من القرويين الحائزين لها ونقل ملكية الأراضى المشاع إلى كبار الملاك. وهى بذلك تعد عملية خصخصة مبكرة من جانب الدولة. وبعد ذلك امتدت إلى غالبية الدول الأوروبية [المترجم].

المأجورين بغرض الربح لملاك الأرض. لكن هذه الطبقة الجديدة من ملاك الأرض كان بإمكانها فقط أن تستأجر عدداً محدوداً من العمال. لكن بعد أن أصبحت الأرض تنتج كميات ضخمة من محصول نقدى واحد، وليس أنواع متنوعة من المحاصيل الغذائية، فلم تعد الأرض قادرة على إعالة نفس العدد من الناس الذين كانت تعولهم فى السابق. ولذلك تم دفع كثير من الناس من الأرض إلى المدن المتنامية التى كانت تمر بالمراحل الأولى للتصنيع. وقد وجد كثير من هؤلاء الناس أنفسهم معوزين، وانتهى بهم الحال فى الغالب إلى إصلاحيات أو بيوت فقيرة، بل والسجون فى حالات كثيرة. بينما هاجر آخرون إلى مستعمرات ما وراء البحار، إلى الأمريكتين وغيرهما.

والدولة لم تساعد فحسب من خلال إضفائها الشرعية على هذه النقلة، وإنما أيضًا استخدمت قواتها العسكرية فى إخماد كثير من ثورات الفلاحين، خاصة فى انجلترا وألمانيا. ومع أن ذلك أبعد من مدى تناول هذا الفصل، فإن قصة قضاء السوق على المجتمعات التقليدية فى أوروبا تمثل كتاباً لم يُكتَب بعد حول شريعة التعددية الثقافية. فأولاً فى أوربا، وبعد ذلك فى كل مكان على وجه الأرض، كانت الدولة القومية الحديثة تسعى دومًا إلى فرض مجتمع السوق باعتباره الشكل الشرعى الوحيد للتنظيم الاجتماعى. وأى نمط آخر للتنظيم الاجتماعى يمثل تهديداً، وبالتالى يجب القضاء عليه.

وكما صاغت الكنيسة طقوساً لضمان الإذعان، كان على الدولة القومية الحديثة أن تبحث عن وسائلها الطقوسية لدمج الناس إرادياً فى الإذعان لقواعد وقوانين مجتمع السوق. والدولة أيضًا تحتاج إلى ضرورة أخلاقية لدمج الأفراد فى مراتب المواطنين. وفى حين قدمت عقيدة "الخطيئة الأصلية" للكنيسة هذه الضرورة الأخلاقية، قدم هذه الضرورة للدولة أحد القوانين الأساسية جداً للسوق: قانون الندرة. وقانون الندرة يُعَرِف الحالة الإنسانية والحالات الاجتماعية فى كل مكان. فمن خلال تطبيقه على الحالة الإنسانية، يقول قانون الندرة أن الحاجات البشرية كثيرة (إن لم تكن لا تحصى)، فى حين أن وسائل البشر لإشباعها نادرة. والسوق فقط يمكنه أن يوفر هذه

الوسائل، وسائل تحقيق الخلاص الدنيوى، الذى يُعَرَف بأنه إشباع الحاجات. لكن من أجل الوصول إلى هذه الوسائل من خلال المشاركة فى السوق، لا بد أن يمتلك المرء شيئًا ذا قيمة لكى يبادل به فى السوق. إذ يجب على المرء أن يمتلك شيئًا ما يشبه النعمة التى يبحث عنها جمهور الكنيسة. ومكافئ السوق للنعمة هو قيمة الاستخدام use-value.

لقد علمت عقيدة الخطيئة الأصلية الناس أن يفهموا أنهم ولدوا من دون نعمة، وأنهم من دون نعمة لن يحققوا الخلاص الأبدى. وقانون الندرة يعلم الناس أن يفهموا أنفسهم على أنهم ولدوا بدون قيمة استخدام، ومن دون قيمة استخدام لا يكون لدى أحدهم ما يبادل به فى السوق. وبالتالى لا يكون لديه وسائل لإشباع حاجاته أو تحقيق خلاصه فى العالم الدنيوى لمجتمع السوق. فالإنسان فى حالته الخام، مثل أى مورد آخر، لا يملك قيمة استخدام. وأيضًا مثل أى مورد آخر يمكن أن يخضع لعمليات تُصمَم لكى تجعله مفيداً. ومجدداً فإن الوسائل التى تنمى قيمة الاستخدام الخاصة بالإنسان نادرة هى الأخرى.

ومثاليًا، وعلى اعتبار الطابع الطوباوى لأصولية السوق التى تعتبر السوق مصدر إشباع كل حاجات واحتياجات الإنسان، فإن وسائل تنمية قيمة الاستخدام الخاصة بهذا الإنسان هى الأخرى لا بد أن يقدمها السوق نفسه. ومن سوء الحظ أن الأيديولوجيا الأصولية للسوق مليئة بالتناقضات. فلكى تتابع تنمية قيمة الاستخدام الخاصة بك فى السوق يجب عليك أولاً أن تكون لديك قيمة استخدام لتبادل بها فى السوق، لكى تدفع ثمن الخدمات التى من خلالها يمكن تنمية قيم الاستخدام الخاصة بك. وفى مجتمع السوق المثالى، ذلك المجتمع الخالى من أى جهاز دولة رسمى أو تنظيمى، فإن أولئك الذين يتحملون أو يتحمل آبائهم ثمن تلك الخدمات يمكنهم هم فقط الوصول إلى هذه الوسائل المحددة. ولأن السوق لم يكن بمقدوره أن ينفق على قوة عسكرية خاصة به لفرض الشروط التى أراد أن يفرضها طوال تاريخه، أولاً فى أوروبا وبعد ذلك فى مختلف أرجاء الأرض، فقد استلزم هذا الموقف تدخل الدولة. فأى

شيء لا يستطيع السوق أن يوفره لنفسه تقوم الدولة بتوفيره له. وما طالب به السوق، فى هذه الحالة المحددة، كان طقساً يمكن توظيفه فى دمج الأفراد فى مجتمع السوق، ويقدم - أى الطقس - لهم الوسائل لصقل قيمة الاستخدام الخاصة بهم، بحيث يمكنهم أن يجدوا خلاصهم الفردى فى السوق فى نفس الوقت الذى يسهمون فيه فى الخلاص الأوسع الذى يمنحه السوق للمجتمع ككل. والدولة من جانبها وفرت هذا الطقس بالطبع فى شكل التمدرس الإلزامى.

تَعلُّم الاحتياج إلى المدرسة

أنا لا أقول أن جميع الأفراد احتضنوا هذا الطقس من اللحظة التى بدأت فيها الدولة فى تشريع قوانين التمدرس الإلزامى. فالتاريخ ينقض دائمًا هذه الدرجة من الحتمية. فقد كانت هناك مقاومة لقوانين التمدرس الإلزامى. فخلق أية مؤسسة جديدة ينتج مشكلة فى الشرعية، خاصة عندما تضع الدولة قوانين تفرض على كل الأعضاء المستقبليين أن يمروا بـ"المعالجة" التى تقدمها. لكن مع تطور مجتمع السوق بداية من القرن التاسع عشر إلى اليوم، أصبحت الارتباطات بين التمدرس الإلزامى والقانون أقل وضوحًا، وهو ما ساعد فى تقوية فعالية التمدرس الإلزامى كطقس لفرض السوق.

ثمة خاصيتان رئيسيتان لتطور مجتمع السوق أسهمتا بقوة فى الفعالية المتنامية للتمدرس باعتباره طقس فرض. أولاً، ولعله الأوضح بين الاثنين، بدأ السوق فى طلب أوراق الاعتماد التعليمى (الشهادات والدرجات باعتبارها أدلة على درجة نمو قيمة الاستخدام الخاصة بالأفراد) كشرط مسبق للتوظيف. وبقدر ما أصبح السوق وسيلة الناس الوحيدة لإشباع حاجاتهم واحتياجاتهم، بقدر ما تؤدى متطلبات التوظيف الرسمية إلى إخفاء وحجب قوانين التمدرس الإلزامى. فنتيجة لأن السوق نفسه بدأ يطلب المشاركة فى طقس التمدرس الإلزامى كشرط للتوظيف، أصبح الارتباط بين

الطبيعة الإلزامية للتمدرس والدولة والقانون أقل وضوحًا. ونتيجة لذلك أصبح من الممكن النظر إلى التعليم ليس على أنه مؤسسة تفرض الدولة على الناس الحضور فيها، وإنما على أنه فرصة، وفيما بعد على أنه حق تضمنه الدولة للأفراد بما يمكنهم من تلبية احتياجات السوق.

ومما زاد من تعمية الارتباطات بين المدرسة والدولة والقانون، أن هذه الفرصة أو هذا الحق فى المشاركة فى طقس التمدرس صُبَ بعد ذلك فى قالب القيمة: قيمة التعليم. والتمدرس بتأطيره كقيمة وحمايته كحق، أصبح يلاءم منطق السوق باعتباره شيء يمكن أن يُكْتسَب. وبلغة التمدرس فإننا قد تعلمنا أن نقول أننا نريد لأطفالنا أن يحصلوا على التعليم أو أن يتلقوا تعليمًا ما. وفجأة تحول شىء كان يُعامَل فى السابق كعملية إلى شيء يمكن امتلاكه. وبما يلاءم منطق الكسب فى السوق، انحدر التعليم إلى سلعة، كلما زاد استهلاك الفرد منها، كما يتجلى فى عدد الشهادات والدرجات التى يمتلكها، كلما نمت قيمة الاستخدام الخاصة بهذا الفرد فى السوق. ومع توسع قيمة الاستخدام الخاصة بالفرد فى السوق، تتوسع كذلك الفوائد التى يُتَوَقع أن يجنيها من نشر قيمة الاستخدام هذه فى السوق.

يوصلنا هذا الطرح إلى الخاصية الرئيسية الثانية لتطور مجتمع السوق، تلك الخاصية التى أسهمت بقوة فى الفعالية المتنامية للتمدرس كطقس فرض ritual of en- forcement. فالتكنولوجيا الصناعية عندما مَكَنَت من معدلات عالية فى الإنتاج الضخم، زادت فى نفس الوقت عدد السلع المتوفرة فى السوق إلى مستويات غير مسبوقة. والنتيجة الإجمالية لهذا الانفجار المتواصل فى السلع، مع دخول سلع جديدة إلى السوق يوميًا، تمثلت فى إحداث تغيير جذرى فى صورة الخلاص الدنيوى فى مجتمع السوق. فالقصد من السلع الجديدة، والتسويق الذى يصاحبها، هو خلق حاجات جديدة داخل الناس، وتوليد إحساس بأن السعادة تنبع من قدرة الناس على إشباع مدى حاجاتهم دائم الاتساع. وفى الولايات المتحدة نطلق اسم الحلم الأمريكى the American Dream على فكرة الخلاص الدنيوى دائمة الاتساع التى تساوى بين

السعادة والملكية. وفى مضامينها القومية لا تقوم فكرة الحلم الأمريكى فحسب على تقوية قدرة السوق على فرض إذعان الناس لمطالبه الاستهلاكية من خلال تكوين الضمير، لكنها أيضًا تُقْرِن هذا الضمير بفكرة المواطنة.

فنحن كأمريكيين، أو هكذا يسير المنطق، يُفترَض أن نتشارك جمعيًا ونسعى فرديًا وراء هذا الحلم. وكمواطنين نتعلم أن ننظر إلى السعى وراء هذا الحلم كحق، بل كامتياز للأمريكيين. والكنسية لم يكن بمقدورها أن تخلق طقوسًا تحدد لأبنائها درجة النعمة التى حققوها من خلال إذعانهم لكلام الله. وكذلك لم يكن بمقدور الكنيسة أن تقدم للأفراد أدلة عينية على أن الإذعان لقوانينها يمكنهم بالفعل من تحقيق الخلاص الأبدى. لكن السوق يقدم وسائل ملموسة يمكن للأفراد من خلالها أن يحكموا على مقدار قيمة الاستخدام التى اكتسبوها، وبالتالى درجة الخلاص الدنيوى التى حققوها. والضمير الذى يستحثه السوق يقود الناس إلى أن يقيسوا مستوى إذعانهم الفردى للسوق بدرجة وفائهم بمتطلباته والتزامهم بقوانينه وامتثالهم لمعاييره، عبر أنماط استهلاكهم. إنه يمكنهم من قياس جدارتهم وقيمتهم.

والتمدرس الإلزامى يسهم فى فرض مجتمع السوق من خلال مساعدة الناس فى تحديد مستويات توقعاتهم بالنظر إلى أنماط استهلاكهم. فأولاً، وكما عرضنا آنفًا، فإننى أدخل إلى هذا العالم فى ظل قانون الندرة. وأنا أُولَد كمادة خام ليس لها قيمة استخدام مباشرة أو فورية فى السوق. وهذا الوضع يفرض عليّ تهديدًا فى مجتمع السوق، لأننى فى مجتمع السوق أكون فى حاجة إلى قيمة استخدام لكى أبادل بها فى السوق حتى ألبى جميع احتياجاتى الأخرى. وفى مجتمع السوق يتوقف بقائى على هذه المبادلة. وبالتالى فإننى أتعلم أن أحتاج إلى قيمة الاستخدام. وتَعَلُم هذا الاحتياج يخفى حقيقة أن الدولة تُكْرِهُنى على حضور المدرسة. فبدلاً من تعلم أن الدولة تُكْرِهُنى على الحضور فى المدرسة، أتعلم أن احتاج إلى المدرسة لاكتسب قيمة استخدام.

وكطفل فى العصر الراهن، عصر الإعلام الجماهيرى والإنتاج الضخم والاستهلاك الضخم، يعلمنى الإعلان التليفزيونى وصناعة اللُعب أن أُقْرِن سعادتى باستهلاك سلع السوق. والحلم الأمريكى بالتأكيد سوف يفسد إحساسى بالضمير، حيث أحكم على نفسى بما أملك وبكم أملك. والمدرسة تسهم فى تكوين هذا الضمير من خلال حساب الجدارة. ووفقًا لهذا النظام المحاسبى لا بد أن أُظهِر إيمانى ببديهة أن عدد سنوات التمدرس الإلزامى التى استهلكها مضروب فى مستوى أدائي/إذعانى كما يُقاس بالتقديرات ودرجات الاختبارات القياسية التى تحدد مكانى على هرم منهج المدرسة المتمايز، سوف يحدد قيمة الاستخدام الخاصة بى، وبالتالى الكم الذى يمكن أن أتوقع أن أكسبه من السوق فى مقابل نشر قيمة الاستخدام تلك: عملى.

لذلك لا يجب أن يفاجئنا أن الأطفال الذين يذعنون بالكامل لمتطلبات المدرسة، فى سلوكهم وأدائهم، يأتون من أسر حققت بالفعل الحلم الأمريكى. فالآباء الذين حققوا هذا الحلم، من المؤكد أنهم سوف يُرجِعون جزءًا من نجاحهم إلى العناية الرعوية pas-toral care للمدرسة فى تنمية قيمة استخدامهم، وبالتالى الأخذ بأيديهم إلى الخلاص الدنيوى. وهؤلاء سوف يدافعون بقوة عن حق أطفالهم فى تعليم جيد، وسوف يغرسون فى عقول أطفالهم أن المدرسة تمثل فرصة لأن يصنعوا من أنفسهم شيئًا وأن يصبحوا أشخاصًا، وما يتضمنه ذلك من أن أولئك الذين لا يستفيدون من هذه الفرصة يصبحون أو يظلون لا شيء أو لا أشخاص. ومن هنا يتعلم هؤلاء الأطفال أن يحتاجوا إلى المدرسة وأن يقبلوا خيرية مقاصدها. ومن خلال استدماج هذا الاحتياج يذعن هؤلاء الأطفال إلى تنظيم المدرسة لتَعَلُمهم (أيًا كان وكيفما كان وفى أى وقت كان). ومن يُظهِر أعلى درجات الإذعان لقواعد وقيم المدرسة بين هؤلاء الأطفال، يحصل على أعلى مستويات المدح والتوكيد من المعلمين. وكجزء متتم من تكوين ضمائرهم، يؤدى إذعان هؤلاء الأطفال إلى تعريفهم بأنهم "طلاب جيدين"، وبالتالى "مواطنين جيدين". وهذا يُكْسِبهم مكانة داخل مجموعات القدرات المرتفعة ومسارات المنهج المرتفعة التى

سوف تؤهلهم لاستهلاك سنوات أكثر من التمدرس وترفع توقعاتهم بما سيعود عليهم من الامتيازات التى يقدمها السوق نتيجة لزيادة قيمة الاستخدام.

وبالعودة إلى النتيجة التى تقول أن أولئك الذين لا يستفيدون من الفرصة التعليمية التى تقدمها لهم الدولة الخيرية يصبحون لا شىء أو لا أشخاص، فإن عدم الاستفادة من هذه الفرصة يتضمن شكلاً خاصًا من عدم الإذعان، وبطريقة ما نوعًا من الهلاك الدنيوى. وهؤلاء الروافض الذين لا يبذلون جهداً للاستفادة من هذه الفرصة، يفشلون فى إظهار المستوى المطلوب من الإيمان بحساب الجدارة. وبالتالى يتوجب عليهم أن يتعلموا ألا يتوقعوا أو ينتظروا شيئًا من السوق، وذلك لان عدم إذعانهم لقواعد المدرسة الأساسية لا يقدم شيئًا لتنمية قيمه الاستخدام الخاصة بهم.

وهناك بالطبع إشكالاً أخرى كثيرة من عدم الإذعان، منها الأداء المدرسى السيئ. ومع أن الأداء السيئ لبعض الأطفال يمكن إرجاعه إلى ما يمكن أن نطلق عليه بلغة السوق قصور فى قدراتهم الفطرية على تنميه قيمه الاستخدام الخاصة بأنفسهم، فإننى أرى أن غالبيه الأداء السيئ ينبع من عدم قدرة أو رفض بعض الأطفال الاعتراف بكون التعليم الطريق الوحيد إلى الخلاص الدنيوى. وهؤلاء الأطفال يأتون فى الغالب من أسر فشل أبائها وأمهاتها فى تحقيق الحلم الأمريكى. وعلى خلاف نظرائهم الناجحين، لا يكون لدى هؤلاء الإباء والأمهات ما يبرر أن ينقلوا إلى أطفالهم صورة رعوية للمدرسة الخيرية. ولا ريب فى أن المدرسة دفعتهم إلى الهوامش لأنهم فشلوا فى أن يُكْرَهوا على الالتزام. وهؤلاء الأطفال، كآبائهم وأمهاتهم، إما أنهم يفشلوا أو يرفضوا أن يستدمجوا معاير المدرسة لتكون معاييرهم. وجميع من فى المدرسة يعرفون من هم الطلاب السيئون/المواطنون السيئون .

والحدائق العامة والأكواخ المبعثرة على امتداد المشهد الطبيعى البائس هنا فى شمال شرق كاليفورنيا الريفى تعج بهؤلاء الآباء والطلاب. ولأن حياة هؤلاء لا تشبه الحلم الأمريكى فى شىء، فإنهم يُصَوَّرون من جانب أنصار المدرسة والآباء "الجيدين"

بوصفهم أمثلة سلبية: إن هؤلاء دليل حى على ما سوف يحدث لك إذا لم تذعن لمطالب المدرسة. فعدم إذعان هؤلاء لهذه المطالب قادهم إلى حياة من اللعنة الدنيوية، وإلى أبشع الحالات ترويعًا: الفقر. ودون تنمية قيمة الاستخدام التى تمكنهم من الإسهام فى ثروة السوق والدولة، لا يبلغ هؤلاء أبدًا قيمتهم الكاملة كبشر.

والمنهج الرسمى يبعث هذه الرسالة من خلال انتقائه للأشخاص الذين تستحق حياتهم الدراسة الجادة فى المدرسة. فدراسة التاريخ تركز عادة على حياة وإنجازات الأشخاص الأغنياء والأقوياء الذين قدموا إسهامات لمجتمع السوق. كما تركز أيضًا على إنجازات الجنرالات الذين خاضوا حروبًا وانتصروا فيها نيابة عن الأشخاص الأغنياء والأقوياء الذين يملكون السوق ويسيطرون عليه. ومؤخرًا أُضيف إلى الكتب الدراسية مربعات رمادية صغيرة لإبراز النساء و"الملونين" والاعتراف بإسهاماتهم فى قوة السوق و/أو الدولة. والأفراد الذين ناضلوا من أجل حقوق شعوبهم فى تحقيق الإتاحة المتساوية للسوق وتكافؤ الفرص التعليمية فى المدارس التى تنظم السوق وتفرضه يحظون باهتمام خاص هنا. أما أولئك الذين تحدوا صلاحية السوق كشكل للتنظيم الاجتماعى فلا يُعار لهم أى اهتمام. كما أن المدارس لا تعطى الغالبية العظمى من الأطفال الفرصة لدراسة حياة أشخاص مثلهم، ولا الفرصة لدراسة حياتهم هم أنفسهم. فحياة أمثالهم والقوى التى تشكلها يبدو أنها لا تستحق الدراسة. ثم يأتى الصمت المدوى من المنهج الصفرى ليزيد من غرس رؤى العالم الاقتصادية فى عقول ضحاياه، فيعلم الأطفال أنهم يجب أن يحتاجوا إلى أن يصيروا "أشخاصًا"، وأنهم يجب أن يحتاجوا إلى أن يصنعوا من أنفسهم شيئًا، وما يعنيه ذلك من أنهم يجب أن يجاهدوا ليَصُفُوا اهتماماتهم مع اهتمامات السوق والدولة التى تفرضه. وإلى أن يفعلوا ذلك سيظلوا "لا شىء" و"لا أشخاص".

غير أن مجرد فشل هؤلاء الروافض فى استدماج معايير المدرسة لا يعنى أنهم فشلوا فى استدماج معايير مجتمع السوق. فمعظم هؤلاء استدمجوا معايير المؤسسات المهيمنة فى المجتمع نتيجة لاستهلاكهم لرسائل الإعلام. فهم أيضًا يساوون

بين السعادة والملكية. لكنهم للأسف يفشلون أو يرفضون أن يعترفوا بفكرة أنهم يولدون دون قيمة استخدام، أو الإيمان بأن هذه القيمة يمكن أن تُصقَل فقط في المدارس، أو فكرة أنهم يجب أن يبادلوا قيمة الاستخدام هذه في السوق من أجل إشباع كل الحاجات والاحتياجات الأخرى التي يغرسها فيهم مجتمع السوق. ومع أن أولئك الروافض استدمجوا معظم، إن لم يكن كل، هذه الحاجات والاحتياجات التي غُرِست فيهم، فإن عدم إذعانهم لمطالب المدرسة يجبرهم على السعي إلى إشباع هذه الحاجات خارج السوق الرسمي. فهؤلاء يبحثون عن الخلاص الدنيوي الذي يمثله الحلم الأمريكي من خلال وسائل غير قانونية، فيخلقون لأنفسهم أسواقًا لسلع لا تكون متوفرة بشكل قانوني في السوق التقليدي. ورغم أن الكثيرين يتبنون في العادة موقفًا أخلاقيًا متعاليًا من هؤلاء "المجرمين"، ويعزون عدم إذعانهم إلى فشلهم في استدماج قيم المجتمع المهيمن، فإنني أعتقد أن العكس هو الصحيح. فالمراهق الذي يبيع المخدرات لأطفال المدرسة الأولية، لا يسهر الليل يتطلع إلى تدمير حياة مستهلكي المستقبل. فتدمير حياة الناس ليس هو الدافع وراء قراره بأن يبيع المخدرات. إن الدافع هو ما يملكه بنيامين: المال، فهو الوسيلة لإشباع الحاجات والاحتياجات التي غُرِست فيه. والتزامًا بمعايير مجتمعنا - مجتمع السوق - لا يجب السماح للأخلاق بأن تتدخل في سعي الفرد (أو الشركة) إلى "غايته". وبهذا المعنى لا يكون تاجر المخدرات أكثر انحرافًا من الناحية الأخلاقية من الأشخاص الذين يديرون شركة إنرون Enron وورلدكوم WorldCom. ومما يبعث على الحزن أن هذا المراهق، إذا قُبِضَ عليه، يقضي فترة في السجن. بينما لا يقضي أصحاب إنرون ووورلدكوم يومًا واحدًا وراء القضبان.

وبالمثل لا يجب أخذ الإذعان لمطالب المدرسة كعلامة على أن الفرد لديه حماسة حقيقية للتعلم أو نهم لا يشبع إلى التعليم. فحقيقة أن التمدرس قد يكون مناقضًا للتعلم والتعليم تعكس حقيقة أن مجتمع السوق لا يقدر التعلم والتعليم. فمجتمع السوق عمومًا ينظر إلى المتعلمين بريبة، لأن تعليمهم وتعلمهم يقودهم إلى تحدي شرعية

مطالب السوق، ويكشف الأساطير والتناقضات التى تعمل المؤسسات المهيمنة فى هذه المجتمعات، مثل الدولة والشركات، على إخفائها. ويمكن لنا أن نجد أدلة أخرى على استخفاف مجتمع السوق لدينا بالتعليم والتعلم فى الردود التى يتلقاها الطلاب الأفذاذ الذين يعلنون اختيارهم للتدريس كمهنة. ففى الغالب يرد أصدقائهم وأفراد أسرهم على هذه النية بالقول "لكنك أذكى من ذلك بكثير لماذا تريد أن تكون معلمًا؟" كما لو أنهم يتوقعون من معلمى المدارس أن يكونوا أصحاب ذكاء مشكوك فيه. وبالطبع فإن الرسالة الحقيقية هنا تتعلق بمساواة الذكاء بالدخل. فالأشخاص الأذكياء، كما يتحددون عن طريق الأداء المدرسى وعدد السنوات التى يقضونها فى استهلاك المدرسة، يختارون مهنًا تجلب مرتبات عالية.

ولا تزال هناك أدلة أكثر على أن الإذعان لمطالب المدرسة لا يجب أن يُخْلَط أو يُشوَش مع الحماس للتعلم أو التعليم. فعلى سبيل المثال، عند نقطة ما فى عملية نضجهم يتعلم الأطفال أن يميزوا بين الحياة فى المدرسة والحياة فى العالم الواقعى. ونادراً ما يتلاقى العالمان، إن لم يكن مستحيلاً. فنادراً ما يُعطَى الأطفال فى المدرسة الفرصة لأن يتعلموا من العالم الواقعى أو حول العالم الواقعى بأى طريقة ذات معنى. فهم يجب أن يتعلموا من المناهج المعلبة والمخططة التى تتحدد قيمة الاستخدام الخاصة بها جزئيًا بمدى كونها غير خلافية أو غير جدلية. بمعنى أنه بسبب الالتزام بارتياب مجتمع السوق فى المفكرين، تقوم الهيئات الحكومية التى تختار الكتب الدراسية بالابتعاد عن المواد التى يمكن أن تقود الأطفال إلى التساؤل حول شرعية السوق أو سلطة وقوة الدولة. وبالتالى، ففى أثناء تقدمهم خلال النظام المدرسى القائم على الترقى فى صفوف، يتعلم حتى "أفضل" الطلاب أن يستخفوا بالتعلم باعتباره كدح كئيب وغير ذى صلة ولا مفر من تحمله بغرض الانتقال إلى المرحلة/المستوى الصفى التالى. عند هذه النقطة تصير المدرسة مناقضة للقيمة التى تتظاهر بأنها تتعهدها: التعلم. وفى الوقت الذى يصل فيه معظم الطلاب المذعنين إلى التعليم العالى فإنهم يكونوا قد تبنوا اتجاهًا فعالاً من الناحية الاقتصادية نحو المؤسسة التعليمية. وأنا

أستطيع أن أشعر بذلك منذ اليوم الأول للعام الدراسى، حيث يجلس طلابى ويستمعون إلىّ وأنا أعرض مخطط المقرر، إنهم هنا لا يُقَيمون فرص التعلم التى سيتيحها لهم مقررى، وإنما يُقَيّمون مقدار الطاقة التى سيبذلونها لأخذ ما جاءوا من أجله. وهذا الذى جاءوا من أجله ليس التعلم. لقد جاءوا لأخذ/استهلاك الساعات المعتمدة. إنهم يريدون أن يراكموا أكبر عدد ممكن من الساعات المعتمدة، وبأسرع ما يستطيعون. لأنهم ما أن يجمعوا ما يكفى من هذه الساعات، يكون باستطاعتهم أن يأخذوها إلى مكتب مسجِل الجامعة و"يصرفونها نقداً" فى شكل شهادة. إنهم يفهمون جيداً، وحتى دون أن يقال لهم ذلك بشكل صريح، أنه فى مجتمع السوق كلما زاد استهلاك الفرد من المدرسة زادت الامتيازات التى يمكن أن يتوقع أن يؤمنها لنفسه. فالزيادة فى السنوات التى تُقضَى فى استهلاك التعليم تؤدى إلى زيادة فى قيمة الاستخدام الخاصة بالفرد، وما ينتج عن ذلك من زيادة فيما يمكن أن يتوقعه الفرد من السوق فى مقابل نشر قيمة الاستخدام الخاصة به.

وفضلاً عن ذلك، وباعتباره طقساً تفرض الدولة مجتمع السوق من خلاله، يقوم التمدرس الإلزامى بدمج الناس فى هذا المجتمع من خلال إعطائهم الفرصة لتنمية قيمة الاستخدام الخاصة بهم، والتى لا يمكن أن ينموها من دون المدرسة. واكتساب قيمة الاستخدام يتطلب الإذعان إلى مطالب المدرسة والإيمان بقوتها وقدرتها على توصيلهم إلى الخلاص الدنيوى الذى يُعْرَف بالحلم الأمريكى. ومن خلال تكوين ضميرهم، تعلم المدرسة الأطفال أن يحكموا على مستوى إذعانهم، وبذلك تحدد توقعاتهم لما سيحققه لهم هذا الإذعان، أى مقدار الخلاص الدنيوى الذى يستحقونه. ولا تقل أهمية ذلك حتى بالنسبة لأولئك الذين يرفضون أن يذعنوا بالكامل للمدرسة. فإذا فشل هؤلاء فى تحقيق الحلم الأمريكى، فلا يلومون إلا أنفسهم. فقد وفرت لهم المدرسة الفرصة لاكتساب النعمة الدنيوية المتمثلة فى قيمة الاستخدام، لكنهم إما رفضوها أو لم تكن لديهم الإمكانات الكافية لاستغلالها. وبالتالى فهؤلاء يستحقون اللعنة الدنيوية المتمثلة فى الفقر الذى يعيشون فيه. مع العلم بأن كليات المجتمع

وغيرها من البرامج التعليمية "للروافض" المُصلِّحين أو المُقَوِّمين تقدم لهم فرصًا لا تحصى للتكفير. والتكفير يتاح حتى لأولئك الذين أدى عدم إذعانهم إلى سجنهم فى مؤسسات الدولة العقابية. ومجدداً نجد أن الدولة "كاثوليكية" حتى النخاع، بمعنى أنها لا توقف جهودها لدمج الجميع فى مجتمع السوق.

قيم السوق

حاولت فيما سبق أن أثبت كيف أن طقس التمدرس الإلزامى يعمل على مساعدة الدولة فى فرض مجتمع السوق. وبفضل الخصائص الأصيلة فى هذا الطقس التى أرسم ملامحها هنا، فإن التمدرس الإلزامى بتصميمه لا يمكن أن يكون أكثر خضوعاً للشركات وإعمالاً لمنطق الشركات منه الآن. وفى هذا الإطار، لا أجد مبرراً للدهشة من المستويات الحالية لتدخل الشركات فى المدارس العامة. لكن عند هذه النقطة عليَّ أن أثبت الارتباط بين الإخضاع للشركات corporatism والعسكرة militarism الأساسيان جداً لفكرة سولتمان عن "التربية كفرض". ومن أجل توضيح هذه الارتباطات لا بد أن أرجع إلى ملاحظتى السابقة حول الطابع الطوباوى لأيديولوجيا السوق. ففى تشكيله لضمير الأفراد، يقوم التمدرس الإلزامى الذى ترعاه الدولة بتطبيع socializes الأطفال على أن يُعَرِفوا أنفسهم أولاً وأخيراً بلغة قومية على أنهم أمريكيون. وفى بنية الهوية تلك يأتى إحساس بالتميز، التميز بفضل الميلاد أو التطبع naturalization فى مجتمع يمثل أقصى ما يمكن أن تقدمه أى حضارة إنسانية ممكنة. وعلى مستوى التحليل الأكثر سطحية، يقوم المنهج الرسمى فى التمدرس الإلزامى بتأطير "أفضل" ما فى أمريكا بطريقة شوفينية تتغنى بشكل حكمها الديمقراطى بكل الحريات والحقوق التى تمنحها لمواطنيها. لكن منهج المدرسة الخفى يؤطر تلك الحريات والحقوق أساساً فى سياق السوق وليس السياسة. وهنا يظهر الطابع الطوباوى لأصولية السوق إلى السطح ليحدد "أفضل" ما فى أمريكا فى صورة الحقوق والفرص التى تعطيها الدولة للأفراد للسعى وراء خلاصهم الدنيوى الفردى. ومجدداً من خلال تكوين الضمير

الاستهلاكى، يتعلم الأفراد أن يحكموا على درجة خلاصهم وفقًا لمعايير السوق. وعلى اعتبار مقدار ونوع السلع والخدمات المتوفرة حاليًا فى السوق - المستوى الإجمالى للوفرة التى تضع مجتمع السوق الأمريكى باعتباره المعيار الشامل والعمومى الذى تتلاشى فى مقابله كل الدول والمجتمعات الأخرى - فإلى أية درجة وعلى مدى أية مدة يجب عليّ أن أذعن للتمدرس واستهلكه من أجل صقل المقدار اللازم من قيمة الاستخدام الذى يمكننى من اكتساب مستوى من الوفرة شبيه بهذا المعيار؟ وهنا أيضًا لا يجب أن يتعلم الأطفال مطلقًا أن ينظروا إلى حضورهم فى المدارس باعتباره واجب إلزامى تفرضه الدولة عليهم لجعلهم مفيدين للسوق، كمنتجين ومستهلكين. وإنما عليهم أن ينظروا إلى التمدرس من حيث قيمة التعليم، وبالتالى باعتباره أحد أوائل الفرص والحقوق والامتيازات التى توفرها لهم الدولة المُحْسِنة. والدولة المُحْسِنة لا تقدم ضمانًا للخلاص الدنيوى، وإنما فحسب الفرص للتنافس عليه.

إن الأبعاد الشركاتية فى التمدرس الإلزامى تركز على دمج الجميع فى نفس الكيان الجمعى المكون من الأشخاص الذين يشتركون فى قيم السوق والذين يساوون هذه القيم بالخلاص الدنيوى: الحلم الأمريكى. أما الأبعاد المعسكرة فى هذا الطقس فتكمن أساسًا فى الأبنية التى يخلقها لتعهد النزعة الفردية التنافسية. وذلك يبدأ بتسليع التعليم. فالتعليم، كالأرض، يصبح شيئًا يمكن اكتسابه. وكلما استهلكتُ المزيد من التعليم أصبحُ أكثر تنافسية فى سوق العمل، لأنى أزيد من قيمة الاستخدام الخاصة بى. وإضافة إلى الأبعاد الكمية فى هذه المنافسة، هناك أيضًا جانبًا كيفيًا يتأكد حاليًا عبر الموجة الحالية من الإصلاح التعليمى بتركيزها على الاختبار عالى الرهان وتشعيب المنهج إلى مسارات. وهنا أيضًا ينعكس مستوى إذعان الطلاب لتنظيم المدرسة لتعلمهم فى أدائهم فى الاختبارات المقننة وكذلك تقديراتهم أو درجاتهم. فكما كان الجيش الأمريكى يستخدم اختبارات معامل الذكاء الأصلية لتصنيف الجنود وتحديد المهام التى يُفَضَل أن يُدَرَبوا على أدائها، تستخدم معظم النظم التعليمية بالولايات الآن الاختبار عالى الرهان لتحديد مسارات المنهج التى

تناسب الطلاب أكثر من غيرها . ومسارات المنهج المختلفة كيفياً هذه تقود بالطبع إلى مخرجات مختلفة من حيث (١) فرص الطلاب المستقبلية لاستهلاك مزيد من التمدرس، (٢) فرص الطلاب المستقبلية لاستهلاك تعليم عالى الجودة على هرم مؤسسات التعليم العالى على المستوى القومى (مثل كليات السنتين فى مقابل كليات الأربع سنوات، والمؤسسات الحكومية فى مقابل المؤسسات الخاصة)، (٣) بالتالى مستقبلهم على الهرم الطبقى للدخل/المهن فى سوق العمل. وبالتالى، وبلغة عسكرية، يحدد التمدرس الإلزامى للأفراد رتبهم من حيث قيمة استخدامهم المستقبلية كموارد بشرية.

وكما جادلنا آنفًا فإن قليلين من الطلاب يرون صلة كبيرة فى التمدرس، اللهم إلا أنه مجرد وسيلة لزيادة قيمة الاستخدام الفردية الخاصة بهم فى عالم المنافسة المميتة وسباق الجرذان المحموم الذى يشكل سعيهم الفردى وراء الخلاص الدنيوى فى مجتمع السوق: الحلم الأمريكى. ونظراً لأنهم لا يجدون قيمة داخلية المنشأ فى التعلم الإجبارى فى المدرسة، يتعلم "الطلاب الجيدين" الأكثر إذعانًا أن يؤدوا فى المقام الأول من أجل التقديرات ودرجات الاختبارات التى من شأنها أن تمنحهم درجات أعلى من الخلاص الدنيوى فيما بعد فى الحياة. لكن حتى هذا العبث ليس بلا وظيفة. فطالما أن غالبية العمال المستقبليين لن يجدوا سوى مكافآت داخلية شحيحة فى الوظائف التى سوف يقومون بها فى مكان العمل، فإن انعدام المعنى النسبى فى المدرسة يوفر "معسكر إعداد" مثالى لتعليمهم أن يقبلوا الاغتراب كجزء حتمى من الحياة. فمن خلال الخضوع لمطالب المدرسة من أجل التقديرات ودرجات الاختبارات، يتلقى الطلاب "تدريبًا أساسيًا" صارمًا على قبول انعدام معنى العمل من أجل الأجر. فمن الدروس الأساسية جداً لتعلم كيف "تنجح" فى مجتمع السوق أن تتجنب البحث عن المعنى، سواء فى أثناء تنمية (التعليم) أو إنفاق (العمل) قيمة الاستخدام الخاصة بك. فالمعنى، كما يُدْرَك من داخل ضمير "المواطن الجيد"، يوجد من خلال إنفاق مكاسب الفرد، أى أنماط استهلاكه التى يحكم من خلالها على مكانته. وربما يساعد ذلك فى تفسير

السبب فى أن كثيراً من الناس تعلموا أن يمارسوا التسوق كشكل من العلاج النفسى، مع أن الفوائد النفسية قد تكون مؤقتة فحسب.

ومن خلال تعلم النظر إلى التمدرس بوصفه وسيلة للسعى وراء الحلم الأمريكى، ينمى الطلاب أيضًا روح الولع بالكسب، التى تعكس الحاجة الدائمة إلى التوسع من جانب الإمبريالية التى يقودها السوق، تلك الحاجة التى تبرر استخدامها للوسائل العسكرية لتحقيق هذه الغاية. بهذه الروح لا يكون الأشخاص الآخرون أكثر من وسائل لغايات الشخص الفردية، أى أشياء تُدَار وتُعالَج وتُستغَل فى سعيهم وراء الحلم الأمريكى دائم المراوغة. وعدم القدرة على العثور على معنى فى أى شىء غير الكسب المادى يقلص قدرة الطلاب على بناء وإدامة علاقات ذات معنى مع الآخرين. وبهذا المعنى فإن حط السوق من قيمة دوام العلاقات الحيوية فى البيئة الطبيعية يوازى حطه من قيمة دوام العلاقات الاجتماعية. فمجتمعات السوق تُعَرِف الحياة الاجتماعية بأنها حالة من الحرب المتواصلة بين أفراد متنافسين. ومن السخرية أن العسكرة المتأصلة فى مجتمع السوق تتجلى فى أوضح صورها على المستوى المحلى فى الشوارع فى قلب المدن المُفْقَر فى أمريكا، التى فيها يحارب الأشخاص الأقل قيمة فى السوق الرسمى بعضهم بعضًا من أجل لسيطرة على الأسواق غير القانونية التى يخلقونها لإشباع مطالب ضمائرهم الاستهلاكية. فى هذه الشوارع تأخذ عسكرة السوق أشكالاً أكثر حَرْفية مع وجود عصابات منافسة ترتدى "ألوانًا" (أزياءً موحدة) وتحمل أسلحة أوتوماتيكية لحماية وتوسيع نصيبها من السوق من أجل زيادة أرباحها. وفى ضوء المستوى المنخفض نسبيًا من الوفرة الذى يمكن أن توفره لهم وظائف الحد الأدنى من الأجور المتاحة لهم فى سوق العمل القانونى أو نظام الرفاه التابع للدولة، يمكن لنا أن نفهم كيف أن المطالب النفسية للضمير الاستهلاكى (السعادة تساوى الملكية) الذى يُدْمَجون فيه عن طريق الإعلام والمدارس تدفع هؤلاء الناس إلى اتخاذ إجراءات متطرفة لكى يشبعوا ولعهم المتعلم بالكسب. وعلى اعتبار معايير الوفرة فى أمريكا – مقدار ما يجب أن يمتلكه الفرد ليشعر بأنه حقق درجة

مرضية نسبيًا من الخلاص الدنيوى - فما الخيار الذى من شأنه أن يُمَكِن الفرد أفضل من غيره من تلبية مطالب الضمير الاستهلاكى: العمل فى ماكدونالد أم بيع الكوكايين لصالح أمراء المخدرات.

أنا لا أقصد بذلك أننا يجب أن نغض الطرف عن العواقب الأخلاقية للتربح من نشر إدمان المخدرات والعنف. وإنما أريد فقط أن أبرز العسكرة المتأصلة فى إخضاع مجتمع السوق للشركات التى يمكن التعرف عليها بسهولة فى العلاقات الاجتماعية التى تحيط بـ"الأسواق السوداء". على أن هذه الأنماط ليست جديدة بالطبع. فهى تعود إلى قُطاع الطرق والعصابات فى عصر الحظر Prohibition era. وهى علاوة على ذلك لا تختلف كثيرًا عن ما يمكن أن نطلق عليه العلاقات الاجتماعية فى مجتمعات السوق العالمى. فكما ذكرت آنفًا، فإن الدولة فى كل جوانبها "كاثوليكية" مثل الكنسية. لكن الدول فى مجتمعات السوق المختلفة كانت، ولا تزال، تسعى فقط إلى دمج جميع من على الكوكب فى مجتمع السوق العالمى، لأن الطبيعية الطوباوية لأصولية السوق لا تسمح بأشكال بديلة من التنظيم الاجتماعى. فمن أجل الحفاظ على استمرار تدفق الأرباح وتوسع حصة السوق لا يعترف السوق بأية حدود. فكل شخص، وكل شيء، يجب أن يخدم السوق أو يواجه العواقب.

التعليم والتنمية والحرب على التعيش

إن من المفيد أن نفحص بعض الارتباطات الخطابية بين فكرة التعليم و"التنمية" (بمعنى الجهود التى تُبْذَل من جانب "الدول المتقدمة"/مجتمعات السوق لمساعدة العالم الثالث/"الدول النامية") بغرض دمجها بالكامل فى "الاقتصاد العالمي" (كما لو كان الاقتصاد العالمى ظاهرة طبيعية). بدايةً نقول أن كل من التعليم والتنمية الاقتصادية الدولية أصبحا مرادفين "للتقدم". ورغم أن للتعليم تاريخ من التطور المفاهيمى فى ذاته، فإن مساره انصهر وترابط مع تاريخ التنمية لإنتاج أحد أشكال اليقين الكبرى

والمقدسة فى عصرنا، وهو تحديداً أن التنمية الاقتصادية لشعب من الشعوب تتناسب مع مستوى إنجازه التعليمى. فكل من التعليم والتنمية الاقتصادية عمليتين مطلوبتين من أجل -وتقودان حتماً إلى- تغيير مرغوب يرتبط بتحسن وسائل الناس فى تلبية احتياجاتهم. وفى خطاب الإصلاح التعليمى الأمريكى، يَعِدُ التعليم بإحداث هذا التحسن بجعل الولايات المتحدة أكثر قدرة على التنافس فى السوق العالمى، وبدمج العمال الأمريكيين فى سوق العمل الدولى للاقتصاد العالمى. وبالمثل تقدم التنمية لدول العالم النامى الفقيرة المساعدة التى تحتاج إليها للانضمام إلى الدول الأكثر تقدماً فى الاشتراك فى ثمار نظام السوق العالمى.

إن خطاب التنمية، بتحجيمه فى هذا السياق، قد نشأ عن الخطاب الافتتاحى للرئيس هارى ترومان فى العشرين من يناير عام ١٩٤٩، عندما فَصَّل برنامجه المسمى النقطة الرابعة Point Four Program لدعم استقرار العلاقات الدولية فيما بعد الحرب العالمية الثانية. "إن الإمبريالية القديمة - أى الاستغلال من أجل الربح للخارج - ليس لها مكان فى خططنا"، وزاد ترومان ذلك تفصيلاً: "إن ما نتصوره هو برنامج للتنمية يقوم على مفاهيم التعامل الديمقراطى العادل"(٦). فى ذلك الوقت تحديداً كان ثلثى سكان العالم محتاجين، وقد ألزم ترومان الولايات المتحدة وحكومات مجتمعات السوق الأخرى - خطابيًا على الأقل - بنظام للسلام العالمى يقوم على تلبية احتياجات هذه الغالبية الكبيرة من أجل إزالة أسباب النزاع بين الدول. ومن هنا فإن القيمة النهائية للتنمية تكمن، كما هو الحال فى التعليم وخدمات الكنيسة المؤسسية كما دفعنا من قبل، فى النوايا المُحْسِنة ظاهريًا للدول القومية فى أغنى مجتمعات السوق فى العالم على تلبية احتياجات فقراء العالم بهدف دمجهم فى نظام حفظ السلام المعروف باسم "الاقتصاد العالمى".

ومن خلال خطاب التنمية، تتبنى الدول القومية فى مجتمعات السوق، التى تتمتع بالفعل بثمار التنمية، صورة مُحْسِنة ورعوية لنفسها وللمؤسسات الدولية التى أنشأتها (مثل البنك الدولى وصندوق النقد الدولى) لخدمة الاحتياجات التى غرستها فى الدول

النامية. وبوصفهم فاعلين مُحْسِنين ورعويين، فإن الحاجة الأولى التى يجب أن تشبعها مجتمعات السوق نيابة عن الفقراء هى الحاجة إلى خدمة الدولة القومية فى مجتمعات السوق والهيئات فوق الحكومية التى وضعوا فيها قوتهم، لأن خدمات التنمية التى يقدمونها إلزامية لإشباع كل الاحتياجات الأخرى التى يجب أن تشعر بها الشعوب النامية. إن خدماتهم، وخدماتهم فقط، هى التى ستقدم لدول العالم الفقيرة الوسيلة لتحقيق التنمية: الخلاص الدنيوى الذى يأتى من الدمج الناجح فى مملكة السوق الآمنة لاقتصاد السلام.

كيف يمكن أن نغض الطرف عن السخرية المريرة المتضمنة فى تعريف التنمية بأنها برنامج للسلام العالمى ؟ إن السلام الوحيد فى فكرة اقتصاد السلام هو السلام بين دول مجتمعات السوق فى تعاونها فى شن الحروب ضد المجتمعات التقليدية القائمة على التعيش subsistence بهدف توسيع المدى العالمى للسوق.

وكما ذكرت آنفًا، فإن تاريخ هذه الحرب ضد المجتمعات التقليدية، بدأ فى أوروبا عندما سعت الدولة القومية الحديثة الأولى إلى دمج سكانها المحليين فى السوق. ومن أجل إنجاز هذا العمل كان لا بد أولاً من فصل الحيز الاقتصادى عن العلاقات الاجتماعية والثقافية للمجتمعات الأوروبية التقليدية. وبالتالى أصبحت هذه العلاقات الاجتماعية والثقافية مطمورة فى الحيز الاقتصادى، وهو ما أدى إلى جعل الأفراد يفهمون حياتهم فى الاقتصاد على أنها ذات أولوية على العلاقات الاجتماعية والثقافية. ومع تطور رأسمالية السوق على مدار التاريخ الغربى، أصبح النمو الاقتصادى والتنمية يقتضيان التغلب على العوائق الرمزية والأخلاقية، والتخلص من الأفكار المعوقة المختلفة مثل "الأساطير والشعائر والطقوس والعون المتبادل وشبكات الضمان، وما شابه ذلك"(٧). وبقدر ما يتلاشى صوت أفكار مثل "الأساطير" و"الشعائر" و"الطقوس" من عصرنا الحديث، بقدر ما نستطيع أن نسمع نجاح قيم السوق الشركاتية والعسكرية فى التغلب على قيود الثقافة التقليدية.

ورغم أن هذه الأفكار قد أضحت قديمة فى آذاننا الحديثة، فإن هذه السمات للمجتمعات التقليدية ساعدت فى الحفاظ على شروط اجتماعية معينة يجب أن نتعلم منها لكى نُشَخِص الأمراض الاجتماعية والبيئية التى تولدت عن الطبيعة الهدامة للسوق ونشفى منها. من ذلك مثلاً، دَفْع إيفان إيلتش بأن "كل الثقافات التقليدية المعروفة، بما فيها ثقافات أوروبا ما قبل الحديثة، يمكن فهمها على أنها ترتيبات ذات معنى كان هدفها الرئيسى هو قمع تلك الشروط التى فى ظلها يمكن أن تهيمن الندرة على العلاقات الاجتماعية"(٨). ومن أجل ذلك تُحِد مجتمعات التَعَيّش من فكرتها عن "الحاجات" الإنسانية إلى ما هو ضرورى لبقاء جماعاتها. وحاجات الناس فيها تتشكل وفقًا لأشكال الوفرة الطبيعية التى يجدونها فى أرضهم، ووفقًا للتوفر الاجتماعى لأساليب الاستفادة من هذه الوفرة.

يتبنى إيلتش فكرة "العامى" vernacular لوصف حاجات الناس والأنشطة التى يتبعونها لإشباعها. ويدفع إيلتش بأن كلمة "عامى" تعبر على أفضل نحو عن المعنى الذى يمكن النظر به إلى هذه الأنشطة على أنها استجابات عينية لظروف عينية. كما يشير إلى أن الأصل الهندى الألمانى Indo-Germanic لكلمة vernacular [عامى]، يكشف عن "التجذر" و"المقر"، فى حين تشير الكلمة فى الاستخدام اللاتينى إلى "المُرَبّى فى الوطن" و"المزروع فى الوطن" و"المصنوع فى الوطن". والأنشطة العامية، كما يذهب إيلتش، "لا تدفعها أفكار المبادلة"، وإنما تتضمن "فعلاً مستقلاً غير مرتبط بالسوق يشبع الناس من خلاله احتياجاتهم اليومية، أى الأفعال التى تراوغ بطبيعتها من السيطرة البيروقراطية وتشبع الحاجات التى شكلتها هى نفسها فى أثناء حدوثها"(٩).

وعندما جاء الوقت الذى فيه تطلب الحفاظ على الهيمنة الاقتصادية العالمية من الدول القومية فى مجتمعات السوق أن تعتمد على الخدمات الخطابية لما نعرفه الآن باسم خطاب التنمية، أدرك المراقبون أن التنمية الاقتصادية للشعوب النامية (بما فى ذلك الشعوب الأوروبية ما قبل الحديثة) لا تتفق مع صيانة عاداتها وأعرافها

التقليدية. فالقطيعة من هذه الأخيرة تعد شرطاً للتقدم الاقتصادى. فالمطلوب هو ثورة فى كل المؤسسات والعادات الاجتماعية والثقافية والدينية، وبالتالى فى الاتجاه النفسى وفلسفتهم وطريقتهم فى الحياة. فالمطلوب، إذن، يصل إلى حد الفوضى الاجتماعية(١٠).

إن إيلتش – وكذلك جوستافو إيستيفا Gustavo Esteva – يرى أن ما يُحْدِث هذه الفوضى الاجتماعية الثورية المطلوبة للتقدم الاقتصادى هو فرض ذلك الذى تسعى المجتمعات التقليدية إلى كبحه: الندرة. فكما قلنا من قبل فإن السوق يصر على أن الندرة هى الخاصية المحددِة للحالة الإنسانية، وبالتالى الحالة العمومية للحياة الاجتماعية فى كل مكان. وفى ظل قانون الندرة، لا تظل الحاجات الإنسانية مقتصرة على ضرورات البقاء الجماعى. وهذا القانون يحول الحاجات المحدودة إلى احتياجات غير محدودة. ومع أن الأنشطة العامية مكنت أعضاء المجتمعات التقليدية من تجنب الندرة عن طريق الاحتياط للبقاء الجماعى، تضع مجتمعات السوق قيوداً مفاهيمية عليها، وتُعَرِف الأنشطة المسترشدة بالتَعَيش subsistence-oriented على أنها لا تنسجم مع النمو الاقتصادى والتقدم. هذه القيود المفاهيمية تتجلى فى قانون الندرة الذى يقول أن "الحاجات الإنسانية كثيرة، إن لم تكن غير متناهية، فى حين أن الوسائل إليها محدودة، وإن كانت قابلة للتحسين."(١١) فبدلاً من تقييد حاجات الناس، كما فى المجتمعات التقليدية، تقيد مجتمعات السوق وسائل الناس لإشباع هذه الحاجات.

ومجتمعات السوق تحقق ذلك بمعنيين. أولاً، وكما قررنا، فإن قانون الندرة يضع قيوداً مفاهيمية على وسائل الناس لتلبية حاجاتهم. ومع ذلك، فمن خلال تقديم نفسه باعتباره الطريق الوحيد نحو تحسين هذه الوسائل، يحط السوق من قيمة كل أشكال التنظيم الاجتماعى الأخرى، ويسخر من الأنشطة والمجتمعات التى لا تقوم على نظام السوق باعتبارها "متخلفة" أو "بدائية" أو "ناقصة التقدم". ومن خلال إنتاج ندرة الوسائل المزدوجة على هذا النحو، يمنح مجتمع السوق نفسه مكانة سامية على

الهرمية العمومية للحاجات الإنسانية. فإتاحة السوق تمثل الحاجة الأساسية الأولى للجميع. ودون هذه الإتاحة، تظل وسائلهم لإشباع الحاجات الأخرى محدودة إلى الأبد. وهذا بدوره يخلق الحاجة (بين المجتمعات التقليدية التى لا تقوم على نظام السوق فى العالم الثالث) إلى التنمية التى تقدمها مجتمعات السوق المتقدمة الغنية بوصفها السبيل إلى الخلاص الدنيوى الذى كانت تحول دونه فى السابق تقاليدها وأعرافها التقليدية. وهنا أيضًا فإن هذا الشكل من الخلاص لا ينسجم مع صيانة التقاليد الثقافية وغيرها من العوائق الأخلاقية الأخرى أمام توسع السوق. "وهنا تتولد فى أية لحظة التعاسة والقلق من الإحساس بالحاجة إلى أكثر مما يمكن بلوغه. والمعاناة والتشوش اللذان يمكن أن ينتجا فى أثناء ذلك قد يكونا مثيرين للاعتراض، لكنهما يكونان الثمن الذى يجب أن يُدْفَع للتنمية الاقتصادية، التى هى شرط التقدم الاقتصادى"(١٢). وعلى وجه التحديد بالنسبة للجماعات المعذبة والمستبعدة فى الولايات المتحدة التى أنتج السوق فيها تحديثًا للفقر خلق بدوره ندرة موهنة فى قدرة الناس على تلبية احتياجاتهم، فإن الخلاص يتطلب من خدمات الدولة التعليمية أن "تنمي" قيمة الاستخدام الخاصة بهؤلاء باعتبارها وسيلتهم الوحيدة للإسهام فى -والوصول إلى- السوق الذى أصبحوا معتمدين عليه بالكامل.

ومع أن ترومان أعلن أن "الإمبريالية القديمة" لم يعد لها مكان فى خطط أمريكا فى النظام الجديد القائم على السلام العالمى، فإنه لم يقل أن مفاهيم "التعامل الديمقراطى العادل" التى ستكون الأساس لهذا النظام الجديد تتضمن أية أفكار حول حق الأمم فى رفض الاندماج فى مجتمع السوق العالمى. ويوضح إيستيفا كيف أن "التحول القاسى والعنيف" الناتج عن توسع السوق، "الذى اكتمل أولاً فى أوروبا، كانت تلازمه دائمًا الهيمنة الاستعمارية فى بقية العالم"، التى كان السوق والاستعمار فيها مترادفين. وهنا تكمن السخرية الموجعة جداً لخطاب التنمية. فمن خلال إقران تغييرات مرغوبة بالسوق، حرر خطاب التنمية توسع السوق "من الدلالات السلبية التى راكمها على مدى قرنين، وحل ارتباط التنمية بالاستعمار"(١٣).

وكما يمكن لكثير من الأمريكيين الأصليين وغيرهم من الشعوب خارج أوروبا الغربية أن يؤكدوا من تواريخ شعوبهم، فإن السوق لم يكن أبدًا خيارًا للمستعمَرين. فقد فُرِض عليهم من جانب الأمم المتقدمة التى احتلتهم. ومن المؤسف أن خطابات التعددية الثقافية نادرًا ما تعترف بالطريقة التى تم بها إخضاع الثقافات العامية العديدة فى أوروبا تحت وطأة السوق. لقد نشأ السوق، ولا يزال مستمر، كحرب ضد التنوع الثقافى والاجتماعى.

وكشأن التمدرس، تشكل التنمية برنامجًا إلزاميًا لضبط الناس على عادات وقيم السوق. والصورة الرعوية للمؤسسات التى تقدم البرامج التعليمية والتنموية تريد فقط أن تقنع الناس بأن البرامج التى تُفرَض عليهم هى من أجل صالحهم، وأنهم فى حاجة إلى هذه البرامج، وأنهم يجب أن ينصاعوا طوعًا وبامتنان للخطط التى يضعها لهم الآخرون. وفى ظل الظروف العامية، يشارك الناس فى صياغة الوسائل التى عن طريقها يتم إشباع حاجاتهم الفردية والجماعية. أما التمدرس الإلزامى والتنمية الإلزامية، فى مقابل ذلك، فيصوغان الناس من أجل تلبية احتياجات السوق.

وما أن تنقشع قشرة الخداع الرقيقة من على مخططات التنمية المختلفة التى تطورت على مدى نصف القرن المنصرم، وكذلك خطاب الإصلاح التعليمى منذ الثمانينات، حتى نتبين الأنماط المألوفة للهيمنة الاستعمارية. فسياسات وممارسات التنمية تمثل فحسب مدخلاً "أكثر مكرًا ومداهنة" لوضع شعوب وموارد الدول النامية فى خدمة السوق العالمى والدول الغنية التى تديره وتفرضه. أما أولئك الناس الذين قد تكون لديهم أفكارًا أخرى حول كيفية ترتيب الشئون الداخلية لدولهم (مثل فيتنام وهندوراس والسلفادور ونيكاراجوا)، فإنهم يستحقون عقابًا قاسيًا من السادة العالميين بسبب عدم تواضعهم وتفهمهم.

وثمة عقوبات أخرى تنتظر الفقراء فى الولايات المتحدة الذين يفتقدون إلى التواضع والتفهم للسعى إلى تنمية قيمة الاستخدام التى تُقدَّم لهم تحت شروط

التمدرس الإلزامى. فبرفضهم فرصة تنمية قيمة الاستخدام الخاصة بهم يستبعدون أنفسهم من الخدمة المذعنة والمنتجة للسوق ومديريه داخل جهاز الدولة. ومن دون قيمة الاستخدام/قيمة السوق، لا يكون أمام غير المتعلمين إلا أن يدينوا أنفسهم على اللعنة الدنيوية المتمثلة فى الفقر المتواصل، الذى يؤدى فى حالات كثيرة إلى السَجْن الفعلى. لكن حتى أولئك الذين يتبنون اللاهوت الدنيوى للتمدرس بدرجة كافية، ويوافقون ضمناً على تعظيم نفعهم للسوق، لا يكون ثمة ما يضمن لهم أن استثماراتهم فى التعليم سوف تنتج أرباحًا. فمع استمرار تراجع الأجور الحقيقية، ومع استمرار تضاؤل الوظائف ذات الأجور اللائقة، يُطلَب من العمال المزاحين "أن يعودوا إلى المدرسة" لكى يُحَدِثوا ويزيدوا نفعهم للأغنياء. فحيثما لا تستطيع المدرسة ضمان الخلاص الدنيوى فى السوق، يمكنها أن تقدم فرصًا لا نهائية للتكفير.

وفى التحليل الأخير فإن قصتدة economization الفضاء العام التى تحدث نتيجة لإخضاع التمدرس الإلزامى للشركات وعسكرته الخفيتين تنقل علاقات الهيمنة الاستعمارية التى عادة ما تلازم الميدان الدولى إلى المشهد المحلى. ورغم الصور المُحسِنة التى تحيط بها، فإن المدارس الإلزامية تعمل على فرض مجموعة من الشروط لا يكون للناس قيمة فيها إلا بقدر ما يكونوا نافعين وضروريين للسوق والأهداف المستقبلية لمديريه. أما أولئك الذين لا تتوفر فيهم هذه القيمة فيكونوا فحسب موضوعات للاستهلاك.

الهوامش

(1) Kenneth J. Saltman, Collateral Damage: Corporatizing Public Schools_A Threat to Democracy (Lanham, Md.: Rowman and Littlefield, 2000), x, 25-26, and 85.

(2) Karl Polanyi, The Great Transformation (New York: Farrar and Rinehart, 1944), 57.

(3) Juliet B. Schor, The Overworked American: The Unexpected Decline of Leisure (New York: Basic Books, 1991).

(4) See David Cayley, "The Corruption of Christianity: Ivan Illich on Gospel, Church, and Society" Canadian Broadcasting Corporation Ideas Transcripts, January 2000.

(5) David Cayley, Ivan Illich in Conversation (Concord, Ontario: Anansi Books, 1992), 65.

(6) Harry S. Truman, Inaugural Address, January 20, 1949, in Public Papers of the Presidents of the United States: Harry S. Truman: Containing the Public Messages, Speeches, and Statements of the President January 1 to December 31, 1949 (Washington, D.C.: Government Printing Office, 1964), 19.

(7) Gerald Berthoud, "Market," in The Development Dictionary: A Guide to Knowledge and Power, ed. Wolfgang Sachs (Atlantic Highlands, N.J.: Zed Books, 1992), 72.

(8) Ivan Illich, "The History of Homo Educandus," in In the Mirror of the Past: Lectures and Addresses, 1978-1990 (New York: Marion Boyers, 1992), 117.

(9) Ivan Illich, Shadow Work (New York: Marion Boyers, 1981), 57. 10- Berthoud, 72-73.

(11) Gustavo Esteva, "Development," in The Development Dictionary: A Guide to Knowledge and Power, edited by Wolfgang Sachs (Atlantic Highlands, N.J.: Zed Books, 1992), 19.

(12) Berthoud, "Market," 73.

(13) Esteva, "Development," 17.

الفصل الرابع

الضبط الصارم

السياسة التعليمية بشيكاغو وتنظيم الشباب السود واللاتينيين

بولين ليبمان(*)

لقد أصبحت سياسات المحاسبية والتنظيم المركزى للمدارس فى شيكاغو نموذجًا للإدارات التعليمية الحضرية فى الولايات المتحدة، ونموذجًا يحتذى لسياسة بوش التعليمية القومية. لقد أعطى قانون إصلاح المدارس بشيكاغو ١٩٩٥ لعمدة المدينة ريتشارد ديلى Richard Daley السيطرة على المدارس. وقد عين ديلى مدير الموازنة بإدارته [للمدينة] بول فالاس Paul Vallas مديرًا لمدارس شيكاغو العامة [إدارة شيكاغو التعليمية]، ورئيس المستخدمين فى إدارته جيرى تشيكو Gery Chico رئيسًا لمجلس أمناء مدارس شيكاغو العامة. وفى ظل وعود الكفاءة والإدارة المالية السليمة وتحسين التحصيل الأكاديمى والعدالة، أنشأ فالاس وتشيكو نظامًا شركاتيًا corporat- ist regime يركز على المحاسبية والاختبار عالى الرهان والمعايير والتنظيم المركزى للمدارس. تمثلت نتيجة ذلك فى أن بقى آلاف الشباب السود واللاتينيين – فى الأساس

(*) بولين ليبمان Pauline Lipman أستاذة الأصول الاجتماعية والثقافية للتربية بجامعة ديبول DePaul بشيكاغو. تتمحور بحوثها حول السياق الاجتماعى للتعليم والتفاوت العرقى والطبقى فى المدارس والتعليم الحضرى والتحليل النقدى للسياسات. من مؤلفاتها Race, Class, and Power in School Restructuring and High Stakes Education: Inequality, Globalization, and Urban School Reform.

- للإعادة فى الصف وأُرْسِلوا إلى البرامج العلاجية الإلزامية والمدارس الثانوية الانتقالية للتعليم الأساسى basic education transition high schools. كما وُضِعت أكثر من مائة مدرسة أولية وثانوية فى أحياء السود واللاتينيين والمهاجرين تحت "التعليق" probation، حيث أُخْضِعَت لإشراف صارم من الإدارة المركزية.

قامت مدارس شيكاغو العامة أيضًا بتقسيم البرامج الأكاديمية إلى شرائح وطبقات. فأنشأت المدارس الجاذبة الانتقائية أكاديميًا والبرامج الجديدة فى الأساس فى أحياء البيض و/أو الطبقة العليا مرتفعة الدخل، فى مقابل المدارس الثانوية العامة التى تقدم خيارات محدودة من حيث المقررات المتقدمة، والأكاديميات المهنية الجديدة، والمدارس الثانوية الانتقالية للمهارات الأساسية، والمدرستين الثانويتين العسكريتين العامتين الأوليين فى الولايات المتحدة، والتوسع فى التدريس المباشر بمخطوطات(*) (١) فى المدارس الأولية التى يرتادها فى الأساس الأمريكيون الأفارقة والأمريكيون اللاتينيون (لا يجب أن يُخلَط هذا التدريس مع التدريس المباشر لمهارات ومفاهيم معينة، فمدارس التدريس المباشر تقوم على النظرية السلوكية ونموذجًا يفترض العجز فى الطلاب "المحرومين اقتصاديًا"). بينما تعمقت الرقابة البوليسية على الشباب من خلال سياسة الضبط(**) المدرسى اللاتسامحية.

يبحث هذا الفصل سياسات شيكاغو كنافذة على المحاسبية وعسكرة المدارس الأمريكية الحضرية، ليؤكد أنه باسم العدالة وتحسين المدارس تقوم "إصلاحات" شيكاغو عينيًا ورمزيًا بفرض "ضبط صارم" على الشباب الأمريكيين الأفارقة

(*) من أجل تعريف بعض هذه المصطلحات مثل الاختبار عالى الرهان والمدرسة الجاذبة والتدريس بمخطوطات راجع حواشى للمترجم فى الفصول السابقة [المترجم].

(**) يكثر استخدام مصطلح discipline فى الكتابات التربوية العربية بمعنى "الانضباط"، بينما المعنى الأدق له هو "الضبط" من باب أنه يُفرَض من جانب الآخرين، تمامًا مثل الفرق بين مفهومى "الالتزام" و"الإلزام" [المترجم].

واللاتينيين الذين تعتبرهم هذه الإصلاحات زائدين عن الحاجة فى اقتصاد شيكاغو المعلوماتى الذى أعيدت هيكلته، وخطرين فى المشهد الاجتماعى المعرقن racialized للمدينة. ترتبط هذه السياسات بوضوح بخطابات أوسع لليبراليين الجدد والمحافظين الجدد حول المسئولية الفردية والتنظيم المركزى(٢)، لكن تركيزى هنا ينصب على ارتباط تلك الإصلاحات ماديًا ورمزيًا بتنظيم(*) الشباب السود واللاتينيين وأحيائهم وإخضاعهم للسيطرة. ومع أن اللامساواة والتفرقة والظلم العرقى يمثل واقع دائم عبر كل تاريخ شيكاغو، فإننى أدفع هنا بأن السياسات المدرسية المعرقنة تتضمن عواقب جديدة خطيرة فى سياق اقتصاد المدينة الذى أعيدت هيكلته، واحتلال الأغنياء للمدينة، وإزاحة الجاليات الملونة منخفضة الدخل، وأجندة شيكاغو كمدينة عالمية. وسوف أفحص بإيجاز الحس العام الجديد حول هذه السياسات، وأدفع بأجندة بديلة للمدارس الحضرية.

الإطار والمنهج والبيانات

بإتباع فكرة جريس Grace عن الدراسة النقدية للسياسات(٣)، سيكون تحليلى للسياسات متموضعًا نظريًا واجتماعيًا وثقافيًا، وسيكون كذلك توليديًا للفعل

(*) مصطلح التنظيم regulation مأخوذ من الاقتصاد حيث يشير إلى تدخل الدولة فى تنظيم النشاط الاقتصادى، كما كان سائدًا فى النظم الرأسمالية قبل وصول الليبرالية الجديدة، التى ما أن أصبحت لها الكلمة فى المجتمعات الرأسمالية، مثل الولايات المتحدة، حتى تحللت من هذه الضوابط رافعةً شعار إلغاء القيود التنظيمية deregulation بدعوى أن السوق قادر أن يسوى وينظم كافة شئونه. ومما يلاحظ فى هذا الصدد أنه فى الوقت الذى ترفع فيه الليبرالية الجديدة القيود التنظيمية عن الشركات، تقوم بدعوى التنظيم والكفاءة بنزع إدارة توصيل الخدمات العامة، مثل التعليم، من المحليات والمستفيدين ومقدمى الخط الأمامى التعليميين وتردها إلى المركزية، لكنها هذه المرة ليست مركزية الدولة البيروقراطية أو التكنوقراطية، وإنما مركزية تسيطر عليها الشركات. وهو توجه سنلاحظه يتكرر كثيرًا عبر فصول هذا الكتاب [المترجم].

الاجتماعى. وأنا هنا أربط التحليل الإمبيريقى لسياسات شيكاغو التعليمية بتحليل سياسى لنشأتها ومعناها الاجتماعى[٤]. وسوف يركز التحليل على ثلاثة جوانب للسياسات: (١) القواعد التى تحكم تنظيم المدرسة والمنهج والتدريس، (٢) السياسات كممارسات اجتماعية من جانب فاعلين على كافة مستويات النظام التعليمى، (٣) نصوص وخطابات السياسات كسياسة رمزية[٦] أو "أداء سياسى وثقافى"[٧]. وبهذا المعنى تصير السياسات التعليمية جزءًا من نظام مهيمن للعلاقات الاجتماعية يؤطر ما يمكن أن يُقال أو يُفكَر فيه[٨] والهويات الاجتماعية التى تُنْتَج[٩].

وتأسيسًا على هذا الإطار سوف أفحص السياسة التعليمية فى سياق اندفاع اقتصاد شيكاغو الحضرى الجديد إلى أن تصبح مدينة عالمية، وجغرافية جديدة لمركز وهوامش على طول الخطوط العرقية والإثنية والطبقية. واعتمادًا على نظرية العرق النقدية يتخذ تحليلى من "العرق طليعة لأداة تفسيرية لاستمرار اللامساواة"[١٠]. والتركيز هنا ينصب على علاقة السياسات التعليمية بالسياسة الثقافية للعرق فى المدينة[١١]. ومع أن السياسة الرسمية تُناقَش على مستويات متعددة، ومع أن ممارسات مستوى المدرسة تجسد أيديولوجيات منبثقة وأخرى باقية وإصلاحات ماضية، فإن هذا التعقيد أبعد من نطاق تناول هذا الفصل[١٢].

يعتمد تحليلى على مقابلات أجريتها مع مديرين بالإدارة التعليمية ومراجعة البيانات الكمية ووثائق السياسات الخاصة بمدارس شيكاغو العامة، إضافة إلى المقالات الصحيفة والدراسات حول تغير اقتصاد شيكاغو وخصائصها السكانية ومنشورات العقارات والمنظمات المدنية للنخبة ومسئولى المدينة. كما يعتمد أيضًا على مقابلات مع المعلمين ومديرى المدارس والطلاب، وملاحظات للفصول والأنشطة المدرسية، واجتماعات فى أربعة مدارس أولية عامة بين ١٩٩٧ و ٢٠٠١. سوف أبدأ بالسياق السياسي-الاقتصادى لشيكاغو، ثم أفحص دور سياسات المحاسبية فى ضبط الطلاب والمعلمين والجاليات، ثم أفحص طرق استخدام هذه السياسات كطريقة لمراقبة المعلمين والطلاب والجاليات الملونة وإخضاعهم للسيطرة، ثم أركز تناولى على

مدارس شيكاغو العسكرية التى أدفع بأنها ترتبط بمجموعة أوسع من السياسات الاجتماعية التى تفرض مراقبة بوليسية على الشباب الملونين وتجرمهم. وأخيراً سوف اختتم بمناقشة تأثير السياسات على بعض الأسر والجاليات، وأربط هذا "الحس الجيد" بأجندة بديلة لتحويل المدارس الحضرية.

سياق شيكاغو

المدينة العالمية وإعادة الهيكلة الاقتصادية والسياسة العرقية

تكشف سياسات شيكاغو التعليمية عن مدينة متنوعة عرقيًا وإثنيًا ومستقطَبة اقتصاديًا، تدفعها عمليات إعادة الهيكلة الاقتصادية والعولمة وإزاحة واحتواء الملونين. وفى ظل نظام التراكم الرأسمالى تمثل "المدن العالمية" مراكز قيادة للتمويل والإنتاج العالميين، وأماكن يتركز فيها تنظيم وإدارة التراكم الرأسمالى متعدد الجنسيات وعمليات الإنتاج العالمى[١٣]. ومع تركز الخدمات المتقدمة التى توفرها للمنتجِين والأسواق الدولية ومقار الشركات، فضلاً عن أهميتها كمركز مالى وسياحى، تنافس شيكاغو على مكانة "المدينة العالمية" إلى جانب نيويورك ولوس أنجليس فى الولايات المتحدة[١٤]. وبالتحالف مع شركات شيكاغو وأصحاب المصالح المالية والعقارية، يروج عمدة المدينة ديلى بثبات لأجندة المدينة العالمية. من ذلك قول ديلى فى حملته الأولى للعمودية فى ١٩٨٩: "أعتقد أنكم يجب أن تنظروا إلى الأسواق المالية: الخدمات المصرفية وصناعة الخدمات وتطوير مطار أوهير الدولى والسياحة والتجارة. إن مدينتكم ستصبح مدينة عالمية"[١٥].

وكما هو الحال فى المدن العالمية الكبرى الأخرى، تنتج العولمة فى شيكاغو "جغرافية جديدة قائمة على مركز وهوامش"[١٦] تتميز بتعميق اللامساواة فى المرتبات والأجور وفى الإسكان وفى المطالبة بالفضاء العام. فقد تغير وجه شيكاغو من مدينة صناعية "لأغانى العمال الزنوج الحزينة"، إلى مدينة لمقار الشركات والسياحة وأحياء

الأغنياء، جنبًا إلى جنب مع ورش العمل الشاق والإسكان المتدهور والمناطق المعزولة منزوعة التصنيع والاستثمار. كما تجرى إزاحة أحياء الطبقة العاملة منخفضة الدخل القديمة من المدنية لصالح إسكان الأغنياء الفاخر والمحلات ونوادى الترفيه الفخمة التى لا يتحملها إلا المهنيين من أصحاب المرتبات العالية. وعبر أرجاء المدينة تمت التضحية بإعادة التنمية الاقتصادية فى المناطق منخفضة الدخل من أجل تجديد وتطوير منطقة وسط المدينة التجارى كمنطقة ساحرة للسياحة والمطاعم الغالية والأماكن الثقافية والإسكان الفاخر. يتوازى هذا النمط مع العزل الاجتماعى المتزايد للجاليات الأمريكية اللاتينية والأفريقية المحرومة من موارد المدينة(١٧). ومن خلال مناطق تمويل الزيادات الضريبية(*)(١٨)، حولت المدينة ملايين الدولارات من أموال الضرائب المخصصة للمدارس والمكتبات العامة والخدمات الحكومية الأخرى إلى مناطق التنمية والمصالح العقارية. والإسكان الشعبى الذى تُرِك على مدى عقود للتآكل بفعل غياب الاستثمار وسوء الإدارة يتم فى الوقت الراهن محوه على عجل لتمهيد الطريق لصالح شقق التمليك condominium الغالية الجديدة وبناء بيوت المدينة(**) للأغنياء. وفى غضون ذلك يتم تفريق السكان السابقين و/أو إجبارهم على

(*) مناطق تمويل الزيادات الضريبية TIFs طريقة للتمويل العام تستخدم فى مشروعات إعادة التنمية وتطوير المجتمعات المحلية منذ أكثر من ٥٠ عامًا فى الولايات المتحدة ودول أخرى، وتقوم على استخدام الزيادات الضريبية المستقبلية فى تمويل مشروعات التنمية المحلية الحالية. فمن المفترض أن التنمية فى منطقة ما سوف ترفع قيمة العقارات فيها، وعلى هذا الأساس تقدم الأموال للتنمية انتظارًا للزيادات الضريبية المستقبلية. وقد انتقدت هذه الطريقة بأنها تحول الأموال العامة إلى الاستثمار والبنية التحتية اللازمة للشركات بعيدًا عن الخدمات العامة كالتعليم والصحة، فضلاً عن إزاحة الفقراء من هذه المناطق لصالح الأغنياء أو ما يعرف بمصطلح gentrification [المترجم].

(*) بيت المدينة townhouse هو البيت الذى يملكه أعضاء المجالس التشريعية فى العاصمة، إضافة إلى البيت الريفى فى دوائرهم الانتخابية. وأصبح المصطلح يستخدم لبيوت الأغنياء فى المدن الرئيسية التى تقع فيها مصالحهم الاقتصادية [المترجم].

الخروج من المدينة إلى الضواحي المُفْقَرة أو مناطق أخرى منخفضة الدخل ومعزولة اجتماعيًا.

وفضلاً عن ذلك تنتج العولمة وإعادة الهيكلة الاقتصادية قوة عمل مقسمة طبقيًا ومستقطَبة اقتصاديًا إلى درجة كبيرة من خلال عمليات رفع وتنزيل واستبعاد العمال المتزامنة[١٩]. وفي منطقة شيكاغو الحضرية أدى التغير من اقتصاد التصنيع إلى اقتصاد المعلومات والخدمات إلى التطرف في كلتا نهايتي متصل الأجور/المرتبات، بينما حدث النمو الأكبر في الوظائف من خلال إبدال الوظائف الصناعية المحمية نقابيًا بوظائف منخفضة الأجور ومنخفضة المهارات، وفي الغالب في الخدمات وبحماية اجتماعية أقل من الوظائف السابقة[٢٠]. وثمة قوة عمل عرضية من الوظائف المؤقتة متعددة المهام لبعض الوقت دون فوائد تتكون - أي هذه القوة- في المقام الأول من النساء أو الملونين أو المهاجرين الذين يعمل كثيرون منهم في ثلاث أو حتى أربع وظائف مؤقتة أو لبعض الوقت. بينما اضطر آخرون - الأقل حظًا - إلى اللجوء إلى الاقتصاد غير الرسمي من أجل البقاء.

والأشكال الجديدة للتفاوت الاقتصادي معرقنة إلى درجة كبيرة. فالتفاوت في الأجور بين الأمريكيين الأفارقة واللاتينيين مقارنة بالبيض في ازدياد[٢١]، وفي عام ١٩٩٩ ذكرت جانيت أبو لغد أن منطقة شيكاغو الحضرية تتصدر كل المناطق الأخرى في التفاوت الاقتصادي بين البيض والأمريكيين الأفارقة[٢٢]. وفي غضون ذلك يتم إقصاء أقسام كبيرة من قوة العمل الممكنة، في المقام الأول الشباب الأمريكيين الأفارقة واللاتينيين، بشكل كبير من الاقتصاد الرسمي[٢٣]. فمن منظور رأس المال ونخب شيكاغو السياسية، يعتبر كثير من الشباب الملونين زائدين عن حاجة قوة العمل، بل وأيضًا مصدر خطر حقيقي في مدينة يعاد بنائها لجذب السياحة والمديرين ذوي المرتبات المرتفعة والعمال الفنيين وخدمات الشركات في قلب الاقتصاد العالمي. وعمليات العولمة وإعادة الهيكلة الاقتصادية والعزل والتشتيت المكانيين تتلاقى مع أيديولوجيا عنصرية بيضاء وأبنية قوة وامتيازات عرقية لتعزيز سياسة ثقافية تنسب

المرض إلى الجاليات الملونة وتجرمها. فقد أصبحت هذه الجاليات، خاصة الشباب السود واللاتينيين، أهدافًا لأعمال الشرطة والمضايقة والإرهاب المتصاعدة. والحقيقة الصارخة هى أن مستقبل جيل كامل من الأمريكيين الأفارقة واللاتينيين يحتمل جداً أن يكون فى أحشاء مجمع صناعة السجون أكثر منه فى مكاتب اقتصاد شيكاغو المعلوماتى والخدماتى الجديد(٢٤). ولا يمكن فهم سياسات شيكاغو التعليمية بالكامل بمعزل عن هذه العمليات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

المحاسبية والتنظيم المعرقن للتمدرس

يعطى نظام المحاسبية بمدارس شيكاغو العامة للمديرين المركزيين سلطة تنظيم كثير من جوانب التدريس والتعلم والتنمية المهنية والتنظيم المدرسى ومستقبل الطلاب التعليمى. لكن فى الواقع تُمارَس هذه القوة على نحو فارق وبنتائج مختلفة جداً فى المدارس منخفضة الدرجات التى تخدم الطلاب الملونين منخفضى الدخل والمدارس الواقعة فى جاليات الطبقة المتوسطة البيضاء الأكثر ثراءً. وبناءً على البيانات التى جمعتها من أربع مدارس أولية - جروفر Grover وويستلون Westlawn وبروير Brew-er وفيرلى Farley(٢٥) سأوضح فيما يلى ماذا يعنيه هذه التنظيم الانتقائى للتمدرس بالنسبة للطلاب والمعلمين.

أربع مدارس: تقاطع العرق والطبقة والقوة والمحاسبية:

إن أكثر من ٩٠٪ من الطلاب فى مدرستى جروفر وويستلون من الأمريكيين الأفارقة ومنخفضى الدخل. تعانى مدرسة جروفر من معدل عالى لتغيير المعلمين واستخدام معلمين مؤقتين وغير مؤهلين. وتتمتع مدرسة ويستلون بهيئة تدريس أكثر استقراراً وسمعة طيبة باعتبارها أحد أفضل المدارس التى تخدم مجموعة كبيرة من المشروعات السكنية. أما مدرسة بروير فأكثر من ٩٠٪ من طلابها من المكسيكيين والأمريكيين المكسيكيين، وحوالى ٩٠٪ منهم من منخفضى الدخل، وبها برنامج موسع

ثنائى اللغة أسباني/إنجليزى. أما مدرسة فيرلى فهى تضم خليط من مستويات الدخل والأعراق، وبها نسبة كبيرة من أولياء الأمور المهنيين من كل من البيض والأمريكيين الأفارقة. وحوالى ٥٠٪ من طلاب فيرلى أمريكيين أفارقة والباقى بيض وأسيويين ولاتينيين. وتتمتع فيرلى بهيئة تدريس جيدة، كلهم تقريبًا معهم درجات علمية ونشطين مهنيًا خارج المدرسة.

فى عام ١٩٩٦ كانت جروفر من أوائل المدارس التى وضعت تحت التعليق proba-tion، وبعد ذلك بخمس سنوات كانت درجات أقل من ١٥٪ من الطلاب عند أو فوق المستويات القومية فى اختبار آيوا للمهارات الأساسية ITBS فى القراءة، وأقل من ٢٥٪ عند أو فوق المستويات القومية فى الرياضيات. وبين عامى ١٩٩٧ و٢٠٠١ رفعت مدرسة ويستلون درجاتها على اختبار آيوا للمهارات الأساسية من أقل من ٢٥٪ من الطلاب عند أو فوق المستويات القومية إلى ٥٠٪ تقريبًا. وفى كل من جروفر وويستلون كانت ثقافة المدرسة، رغم أنها معقدة ومتناقضة، مشبعة حتى النخاع بالممارسات واللغة والقيم التى أرساها الأداء على اختبار آيوا للمهارات الأساسية الذى يعد الأساس للمحاسبية فى مدارس شيكاغو العامة، وبدرجة أقل على اختبار ولاية إلينويز للتحصيل ISAT. وذلك يعنى أن المعلمين يُدَرِسون للطلاب وأعينهم على مفردات/مهارات الاختبار المحددة التى أدى طلابهم فيها بشكل سيء فى العام الماضى، حيث يميل المعلمون إلى إعادة إنتاج محتوى الاختبار فى المنهج، وإحلال كتيبات الإعداد للاختبار محل الكتب الدراسية. من أمثلة ذلك أن مدير أحد المدارس طلب من معلمى الصفوف الأولى أن يُحِلوا مواد الإعداد للاختبار محل المنهج القياسى لأكثر من ربع السنة الدراسية. وفى إحدى المدارس صَوَّت المعلمون تأييدًا لاستخدام المال المخصص لبرنامج الفنون فى شراء كتب الإعداد للاختبار. ويركز المعلمون أيضًا على آليات أخذ الاختبار وإستراتيجيات اختيار إجابات مفردات الاختيار من متعدد. وحتى المعلمون الذين ينتقدون التركيز على الاختبارات القياسية، يشعرون أنهم مضطرون للقيام ببعض الإعداد للاختبار، وذلك بسبب ما يترتب عليها من نتائج جدية على الطلاب وبسبب الضغوط من مديريهم[٢٦]. فهذه الممارسات يترتب عليها عائد.

والتركيز غير العادى على الإعداد للاختبار كان عاملاً رئيسيًا فى تحسن درجات مدرسة ويستلون.

هذا الرضوخ ينتج جزئيًا عن مناخ المحاسبية الذى كان إجباريًا على الجميع. فقد اخترق الخطاب الإدارى لليبرالية الجديدة النقاش العام حول التعليم فى شيكاغو وعلى المستوى القومى لدرجة أن المنظورات الأخرى أُسكِتت بالكامل تقريبًا. فالاختبارات عالية الرهان وعقوبات الفشل أصبحت موجودة فى كل مكان وضرورية وعادية وحتمية. ورغم المعارضة (الخاصة) من بعض المعلمين، أصبح "الإعداد للاختبار" جزءًا طبيعيًا من المنهج. فقد غدا اجتياز الاختبارات هدفًا مقررًا وعلنيًا للتمدرس بغض النظر عن الأهداف التربوية الجوهرية الأخرى التى قد يتبناها المربون، حتى أنه فى السنة الثالثة من استقصاءاتى بدا بعض المعلمين مندهشين للغاية من سؤالى حول ممارسة أصبحت روتينًا. وقد وصفوا أخذ الاختبارات بأنه "مهارة تعلم حياتية"، وبرروا ممارسة الاختبار فى صف ما بأنه إعداد للاختبار فى الصف التالى، أو فى المدرسة الثانوية، أو فى اختبار الاستعداد الدراسى SAT، أو فى الوظيفة فى مكتب البريد، أو فى الحياة عمومًا. ومن الممارسات الشائعة التى باتت فى حكم العادة أيضًا (رغم الرفض الأخلاقى الدفين) انتشار التشعيب التعليمى educational triage. فالطلاب القريبون من اجتياز اختبار آيوا للمهارات الأساسية يُفْرَد لهم انتباه وتدريس إضافيين، لا يحظى بهما أولئك الذين يكون أملهم ضعيف فى اجتياز الاختبار. والمعلمون، شأنهم شأن الجمهور عمومًا، ينتهى بهم الحال إلى الموافقة على سياسات تنكر فاعلية الطلاب والمعلمين على حد سواء، وتنفى أهدافًا تربوية أكثر اتساعًا.

ورغم أن مدرسة بروير أقل انشغالاً بالاختبارات من مدرسة ويستلون وجروفر، فإن جهود تشجيع التدريس القائم على الانخراط المتروى والعقلى والثنائية اللغوية/الثنائية الثقافية فيها قد تقوضت بفعل سياسات المحاسبية. ورغم أن حوالى ٥٠٪ من طلاب مدرسة بروير جاءت درجاتهم عند أو فوق مستوى المعايير القومية على

اختبار آيوا للمهارات الأساسية، فقد تلقت المدرسة تحذيراً من السلطات المركزية بأنها قد تُجْبَر على تبنى المناهج التى تقرها الإدارة التعليمية إذا انخفضت درجاتها. وقد أدى ذلك إلى تضييق المنهج إلى حد ما. على سبيل المثال تخلى المعلمون عن منهج فى الرياضيات ذى توجه مفاهيمى فقط لأنه لم يكن يرتبط مباشرة باختبار آيوا للمهارات الأساسية. ولا يزال بعض المعلمين التقدميين يناضلون من أجل الإبقاء على المداخل النقدية إلى المعرفة فى وجه الثقافة القائمة على الاختبار، تلك الثقافة التى تقوى سلطة المعلومات المتلقاة وحفظ الحقائق والإجابات الصحيحة والخاطئة البسيطة.

وعلى النقيض من ذلك نجد فى فيرلى -المدرسة ذات النسبة الكبيرة من طلاب الطبقة المتوسطة والبيض والسمعة الأكاديمية الممتازة- أن معظم المعلمين والمدير، وإلى حد ما أولياء الأمور، يعارضون صراحة أجندة المحاسبية التى تفرضها الإدارة التعليمية. وبوجه عام تتسم المدرسة بثقافة غنية فى القراءة والكتابة وتتاح للطلاب الفرص لمناقشة الأفكار والدفاع عن آرائهم وإنتاج أعمال ذات معنى (مثل القصص القصيرة والمقالات التروية). ومع أن ٧٠-٨٠٪ من الطلاب تأتى درجاتهم عند أو فوق المستويات القومية على اختبار آيوا للمهارات الأساسية، لا تستطيع المدرسة أن تتجاهل الاختبارات عالية الرهان. لكن المعلمون، مع ذلك، يتمسكون بقوة بمنهج يعتقدون أنه يشكل "تعليمًا جيدًا". ومن أدلة ذلك أن معلمى الصف الثالث قرروا أن يرفضوا منهج كتابة توصى به الإدارة التعليمية من أجل مداخل يعتقدون أنها تنمى الكتابة الطليقة. لكن معلمى مدرسة فيرلى يدركون جيداً، فى نفس الوقت، أن الهبوط الكبير فى درجات المدرسة فى الاختبارات قد يترتب عليه نتائج جدية بالنسبة للمدرسة والطلاب الفرديين، لكنهم يميلون إلى التمييز بوضوح بين المنهج المنتظم والممارسة من أجل الاختبارات، وممارسة الاختبارات تُقدَّم هنا كتمرينات وليس نشاط تعلم. وقد ذكر كثير من معلمى فيرلى أنهم قد يتركوا المدرسة، أو يعتزلوا التدريس ككل إذا لزم الأمر، إذا خضعت مدرسة فيرلى لهيمنة اختبار آيوا للمهارات الأساسية "مثل المدارس الأخرى".

إن التعـاطى المختلف من جانب المدارس مع المحاسبيـة أمـام الإدارة التعليـمية يرتبط بقوة بالامتيازات العرقية والطبقية الماضية والحالية والقوة السياسية النسبية لجاليات هذه المدارس. وهذا التعاطى يبين أن السياسات المدرسية التى تستهدف التنظيم والسيطرة تزيد من عجز الجاليات المقهورة، وأن المدارس أيضًا تعكس تمايزات القوة فى المدينة. فدرجات الاختبار العالية لمدرسة فيرلى تَنتُج عن امتيازات مرتاديها من الطبقة الوسطى والبيض ووقوعها فى جالية مهنية قوية سياسيًا تسمح للمدرسة بتجنب المراقبة من قِبل مسئولى الإدارة التعليمية. فهذه المدرسة ذات التنظيم النشط لأولياء الأمور والتى تتكون جزئيًا من مهنيين مؤثرين لها تاريخ فى تجاهل أوامر الإدارة التعليمية فيما قبل إصلاحات ١٩٩٥. كما أن جمهور مدرسة فيرلى المكون من الطبقة الوسطى وجاليتها الغنية يجذبان مجموعة مستقرة من المعلمين المؤهلين ينظرون إلى أنفسهم عادة على أنهم مفكرون ومهنيون واسعو الإطلاع. فهؤلاء يصنعون أحكامًا واثقة حول معايير شيكاغو الأكاديمية ومزايا الاختبارات المختلفة والمناهج القائمة على البحوث، ويعضدهم مدير مدرسة يدافع عن كفاءتهم المهنية ويحميهم من أوامر الإدارة التعليمية قدر الاستطاعة. كما تستفيد المدرسة أيضًا من علاقاتها الوثيقة مع الجامعات واشتراكها فى عمليات تطوير المناهج التى ترعاها الجامعات.

باعدت هذه الامتيازات بين مدرسة فيرلى ومدرستى جروفر وويستلون اللتان تقعان فى جاليات دمرتها عقود من وقف الاستثمار، وفى الوقت الحالى هدم الإسكان الشعبى. ومدرسة جروفر، على وجه التحديد، تعد مثالاً لعدم الإنصاف الذى تبتلى به المدارس الحضرية التى تخدم الطلاب الملونين. فحتى عام ١٩٩٩ لم يكن بجروفر ساحة لعب، ولا روضة أطفال تعمل طوال اليوم، ولا معامل علوم ولا مكتبة. وللمدرسة تاريخ طويل مع المديرين غير الأكفاء وهيئة التدريس ذات التنمية المهنية المحدودة بعد حصولهم على درجاتهم العلمية الأصلية وعدم وجود متخصصين فى القراءة. ورغم أن بعض هذه النقائص تم تصحيحها بأموال غير منتظمة، لا تزال المدرسة تتميز بمستوى

مرتفع جداً من تغيير المعلمين ونسبة عالية من المعلمين غير المؤهلين. أما بروير، ومع أنها هى الأخرى واقعة تحت تهديد مزيد من السيطرة المباشرة إذا هبطت درجاتها، ففيها مدير نشط وتنظيم فعال لأولياء الأمور احتشد وتعبأ لتحدى سياسات الرسوب أو البقاء للإعادة التى وضعها مجلس الإدارة. وتتميز هذه الجالية أيضاً بتاريخ من الكفاح من أجل التعليم ثنائى اللغة ومن أجل حقوق المهاجرين غير الشرعيين، كما تناضل منظمات الجالية ضد احتلال الأغنياء للحى. وتلك الفاعلية السياسية وسمعة جالية المدرسة القوية يوفران بعض الأمان ضد التدخل الأكبر من جانب الإدارة التعليمية.

تضرب المدارس الأربع المثل على الطرق التى من خلالها تسهم السياسات الحالية فى تعقيد أشكال الظلم التاريخى. فالتاريخ والأداء الأكاديمى لكل من جروفر وويستلون يرتبطان بأشكال متعددة من الإخضاع العرقى والطبقى المتجذرين بنائياً وثقافياً، وعقود من الظلم التعليمى. ورغم نضال الجاليات الأمريكية الأفريقية واللاتينية من أجل تحسين تعليم أطفالهم، جاءت التغييرات الهيكلية فى الاقتصاد خلال السنوات الثلاثين الماضية لتزيد من تعقيد أشكال الظلم العرقى والطبقى. فإلى جانب الإفقار الاقتصادى الذى نتج عن وقف التصنيع والاستثمار، تم تقويض الجاليات الأمريكية الأفريقية واللاتينية أكثر من خلال تشطينها وتشويهها فى أجهزة الإعلام وفى الأحاديث العامة. وكان من نتائج ذلك أن باتت مدارس مثل جروفر وويستلون الواقعة فى جاليات الأمريكيين الأفارقة منخفضة الدخل، على وجه الخصوص، أقل المدارس فى الموارد وأقلها فى فرصة إجراء تغييرات تحويلية شاملة، وباتت جالياتها الأقل فى القوة السياسية. وهذه المدارس هى أيضاً الأكثر خضوعاً لمنهج ضيق يسترشد بالاختبارات، فى وقت يحتاج فيه طلاب هذه المدارس بشكل ملح إلى تعليم يسلحهم بأدوات تمكنهم من تحليل ونقد التفاوتات الاجتماعية التى تغلف حياتهم.

التفاوت على مستوى الإدارة التعليمية ومتطلبات سوق العمل:

ثمة أدلة على أن نمط المناهج المُضَيقة والتدريس المسترشد بالاختبارات فى مدرستى جروفر وويستلون منتشران عبر النظام فى المدارس التى تخدم الطلاب الأمريكيين الأفارقة منخفضى الدخل، وإلى حد ما الطلاب الأمريكيين اللاتينيين. يتجلى ذلك فى الخصائص السكانية للمدارس التى تؤكد على المهارات الأساسية وتلك التى تقع أكثر تحت ضغط تحسين درجات الاختبارات (المدارس الواقعة تحت التعليق ومدارس التدريس المباشر بمخطوطات والمدارس الثانوية الانتقالية والبرامج العلاجية الأخرى). فغالبية المدارس الواقعة تحت التعليق من مدارس الأمريكيين الأفارقة، وقليل منها من مدارس الأمريكيين اللاتينيين أو مختلطة من الفئتين، وعموماً لا يوجد إلا قليلاً جداً من الطلاب البيض فى المدارس الواقعة تحت التعليق[٢٧]. فعندما وضعت إدارة شيكاغو التعليمية ١٠٩ مدرسة تحت التعليق فى عام ١٩٩٦، كان متوسط الفقر بالمدارس الأولية الـ٧١ التى وضعت تحت التعليق حوالى ٩٤٪[٢٨]. والمدارس الـ٥٩ التى تستخدم التدريس المباشر بمخطوطات (اتصال شخصى مع موظفى المحاسبية بالإدارة التعليمية) تتبع نفس النمط السكانى للمدارس الموضوعة تحت التعليق. وهذا البرنامج، كما يصفه العاملون فيه، يتبع نموذج التربية الخاصة. ووفقًا للمعلومات المقدمة للمعلمين فى مدارس التدريس المباشر بمخطوطات[٢٩]، فإن الهدف يتمثل فى تحسين "التعليم الأساسى للأطفال من الخلفيات المحرومة اقتصادياً"[٣٠]. وكذلك المدارس الثانوية الانتقالية لطلاب الصف الثامن الأكبر من السن القانونى الذين يفشلون فى اختبار أيوا للمهارات الأساسية تتميز -هذه المدارس- بمنهج مُخَفَض تماماً فى القراءة والرياضيات والدراسات الدولية (بلا علوم أو لغة أجنبية أو فنون) موجه فى الأساس إلى اجتياز اختبار أيوا للمهارات الأساسية[٣١]. وكما أوضح معلم فى أحد المراكز الانتقالية قال: "إننا نحاول أن نختصر المفاهيم إلى الدرجة التى تمكنهم من النجاح إذا انتبهوا بأقل درجة"[٣٢]. وقد ذكر طلاب سابقون بمدرسة برووير أن فصل اللغة الإنجليزية بالمركز الانتقالى لا مكان فيه لمناقشة الأدب، وإنما فحسب

سيل متواصل من أوراق التدريبات المصاغة على طريقة الاختبارات القياسية. أما الطلاب الذين يواجهون هذا المنهج المُفْقَر فهم فى الأساس من الأمريكيين السود واللاتينيين. من أدلة ذلك أنه فى عام ٢٠٠٠ كسبت منظمة ناشطة لأولياء الأمور دعوى حقوق مدنية ضد إدارة شيكاغو التعليمة بخصوص التأثير التمييزى الجائر لسياسة البقاء فى الصف للإعادة التى وضعت الطلاب الأمريكيين السود واللاتينيين فى مدارس ثانوية انتقالية بشكل غير متكافئ مع نسبهم فى المجتمع المحلى[٣٣]. ويمكن أن يُقال نفس الشيء حول برامج ما بعد المدرسة العلاجية التى تشكل جزءًا من "دعم" نظام المحاسبية للطلاب الفاشلين. فهذه البرامج تستهدف الإعداد لاختبار أيوا وتستهدف فى الأساس الطلاب الملونين منخفضى الدخل.

وبقدر ما تتبع البرامج والمدارس نموذج المهارات الأساسية، بقدر ما تكون فرص الطلاب فى هذه السياقات أقل فى التفكير الناقد أو الانخراط العقلى المستدام أو العمل ذى المعنى شخصيًا واجتماعيًا. وعلى حد تعبير أحد المعلمين فى جروفر "فجأة يتحول الفصل إلى مكان تُحَسَن فيه درجات الاختبار ويتعلم فيه الطلاب كيف يحصلون على درجات أعلى فى الاختبارات بدلاً من أن يتعلموا حقيقةً". وفى مضاعفة للتمييز العنصرى الذى يخترق مدارس شيكاغو العامة، يتحمل هؤلاء الطلاب الآن وطأة نظام أخفق تاريخيًا فى تعليمهم. ومن المؤكد أن التعليم الأساسى للطلاب الذين حُرِموا تاريخيًا من – وبالتالى هم فى أمس الحاجة إلى– برنامج ثرى وصارم عقليًا لا يمثل الحل لأشكال الظلم المتخندقة. وكما يدفع موريل Murrell فيما يتعلق بالطلاب الأمريكيين الأفارقة، فإن التربية التحريرية هى تلك التربية التى تعلم الأطفال أن يفكروا نقديًا ويتصرفوا أخلاقيًا[٣٤]. والتمدرس الذى يسترشد بالاختبارات القياسية يدمر التفكير الناقد والإحساس بالفاعلية الشخصية والاجتماعية المهمان بشكل خاص للطلاب الأمريكيين الأفارقة والأمريكيين اللاتينيين فى ظروف اشتداد اللامساواة العرقية والطبقية. وكما ينبه لادسون – بيلينجز Ladson-Billings، فـ"إذا أُريد تسليح الطلاب للنضال ضد التمييز العنصرى، فإنهم يحتاجون إلى مهارات ممتازة بدءًا من

أساسيات القراءة والكتابة والرياضيات إلى فهم التاريخ والتفكير الناقد وحل المشكلات وصنع القرارات"(٣٥).

وسواء أكان ذلك مقصوداً أم لا، فإن منهج المهارات الأساسية للطلاب الأمريكيين الأفارقة وبعض الطلاب الأمريكيين اللاتينيين يتفق مع متطلبات التعليم الأساسى للأعمال الخدمية منخفضة الأجر فى اقتصاد شيكاغو الجديد. فرغم التصور العام الذى يذهب إلى أن الاقتصاد الجديد يتطلب مهارات عالية من الجميع(٣٦)، ينبئ الواقع بأن كثيراً من الوظائف الخدمية منخفضة الأجر الجديدة تتطلب فقط مهارات القراءة والكتابة والحساب الأساسية والقدرة على إتباع التعليمات وتكييف الميول مع العمل(٣٧). مما يؤكد ذلك أنه فى عام ١٩٩٨ طالب النادى التجارى بشيكاغو (منظمة تضم نخبة المدينة المالية والمشروعاتية والمدنية) بـ"موظفين أكثر مهارة من أى وقت سابق"، وعرف هؤلاء بأنهم أولئك الذين "يستطيعون، على أدنى تقدير، أن يقرءوا كتيبات التعليمات ويمارسوا الرياضيات الأساسية ويتواصلوا جيداً"(٣٨). وإجراءات المحاسبية القاسية فى مدارس شيكاغو العامة تضمن أن الطلاب الذين يتخرجون من مدارسها يمتلكون الحد الأدنى من هذه المهارات. والمدارس عالية الجودة أساسية أيضاً لرغبة شيكاغو فى أن تكون مدينة عالمية، والمحاسبية والمعايير والإجراءات العددية للتحصيل هى لغة الجودة. وفى تقرير عام ١٩٩٨ للنادى التجارى، صادق النادى على الإصلاحات التعليمية التى اتخذها عمدة المدينة واتخاذ التعليم من أجل قوة عاملة ماهرة كأحد الأولويات الثلاث الأولى لتحقيق رؤيته لمنطقة شيكاغو كمنطقة تقوم على "المعرفة والخبرة والفرصة الاقتصادية"(٣٩).

وإضافة إلى المعرفة الرياضية والطباعية الأساسية، يهتم أصحاب الأعمال بشكل خاص باتجاهات عمال المستقبل و"روح العمل" لديهم، أى إمكانية التعويل والاعتماد عليهم وقدرتهم على أخذ التوجيهات، وفى حالة عمال الخدمة الشخصية الأسلوب اللطيف(٤٠). وتلك الاهتمامات معرقنة حتى النخاع. ففى تقرير ١٩٩٠ للنادى التجارى جاء أن "الأقليات" فى المدارس منخفضة الأداء سيصبحون جزءاً أكبر من القوة

العاملة، وسيكونوا فى حاجة على الكفايات الأساسية الجديدة. وفى منافستها لكى تصبح مدينة عالمية، وجد موبيرج Moberg أن شيكاغو فى موقف أضعف من منافساتها فى جذب شركات جديدة وذلك بسبب انتشار تصور لقوة شيكاغو العاملة أنها "سيئة التعليم وغير مدربة ويصعب إدارتها"، وهذا التصور "يؤثر بشكل خاص على توظيف الرجال السود"(٤١). كما أن المحاسبية الصارمة فى مدارس شيكاغو العامة تشير أيضًا إلى أن المدارس تنتج الهويات المنضبطة disciplined identities التى تطلبها الشركات للطبقات الأدنى من القوة العاملة المعرقنة إلى درجة بعيدة.

الضبط الاجتماعى المعرقن

يلاحظ فينسن وروس Vinson and Ross أن سياسات المحاسبية تمثل نمطًا ماكرًا جدًا من السيطرة الاجتماعية يدمج فكرة فوكو عن الضبط باعتباره "عرضًا" spectacle (ملاحظة الكثرة للقلة) والضبط باعتباره "مراقبة" surveillance (ملاحظة القلة للكثرة)(٤٢). فوضع المدارس تحت التعليق وإبقاء الطلاب آليًا للإعادة ونشر ومناقشة درجات الاختبار فى المدارس ومتابعة أجهزة الإعلام المتواصلة لنتائج الاختبارات تشكل عرضًا عامًا للفشل. فالطلاب الذين يفشلون يوصمون بتحويلهم إلى البرامج العلاجية والبقاء فى الصف للإعادة. وهؤلاء الطلاب يتعرضون لإذلال علنى باستبعادهم من مراسم تخرج الصف الثامن وإحالتهم إلى المدارس الثانوية الانتقالية. وكذلك المعلمون والمديرون، إضافة إلى الطلاب وجالياتهم (السود واللاتينيين فى المقام الأول)، يُعاقَبون علنًا بوضعهم تحت التعليق وتحت سلطة المديرين المركزيين، وعندما يتعاقد مجلس الإدارة مع فاعلين من الخارج للإشراف عليهم و"مساعدتهم". وتلك السياسات تتعهد، فى نفس الوقت، نظامًا شموليًا من المتابعة والرقابة الشديدتين. فالمديرون بالمكتب المركزى للإدارة التعليمية يراقبون مديرى المدارس، وهؤلاء الأخيرين يراقبون المعلمين، والمعلمون والموظفون يراقبون الطلاب وأولياء الأمور. ومن الأهمية الكبيرة بمكان أن نعى أن هذه ليست السياسة التى تعزز الانتباه العام الجاد إلى

الظلم فى النظام، ولا هى السياسة التى تشجع الفحص الجماعى للمشكلات فى المدارس. إنها عملية يقوم من خلالها مسئولو المدينة والتعليم الأقوياء بوضع مدارس وطلاب معينين (وبالتالى جالياتهم) بوصفهم نماذج عامة للفشل، دون مشاركة ديمقراطية من جانب الجاليات للمناقشة والعمل مع المربين لتحسين تعليم أطفالهم. ورغم التطبيق الأحادى لهذه السياسات، فمن الواضح أن المدارس الواقعة تحت الفحص الدقيق هى تلك التى تقع فى جاليات الملونين منخفضة الدخل. إنه ضبط اجتماعى موجه فى المقام الأول للطلاب الأمريكيين السود واللاتينيين ومدارسهم وجالياتهم.

التمدرس المتمايز وبناء هويات الطلاب:

إن أشكال التفاوت بين المدارس الأولية الأربع التى نوقشت هنا تعكس تعليم شيكاغو الآخذ فى التمايز على نحو متزايد. فرغم الخطاب الذى يُخْضِع كل الطلاب إلى معايير عالية، فإن الاختبارات عالية الرهان والإبقاء فى الصف للإعادة والبرامج المدرسية الصيفية العلاجية الإلزامية والمدارس الثانوية الانتقالية تشكل جزءاً من نظام تعليمى مكون من طبقتين. فمن جانب يتاح لأقلية الوصول إلى المدارس الجاذبة الجديدة التى تعد للكليات والمدارس الثانوية وبرامج البكالوريا الدولية، فضلاً عن برامج الموهوبين والبرامج المُعَجَلة الموجودة من قبل. والطبيعة الانتقائية للغاية لهذه البرامج والمدارس الجديدة (فى ثلاثة من المدارس الجاذبة الست الجديدة، لم يتم قبول إلا ٣-٥٪ فقط من كل الطلاب الذين تقدموا واُخْتبِروا للالتحاق كما ورد فى صحيفة شيكاغو صن تايمز[٤٣]. ونسبة البيض غير المتكافئة مع عددهم فى المجتمع. ففى مدرسة نورثساید التى تعد للكليات، على سبيل المثال، يمثل البيض الغالبية فى إدارة تعليمية ٨٩٪ من طلابها ملونين)، تعنى -أى هذه الطبيعة الانتقائية - أن نسبة صغيرة من الطلاب الأمريكيين السود واللاتينيين يتم قبولهم فى هذه المدارس. وعلى الجانب الآخر نجد أن الغالبية العظمى من هؤلاء الطلاب يحضرون فى برامج علاجية ومدارس أحياء محدودة فيما تقدمه من مقررات، ومعلمين غير مؤهلين وغير معدين، ومعدلات

تسرب عالية[٤٤]. والموقع الجغرافى للبرامج المتقدمة أكاديميًا يتفق بدقة مع أنماط احتلال الأغنياء لأحياء المدينة، حيث تدعم السياسة التعليمية الدفع فى اتجاه جذب المهنيين والمديرين من أجل اقتصاد المدينة المعولم.

وبينما تُعَد أقلية من الطلاب برأس مال ثقافى وخبرات تعليمية يؤهلانهم لأن يصبحوا مهنيين وعمال معرفة knowledge workers وفاعلين فى الاقتصاد المعلوماتى، تُعَد الغالبية، وفى المقام الأول الطلاب الملونين، لقطاعات العمل الماهر وغير الماهر منخفضة الأجر. ورغم أن التشعيب الأكاديمى academic tracking له تاريخ طويل، كما يلاحظ رامون فليشا Ramon Flecha، فإن "التشريح الطبقى للمصادر الثقافية فى مجتمع المعلومات يعنى أن ... التعليم سيصبح معيارًا مهمًا جدًا فى تحديد من سينضم إلى أية جماعة [اجتماعية]."[٤٥] وهذا الانتقاء الاجتماعى معرقن للغاية. فضلاً عن أن الطلاب يتعلمون داخل الممارسات الاجتماعية التى تشكل الخبرات التربوية المقسمة طبقيًا أن يتبنوا رؤية محددة للعالم ويتمكنون من هوية معينة لا مجال فيها للوعى النقدى والتأملي[٤٦]. فخطاب الاختبارات عالية الرهان يعلم الطلاب الأمريكيين الأفارقة فى جروفر وويستلون أن تفكيرهم ليس له قيمة أمام سلطة "الإجابات الصحيحة" فى كتاب "أفضل إجابات الاختبار"(*). وهو خطاب يتجنب التفكير النقدى ويطالب بالرضوخ إلى المعرفة المتلقاة ويعلم العجز[٤٧]. والطلاب فى هذه المدارس يُغْمَرون أيضًا فى ميول مختلفة جدًا نحو المعرفة، وتتاح لهم فرصًا لممارسة الفكر والفعل المستقلَين أقل من الطلاب فى فيرلى. ورغم وحدة المدرسة كموقع ينمى الشباب فيه الوعى والفاعلية النقديين، فإن الخبرات المدرسية المتباينة تقدم لهم مصادر مختلفة جدًا لتمنية ذلك. وهذا يكون مهمًا بشكل خاص فى وجه تزايد اللامساواة والقهر.

(*) كتيبات نماذج الأجوبة النموذجية لأسئلة الاختبارات [المترجم].

إن عواقب الفشل فى الاختبارات بناءً على إجادة اللغة الإنجليزية والخطابات المهيمنة تثبت أيضًا التكلفة العالية لاستيعاب اللغة والمعرفة والميول المهيمنة. فيتعلم الطلاب أن خبراتهم واللغة والمعانى المطمورة ثقافيًا التى تعتنقها أسرهم وجالياتهم لا تساوى شيئًا فى نظام تعليمى تحكمه قاعدة "مقاس واحد يناسب الجميع" one-size-fits-all واختبار آيوا للمهارات الأساسية. ومدرسة بروير توضح هذه النقطة. فالسياسات الجديدة تفرض على الطلاب أن يأخذوا اختبار آيوا للمهارات الأساسية فى اللغة الإنجليزية بعد ثلاث سنوات أو أقل فى برامج التعليم الثنائى اللغة أو برامج اللغة الإنجليزية كلغة ثانية. وحتى المعلمون الذين تربوا فى الجالية الأمريكية المكسيكية لمدرسة بروير ويلتزمون بالتعليم ثنائى اللغة/ثنائى الثقافة يقعون تحت ضغط كبير لإعطاء ميزة لتدريس اللغة الإنجليزية. وقد قال أحدهم "إننا لا نعطيها]اللغة الأسبانية[حقها. إنهم يضغطون علينا لكى نقول 'دعنا نضع معتقداتنا جانبًا، ودعنا لا نعتقد أن من الجيد أن تكون ثنائى اللغة'. فنحن لا نستطيع أن نمارس ما نعتقده". فالنتائج الجادة التى تترتب على الفشل فى اختبار آيوا للمهارات الأساسية تعزز أسبقية اللغة الإنجليزية وتعلم الطلاب أن ينظروا إلى واقعهم من وجهة نظر الجماعة المهيمنة وأيديولوجيتها. ومعايير مدارس شيكاغو العامة للتعليم ثنائى اللغة تفرض أيضًا أن يتقن متعلمو اللغة الإنجليزية كلغة ثانية أشكال السلوك التى تميز "الأمريكي". وقد لخص أحد مديرى المدارس التأثيرات الموهنة لهذا "الغزو الثقافى"(٤٨) قائلاً: "إننى يمكن أن أتخيل الشعور بالنقص وأن أقول لنفسى يا إلهى أريد أن يعترف بى الآخرون أو أن أكون شيئًا، لكن ذلك يستلزم أن أتخلص من اللغة الأسبانية وأن أشرع فى تعلم الإنجليزية. فهذا هو الذى يعطى الاعتراف والمكانة ... إنه الشعور بالنقص وبأن ما تمتلكه ليس جيدًا بما يكفى".

تربية العجز:

تقوض سياسات المحاسبية أيضًا فاعلية الطلاب والمعلمين والجاليات. فهى تُحَوِل اللائمة على فشل المدارس من الدولة إلى الطلاب، مع أن الأخيرين ليسوا سوى متلقين

على مدى عقود لتعليم دون المستوى، أو قل حتى نقيض التعليم miseducation. ومع اتخاذ البقاء فى الصف للإعادة والمدارس الصيفية والمدارس الثانوية الانتقالية ودرجات الاختبار المنخفضة بوصفها علامات عامة على النقص، فإن هذه الأشياء تذكر الشباب أنهم هم المسئولون شخصيًا. ففى جروفر يلصق بعض المعلمين درجات الطلاب فى اختبارات السنة السابقة على أبواب الفصول ليشعرونهم بالخزى. وتتردد عواقب الانحراف والمحاسبية الفردية فى تحذيرات القادة المدرسيين من أنه بعد كل ما فعلته إدارة شيكاغو التعليمية فإن "الطلاب الآن هم الذين يجب عليهم أن يعملوا بجد" إذا أرادوا أن يجتازوا الاختبارات. كان هذا الدرس يتردد على ألسنة طلاب الصف الثامن فى براور الذين كانوا يلومون أنفسهم على الفشل فى اختبار آيوا للمهارات الأساسية(٤٩). وبالطبع يقاوم الطلاب أيضًا هذه الرسائل. وقد آثر بعض طلاب براور التسرب على مواجهة الاحتمال المهين للحضور فى مدرسة ثانوية انتقالية. لكن فى المدارس التى أخضعتُها للدارسة غاب التحليل النقدى للاختبارات عالية الرهان الذى قد يسمح للطلاب بأن يفحصوها من منظور القهر العرقى والطبقى واللامساواة التعليمية.

إن وضع المدارس تحت التعليق يثبت أيضًا لكل مجتمع المدرسة أنهم عاجزون. فهو يضفى الصفة الرسمية على إخضاع المعلمين والمديرين ومجالس المدارس المحلية لرؤسائهم الأقوياء الذين يُخْضِعون أعمال الأولين لفحص دقيق ويتمتعون بالسلطة التى تمكنهم من تنظيم كل جوانب المدرسة تقريبًا (المناهج والمداخل التدريسية والتنظيم المدرسى والتنمية المهنية والبرامج التعليمية وخطط التطوير). وقد علقت معلمة فى جروفر على العجز الذى تشعر به هى وزملائها قائلة: "أنا لا أعتقد أن لدينا كثيراً من]السيطرة على ما يمكن أن نفعله فى الفصول [لأنك عندما تكون تحت التعليق تجد أن الجميع يريدون أن يساعدوك، والجميع يريدون أن يقولوا لك كيف يجب أن تفعل الأشياء. فأنت بالفعل لا تكون لك سلطة أو رأى فيما يحدث".

ومما لا يخلو من مغزى أن مصطلح "التعليق" هو نفسه المستخدم فى نظام السجون، وهو ما يشير إلى جنوح المدارس فى بعض جاليات الأمريكيين الأفارقة واللاتينيين، وضمنيًا جنوح الطلاب والأسر أيضًا. وهذا الجنوح الضمنى هو الذى يبرر السيطرة والتقويم [rectification [بلغة السجون والإصلاحيات]. وقد أوجز معلم أحد الصفوف الابتدائية بمدرسة جروفر مضامين الارتباط المتزايد بين فكرة التعليق والنظام الجنائى، حتى بالنسبة للأطفال الصغار جدًا، بقوله: "أطفال كثيرون يعرفون من خلال نظام السجون ماذا يعنيه التعليق(*). وأنت بذلك تربط بين نظام السجون والمدرسة، وهم يسمعون هذا المصطلح الذى يرطم رؤوسهم بشدة".

وفى الوقت الذى يخضع فيه معلمو ومديرو مدرستى جروفر وويستلون (وإلى حد ما بروير) للمتابعة الدقيقة من جانب المسئولين عن المدارس الواقعة تحت التعليق وسلطات المكتب المركزى للإدارة التعليمية ومتابعيه، يجد مربو فيرلى أنفسهم أحرارًا بدرجة أكبر نسبيًا فى أن يتابعوا أهدافهم وعملياتهم التربوية التى يختارونها؛ وذلك تحديدًا لأنهم يخضعون لدرجة أقل من المراقبة من النوع الذى ينتج عن انخفاض درجات الاختبارات. والطلاب فى فيرلى تتاح لهم أيضًا فرص أكثر لممارسة صنع القرار حول أفعالهم. وعلى النقيض من ذلك لاحظ المعلمون فى براور خلال السنوات الأربع الماضية تراجعًا ثابتًا فى فرص المشاركة الديمقراطية فى صنع القرار. فثقافة المدرسة فى فيرلى تعلم الطلاب بوضوح أنهم يتمتعون بدرجة من الفاعلية العقلية والشخصية تختلف كثيرًا عن تلك التى يتعلمها الطلاب فى المدارس الثلاث الأخرى. بيد أننى لا أدعى أن مدارس الأغنياء ومدارس البيض تعزز بالضرورة مداخل نقدية إلى المعرفة. ولا أريد أن أنفى وجود التدريس القوى ضد التيار فى جروفر وويستلون وبروير، ولا أن أقلل من المشكلات فى مدارس مثل فيرلى، خاصة التباينات

(*) مصطلح التعليق probation يعنى فى الأصل تعليق العقوبة بحق المذنبين والأحداث الجانحين وإطلاق سراحهم مع الاستمرار فى مراقبتهم [المترجم].

العرقية فى الصفوف الأعلى فيها(٥٠). ورغم هذه المحاذير، وبوجه عام، يجد الطلاب فى فيرلى فرصًا للتفكير والحكم النقديين تباعد بينهم وبين المنهج المُضَيِّق والتنظيم الصارم فى المدارس التى تتوجه أكثر بالاختبارات، ومعلمو فيرلى لديهم بالتأكيد سيطرة أكثر على عملهم.

وإجمالاً فإن إجراءات المحاسبية ومناهج المهارات الأساسية والبقاء فى الصف للإعادة ووضع المدارس تحت التعليق تعتبر فى نفس الوقت وسائل صريحة لتنظيم الطلاب والمعلمين وشكلاً من التربية يعلم الناس أن يتبنوا هويات خاضعة. وفضلاً عن ذلك فإن السياسات التى تسيطر على الطلاب الأمريكيين الأفارقة والأمريكيين اللاتينيين ومدارسهم تقوض أيضًا فاعلية جالياتهم. لقد أوجد قانون إصلاح التعليم بشيكاغو ١٩٨٨ حكم مجالس المدارس المحلية LSCs التى تتشكل من غالبية من أولياء الأمور وسكان الجالية. ورغم الاختلاف بين المدارس فى سنواته الأولى، أطاح إصلاح ١٩٨٨ بالمشاركة القاعدية الواسعة فى إصلاح المدارس(٥١). فإذا كانت إعادة المركزية من خلال إصلاح ١٩٩٥ قد أضعفت قوة الجاليات المحلية عبر المدينة، فإن مجالس المدارس المحلية فى المدارس الموضوعة تحت التعليق فقدت معظم سلطتها، حيث أن "مديرى المدارس الواقعة تحت التعليق" المعينين من المكتب المركزى للإدارة ألغوا سلطة هذه المجالس. وفى بعض الحالات تم حل مجالس المدارس المحلية تمامًا. كما أن الاختبارات عالية الرهان تقرر أيضًا معظم أجندة مجالس المدارس المحلية فى المدارس المعرضة لخطر الوضع تحت التعليق. وهكذا عملت المحاسبية على نفى المشاركة الديمقراطية، خاصة للجاليات الملونة منخفضة الدخل، وأوصلت رسالة عامة مؤداها أن هذه الجاليات عاجزة عن حكم مدارس أطفالها.

إن "المهارات الأساسية" والتدريس بمخطوطات ووضع المدارس تحت التعليق وإعادة تنظيم المدارس، وهى جميعًا إجراءات مشفرة عرقيًا، تشكل جزءًا من مجموعة أكبر من السياسات الاجتماعية تُخْضِع جاليات الملونين منخفضة الدخل للسيطرة والرقابة البوليسية. وترتبط هذه السياسات عينيًا ورمزيًا بأصحاب المصالح فى التنمية

العقارية والنخب المالية والسياسية المصممة على جعل شيكاغو مركزاً للسياحة والحياة المرفهة ومركز قيادة للرأسمال العالمى. ومعايير المحاسبية تضبط discipline الشباب السود واللاتينيين الذين يعتبرون "خطرين" فى مدينة تجمع أثرياء جدد، جنباً إلى جنب مع المحرومين والمستبعَدين والمدفوعين إلى قاع الاقتصاد الجديد. ومع انهيار الإسكان الشعبى وتشتيت سكانه من أجل إفساح المجال لبيوت المدينة الراقية الجديدة، تأتى هذه السياسات المشفرة عرقياً لتبرر فصل و/أو التخلص من الأمريكيين السود واللاتينيين، بقدر ما تبرر مفردات مثل "التخوم الحضرية" واحتلال الأغنياء لأحياء الفقراء وإزاحتهم باسم "تمدين" civilizing الأحياء الحضرية(٥٢). وهذه السياسات التعليمية التى تضبط وتنظم تبين أن أولئك الذين يديرون المدينة "يستردونها" كفضاء للاستقرار الاجتماعى للطبقة الوسطى البيضاء من أيدى "الآخرين" الخطرين، خاصة الشباب السود(٥٣).

المدارس العسكرية ومراقبة الشباب بوليسياً وتجريمهم

إن مدارس شيكاغو العسكرية جزء من مجموعة سياسات تجرم وتراقب الشباب الملونين بوليسياً وتسمهم بكونهم خطرين ومنحرفين. وهذه السياسات تتضمن سياسة الضبط اللاتسامحية zero tolerance discipline بمدارس شيكاغو العامة التى تفرض التعليق والطرد الآلين على مخالفات معينة، والمدارس الآمنة Safe Schools التى تعزل الشباب الذى تورطوا فى النظام الجنائى، وقانون شيكاغو لمكافحة تسكع العصابات Anti-Gang Loitering Ordinance الذى يخول للشرطة أن تفرق المجموعات فى الأماكن العامة التى تعتقد الشرطة أنهم أفراد عصابات. وهذه السياسات معاً تشكل جزءاً من عملية جديدة للسيطرة الاجتماعية المعرقنة التى تتميز بالدمج والإقصاء الآنيين.

أنشأت إدارة شيكاغو التعليمية مدرستين ثانويتين عسكريتين عامتين ووسعت البرامج العسكرية فى المدارس المتوسطة والمدارس الثانوية بالأحياء. وإطراءً على

النظام الصارم الذى تفرضه هذه المدارس، قال مدير مجلس أمناء مدارس شيكاغو العامة جيرى تشيكو، عند افتتاح أكاديمية شيكاغو العسكرية، أنها "مدرسة تقوم على القواعد والنظام. وهذا شيء جيد جداً"(٥٤). إن كل من أكاديمية شيكاغو العسكرية ومدرسة كريفر Carver الثانوية العسكرية تقعان فى جاليات سوداء، والقيد فيها أكثر من ٨٠٪ منه أمريكيين أفارقة والباقى أمريكيين لاتينيين. والشراكة بين مدارس شيكاغو العامة والجيش الأمريكى وأكاديمية شيكاغو العسكرية يقودها ضباط عسكريون، ويرتدى المعلمون فيها أزياء عسكرية ويُنادى عليهم بلقب "كابتن". وإضافة إلى قواعد الانضباط الموحدة Uniform Discipline Code بمدارس شيكاغو العامة، يجب أن يوقع الآباء والطلاب عقداً يوافقون بمقتضاه على طاعة قواعد الانضباط العسكرى، بما فيها من عقوبات على الإخلال بقواعد المدرسة والفشل فى إكمال أعمال المدرسة (منها مثلاً: يجب على الطلاب أن يقوموا بالتمارين الرياضية والجرى وتنظيف الحوائط). ورغم أن المديرين فى أحد المدارس قالوا أن غرضها ليس التجنيد فى الجيش، فإن الأفراد الذين يستميلون الشباب للتجنيد فى الجيش يجتمعون مع طلاب السنة الأولى ويقدمون لهم اختبار الالتحاق بالجيش الذى يُطبَق فى المدرسة. وبعض الطلاب يلتحقون بالجيش ويجتازون التدريب الأساسى قبل التخرج من المدرسة الثانوية. بل إن عملية الاختيار للالتحاق بالمدرسة تعتبر فحصاً أوليًا للتعرف على الشباب الذين سوف يلتزمون بالانضباط العسكرى.

تُعَلِم هذه المدارس الفردية التنافسية والطاعة المطلقة لهرمية القيادة المجسدة فى نظام الطلاب العسكريين الذى يرقى أولئك الذين يُظهِرون أقوى قيم وسلوك عسكريين وأكبر حماس للأنشطة العسكرية. والشباب الذين يترقون إلى رتبة "كولونيل" يقودون التدريبات العسكرية اليومية للطلاب، ويفتشون "المجندين" (الطلاب الجدد)، وينتزعون طاعة من هم تحتهم. ويمجد مديرو مدرسة كريفر فضائل النظام الذى يتطلب من الشباب أن يرفضوا المساومة على الانضباط العسكرى من أجل التضامن مع شباب آخرين. وكما جاء على لسان ضابط عسكرى فى أحد المدارس "يجب أن تكون مغروراً،

وأن تستعرض مهاراتك ... ليس هناك وقت للأصدقاء، لأنك إذا كان لديك أصدقاء كثيرين فلن تستطيع أن تمارس القيادة. يمكن أن يكون لك أصدقاء، لكن عليك أن تقوم بعملك ... وإذا كنت قريبًا جدًا من الناس فلن تستطيع أن تقف ضدهم إذا توجب عليك ذلك كقائد". والمدارس بذلك تتجاوب مع رغبة الشباب فى الاحترام والمسئولية وتنمية القيادة، لكنها تشكل هذه الخبرات كتمرين على السلطة على الآخرين. لا مكان هنا لتعلم تقرير المصير والروح الجماعية والتحليل النقدى للعالم ومكان الفرد فيه أو ضبط النفس من أجل غايات أخلاقية. والمدارس بانغمارها فى أيديولوجيا النزعة الفردية التنافسية "تساعد الأطفال الذين يساعدون أنفسهم" كما جاء على لسان مدير أحد المدارس.

وكشأن وضع المدارس تحت التعليق والتمرين على الاختبارات، يقوم الدفع الأيديولوجى للمدارس العسكرية علنًا بتعريف الشباب الأمريكيين الأفارقة والأمريكيين اللاتينيين بأنهم غير منضبطين. ورغم إدعاء ديلى بأن المدارس العسكرية تقدم للطلاب "خيارًا آخر"، فقد أنشئت هذه المدارس مع كثير من الضجيج العام فى جاليات الأمريكية الأفارقة منخفضة الدخل، وليس جاليات الطبقة الوسطى أو البيض. والتغطية الإعلامية لانضباط المعسكر التدريبى بالمدارس تمتدحه على أنه يخضع للسيطرة شباب "خطرين" و"منفلتين"(٥٥) وطلاب "فى خطر" بإخضاعهم "للنظام والانضباط". وروايات الإعلام مليئة بقصص حول شباب فاشل وغير منضبط لا يستطيع أن يتحدث "لغة إنجليزية صحيحة" يجيئون من بيوت "مختلة" تحولوا بفضل الأكاديميات العسكرية إلى شباب وشابات يعملون بجد فى المدرسة، ويساعدون فى البيت، ويحترمون الكبار، ويتعلمون حتى أن يتحدثوا "لغة إنجليزية صحيحة". إن هذه المدارس تعد نماذج "للحقيقة" الجديدة: إذا أُريد للتمدرس أن يفلح مع الشباب الحضريين من الملونين، فلا بد له أن يقوم على الضبط الصارم.

وفيما يتم استيعاب هؤلاء الشباب فى نظام قائم على القواعد والسلطة، يُطرَد آلاف مثلهم من الشباب الآخرين من المدارس من خلال سياسة الضبط اللاتسامحية.

والبيانات التى جمعتها منظمة للشباب الناشطين بشيكاغو، تُدعى الجيل واى Generation ٧، تبين أنه فى ظل سياسة اللاتسامح يتم توقيف الطلاب فى الأساس على إخلالات بسيطة غير عنفية وقضايا متعلقة بالحضور، وأن استهداف الأمريكيين الأفارقة، بشكل خاص، قد اشتد فى ظل سياسة اللاتسامح. ففى عام ١٩٩٤، قبل سنة واحدة من تطبيق سياسة اللاتسامح، كان الأمريكيون الأفارقة يشكلون ٥٥٪ من إجمالى القيد فى مدارس شيكاغو العامة، بينما حصدوا ٦٦٪ من حالات التوقيف والطرد. وفى ١٩٩٩-٢٠٠٠ كان الأمريكيون الأفارقة أقل من ٥٣٪ من كل طلاب مدارس شيكاغو العامة، فيما حصدوا أكثر من ٧٣٪ من كل حالات التوقيف والطرد. وبينما لم يزد القيد إلا ٦٦٥ طالبًا فقط بين عامى ١٩٩٩ و٢٠٠٠، زاد التوقيف من ٢١٠٠٠ إلى حوالى ٣٧٠٠٠ حالة. و"الزيادات الأكبر كانت بين الطلاب الملونين، خاصة الطلاب الأمريكيين الأفارقة، حيث زادت نسبة التوقيف بينهم من أقل من ٧٪ إلى حوالى ١٢٪"[٥٦]. كما ارتفعت معدلات الطرد أيضًا، والأمريكيون الأفارقة أيضًا هم هدفها الرئيسى. ووفقًا لمجلة شيكاغو ريبورتر Chicago Reporter، شهد عام ١٩٩٥-١٩٩٦ حوالى ٨٠ حالة طرد، وعام ١٩٩٨-١٩٩٩ حوالى ٧٣٧ حالة، والطلاب الأمريكيون الأفارقة يشكلون ٧٣٪ منها مع أنهم كانوا يمثلون ٥٣٪ من إجمالى القيد بمدارس شيكاغو العامة[٥٧]. وهذا النمط من الإقصاء العرقى ينعكس فى الحجر على الشباب الذين تورطوا فى نظام العدالة الإجرامية فى مدارس آمنة معزولة عن طلاب المدارسة العادية تعرف باسم المدارس الآمنة.

إن السياسات التعليمية توازى احتواء الشباب الأمريكيين الأفارقة والأمريكيين اللاتينيين ومراقبتهم بوليسيًا فى أحيائهم. وقانون شيكاغو ضد تسكع العصابات لعام ١٩٩٢، الذى دافع عنه العمدة ديلى، يسمح للشرطة بإلقاء القبض على الشباب الذين يتجمعون فى أماكن عامة والذين يشتبه فى كونهم عصابات. وبين عامى ١٩٩٣ و١٩٩٥ ألقت الشرطة القبض على ٤٣٠٠٠ شاب تطبيقًا لهذا القانون[٥٨] (وهو شكل من إرهاب الشرطة المقنن). ورغم الحكم بعدم دستورية هذا القانون، لا تزال المحاولات المستمرة لتقنين عمليات مضايقة الشباب وكنسهم من الشوارع متواصلة،

وذلك لنقل رسالة قوية مؤداها أن الشباب الملونين خطرين ويجب حبسهم أو إبعادهم عن الفضاء العام.

إن المدارس العسكرية التى تميز بعض الشباب لتكيفهم الناجح مع نظام قائم على الضبط العرقى والطبقى هى الجانب المقابل لسياسة اللاتسامح والمدارس الآمنة وقانون منع تسكع العصابات. وأولئك الذين ضبطهم الجيش حديثًا يُعَرَّفون صراحة باختلافهم عن الآخرين من أمثالهم، الذين يكونون ضمنيًا خارجين عن السيطرة ومصدر تهديد. وعلى حد تعبير ضابط عسكرى فى أحد الأكاديميات قال "لون عصابتنا هو اللون الأخضر، عصابتنا هى الجيش". وحقيقة أن البرامج العسكرية يمكن أن تحول هؤلاء الشباب إلى نماذج تبين أن الشباب (وأسرهم وجالياتهم) - وليس التمييز العنصرى ولا السياسات الاقتصادية المتمثلة فى وقف الاستثمار ولا أصحاب مصالح التنمية العقارية ولا التشويه والتشطين فى وسائل الإعلام- هم المسئولون عن ضعف مستقبلهم الإنتاجى. فصب هؤلاء الشباب فى قوالب المواطنين المطيعين يبرر تشطين الآخرين. "إن الطبيعة الجزئية لعملية العرقنة racialization كتجريم قد تسمح فى نفس الوقت بتطوير جزء معرقن أكثر نجاحًا رمزيًا يفيد فى الفضاء العام فى إلقاء اللوم على الغالبية الشقية وإعفاء المجتمع الأبيض من أية مسئولية عن هذا الشقاء"(٥٩).

خاتمة

بناء حس عام جديد

إن نقد سياسات مدارس شيكاغو العامة يجب أن يوضع جنبًا إلى جنب مع صدى هذه السياسات لدى بعض الأسر والمعلمين والمديرين. وهذا يتطلب أن ننظر إلى الأيديولوجية الليبرالية الجديدة، ومعها أيضًا بمصطلحات جرامشي(٦٠) "الحس الجيد" good sense في السياسات، أى كونها استجابة لمشكلات حقيقية وخبرة معاشة(٦١). فتأييد سياسات مدارس شيكاغو العامة يجب أن يُؤخذ كاستجابة لعقود من الفشل التعليمي وسوء الإدارة والفصل العنصرى ومدركات العنف المدرسى. فشأنها شأن النظم التعليمية بالمدن الكبيرة الأخرى، أخفقت شيكاغو بثبات فى توفير تعليم لائق للأطفال الملونين منخفضى الدخل. ففى عام ١٩٩٠ أوجز أورفيلد Orfield موقفًا لا يزال قائمًا بيننا اليوم: "الغالبية العظمى من الشباب السود ومن ذوى الأصول الإسبانية فى شيكاغو الحضرية يحضرون اليوم فى مدارس لا تعدهم لا لكلية ولا لوظيفة لائقة. وكثيرون منهم يُجْبَرون على العيش فى ظروف يستحيل لأسر الطبقة الوسطى الحضرية أن تتخيلها"(٦٢).

إن الحس الجيد فى سياسات مدارس شيكاغو العامة يكمن فى حقيقة أنه أخيرًا تحرك قادة الإدارة التعليمية لاتخاذ فعل حاسم. فهم يضعون معايير ويجعلون المدارس والمعلمين والطلاب مسئولين عن الوفاء بها. وهم يرفضون أن ينقلوا الأطفال ببساطة إلى الصف التالى دون أن يكونوا قد تعلموا بالفعل. وهم يصرون على أن المدارس يجب أن تكون فضاءات آمنة. وعمومًا فقد جاء على ألسنة عدد من المعلمين فى جروفر وويستلون أن المعلمين الذين كانوا لا يزيد دورهم فى الفصول عن تقديم الرعاية أصبحوا الآن مجبرين، على الأقل، على أن "يفعلوا شيئًا". وملاحظاتى تتفق مع هذا التقييم. فهناك تركيز على التدريس وتخطيط الدروس وتماسك المنهج أكثر بكثير من أربعة سنوات مضت عندما بدأت فى دراسة هذه المدارس. فقد أدى التعليق أيضًا إلى الاستغناء عن عدد من المديرين غير الفعالين، كما حدث فى جروفر. فإذا كانت الإدارة

التعليمية بشيكاغو قد عَرفت التعليم بشكل ضيق بربطه بالاختبارات القياسية، فإن الدعم لرفع درجات الاختبارات هو الآخر له جذوره فى فهم أن الدرجات المنخفضة فى مدارس كثيرة فى جاليات الأمريكيين الأفارقة واللاتينيين يعد علامة على تعليم غير منصف. (علاوة على أن هذه الاختبارات تُستخدَم كبوابات إلى المدارس الثانوية الأكاديمية والكليات، خاصة بالنسبة للأطفال الملونين). وبعد أن تسبب أصحاب المصالح الرأسمالية والسياسية فى شيكاغو فى الإزاحة الاجتماعية وإفقار وإجهاد الأسر عبر عقود من إيقاف الاستثمار والقهر العرقى، فإنهم يتقدمون الآن ويعرضون حلولاً من نوع التنظيم المركزى ومعسكرات التدريب. وهذه الحلول تتقاطع مع الحاجة الملحة إلى تحسين المدارس الحضرية والتعامل العرقى مع الشباب الأمريكيين الأفارقة واللاتينيين وتغذية الإدراك العام بأنهم يحتاجون إلى أشكال خاصة من الضبط والتنظيم والسيطرة. ومع ذلك فإن المدارس العسكرية (التى توصف بأنها إعداد للكليات) ربما تكون بديل الطلاب الوحيد فى سياق تندر فيه الفرص المتاحة للغالبية العظمى فى الحضور فى مدارس ثانوية جيدة ذات إدارة جيدة.

إن غياب خطاب تربوى تحريرى بديل يتبنى الحاجة إلى تحويل المدارس الحضرية يقع فى القلب من الأزمة الحالية فى السياسة التعليمية. فقد عَرَف القادة التعليميون بشيكاغو وعمدة المدينة سياساتهم باعتبارها البديل الوحيد "لسياسات الماضى الفاشلة". وهذه الحجة تهيمن فقط لأن فشل السياسات التربوية التحررية فى مخاطبة قضايا اللامساواة والقهر العرقى والطبقى والخاص بالنوع لم يخضع لنقاش قومى أو محلى حول السياسات التعليمية. وبدلاً من ذلك تُبَرَر الليبرالية الجديدة بخطاب قائم على الحتمية. وكما يدفع بورديو فـ"فى كل مكان نسمعها تقال طوال اليوم -وهذا هو ما يعطى للخطاب المهيمن قوته - أنه ليس ثمة شيء يمكن تقديمه فى معارضة الرؤية الليبرالية الجديدة، وأنها نجحت فى تقديم نفسها على أنها بديهية، وأنه ليس ثمة بديل لها"(٦٣). علاوة على ذلك نجحت النخب السياسية والاقتصادية بمهارة فى انتحال الكفاح من أجل الإنصاف فى أجندة الليبرالية الجديدة. فالمحاسبية تُؤطَر داخل لغة

الإنصاف والعدالة: يتم تقييم كل الطلاب والمدارس بـ"نفس الاختبار" و"يلتزمون بنفس المعايير"، وإبقاء آلاف الطلاب للإعادة "ينهى الظلم فى الترقى الاجتماعي". وهنا نجد أن "شرعنة القيم" Value legitimation (إعطاء الناس ما وُعدوا به) تركت مكانها لـ"شرعنة الحس" sense legitimation، حيث ... تحاول الولايات و/أو الجماعات المهيمنة تغيير معنى الإحساس بالحاجات الاجتماعية إلى شيء مختلف تماماً"[٦٤]. فرغم بعض التحسينات المدرسية (إستراتيجية القيمة)، كانت القوة الدافعة فى اتجاه تحويل مناقشات الإنصاف إلى المعايير والمحاسبية والمسئولية الفردية، مع إنكار القهر العرقى والطبقى التاريخيين والحاليين[٦٥].

وعلى أية حال، كما يجادل كارلسن Carlson، فـ"نتيجة لأن الإصلاحات [الإصلاحات الأخيرة القائمة على المهارات الأساسية والمركزية].لم تخاطب جذور الأزمة فى المدارس الحضرية أو تواجه التفاوتات التى تولد الصراع والمقاومة بين الجماعات المختلفة، تقوضت الإصلاحات القائمة على المهارات الأساسية بسبب مجموعة من التناقضات وميول الأزمة القائمة بداخلها"[٦٦]. فعلى المدى القريب يمكن لهذه الإصلاحات أن ترفع درجات الاختبارات وتشرعن احتواء أو إقصاء بعض الشباب، لكنها لن تحل المشكلات الأساسية المتعلقة بالعدالة والجودة والمعنى فى المدارس الحضرية. وهذه الإصلاحات مهيمنة فقط بسبب غياب خطاب بديل. وهذا الخطاب لا بد أن يربط الحاجة إلى تحويل المدارس الحضرية بأهداف المعرفة النقدية والفاعلية الشخصية والاجتماعية وطرق التدريس المتجذرة فى واقع الطلاب السياسي- الاجتماعى وهوياتهم الثقافية. ومن المؤكد أن الكفاح من أجل أجندة تربوية بديلة يجب أن يُؤخذ كجزء من المشروع الأكبر المتمثل فى إعادة تشكيل السياسات الحضرية فى سياق العولمة.

إن شيكاغو تضرب المثل على التوجه إلى القانون والنظام فى أوروبا، وكذلك الولايات المتحدة، الذى يستهدف السيطرة على "العدو الداخلى" فى "قلب المدينة" المشفر عرقياً[٦٧]. وتلك استجابة من الدولة للجغرافية الجديدة القائمة على مركز

وهوامش فى مدن تتعرف من خلال إعادة الهيكلة الاقتصادية والعولمة. فمن ناحية تكثف هذه المدن قوة شركاتية ومالية هائلة يكون لها حضور مهيمن فى مشهد المدينة وتنتزع تنازلات مالية كبيرة من حكومات المدن وتحشد سكان كثيرين من المديرين والمهنيين أصحاب الامتيازات العالية ليديروا وظائف العولمة الرأسمالية. ومن الناحية الأخرى تكثف هذه المدن أيضًا مجموعة متنامية من السكان المهاجرين وغيرهم من الملونين الآخرين الذين يكون عملهم منخفض الأجر ضروريًا لعمل العولمة، لكن وجود هؤلاء يُشيطَن ويُشَوَه ويعيشون فى ظروف حياتية تنتج يأسًا متناميًا. ورغم أن الأمريكيين الأفارقة واللاتينيين و"الآخرين" المهاجرين مهمشين، فإنهم يمارسون أيضًا حضورًا متناميًا فى المدينة من خلال سياسة الثقافة والهوية ومن خلال وظائفهم الضرورية فى الاقتصاد. وهم فى وضع يسمح لهم بفرض مطالبهم على المدينة. والثورات الأخيرة فى لوس أنجليس وسنسيناتى وفى بريطانيا وما صاحبها من ممارسات الدولة البوليسية تُظهِر النضال. وهذه الدينامية الاجتماعية مركزية فى فهم السياسات والعمليات التعليمية التى تضبط وتجرم وتعسكر وتقصى الشباب الحضريين الملونين منخفضى الدخل وجالياتهم.

فى عالم ما بعد ١١ سبتمبر اكتسب التعامل على أساس العرق شرعية جديدة، فقمع الشرطة الذى كان ممارسة قياسية فى جاليات الملونين الحضرية، غدا شرعيًا الآن للمجتمع ككل. فباتت المشاركة الديمقراطية مستهلكة، وأصبح النقد خيانة، لأن "الحرب على الإرهاب" تبرر الشمولية وتعليق الحقوق الديمقراطية. والقتال على الفوز بمعركة الحس العام حول الطريقة التى يجب أن تُدار بها مدارسنا، ومن أجل مصالح مَنْ، وبمشاركة مَنْ، ومن أجل أية غايات، اتخذ أبعادًا جديدة وإلحاحًا جديدًا. فالخطاب التربوى التحررى جزء من تحدى أكبر لليبرالية الجديدة. وهو أيضًا رفض لقبول مجتمع لا يجد حلاً للأعداء المُدرَكين (أطفالنا فى الداخل، أو "الشياطين" فى الخارج) غير الضبط الصارم.

الهوامش

(١) يوظف المنهج دروس ذات مخطوطات تركز على مهارات منفصلة وإجابات من نوع الإجابة الواحدة الصحيحة. انظر: Wesley Becker, "The Direct Instruction Model," Journal of Direct Instruction: 33:36 (Winter 1977).

(2) See Michael W. Apple, Educating the "Right" Way: Markets, Standards, God, and Inequality (New York: RoutledgeFalmer, 2001); Nicholas C. Burbules and Carlos A. Torres, "Globalization and Education: An introduction," in Globalization and Education: Critical Perspectives, edited by Nicholas C. Burbules and Carlos A. Torres (New York: Routledge, 2000), 1-26; David Gillborn and Deborah Youdell, Rationing Education: Policy, Practice, Reform, and Equity (Buckingham: Open University Press, 2000); Pauline Lipman, "Bush's Education Plan, Globalization, and the Politics of Race," in Cultural Logic 4, no. 1. December 12, 2001), available at eserver.org/clogic/4-l/4-l.html and Kenneth. J. Saltman, Collateral Damage: Corporatizing Public Schools_a Threat to Democracy (Lanham, Md.: Rowman & Littlefield, 2000).

(3) Gerald Grace, "Urban Education: Policy Science or Critical Scholarship," in Education and the City: Theory, History and Contemporary Practice, edited by Gerald Grace (London: Routledge and Kegan Paul, 1984), 3-59.

(4) See Michael W. Apple, Review of "Devolution and Choice in Education," Educational Researcher 27, no. 6 (1998).

(5) See Margaret Sutton and Bradley A. U. Levinson, eds., Policy as Practice (Westport, Conn.: Ablex, 2001).

(6) See Joseph R. Gusfield, The Symbolic Crusade, 2nd ed, (Urbana, Il.: University of Illinois Press, 1986).

(7) Mary L. Smith, Walter Heinecke, and Audrey Noble, "Assessment Policy and Political Spectacle," Teachers College Record 101 (2000): 157-91.

(8) See Jenny Ozga, Policy Research in Educational Settings (Buckingham, Eng.: Open University Press, 2000).

(9) See M. Foucault, Discipline and Punish: The Birth of the Prison, trans. Alan Sherdan. (New York: Vintage Books, 1995 [1977]).

(10) Gloria Ladson-Billings, "I Know Why This Doesn't Feel Empowering: A Critical Race Analysis of Critical Pedagogy," in Mentoring the Mentor: A Critical Dialogue with Paulo Freire, edited by P. Freire (New York: Peter Lang Publishing, 1997), 132.

(11) See Stephen N. Haymes, Race, Culture and the City (Albany: State University of New York Press, 1995).

(12) See Pauline Lipman, "The Politics of Chicago School Policy and Emerging Resistance," paper presented at the annual meeting of the American Education Research Association, Seattle (April 2001); and Pauline Lipman, High Stakes Education: Inequality, Globalization, and Urban School Reform (New York: Routledge, forth coming).

(13) Saskia Sassen, Cities in a World Economy (Thousand Oaks, Calif.: Pine Forge Press, 1994).

(14) Janet L. Abu-Lughod, Hew Yorfe, Chicago, Eos Angeles: America's Global Cities (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1999).

(15) Kim Phillips-Fein, "The Still-Industrial City: Why Cities Shouldn't Just Let Manufacturing Go," American Prospect (September-October, 1998): 28.

(16) Saskia Sassen, Globalization and Its Discontents (New York: New Press, 1998), xxvi.

(17) See John J. Betancur and Douglas C. Gills, "The Restructuring of Urban Relations," in The Collaborative City: Opportunities and Struggles for Blacks and Latinos in .S. Cities, edited by J. J. Betancur and D. C. Gills (New York: Garland, 2000), 17-40.

(18) Podmolik, Mary Ellen [1998]. Downtown Spreading Out as Residents Pour In. Chicago Sun Times, p. A20-21).

(19) Manuel Castells, The Informational City (London: Blackwell, 1989).

(20) See Betancur and Gills, "The Restructuring of Urban Relations."

(21) Ibid.

(22) Abu-Lughod, New York, Chicago, Los Angeles. T* 23. See Sassen, Cities in a World Economy.

(24) Christian Parenti, Lockdown America: Police and Prisons in the Age of Crisis (London: Verso, 1999).

(25) To protect the anonymity of schools I have chosen not to disclose specific data that might identify them.

(26) For similar findings, see Linda McNeil, Contradictions of School Reform: Educational Costs of Standardized Testing (New York: Routledge, 2000).

(٢٧) هناك ٨١ مدرسة معلقة (٥٢ مدرسة أولية، ٢٩ ثانوية). من هذه المدارس ٦١ مدرسة ٩٨٪ من طلابها سود، ٥ مدارس ٨٤٪ من طلابها من ذوى الأصول الأسبانية ومعظم الطلاب الباقين سود. والمدارس الـ١٥ الباقية خليط من السود وذوى الأصول الإسبانية: ٧ منها يشكل السود ٧٥٪ من طلابها. ومدرستان فقط من المدارس المعلقة بهما ١٪ أو أكثر من الطلاب البيض: CPS Office of Accountability, 2002.

(28) PURE, Correlation of CPS Probation with Poverty Levels. Available from pure-par-ents@pureparents.org/

(٢٩) يوظف المنهج هرمية صارمة للمهارات والمفاهيم (مستويات الدروس)، ويوظف الأسئلة وإجابات الطلاب ذات المخطوطات التى "لا تترك شيئا للصدفة": Kozloff, Martin A., Louis LaNunziata, James Cowardin [1999]. "Direct Instruction in Education" [online]. Wilmington, N.C., University of North Carolina at Wilmington [cited 22 August 2002]. Available at www.uncil.edu/people/kozloffm/diarticle.html.

(30) Wesley Becker, "The Direct Instruction Model."

(31) See Elizabeth Duffrin, "Classes Revolve Around Test Prep," in Catalyst 10, no. 6 (1999): 9-11; and Elizabeth Duffrin, "Transition Centers: Services Praised, I struction Questioned, Results Withheld," in Catalyst 10, no. 6 (1999): 4-8.

(32) Duffrin, "Transition Centers," 6.

(٣٣) فى عام ١٩٩٨ كانت نسبة الأمريكيين الأفارقة إلى البيض فى إدارة شيكاغو التعليمية ٥ : ١ ونسبة اللاتينيين إلى البيض ٣ : ١، بينما كانت نسبة الأمريكيين الأفارقة إلى البيض فى المدارس الثانوية الانتقالية لطلاب الصف الثامن الأكبر من السن القانونى ٢٧ : ١ ونسبة اللاتينيين إلى البيض ١٠ : ١.

(34) Peter C. Murrell, "Digging Again the Family Wells: A Literacy Framework as Emancipatory Pedagogy for African American Children," in Mentoring the Mentor: A Critical Dialogue with Paulo Freire, edited by Paulo Freire (New York: Peter Lang, 1997), 19-58.

(35) Gloria Ladson-Billings, Dreamkeepers: Successful Teachers of African American Students (San Francisco: Jossey-Bass, 1994), 139.

(36) National Center on Education and the Economy 1990. America's Choice: High Skills or Low Wages. Rochester, NY: Author.

(37) Castells, Manuel. 1996. The rise of the network society. London: Blackwell.

(38) Elmer W. Johnson (1995, November). Chicago Metropolis 2020: Preparing Metropolitan Chicago for the 21st Century: Executive Summary. Chicago: Commercial Club of Chicago.

(39) Ibid, 3.

(40) James P. Gee, Glenda Hull, and Colin Lankshear, The New Work Order: Behind the Language of the New Capitalism (Boulder, Colo: Westview Press, 1996).

(41) Moberg, David. "Chicago: To Be or Not to Be a Global City." World Policy Journal 14 (1997): 71-86.

(42) Vinson, Kevin D. and E. Wayne Ross. "Education and the New Disciplinarity: Surveillance, Spectacle, and the Case of SBER." Cultural Logic 41 (2001). [online] Winston-Salem, NC [cited] 11 November 2001] Available on the World Wide Web: (http://eserver.org/clogic/4-l/4-l .html)

(43) Rosalind Rossi, "City's Toughest Prep Schools," Chicago Sun Times, Al-2,2 April 2001.

(٤٤) قدر اتحاد شيكاغو للبحوث التربوية أن معدل التسرب من الفوج لدى الطلاب فى مدارس شيكاغو العامة الذين تمت متابعتهم من عمر الثالثة عشر إلى التاسعة عشر بـ ٤١,٨٪ فى عام ٢٠٠٠

(45) Ramon Flecha, "New Educational Inequalities," in Critical Education in the New Information Age, edited by M. Castells et al. (Lanham, Md,: Rowman 8c Littlefield, 1999), 46.

(46) Gee, Hull, and Lankshear, The New Work Order.

(47) See also Pauline Lipman, "The Politics of Chicago School Policy and Emerging Resistance," and Pauline Lipman and Eric Gutstein, "Undermining the Struggle for Equity: A Case Study of Chicago School Policy In a Latino/a School," in Race, Gender, and Class, 8, no. 2 (2001), 57-80.

(48) Paulo Freire, Pedagogy of the Oppressed (New York: Continuum, 1992).

(49) See Lipman and Gutstein, "Undermining the Struggle for Equity," 2001.

(50) For a further discussion of these issues, see Pauline Lipman, High Stakes Education.

(51) See Michael Katz, Michelle Fine, and Elaine Simon. "Poking Around: Outsiders View Chicago School Reform," Teachers College Record 99, no. 1 (1997): 117-f

(52) See Neil Smith, The New Urban Frontier: Gentrification and the Revanchist City (New York: Routledge, 1996).

(53) See Stephen N. Haymes, Race, Culture and the City (Albany: State University of New York Press, 1995).

(54) Quintanilla, Ray, "It's Not Just School It's an Adventure," (12 August 1999). Chicago Tribune, Sec. 1, pp. 1, 26.

(55) Dirk Johnson, "High School at Attention," Newsweek (21 January 2002), available at http://www.msnbc.com/news/686928.asp?cpl=l.

(56) Generation Y, "Right to Learn Campaign," PURE (12 January 2002), available at www.pureparents.org/pencil.html.

(57) Brian J. Rogal, "Alternative Education: Segregation or Solution?" Chicago Reporter 304, no. 6-8 (2001): 10.

(58) Chicago Reporter (September 1998). "High Court is the Final Chapter in Gang Ordinance Controversy" Chicago Reporter (5 May 2002), available at www.chicagoreporter.com/1998/09-98/0998court.htm.

(59) Michael Keith, "From Punishment to Discipline? Racism, Racialization, and dPolicing of Social Control," in Racism, the City and the State, edited by M. Ciand M. Keith (London: Routledge, 1993), 207.

(60) Antonio Gramsci, Selections from the Prison Notebooks. Trans, and eds. Q. 1 and G. N. Smith (New York: International Publishers, 1971).

(61) See Apple, Review of "Devolution and Choice in Education."

(62) Gary Orfield, "Wasted Talent, Threatened Future: Metropolitan Chicago's Human Capital and Illinois Public Policy," in Creating Jobs, Creating Workers: Economic Development and Employment in Metropolitan Chicago, edited by L. B. Joseph (Chicago: University of Chicago Center for Urban Research and Policy Studies, 1990), 131; see also ERASE Initiative Facing the Consequences: An Examination of Racial Discrimination in U.S. Public Schools (Oakland, Calif.: Applied Research Center, 2000); and Tammy Johnson, Jennifer E. Boyden, and William Pitz. Racial Profiling and Punishment in U.S. Pubic Schools (Oakland, Calif.: Applied Research Center, 2001).

(63) Quoted in David Hursh, "Neoliberalism and the Control of Teachers, Students, and Learning," Cultural Logic 4, no. 1, 2001 (December 12, 2001) available at eserver.org/clogic/4-1/4-1 .html.

(64) Roger Dale quoted in Michael W. Apple, Educating the "Right" Way, 46.

(65) William. E Tate, "Critical Race Theory and Education: History, Theory, and Implications," in Review of Research in Education, edited by Michael W. Apple (Washington D.C.: American Educational Research Association, 1997), 195-247.

(66) Dennis Carlson, "Education as a Political Issue: What's Missing in the Public Conversation about Education?," in Thirteen Questions: Reframing Education's Conversation, 2nd edited by Joe L. Kincheloe and Shirley R. Steinberg (New York: Peter Lang, 1996), 281.

(67) Keith, "From Punishment to Discipline?"

الفصل الخامس

فى مواجهة القهر

أصوات الشباب فى المقدمة

بيبي ليزيتينا (*)

كعضو فى فريق القيادة المجتمعية والعدالة الاجتماعية فى بوسطون، سُمِح لى مؤخرًا بزيارة إصلاحية مقاطعة سوفولك Suffolk County. بدأت الزيارة بفيلم فيديو يمجد فلسفة وتطبيق "إعادة التأهيل" فى السجن، تلا ذلك عرض من شريف المقاطعة، ذلك الرجل كان مثار جدل بسبب عدم رده على الانتقادات الموجهة لنظام الولايات المتحدة الإصلاحى وعمله فيه، حتى عندما يُسأل عن الارتباط بين الاستقطاعات الكبيرة من برامج مساعدة النزلاء على إعادة التأقلم مع الخارج ومعدلات الانتكاس الضخمة. انتهى هذا الجزء التعريفى من يوم البرنامج بفريقين من النزلاء: الأول مكون من ثلاث سيدات، والثانى من ثلاثة رجال. ويبدو أن هؤلاء المشاركين قد اُختِيروا بعناية، فجاءوا متناسقين من حيث لون بشرتهم، وأُعِدوا جيدًا من أجل استهلاكنا، أى

(*) بيبى ليزيتينا Pepi Leistyna أستاذ اللغويات التطبيقية بجامعة مساشوستس ببوسطون حيث يشرف على برنامج البحوث ويدرس مقررات الدراسات الثقافية والتحليل الإعلامى واكتساب اللغة. من مؤلفاته Presence of Mind: Education and the Politics of Deception, and Defining and Designing Multiculturalism. كما شارك فى تأليف Breaking Free: The Transformative Power of Critical Pedagogy.

لكى نستهلكهم. تحدثوا بعصبية حول المساعدة التى يقدمها لهم المفهوم المحلى للإصلاح لكى يقفوا على أقدامهم مرة أخرى.

وقد كان من حسن حظ مجموعتنا أن سُمِح لنا بزيارة النزلاء الذكور فى "جناح العنف". وعندما دخلنا هذه الغرفة المغلقة والمنفصلة، كان حراس السجن الذين رافقونا خلال هذا الكابوس (والبسمات على وجوههم وهم يتبادلون النكات) لا يتوقعون أننا كأفراد يمكن أن نختلط مع النزلاء، وهم يتمشون خارج زنازينهم، كجزء من فترة الراحة القصيرة بعد ٢٣ ساعة من الحبس غير المجدى فى زنازين صغيرة جداً مكونة من ثلاثة أسرة وحمام واحد، فيما لا تزيد مساحة الزنزانة ككل عن مساحة حمام متوسط الحجم.

كان أوضح شىء فى هذا المشهد القابض للنفس، مع أننى كنت أتوقعه بالكامل، هو أن الغالبية العظمى من النزلاء كانوا من المُخْضَعين عرقيًا: الأمريكيين الأفارقة واللاتينيين. أما البيض فكانوا من العمال الفقراء الذين يتميزون بأسنانهم ووشومهم وكلامهم، ناهيك عن قصصهم. لقد سمعت فى الأخبار عن المستويات العالية لعمليات التفتيش العارى للنساء المسجونات فى هذا السجن وقصص الاغتصاب لكلا الجنسين. وها أنا الآن أسمع من النزلاء أنفسهم حول الضرب المتواصل الذى يتعرضون له على أيدى حراس السجن البيض فى غالبيتهم.

عندما سأل عضو من فريق العدالة الاجتماعية مأمور السجن عن التكوين العرقى الفعلى للسجناء وموظفى السجن[السجانين]. ، رد الشريف بأنه غير متأكد من الأعداد الدقيقة. وأضاف (بعد أن اتضح ذلك) أنه لم يدرك من قبل أن كل الموظفين فى مواد الدعاية التى عُرِضَت علينا كجزء من التعريف بالسجن كانوا بيضاً: "إننى لم أكن واعيًا بذلك ... لم أشاهد هذا الفيديو من قبل". وهذا الإنكار يصعب ابتلاعه على اعتبار أن هذا الرجل من المتحدثين البارزين فى هذا الموضوع.

إن أكثر من ٧٠٪ من نزلاء السجون فى الولايات المتحدة من خلفيات عرقية وإثنية غير أوروبية، وإصلاحية مقاطعة سوفولك ليست استثناءً لذلك. فالأمريكيون الأفارقة يشكلون العدد الأكبر بين من يدخلون السجون سنويًا فى الولايات المتحدة. وكما يوضح لويك واكوانت فإن:

معدل سَجْن الأمريكيين الأفارقة وصل إلى مستويات لم يعرفها أى مجتمع آخر، وهو أعلى حتى من معدل السَجن الإجمالى فى الاتحاد السوفيتى فى أوج استبداده وفى جنوب أفريقيا فى أعلى فترات الكفاح ضد التفرقة العنصرية. ففى منتصف التسعينات، كان حوالى ٨٠٠,٠٠٠ رجل أسود فى الحبس، سواء فى الإصلاحيات الفيدرالية أو سجون الولايات أو سجون المقاطعات. فمع كل يوم جديد يجد أكثر من ثلث الشباب الأمريكيين الأفارقة أنفسهم خلف القضبان أو تحت عقوبة مع إيقاف التنفيذ أو إطلاق سراح مشروط. وفى قلب مدن الشمال التى كانت صناعية فى السابق تتجاوز هذه النسبة الثلثين(١).

ولعل الشىء الذى لا يقل عما سبق إيلامًا فى مشهد سوفولك هو أن الجميع تقريبًا فى هذه البيئة القاسية كانوا من صغار السن. فأنا فى الثامنة والثلاثين من عمرى انتابنى شعور بالهرم فى هذا البحر من الشباب. لكن مفهوم الشباب هنا لا يعنى حرية الروح والسعى دون قيد وراء الطموحات المستقبلية. بل على العكس من ذلك كانت الغرفة يعشعش فيها اليأس والاكتئاب والغضب والصمت والألم. وكما قال لى شاب أمريكى أفريقى بعد أن ابتعدتُ عن حراس السجن واختلطتُ بهم:

هذا ليس إصلاح أو إعادة تأهيل ... فقط انظر حولك لتعرف. هؤلاء شباب محبوسين طيلة النهار والليل، على ماذا، على شرب سيجارة أفيون أو الدخول لأول مرة فى مشاجرة فى الشارع! ليس ثمة تعليم فى هذا المكان، ليس ثمة إعداد للمستقبل، ليس

ثمة غرفة للعلاج، كل ما هنالك الوقت، تضييع الوقت. هذا المكان يغذى الغضب والعدوان. انظر حولك، هذا جيل كامل مُلقى هنا كالقمامة، لكن هذه القمامة مربحة.

فى النظام الإقطاعى للعلاقات الرأسمالية القائمة اليوم تُستخدَم السجون استراتيجيًا لحبس أولئك الذين يعتبرون أناس فائضون ليس منهم فائدة فورية بالنسبة للسلطات(٢). وكما يقرر واكوانت فإن "الارتفاع المذهل فى سَجْن السود فى العقود الثلاثة الأخيرة ينتج عن تقادم فكرة الغيتو ghetto كوسيلة لفرض السيطرة على المنبوذين، وما نتج عن ذلك من حاجة إلى جهاز بديل لإبقاء الأمريكيين الأفارقة (غير المهرة) فى وضعية خاضعة ومقيدة ماديًا واجتماعيًا ورمزيًا(٣).

وإضافة إلى الاحتواء، حيث توجد أرباح فى ذلك النظام الآخذ فى التحول على نحو متزايد إلى أعمال مشروعاتية مخصخصة، هناك أيضًا الطلب، ونزلاء السجون فى الولايات المتحدة تزايدوا بسرعة مفاجئة إلى أكثر من ٢٠٠٪ منذ ١٩٨٠(٤). فهناك الآن أكثر من اثنين مليون شخص فى السجون فى الولايات المتحدة، ورغم أننا [الأمريكيون]. نمثل فقط ٥٪ من سكان العالم، فإن لدينا ٢٥٪ من سجناء هذا العالم(٥). لقد تفوقت الولايات المتحدة على روسيا فى عام ٢٠٠٠، ولديها الآن أكبر نسبة سجناء فى العالم. وهذه النسبة أعلى من كل الدول الغربية من ٥ إلى ١٧ ضعفًا. ومع نهاية الألفية الثانية كان فى هذا البلد ٦,٣ مليون إنسان إما تحت التعليق، أو فى السجون، أو تحت إطلاق السراح المشروط.

وإذا كان أحدًا لا يشكك فى هذه الإحصاءات فى المناقشات القومية، فإن هناك جدل كبير حول الأسباب الكامنة خلفها. فالمحافظون يبتكرون بلا انقطاع تمثيلات عرقية وطبقية للجماعات العنيفة التى يجب احتوائها. فعندما يُصوَّر الشباب (فى مقابل الوصف الذاتى) فى الإعلام، خاصة الفقراء والمُخْضَعين عرقيًا، فإنهم يُصوَّرون فى الغالب على أنهم خطرين وليسوا محلاً للثقة. ويرد هنرى جيرو على ذلك بأن:

ما يسكت عنه الإعلام المهيمن، بالطبع، هو الظروف الاجتماعية التى تنتج جيلاً جديداً من الشباب الغارق فى اليأس والعنف والجريمة والفقر واللامبالاة. فالحديث، مثلاً، عن جرائم السود، دون ذكر أن معدل البطالة بين الشباب السود يتخطى ٤٠٪ فى كثير من المدن الحضرية، يخدم فى المقام الأول فى التغطية على سبب رئيسى من أسباب اضطراب الشباب. كما أن الحديث عن اللامبالاة بين الشباب البيض، دون تحليل الثقافة التافهة والفقر والحرمان الاجتماعى والمخدرات ونقص الفرص التعليمية والتسليع الذى يشكل الحياة اليومية، يُبْعِد المسئولية عن النظام الاجتماعى الذى غالبًا ما ينظر إلى الشباب بوصفهم مجرد سوق آخر[٦].

وقد أبدا العمال الثقافيون النقديون والتربويون اهتمامًا كبيرًا بالتمييز القائم فى التوظيف وفى النظام القضائى، وقدموا تحليلات مهمة لارتفاع مستويات السَجْن وارتباط ذلك بالظروف الاقتصادية الظالمة وتفكيك الرفاه وخفض الأجور وبحث الليبرالية الجديدة الدائم عن العمل الرخيص خارج الولايات المتحدة. إن من البديهى أن الفقر يولد الجريمة، والولايات المتحدة لا تزال تتصدر الدول الصناعية الكبرى فى معدل فقر الأطفال، إلى جانب المستويات الضخمة من الفقراء العاملين الذين دفعهم إلغاء القيود التنظيمية عن الشركات إلى العيش تحت خط الفقر مع أنهم غير عاطلين[٧]. بل إن طفل من كل خمسة أطفال، وطفل من كل أربعة أطفال من المُخْضَعين عرقيًا، يتربون فى فقر فى الولايات المتحدة[٨].

ومع أن كل هذه الحجج التقدمية، التى تربط على نحو مُقْنِع بين السَجْن والحرب الطبقية الشركاتية وهيمنة البيض، يجب أن تكون فى صدارة الاهتمام القومى، فإننى أؤكد فى هذا الفصل كيف تتورط مؤسسات التعليم العام فى الولايات المتحدة جزئيًا فى عملية الهيمنة وسيطرة الشركات، بمعنى أن هناك ارتباط وثيق بين الأعداد الكبيرة

من الشباب المُخْضَعين عرقيًا والعمال الفقراء القابعين فى السجون اليوم ونظام التمدرس لدينا. فالعوامل الاقتصادية والسياسية التى تشكل التعليم العام -المؤسسات التى تعكس النظام الاجتماعى الأكبر- لا تعمل فى اتجاه خلق فضاءات عامة متجاوبة ثقافيًا وإنسانية، وبالتالى جذابة يمكن للشباب فيها أن يُحَصِلوا أكاديميًا ويعبروا عن القوى التاريخية والاجتماعية والاقتصادية التى تشكل حياتهم. وكما ينبه كين سولتمان فإن:

> **المؤسسات الحضرية ذات الغالبية غير البيضاء لا تتظاهر حتى بأنها تعد الشباب لدخول الطبقة المهنية، تلك الطبقة التى تنفذ أوامر النخبة الحاكمة المكونة من الشركات - الدولة. فهذه المدارس تحتوى الطلاب الذين يُعتقَد أنهم عاجزون ويُودَعون لذلك فى الاحتواء المؤسسى. فكثير من المدارس الحضرية تعمل باعتبارها المستوى الأول للاحتواء، فيما ينتظر هؤلاء المستوى الثانى، وهو أكثر الصناعات الأمريكية نموًا: نظام السجون[٩].**

والتعليم بذلك لا يكون معنيًا بغرس المسئولية المدنية من باب الإعداد للحياة العامة، وإنما يتعلق فحسب بضمان نشر منطق معين للسوق يتم فيه اعتناق وتأكيد التقسيم الطبقى للعمل[١٠]. وبالنسبة لتلك الجماهير المقصية والمستبعدة، فإن البنية التحتية الاجتماعية القاسية، والتعرض الدائم لظروف مادية ورمزية قاسية داخل وخارج المدارس، والمناهج الإقصائية والمُحَرفة، واتجاهات المربين وطرق التدريس اللامبالية والفاسدة تعمل جميعها من أجل ضمان نبوءة انحراف الشباب التى تحقق نفسها.

تربية التجاهل

إن الشباب، خاصة الفقراء والمُخْضَعين عرقيًا، غالبًا ما يتم تجاهلهم فى كتابة التاريخ، ووصف الواقع الاجتماعى، والجدل حول السياسات والممارسات التعليمية. بل

إن المحافظين عملوا بقوة لا تلين من أجل السيطرة على التعليم العام وخفض الإنفاق بغرض تفكيك الفضاءات الديمقراطية التشاركية التى تتعهد إمكانية التعبير. وفيما يتعلق بالمدارس العامة، فَصَّل نعوم تشومسكى ذلك قائلاً:

> **بداية من رياض الأطفال يحاول النظام المدرسى أن يقمع الاستقلال، ويسعى إلى تعليم الطاعة. فالأطفال والشباب لا يُشَجَّعون على التحدى والسؤال، وإنما على نقيض ذلك. فأنت إذا بدأت فى التساؤل فإنك تتحول إلى مشكلة سلوكية، أو ما شابه ذلك، ولا بد أن تُضْبَط. فمن المفترض أن تكرر وتطيع وتتبع الأوامر(١١).**

إن أحدث موجات التقنين التعليمى على مستوى الأمة، تلك المتمثلة فى سياسات الحكومة الفيدرالية الحالية عبر قانون "لن يُترَك طفل يتخلف" No Child Left Behind وحركات اللغة الانجليزية فقط English-only movementsالتى تعمل بقوة على المستوى القومى للقضاء على البرامج التعليمية ثنائية اللغة، يُقْصَد بها فى المقام الأول أن تحافظ على هذا النوع من الامتثال المعرفى.

وحتى فى الدعوات الليبرالية حسنة النية ظاهرياً إلى "تمكين" الطلاب و"إعطائهم الفرصة للتعبير"، فإنها فى الغالب تتميز بأن الطلاب فيها يُسْمَع حولهم ولا يُسْمَع منهم. وما يفشل مربون كثيرون فى إدراكه هو أن أكثر المربين تقدمية واهتمامًا ليس بمقدورهم أن يمكنوا الطلاب. وعلى النقيض من ذلك، فإن من التشييئ والتعالى أن نفترض أن العمال الثقافيين يمكنهم ببساطة أن يربتوا على كتف الطفل بعصا إبستمولوجية سحرية بمعزل عن عملية الانخراط النشط وصنع المعنى النقدى.

ينطبق هذا النقد أيضًا على فكرة "التعبير". فمن الجرأة أن نزعم امتلاك القدرة على توريث القدرة على التعبير. وحيث أن جميع الناس يمتلكون أصواتًا بالفعل، وفى الغالب أصوات ناقدة، فإن التحدى الحقيقى أمام المربين هو أن تكون لديهم الإرادة

لخلق فضاءات حوارية يمكن فيها سماع كل الخبرات ورؤى العالم المعاشة. والسؤال هو هل تتوفر لدى المعلمين القدرة والرغبة فى خلق ظروف التمكين الذاتى الضرورية التى تسمح للطلاب من كل مسارات الحياة بأن يستكشفوا ويُنَظِروا ويبوحوا ويعملوا على الحقائق الكامنة خلف العوالم التى يعيشون فيها؟ وهل المعلمون كمتخصصى إثنوغرافيا سيحاولوا أن يتجمعوا لكى يُدَرِسوا بطريقة متجاوبة ثقافيًا معلومات حول رأس المال الثقافى - القراءة والكتابة وحس اللغة والمعرفة وأساليب التعلم والأساليب المعرفية والقيم والمعتقدات - الذى ينبثق عن الظروف المادية والرمزية العنيفة التى يُضْطَر طلاب كثيرون لأن يبحروا فيها يوميًا.

يستخدم هذا الفصل قصصًا شخصية حية لمجموعة من الشباب بغرض الكشف عن معنى الحياة فى مدينة تشينجتون Changeton بالنسبة لغالبية المحرومين (إن كل أسماء الأشخاص والأماكن الواردة فى هذه الدراسة أسماء مستعارة تنفيذًا لوعد قطعه الكاتب على نفسه للأشخاص الحقيقيين). إذ يحاول البحث أن يجمع شهادات يمكن أن تكشف الكثير حول الناجين ومصادر المشكلات الاجتماعية المُؤسَسة تاريخيًا والمُنْتَجة أيديولوجيًا.

عندما بدأت فى هذا البحث، كان عدد سكان مدينة تشينجتون يُقَدَر بـ٧٤,٤٤٩ أبيض، ١٢,٠٢٨ أسود، ١,٥٨٩ آسيوى/من جزر المحيط الهادى، ٥,٨٦٠ لاتينى، ٢٦٩ أمريكى أصلى، ٤,٤٥٣ "آخرين". وإضافة إلى ذلك كان عدد النساء يفوق عدد الرجال، وكان أكثر من ثلاثة عشر ألف شخص يعيشون فى فقر، وبلغ عدد الجرائم السنوية فى المدنية ٦,٨٩٥ جريمة، منها ١,١٥٦ أعمال عنف.

ومن بين القيد الإجمالى بالمدارس البالغ ١٤,٠١٥ طالبًا، كان ١٣,٦٪ منهم لاتينيين، ٢٩,٧٪ أمريكيين أفارقة، ٣٪ أمريكيين آسيويين، ٥٣,٢٪ بيضًا. وقد كان طالب من كل أربعة عشر طالبًا فى تشينجتون من محدودى الكفاءة فى اللغة

الإنجليزية، وحوالى ٥٣٪ من طلاب المدرسة الأولية المقيدين فى مدارس تشينجتون كانوا يحصلون على غداء مجانى أو مخفض السعر.

ومما يوضح إحجام النظام التعليمى وعجز الدولة عن محاولات الدمج العرقى فى المدارس، تعانى تشينجتون من معدلات تسرب سنوية عالية، خاصة بين الشباب المُخْضَعين عرقيًا ومنخفضى الدخل. فقد كانت المدارس الثانوية تفقد عُشر طلابها فى العام الذى بدأ فيه البحث والمقابلات الشخصية، بينما كان معدل التسرب من الصف التاسع بين ١٢ و ١٤٪. وكان معدل البقاء للإعادة فى المدرسة الثانوية ١١,٥٪. وإضافة إلى ذلك كان ١٣,٥٪ من الطلاب عبر هذا النظام التعليمى، غالبيتهم العظمى من البنين الفقراء والمُخْضَعين عرقيًا والأقليات اللغوية، مسجلين فى برامج التربية الخاصة.

ووفقًا لتقرير حول الدمج العرقى قدمته إلى مدير النظام التعليمى مجموعة استشارية خارجية، كانت المدارس الأكثر سوءً فى ظروفها فى المدينة هى نفسها المدارس الأكثر اختلاطًا من الناحية العرقية. ففى هذه المدارس توجد برامج التعليم ثنائى اللغة، وبالتالى توجد فيها غالبية أطفال الأقليات اللغوية. وجاء وصف فريق تخطيط الدمج العرقى لهذه المدارس على النحو التالى: "معظم النوافذ فى حالة سيئة للغاية ومعتمة ... ويضطر الطلاب إلى الانتقال إلى فصول أخرى أو ارتداء معاطف وقفازات، ولا يتوفر لهم إلا مجموعة صغيرة جداً من الكتب، وهناك تسرب دائم للمياه فى أركان الفصول، ولا يوجد نظام للتهوية، والإضاءة فى الفصول سيئة للغاية وفى حاجة ماسة إلى التغيير، وهناك مخاوف بين هيئة المدرسة من ارتفاع مستويات غاز الرادون، والملعب غير آمن، والمعلمون والطلاب لا يتمكنون من الاستفادة من التجهيزات التعليمية السمعية - البصرية الأساسية لأن كل فصل فيه مأخذ تيار مزدوج واحد فقط بالقرب من ساعة الفصل وهو ما يؤدى إلى الاستخدام غير الآمن لأسلاك التوصيل، والمكتبة تُستخدَم فى تدريس الموسيقى، وليس بالمدرسة صالة رياضية أو مكان كاف للمكاتب، والطلاب يتناولون غدائهم فى البدروم على بعد ٥٠ قدم من المراحيض وغرفة الغلاية".

وخَلُص فريق التقييم إلى أنه فى الغالب يكون مسئولى التعليم فى تشينجتون "غير متاحين"، وأن "المكتب المركزى لا يُنْظَر إليه على أنه يقدم القيادة التى يحتاجها النظام، وإنما يخلق حواجز ويحمى الفاسدين. وقد ذكر الباحثون أنهم تلقوا تقارير مزعجة حول وجود معلمين فى النظام يؤمنون بأن بعض الأطفال لا يمكن أن يتعلموا، ويتصرفون بطريقة تشجع الطلاب على الانقطاع عن المدرسة، ويمارسون التمييز ضد الأطفال من الأعراق أو الطبقات الاجتماعية الاقتصادية المختلفة الأخرى. وقد نبهوا إلى أنه إذا أريد بناء نسق قيمى على مستوى النظام ككل، فمن الوارد ألا تتفق بعض المدارس على قيمة تبنى وتمجيد واحترام التنوع". وكما صرح أحد المعلمين الذين أُجْرِيت معهم المقابلات فإنه:

كلما فكرت فى ذلك زاد غضبى. إنك هنا تبدأ فى فهم لماذا يبرز بعض هؤلاء الأطفال، خاصة السود، ويصبحون عنيفين، إنه شيء يشبه التعذيب بالماء، وهم يقطرون عليك بلا انقطاع. وعند نقطة ما تجد أنك يجب تدع الأمور تنفلت .. وتنفجر(١٣).

فى مثل هذه البيئات العدوانية لا يكون من المفاجئ أن يُفْصَل الطلاب يوميًا بشكل جماعى من مدارس تشينجتون. فقد كان اتجاه مدير المدرسة الثانوية أنه مع الطلاب "الذين يسببون فوضى فى برنامج اليوم العادي" لا يجد مفرًا من طردهم إلى الشارع. والمعايشة المباشرة للمعدلات العالية للتوقيف والفصل النهائى لبعض الطلاب من المدرسة جعلت فريق باحثى الدمج العرقى الخارجيين يضيفون فى تقريرهم "أننا محزونون من أن الناس يتعاملون مع عملية الطرد على أنها عمل عادى ومعتاد داخل النظام". ويصف معلمان تقدميان فى خنادق تشينجتون مشكلة فصل وطرد الطلاب التى يواجهونها فى مدارسهم على النحو التالى:

على مدى شهرين وضع المدير حوالى ثلاثين طفلاً أسود وطفلين أبيضين فقط فى حجرة التوقيف بالمدرسة School Suspension Room. **وفى هذه الحجرة يأخذ معظم الطلاب البيض، خاصة**

من الطبقة الوسطى والوسطى العليا، محاضرة موجزة ثم يعودون إلى الفصول، فيما يُتْرَك الطلاب السود فى حجرة التوقيف لأسابيع عقابًا على نفس السلوك. فالنظام يُخْضِع الطلاب عديمى القوة لتعليم يُسْكِتهم، بل وأكثر من ذلك يوصى النظام باستخدام المهدئات [الريتالين]. لجعل الطلاب من الخلفيات المُخْضَعة بلا صوت نهائيًا.

إنهم يقدمون إصلاحات تقدمية لا يُراد لها النجاح. لقد طُبِق البرنامج ثنائى اللغة للأطفال متحدثى اللغة الهايتية فى مدرسة كل طلابها من البيض، فقط لكى يظهر على الورق أن النظام التعليمى يطبق قوانين الدمج العرقى. وهم يطبقون هذا البرنامج الخاص باللغة الهاييتية فى هذه المدرسة البيضاء عرقيًا بالكامل. تخيل كيف يكون الأمر مع الطلاب والمعلمين الهايتيين، أعنى أولئك الطلاب السود فى بحر من البيض. ليس فى المدرسة أشخاص من الأقليات إلا معلم التربية الرياضية. وهؤلاء الطلاب معزولين بالفعل، والطلاب الآخرون يضايقونهم. ومن الطبيعى، كما يُتَوقَع من أى شخص آخر، أن يردوا على هذه الإساءات غير المبررة. ثم انظر النتيجة، يتم توقيف الطلاب الهاييتيين من المدرسة طوال الوقت على يد وكيل مدرسة عنصرى.

وبدلاً من مواجهة هذه الأشكال من الظلم، اتخذت سلطات تشينجتون من النظام التعليمى جزءًا من أجندة الفرض. ومن خلال العمل بهذا المنطق القهرى، وفقًا لبيان حسابى حديث، استخدمت تشينجتون ٣٠٠٫٠٠٠ دولار من أموال إصلاح التعليم للشرطة المدرسية: ثلاث سيارات مميزة وثمانى شرطيين لهم سلطة إلقاء القبض على أى شخص فى أثناء الطوارئ المدرسية، ويرتدون ملابس واقية من الرصاص، ويحملون مسدسات تطلق رصاصات فارغة.

أصوات الشباب تعبر عنهم

إن نوع التربية النقدية الذى يُقدَم هنا يهتم فى الأساس بخبرات الطلاب، إنها التربية التى تتخذ من مشكلات واحتياجات الطلاب أنفسهم نقطة للانطلاق. وهذا يعنى تأكيد وشرعنة المعرفة والخبرة التى من خلالها يعطى الطلاب معنى لحياتهم. وذلك يعنى فى المقام الأول الاستعاضة عن الخطاب السلطوى القائم على الفرض والتلقين والاسترجاع بصوت قادر على توصيل كلام الناس، صوت قادر على الاستماع وإعادة السرد وتحدى أسس المعرفة والقوة(١٤).

بعد عدد من المحادثات حول بحثى مع صديقة كانت تعمل فى ذلك الوقت قائد فريق فى حملة تقوم بها منظمة قومية فى تشينجتون لمساعدة الشباب "المعرضين للخطر"، دعتنى صديقتى ليز لأن أعمل معها بشكل منتظم، وأتعامل مع الشباب الذين كانت تشرف عليهم. وقبيل زيارتى الأولى كانت ليز قد أخبرت الشباب عنى وعما إذا كانوا يقبلون أن أتواجد بينهم. وطلبت منهم أن يصوتوا على الأمر، وكانت نتيجة التصويت لصالح قبولى بينهم، وصاح أحدهم قائلاً: "أخيراً أتيحت لنا الفرصة للحديث بصوت مسموع، وأنا لدى الكثير الذى أود أن أقوله".

فى الصباح الباكر التقينا جميعًا أمام محكمة تشينجتون، وهو المكان الذى اعتاد فريق من منظمة الشباب أن يتجمعوا ويتريضوا فيه ويتحركوا منه فى سيارتين ليقوموا بمشروعات عديدة حول المدينة. كانت المجموعة تتكون أساسًا من الشباب السود واللاتينيين، وكذلك قليل من البيض. أحدهم شخص معاق وشابة مفرطة السمنة وشاب مرح. كان هؤلاء جميعًا شباب تسربوا/طُرِدوا من المدرسة، وكثيرون منهم خيرتهم المحكمة بين العمل مع هذه المنظمة أو الانضمام إلى معسكر تدريبى للجيش أو الحبس.

إن ما يكشف عنه هؤلاء الشباب (كما يتضح فى الحوار التالي) هو عالم حافل بالمعرفة المهمة، عالم لا يمكن تجاهله إذا كان المربون يريدون حقًا أن ينخرطوا فى السياسة الثقافية ويفهموا الفشل التعليمى فى تشينجتون وما ورائها. مع أن هؤلاء الشباب هم أنفسهم الذين لا يُسمَع لهم. وبدلاً من استكشاف هذه المواقف الذاتية بوصفها مصدراً لمعرفة مهمة، يتم التعامل مع هؤلاء الفقراء الحضريين فى الولايات المتحدة على أنهم طبقة دنيا إجرامية يجب أن تُراقَب وتُحتوَى.

فى صباح أحد الأيام أخذتنا السيارة إلى قلب المدينة، وأشارت المجموعة إلى الشارع الرئيسى وقالوا "من هنا يبدأ العمل". إن قلب المدينة يعطى إحساساً خفياً بها. فهناك عشرات المنازل المهمَلة التى أُجْبِر أصحابها على التنازل عنها بسبب الضائقات المالية. وقد تحولت أبنية كثيرة منها إلى أوكار للغربان أو ملاجئ للذين بلا مأوى.

لدى مرورنا بالمدرسة الثانوية دوت فى الشاحنة عاصفة من الضحكات العالية، عندما لاح مدرس محلى فى الشارع. وبعد أن تهكموا عليه من نوافذ الشاحنة، أخذ الطلاب بلغة ساخرة يتذكرون معلميهم الذين كانوا. وعندما علقت أنا على ضخامة حجم المبنى، استدارت إلى روندا، الشابة السوداء، وقالت "المدرسة الكبيرة! أنت تقصد السجن ... تشينجتون الثانوية ... الكذبة البيضاء الكبيرة!"

واصلت السيارة طريقها عبر المدينة إلى بعض المشروعات السكنية. وهنا أراد الفريق أن يروا المكان الذى تربوا فيه. فى المشروع الأول، الأجمل بين الجميع، كانت هناك أكوام من القمامة ودراجات صدئة مسروقة ملقاة هنا وهناك على امتداد المكان. والدهان الذى خبا منذ زمن أخذ ينسلخ عن الجدران ويتجمع فى كومات عشوائية على حواجز المطر المركبة فوق نوافذ الطابق الأول. والزجاج المهشم الذى يملأ المكان، والذى يتلألأ على الرصيف، ذَكَّر كثير من أفراد المجموعة بالطرق التى كانوا يهربون فيها من الشرطة فى هذا الحى.

وبينما نحن نتفحص المشروع الثانى، سألت الفريق "ماذا سنفعل هنا؟"، فجاء ردهم فى إجابة كورالية كاسحة "لا شىء". ثم فَصلَّت روندا قائلة:

هناك أطفال كثيرون جدًا تحت سن الثامنة عشر لا يجدون ما يفعلونه إلا أن يدخلوا فى متاعب ... المخدرات والمسدسات وتكوين سمعة سيئة، هذا كل ما يتاح أمامنا! ... لا يوجد شىء نفعله إلا التسكع! ... والمدرسة، إنه شىء ممل.

عدنا للعمل فى المتنزه، وبعد ساعات طويلة من دهان التلتوارات فى شمس الربيع القاسية، دعوت الفريق على الغداء. وبعد أن أكلنا ولعبنا بالأطواق، جلسنا تحت شجرة ودار بيننا حديث طويل. وعندما وضعت المسجل على مقعد المتنزه الذى تحلقت حوله المجموعة فى شكل دائرة، أخذ كل شاب فى المجموعة يقرب المسجل من فمه عندما يحين دوره فى الكلام لضمان أن يلتقط الجهاز كلامه بوضوح.

كان الحاضرون فى ذلك اليوم: روبرتو من بورتريكو (١٨ سنة)، وكارلوس الذى يصف نفسه بأنه بورتريكى نصف أسود (٢٠ سنة)، وديون الأمريكى الأفريقى (٢٠ سنة)، وروناالد الأمريكى الأفريقى (١٨ سنة)، وستيفى الخليط من البيض وجمهورية الرأس الأخضر (٢٠ سنة)، وبول الأبيض (٢٠ سنة)، وأولافو من جمهورية الرأس الأخضر (١٨ سنة).

بيبى [الباحث] : كيف تخرجون من المشاكل التى تقعون بها جميعا"؟

روبرتو : تترك المكان إذا كان لدى الوالدان مالاً ، أو إذا كن هناك والدان من أصله.

ديون : عليك أن تساعد نك إذا أردت أن تخرج منها.

ستيفى : إذا كان معاك مال!

ديون : لا يا رجل أن المسألة ليست مسألة مال.

ستبقى : عفواً أنت معك مال. لكن إذا لم يكن معك مال فكيف إذن ستخرج من هنا.

أولافو : لا توجد هنا وظائف.

كارلوس : إن الجيتو ممتد فى مكان. إن الأمر ليس مزحة، ولا مخرج من تلك الورطة.

بيبى : لكن ماذا عن بيع المخدرات، إن أناسًا كثيرون يبيعون المخدرات لكسب المال؟

ديون : كلنا مر بهذه المرحلة. فجميعنا باع المخدرات فى وقت ما، هل تعى ما أقوله. سواء تورطت فيها أم أفلت. وقد تورطت أنا عندما كنت فى الخامسة عشر.

بيبى : كم يكون عمر الفرد عمومًا عندما يتورط فى هذه الأعمال؟ (جاءت إجابات قليلة مثل: "فى هذا العمر" و"الثانية عشر").

بيبى : كم منكم طُرِد من المدرسة ولماذا؟ (رد كل أفراد المجموعة بأنهم جميعًا طُرِدوا من المدرسة، وذكر ثلاثة أو أربعة منهم أن ذلك كان بسبب سرقة سيارة أو المخدرات أو السرقة أو العنف إلخ، حتى أجاب أحدهم: لكل شىء تتخيله.

بول : تخريب الممتلكات العامة. لقد كنت حاضرًا لكننى لم أشارك ومع ذلك قبضوا على.

بيبى : كل هذه الأمور - السرقة والعنف والمخدرات وإنجاب أطفال وترك المدارس- هل هى التى تكسبكم احترام الناس الذين تتعاملون معهم؟

ديون : أنت تعرف معنى أن تكون رجلاً، لا بد أن يكون لك سمعة. تلك

هى الرجولة. إن الأمر كله صيت وسمعة، أعطنى المال ولن أبالي. إنهم يرونك ماشيًا فى الشارع ويقولون "إنه مجنون، لقد رأيته منذ أيام فى المتجر وفعل كذا وكذا". هل تدرك ما أقول. الأمر كله سمعة، إنه كله بسبب الصيت.

بيبى : لكن ما الصيت فى أن تجعل الناس يخافون منك؟

ديون : وهذا بالضبط هو المطلوب.

ستيفى : لقد جعلت صديق أمى يخاف منى. كان مدمن هروين وكان يتعاطى الهروين والمخدرات الرخيصة. وكان يعرف أننى إذا بعت له ما قيمته عشرين دولارًا أو نحوها من المخدرات ولم يسدد ثمنها عندما يأتيه المال، كان يعرف جيدًا أننى سوف أضربه.

بيبى : هل يعيش مع والدتك؟

ستيفى : نعم. كان من حسن حظ أمى عندما ذهبت لأراها فى يوم ما أن وجدت أمى نائمة فى سريرها، وفى الغرفة الأخرى كان هذا الرجل ملقى على الأرض فاقد الحياة. لقد أخذ جرعة كبيرة ومات. كان الرجل لتوه خارجًا من حالة تسمم حادة، وإذا به يأخذ رزمة كاملة.

بيبى : هل كان يفعل ذلك لكى "يعمل دماغ" أم كان يجد فى ذلك مخرجًا من حياته؟

ستيفى : كان يفعل ذلك لأنه يريد أن "يعمل دماغ". لم يكن يستنشقه وإنما كان يأخذه بمحقن. لقد كان جبارًا. لقد أخذ جرعة كبيرة ... وقد ذهبت ورأيته. لم أكن قد رأيت إنسانًا ميتًا من

قبل. كان جسمه أزرقًا، كان كل شيء فيه أزرق. أيقظت أمي، فما كان منها إلا أن أخذت تردد السؤال: ما الأمر، ما الأمر؟ قلت لها أن ستان Stan مات، فصعقت وهرولت إلى الغرفة الأخرى التي كان ممدًا فيها. كان نبضه متوقفًا. لقد تحققتُ من ذلك من عنقه ومعصمه. لم يكن فيه نبض. لذلك اتصلت بالإسعاف وجاءت الشرطة. لن أنسى هذا الرجل ما حييت، لقد كان ... لا زلت أفكر في ذلك، لأنني أعتقد أنني اشتركت في ذلك. أعني أنني لم أكن أحبه ... لقد كان رجلاً طيبًا، كان دائمًا يعطيني المال والأشياء الأخرى. لكنني لم أكن أحبه لأنه كان يفعل ذلك مع أمي.

بيـــــبى : ماذا عن الشرطة، كيف هم؟ (تضمنت الردود أنهم "أوغاد"، أنهم "يمتصون الناس"، إنهم "بالتأكيد يمتصون الناس"، أنهم "خنازير".

ديـــــون : إنه التعصب. إن النظام يمتص الإنسان. إنك تمشي في الشارع الرئيسي في حالك، وأنا أرى أنك تمشي، ثم تتوقف لتتحدث مع أحد. فإذا وقفت هناك خمس دقائق، وجاءت عصابات المخدرات، وجاءت الشرطة، فإنهم يعتقلونك ويتهمونك بانتهاك القانون.

بيـــــبى : لكن ماذا لو كنت أبيضًا؟

أولافـــــو : إذا كنت أبيضًا سيتركونك تمضي، بل سيطلبون منك أن تذهب. أما إذا كنت أسودًا فسيحدث معك ما قصصته عليك (ديون يقفز).

دين : سيفتشونك من أعلاك إلى أسفلك يا رجل.

ستيفى : أنت [وهو يتحدث إلىّ] تبدو مثل هؤلاء الأملسين حسنى المظهر، وأنت تعرف هذا النوع من الأشخاص. إنهم على أسوأ الأحوال ينظرون إليك نظرة الشيء الذى يُشْتَرى، ولذلك فلا يصدر منهم إلا أشياء مثل "أخرج من هنا"، أو دفعة إلى الخارج، أو ما يشبه ذلك. لكن مع أمثال هؤلاء (يشير إلى رولاند الأكثر سوادًا بين الجميع) أو حتى أنت يا كلب (مخاطبًا ديون فاتح البشرة قليلاً) سوف يصرخوا فيهم أفتح فمك، ويمكن أن يجعلوك تخلع حذائك وجوربك. وسوف يحملونك تُهَم خرق القانون.

كارلوس : لقد أخذ شرطيان صبيين من مكان قريب من هنا، أحدهما فى الثالثة عشر والثانى فى الخامسة عشر. لقد أخذوهم إلى مكان قريب من هنا وانهالا عليهما ضربًا. لقد وضعوهم فى السيارة فى الشارع الرئيسى الشمالى وأخذوهم إلى مكان مهجور وأخذوا يوجهون لهم اللكمات.

بيبى : هل فعل الصبيان أى شىء كرد على ذلك؟ هل رفعا دعوى ضد الشرطيين؟

كارلوس : لا يستطيعان أن يفعلا أى شىء.

ستيفى : انظروا إلى ذلك الرجل الذى مات فى [يسمى مدينة قريبة]، الرجل البورتريكى. لقد ألقى به رجال الشرطة من أعلى السلم. لقد صعقوه بالكهرباء ودخل فى غيبوبة، وهو الآن ميت.

أولافـــــو : وهناك الرجل الآخر الذى قتل رودنى كينج.

ستـيـفى : لقد ضربونى بدليل التليفون فى قسم الشرطة. وقد فعلوا ذلك لكى لا يتركوا كدمات أو جروح فى جسمى. لقد رفعوا دليل التليفون وضربونى به ... وقد رشونى بالميس(*) ثلاث مرات فى ليلة واحدة. إننى لم أقاومهم عندما أرادوا اعتقالى، كل ما هنالك أننى كنت مستلق كما يفعل الناس فى المناطق الخضراء. لقد ضربنى ثلاث مرات. وكذلك صديقى، الذى كان يعانى من الربو. كان فى المقعد الخلفى للسيارة، وكان يجد صعوبة كبيرة فى التنفس بسبب رائحة الميس. صرخت فى رجال الشرطة أن "صديقى يحتاج إلى علاج طبى"، "صديقى يحتاج إلى مساعدة طبية"، وكررت الصياح "إنه لا يستطيع أن يتنفس"، حتى أننى أخذت فى الضرب على النافذة والمقعد لأسترعى انتباههم. وبدلاً من أن يساعدوا المسكين، أوقفوا السيارة وفتحوا الباب ورشونا بالميس مجدداً.

بيـــبى : هل غالبية الشرطة بيض، أم أن قوة الشرطة مختلطة إلى حد ما؟ (قالت المجموعة أن الغالبية بيض). وماذا تفعلون بالمال الذى تكسبونه من الشوارع؟ هل هو للبقاء على قيد الحياة؟ هل هو قوة؟ ما هو؟

ستـيـفى : أنا أسميه مال قذر وأُطَيره.

ديـــون : تشترى حذاءً أو ملابس أو أشياء من هذا القبيل.

(*) الميس mace مادة كيمائية ترش فى الوجه فتسبب آلاماً فى العين والجلد [المترجم].

أولافـــــو : نشترى سيارات أو ملابس ...

ديـــــون : إن كل المال الذى أكسبه أنفخه فى الهواء! لأننى عندما كنت أبيع المخدرات كنت مثل رجل لعين، ولأنهم سيأتون ثانية كل عشر دقائق، أنتم تعرفون ما أقول. لقد بدأت بأولية oulee [كمية صغيرة من المخدرات]. دخنت أولية ثم اثنتين ثم نيجا nigga [كمية كبيرة من المخدرات]، وبعد ذلك بثلاثة أشهر صرت هكذا (أخذ يمثل شخص مريض هزيل) (اندفعت المجموعة فى الضحك)، وقال أحدهم "هذا أنت بالضبط". لقد ذبلت. أليس هذا مضحكًا.

ستـيـفى : أنا لم أدخن الكوكا أبدًا.

بيـــبى : حسنا أنتم بين الثانية عشرة والخامسة عشرة أين المخرج من كل ذلك؟

ستـيـفى : عليك أن تغير البيئة، عليك أن تغير البيئة.

ديـــــون : أنا لدى الإجابة، خذها منى يا رجل، لقد ذهبت هناك. قبلكم وقبل أن أراكم وقبل أن تسألوا أى شخص تقابلوه، لقد ذهبت هناك عدة مرات. إن كل شىء فوضى، هزيل بالفعل ولا يمكن أن يحقق شيئًا، أنتم تعرفون ما أقول. لقد أردت أن أساعد نفسى. لقد تركتها منذ عام منذ الصيف الماضى. لم ألمسها ولن أفعل، لأننى أعرف إلى أين ستأخذنى. إنها لن تأخذك بعيدًا، إما ستة أقدام تحت الأرض، أو إلى السجن. أننا بذلك نتسبب فى كثير من الأذى دون أن نقصد. لقد آذيت الكثير من الناس، وإن ذلك يؤلمنى عندما أفكر فيه.

ستيفى : هل تقول إنك لا تحتاج إلى أن تغير بيئتك!

ديون : بالطبع من تصاحبهم. عليك أن تعرف من أولئك الذين تصادقهم. إن الصديق ليس ذلك الشخص الذى يأتيك ويقول "أنت يا رجل إنك تبدو جيداً، إنك تبدو فى قوة القطار. انظر معى هذه القطعة (قطعة من الكوكا أو غيره [سترفعك إلى السماء. ليس هذا بالصديق ... فبعد أن يقول ما يقول يأخذك لتعمل دماغ.

بيبى : من له أسرة هنا، والدان أو نحو ذلك؟

بول : لدى أمى لكن أبى لا يعيش معنا.

أولافو : أنا أعيش فى [يسمى مدينة فى ولاية حدودية].

بيبى : هل تقود السيارة كل هذا الطريق من أجل هذا البرنامج؟

أولافو : لقد عقدت اتفاقًا مع القاضى على أن أظل فى البرنامج إلى نهايته أو أن أقضى أربعة أشهر فى معسكر للجيش.

كارلوس : إنك ما أن تصل هناك حتى تصبح أسوأ.

بيبى : أين تذهبون لتتحدثوا حول تلك التناقضات والمشكلات؟ هل ثمة من يسمع لكم؟

بول : لدى أمى.

كارلوس : زوج أمى. أنا حتى لا أضايق أمى بمشاكلى. إنها لا تفهمنى أبداً. إننى أتوجه إلى زوج أمى الذى أضعه فى مكانة الأخ.

أولافو : لدى جدتى.

ديون : أنا لا أستطيع أن أتحدث مع أمى، وأنتم لا تستطيعون أن تتحدثوا مع أمى. إنها قوية جداً إنها تصرخ باستمرار. لذلك

فعندما أعود إلى المنزل، آخذ حماماً ثم ارتدى ملابس نظيفة. إنها تجن وتقول دائمًا عندما تبلغ العشرين ماذا ستفعل بنفسك، إننى لن أبقى معك إلى الأبد. إنها محقة أنا أعرف، لكنك بعد فترة تمل سماع ذلك، وتجد نفسك تقول لها "لقد مللت سماع ذلك منك يا سليطة اللسان". لكنك لا تستطيع أن تقول ذلك، إنها أتت بك إلى هذا العالم ويمكنها أن تخرجك منه.

كارلوس : بمجرد أن تمشى يطلبون منك أن تعود، بمجرد أن تمشى ...

ستيفى : أمى لا تزال سعيدة لأننى تركتها. لقد تركتها عندما بلغت السادسة عشر ولا تزال سعيدة. كان البيت مجرد مكان أنام فيه، إلى جانب بعض الطعام إن وجد، ربما تجد ساندويتش أو شىء كهذا.

بيبى : فى أى سن ترك غالبيتكم البيت؟ (غالبيتهم من أول إلى منتصف العقد الثانى من الحياة، لكنهم جميعًا عادوا ما عدا ستيفى وأولافو).

كارلوس : أنا أخرج وأعود طوال الوقت.

بيبى : بما تصفون البيت، كيف هو أو كيف كان؟

ديون : فى هذا الوقت ليس هناك بيت، إنك تتسكع فى الطرقات طوال الليل وتثرثر.

ستيفى : عندما تعيش مع أمك، هذا ما أفكر فيه.

كارلوس : الآن أنا أعيش مع أمى. إن البيت مكان للأكل والنوم. تلك هى الطريقة الوحيدة التى انظر بها إليه. إنك لا تستطيع أن تدخل

في حوار محترم ما أحد دون أن تحدث مشكلة أو شيء من ذلك.

ديـــــون : إنك في حالة مشاكل دائمة مع أمك.

بيـــــبي : لكن لماذا الصياح؟ هل لأنكم في مشاكل كثيرة.

كـــارلوس : لأنك تريد أن تقول شيئًا وهم لا يريدوا أن يفهموا. إنهم يتجاهلون ما تقوله ويفكرون في الأمر بعقلهم عندما كانوا صغارًا: "عندما كنا صغارا لم نكن نفعل هذه الأشياء ... لذلك لا يجب أن تفعلوها". ليس هذا هو الموضوع. الموضوع أننا نفعل ذلك ويجب أن نتخلص منه. كيف يمكن أن نفعل ذلك؟ إنهم لا يريدون أن يفهموا ذلك. لهذا السبب الأساسي تركت البيت. لقد بدأت أعيش وحدي عندما كنت في الرابعة عشر. ولم أعد إلى البيت إلا في الصيف الماضي.

ديـــــون : لدي أمي فقط ونحن هنا منذ وقت طويل. وقد تربيت في المشاريع السكنية في الجانب الشرقي. والآن نعيش في بيتنا. أقصد أنه ليس بيت أمي، لكنه شيء أفضل من المشاريع. إن المشاريع لم تكن بالسوء الذي هي عليه الآن. وأنت أين تعيش أيها الكلب (يشير إلى كارلوس) إنها ليست سيئة كما كانت عندما كنت أعيش فيها. إنها أصبحت لا شيء.

كـــالورس : عندما انتقلت إلى هنا كان يحدث إطلاق نار كل ليلة.

ديـــــون : هذا لا يعد شيئًا مقارنة بما رأيته عندما كنت أعيش هناك!

بيـــــبي : مَنْ يطلق النار على مَنْ؟

كـــارلوس : مشاريع مختلفة وأناس مختلفون (وبدأت المجموعة تشير إلى المطرودين والعصابات).

روبرتو : إن الناس مختلطون فى المشروع الذى أعيش فيه، لكنك إذا كنت من خارج المشروع فلن تكون موضع ترحيب وسوف تقع فى مشاكل. هذه المدينة لم تكن كذلك، لم تكن كذلك إلى أن جاءت الأفلام والمخدرات. أقصد أنه بعد مشاهدة فيلم الملونون(*) Colors، بدأ هذا الانقسام فى المدينة. الآن الجزء الشرقى يحارب الغربى ... بلا انقطاع. يمكن أن تضرب أحد أبنائهم فيطاردونك هم وأبنائهم، ثم المسدسات، وعندئذ تأتى الشرطة متأخرة ثلاث ساعات لتأخذ الموتى والجرحى. يا رجل إننا نطلق على ساحة اللعب ساحة الموتى. إن لها جانبان مسوران.

ديون : إن ذلك لتعيين المنطقة، البقاء للأقوى.

بيبى : وإذا جاء شخص مثلى إلى المدينة وأنا لا أعرف المنطقة ولا أعرف الحدود؟

بول : سوف تُضْرَب.

ديون : لقد ضربونى مؤخرًا وأخذوا قبعتى.

أولافو : لا يمكنك أن تمشى وفى قدميك حذاء ماركة نايك ... سوف يأخذوه منك.

ديون : هذا ليس شيئًا. تذكر عندما تخرج بسترة غالية. لقد ضُرِبت من أجل سترتى. كنت أسير فى الشارع الرئيسى، وفجأة خرج أربع سيدات من سيارة وأخذوا السترة منى.

(*) أحد أفلام هوليود التى تمجد صراعات العصابات [المترجم].

بيـــــبى : مؤكد أنهم أخذوها بسبب جودتها العالية.

ديـــــون : إنها سترتهم، هل تفهم ما أقول. إنهم إذا أرادوها فإنهم يأخذونها. إنهم لا يريدون السترة نفسها، وإنما يريدون السمعة عندما خرجوا من السيارة وضربونى. بعد ذلك يتحدث الناس ألا تعرفون ما حدث ليلة أمس، لقد خرجوا على صبى من الحى وأخذوا سترته. إنها فوضى أليس كذلك (يضحك).

بيـــــبى : هل كل الناس فى عصابات؟

أولافــــو : لا، أنا لم أكن أبداً عضواً فى عصابة.

ديـــــون : كنت على وشك ذلك.

كــــالروس : كنت معتاداً على التسكع مع عصابة ليس أكثر من ذلك.

ستـيـفى : عندما كنت صغيراً كونت أنا وصديقى جو شلة صغيرة. لم تكن عصابة بالمعنى الدقيق، كانت شلة فحسب. كانت لدينا سترات وقبعات. الآن كل العصابات تتبع الفرق، فرق الجامعات مثل فرقة Duke and the Kings. لكنى لم أكن تابعاً أبداً، لم أتبع أحد. لن أنضم إلى مجموعة أبداً. أقصد أنا لدى أصدقاء، لكنى لن أحاول التسكع مع عصابة. إن ذلك يعد شيئاً سخيفاً بالنسبة لى.

أولافــــو : هذا ما تعتقده الآن.

كــــالروس : عندما كنت أثرثر كنت أتسكع مع أصدقائى. لم يكونوا يكسبون أى مال، كانوا فقط ينظرون إلى مؤخرتى ويساعدونى فى تضييع المال.

ستـيـفى : نعم هذا المال سرعان ما يضيع، لكن عاجلاً أو آجلاً ستحتاج غيره (ديون يقفز).

ديـــــــــــون : أنت محير، سوف تسقط، ستوضع على عمق ستة أقدام. هناك ثلاثة أبواب فقط يمكنك أن تنظر فيـها: يمكنك أن تطل على باب الشـرطى، يمكنك أن تطل على باب اللحد الذى يغلق ولا يفتح أبدا ...

بيـــــــــبى : وماذا عن الأغنيـاء فى تشـينجـتـون. هذه المدينة بها بعض الأحـيـاء الغنيـة. هل هؤلاء الناس يسـاعـدون المجـتـمـع بأى طريقة؟

سـتـيـفـى : لا، خاصة العمدة. إن العمدة رجل أحمق، ويمكنك أن تسجل ذلك على لسانى لأنى متأكد من أنه كذلك. إنه لا يريد أن يقدم أية مساعدة. إنهم يريدون فحسب عيادة صحية مجانية فى وسط المدينة لمنخفضى الدخل وقد عارض العمدة ذلك.

ديـــــــــــون : كذلك رفض الرجل أن يقابل القادة الدينيين المحليين الذين أقلقهم عنف الشرطة وعنصريتها.

سـتـيـفـى : لأنه لا يريد أن يسمع ذلك. إنه عنصرى، عنصرى بالفعل. إنه مدمن مخدرات أيضًا (يضحكون جميعًا). لقد بعت له جوينت [سيجارة مخدرات]. إننى أضحك معكم. إنه رجل أحمق، أتفهمون ما أقول. إنه يحاول أن يتصرف كإنسان مهذب، لكنه لا يستطيع لأنه عنصرى. أقصد أننى لم أتعامل أبدًا بعنصرية، لكننى أقول أنه عنصرى.

بيـــــــــبى : إذا كنتم فقراء ولكن بيض هل كنتم ستقعون فى نفس المأزق؟

سـتـيـفـى : إذا كنا بيضًا وفقراء، آه يا رجل.

رولانـــــــد : طالما أن هناك زنوج سيظل هناك رعاع من البيض الفقراء. (طلبت المجموعة من رولاند أن يكرر هذه العبارة).

ديـــــون : هذا صحيح.

ستـيـفى : نعم يا رجل. هذا صحيح. كما تعرف فإننى كنت أحد أوغاد الجيتو.

بـــــول : أنا نفسى كنت أحد أوغاد الجيتو.

ستـيـفى : كنت أتسكع خلال المشاريع مع مجموعة فيرنانديز. أقسم أن أمى كانت تشترى زوج الحذاء [المسروق]. من فيرنانديز بثلاثة دولارات. لكننى لم أكن أهتم بذلك طالما أن لدى زوج حذاء من ماركة جديدة.

بيـــبى : ستيفى وبول أبيضان هل هما منبوذان بين الجماعات العرقية الأخرى فى الشارع؟

ديـــــون : إذا كنت من المنحطين فأنت من المنحطين، هل تعى ما أقول. إن المسألة ليست أبيض أو أسود أو شىء من ذلك. فإذا أنت انحدرت إلى مستوى العصابات المنحطة فإنك تكون منحطًا. ويكون عليك أن تُظهِر لهم أنك مثلهم، والعصابة تخرج معًا فى حالة واحدة. وإذا حاول أى شخص أن يفعل أى شىء فإننا نضربه.

بيـــبى : كم واحد منكم سبق أن حمل سلاحًا؟ (ثلاثة قالوا أنهم سبق أن حملوا أسلحة، واثنان قالا أنهما قُبِض عليهما وفى حوزتهما أسلحة. جاء صوت من مؤخرة المجموعة يقول "آه المسدسات والسكاكين". من خلف المتنزه كان هناك صوت يتردد لطفل يلهو بمرح على الحشيش الأخضر للمشروع).

كـــارلوس : عند مرحلة ما فى حياتى بدأت أبيع المسدسات لأتعيش منها. ودخلت السجن مرتين وانتقلت إلى (يسمى مدينة فى الولاية

التـاليـة). وكـان مـعى طفل، ثم سـأمت بيع المخدرات هناك، فعدت إلى هنا ودخلت السجن من جديد.

بيـــــبى : كارلوس كم عمرك الآن؟

كـــارلوس : عشرين عامًا. إن الشىء الوحيد الجدير بالاحتفاظ، والذى أفخر بقوله، حدث عندما طاردت هذا الرجل بالمطرقة. إنه يستحق ذلك.

بــــــول : أنا أحمل سكينًا.

سـتـيـفـى : أنا أحمل سلاحًا، لكنه من نوع العلكة الفقاعية [تطلق فقاقيع]. إننى لم أحمل مسدسًا أبدًا.

ديـــــون : أنا أهوى المسدسات. وأهوى إطلاق النار. لكننى لا أحب إطلاق النار على البشر. لقد أطلقت النار على أشخاص بالفعل، لكننى لم أقصد إصابتهم. فقط كنت أريد أن أخيفهم فحسب.

بيـــــبى : أنتم تسمعون عن العنف فى كل مكان هنا ...

سـتـيـفـى : أعتقد أن ذلك شىء سخيف، سخيف فعلاً.

بيـــــبى : كم منكم أُطلِقت عليه النار من قبل؟ (تحدث البعض عن قصصهم: أحدهم تلقى ضربة من شاب فى الثانية والعشرين، وأحدهم طعن بالسكين مرتين، وتحدث ثالث عن طعنة لا تزال آثارها فى عنقه. بفضول لمست المجموعة المعدن الذى لا يزال تحت جلده.

ديـــــون : كارلوس لقد أُطلِقت عليك النار من قبل.

كـــارلوس : ولا تزال آثارها فى جسدى (يكشف للمجموعة عن الندبة المتبقية).

بيـــــبى : كيف ولماذا أطلقوا عليك النار؟

كـــارلوس : بلا أى سـبب. فـقط لأننى كنت فى المكان الخطأ فى الوقت الخطأ. إننى لم أنشأ فى تشينجتـون مثل الآخرين هنا. لقد نشأت فى نيويورك، وفى نيويورك عندما تمر ويحدث إطلاق نار، فإنك لا تجد ملاذاً منه لأنه فى الغالب يكون خمسة أشخاص على الأقل يطلقون النار فى نفس الوقت. هكذا هى الحياة هناك.

ستـيـفى : صديقتى السابقة طعنتنى. لقد ألقيت طبق سلطة البطاطس على رأسها (المجموعة تضحك). أقسم أننى فعلت. كان ذلك فى يوم عيد ميلاد ابنى. ألقيت طبق سلطة البطاطس على رأسها فجن جنونها. لقد هشمت زجاجة وطعنتنى فى جنبى. لن أنسى ذلك، إنها خبرة مروعة (المجموعة لا تزال تضحك).

ديـــــون : لم تُطلَق علىَّ نار أو أُطْعَن أو أُضْـرَب فى الغابة أبدًا، لكننى ضُـرِبت بالزجاجات. ولدى ندبات هنا (يكشف عن جسمه العارى كمتحف مشيراً إلى مواضع الندبات). ولدى ندبة هنا ... وقد ضُرِبت بقالب طوب مرتين. وهناك سبع غرز هنا، وضُرِبت بزجاجة هنا.

بيـــــبى : عندما تسيرون فى الشارع ليلاً هل هناك من يتشاجر معكم؟

ستـيـفى : لكى أكون أمينًا معك يا بيبى، ولكى أكون أمينًا معكم جميعًا، فإننى لا أخرج إلى الشارع فى الليل لأننى أخاف. أقسم أننى لا أمزح إننى أخاف أن أمشى ليلاً فى الشارع.

ديـــــون : جميعنا يريد أن يصبح شيئًا.

ستيفى : يبدو ذلك إنه جيل عنيد يا رجل.

بيبى : كم منكم مات له أصدقاء بسبب عنف الشوارع؟ (عندما بدأت المجموعة فى العد أدركت أنهم جميعًا مات لهم أصدقاء. وبدءوا يتحدثون عن أصدقائهم الذين ماتوا).

ديون : لقد رأيت كثيرًا من أصدقائى وهم يموتون، لم أرهم رأى العين، ولكن ...

كالروس : لقد قُتِل كثير من أصدقائى بالرصاص من سيارات تجرى.

بيبى : إن ما رأيتموه هو فى الأساس صبية فقراء يقتلون صبية فقراء. هل لذلك أى معنى؟ (جاءت الإجابة من كل المجموعة: لا).

سيتفى : إن الأمر مختلف الآن. عندما كنت فى الرابعة عشر بدأ ذلك فى الحدوث. أما الآن، اللعنة. إننى أتخيل ما سوف يصير إليه الأمر عندما يكبر أولادى.

بيبى : هل تعتقد أن الأمر سيزداد سوءًا؟

ستيفى : نعم بحق الجحيم.

ديون : نعم ستسوء الأمور.

أولافو : إن عدد الناس الذين لا يحصلون على تعليم فى ازدياد.

ديون : هناك صديق آخر (يسميه)، نشأت معه فى الجانب الشرقى، نشأت معه بالفعل. كنا صغيرين وكبرنا معًا. كان طيبًا ومجتهدًا. الشىء الوحيد أنه تورط فى بيع المخدرات وهذه الأشياء. لقد قتلوه. أعتقد أنها الغيرة.

ستيفى : كان له عقد مسجل.

كـــارلوس : هذا هو الشخص الذى أُطْلِق عليه النار أمام بيتي.

ديـــــون : كان يتحدث كثيراً وكان يستعرض كثيراً.

كـــارلوس : لقد قتلوه.

ديـــــون : كان يعيش فى المشروع.

كـــارلوس : لقد أُطْلَقت عليه النار أمام بيتي.

ديـــــون : لقد أطلقوا النار على مؤخرته فقتلوه.

كـــارلوس : كان ذلك فى الثالثة صباحًا وقد استيقظنا على صوت الانفجار.

ديـــــون : إن المخدرات مشكلة كبيرة فى كل ذلك. لكنك لا تستطيع أن توقف المخدرات التى تدخل البلد، لأنك تعرف من الذين يُدْخِلون المخدرات إلى هنا. إنهم نفس الأشخاص الذين يزعمون أنهم يحاربونها، نفس الأشخاص.

ستـيـفى : إن الحكومة تحقق أرباحًا كبيرة من ذلك.

ديـــــون : إنهم الذين يُدْخِلون المخدرات إلينا، إنها وكالة الاستخبارات وما شابهها من هراء. إنهم يتربحون. إنهم لا يهتمون. إنهم لا يهتمون إلا بأنفسهم. (أخذت المجموعة تذكر بعض الأشخاص المحليين "المحترمين"، الذين انكشف تورطهم فى المخدرات، ومنهم قائد الشرطة الذى قبض عليه متلبسًا (كان يشم). أتعرفون أنه قد أُسْقِطَت عنى قضية فى المحكمة لهذا السبب ... بسبب التلاعب بالأدلة.

أولافـــو : ألا تعرفون من يبيعون المخدرات ويروجونها فى تشينجتون.

كـــارلوس : إننى أرى أن الشرطة تقدم المساعدة. مع كل عام جديد يزداد عدد تجار المخدرات أكثر وأكثر. لماذا لأن هناك رؤوس فاسدة

أكثر وأكثر. إن أشخاصًا أكثر وأكثر يدخلون لعبة المخدرات، وبالتالى يزداد عدد التجار. وإذا كانت الشرطة لا تستطيع أن توقف المخدرات، فإن كل ما تستطيع أن تفعله هو أن تتربح منها.

ديـــون : فى كل ركن تسير فيه تجد محل كحوليات.

ستـيفى : وماذا يبيعون؟ كحول المالط malt liquor وسينت أيفز Saint Ives وبريفيت ستوك Private Stock وأولد إنجليش Old English..

بـــول : إنك حتى لا تحتاج إلى بطاقة الهوية لتشتري.

ديـــون : إن ما يقوله صحيحًا. فأنا لم أبلغ الحادية والعشرين، ويمكننى أن أشترى، لا أحد يهتم.

كـارلوس : إن مظهرى مظهر طفل صغير، لكن لا مشكلة فى ذلك.

أولافـو : إن معظم محلات الكحول فى تشينجتون تفعل ذلك (بدأت المجموعة تسمى محلات المشروبات التى تبيع للأطفال تحت السن القانونى).

بيـبى : هل توجد مخدرات وكحوليات فى المدارس؟ (جاءت الإجابة الجماعية بالموافقة: "نعم آه"، "فى كل مكان"، "إنها فى كل مكان"). كنا نسير بالسيارة أمام المدرسة الثانوية فى هذا الصباح، وقلت لروندا هذه هى مدرسة تشينجتون الثانوية فردت علىّ تقصد السجن ... مدرسة تشينجتون الثانوية الكذبة البيضاء الكبيرة. عن ماذا كانت روندا تتحدث؟

كـارلوس : إنها نكتة لأنه لا توجد مدرسة ثانوية. طوال الوقت الذى قضيته فيها لم يكن معى إلا كتابًا واحدًا.

أولافـــــــو : إنهم يفرضـون كل القـواعـد والأوامـر فى المدرسـة الثانوية يا رجل.

ستـيـفى : إنها سجن.

أولافـــــــو : إذا فعلت شيئًا فى الكافتيريا، كأن يجلس أربعة أشخاص أو خمسة على طاولة واحدة، فإنهم سوف يجرونك ويوقفونك ثلاثة أيام.

ديــــــون : لأنه غير مسموح لك بأن تجلس فى مجموعة بهذا الحجم.

أولافـــــــو : إنها كالسجن يا رجل. ولهذا يتورط كثير من الأطفال فى أمثال هذه الأمور ثم يتم إيقافهم، ثم طردهم من المدرسة نهائيًا. لقد غيروا كل القواعد فى المدرسة الثانوية. أنا أعنى ما أقول. لقد ذهبت هناك فى يوم، أصبحت كل الطرق اتجاهًا واحدًا. وأنت تعرف أين يمكنك أن تمشى، وهناك بنايات مختلفة عليها علامات. كل شىء فيها اتجاه واحد. وعليك أن تقطع كامل الطريق حتى إذا كنت تريد الرجوع.

بيـــــبى : كارلوس يقول أنه عندما كان فى المدرسة الثانوية لم يكن معه إلا كتابًا واحدًا ...

ستـيـفى : اللعنة، حتى المعلمين لا يهتمون يا رجل، أتفهم المعلمون لا يهتمون. إنهم يتقاضون مرتباتهم فحسب، هذا هو حالهم. (فى المجموعة بدا غضب من اللامبالاة المتفشية).

كـــارلوس : إنهم يهتمون بالمال، ودائمًا تراهم يُضْرِبون عن العمل من أجل مزيد من المال، لكنهم لا يقدمون شيئًا للأطفال. إن ذلك واضح جدًا. انظر (ينظر إلى المجموعة) انظر إلى معدل التسرب يا رجل. إنه واضح. (وصاح بقدر كبير من الغضب) يا لهم من أوغاد.

ديـــــون : إن معدل التسرب كبير بالفعل.

بيـــــبى : هل مستشار التوجيه فى المدرسة متعاون (أخذت المجموعة فى الضحك ويناول بعضهم بعضًا السجائر). معنى ذلك أنه ليس ثمة مكان يمكنكم أن تذهبوا إليه، وليس ثمة شخص تلجأون إليه غير أنفسكم (موافقة جماعية).

ستـيـفى : أنا جاد فى ذلك. أنا أكره هذه المدرسة، أنا أكره نظام المدارس العامة بتشينجتون، ليفجرها أحدهم ويريحنا منها. إنهم مجموعة من الحمقى، أقسم على ذلك. هل تعرف ما لاحظته يا بيبى، لقد لاحظت عندما كنت أذهب إلى المدرسة أن المعلمين إذا عرفوا أنك قادم من حى طبقة وسطى أنيق، فإنهم يحسنون معاملتك، ويعطونك اهتمامًا خاصًا. أما إذا عرفوا أنك قادم من المشاريع أو ما شابه ذلك ... (رولاند يقفز).

رولانــــد : إذا كنت من حى سيئ، فإنهم يتيقنون من أنك لن تتعلم.

ستـيـفى : إنهم ينظرون إليك على أنك ممن يصنعون المشاكل.

ديـــــون : تلقائيًا، صدقونى تلقائيًا!

رولانــــد لقد اتهمونى بتفجير قنبلة صوتية، لكنى لم أفعلها. كنت انتظر المحامى فى مكتب المديرة. كنت جالس فى الانتظار ولا شىء أكثر من ذلك. وبعد برهة أخذونى بصرف النظر عن اعترافى بذلك من عدمه. ثم قالت لا عجب إنك وغد. لقد كانت سمينة وقبيحة وكل شىء، صدقونى، فقلت لها "لا عجب أنك غير متزوجة"، فاستشاطت غضبًا ثم أوقفتنى، وكان هذا هو التوقيف الأول لى فى مدرسة تشينجتون الثانوية.

بيــــــبى : عندما تقولون أنكم سوداً وأنكم تتلقون معاملة مختلفة فماذا تقصدون بذلك؟

كـــارلوس : كان لدى معلمين متعصبين تماماً ضد البورتريكيين والسود، وأنا الاثنين معاً.

روبــرتـــو : ذات مرة رميت معلم بكرسى لأنه كان عنصرياً ضدى.

أولافـــــو : إنهم يعاملونك بشكل مختلف يا رجل. كنت فى ثلاثة فصول، كنت الزنجى الوحيد فيها. وكانت المعلمة تُدَرِس لكل من فى الفصل عداى. وكنت أناديها "هل يمكن تشرحى لى كذا" فكانت تتجاهلنى دائماً.

ديـــــون : حتى لو شرحوا ما تريد فإن ذلك يكون بتسرع وعلى عجل.

كـــالروس : لأنهم يعتقدون أنك لن تتعلم أبداً.

بيـــــبى : إنهم يعتقدون أنكم لا يمكن أن تتعلموا فقط من منظركم ولأنهم يعرفونكم من قبل ويعرفون عنكم أشياءً، أم أنهم ينظرون إليكم من باب أنكم من المشاريع وأنكم من أسر فقيرة؟

ديـــــون : كل ذلك. أو أحياناً يقرءون عنك فى الصحف، أتفهم ما أقول، أنك قُبِض عليك فى شىء تافه. لقد اِعْتُقلت مرة لسبب تافه، أعتقد أنه تكدير الأمن. نصف سكان تشينجتون يعرفون ذلك. الجميع يقولون: "آه لقد اعتقلته الشرطة ليلة أمس. بعد ذلك ذهبت إلى المدرسة لأجد المعلمين ينظرون إلى كأننى ارتكبت جريمة قتل. إنهم يضخمون الأشياء الصغيرة.

بيـــــبى : هل يحاول المعلمون بالفعل أن يتحدثوا معكم ويروا ما فى حياتكم، ما فى الشوارع؟ (لا: إجابة كورالية).

ستيفى : لكى أكون أمينًا معك لم أصادف معلمًا هادئًا. لقد نشأت فى تشينجتون وكانوا دائمًا جُهالاً وحمقى.

ديون : معلم واحد أحببته كثيرًا (يسميه)، كان يصرخ فيك، لكنه كان يعلمك بصرف النظر عن لونك أو مَنْ أنت.

بيبى : فى نظام تشينجتون التعليمى كم منكم دَرّس له معلم أسود أو لاتينى؟ (شخص واحد فقط رد بأنه كان له معلم أسود)

كارلوس : اللاتينى الوحيد كان الأستاذ (يسميه).

أولافو : كان لدى معلمين من جمهورية الرأس الأخضر عندما وصلت هنا لأول مرة، لأننى لم أكن أعرف الإنجليزية، لقد كنت فى برنامج ثنائى اللغة.

بيبى : وخارج الفصول عندما كنت تتحدث لغتك الأولى هل كانوا يضيقون بك؟

أولافو : نعم كان الطلاب يقولون لماذا لا تتحدث الإنجليزية. لكننى عندما كنت أعجز عن أن أقول شيئًا باللغة الإنجليزية، كنت ألجأ إلى لغة الكريول. وعندما أتحدث إلى صديقتى، أتدرى؟ كنت أتحدث بالكريولية.

بيبى : لكن الآن وبعد أن تحسنت إنجليزيتك فلو كنت فى المدرسة وعاقبك المعلم على شىء هل تتحدث الكريولية لترد الإساءة؟

أولافو : لا أنا لا أفعل ذلك ولا أظن أن متحدثى الكريولية الآخرين يفعلون ذلك.

كارلوس : فى رأيى أن المعلمين عندما يحيدون عن الطريق ليسخروا منك (يشترك ديون مع كارلوس ليقولا معًا) فإنك تحيد عن الطريق لتسخر منهم.

بيبي : هل معظم المعلمين يحيدون عن الطريق ليسخروا منكم؟

ستيفي : نعم يفعلون، إنهم يسخرون منا.

بيبي : هل تتشاجرون وأنتم فى المدرسة.

ستيفي : مرات كثيرة.

ديون : الجميع يتشاجر فى المدرسة لمجرد السير فى الرواق أو احتكاك بسيط.

كارلوس : سواء أكنت تلبس ما أرتديه الآن أو كنت ترتدى شيئًا غريبًا فإنهم يسخرون منك، وأنت لن يعجبك ذلك، ولا بد أن ترد بعنف.

بيبي : بالنظر إلى كل تلك الذكريات هل لو كانت المدارس مختلفة، مثلاً إذا تغيرت وأصبحت مكانًا يمكنكم أن تأتوا إليه وتعبروا عن أنفسكم وتتحدثوا كثيراً عما يحدث فى هذا المجتمع وفى حياتكم على الأقل، هل تبدءوا هناك ثم تربطوا ذلك بما فى الكتب وكل ما شابه ذلك، هل كانت استجابتكم للتعليم ستختلف؟ (نعم إجابة جماعية).

ديون : أى اختلاف! ستكون مختلفة لأنك لا تسمع عن الواقع. إنك لا تسمع عن الأمريكيين الأفارقة فى التاريخ. ولا حتى تسمع عن الأسبان ... إنها لا تتحدث عما يجرى هنا خارج المدرسة. إنها تتحدث عن الماضى. لكنه مضى وانقضى، أترون؟ تحدثوا عن الحاضر إننا فى المستقبل. لماذا لا تحضروا الناس الذين أحسنوا إلينا الآن! لقد مات هؤلاء الناس، دعوهم يرقدون فى سلام.

عليك أن تتحدث عما يحدث الآن.

أولافـــــو : إنك إذا لم تتعلم من التاريخ فسوف يقدر عليك أن تكرره.

بــــــول : أنا أحب التاريخ حقًا.

ســتــيــفى : أنا أيضًا أحب التـاريخ لكنهم لا يعلمـوننا أى شيء. إنـهم لا

ديـــــــون : يعلمـونك الحـقـيـقـة. حـسنًا انظر تومـاس إديسـون اخـتـرع المصباح لكن من الذى حسنه؟ من الذى حَسّن المصباح؟ رجل أسود! هل سمعتم بذلك؟ لقد قرأت التقويم الأسود عندما كنت فى السجن، وهناك أشياء أخرى كثيرة مثل اختراع كل أنواع الدواء. لقد اختـرع الإنسان الأسود أشيـاءً كثيرة. لكنهم لا يعلمونك شىء كهذا فى المدارس.
إنهم يخبروننا عن أولئك الذين حكموا البلد، لكنهم لا يخبروننا

رولانـــــد : عن أولئك الذين بنوا البلد.
لكن أتدرون، ولكى نلخص الموضـوع، لا أمريكى هنا إلا الهنود

ســتــيــفى : الأمريكيين إنهم الأمريكيون الحقيقيون الوحيدون.
تلك أرضهم.

ديـــــــون : لقد أُخِذت منهم.

ســتــيــفى : أخذها منهم من يطلقـون على أنفسـهم "الأمريكيين" وينظرون

ديـــــــون : إليهم الآن ويقولوا لم لا يذهبون إلى مكان آخر.
لقد جاءوا إلى هنا من أجل الدين والحرية، لكى يمارسـونهما

رولانـــــد : على النحو الصحيح، لكن الناس المختلفين عنـهم أرادوا أن يفعلوا شيئًا مختلفًا عنهم فقتلوهم أو طردوهم.
لقد أخذوها منهم، أخذوا منهم كل شىء وقتلوهم. إنها عقلية

رولانـــــد : "أريد كل ما اديك". إن الأطفال فى الشوارع يفعلون ذلك الآن

لكنهم، يُسْجَنون ولا يحتفى بهم أحد. كل هذا البلد تناقض فى تناقض.

معظمكم الآن لديكم أطفال، ماذا ستقولون لأطفالكم؟ ما هى

بيبى : نصيحتكم لأى طفل؟

سأنصحهم بأن يبقوا فى المدرسة مهما كانت سيئة، ليبقوا

ستيفى : فيها فقط.

أن يقاوموا.

كيف نتحدى تربية الإيقاع فى الشرك

كما اتضح بقوة فى هذا الحوار، فإن الثقافة لا تتعلق فحسب بالطعام والمرح، وإنما إنتاجها وتوزيعها واستهلاكها يتورط فى علاقات قوة غير متكافئة وتعسفية أنتجت وتعيد إنتاج (عبر السياسات الاجتماعية والممارسات والأبنية المؤسسية وجهود الإعلام فى التلاعب بالجمهور) مستويات عالية من البطالة والفقر والجريمة ووحشية الشرطة وتفسخ الأسرة والمجتمع والأمية وإدمان المخدرات وقسوة الجمهور. وكما يؤكد تشومسكى فإن النتائج الواضحة لهذه الظروف التاريخية هى "العنف ضد الأطفال والعنف من جانب الأطفال"[١٥]. ومع ذلك ورغم كل الاهتمام القومى بالعنف والشباب والكم المتنامى من الأدبيات فى العلوم الاجتماعية التى توثق الحاجات غير المشبعة لشباب كثيرين جداً فى الولايات المتحدة، يذهلك قلة الربط فى المناقشات القومية والمحلية المهيمنة فى هذا البلد بين الحكومة والسياسات والممارسات التعليمية المجازة اجتماعيًا التى أضرت بالأطفال وأسرهم تاريخيًا من جانب، والعنف المتزايد الذى يشمل الأطفال من جانب آخر.

وبدلاً من إلقاء اللوم على الشباب بسبب العالم الذى وجدوا أنفسهم فيه، لكنهم لم يصنعوه، فإن المربين وغيرهم من العمال الثقافيين فى حاجة ماسة إلى صوغ شراكات نقدية معهم من أجل تحليل ومواجهة الظروف القمعية والتكوينات الاجتماعية التى صنعت وفرضت تاريخًا من اليأس. إن الطلاب من أمثال أولئك الذين فى تشينجتون لا يعبرون فقط عن الاهتمام بحياتهم وما يرتبطون به بشكل عميق، وإنما أيضًا يولدون اهتمامًا كبيرًا بالتعليم وحالة المجتمع، إذا سُمِح لهم بأن يرتبطوا بطرق أساسية ومؤثرة سياسيًا بالعالم المحيط بهم[١٦]. فعندما أتيحت لهم الفرصة للحديث، كان الشباب فى تشينجتون أكثر من مستعدين وقادرين على تحليل الهيمنة البيضاء والتمييز والعنف المؤسسى وتسليع الثقافة والهوية. وكانوا أيضًا قادرين على الإتيان بحلول للمشكلات فى المدارس وفى المجتمع الأكبر.

إن مضمون ذلك ليس أن ما يقوله الأطفال يجب أن يؤخذ بقيمته الظاهرية، وإنما أن المربين يصورون إسهاماتهم بطريقة رومانسية وينفذون اقتراحاتهم على الفور. بينما فى الديمقراطية التشاركية الحقة يكون من علامات الاحترام والدمج أن يتم الاعتراف بكل الأصوات وسماعها والاشتباك معها نظريًا بحثًا عن جوانب القوة والضعف فيها، وليس أن تؤخذ مأخذ التسليم. وكما يصر باولو فريرى فإننا "كمشاركين نشطين وكذوات حقيقية، يمكن أن نصنع التاريخ عندما نكون ناقدين دومًا لحياتنا. وهذا النوع من التربية النقدية يحتاج إلى قدر كبير من التأمل الذاتى لطرق تعبئة الذوات والرغبات والأفعال من خلال التفاعل الاجتماعى ونظم المعنى والقيمة المؤسسة.

إن ما اقترحه هنا لا يجب أن يُساء فهمه على أنه محاولة لتبرير جرائم العنف التى يرتكبها الشباب من كل الخلفيات. فحتى الشباب فى تشينجتون يعتبرون أنفسهم (بين آخرين) مسئولين عن أخطائهم. إن طرق التعامل المباشر مع فورية الجريمة الفعلية -طفل فى الثالثة عشر من العمر يطلق النار- لا يقول إلا القليل جداً من الأشياء المهمة فى مناقشة مثل هذا الموضوع، فيما تتمثل النقطة التى نؤكد عليها هنا

فى أن هناك حاجة ماسة إلى النظر إلى الظروف الكبيرة macro الآخذة فى الازدياد التى يسود فيها نزع الصفة الإنسانية عن البشر وما ينتج عن ذلك من عنف على المستوى الصغير، والإزالة الوقائية لهذه الظروف. عند مناقشة تسليع الهويات فى منطق السوق والثقافة الشعبية، يقول تشومسكى وهو يتحدث عن طفل فى الحادية عشر قتل طفلاً آخر من أجل حذاء، (وهو ما قد لا يصدقه الجمهور العام):

> **لم لا؟ إننا نقول لهذا الطفل الذى فى عمر الحادية عشر عبر التليفزيون "إنك لن تكون رجلاً بحق إلا عندما ترتدى الحذاء الذى يرتديه بطل كرة السلة هذا أو ذاك. ثم انظر حولك وانظر من يتقدم الجميع، أنهم الأشخاص الذين يلعبون وفق قاعدة "خذ لنفسك أكثر ما تستطيع"، وبالتالى فتلك هى الطريقة السهلة إلى تلك الغاية. إن الأطفال يشاهدون كل الآخرين يسرقون أيضًا، حتى الأشخاص فى البيوت الغنية، لماذا إذن لا يسرقون هم أيضًا.**

إن المجتمع ككل يجب أن يناقش تلك التكوينات والسياسات الاجتماعية، ومن بينها المدارس العامة التى أنتجت ثقافة البقاء والمادية والانحراف. إنها تلك البيئة التى تحدث عنها ستيفى فى الحوار السابق هى التى تحتاج لأن تتغير.

والمربون أيضًا عليهم أن ينموا لدى أنفسهم القدرة على أن يميزوا بين المرض وأفعال المقاومة التى تكون ردودًا (وإن لم تكن شعورية دائمًا) على الهيمنة، مثل الرمى بالكراسى، والهروب من الشرطة، وتكوين سمعة بغرض البقاء عن طريق الخوف. إن المقاومة تُستخدَم لمساعدة الأفراد أو الجماعات على التعامل مع الظروف الاجتماعية القهرية والظلم، وتحتاج لأن يُعَدَل مسارها بحيث ترتبط بمشروعات سياسية إيجابية للتغيير.

وعلاوة على ذلك، ومن منظور اجتماعى - تاريخى لفهم الهوية والمعاناة الإنسانية، يمكن للمعلمين أن يتفتقوا ويجاوزوا النماذج العرقية التى تساوى بين الجريمة وثقافة

جماعات عرقية معينة، وهى خبرات جماعية مجردة من تاريخ قائم على علاقات عدوانية بين الجماعات وسوء استخدام القوة بينها. ويمكنهم أيضًا أن يجاوزوا النماذج السيكولوجية التى تنظر إلى السلوك الإنسانى بوصفه فرديًا ومرضيًا، دون أن ينبذونها بالكامل. ولا بد من تشجيع المربين على فهم كيف يكون التكوين المعرفى والسيكولوجى لكل شخص نتاجًا للتاريخ والسياسات، وبالتالى يتأثر بشكل مباشر بأيديولوجيات قهرية مثل الرأسمالية والتفرقة العنصرية والتفرقة الجنسية sexism والجنسية المغايرة. وكما يدفع بونى نورتن بيرس فإننا فى حاجة إلى نظرية فى الهوية الاجتماعية تدمج المتعلم وسياق التعلم وكيف تؤثر علاقات القوة فى العالم الاجتماعى على التفاعل الاجتماعى بين المتعلمين والمعلمين وبين الرفاق(١٩).

وفقط من خلال النقاش العام النقدى الدمجى المتموضع تاريخيًا، يمكن للمربين أن يُحَسِنوا فهمهم للجذور المعقدة للجور والعنف فى هذا البلد، وبالتالى يتعرفون على نحو أفضل على السياق الاجتماعى الثقافى القائم الذى يعيش فيه الطلاب، وكذلك الأدوات التى سيحتاجون إليها ليكونوا مواطنين واعين ونشطين ومسئولين وفاعلى تغيير نقديين.

إن المحافظين الذين يؤيدون أسطورة الجدارة والاستحقاق والوعد بالمساواة بين الملعب الأكاديمى وملعب التوظيف عن طريق المعايير التعليمية يجب عليهم أن يوضحوا كيف يستطيع مدخلهم المُعَسكَر إلى التعليم العام وخصخصة الفضاء العام أن يتعامل مع العنف المادى والرمزى والغليان الاجتماعى الذى كشف عنه الفصل الحالى. بل إنه فى ضوء النتائج المروعة لنظام التقويم الشامل فى تشينجتون (المستخدم فى المدارس العامة)، الذى يفشل فيه الأطفال الفقراء والمُخْضَعين عرقيًا وأطفال الأقليات اللغوية فى كل أرجاء الولاية، يصبح مستقبل التعليم العام فى المدينة غائمًا. فطلاب المدرسة الثانوية الذين لا ينجحون لن يُسْمَح لهم بالتخرج، وسوف يُعْطَون بدلاً من ذلك شهادة حضور. وفى العام الأول من تطبيق هذا النظام فشل ٤٢٪ من طلاب الصف العاشر فى تشينجتون فى قسم فنون اللغة الإنجليزية، ٧٦٪ فى قسم الرياضيات، ٥٨٪ فى

العلوم والتكنولوجيا. وبقسوة ظاهرة، وبإلقاء اللوم على الضحية، علق معلم محلى على هذه النتائج قائلاً أن "مستودع الجينات فى تشينجتون هو المسئول".

إن المربين إذا أرادوا حقًا أن يواجهوا هذا الواقع القهرى وأن يصبحوا فاعلى تغيير أصحاب تأمل ذاتى، يجب عليهم أن يحتضنوا التاريخ ويتعهدوه بوصفه حوار بين أصوات عديدة ومتعارضة فى صراعها داخل علاقات قوة غير متكافئة. وعلى المربين أن يعملوا ليس فقط من أجل تضمين الطلاب فى عملية تطوير المناهج فى المدارس، وإنما أيضًا من أجل المساعدة فى حشدهم فى كيان سياسى منظم (جماعات نضال نقدية)، بحيث يتمكنوا من التعبير عن شواغلهم وتحقيق أهدافهم. وهذه الإمكانية التحريرية صرخة عالية من منطق الهيمنة العرقى والطبقى الذى يتبناه صناع السياسات والممارسين القساة الذين يهندسون المدارس العامة فى شكل حجيرات احتجاز تسىء إلى الشباب وتجبرهم على الحياة من أجل البقاء فى الشوارع، حيث يتخطفهم سريعًا المجمع الصناعى للسجون المزدهر والذى لا يشبع.

الهوامش

(1) Loic Wacquant, "Deadly Symbiosis: Rethinking Race and Imprisonment in Twenty-first-century America," Boston Review: A Political and Literary Forum 27, no. 2 (April-May, 2002): 23.

(2) See Margaret A. Bortner and Linda M. Williams, youth in Prison: We the People of Unit four (New York: Routledge, 1997); David Cole, No Equal Justice: Race and Class in the American Criminal Justice System (New York: New Press 2000); Angela Davis, The Prison Industrial Complex (Oakland, Calif.: AK Press, 2000); Joel Dyer, The Perpetual Prisoner Machine: How America Profits from Crime (Boulder, Colo.: Westview, 2001); Joy James, ed., States of Confinement: Policing, Detention, and Prisons (New York: Palgrave Macmillan, 2002).

(3) Wacquant, "Deadly Symbiosis," 23.

(٤) من الأهمية بمكان أن نلاحظ أنه ابتداءً من عام ١٩٩٨ تمت إدانة ١,٢ مليون سجين فى جرائم غير عنفية. علاوة على أنه مع انتشار قانون الثلاث ضربات سيوضع الناس فى السجون مدى الحياة لسرقة عصا جولف أو وجبة غداء مثلاً. والحدود الدنيا الإلزامية هى الأخرى تغذى هذه الصناعة سريعة التوسع. إذ من المهم أيضًا أن نعترف أنه بسبب هذا الاندفاع وتلك العجلة لوضع الناس فى السجون، يوجد ربع السجناء فى الولايات المتحدة فى السجون المحلية وسجون الولايات والسجون الفيدرالية بتهم مخدرات. ففى السجون الفيدرالية يشكل متعاطو المخدرات الآن ٥٩٪ من كل النزلاء، وفى تسع ولايات أدين أكثر من ١٠٪ من النزلاء فى مخالفات ماريجوانا، وأكثر من ٥٠٪ منهم كانت تهمهم الحيازة. وقليلون جداً من هؤلاء السجناء من مهربى المخدرات الكبار. ففى عام ٢٠٠٠، وطبقًا لمكتب سياسة السيطرة على المخدرات القومى، كان "حوالى ثلثى ميزانية المخدرات الفيدرالية مخصصة لجهود التحريم وفرض القانون وتقليل الداخل إلى السوق، بينما خصص ثلث واحد للمنع والعلاج وتقليل الطلب". من أجل الإحصاءات السابقة راجع: (www.hrw.org/reports/2000/usa/RcedrgOO-03.htm).

(5) Also see www.angelfire.com/rnb/y/majority.htm

(6) Henry A. Giroux, Stealing Innocence: Youth, Corporate Power, and the Politics of Culture (New York: St. Martins Press, 2001), 85.

(7) National Center for Children in Poverty (1999). Available at: cpme-net.columbia.edu/dept/nccp/cps99pr.html.

(8) Chuck Collins, Chris Hartman, and Holly Sklrr, "Divided Decade: Economic Disparity at the Century's Turn," United for a Pair Economy (December 15, 1999), Available at: www.ufenet.org/press/archive/1999/Divided-Decade divided-decade.html last accessed August 25th, 2002.

(9) Kenneth Saltman, Collateral Damage: Corporatizing Public Schools_A Threat to Democracy (Boulder, Colo.: Rowman & Lirtlefield, 2000), 86.

(10) See Michael Apple, Educating the "Right" Way: Markets, Standards, God, and Inequality (New York: Routledge, 2001); Samuel Bowles and Herbert Gintis, Schooling in Capitalist America: Educational Reform and the Contradictions of Economic Life (New York: Basic Books, 1976); and Henry A. Giroux, Stealing Innocence: Youth, Corporate Power, and the Politics of Culture (New York: St. Martin's Press, 2001).

(11) Noam Chomsky, Pepi Leistyna, and Stephen A. Sherblom, "Demystifying Democracy: A Dialogue with Noam Chomsky," in Presence of Mind: Education and the Politics of Deception, edited by Pepi Leistyna (Boulder, Colo.: Westview Press, 1999), 117.

(12) The dialogue is a shorter version of the original.

(13) All teacher interviews were part of the larger eight-year study that I conducted in Changeton. For detail on this study, see P. Leistyna. Defining and Designing multiculturalism: One School System's Efforts (New York: SUNY Press, 2000).

(14) Paulo Freire and Donaldo Macedo, Literacy: Reading the Word and the World (Westport, Conn.: Bergin and Garvey, 1987), 20.

(15) Chomsky, Leistyna, and Sherblom, "Demystifying Democracy," 110.

(16) Louise Cooper, "Youth Activists Fight Prop 21," Against the Current 86 XV, no. 2. (May-June, 2000); Elizabeth Martinez, "The New Youth Movement in Califor-

nia," Z Magazine (May 2000); and Jay MacLeod, "Bridging School and Street," Journal of Negro Education (1991).

(17) Pauio Freire, The Politics of Education: Culture, Power, and Liberation (New York: Bergin and Garvey 1985), 199.

(18) Chomsky, Leistyna, and Sherblom, "Demystifying Democracy," 112.

(19) Bonny Norton-Pierce, "Social Identity, Investment, and Language Learning," TESOL Quarterly, 29, no. 1, (Spring 1993): 7.

الفصل السادس

الحرية للبعض والضبط "للآخرين"

بنية الجور فى التعليم

إنورا براون(*)

لقد أصبح الاحتجاز هو الواقع السائد لشباب الطبقة العاملة فى المدارس العامة، التى باتت أقرب إلى السجون ومعسكرات الجيش منها إلى مواقع للتعلم والتفكير الناقد. ففى هذه المدارس المليئة بأجهزة الكشف عن المعادن والحراس المسلحين وعمليات التفتيش الدورية، يتم إخضاع الشباب الفقير، خاصة الأمريكيين الأفارقة والشباب الملونين الآخرين، إلى مستويات متزايدة من المراقبة المادية والنفسية والاحتجاز والنظام الصارم. والقيود المادية التى تُفْرَض داخل جدران المدرسة تتممها السياسات والممارسات القومية فى التعليم مثل الأزياء المدرسية الموحدة، والأشكال الأكثر تقنينًا وصرامة من التعليم عن طريق الحفظ الصم وفيالق تدريب ضباط الاحتياط الصغار التى تشير فى مجملها إلى الحاجة إلى الضبط والطاعة والامتثال. وثقافة العسكرة المتنامية تنشأ/تتكرس بالدرجة الأولى فى مدارس الملونين فى

(*) إنورا براون Enora R. Brown أستاذة الأصول الاجتماعية والثقافية للتربية بجامعة ديبول DePaul نشرت لها مقالات حول الأبعاد العرقية والطبقية فى التنمية البشرية. ولها أيضًا إنتاج علمى فى علم النفس النقدى مثل التحليلات الاستطرادية لتفاوض الأطفال حول القوة وعمليات بناء الهوية من جانب المربين.

الجاليات الفقيرة، تلك المدارس فقيرة التمويل التى تعتمد على الضرائب. وحيث أن هويات الشباب فى هذه الجاليات تُبْنَى اطراديًا بوصفهم شباب ضعيف التحصيل وميال للعنف وكاره للتعليم (أى حثالة المجتمع الذين يحتاجون إلى الضبط والتقييد)، فإن وجود الفرض وسياسات الفرض لـ"تمدين أرواحهم الجامحة" يبدو أمرًا مستحقًا وطبيعيًا.

وعلى النقيض من ذلك، تشبه المدارس العامة للشباب الأغنياء الصروح الفخمة المزينة بكل المصادر التى تشكل مواقع التعلم والتقصى النقدى والتبادل الاجتماعى المرن. فهذه المدارس تقع داخل حدائق فسيحة، ومزودة بأحدث الوسائل، فى بيئات مريحة غنية بالمصادر، تشجع حرية الحركة والتفكير من أجل الاكتشاف وحل المشكلات والإبداع. والاتساع المادى لهذه المدارس العامة التى يرتادها الشباب البيض الأغنياء بالدرجة الأولى تتممه سياسات قومية مثل خصخصة التعليم العام وحركة المعايير (مثل: استخدام اختبارات الاستعداد الدراسى SAT) ومناهج الرياضيات/العلوم/التكنولوجيا المتقدمة، التى تشير ضمنًا إلى الامتياز الموروث والاستحقاق المؤسس، وتعزز التفكير المستقل والتحليل والابتكار. وثقافة الامتياز هذه تنتشر فى المدارس التى تفيض بأموال الضرائب والموارد الإضافية من الأسر الغنية. وحيث أن هويات الشباب فى هذه الجاليات تُبْنَى اطراديًا بوصفهم مرتفعى التحصيل وأذكياء، وباعتبارهم مهنيو المستقبل عميقو التفكير وقادة المستقبل المثقفون، تبدو المصادر الوفيرة وبيئات التعلم المريحة - وإن كانت صارمة - النتيجة الطبيعية لأرواحهم الابتكارية والفضولية والمسئولة والموجهة ذاتيًا.

إن المدارس العامة فى جاليات الطبقة العاملة الفقيرة والطبقة العليا الغنية، تلك المدارس المستقطبة طبقيًا وعرقيًا، تعد أماكن يتشبع انصهار الفضاء والخبرة فيها بمعانى تفاضلية[1] حول الحريات التى "يستحقها" الشباب الغنى أو الفقير، ومدى الاتساع اللاحق لخيارات الحياة المستقبلية التى تتاح لكل منهم. فهذه الأماكن تشكل الفضاء المادى الذى تُصاغ فيه علاقات اجتماعية واقتصادية وسياسية وروحية معينة

ويتم تعهدها أو نقضها. فالمدارس العامة هى مصادر الهوية التى تتشكل داخل شبكات علاقات القوة التى تؤطر احباطات وتطلعات الشباب. ومع أن الخطاب المهيمن يصور هذه المدارس على أنها النتاج "الطبيعي" لقيم وقدرات وحقوق القاطنين فى كل جالية، ينقض هذا الفصل ذلك ذاهبًا إلى أن هذه المدارس مطمورة بنائيًا فى -ومكونة تاريخيًا عن طريق- العلاقات ما بعد الصناعية والاقتصادية العولمية والسياسية الدينامية. وبذلك تمثل المدارس وترمز إلى علاقة مستقطبة وقائمة على الاعتماد المتبادل بين الطبقة العليا والطبقة العاملة، والتثمين النسبى لهذه الطبقات فى الثقافة المهيمنة، ومواقع الهوية الموروثة "الشرعية" لشبابها فى النظام الاجتماعى الحالى. وهذه المدارس، بغرقها فى أيديولوجيا الاختيار الفردى والدارونية الاجتماعية والوحدة القومية، تعكس المعانى الذاتية التى تُخْلَق عبر الطرق المتمايزة التى من خلالها يعيش الناس حياتهم فى الجاليات المتباينة.

يفحص هذا الفصل الاختلافات بين مدرستين عامتين -مدرسة مونتينفيو Moun-tainview الثانوية الفنية - ذلك لأنهما Groundview الثانوية ومدرسة جروندفيو تكشفان عن أشكال الجور المؤسسية التاريخية فى نظام التعليم العام، وهو الجور الذى تفاقم وقُنِن بفعل السياسات القومية الحالية (مثل: الخصخصة الشركاتية والعسكرة المحلية للمدارس)، وتجسد وبُرِر عن طريق الصياغات الأيديولوجية الحالية حول "طبيعة" الشباب أو هوياتهم الجوهرية فى هذه السياقات المختلفة. فى البداية سنقدم صورًا مقارنة للمصادر المالية والمادية الحالية المتوفرة فى كلتا المدرستين، والخبرات المنهجية والتربوية المقدمة، والعلاقات الاجتماعية التى تتعهدها ثقافة المدرسة فى هاتين المدرستين المتباعدتين. وسوف نناقش مغزى الاختلافات الملاحظة والتفاعل الدينامى بين أبعاد الخبرة التربوية فى كل مدرسة فى "تصديقها" على التبرير الاستحقاقى meritocratic للجور فى التعليم، حيث تؤثر على المستقبل الذى يتصوره الشباب والمسالك التى "يختارونها" والمكانات المتاحة لهم فى الحياة.

بعد ذلك سنبحث الجذور التاريخية لهذه الاختلافات بين المدرستين من خلال تحليل النضالات السياسية من أجل التعليم العام للعبيد السابقين الذى رافق صعود التصنيع بعد الحرب الأهلية[٢]. وهذا التحليل يقوم على مسلمة عامة مؤداها أن جودة التعليم المتباينة فى مدارس الأغنياء - الفقراء المعرقنة ترتبط فى الأصل بالاقتصاد. كما سيلقى هذا التحليل الضوء على إعادة الإنتاج البنائية ووظيفة أشكال الجور الطبقية والعرقية فى التعليم[٣]. كما سيناقش الفصل مغزى الأزمات الاقتصادية الحالية[٤]، ومنها التحول المزلزل الذى تُحْدِثه تكنولوجيا المعلومات المزدهرة وصناعات الإنسان الآلى فى الاقتصاد الوطنى[٥]، وكذلك التحرك الكبير لرأس المال الصناعى إلى أسواق عالمية أقل تكلفة[٦]، والقمع السياسى الموازى الذى يُمارس من خلال السياسات والممارسات التشريعية والقضائية[٧]. فقد كانت هذه التطورات فى الحياة الاقتصادية والسياسية فاتحة للجهود المقابلة لخصخصة التعليم العام وعسكرة المدارس فى الجاليات الفقيرة، دعمًا لبحث الشركات الدائم عن أسواق جديدة للربح، وإحباطًا للمقاومة والتمرد الحتميين من جانب المزاحين من الاقتصاد ما بعد الصناعى. وسوف يفترض هذا التحليل رؤية مؤداها أن وصول تكنولوجيا الإنسان الآلى robotics والظهور التدريجى للإنتاج بلا عمال laborless production يُحْدِثان تحولاً دراميًا فى الاقتصاد الوطنى/العالمى يتطلب تغييرات متطرفة فى جهاز الدولة[٨]، خاصة فى التعليم العام، من أجل دعم التغييرات فى النظام الاجتماعى القائم.

وفى هذا السياق تكثفت الأدوات الأيديولوجية للثقافة المهيمنة لتبرير الاستقطاب المتزايد للثروة، ولإلقاء اللوم على القطاعات العرقية والإثنية من السكان باعتبارها مصدر الظروف الاقتصادية والاجتماعية المتدهورة، ولإعادة تعريف الديمقراطية باعتبارها "اختيار فردى وخاص". وهى خطوة أولى فى إعادة هيكلة التعليم العام. وسوف يُختتَم هذا الفصل بتناول الدور الحاسم للتربية النقدية فى جهود المربين لتعزيز الفهم التحليلى للديناميات التى تمثل الأساس للجور الاجتماعى فى التعليم بغرض توجيه تفكيرنا وفاعليتنا الإنسانية فى تعزيز التغيير الاجتماعى.

مونتينفيو: حرية الصيرورة

يفترض بورديو أن الاستيلاء الاحتكارى من جانب المؤسسات على نقل رأس المال الثقافى والأدوات الأخرى الضرورية للنجاح فى الثقافة المهيمنة، وفشلها المنهجى فى ذلك، يجسد ملكيتها الحصرية وكذلك ملكية الثقافة ككل فى أيدى الطبقة الحاكمة(٩). واتفاقًا مع ذلك يقرر سبيرز Spears أن جودة التعليم الصارمة فى مؤسسات النخبة تعد هؤلاء الطلاب لأدوارهم القيادية الموروثة فى مجتمع ذى دعامات أيديولوجية تتفق مع ذلك، وأن غياب الخبرات التربوية المماثلة من مؤسسات غير النخبة تخنق الابتكار والاستثمار الأيديولوجى من جانب الطلاب الفقراء فى فحص نقدى للقهر من شأنه أن يتحدى النظام الاجتماعى القائم وموقعهم فيه(١٠). تعد مدرسة مونتينفيو الثانوية مثالاً للمدارس الغنية فى نظام تعليمى ينقل بانتظام أدوات الاستحواذ إلى الطلاب الأغنياء المحليين الذين يُعَدون لوراثة وإنجاز مواقع القيادة فى الثقافة المهيمنة.

يقع مبنى مدرسة مونتينفيو الثانوية الفسيحة فى أحد ضواحى شيكاغو الغنية. أرض المدرسة مغطاة بعشب أخضر زاهر مزين بطرقات محفوفة بالأشجار، كثيرة الانعطافات، تقود إلى سبعة مبانى حديثة فسيحة، مبنية بالزجاج أو الطوب فى أماكن إستراتيجية. ويتكون حرم المدرسة الرائع وجيد الصيانة من منطقة واسعة للتريض، وملاعب لرياضات وألعاب عديدة أخرى. وبالقرب من ذلك يوجد موقف سيارات لطلاب وهيئة المدرسة على مسافة تُقْطَع مشيًا من منطقة التسوق المليئة بمحلات ومطاعم وشركات فخمة. وتقع مونتينفيو بالقرب من شارع تجارى يربط جاليات الساحل المحلية ذات البيوت المحاطة بمناطق مشجرة وطرق جميلة مريحة (سعر البيت فيها من ٥٠٠٠٠٠ إلى ١,٠٠٠,٠٠٠ دولار أو يزيد). هذا الحرم المدرسى هو مكان الأعمال الأكاديمية والثقافية والرياضية والاجتماعية والمدنية لأكثر من ثلاثة آلاف طالب من الصف التاسع إلى الثانى عشر من الجاليات الغنية المجاورة.

لدى دخول مدرسة مونتينفيو الثانوية تُذهِل المرء المداخل الرخامية الواسعة المحاطة من الجانبين بمقاعد تطل بنوافذ كبيرة على حدائق الحرم المدرسى، وتسمح

للضوء الطبيعي بأن يغسل المداخل المحاطة باللوحات الفنية. والطلاب، ببناطيلهم الجينز الغريبة وقمصانهم الشبابية، يتمشون بحرية وأريحية عبر القاعة أو يجلسون على حواف النوافذ للقراءة أو الدخول فى محادثات مع الأصدقاء. والطلاب الذين يسرعون الخطى بسبب تأخيرهم على الفصول يحثهم المعلمين بلطف قائلين "هيا أسرع". وهؤلاء لا يشغل بالهم التهديد المتمثل فى حجرة الاحتجاز، وأبواب الفصول تظل مفتوحة لمن يصلون متأخرين. والمكاتب الإدارية الفردية فسيحة وجيدة الأثاث وجذابة تدعم العمل المستمر للمدرسة وتسع الزوار بشكل مريح. والفصول يغمرها الضوء الطبيعي ومزودة بأجهزة تكنولوجية متقدمة وأجهزة سمعية-بصرية. وتتوفر فى الفصول مقاعد وفيرة للطلاب والمعلمين تعين على الدخول فى مناقشات يمكن ترتيبها بمرونة وتعين على مختلف خبرات التعلم على خلفية موسيقى هادئة. يا لها من بيئة مواتية للتعلم والتفكير والابتكار مع الآخرين! وفى هذا الحرم المدرسى المفتوح تتاح للطلاب حرية الأكل والشرب فى الفصول والذهاب إلى البيت للغداء.

تعكس الأجنحة المختلفة لكل مبنى مدى الخبرات الأكاديمية والخبرات المصاحبة للمنهج التى يمكن للطلاب من خلالها أن يصمموا "موضوعات التخصص" ومقررات الدراسة المتداخلة بين العلوم المختلفة. وإضافة إلى الجناح المخصص للفنون الجميلة، توجد فضاءات أكاديمية أخرى تتضمن: أحدث معامل الحاسبات والعلوم والتكنولوجيا واللغة، وقسم للمسرح والفنون التمثيلية، ومحطات إذاعة وتلفزيون سلكى يديرها الطلاب، وأجهزة موسيقية، ومكتب أخبار، وصالات رياضية متعددة، وحمام سباحة بملحقاته، ومَرقَص، وغرفة وأجهزة تمرين، ومكتبة فسيحة تضم آلاف الكتب، وغرفة طعام فسيحة، وغرفة جلوس للطلاب، ومعرض فنى. كما توفر الرحلات القومية والدولية خبرات تعلم ثرية خارج الموقع للطلاب المهتمين بالبيولوجيا البحرية والجيولوجيا، والدعم الأسرى للأعمال الاجتماعية/العقلية.

إن مدرسة مونتينفيو بمثابة كلية فنون جميلة مصغرة بها أكثر من ثلاثمائة مقرر أكاديمى قائمة على النظم المعرفية discipline-based ومتعددة المستويات، منها

مقررات تحديد المستوى المتقدمة التي يضع الطلاب جداولهم في ضوئها. وتتضمن المقررات: الرياضيات، والخطابة والدراما، واللغات الحديثة/الكلاسيكية، والتعليم التكنولوجي، والتعليم المشروعاتي، والعمل الاجتماعي، والدراسات الاجتماعية، والموسيقى، والعلوم، والدراسات متعددة الثقافات، وطبخ وخبر الأطعمة، والتصميم الداخلي والتصويري. وكرة القدم والبولو والمبارزة والهوكي مجرد أمثلة للألعاب الرياضية المتاحة في المدرسة. وإضافة على ذلك يوجد بالمدرسة أكثر من مائة نادي ومجموعات مصالح من لعبة البريدج إلى الركبي والتبادل العالمي، ومن الخدمة الاجتماعية وائتلاف الإيدز إلى الشعر وغيرها. إن مدى الخبرات الأكاديمية والخبرات المصاحبة للمنهج، إلى جانب وجود مستشار لكل ٢٢ طالبًا، يقابله حقيقة أن ٩٥٪ من الطلاب يقصدون الجامعة.

لكن مَنْ أولئك الذين يقطنون هذا الفضاء المسمى مونتينفيو؟ إن ٨٨٪ تقريبًا من طلاب المدرسة من الأمريكيين الأوروبيين، وحوالي ٩٪ من الأمريكيين الآسيويين، وأقل من ٢٪ من الأمريكيين اللاتينيين، وأقل من ١٪ من الأمريكيين الأفارقة. إن ٩٧٪ من الطلاب تقريبًا يتخرجون، وأقل من ١٪ من أسر منخفضة الدخل. وحوالي ٩٣٪ من المعلمين أمريكيين أوروبيين، وأقل من ٣٪ أمريكيين آسيويين، وحوالي ٢٪ أمريكيين لاتينيين، وحوالي ١٪ أمريكيين أفارقة. و٨٠٪ من المعلمين معهم درجات ماجستير ومتوسط مرتباتهم أكبر من ٧٥٠٠٠ دولار [في السنة]. وعلى أساس ضرائب الملكية المحلية، يُخَصَص لكل طالب أكثر من ١٥٠٠٠ دولار(١١). والشباب في هذه الجالية يعتبرون مونتينفيو فضائهم، وبالتالي مكانهم. إنها المكان الذي ينتمون إليه. وخيارات العلاقات والاختيارات والحريات التي يعايشونها ويخلقونها في مدرستهم وجاليتهم تنقل وتتعهد خلق رأس المال الثقافي الذي يعد هؤلاء الشباب لكي يكونوا في المستقبل مديري المؤسسات وملاك الشركات والمتعاملين مع تكنولوجيا المعلومات المنبثقة ومهندسي السياسات العامة والمستهلكين والمروجين الفطنين "للثقافة العالية". وهؤلاء الشباب يتوقعون ثروة مادية من أرباح اليوم، وسوف يأخذون مكانهم ومستقبلهم في العالم.

مدرسة جروندفيو الثانوية: الضبط بغرض التكبيل

إن عمل المدرسة، الذى يختلف تأثيره بين الأطفال من الطبقات المختلفة، والذى يتفاوت نجاحه بدرجة كبيرة بين أولئك الذين يؤثر عليهم، يتعزز ويتكرس بإقراره للتفاوتات الأولية[١٢].

تلعب المؤسسات التعليمية دوراً محورياً فى صياغة تطلعات وبناء اختيارات الشباب من خلال الأفعال والممارسات اليومية فى المدارس التى تقر وتبنى أشكال الجور الاجتماعى والاقتصادى القائمة. ومدرسة جراوندفيو الثانوية تعد مثالاً للمدارس فى نظام تعليمى يقر الخيارات المحدودة، ويصادق على الرؤية المكبلة للشباب فى هذه الجالية الفقيرة. فتطلعات الشباب، الأغنياء والفقراء على السواء، تعكس "استدماجهم لمكنات موضوعية"، وتشكل اختياراتهم الحياتية (مثل: التعبيرات المادية عن جهودهم لبلوغ ما يمكن بلوغه)[١٣]. فـ"اختياراتهم" ليست اختيارات "فاعلين أخلاقيين مستقلين يتصرفون فى فراغ وجودى"، وإنما تُخَلَق وتُمارَس من خلال تفاعل دينامى بين القوى الاقتصادية والاجتماعية والروحية والسياسية[١٤]. وطلاب مدرسة جراوندفيو، وهم يفكون شفرة التفاعل الدينامى بين هذه القوى فى بيئة المدرسة المادية والسياسات والممارسات التعليمية العامة وخبراتهم المعاشة، يستنتجون ما ينتظرهم فى المستقبل وفرص بقائهم.

تقع مدرسة جراوندفيو الثانوية الفنية فى جالية حضرية فقيرة بشيكاغو على بعد ٢٥ ميلاً من مدرسة مونتينفيو. تتكون المدرسة من مبنى مكون من أربعة طوابق من الآجر الأحمر الباهت، فى حالة من الإهمال الواضح، وساحة خرسانية مهجورة. تتكون المدرسة من مبنى مربع محصور بين رقع متناثرة من الأعشاب الذابلة، ورصيف خرسانى ملون فى أحد جاليات الطبقة العاملة. إن هيئة المدخنة لا يمكن تمييزها عن البنايات السكنية الشعبية المهجورة التى تقف بالقرب منها وتمتزج مع المشهد المتدهور والمتجهم، ومرور السيارات المتواصل وأدخنة التقاطعات المرورية المزدحمة المجاورة.

هذا المبنى الذى مر على تشييده ٨٥ سنة يسع حوالى ثلاثة آلاف طالب من الصف التاسع إلى الثانى عشر من الجالية الحضرية المزدحمة المجاورة. وكشأن الأحياء الأخرى على "هذا الجانب من المدينة"، تم فصل هذه الجالية عمداً عن المناطق التجارية والسكنية القريبة عن طريق حاجز عرقى إستراتيجي: واحد من أكبر الطرق السريعة بين الولايات.

تستقبل المرء فى البنية المادية لمدرسة جراوندفيو وقائع مختلفة تماماً عن مدرسة مونتينفيو. فلدى الدخول من الأبواب الفولاذية الثقيلة بمدخل المدرسة الرئيسى، يجد المرء فى استقباله شرطيين مسلحين وبوابات كشف عن المعادن لا يقل وجودها بروزاً عن بناء المدرسة المتداعى المكون من الآجر الأحمر. يولد هذا الاستقبال فى النفس عادة توتراً وحذراً كبيرين، ولا يعطى انطباع "حلقة الحرية" ring of freedom . والطلاب بزيهم الموحد الأسود والأبيض يدخلون المدرسة ببطاقات هوية عليها صورهم وجداول فصولهم ويجب أن يعبروا من بوابات الكشف عن المعادن لضمان عدم وجود أسلحة داخل المدرسة. ويجب على الطلاب أن يضعوا بطاقات هويتهم وجداول فصلوهم حول رقابهم طوال اليوم بحيث يمكن مراقبتهم/متابعتهم لدى دخولهم غرفة الطعام ونقاط التفتيش المدرسية الأخرى. والجدران قاتمة اللون والعارية نسبياً تقودك عبر طرقات قذرة خافتة الإضاءة تضيئها لمبات فلوريسنت ذات طنين معلقة فى السقف، وبعض النوافذ المغطاة بألواح، وكلاهما فى حالة إهمال واضحة. وتلك البنية المادية المتدهورة تفصح عن قلة الاهتمام والتمويل المخصصين لحالة المدرسة وساكنيها.

يحث الحراس الطلاب على عدم التوانى فى الأروقة وعدم تجاوز الأربع دقائق المخصصة لهم للحركة بين الفصول. وبعد أن يدق الجرس لا يُسمح للطلاب بالتواجد فى الأروقة دون إذن مكتوب، ويتم العقاب على التأخير عن طريق الاحتجاز. والقاعات مخصصة فقط للانتقالات السريعة إلى ومن الفصول أو الأماكن الأخرى. ولا يُسْمَح للطلاب بالتلكؤ أو البقاء فى القاعات. وتلك الممارسة الاجتماعية تُفْرَض عن طريق

وجود حراس فى كل الأروقة، وعدم وجود أى فضاء يمكن للطلاب أن يتجمعوا فيه بارتياح، أو أن تدور بينهم دردشة ودية مع الأصدقاء، أو الجلوس والقراءة فى كتاب. والمكان الوحيد الذى يمكن للطلاب أن يتجمعوا فيه هو غرفة الطعام. و"سياسة الحرم المغلق" فى مدرسة جراوندفيو تمنع الطلاب من مغادرة المدرسة للغداء فى البيت بمجرد دخولهم إليها فى الصباح. يتم تنفيذ هذه السياسة من خلال بوابات الكشف عن المعادن المركبة فى كل المداخل والمخارج، والتهديد القائم دائمًا بتعليق الطلاب إذا لم يمتثلوا. وهنا توضع القواعد وتُفْرَض بصرامة، مع توقع أن الطلاب سوف يتبعون هذه القواعد خوفًا من العقاب. بعد أن تعبر نقطة التفتيش تجد نفسك أمام مكتب إدارى عبارة عن غرفة متوسطة الحجم بها فضاء محدود يضيق بالموظفين. والزوار الذين يأتون إلى المدرسة يقفون على طاولة عالية ويوقعون بأسمائهم ويتلقون مساعدة لطيفة من الموظفين القابعين وراء مكاتبهم. والفصول والأروقة التى بنيت لـ٢٥٠٠ طالبًا تسع الآن ٣٠٠٠ طالبًا.

لا توجد بالمدرسة فضاءات أكاديمية جيدة التجهيز لاهتمامات أو اختيارات الطلاب فى مجالات الدراسة المختلفة (كالإنسانيات والعلوم الاجتماعية). وتوجد ورشة معادن وورشة خشب وغرفة تجميل لإعداد الطلاب لحرف ماهرة معينة. كما توجد بالمدرسة غرفة مغلقة مليئة بالأعمال الخشبية وأجهزة النجارة، لكن الطلاب لا يدخلونها بسبب عدم توفر موظفين لتشغيل الأجهزة. وتوجد صالة ألعاب رياضية واحدة، وجهاز حاسب واحد فى مكتبة متناثرة الكتب، تكون مغلقة فى أغلب الأحيان، فضلاً عن مراحيض الطلاب. ولا يوجد بالمدرسة مسرح أو غرفة موسيقى أو حمام سباحة أو أجهزة للتمارين الرياضية أو أجهزة للعلوم وقليل فقط من الكتب التى يمكن تداولها أثناء الفصل. إن المقررات التى تفرضها ولاية إلينويز تتوفر فى مجالات اللغة الإنجليزية والتاريخ والرياضيات وبعض مقررات العلوم، ومقررات قليلة للساعات المعتمدة الاختيارية اللازمة للوفاء بمتطلبات التخرج. وغياب النصوص الحالية والأجهزة والمكتبة الجيدة لتعلم الطلاب ينسجم مع الإعداد "الماهر" لهؤلاء الشباب الفقراء للعمل فى الصناعات الخدمية الهامشية، إن كانت تعدهم لشىء من أصله.

وفى الفصول يجلس الطلاب فى مقاعد قديمة، وفى بعض الفصول يتكدس حوالى ٢٥ طالبًا حول أربعة مقاعد صغيرة. وفى فصول قليلة للغاية تنشأ محادثة حية بين الطلاب والمعلمين. فمعظم الطلاب "مشغولين" إلى حد السأم الواضح بأوراق مكررة أو دروس ذات مخطوطات من أجل الحفظ الصم والاسترجاع، وفى أغلب الأحيان يتعامل معهم المعلمون من خلال اتصال فظ وقائم على التوجيهات. إن الإحباط والازدراء والاحتقار والعجز هو الغالب فى هذا المكان. وفى هذه المدرسة يُخَصَص أكثر من ٢٠٠ طالبًا لكل مستشار مدرسى، وقليل من الطلاب يستعدون للجامعة.

وفى مقابل جناح الفنون الجميلة أو معمل التكنولوجيا بمدرسة مونتينفيو، أنشأت مدرسة جراوندفيو فى السنوات الأخيرة جناحًا منفصلاً ومتميزًا مخصصًا لفيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار JROTC، وهو فضاء مميز لا يدخله إلا الطلاب المقيدين فيه، ويتحول سريعًا إلى مكون رئيسى من منهج المدرسة المنبثق وطابعها كموقع للضبط العسكرى. إن أروقة فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار مزينة بصور عسكرية تذكارية وصور للجنرالات ومشاهد من الحروب الماضية وصور ورموز وطنية تقليدية. وهذا الجناح مزود بكثير من أجهزة الحاسب الحديثة وفضاء فسيح يدرس فيه الطلاب. وفى هذا الجناح أيضًا يُسْمَح للطلاب بالانتقال بحرية من مكان إلى آخر والاختيار بين مقررات الدراسة. والشباب المقيدين فى هذا البرنامج على أمل مواصلة التعليم يُعدَون لدخول الرتب المنضبطة للقوات المسلحة وللخدمة على الخطوط الأمامية فى المواجهات الدولية التى يتورط فيها هذا البلد.

من يسكن هذا الفضاء المسمى جراوندفيو؟ إن كل الطلاب هنا بلا استثناء من الأمريكيين الأفارقة، وأكثر من ٩٣٪ منهم من أسر منخفضة الدخل، وأقل من ٥٠٪ منهم يتخرجون من المدرسة الثانوية. إن ٤٥٪ من المعلمين من الأمريكيين الأوروبيين، ٤٠٪ من الأمريكيين الأفارقة، ١١٪ من الأمريكيين اللاتينيين، ٢٪ من الأمريكيين الآسيويين، حوالى ٣٪ من الأمريكيين الأصليين. إن ٤٥٪ من المعلمين معهم درجات ماجستير ومتوسط مرتباتهم ٥٠٠٠٠ دولارًا[فى السنة]، وهاتان النسبتان نصف

وثلث نظيرتهما في مدرسة مونتينفيو على التوالي. ويحصل الطالب في مدرسة جراوندفيو على نصف الاستثمار المالي الذي يحصل عليه الطالب في مدرسة مونتينفيو. فبناءً على ضرائب الملكية في هذه الجالية، يتم إنفاق ٧٨٠٠ دولارًا على كل طالب لحجز مكانه في النظام الاجتماعي واستمرار نظام التشعيب الذي يولد الجور واللامساواة[١٥].

وبالنسبة للشباب في هذا الجزء من المدينة يصل إلى المرء إحساسًا بأنهم محتوون ومحتجزون ومقيدون ومراقبون في فضاء لا يبدو لهم أنه مكانهم. فليس ثمة إحساس بملكية المكان. إنه مكان تتواجد فيه، لكنك لا تنتمي إليه. والمنهج التافه والقيود المادية والخيارات المغلقة والتنظيم والضبط والسيطرة والنظام التي تُفْرَض "من أجل ذاتها"[١٦] في مدارس أشبه ما تكون بالسجون، تعد هؤلاء الشباب لمكانهم في الدرك الأسفل من سوق الوظائف أو في السجون أو في البطالة المزمنة/الدائمة.

الإعداد للمستقبل عن طريق المناهج: الشركات أم الجيش؟

إن الاختلافات بين مدرستي شيكاغو الثانويتين صارخة بالفعل. والاختلافات في المصادر المالية والمادية والخبرات المنهجية والتربوية والبيئات المادية والاجتماعية تخلق ثقافات مختلفة أو شبكات من المعنى تبني هويات اجتماعية معينة في المجتمع. ومما له أهمية خاصة في هذا الصدد المناهج الجديدة المقدمة في كل مدرسة. ففيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار سريع النمو والمناهج المهنية في مدرسة جراوندفيو، في مقابل المناهج الأكاديمية وتلك التي تعد للجامعة أو لعالم المشروعات في مدرسة مونتينفيو، توضح بجلاء الهويات الاجتماعية التي تُبْنَى لدى هؤلاء الشباب والمواقع المستقبلية المحرمة عليهم عند البلوغ في المجتمع الذي يُعَدون من أجله.

في مونتينفيو تتمثل برامج الدراسة الجديدة المكثفة في الإلكترونيات وعلم الإنسان الآلي والتكنولوجيا الرقمية وتكنولوجيا الليزر وعلم الحاسبات والبرمجة والعولمة والثقافة واللغات الشرقية. وتلك المجالات المعرفية المتقدمة تتمم مناهج

المشروعات ذات التاريخ الطويل فى المدرسة (مثل: الاقتصاد وسوق الأسهم المالية والسياسة) والهندسة والدراسات القائمة على تداخل النظم المعرفية والرياضيات المتقدمة والعلوم، وهى مجالات أو نظم معرفية مزدهرة سيكون لها مكانها البارز فى المعرفة فى القرن الحادى والعشرين. وهذه البرامج الدراسية سوف تدعم التحول الاقتصادى العميق والسريع من التصنيع إلى تكنولوجيا الإنسان الآلى والتكنولوجيا الإلكترونية/المعلوماتية فى السوق العولمى[١٧]، وتعزز الفجوة الرقمية، وتؤمن المكانة الاجتماعية الطبقية لهؤلاء الطلاب الذين يُعَدون للقيادة فى المراكز المشروعاتية والسياسية والاقتصادية والثقافية حول العالم. والمدرسة توفر لهؤلاء الطلاب الفرصة لإنتاج وتقدير الأشكال المختلفة من الثقافة الشعبية (مثل الأفلام والأدب والموسيقى والمسرح)، ولدراسة المعانى الثقافية التى يتم تبادلها حول العالم. ومن حلال "تسليحهم بالمعرفة التكنولوجية" والفهم الثقافى، يتم تطبيع الطلاب فى المؤسسات العامة للنخبة من نوع مدرسة مونتينفيو لكى يكونوا حكامًا ووسطاء للرأسمال الشركاتى. فرأسمالهم الثقافى "سيؤكد ... احتكارهم لأدوات الاستحواذ على الثقافة المهيمنة، وبالتالى احتكارهم للثقافة"[١٨]. وطلاب مونتينفيو هم الذين يجنون أكبر الفوائد من استمرار النظام الاجتماعى الحالى.

إن فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار هو مجال الدراسة "المميز" فى مدرسة جراوندفيو. فالتجنيد العسكرى يُسَوَق بكثافة فى الجاليات الفقيرة، خاصة جاليات الملونين. فتحت ذريعة تحسين فرص الطلاب التعليمية، يَعِدُ برنامج الفيلق بمستقبل أقل من مبهج ومجيد وواعد لهؤلاء الشباب. يستحوذ برنامج الفيلق على ٥٠٠٠٠ دولار من كل ميزانية مدرسية، ويزيح بعض الموضوعات الأكاديمية المهمة لصالح مقررات الفيلق، وله سلطة استئجار معلمين غير مؤهلين فى المواد الدراسية التى يُدَرِسُونها[١٩]. وفى ظل الجهود الحالية لخصخصة التعليم العام، يجرى إضفاء الطابع الشركاتى على المنهج التعليمى (مثل المقررات الدراسية المصممة من أجل مصالح وأرباح الشركات)[٢٠]. وبينما يتم ترويج فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار

كبرنامج يوفر مهنة و"مَخْرَج" للشباب الفقير، تقول إدارة المحاربين القدامى أن المحاربين دخلهم أقل من غير المحاربين، وأن ثلثهم مشرد بلا منازل، وأن ٢٠٪ منهم فى السجون[٢١]. ومع ذلك فـ٥٤٪ من المشاركين فى فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار على المستوى القومى و٥٠٪ من قوات الخط الأمامى بالجيش ملونين، وقليلون منهم يحصلون على تدريب تقنى، وبالتالى سيكون مصيرهم البطالة عندما يخرجون من الجيش[٢٢]. وربما لذلك يقول شعار الجيش: "كن كل ما تستطيع أن تصير إليه" Be all that you can be.

إن انتشار برامج فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار ووجود المدارس العسكرية فى شيكاغو يعكسان اندفاع العسكرة الحالى فى الجاليات الفقيرة: جاليات الأمريكيين الأفارقة والأمريكيين اللاتينيين. والطلاب فى مدرسة جراوندفيو وجاليات الطبقة العاملة الأخرى يُحوَلون إلى الجيش لحماية المصالح الدولية للرأسمال الشركاتى والمديرين المستقبليين من مدرسة مونتينفيو. وكما قال وزير الدفاع السابق ديك تشينى، فإن "سبب وجود الجيش هو أن يكون مستعداً لخوض الحروب والانتصار فيها. وتلك هى مهمتنا الأساسية. فالجيش ليس مؤسسة رفاه اجتماعى، وليس برنامج توظيف"[٢٣]. ويقول الجنرال المتقاعد يوجين كارول Eugene J. Carroll نائب مدير مركز معلومات الدفاع أنه "من المروع أن تبيع وزارة الدفاع الأمريكية برنامج تدريب عسكرى كعلاج للمشكلات الاقتصادية والاجتماعية المستعصية فى قلب المدن الفقير. لكن من المؤكد أن دافعه الحقيقى هو غرس اتجاه إيجابى نحو الخدمة العسكرية منذ عمر مبكر جداً، بما يوفر للجيش مستودعاً من المجندين المكنين"[٢٤].

لقد أدى الإحجام عن التجنيد على المستوى القومى والحرب على النفط فى الشرق الأوسط على حث جهود مهولة للتجنيد من جاليات معينة. فقد أضافت القوات المسلحة ١,٥ مليون دولار إلى ميزانيتها الإعلامية التى تبلغ ٩٥ مليون دولار لتجنيد الشباب. ورغم أن الإعلانات المرحة الموجهة للطلاب وأولياء الأمور، تشجع الشباب على البقاء فى المدرسة بحيث يمكنهم أن يلتحقوا بالجيش[٢٥]، فإن الشباب من جراوندفيو

والمدارس الأخرى لا يستجيبون لهذه الدعوة إلى الجيش بالحماس المتوقع. ومن أجل إخفاء النجاح الهامشى لجهود التجنيد، كانت قوات الحرس الوطنى بولاية نيويورك فى التسعينيات تُضَخِم دائمًا فى تعداد قواته[٢٦]. وللمرة الأولى منذ حرب فيتنام، مدت وزارة الدفاع الأمريكية الخدمة الفعلية لـ ١٥٠٠٠ جندى احتياطى من اثنى عشر شهراً إلى سنتين، وهى بذلك تضر بمرتبات المجندين واستقرارهم الوظيفى[٢٧].

ويأتى تسويق فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار فى الجاليات الأمريكية الأفريقة والأمريكية اللاتينية الفقيرة فى وقت تحدث فيه تغييرات كبرى فى اختبار الاستعداد الدراسى STA المقنن الذى يطبق على المستوى القومى. فبحلول عام ٢٠٠٥ سيكون اختبار الاستعداد الدراسى قد أُخْضِع لفحص دقيق بغرض تضمين امتحان كتابة وأسئلة قواعد وامتحان قراءة نقدية فى التاريخ والعلوم الإنسانية والعلوم وغيرها وامتحان رياضيات موسع بناءً على الرياضيات المتقدمة التى تُغَطَى فى سنوات المدرسة الثانوية الثلاث. ويقال أن هذه التغييرات سوف تزيد من اتفاق الامتحانات مع الـ٩٧٪ من الطلاب القاصدين إلى الجامعة الذين يأخذون الرياضيات عالية المستوى[٢٨]. هذه الامتحانات سوف تستبعد طلاب جراوندفيو بنائيًا، الذين تقع مدرستهم تحت التعليق، وتقدم تدريسًا بمخطوطات، ونسبة التخرج فيها أقل من ٥٠٪، وسوف تؤكد مقولة "الكليات ليست للجميع". إن تعديل اختبار الاستعداد الدراسى، وإضافة ٨-١٢ دولارًا إلى رسوم التسجيل البالغة ٢٦ دولارًا، سوف يؤثر على مناهج المدرسة ويضيق أكثر المجموعة الضيقة بالفعل من طلاب المدرسة الثانوية الذين يستطيعون أن يتحملوا أو يستعدوا بشكل كافى لأخذ اختبار الاستعداد الدراسى أو أن يحضروا فى كلية[٢٩].

ليس ثمة شك حول مَنْ هم الطلاب الذين يُشَعَبون لكى يصبحوا مديرين فى عالم المشروعات، وأولئك الذين يُشَعَبون لكى يخدموا ويحموا مصالح رأسمال الشركات فى الجيش. والتطبيق المنظم لبرامج الدراسة الجديدة غير المتكافئة تمامًا من هذا النوع يضيف معنى جديداً إلى فكرة "الاختيار"، ويكشف الدور القوى للمدارس فى إعادة

إنتاج الجور الاجتماعى الطبقى الحالى وجعله أمرًا طبيعيًا. والسمات المتباعدة "للحرية" و"التقييد" فى المدرستين تعكس عمليات التطبيع الضرورية لمواقع الطلاب المستقبلية فى المجتمع، وهى عمليات يقوم بينها نوع من الاعتماد المتبادل وتتم إدارتها بعناية(٣٠). وبينما تمجد أيديولوجيا الثقافة المهيمنة تطلعات وإنجازات الشباب باعتبارها منتجات للإرادة الفردية والقيم الأسرية والرؤية الشخصية، تحجب هذه الأيديولوجيا الدور الكبير للقوى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى بناء وتبرير المواقع الهرمية التى يحتلها الشباب عبر الخطوط الطبقية والعرقية.

ومع أن البعض من جراوندفيو قد "يفعلونها" رغم الصعاب، ويُمْدَحون على تغلبهم على العقبات، فإن هذه الصورة لا تعبر عن المرونة، ولا تقلل من الأشكال البطولية والماكرة الكثيرة للمقاومة التى يمارسها الشباب المهمش لخلق ممكنات جديدة. ولا تقترح هذه الصور كذلك أن العلاقات الاجتماعية والاقتصادية تكون أحادية الاتجاه، وتخلق حتمًا مغفلين يسلمون بعمى بمواقعهم فى الحياة. وقد صممت هذه الصور لفضح البنية الناشئة الواسعة للجور والامتياز والتمييز فى تعليم أفاد/دمر الشباب بشكل ظالم، ونقد نظام تعليمى يحظر النجاح على الكثيرين ويبيحه لقلة قليلة.

إن التباينات بين مونتينفيو وجراوندفيو ليست جديدة على التعليم العام، وإنما يمكن تتبعها إلى منتصف القرن التاسع عشر. ففى عام ١٨٥٧ كان القادة الأمريكيون الأفارقة يناضلون ضد الفرق الكبير بين الـ١٦ دولار التى تنفق على كل طالب أبيض فى مدارس كانت عبارة عن "صروح فخمة تتوفر فيها كل وسائل الراحة والأناقة"، والبنس الوحيد الذى كان ينفق على كل طالب أمريكى أفريقى فى أبنية مدرسية "مظلمة وكئيبة" تقع فى "بيئات تعج بالرذيلة والقذارة"(٣١). وبما لا يختلف عن ذلك، توثق الأوصاف المحزنة التى صورها كوزول Kozol عام ١٩٩١ استمرارية الجور البنائى المرتكز على التمويل فى تعليم الشباب البيض الأغنياء وشباب الطبقة العاملة الملونين(٣٢). فالتباينات العرقية والطبقية فى التعليم العام ترتبط تاريخيًا بقهر العمال

الفقراء ورعاية المصالح الاقتصادية لرأس المال الصناعي والشركاتي. ومع تغير الحاجات الدافعة لرأس المال وتحول العلاقات الاقتصادية بسبب التجديد التكنولوجي، حدثت تغيرات مرتبطة فى جهاز الدولة والبنية التحتية السياسية التى تتجسد فى التعليم العام. فى الأقسام التالية سنفحص بعض أوجه الاستمرارية والانقطاع فى العلاقة الأساسية بين التحولات الكبرى فى النظام الاجتماعى الاقتصادى وعلاقات الإنتاج (مثل ظهور الاقتصاد الصناعي والاقتصاد المعلوماتى) التى رافقتها إجراءات سياسية قمعية وكانت فاتحة لتغييرات ضرورية فى التعليم العام.

الجذور التاريخية ومغزى الاختلاف

إن أشكال الجور الحالية وما يرتبط بها من ظلم فى التعليم العام تتجذر بعمق فى الأبنية التاريخية - الاجتماعية والاقتصادية والسياسية فى هذا البلد وتقوم بوظيفة اجتماعية لا غنى عنها فى إدامة النظام الاجتماعى وتأبيده. فقد أوجد التصنيع ضرورة اقتصادية للتعليم العام العمومي، الذى كان بدوره أداة للقهر والحفاظ على نظام مكون من طبقتين فى هذا البلد، وكان فى الوقت ذاته أداة التحرر من أجل الديمقراطية. فى كتابه "تعليم السود فى الجنوب ١٨٦٠-١٩٣٥"، يفحص أندرسن Anderson الارتباط الذى لا ينفك بين التصنيع فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين والتمدرس الجماهيرى "كوسيلة لإنتاج عمال أكفاء وقانعين وكعملية تطبيع تغرس فى الأطفال السود والبيض قبول الهرمية العرقية الجنوبية"(٣٣)، والدور المحورى للتقسيم العرقى فى دعم سيطرة الرأسماليين الصناعيين الشماليين المزدهرين على العمال البيض. فبالنسبة للبيض الأغنياء يمكن للتعليم العام العمومى أن يعزز الاستقرار الاجتماعى وكفاءة الإنتاج والرخاء الاقتصادى.

كان العبيد السابقون أول جنوبيين كافحوا من أجل التعليم العام العمومى المدعوم من الدولة فى التقاليد التحررية الكلاسيكية دفاعًا عن التحرر ومناهضةً لنظام المزارعين(٣٤). وقد نجح "المهندسون البيض لتعليم السود"، وهو فريق من المقاولين

البيض الشماليين والجنوبيين والعلماء الاجتماعيين وأصحاب النزعة الإنسانية، في تلفيق شكل خاص من التعليم الصناعي للسود، ليحل محل الطرق العارية القديمة للتطبيع والقسر والسيطرة، ولدعم مطلب إيجاد قطاع زراعي منظم وكفء ليكمل تجارة الأمة الصناعية المنبثقة مع إنجلترا[٣٥]. وقد أدى دفاع "المهندسين"، والدعم المالي لتعليم صناعي للسود وتعليم ليبرالي كلاسيكي للبيض، إلى إعطاء ميزة مادية ونفسية هامشية للعمال البيض (ميزة عرقية قد تعوض عن إخضاعهم طبقياً). وهذا التعليم العام الطبقي يمكن أن يخاطب الاحتياجات التعليمية والأيديولوجية لمجتمع صناعي متنامي، إلى جانب إخضاع العمال السود والبيض لأصحاب الثروة. وفي ذلك يقول وليام بالدوين William Baldwin الشمالي صاحب النزعة الإنسانية والمدافع عن التعليم العام العمومي أن:

> **القيمة الاقتصادية الممكنة للسكان الزنوج جيدي التعليم لانهائية ولا تحصى ... فقد أثبت الزمن أنهم مهيئون لأداء الأعمال الشاقة ... وهذا سيسمح للعامل الأبيض الجنوبي بأن يقتصر على أداء الأعمال الأكثر خبرة، وأن يترك الحقول والمناجم والحرف الأبسط للزنوج[٣٦].**
>
> **إن اتحاد العمال البيض جيد التنظيم سوف يرفع الأجور أعلى من نقطة معقولة، وعندئذ ستنشب معركة، حيث سيتم الاستعانة بالزنوج بأجور أقل، وهنا سيكون على اتحاد العمال إما أن يُخَفِض الأجور أو يعمل الزنوج محل البيض[٣٧].**
>
> **إنني أعارض بقوة، إلا في أندر الحالات، ما يسمى التعليم العالي الزنوج[٣٨].**

لقد كان الدعم المالي من جانب بالدوين والمؤيدين الآخرين للتعليم العام مشروطاً بنوع من التعليم الصناعي للسود، لم يكن يكافئ التعليم العالي للبيض، ومن شأنه أن يشق صف العمال الفقراء لمصلحة الرأسماليين الصناعيين المزدهرين[٣٩].

شكلت هذه الظروف تنظيم التعليم المنبثق المنفصل وغير المتساوى، وما هيمن عليه من ممارسات اجتماعية وأيديولوجيا تبريرية، كما أن هذه الظروف تعكس تحليل بورديو وباسرون بأن الوجه "المحايد" للتعليم العام، بوصفه فاعل المساواة الاجتماعية، يخفى إسهامه الدينامى فى إعادة إنتاج البنية الطبقية بامتيازاتها المرافقة وعلاقات القوة فيها(٤٠). وقد أدرك دوبويس DuBoisالدارس والمدافع الأمريكى الأفريقى البارز كل من الإمكانات التحريرية للتعليم العام والوظيفة الاستعبادية للتعليم التراتبى عرقيًا وطبقيًا. ولذلك عارض بشدة الهدف المحدود للتعليم الصناعى أو الكلاسيكى، ودافع عن تعليم عالى يتعهد تحركات السود القوية نحو المساواة، ولا يساوم على العمال الفقراء(٤١).

إن تأييد التعليم العام العمومى، مع أنه كان جزءًا متممًا من الكفاح المستمر من أجل الديمقراطية، فإن الدوافع الاقتصادية للمهندسين لم تكن نبيلة ولا غيرية، بل كانت تتفق مع دوافع المزارعين البيض الجنوبيين الذين كانوا يعارضون التعليم العام. فبينما كان المعارضون يعتمدون على "العمال الزراعيين الأميين والمستغَلين"، وكانوا يخشون من أن يلهب التعليم تطلعات العمال الاقتصادية والسياسية، اتفق الطرفان على حرمان السود من حقوقهم وعزلهم وإخضاعهم اقتصاديًا(٤٢). وفى أثناء إعادة البناء "تجاهل" المهندسون تمويل المعارضين للعنف واسع المدى من جانب جماعات إرهابية مثل كو كلوس كلان Ku Klux Klan لإجبار المُحَرَرين والمُحَرَرات على العودة إلى مكانة العبيد، ولدق إسفين بينهم وبين البيض الفقراء، ولإعادة تأسيس حكم الأقلية البيضاء المالكة للعبيد(٤٣). فقد كان مهندسو ومعارضو التعليم العام يجاهدون من أجل حماية المصالح الاقتصادية للأغنياء من خلال أشكال القسر القانونية وغير القانونية. وانسجامًا مع ذلك فإن التعليم الصناعى الموجه للسود وعهد الإرهاب ضدهم عملا على المحافظة على النظام الاجتماعى والاقتصادى.

يكشف هذا الميراث من الجور العرقى - الطبقى عن أوجه الاستمرارية البنائية والأيديولوجية بين الممارسات الماضية والعلاقة الحالية بين مدرسة جرواندفيو الثانوية

الفنية ومدرسة مونتينفيو الثانوية. فأولاً تشبه مناهج جراوندفيو نموذج التعليم الصناعى الذى صُمم للعبيد السابقين الذى يعد الشباب الأمريكى الأفريقى الفقير للقيام بـ"الحرف الأبسط"، بينما يُحجَز "التعليم العالي" للطبقة البيضاء المالكة فى مونتينفيو من أجل تزويدهم بالخبرة على القيادة. وعلاوة على ذلك فإن التعليم العام المزدوج ورأس المال الثقافى المتباعد الذى يتاح للجماعات الطبقية - العرقية المختلفة يلطف المخاوف الحالية من أن "يضخم التعليم تطلعات العمال الاقتصادية والسياسية". وفى حين أن تعليم "غير النخبة" فى جراوندفيو لا يشجع الشباب الأمريكى الأفريقى الفقير على توثيق القهر الواقع عليهم أو وضعه موضع تساؤل، يؤدى انتقال القوة والامتياز فى مونتينفيو إلى تعزيز استثمار الطلاب فى النظام الاجتماعى الحالى. ثالثًا تعتبر ثقافة العسكرة الصاعدة فى مدارس الفقراء الملونين ترجيعًا لصدى أشكال القسر القانونية وغير القانونية التى استخدمها المؤيدون والمعارضون الأوائل للتعليم العام التى كانت مشبعة بالتحذير القائل "ابق فى مكانك". والمراقبة والاحتجاز والضبط والعنف الشامل فى مدارس الفقراء تذكرنا بالجهود السابقة لردع مقاومة المُحَرَرين والمُحَرَرات للعمل الإجبارى وكفاحهم من أجل الحريات التى يتمتع بها البيض.

ثمة استمرارية، إذن، بين الماضى والحاضر. فالقائم بيننا الآن هو نظام تعليمى من طبقتين يتم الإبقاء عليه من خلال الجهود الشاملة لقمع حركات الشباب الفقير الملون. فرغم أن ترتيبات اليوم الاقتصادية والسياسية ما بعد الصناعية لا تنسخ الترتيبات التى كانت قائمة فى أيام ما بعد الحرب الأهلية فى أواخر القرن التاسع عشر، فإن التباين الأساسى بين الأغنياء والفقراء يسم العلاقات الحالية فى الرأسمالية العالمية[٤٤]. وهناك انقطاع أيضًا. فظهور الاقتصاد المعلوماتى الإلكترونى ما بعد الصناعى كان فاتحة لعصر جديد يعيد الآن تشكيل المشهد السياسى والتعليمى، مُوجِدًا أشكالاً أكثر بروزًا من الجور البنائى وأشكالاً مرافقة من القهر.

الاقتصاد والدولة

إن نشأة الرأسمالية الصناعية وضعت الأساس لأشكال الجور البنائى فى التعليم العام العمومى. لكن فى العصر ما بعد الصناعى الحالى ما هو ذلك الذى تشكله الشروط الاقتصادية والسياسية أو تعدله أو تفككه فى التعليم العام؟ وهل أشكال الجور الحالية فى التعليم وثقافات العسكرة والامتياز تخدم، بدورها، مصالح اقتصادية معينة؟ هذه الأسئلة تنبثق عن مسلمة العلاقة التساندية الأساسية بين الاقتصاد والدولة. فالقاعدة (مثل العلاقات الاجتماعية والأدوات والمهارات والتكنولوجيا التى تشكل عملية الإنتاج لتلبية الحاجات الإنسانية) تنعكس وتُحْمَى وتُنَظَم وتُقَوى من جانب البنية الفوقية المقابلة (مثل جهاز الدولة السياسى أو القوانين الاجتماعية والمؤسسات والتكوينات الأيديولوجية)[٤٥]. فمع أن البعض قد أنكروا صدق هذه العلاقة البنائية على أساس الحتمية الاقتصادية أو استبعاد الفاعلية الإنسانية، فلا يزال هذا المنظور، حتى فى العصر ما بعد الصناعى، يقدم عدسة يمكن من خلالها فهم العمليات المعقدة المتناقضة فى الغالب للحياة الاجتماعية. ومع أن إنجلز Engels افترض الضرورة الاقتصادية للتطور الاجتماعى، فقد ناقش القاعدة والبنية الفوقية كعلاقة دينامية ثنائية الاتجاه وتبادلية الاعتماد بين الاقتصاد والدولة، وأكد على الدور الضرورى المتأصل للبشر فى تشكيل التاريخ[٤٦].

وبما يتمم ذلك تبرز أطروحة التوسير حول جهاز الدولة الأدوار تبادلية الاعتماد بين الأيديولوجيا والقمع فى البنية الفوقية. فجهاز الدولة القمعى Repressive State Apparatus مثل الحكومة والإدارة والجيش والشرطة والمحاكم والسجون) وجهاز الدولة الأيديولوجى Ideological State Apparatus (مثل الدينى والتعليمى والقانونى والأسرى والسياسى والثقافى واتحادات العمال والاتصالات) تعمل على المحافظة على علاقات الإنتاج الرأسمالية ودعمها. ومع أن جهاز الدولة القمعى وجهاز الدولة الأيديولوجى يعملان فى الأساس عن طريق القمع والأيديولوجيا، على التوالى، فكل جهاز منهما يحتوى على عناصر من الآخر (كأن يعمل جهاز الدولة القمعى أيديولوجياً،

ويعمل جهاز الدولة الأيديولوجي قمعيًا)[٤٧]. وفي الرأسمالية الناضجة يكون النظام الأيديولوجي التعليمي هو الجهاز المهيمن ضمن جهاز الدولة الأيديولوجي. "ولذلك فإن المدارس ... تستخدم طرق مناسبة من العقاب والطرد والاختيار وما شابهها لـ"ضبط" ليس رعاتها فقط وإنما أيضًا قطعانها"[٤٨]. والأبنية النظرية والقاعدة والبنية الفوقية وأذرعة جهاز الدولة القمعية والأيديولوجية تمثل أدوات تحليلية ثمينة لفحص العمليات الدينامية غير الخطية التي تشكل التغير الاجتماعي. تعالج الأقسام التالية ظهور الأتمتة والظهور الموازي للعسكرة المحلية كتغييرات عميقة في القاعدة والبنية الفوقية في سياق خصخصة وعسكرة التعليم العام في مدارس تعزز الجور البنائي.

من الإنتاج الصناعي إلى الأتمتة وتكنولوجيا الإنسان الآلي

إن دخول تكنولوجيا جديدة على ظروف معينة يسبب قفزات نوعية في نطاق الإنتاج، ويغير تدريجيًا طبيعة الحياة الاجتماعية والسياسية[٤٩]. فاختراع المحرك البخاري والمحرك الكهربي في أواخر القرن التاسع عشر أطلق الثورة الصناعية، مُحَوِلاً المجتمع من الاقتصاد الزراعي إلى الاقتصاد الصناعي المالي[٥٠]. فقد مكنت الميكانيكا الكهربية من خلق الأدوات الموفِرة للعمالة labor-saving devices من أجل الإنتاج الضخم الروتيني الكفء الذي تجاوز كثيرًا الحدود التي كان يفرضها العمل اليدوي للصانع الفردي أو الصناعة المنزلية أو العبودية. فميكنة mechanization الزراعة الجنوبية ومركزة centralization خطوط الإنتاج واسعة النطاق أعاق الحياة الزراعية بشدة، وأجبر العمال على الهجرة إلى مدن الأمة. وقد أدت الطبيعة الاجتماعية للإنتاج في الصناعة إلى إعادة ترتيب اقتصاد الأمة، حيث حَوَل مركزه من الريف الآفل إلى المراكز المالية الحضرية الصاعد نجمها[٥١].

وكما أدت الميكانيكا الكهربية إلى صعود الإنتاج الرأسمالي الصناعي، كذلك ساعد ظهور تكنولوجيا الإلكترونيات الدقيقة في حفز الثورة الرقمية، التي صاغت الاقتصاد المعلوماتي ما بعد الصناعي. فقد جاء اختراع الشريحة الدقيقة microchip

عام ١٩٧١ مؤذنًا بالإطاحة بعهد الميكانيكا الكهربية فى الإنتاج الصناعى، ومُحَوِلاً الاقتصاد القائم على العمل الميكانيكى إلى اقتصاد عالمى مرتكز على المعلومات يعتمد على الأتمتة وتكنولوجيا الإنسان الآلى(٥٢). فقد غدا من الممكن للشريحة الدقيقة أن تُسَجِل وتُشَغِل النشاط الإنسانى عبر حاسبات رخيصة صغيرة، وهو ما أدى إلى كسوف الأدوات الموفِرة للعمالة التى كانت تميز التصنيع مع الدخول التاريخى للأدوات المُعَوِضة عن العمالة(٥٣). فالحاسبات وتكنولوجيا الإنسان الآلى والاتصالات الرقمية عن بعد والتكنولوجيا الحيوية، المتخمة جميعها بالمعرفة المتراكمة والمهارات وجهود العطاء الإنسانى، يمكن أن تخلق وتدير وتراقب السلع والخدمات من أجل الاستهلاك والبقاء الإنسانيين.

وتعجل أتمتة الإنتاج بإعادة تنظيم غير مسبوقة للمجتمع، وتعدل بشكل دائم أشكال وطبيعة العمل، حيث تحل تكنولوجيا الإنسان الآلى والتسليع المستقل للمعلومات والمعرفة محل بيع قوة العمل، وتقضى على مركزية العمل البشرى فى العملية الإنتاجية. بل ويتوقع البعض أن الإنتاج الدائم للتجديد (أى "المعرفة الجديدة فى مجال صنع السلع")(٥٤) والمصانع المُحَوسَبة cyber factories التى تتكون من "شبكة من الماكينات الذكية" ستكون هى مصدر الربح وتُحَوِل دور البشر إلى وظائف إشرافية غير مركزية أكثر استقلالاً(٥٥). ومع التباعد أكثر بين العمل اليدوى والعقلى، يكون من المتوقع تَكَوُن هرميات لوظائف إنتاج المعرفة. فالعمال الفنيون/المهنيون مرتفعو/منخفضو الأجور قد يسهموا على نحو متزايد فى تصميم وتأليف وتعديل التعليمات للماكينات، بينما يتم نزع المهارة من أعمال عقلية أخرى (كالمهندسين والمصممين) من خلال برمجيات الحاسب.

إن الإنتاج بلا عمال laborless production أخذ يتخلل كل جوانب الحياة الاقتصادية (كالزراعة والطب والقانون والبناء والسيارات والصلب والإنتاج الخشبى والاتصالات عن بعد وتجارة السلع والتعليم والنقل وتجارة التجزئة والأعمال الكتابية والسفر بالفضاء وأعمال المحيطات والأجهزة الحكومية والخدمات الاجتماعية والتأمين

والمكتبات العامة وبرمجة الحاسب وما إليها)[٥٦]. والتسوق عبر الإنترنت من جانب المنتجين الذين يبحثون عن المواد الخام يؤثر على العرض والطلب والأسعار والتسويق والتضخم وأسواق العمل العالمية[٥٧]. فالنظم المُحَوسَبة Computerized systems تسمح للفنيين فى الولايات المتحدة بالسيطرة على الإنتاج فى المحلات منخفضة الأجر فى الخارج. والمهام يمكن أن تُؤدَى بشكل أفضل كثيراً من القدرة الإنسانية.

ففى مجال التعدين تقوم النظم المشغلة بالحاسب computer-operated بتوجيه/مراقبة التنقيب فى أكثر من مائة طن من الفحم فى الساعة بمثاقب دوارة ضخمة، وهو ما يمثل إنتاج جيش من المجارف والمثاقب والشاحنات، ونقل ٢٤٠ طنًا من الصخور بشاحنة واحدة وسائق واحد، وثمة توقعات بمناجم فحم تُشَغل بالكامل عن طريق القمر الصناعى. وقد أدت هذه الأشكال وغيرها من التقدم فى صناعات الصلب والسيارات إلى زيادة الأرباح وتقليل القوة العاملة بمقدار ٢١٪ منذ عام ١٩٩٧[٥٨].

وفى مجال الزراعة توفر أجهزة السيطرة ونظم الملاحة المُحَوسَبة الزراعة الدقيقة عبر الأقمار الصناعية من أجل التحديد الدقيق لمخصبات ومبيدات حشرية محددة والاحتياجات المائية للمحاصيل. ويسمح التصوير الرقمى بالأشعة تحت الحمراء بالتعرف على مناطق المشكلات التى لا يمكن الكشف عنها بالعين المجردة، بما يؤدى إلى التشخيص والعلاج المُوَجَهين المبكرين للمنتج. وعلى نحو متزايد يتم استخدام نظم حلب آلية معقمة سعر الواحد منها ١٦٠٠٠٠ دولاراً لدى المزارعين/الملاك الكبار الذين يتوقعون أرباحًا كبيرة من زيادات قدرها ١٠-١٥٪ فى الإنتاج ونقصًا فى عدد عمال المزارع المستأجرين[٥٩].

والتكنولوجيا متناهية الصغر Nanotechnology (علم الأدوات جزيئية الحجم) تُحْدِث ثورة فى الطب والحَوسَبة computing وصناعات الغذاء من خلال ماكينات صغيرة تمسك الذرات الفردية وتعيد ترتيبه[٦٠]. فقد أنتج الطب متناهى الصغر الذى سيوفر فى المستقبل DNA computer حاسب الحامض النووى Nanomedicine

الجراحة الدقيقة ويكشف ويدمر العوامل المسببة للمرض ويساعد فى توليف العلاج بالعقاقير من خلال ابتلاع يرقات متناهية الصغر nanobots[٦١]. وسوف تقوم صناعات الغذاء متناهية الصغر Nanofood بتوليف الغذاء جزيئياً، وإذا ما وضعت فى الأيدى الصحيحة، وليس الخاطئة، يمكن أن تقضى على المجاعة وتطهر النفايات السامة على المستوى الذرى[٦٢]. وتكنولوجيا تخزين البيانات عند آى بى إم IBM تحمل ما يكافئ مائتى قرص مدمج على سطح فى حجم الطابع البريدى، وثمة توقعات حول صناعة حاسبات خارقة فى حجم قطرة الماء[٦٣]. وقد أعطى تصغير الإلكترونيات للبشر إمكانات جبارة لتلبية احتياجاتهم. لكن ثمة جدل يحيط بهذا المجال (مثل الهندسة الوراثية)، حيث تهدد براءات الاختراع بخصخصة المعرفة من أجل الربح أو الانتهاكات الشنيعة للكرامة الإنسانية، وهو ما يعيق التقدم فى العلوم الطبية، ذلك التقدم الحيوى لتحسين الحالة الإنسانية[٦٤].

إن السعى المحموم والمكلف من جانب الجيش وراء الأتمتة المتزايدة أنتج إنسان آلى أصبح مركزياً للمهام الخدمية والرتيبة والخطرة DDD، ومنها مراقبة أقمار التجسس ومهمات الاستكشاف والبحث والتدمير scout-search-destroy missions. وأصبحت السيارات والطائرات والشاحنات والصواريخ و"القنابل الذكية" التى تعمل بدون عنصر بشرى تؤدى وظائف كثيرة فى الحرب الآلية عن طريق نظم مُشَغَلة بالحاسب. وقد أنتج علماء الإنسان الآلى خوذات قتالية تعمل بالبروتين والطاقة الشمسية تحاكى البيئة المحيطة ويصعب كشفها إلكترونياً، وهياكل خارجية exoskeletons عبارة عن بدلات ترقيعية تحمل أسلحة وتجهيزات الجنود. وفى المجال البحرى ثمة جهود لبناء غواصات سريعة قادرة على البحث فى أعماق المحيطات. أما توقعات الإنسان الآلى الذى "يفكر ويمشي" فتتراوح من الخدمة المحلية إلى تطبيق القانون والمعارك العسكرية[٦٥]. وفكرة الشرطى الآلى لم تعد بعيدة المنال.

إن التطورات التكنولوجية لها تأثير عميق على الاقتصاد العالمى، ومحورية فى حلقة الأزمات الاقتصادية التى لا تنتهى المتأصلة فى الرأسمالية. فالشركات الدولية

عندما تقدم "الوسائل المعوضة عن العمال"، وعندما تقلص حجم العمالة وتُصَدِّر المصانع إلى أسواق العمالة الرخيصة بغرض تعظيم الأرباح، تطرد العمال ذوى الياقات الزرقاء والبيضاء من سوق العمل. ففى الفترة من ١٩٦٠ إلى ١٩٩٢ تناقص عدد العمال فى صناعة الصلب من ٦٠٠٠٠٠ إلى أقل من ٢٠٠٠٠٠ عامل، وفُقِد نصف الوظائف فى صناعة السيارات، وانخفضت الأدوات الميكانيكية/الماكينات الكهربية بنسبة ٤٠٪(٦٦). وفى عام ١٩٨٢ فُقِد ١٢٨٧٠٠٠ وظيفة بسبب عمليات إغلاق المصانع والتسريح المؤقت للعمال، وتزايد هذا العدد فى عام ١٩٨٧ بسبب عمليات التسريح فى القطاع المصرفى بفعل الشركات الاندماجية(٦٧). إن معدل البطالة يرتفع بثبات، من ٩,٤٪ بين عامى ١٩٥٦-١٩٧٣ إلى ٧,٢٪ بين عامى ١٩٧٤-١٩٨٧، وارتفع الفقر عام ١٩٩٤ إلى مستوى لم يبلغه منذ عام ١٩٦١(٦٨). وعلى نحو متزايد يتم تنزيل العمال إلى وظائف مؤقتة أو وظائف لبعض الوقت أو بالتعاقد لا تقدم للعمال أية ضمانات، وهو ما أدى إلى معدل بطالة يبلغ ١٢٪ وتضخم فئة "العمال الفقراء" والعاطلين بشكل دائم(٦٩).

ومع عجز المستهلكين فى كافة أنحاء العالم عن شراء السلع، تزيد الشركات من عمليات تسريح العمال والتجديد التكنولوجى لتقليص التكاليف، وتدفع الفقراء فى الخارج أكثر إلى اقتصاد التعيش الذى يشبه حياة العبيد. ودورة الإنتاج المفرط ونقص استهلاك السلع والتوسع/الاندماج الرأسمالى التنافسى والبطالة البنائية، التى تعتبر أمراضاً مستوطنة فى الرأسمالية، تفاقمت وازدادت سرعتها بفعل الإنتاج الآلى بلا عمال. وقد أدت إعادة التوزيع الاستقطابية لثروة الأمة بين عامى ١٩٦٧ و١٩٩٢ إلى زيادة دخول الأسر البيضاء الأكثر غنى عشرين ضعفًا وتناقص دخول الأسر السوداء الأكثر فقرًا أربعين ضعفًا(٧٠). فضلاً عن أن التأثير الكامل لجهود الشركات لإخفاء سنوات تراجع الأرباح (كما تبين من فضائح شركات إنرون Enron وتايكو Tyco وورلدكوم WorldCom وما تلاها من حالات إفلاس) وعمليات التسريح غير المسبوقة والأتمتة المستمرة لمكان العمل لم يتضح بعد.

وفى ظل ظروف الوفرة تتعرض أرزاق وبقاء الكثيرين للخطر. البعض يلوم التكنولوجيا على الدفع غير المكبوح نحو "نهاية العمل"، وعلى الاستخدامات المشوهة وغير الأخلاقية للتكنولوجيا، وعلى "تراجع أهمية البشر". لكن هؤلاء النقاد يغفلون الإسهام الكبير للابتكار والتجديد فى حياة البشرية، لكن فقط عندما تستخدم كأداة للحاجات الإنسانية وليس لربح الشركات.

وفى ظل هذه الظروف، اتخذ الحكام الماليون للرأسمال العالمى من المحرومين كبش فداء يلعقون عليه سبب الأزمة. وهم بذلك يبحثون عن طرق جديدة للسيطرة، وأشكال جديدة لجهاز الدولة لكى يستوعب العلاقات الاقتصادية المتغيرة، وطرق جديدة لاستئصال المد المتصاعد للاستنارة والمقاومة الذى ينتج عن "أشكال الجور الدولية المشوهة فى الثروة". ولذلك تنشأ العسكرة المحلية المتسلحة بأسلحتها الأيديولوجية للإبقاء على النظام الاجتماعى.

العسكرة المحلية

> **إن جهاز الدولة ... أى الشرطة والمحاكم والسجون، وكذلك الجيش ... يتدخل بشكل مباشر كقوة قمعية مكملة فى الملاذ الأخيرة(٧١).**

> **إن جهاز الدولة القمعى يعمل على نطاق واسع، وبالدرجة الأولى، عن طريق القمع (بما فى ذلك القمع المادي)، بينما يعمل بالدرجة الثانية عن طريق الأيديولوجيا ... وأجهزة الدولة الأيديولوجية تعمل على نطاق واسع، وبالدرجة الأولى، عن طريق الأيديولوجيا، لكنها تعمل أيضًا بالدرجة الثانية عن طريق القمع، حتى وإن كان كملاذ أخير ... وهذا القمع يكون مخففًا ومخفيًا تمامًا، بل وحتى رمزيًا(٧٢).**

فى كتابه "أمريكا الحبيسة: الشرطة والسجون فى عصر الأزمة" يقدم بارنتى Parenti تحليلاً تاريخيًا متبصرًا للموجة المتعاقبة من الإجراءات التشريعية والسياسية والمؤسسية القمعية التى جرت بداية من عام ١٩٦٨ وحتى التسعينات، التى ترافقت مع موجة الأزمات الاقتصادية، وتعكس الوظيفة المزدوجة للدولة من خلال الأيديولوجيا والقوة. تميزت فترة منتصف الستينات بالفاعلية الاجتماعية فى المصانع والمدارس والجاليات والعصيانات الحضرية بعد حركات الحقوق المدنية ومناهضة حرب فيتنام(٧٣). وبالتزامن مع ذلك انتشرت المخدرات بدرجة مثيرة للاستياء داخل الجيش فى فيتنام وفى الجاليات الحضرية للعمل على تخدير الصحوة والاستنارة. ورغم أن الحكومة سنت برامج اجتماعية تنموية قصيرة المدى، كان التحول الأيديولوجى إلى القانون والنظام جليًا ليؤازر الإعداد للإجراءات القمعية التالية. بلغ هذا التحول ذروته فى قانون الشوارع الآمنة والسيطرة على الجريمة فى وسائل المواصلات العمومية الذى كان بداية لتآكل الحريات المدنية (مثل التجسس على الاتصالات وتخفيف الحقوق)، وتخصيص ٣,٥٥ مليار دولار لإدارة المساعدة فى فرض القانون فى عام ١٩٧٠ لتعزيز تدريب وتجهيز الشرطة المحلية وشرطة الولاية(٧٤). ومن خلال ذراعى جهاز الدولة التوأمين - الأيديولوجيا والقوة - عملت حملة القانون والنظام وإصدار الإجراءات التشريعية القمعية على إعادة تأكيد السيطرة الاجتماعية على الإصلاح الاجتماعى.

ومع مجىء تكنولوجيا الإلكترونيات الدقيقة ونزوح المصانع والمشروعات التجارية المحلية من المراكز الحضرية المزدهرة فى السبعينات والثمانينات تفاقم نزع التصنيع deindustrialization والبطالة والمنافسة من العمل الرخيص فى الخارج، وهو ما وضع اتحادات العمال فى مأزق. وفى ١٩٧٩ وقع هجوم على الجبهة الأمامية لاتحادات العمال عبر إطلاق النار العدوانى على أحد عشر ألف مهندس ملاحة جوية مضربين وتجميد الأجور وإلغاء القيود التنظيمية المفروضة على الصناعة. وهذا التحرك القمعى التأديبى من جانب جهاز الدولة الأيديولوجى ضد العمال المنظمين وإلقاء

اللائمـــة على زيادة التكـاليف ونقـص الوظـائف على الاتحـادات، إلى جـانب التخفيضـات الضريبية الكبيرة للأغنياء فى عهد إدارة ريجان، وضعت الحكومة بالكامل فى صف مصالح الشـركات. وفى الفـترة من ١٩٦٥ إلى ١٩٩٢ نقل مجموعة من المنتجين ١٨٠٠ مصنعًا إلى المكسيك يعمل بها ٥٠٠٠٠٠ عامل، ومن عام ١٩٨٠ إلى ١٩٨٥ فُقِد حوالى ٢,٣ مليون وظيفة إلى الأبد[٧٥]. ومن هنا ضعف الموقف التفاوضى للعمال وحقهم فى الإضراب، وفى نفس الوقت أعادت الدولة تأسيس أسبقية وأولية سيطرة الشركات.

لقد تزايد استـخدام وبيع المخدرات غير الشـرعى فى المدن الآفلة مع نمو الاستقطاب الطبقى وهروب البيض وتركز الفقر الحضرى بين الملونين. وكان العنف المتزايد والتنافس المحلى على الأرباح من اقتصاد المخدرات والآلاف من حالات الاعتقال أعراضًا للبطالة واليأس المنتشرين. وقد أدى هذا التدهور الاجتماعى والاقتصادى إلى تفاقم أحوال السكان المنبوذين الذين اعْتُبِروا "حثالة اجتماعية" (مثل المدمنين والمرضى النفسيين) و"ديناميت اجتماعي" (مثل العمال المُزَاحين). ويدفع بارنتى بأن "السكان الفائضين" المتزايدين كان لا بد أن يتم احتوائهم أو إخضاعهم من خلال القوة الوحشية بغرض تفتيت السكان المنبوذين التواقين إلى العصيان من العمال المُزَاحين وتعمية الصحة المخادعة للاقتصاد القومى[٧٦]. لقد كانت الظروف مهيأة لاتخاذ "الآخر العرقي" كبش فداء، وهو أحد أسلحة الدولة الأيديولوجية الضرورية القائمة على التشويه. فمن خلال الخطاب السائد فى الثقافة الشعبية والمواقع الأخرى أصبح "قلب" المدن inner cities مرادفًا للعنف والمخدرات والشباب الأمريكى الأفريقى واللاتينى، وهو ما اتُخِذ "دليلاً" على عدم نجاعة البرامج الاجتماعية. وقد هيأت هذه الرؤية المشهد أيديولوجيًا لخفض البرامج الاجتماعية فى السبعينات و"موجة جديدة من القمع عن طريق العدالة الإجرامية"[٧٧]. ومع أن قانون "السيطرة على الجريمة" لم يكن له إلا علاقة هامشية بالجريمة، فقد قُدِم كوسيلة لاحتواء "الطبقات الخطرة" ورافق الانبعاث المتزامن لمنظمات الأمن الأهلية والإرهاب خارج إطار القانون[٧٨].

وكجزء من الحرب على المخدرات، أقر القانون الشامل للسيطرة على الجريمة ١٩٨٤ رفض الكفالة وإطلاق السراح الفيدرالى المشروط، وزاد من حجم الغرامات(٧٩). وفرض قانون مكافحة سوء استخدام المخدرات لعام ١٩٨٦ و١٩٩٨ عقوبات على استخدام الكوكايين من نوع الكراك (crack cocaine (الأرخص والأكثر انتشاراً فى جاليات الملونين) أشد منها على الكوكايين من نوع باور cocaine power (الأغلى والأكثر انتشارًا فى الجاليات الراقية البيضاء)، وأقر عقوبة الموت على الجرائم المتعلقة بالمخدرات وحالات القتل غير المتعمد(٨٠). وقد عملت هذه الإجراءات "القانونية" على تأسيس الجور فى أحكام النظام القضائى وعمليات سَجن الملونين الفقراء بأعداد لا تتكافأ مع نسبتهم فى المجتمع. وهو ما يحجب انتشار استخدام المخدرات فى الجاليات البيضاء الغنية، ويسهم فى تشطين الأمريكيين الأفارقة والأمريكيين اللاتينيين، وهذا بدوره يوفر تبريراً أيديولوجيًا للقمع والعنف والاحتواء المتزايد من جانب الدولة فى هذه الجاليات (مثل وحشية الشرطة والتعامل مع المواطنين على أساس الانتماء العرقي). وفى الوقت الذى عمل فيه الذراع التشريعى لجهاز الدولة الأيديولوجى على شرعنة الجور والظلم، قام نظام المحاكم بجهاز الدولة القمعى بفرض السَجن على أساس العرق والطبقة الاجتماعية، وهو ما أعاد بدوره تأكيد خطابات التشطين وإلقاء التبعة على الآخرين من جانب جهاز الدولة الأيديولوجى.

لقد طفت الجوانب الأيديولوجية والقمعية للعسكرة المحلية إلى السطح فى الأساس من خلال أجهزة الدولة القضائية والتشريعية وأجهزة فرض القانون. والعسكرة المجازة مؤسسيًا للإسكان الشعبى فى شيكاغو، التى صُممت لكى تكون مراكز حبس/احتواء فى الجاليات الفقيرة، كانت منطقة جديدة للدولة تُدْخِل المراقبة وفرض القانون إلى بيوت الفقراء. ورغم أن الأموال المخصصة لصيانة هذه المساكن تحولت على مدى سنوات بعيداً عن السكان، ظهرت الموارد سريعًا من أجل الاحتواء والمراقبة (مثل بطاقات الهوية الأمنية وبوابات الكشف عن المعادن والشرطة والمراقبة الإلكترونية و"عمليات التمشيط")(٨١). ومع أن تاريخ سوء الإدارة المالية أسهم فى

التدهور السريع للمباني، فقد نُسِب ذلك إلى إجرام السكان وقذارتهم وإهمال الممتلكات. وقد برر ذلك الحاجة إلى الحبس السكني ومهد الطريق إلى الهدم المطلوب للأبراج السكنية العامة، كما أدى إلى إزاحة هائلة لأجيال متعاقبة من الملونين العاطلين بشكل دائم. وقد كان ذراعا الدولة القمعي والأيديولوجي شديدين في تنفيذ العسكرة المحلية، ووجها الضربة الأشد إلى أولئك الذين يقعون في الدرك الأسفل اقتصادياً. وهنا تعمل التشكيلة المتعاقبة من الإجراءات التشريعية وإجراءات فرض القانون كدفاع ضد مقاومة "السكان الفائضين" والأمراض الاجتماعية المدمرة الناتجة عن عدم كفاية وسائل العيش. وقد مهد ذلك الطريق إلى اعتماد الدولة على الأجهزة القمعية الأكثر صرامة: نظام السجون والجيش.

إن التوسع الهائل للمجمع الصناعي للسجون، وهو كيان مدر للأرباح، يقع في قلب العسكرة المحلية والخصخصة الشركاتية للخدمات الحكومية. فمع تصاعد تجريم الفقراء، تقوم صناعة السجون بإيواء المنبوذين، وتوظيف العاطلين في المدن التي دمرها وقف الاستثمار، وخلق أرباح للشركات الخاصة. وبناءً على درجات القراءة في الصف الثالث الابتدائي، تتزايد الحاجات المتوقعة لبناء السجون يومياً. وقد تضاعف عدد السجناء منذ عام ١٩٧٨، وأصبحت السجون تسع ١٥٪ أكثر من طاقتها، بسبب سَجن "المخالفين" الذين كانوا في السابق يتلقون عقوبات بديلة(٨٢). وبلغت ميزانية السجون السنوية أكثر من ٢٥ مليار دولار، متجاوزة بكثير ميزانية الرفاه التي تشكل ١٪ من الناتج القومي الإجمالي(٨٣). وبما يتسق مع نمط الجور البنائي، يمثل الأمريكيون الأفارقة والأمريكيون واللاتينيون ٦٣٪ و٢٥٪ على التوالي من الـ٦,٦ مليون سجين(٨٤). وهؤلاء الشباب الملونين مسجونين مع سجناء بالغين أكثر ١٢–٢٥ مرة من الشباب البيض(٨٥). كما تتزايد عمليات الاعتقال بسبب استخدام المخدرات غير الشرعي والقيادة تحت تأثير الكحول، وهو ما يشير إلى تراجع خيارات الحياة والجهود غير الأخلاقية لـ"تخفيف الألم".

يلعب نظام السجون دورًا واضحًا فى الضبط والاحتواء الإجبارى للنزلاء اللذين يُمارَسان من خلال حياة الزنازين وحراس السجون وقوات الكوماندوز والعنف. ووظيفة هذا النظام الأيديولوجية تتضح من خلال فحص دور نظام السجون فى توفير العمال المجانيين، الذى أقره قانون تحسين صناعات السجون الفيدرالية لعام ١٩٧٩[٨٦]. ففى عصر اقتصادى قائم على خفض التكاليف، يعتبر نزلاء السجون مصدرًا أساسيًا للعمالة المجانية/الرخيصة، بينما يُبَرر ذلك بـ"حاجتهم إلى إعادة التأهيل". ومع أن الشركات الخاصة استغلت عمال السجون، فلم يكن ذلك مربحًا نتيجة لضيق المكان وتهديد الدعاوى القضائية واعتبارات العلاقات العامة حول المنتجات المصنوعة فى السجون وفرض إجراءات السجون على عملية العمل والجودة الرديئة بسبب مقاومة السجناء[٨٧]. ومع أن عمل السجون ليس مربحًا، فإنه يتيح الفرصة لتتميم وظيفة السجون القمعية بوظيفة أيديولوجية تتمثل فى طمأنة الجمهور على أن "العصاة والفاسدين أخلاقيًا" تجرى إعادة تأهيلهم، وأن دولارات الضرائب التى يدفعونها تستخدم بشكل كفء، وأنهم آمنون من "الطبقات الخطرة". وإزالة المكتبات العامة والبرامج التعليمية وحجرات التمارين من السجون يشير إلى عودة رؤية السجون على أنها مكان للردع والعقاب، وليس لإعادة تأهيل المنبوذين من المجتمع. وتتصاعد العسكرة المحلية مع التوسيع غير المسبوق للمراقبة والجيش فى الحياة المدنية.

إن أحداث ١١ سبتمبر المأساوية غيرت الحياة إلى الأبد فى الولايات المتحدة وعلاقتها بالمجتمع الدولى اقتصاديًا وسياسيًا. لقد أصيب الاقتصاد بقوة، كما تجسد فى صناعة الطيران، وتضاءلت الثقة الأمريكية فى السوق، مع حدوث مزيد من حالات تسريح العمال. فالضعف الشخصى والقومى الذى انكشف فى ذلك اليوم صاغ الوحدة القومية وتيار تحتى واسع الانتشار من الخوف. وقد أسهم تهديد الإرهاب فى وسط حالة من الكساد الكبير فى تنفيذ نظام معلومات ومنع الإرهاب Operation TIPS لإنشاء شبكات من العمال العامين وتجنيدها "كقوات عاملة" للإبلاغ عن "أية أنشطة

مريبة". وبذلك سيصبح الجيران والعمال المدنيون ذراعًا إضافيًا للدولة[٨٨]. وضمن جهود اجتثاث المد الإرهابي، هناك خطط لإعادة النظر في قانون ١٨٩٨ الذي يمنع نشاط أجهزة فرض القانون الفيدرالية من العمل على أراضي الولايات وما يتبعها الذي يقيد حق الجيش في المشاركة في الدفاع المحلي[٨٩]. وسوف يسمح تعديل هذا القانون للجيش بأن يعمل كجهاز فرض قانون داخل حدود الأمة. ومعنى ذلك أن مناظر الدبابات في شوارع الأمة ليست بعيدة، والخسارة المتوقعة للحريات المدنية مجسدة في التعبيرات الشمولية في التشريع التي أثارت احتجاجات الأمريكيين "من أجل الحفاظ على الديمقراطية 'من أجل الدفاع عنها'".

الأيديولوجيا والقمع في التعليم

إن ظهور العسكرة المحلية، التي تنعكس في التشريع ونظام العدالة الإجرامية والجيش والسياسات المؤسسية، والتي تعمل بشكل مزدوج من خلال الأيديولوجيا والقوة، يتمم إعادة الهيكلة الاقتصادية وتعميق أزمة الاقتصاد العالمي. وهي بذلك توفر السياق لتحولات مكافئة في التعليم. لقد حدث انقلاب واضح في السياسة الحكومية في مجال تقديم أو ضمان الخدمات التي كانت تعتبر في السابق حقوقًا ودعمًا ضروريًا لجودة الحياة. فالرعاية الصحية والتعليم والرفاه والضمان الاجتماعي والبرامج الاجتماعية الأخرى التي كانت تدعم قدرة العمال على العمل يتم الاستعاضة عنها ببرامج السيطرة أو يتم إخضاعها لخصخصة الشركات. والوجه العام لسياسات "من الرفاه إلى العمل" welfare-to-work في الصحة ومستندات الضامن في التعليم تعبر عن نوايا أقل نبلاً منها كجهود لتحسين الاكتفاء الذاتي أو تقليل سوء استخدام التأمين أو تحسين الاختيار الفردي.

يشير هذا التحول الكبير إلى "استجابة" جهاز الدولة للأزمة الاقتصادية والظروف الجديدة للإنتاج بلا عمال[٩٠]. فمن خلال تقليص تكاليف البرامج الاجتماعية، والأهم من ذلك من خلال سلب أرزاق جماهير العاملين وبقائهم، تدعم الدولة قوة رأسمال

الشركات. ففى ظروف تراجع الأرباح وفيض العمل فى الإنتاج، تقدم الخصخصة فرصة ممتازة للخبراء الماليين لتسليع الفضاءات العامة للخدمات، بما فى ذلك التعليم العام. ولعل الفكرة الأكثر مكراً هى فكرة أنه مع زيادة الأتمتة لن يظل الإبقاء على العمال أولوية، خاصة أولئك الذين لا يسهمون فى عملية الإنتاج وخلق ثروة الأمة. ويتحمل عامة الناس والمنبوذين فى الاقتصاد وطأة هذه التطورات. وفى هذا السياق يصبح تفكيك التعليم العام "ضرورة اقتصادية" بالنسبة لأصحاب القوة.

إن رفع الليبرالية الجديدة لخيار "السوق" يعطى للحقوق الفردية/الخاصة أولوية على الصالح العام من أجل تبرير الخصخصة الشركاتية ومدارس الضامن. ويتزامن تعزيز "خيار السوق" مع الدفع فى اتجاه التقنين باعتباره الوسيلة لتنظيم التنوع فى السوق التعليمى (مثل جودة المدارس التى يتم الاختيار من بينها وجودة التعليم المقدم للطلاب)[٩١]. وهم يزعمون أن الخصخصة الشركاتية سوف تعزز العدالة وتزيد المحاسبية والمرونة والسيطرة المحلية على المدارس الفاشلة من خلال المنافسة والاستخدام الكفء للمصادر، والاختبار المقنن سيكون أداة المساواة والعدالة فى ساحة اللعب. فى حين أن الخصخصة فى الحقيقة تعيد توجيه الأموال العامة من أجل التراكم الخاص. وتسمح للحكومة بالتخلى عن مسئوليتها الاجتماعية عن تعليم الشباب، وتختزل التعليم إلى سلعة شركاتية تُمْتَلك كملكية خاصة، مستهلكيها هم الطلاب الخاضعين لتقلبات السوق (مثل الحاجة إلى المصادر المالية من الرعاة). و"الاختيار المدرسى" وفرض منهج قومى والاختبار القياسى سوف تُفَاقِم أشكال الجور الحالية المتخفية فى أبنية التعليم العام.

إن تصوير "الاختيار" بوصفه ملكية لفاعلين أخلاقيين مستقلين أبعد ما يكون عن الواقع سواء من حيث مفهومه أو تنفيذه. فاستخدام الطلاب لمستندات الضامن فى المدارس التى يختارونها مغالطة كما تبين جهود تطبيق قانون "لن يُترَك طفل يتخلف" الصادر عام ٢٠٠١. فأولياء الأمور ومجالس إدارة التعليم وصناع السياسات NCLB المحبطين جميعهم ساخطون من تلك الخطة التى لا يمكن أن تنجح. فليس هناك

مدارس انتقالية كافية لخدمة الـ ٣,٥ مليون طالب المقيدين فى المدارس الفاشلة[٩٢]. وفى إلينويز، على سبيل المثال، لم يُعطَى حق الانتقال إلا لـ ١٢٠٠ طالب من ١٢٤٠٠٠ طالب يستحقونه[٩٣]. والمسافة الجغرافية إلى المدارس تحول دون السفر بالنسبة لمعظم الطلاب فى الجاليات الفقيرة، بينما "اختارت" بعض المدارس الجاذبة والمدارس الأخرى ألا تقبل الانتقالات المدرسية، أو وضعت معايير حائلة لقبول الطلاب. وبينما يمكن لبعض الطلاب الفقراء ومن الطبقة الوسطى أن يستخدموا مستندات الضامن للحضور فى مدارس دينية أو مجتمعية مجاورة أو الهرب من "قلب المدن"، فإن الطلب الكبير جداً على المدارس "الجيدة" وعوائق استخدام مستندات الضامن ستقف فى وجه استفادة الفقراء منها. فى حين سيتاح للأغنياء أن يستخدموا مستندات الضمان -تلك الأموال المأخوذة من مدارس القطاع العام سيئة التمويل- لدعم تعليمهم فى مدارس خاصة. وعلى ذلك فإن صيغ الضامن وأشكال "الاختيار" الأخرى لن تفيد إلا قليلين جداً.

إن اندفاع العسكرة فى المدارس يعكس الاتجاه القومى نحو العسكرة المحلية. وكما هو واضح فإن الفقراء هم المستهدفين، خاصة الملونين منهم، القابلين للاستهلاك فى القوة العاملة. ففى الوقت الذى يُوَظَّف فيه حاملى شهادات الدكتوراه لتعليم الشباب الغنى، يقوم برنامج "جنود إلى معلمين" Troops to Teachers بإعداد أفراد الجيش المتقاعدين عبر "مسار سريع" للتأهل فى إدارة التعليم من أجل تقديم "القيادة" والتنظيم فى "المدارس المعرضة للخطر". وبينما تُبنَى المدارس الجاذبة المتخصصة فى المدن من أجل البعض، تُبنَى مدارس تأديبية للآخرين. وقد تعاقد مدير مدارس فيلاديلفيا العامة بول فالاس بـ٧ مليون دولار مع شركات خاصة لإنشاء مدارس تأديبية بديلة للشباب "العنيف" ولبدء تطبيق موسع للاحتجاز فى أيام السبت والتعليق فى المدرسة وخدمة المجتمع للشباب المعرقِلين غير العنيفين[٩٤]. والبرامج من هذا النوع لإنهاء السلوك السيئ، وبعد إخلال واحد من جانب الطلاب، تشيطن الشباب الحضرى باعتبارهم مخالفين مذنبين، وتعمل مؤسسيًا كبيوت "على منتصف الطريق" إلى

السجون، وهو ما يسهم فى الزيادة البالغة خمسة أضعاف (٥٠٠٪) فى سَجن الأمريكيين الأفارقة فى السنوات العشرين الماضية، فى مقابل زيادة قدرها ٢٣٪ فى معدل قيدهم فى الجامعة[٩٥].

وكما يتضح من مدرسة جراوندفيو، فإن وجود أجهزة كشف المعادن والشرطة لحماية الطلاب ليست لاحتواء "الطبقات الخطرة" فحسب، وإنما أيضًا لإعدادهم لمكانهم المنفى فى الاقتصاد الجديد: السجن أو الجيش. وثقافة العسكرة والوجود الواضح للقوة فى المدارس يؤيد فكرة ألتوسير بأن كل من القمع والأيديولوجيا يعملان عبر جهاز الدولة الأيديولوجى، وأن كل ذراع من ذراعى الدولة - اللذان يحتوى كل واحد منهما على عناصر من الآخر- يستخدم حسب الضرورة لدعم أو دفع النظام الاجتماعى الحالى إلى الأمام. فالطرد والعقاب والاختيار والضبط تتمم الوظيفة الأيديولوجية للمدارس. وهذا القمع الصريح يصاحبه منهج ميت ومصادر غير كافية تحرم الشباب من حقهم الإنسانى فى التفكير والاستكشاف والابتكار. وهذا يحمل رسالة أيديولوجية قوية إلى الطلاب والثقافة الأوسع: "هذا هو ما تستحقونه". فغياب المصادر يبدو أنه "يناسب" هذه النوعيات من الشباب ويبرر الجور المؤسسى.

إن الجوانب القمعية والأيديولوجية لثقافة العسكرة تدعم إعادة التفاوض حول حدود دور شباب جراوندفيو المتوقع فى المجتمع ما بعد الصناعى. أما فى مونتينفيو فنجد أن الجوانب الأيديولوجية لثقافة الامتياز لا تتممها القوة، وإنما ممارسات وسياسات تطبع الطلاب على أن "يكونوا أحرارًا" فى إنجاز دورهم المتمم فى الاقتصاد المنبثق باعتبارهم أصحاب الامتيازات[٩٦]. وبذلك تلعب السياسات والممارسات فى النظام التعليمى دورًا حيويًا فى الحفاظ على المجتمع وإعادة هيكلته.

خاتمة :

> **إن كل المجتمعات تحكمها فى الحقيقة قوانين خفية، وفرضيات مسكوت عنها، لكنها عميقة، من جانب الناس، ومجتمعنا ليس استثناءً لذلك. وقد حان الوقت لنا، والله أعلم، لكى نفحص أنفسنا، لكننا لن نتمكن من ذلك إلا إذا كنا مستعدين لأن نحرر أنفسنا من أسطورة أمريكا وحاولنا أن نقف على ما يحدث هنا بالفعل(٩٧).**

إن إعادة هيكلة الاقتصاد ما بعد الصناعى لا تزال تحدث، يرافقها ظهور العسكرة المحلية فى كافة أنحاء المجتمع. تتجلى هذه العملية أيضًا فى التعليم مع خصخصة التعليم العام وإدخال العسكرة فى المدارس الفقيرة. فمن ناحية يرسم الفحص الحالى صورة كئيبة للاستقطاب المتزايد بين مدارس الفقراء والأغنياء، وجهود الدولة لحماية مصالح رأس المال الشركاتى من خلال الأيديولوجيا والقوة. ومن الناحية الأخرى يبرز الدور التاريخى القوى المزدوج للتعليم بوصفه موقعًا للكفاح: فى ذات الوقت من أجل الحفاظ على أشكال الجور البنائى فى المجتمع، ومن أجل إحداث تغييرات كبرى فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. فالتعليم يحتوى كل من الإمكانات الاستعبادية والتحريرية، خاصة فى هذه الفترة التى تتسم بإعادة هيكلة اقتصادية وتغير سريع فى حياتنا الاجتماعية، ويمكنه بالتالى أن يصوغ طرقًا جديدة للتفكير فى الحياة الاجتماعية.

والمربون يقع على عاتقهم دور حاسم فى مواجهة العسكرة المحلية والخصخصة فى المدارس والمجتمع بشكل عام، سواء أيديولوجيًا أو عمليًا. فيجب على المربين أن يفحصوا ويصارعوا ويجاهدوا لفهم الواقع الاجتماعى والاقتصادى والأيديولوجى والسياسى المطمور تاريخيًا، لكى تسترشد بذلك جهودنا لإحداث التغيير. فمن خلال فحص القوى الدافعة للاقتصاد والدولة والحياة الاجتماعية بكل أشكالها،

يمكن أن نصل إلى تحليلات نقدية توجه نضالاتنا من أجل نظام تعليمى ونوعية حياة عبر خطوط العرق والطبقة يستأصلان الجور البنائى ويؤكدان على إنسانيتنا الأساسية. وبهذا المعنى يكون التعليم عبر سياقات متعددة مفتاحًا أو أداة فى عملية التغيير الواعية.

والأهم من ذلك كله أننا يجب أن نتحدى الأيديولوجيات والممارسات المؤسسية الموهِنة التى تقيد الإمكانات أمام الشباب عن طريق تغيير الاحتمالات الموضوعية المتاحة أمامهم. ومن أجل هذه الغاية لا بد أن نكافح للحفاظ على الديمقراطية ولضمان تعليم جيد لكل الشباب عبر الخطوط العرقية والطبقية. ويجب أن نناضل من أجل خلق مدارس ومواقع تعلم أخرى تتعهد الميول الطبيعية لدى الشباب/البشر إلى الاستكشاف والتفكير والتقصى والاكتشاف والابتكار والإبداع. ومن الأساسى لذلك أن نعمل على توفير منتدى للطلاب يفحصون من خلاله نقديًا واقعهم الفورى والتساؤلات الأوسع التى تؤثر على حياتهم من خلال نصوص متعددة. وكفاحنا ضد الجور يتطلب فحصًا مترويًا فى السياقات التعليمية بما يسهم فى دفع مشاركة المربين المتعاقبين فى الكفاح من أجل الإنسانية.

الهوامش

(1) Robert Friedland, "Space, Place, and Modernity," A Journal of Reviews: Contemporary Sociology 21, no. 1 (1992): 8-36.

(2) James Anderson, The Education of Blacks in the South, 1860-1935 (Chapel Hill, N.C.: University of North Carolina Press, 1988).

(3) Pierre Bourdieu, "Cultural Reproduction in Education, Society, and Culture," in J. Karabel and H. Halsey, Power and Ideology in Education, edited by (London: Sage, 1977).

(4) Michael Apple and Christopher Jenks, "American Realities: Poverty, Economy, and Education," in Cultural Politics and Education, edited by M. Apple (New York: Teachers College Press, 1996); Christian Parenti, Lockdown America (New York: Verso, 1999); Jim Davis, Thomas Hirschl, and Michael Stack, eds., Cutting Edge: Technology, Information, Capitalism, and Social Revolution (New York: Verso, 1997).

(5) Davis, Hirschl, and Stack, Cutting Edge.

(6) Richard Appelbaum, "Multiculturalism and Flexibility: Some New Directions in Global Capitalism," in Mapping Multiculturalism, edited by Avery E Gordon and Christopher Newfield (Minneapolis, Minn.: University of Minnesota Press, 1996).

(7) Parenti, Lockdown America.

(8) Louis Althusser, Lenin and Philosophy and Other Essays (New York: Monthly Review Press, 1971).

(9) Bourdieu, Cultural Reproduction, 494.

(10) Arthur Spears, "Race and Ideology: An Introduction," in Race and Ideology: Language, Symbolism and Popular Culture (Detroit: Wayne State University Press, 1999), 42.

(11) Illinois State Board of Education Report Card, 2000 (isbe.net).

(12) Bourdieu, Cultural Reproduction, 493.

(13) Jay MacLeod, Ain't No Makin' It: Aspirations in a Low-income Neighborhood (Boulder, Colo.: Westview Press, 1987), 19.

(14) Michael Dyson, "Growing Up Under Fire: Boyz N the Hood and the Agony of the Black Man in America," Tikkun 6, no. 5 (November-December 1991): 74-78.

(15) Illinois State Board of Education Report Card, 2000.

(16) Alice Miller, For Your Own Good: Hidden Cruelty in Child-Rearing and the Roots of Violence (New York: Doubleday, 1983).

(17) Guglielmo Carchedi, "High-Tech Hype: Promises and Realities of Technology in the Twenty-first Century," in Cutting Edge: Technology, Information, Capitalism, and Social Revolution, edited by Jim Davis, Thomas Hirschl and Michael Stack (New York: Verso, 1997), 73-86.

(18) Bourdieu, Cultural Reproduction, 494.

(19) "Military Industrial: JROTC Is a Recruiting Program for Dead-End Military Jobs," available at www.schoolsnotjails.com (March 29, 2001): 1.

(20) Kenneth J. Saltman, Collateral Damage: Corporatizing Public Schools_A Threat to Democracy (Lanham, Md.: Rowman & Littlefield, 2000), x.

(21) "Military Industrial," 2.

(22) Ibid., 2.

(23) "Military Industrial," 1.

(24) Ibid., 3.

(25) Allison Pass, "Advertising: The Army Is Helping to Pay for a 'Stay in School' Campaign," New York Times (June 25, 2002): C6.

(26) Richard Perez-Pena, "Report Says Enrollment in Guard Was Inflated," New York Times (June 29,2002), A13.

(27) Dave Moniz, "15,000 Reserves to Serve 2nd Year: Longest Call-Ups Since Vietnam," USA Today (August 26, 2002): 2.

(28) Tamar Lewin, "College Board Announces an Overhaul for the SAT," New York Times (June 28, 2002): Al; Sean Cavanagh, "Overhauled SAT Could Shake Up School Curricula," Education Week (July 10, 2002).

(29) Ibid., 3.

(30) Noam Chomsky, "Intellectuals and Social Change," in Understanding Power: The Indispensable Chomsky, edited by Peter Mitchell and John Schoeffel (New York: New Press, 2002), 236. 31.

(31) Linda Darling-Hammond, "Inequality and Access to Knowledge." in Handbook of Research on Multicultural Education, edited by James A. Banks and Cherry A. Banks (New York: Macmillan), 466 (citing D. Tyack, The One Best System).

(32) Jonathan Kozol, Savage Inequalities: Children in America's Schools (New York: Harper Perennial).

(33) Anderson, The Education of Blacks, 27.

(34) Ibid., 4-8.

(35) Ibid., 89.

(36) Baldwin quoted in Anderson, 1988, 82.

(37) Ibid., 91.

(38) Ibid., 247.

(39) Ibid., 33_78. Anderson examines the origins of this particular form of industrial education and the controversy that surfaced between W. E. B. DuBois and Booker T. Washington, and Northern philanthropists and Southern planters.

(40) Pierre Bourdieu and Jean-Claude Passeron, Reproduction in Education, Society, and Culture, 2nd ed. (London: Sage, 1970).

(41) W. E. B. DuBois, "Does the Negro Need Separate Schools," Journal of Negro Education 4 (July 1935): 328-35.

(42) Anderson, The Education of Blacks in the South, 81.

(43) Howard Zinn, A People's History of the United States (New York: Harper Perennial, 1980), 198.

(44) Apple and Zenk, "American Realities: Poverty, Economy, and Education," 71.

(45) Althusser, Lenin and Philosophy, 137-42.

(46) Frederick Engels, "Letter to Joseph Bloch," (September 21, 1890): 12-14.

(47) Althusser, Lenin and Philosophy, 142-143.

(48) Ibid., 145.

(49) Thomas Hirschl, "Structural Unemployment and the Qualitative Transformation of Capitalism," in Cutting Edge: Technology, Information, Capitalism, and Social Revolution, edited by Jim Davis, Thomas Hirschl, and Michael Stack (New York: Verso, 1997), 157-74.

(50) Ibid., 158.

(51) Guns, Germs, and Steel Jared, Diamond, Guns, Germs, and Steel (New York: W. W. Norton, 1999).

(52) Hirschl, "Structural Unemployment" 159.

(53) Jim Davis and Michael Stack, "The Digital Advantage," in Davis, Hirschl, and Stack, Cutting Edge: Technology, Information, Capitalism, and Social Revolution, edited by Jim Davis, Thomas Hirschl, and Michael Stack (New York: Verso, 1997, 121-44.

(54) Tessa Morris-Suzuki, Robots and Capitalism, in Cutting Edge: Technology, Information, Capitalism, and Social Revolution, edited by Jim Davis, Thomas Hirschl, and Michael Stack (New York: Verso, 1997, 13-28.

(55)"The Cyber Factory: A Web of Intelligent Machines," available at www.globaltechnoscan.com, 1-5.

(56) Ibid.

(57) Michael Casey, "Internet Changes the Face of Supply and Demand," Wall Street Journal, (October 18, 1999): A4, 3Q.

(58) Michael M. Phillips, "Business of Mining Gets a Lot Less Basic," New York Times (March 18, 1997)" B13.

(59) Marc Levy, "Robots Do the Milking On Some Farms," Associated Press, March 1, 2002.

(60) Jesse Berst, "What's Next: Nanotechnology Promises Big Changes by Getting Small," (August 2, 2000), available at www.zdnet.com/anchordesk.

(61) Patricia Reaney, "Scientists Build Tiny Computer from DNA," India News: orld (November 22, 2001).

(62) Ibid.

(63) Ibid.

(64) Jonathan King, "The Biotechnology Revolution: Self-Replicating Factories and the Ownership of Life Forms," in Cutting Edge: Technology, Information, Capitalism, and Social Revolution, edited by Jim Davis, Thomas Hirschl, and Michael Stack (New York: Verso, 1997, 145-56.

(65) The Science Channel, "Technology Circuit: The Digital Domain," June 25, 2002.

(66) Stanley Aronowitz and William DiFazio, The Jobless Future: Sci-Tech and the Dogma of Work (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1994), 48.

(67) Ibid., 2.

(68) Hirschl, "Structural Unemployment," 161; Davis and Stack, "The Digital Advantage," 137.
69. Hirschl, 2.

(70) Apple and Zenk, "American Realities," 72-73. In 1992, 80 percent of people were earning less than half the national income, and 20 percent of the wealthiest had almost 50 percent.

(71) Althusser, 137.

(72) Ibid., 145.

(73) Parenti, Lockdown America, 4.

(74) Ibid., 8-11.

(75) Ibid., 42.

(76) Ibid., 45.

(77) Ibid., 44.

(78) Noam Chomsky, Rogue States: The Rule of Force in World Affairs (Cambridge, Mass.: Southend Press, 2000), 153.

(79) Parenti, Lockdown America, 50

(80) Ibid., 57-61.

(81) Ibid., 59.

(82) David B. Kopel, "Prison Blues: How America's Foolish Sentencing Policies Endanger Public Safety," Policy Analysis 208 (May 17, 1994), available at www.cato.org/pubs/pas/pa-208.htmi. "Race and Incarceration in the United States: Human Rights Watch Press Backgrounder" (February 27, 2002), 1-3, www.hrw.org/backgrounder/usa/race.

(83) Ibid., Kopel, 4.

(84) Fox Butterfield, "Study Finds Big Increase in Black Men as Inmates since 1980," New York Times (August 28, 2002), available at www.hrw.org/backgrounder/usa/race, 1: Jonathan D. Salant, "6.6 Million Under Nation's Correctional System," Florida Times-Union (August 26, 2002), 1.

(85) Butterfield, "Study Finds Big Increase," 1.

(86) Parenti, Lockdoum America, 230.

(87) Ibid., 233-35.

(88) Adam Clymer, "Security and Liberty: Worker Corps to be Formed to Report Odd Activity," New York Times (July 25, 2002).

89. Eliabeth Becker, "Bush Seeks to Review Military's Home Role," Chicago Tribune (July 16, 2002): 1; Tribune News Services, "Ridge Calls for Study of

Military's Home Role," Chicago Tribune, 22 July 2002, np.

(90) Hirschl, "Structural Unemployment," 168.

(91) Michael Apple, Educating the "Right" Way: Markets, Standards, God, and Inequality (New York: Routledge, 2001) 75.

(92) Stephanie Banchero and Michael Martinez, "Federal School Reform Stumbles: Confusion Reigns Over Choice Plan," Chicago Tribune (August 28, 2002): 1.

(93) Diana Jean Scheme, "Few Exercise New Right to Leave Failing Schools," New York Times (August 28, 2002), 1.

(94) Susan Snyder, "Vallas: No Shuffling of Violent Students," Philadelphia Inquirer (August 22, 2002): 1.

(95) Butterfield, 1.

(96) Chomsky, Intellectuals and Social Change, 236-237.

(97) Baldwin, 1961/1989, p. 11.

الفصل السابع

الهيمنة القوية

تحذير وحل من شعب هندى

دون ترنت جاكويز(*)

كان بعض الطيارين من الوكالة القومية للملاحة الجوية والفضاء NASA يتدربون على مناورات المشى على سطح القمر على أرض أُعدت لذلك فى محمية شعب نافاجو الهندى. عندما رآهم شيخ من شعب النافاجو وهم يتدربون، طلب من صبى ثنائى اللغة أن يسألهم عن ذلك الذى يفعلونه.

أجابه أحد الطيارين: "إننا نتدرب من أجل رحلة إلى القمر".

أومأ الشيخ وهو يسمع لترجمة الصبى، ثم طلب من الصبى أن يسألهم إذا كان يمكن له أن يرسل معهم رسالة إلى القمر. رأى

(*) دون ترنت جاكويز Don Trent Jacobs أستاذ بجامعة شمال أريزونا وعميد قسم التربية بكلية أوجالا لاكوتا Oglala Lakota College فى الفترة ١٩٩٨-٢٠٠١، عمل فى السابق بوظائف كثيرة منها طيار بالقوات البحرية. له عشر مؤلفات منها The Bum's Rush: The Selling of Environmental Backlash; Primal Awareness: A True Story of Survival, Awakening and Transformation with the Rara-muri Shamans of Mexico; and Teaching Virtues: Building Character Across the Curriculum.

رواد الفضاء فى ذلك فرصة لإثبات تعاونهم، ولذلك وافقوا على القيام بذلك. فكتب الرجل العجوز بضع كلمات بلغة النافاجو وأعطاها لهم، لكن لا الشيخ ولا أى شخص آخر من شعبه أخبر الطيارين بمضمون الرسالة. ونظرًا للهفة رواد الفضاء لمعرفة ما كتبه الشيخ دفعوا لشخص لكى يترجم لهم الرسالة. فوجدوا أنها تقول:

"خذوا حذركم. لقد جاء هؤلاء الرجال ليأخذوا أرضكم وحريتكم وأطفالك".

فى ٢٩-٣٠ مايو ٢٠٠١ حضرت المؤتمر الدولى حول العسكرة فى التعليم الذى عُقِد فى إسرائيل. وهناك وصف مربون من دول مختلفة المدارس الذى تُشَرِب البرامج التعليمية بالحضور العسكرى. وثق المربون الطرق التى من خلالها تقوم الهيمنة، التى تخدم مصالح النخبة، بتلوين المنهج، وتسير على الطبول العسكرية التى تفرضها. وجاء من بين الأمثلة التى عُرِضَت فى المؤتمر:

- تعليم الأطفال كيف يصنعون بطاقات الهوية المعدنية التى يرتديها الجنود وتلوين وجوههم بطريقة التمويه.
- توظيف أفراد متقاعدين من الجيش للعمل كمعلمين ومديرين مستبدين.
- تعليق ملصقات تروج للفخر بخدمة الدولة وتحذر ممن يرفضون الخدمة فى القوات المسلحة لاعتبارات أخلاقية.
- استخدام كتب دراسية تشجع الخدمة العسكرية بعد التخرج من المدرسة الثانوية.

قد تكون الممارسات من هذا النوع متوقعة من جانب دول الشرق الأوسط الممثلة

فى المؤتمر، لكن ماذا عن مجتمعات غربية مثل الولايات المتحدة؟ وأنا كضابط بحرى سابق فى حقبة فيتنام أعرف تأثير الشركات على السياسات الحكومية والعسكرية. وكمربى ينتابنى القلق عندما أسمع وزير التعليم الأمريكى يقول أن المعلمين أدوات فى الحرب على الإرهاب، أو عندما أرى كتبًا دراسية برعاية شركات النفط تقول لتلاميذ الصف الثالث الابتدائى أن مشكلة الاحترار الكونى لا وجود لها. لكن أكثر ما يقلقنى هو استخدام الحكومة الأمريكية المتزايد لنوع من "الهيمنة القوية" فى سياساتها مع الشعوب الهندية، خاصة الهنود الأمريكيين فى المحميات. فما يحدث هناك يجب أن يكون تحذيرًا لنا جميعًا، بينما تقدم مقاومته المستمرة من جانب بعض الجماعات حلولاً ممكنة.

لكن قبل أن نتعامل مع القضايا التربوية المتضمنة فى الهيمنة القوية فى الثقافات الأصلية، أريد أن أعرض بإيجاز كيف تستخدم الحكومات فى كل أنحاء العالم القوة العسكرية ضد سيادة واستقلال السكان الأصليين لتحقيق مصالح الدولة والشركات. على سبيل المثال تتعرض ثقافة شعب أوا U'wa بكولومبيا حاليًا إلى تهديد من شركات التنقيب عن النفط. فثمة رقعة عسكرية تصور رجل ببندقية يقف بجانب منصة تنقيب عن النفط يضعها كل الجنود الذين يحمون معدات النفط فى كولومبيا على كتفهم الأيمن. ونفس الشيء يحدث للديمقراطية الأهلية لدى شعب كوكا Cauca. وفى الحالتين يتورط الدعم الأمريكى للجيش الكولومبى اليمينى فى سحق أبنية اجتماعية ترفض أن تبيع نفسها فى القيم المشوهة لاقتصاد السوق.

وشعب رارامورى سيمارون Raramuri Simarone فى وسط المكسيك مثال آخر أقرب إلى الوطن. لقد آثر هذا الشعب أن يعيش فى كهوف نائية فى منطقة وادى النحاس Copper Canyon على أن يتبنى القيم الثقافية الغربية. ومع ذلك فقد تبددت جهودهم لحماية أرضهم من التنمية وقطع الأخشاب بفعل التدخل العسكرى. وعلاوة على ذلك، وبدعم غير مشروع من القوات العسكرية للحكومة الفاسدة، المدعومة بشكل غير مباشر من جانب الولايات المتحدة، يدفع أباطرة المخدرات هؤلاء السكان الأصليين إلى الانقراض.

وحتى فى قلب الولايات المتحدة تُستَخدَم القوة ضد سيادة السكان الأصليين. أحد أمثلة ذلك يتعلق بما يحدث لأسرة وايت بلوم White Plume من محمية باين ريدج Pine Ridge الهندية بداكوتا الجنوبية. وفى هذا المثال وُئِدَت جهود أسرة وايت بلوم لإعالة نفسها بإنشاء مزرعة قنب، وذلك عن طريق غارة فى صباح أحد الأيام بعشرات من رجال مكتب التحقيقات الفدرالى وقوات مكافحة المخدرات مسلحين ببنادق كلاشينكوف(١). فدون أى تحذير لشعب لاكوتا ذى السيادة الذى تبيح قوانينه زراعة القنب من الصنف الصناعى، دمر الدخلاء كل المحصول، وقضوا على أمل هذه الأسرة فى تنمية اقتصادية إيكولوجية فى هذه المنطقة الفقيرة.

إن ما حدث فى باين ريج ليس غريبًا على العسكرة الأمريكية المعاصرة. ففى السبعينات تعاون مكتب التحقيقات الفدرالى وإدارة مكافحة المخدرات مع قادة قَبَليين فاسدين فى سحق احتجاجات ضد الحكومة فى محمية وندد نى Wounded Knee. ولا يزال ليونارد بلتير Leonard Peltier، كبش الفداء فى هذا النزاع والذى تعتبره منظمة العفو الدولية سجينًا سياسيًا، فى السجن رغم الأدلة القوية على براءته. وعلينا أن نأخذ فى الحسبان أيضًا مسيرات الاحتجاج السلمية فى المحمية كل يوم سبت فى محاولة لإغلاق محل لبيع المشروبات الكحولية فى بلدة حدودية على أرض أُنْتُزِعت بطريقة غامضة من حدود المحمية، وهو محل مسئول عن بلاء إدمان الخمور فى المحمية (ويرتبط بشكل ما بعدد من عمليات الاغتيال لرجال من لاكوتا سُجِلت ضد مجهولين). فى هذه المسيرات يتوجه حوالى عشرة أفراد من شعب لاكوتا، غالبيتهم من الشيوخ والنساء والأطفال، من باين ريج إلى محل المشروبات الكحولية، ويتوقفون أربع مرات على طول الطريق من أجل الصلاة. وفى كل مرة يصطف عشرات من رجال الشرطة المسلحين على طول الشوارع ويتمركزون فوق أسطح المنازل كما لو كانوا فى كمين لكتيبة من الجنود!

إن الشعوب المحلية فى كل أنحاء العالم تمتلك موارد تريدها الشركات من أجل شكل أو آخر من الربح، ويمتلكون قبل ذلك رؤية للعالم تتحدى الأفكار الأساسية حول

الرأسمالية التى طُبِعت فى الأذهان الغربية. وبذلك يكون العمل العسكرى ضد السكان الأصليين شكلاً من الهيمنة مصمم لكبح الأجيال المتعاقبة من الهنود، برؤاهم المختلفة حول المادية والروحانية والبيئة. ويمثل هذا الاستعمار أيضًا جزءًا من التمدرس الرسمي، وهنا يقدم تعليم الهنود الأمريكيين مثالاً واضحًا للمأساة التى تحدث فى كل المدارس الأمريكية، وأيضًا إمكانات للحل.

حتى العقدين الماضيين كان الأطفال الهنود يُؤخذون من ذويهم بالقوة ويُلْحَقون عنوة بالنظم التعليمية الممثلة للثقافة الغربية. وهناك يتم قص شعرهم وغسل أفواههم بالصابون إذا تحدثوا بلغتهم الأصلية. وفى هذه المدارس أيضًا كان هؤلاء الأطفال يُضْرَبون إذا هم أساؤوا التصرف، وكانوا يُجْبَرون على ارتداء أزياء رسمية. وتحت تهديد العقاب لم يكن يُسْمَح لهم بالمشاركة فى شعائرهم الروحية، وكانوا يُجْبَرون على تعلم العقيدة المسيحية.

إن تأثيرات الفرض من جانب قوى الشركات/الحكومة فى المدارس اليوم أكثر مكرًا، لكنها لا تقل قوة عما كانت عليه فيما سبق. وهذه التأثيرات تتجسد فى:

- المنهج
- فرض الاختبارات المعيارية عالية الرهان
- سيطرة النزعة المحافظة الجديدة على التعليم
- عقلية المكتب الفيدرالى للشئون الهندية
- المعلمين غير الهنود
- سياسات مقدار الدم
- التربية الاستبدادية
- تشجيع الخدمة العسكرية كـ"مَخْرَج"

- المعلمين والمديرين العسكريين
- تآكل الحدود ونزوح الطلاب
- تغيير الديانة
- استثناءات الولاية
- المداخل الطبية والنفسية الغربية

فى كل هذه الميادين التى سنتناولها بإيجاز فيما يلى انظر كيف ترتبط "التربية كفرض" فى المدارس الهندية بالمشكلات المماثلة فى التعليم العام فى كل المدارس الأمريكية.

المنهج

إن منهج الولاية المعيارى يدعم أجندة لا تزال تتجاهل التفسيرات القهرية التاريخية والمعاصرة للواقع. فمثلاً فى مقرر حول "الأمريكيين الأوائل" يُدَرَّس فى مادة الدراسات الاجتماعية لتلاميذ الفصل السادس فى مدرسة بالمحمية، تم يُقدَم ديفى كروكيت Davy Crockett ودانيال بون Daniel Boone باعتبارهم "الأمريكيين الأوائل".

وبالطبع تعتبر الطريقة الذى لا يزال يُعْرَض بها كرستوفر كولمبس فى الكتب الدراسية بالمدرسة الأولية أحد الأمثلة الفاضحة على ذلك[٢]. انظر كلمات جيفرى هارت أستاذ اللغة الإنجليزية البارز بجامعة دارتماوث Dartmouth ورئيس تحرير مجلة ناشونال ريفيو ذات التأثير فى القرارات السياسية للحكومية الأمريكية الحالية. يقول هارت إن كولمبس كان بطلاً حقيقياً للتاريخ وللروح الإنسانية. وتشويه سمعته يعنى تشويه ما هو جدير فى التاريخ الإنسانى وفينا جميعاً"[٣].

لكن بعيداً عن ذلك كيف يواصل المنهج فى المدارس الهندية الهيمنة القوية؟ هل يشجع الفهم الكامل لسبب الحروب؟ هل يغطى القضايا المتعلقة بالعدالة الاجتماعية

والانتهاكات الأمريكية للحقوق المدنية؟ كيف تُدَرس المدارس فعليًا حول الاستمرارية البيئية وخطورة الأزمات التى تواجهها حاليًا؟ وماذا عن المنظورات متعددة الثقافات الحقيقية؟

إن هناك الكثير مما يمكن أن نتعلمه من فهم المنهج فى المدارس الهندية الذى يُجْبَر الهنود الأمريكيون على تعلمه، وكذلك كيف يقاومه بعض الناس. ثمة خطاب كتبه هندى أمريكى غير معروف عام ١٧٤٤ إلى المربين فى كلية وليام ومارى يعرض منظورًا ربما لا يزال وثيق الصلة اليوم:

> **إننا نعرف أنكم تثمنون عاليًا نوع التعلم الذى يحدث فى هذه الكليات، وأن الحفاظ على شبابنا وهو معكم سيكون مكلفًا لكم جدًا. ونحن مقتنعون بأنكم تقصدون الخير لنا بعرضكم، ونحن نشكركم على ذلك من قلوبنا. لكنكم يا أصحاب الحكمة لا يجب أن يثيركم أن تكون أفكارنا حول التربية مختلفة عن أفكاركم. فنحن لدينا بعض الخبرة فى هذه التربية. فالكثيرون من شبابنا كانوا يُنَشَّئون فى السابق فى كليات بالمقاطعات الشمالية، وكانت تُدَرَّس لهم كل موادكم، لكنهم عندما كانوا يرجعون إلينا، كنا نجدهم عدائين سيئين وجهلة بكل سبل العيش، ولا يصلحون كصيادين أو مستشارين، فلم يكن هؤلاء جيدين فى أى شىء على الإطلاق.**
>
> **لكننا على أية حال ممتنون لعرضكم الكريم وإن كنا نرفض قبوله، وسوف نكون أكثر امتنانًا إذا أرسل لنا السادة المحترمون من فرجينيا بعض أبنائهم لكى نعتنى بتربيتهم ونُدَرِس لهم كل ما نعرف ونصنع منهم رجالاً(٤).**

لا بد أن نلاحظ مدى احترام هذه الرسالة للقيم التى لا يعتنقها كاتب الخطاب. وكما يلزمنا أن نرفع رؤوسنا الجماعية من الرمل لنرى المشكلات التى جلبتها علينا رؤية للعالم مادية واستبدادية وشركاتية ومعسكرة إلى أقصى حد، يلزمنا أيضًا أن نتكاتف مع أولئك الذين جاءوا بتلك الأشياء بطريقة تنم عن الاحترام والفهم. لذا يجب أن نتعامل مع ما بقى من هذا الفصل وذلك فى اعتبارنا.

الاختبار المعيارى عالى الرهان

وفقًا للبرنامج التعليمى الجديد للرئيس جورج بوش "لن يُتْرَك طفل يتخلف"، سيتم عقاب المدارس التى لا تحقق تحسنًا كبيرًا فى درجات الاختبارات المعيارية بقطع الأموال الفيدرالية وأموال الولاية عنها. والهنود الأمريكيين تكون درجاتهم دائمًا الأقل فى هذه الاختبارات بين كل الجماعات. ورغم حقيقة أن هذه الاختبارات تقوم على مدخل للتدريس والتعلم يخنق التفكير الابتكارى والناقد، فإنها تتحيز للطلاب غير الهنود. ومطالبة المدارس بأن تشارك فى هذه اللعبة يضيف إلى الاستعمار المتواصل للأطفال الهنود، بينما تتوجه شركات الاختبار إلى البنوك لتزيد حساباتها، وتتجاوز هذه المشكلة حدود المحمية الهندية.

سيطرة النزعة المحافظة الجديدة على التعليم

قدم الرئيس بوش ٢٥ مليون دولار لبرامج تربية الشخصية character education فى كافة أرجاء الولايات المتحدة، والدفع بهذه البرامج فى المحميات الهندية ذات مستويات الجريمة العالية يمثل أهمية خاصة. ومن سوء الحظ أن هذه البرامج تمثل امتدادات لأيديولوجيا محافظة، وتتمحور حول الامتثال للسلطة وليس الشخصية الجيدة. فتناول الشخصية فى علاقتها بالقضايا البيئية والعدالة الاجتماعية ومشكلات عدالة الثروة والمُثُل الديمقراطية والفضائل الأصيلة مثل الكرم (الذى يعتبر أعلى أشكال الشجاعة لدى الهنود الأمريكيين) ضئيلة فى كثير من برامج تربية الشخصية

الشائعة. وتربية الشخصية فى المدارس الأمريكية التى ظلت تؤكد لمئات السنين على هذه الفضائل تنفذ الآن أجندة مصممة لإبدالها بالطاعة المتعلمة لقيم الدولة(٥). وبالطبع يحدث ذلك أيضًا فى كثير من المدارس الأمريكية.

عقلية مكتب الشئون الهندية

تقع مدارس المحمية فى الأساس تحت سيطرة مكتب الشئون الهندية. وهذا المكتب المعروف بتاريخه فى معاداة الهنود، يبدد اليوم أموال التعليم، ويتجاهل أو حتى يقمع الممارسات الابتكارية، ويُحَوِل الأطفال إلى تروس فى ماكينات بيروقراطية لهيئة كانت خطورتها على السيادة والصحة تاريخيًا أكثر من نفعها. فى كتابهما حول تعليم الهنود يشير فاين دلوريا ودانيال وايلدكات Vine Deloria and Daniel Wildcat إلى أن نظام مكتب الشئون الهندية يشجع خطًا متواصلاً من المربين "الهنود" الذين لُقنوا وفقًا لسياسات الاستيعاب السائدة[٦]. (ما تأثير بيروقراطيات مثل مجالس إدارة المدارس من نوع مكتب الشئون الهندية على المدارس العامة بوجه عام؟)

المعلمون غير الهنود

إن ٧٠٪ تقريبًا من المعلمين فى محميات الأمريكيين الأصليين من غير الهنود. ورغم أن كثيرين منهم أناس رائعين ومعتنين، فإن عددًا غير قليل منهم متحيزين ضد الشعب الهندى وأساليبهم فى الحياة. وعندما يحدث ذلك، لا يكون "المنهج الخفي" القائم على الاستيعاب خفيًا بالفعل. فمعايير التأهيل تفرض أن يكون المعلمون متخرجين من برامج إعداد المعلمين التى تخدم الولاية ولا تفعل شيئًا لتمجيد القيم وأساليب التعلم المحلية. (فى معظم المدارس العامة لا يعكس المعلمون القيم الثقافية المتنوعة للطلاب فى الفصول. لكن من حق جميع الطلاب أن تُمَجَد ثقافتهم طوال السنة الدراسية، إن لم تُعلَم بالفعل. وبدلاً من ذلك تتحرك المدارس الأمريكية فى اتجاه وصفات "أمريكا أولاً" و"اللغة الإنجليزية فقط").

سياسات مقدار الدم

إن الأموال الحكومية المخصصة للمؤسسات التعليمية تتوقف على العضوية القَبَلية، والعضوية القَبَلية تتوقف على مقدار الدم. والأموال الفيدرالية التى تعتمد على مقدار الدم تخضع لسيطرة المكتب الفيدرالى للشئون الهندية. وهذه السياسات تتضمن ما يصل على درجة الإبادة الجماعية، لأن الطريقة الوحيدة لضمان مقدار دم كافى هى أن يتزوج الرجل من داخل القبيلة. والزواج من داخل القبيلة يصعب أن يخرج عن دائرة الأقارب المقربين. لكن بالنسبة لمن يعيشون فى فقر مدقع يكون الزواج من ابنة العم أفضل من فقد التمويل، وكثير من طلابنا يذهبون إلى المدرسة كطريقة لكسب المال. (إلى أى مدى يجب ان يكون المرء "أبيضًا" ليجنى "فوائد" معينة فى معظم المدارس الأمريكية؟)

التربية الاستبدادية

تنظر الشعوب الأصلية إلى السلطة من حيث الخبرة والتأمل الشخصيين فى ضوء الوعى الروحى بأن كل الأشياء مرتبطة[٧]. والتربية الاستبدادية تتعارض مع طبيعة أساليب تعلم السكان الأصليين. وتأسيسًا على ذلك العامل وحده لا يجب أن يفاجأ أى منا بأن معدلات تسرب الطلاب الهنود فى المحمية أعلى منها فى أى جماعة أخرى. (وماذا يحدث خارج التمدرس الهندى الذى يعكس مشكلة مع الأبنية الاستبدادية الصريحة؟ هل يتم تشجيع التفكير الابتكارى والناقد أم يتم خنقه؟)

التجنيد العسكرى

إن الهنود الأمريكيين يفخرون بمحاربيهم بفضل القيم التقليدية للشجاعة والثبات، ولذلك يكون أطفالهم مرشحين ممكنين لحملات التجنيد بالقوات المسلحة الأمريكية. والقائمون على هذه الحملات يقولون للشباب أن الجيش هو المَخْرَج من فقر المحمية.

ويعدون الشباب بأنهم سوف يعودون إلى المحمية من أجل الشعائر الروحية الخاصة، مثل رقصة الشمس. وعندما لا يتم الوفاء بهذا الوعد يفر الشباب من الجيش، أو ينتهى بهم الحال إلى المحكمة العسكرية أو يصبحوا هاربين من الجيش. (فى الوقت الراهن أدخلت الحرب على الإرهاب سياسات "التجنيد" إلى كل المدارس). ومن ينظر فيما وراء تشريع بوش "لن يُتْرَك طفل يتخلف"، يجد أن القسم ٩٥٢٨ يسمح لوزارة الدفاع الأمريكية بالوصول إلى الأدلة المسجل فيها أسماء الطلاب وعناوينهم وأرقام هواتفهم، بحيث يمكن الاتصال بهم وتجنيدهم فى الخدمة العسكرية.

المعلمون والمديرون العسكريون

كما يحدث فى الدول الأخرى، أصدرت الولايات المتحدة مبادرات لتشجيع أفراد الجيش المتقاعدين على الانتقال إلى الوظائف الإدارية والتدريسية فى كل مدارس الأمة بغرض الوفاء بالطلب المتزايد على المعلمين والمديرين. ويتركز هذا التوجه بشكل خاص فى المدارس الهندية، فضلاً عن كونه مصدر قلق فى عموم البلاد. والانضباط العسكرى فى المدارس من شأنه أن يعزز منظوراً قهرياً استبدادياً، من شأنه هو نفسه أن يخنق التحديات النقدية للهيمنة.

إن معظم محميات الهنود الأمريكيين تغص بالفقر. والحكومة الفيدرالية، فى انتهاك لحقوق المعاهدة، تقوم باستمرار بمصادرة الأراضى عن طريق مناورات قانونية مختلفة. وتذهب هذه الأراضى فى العادة إلى الشركات التى تغتصب الموارد الثمينة. ويقوم أصحاب مزارع الحيوانات غير الهنود غالبًا بنقل خطوط الحدود للتعدى على الأراضى الهندية. من أمثلة ذلك أنه فى وقت كتابة هذا الفصل، كان شعب نافاجو يُجْبَر على ترك أرضه تحت تهديد السجن إذا لم ينقلوا مكان إقامتهم لكى تتمكن شركة بيبوى للفحم Peabody Coal من التنقيب فى المناطق التى اختارتها.

تغيير الديانة

فى تناقض صريح مع الفقرة التأسيسية من التعديل الدستورى الأول حول الفصل بين الكنيسة والدولة، تعاقدت الحكومة الأمريكية مع الكنائس للمساعدة فى تحطيم الهوية الهندية. فكان المبشرون يُزَوَدون بالأموال الفيدرالية لتعليم الأطفال الهنود. وحتى اليوم لا يزال تغيير الديانة يجرى فى المدارس الهندية الخاصة التى تخنق القيم الثقافية والروحية الموجودة منذ آلاف السنين. (قرارات المحكمة العليا الحالية حول مدارس الضامن توضح كيف انتقل هذا المدخل إلى الهيمنة من محميات الهنود إلى نظام التعليم ككل).

استثناء الولاية

لقد أُعْطِيت الولايات رخصة من الحكومة الفيدرالية لتنظيم التعليم الهندي، لكن الولايات حجبت الخدمات الحكومية عن الأمريكيين الأصليين بسبب علاقتهم الخاصة بالحكومة الفيدرالية. وتستخدم الولايات تعداد السكان الأصليين بغرض زيادة حصتها من الأموال الفيدرالية المقدمة للخدمات الحكومية. ويقوم وزير الداخلية بتقييم مصروفات ورسوم الخدمات المختلفة التى تفيد الشعب الهندى، ومع ذلك فإن الأموال المقدمة تتوقف على الروابط الفيدرالية أو الالتزامات القانونية الأخرى. (هذا النوع من الارتباط الماكر بين الشركات والحكومة أصبح شائعًا فى بلاد الهنود منذ سنوات، وعلى أية حال فإن تأثير الشركات فى المدارس العامة عبر كل الأمة فى تزايد، حيث باتت تؤثر على كل شىء من المنهج إلى أنواع المشروبات التى يستهلكها الأطفال).

المداخل الطبية والنفسية الغربية

بوجه عام يُجْبَر الهنود الأمريكيون على استهلاك الخدمات الطبية والنفسية الغربية، بما يؤدى إلى استبعاد البدائل التقليدية التى تقوم على فرضيات مختلفة حول

المرض والعلاج. وذلك لا يختلف عن التطعيمات الإلزامية وغيرها من الممارسات الطبية التى تُفْرَض على الأطفال غير الهنود.

الحـل

رغم سياسات الإبادة الجماعية التى تمارسها الهيمنة القسرية فى بلاد الهنود، نجحت بعض القبائل فى الحفاظ على قيمها الثقافية. وربما كان من أسباب نجاح هؤلاء امتلاكهم لرؤية خاصة للعالم، إذ يعد ذلك ضرورياً لمواجهة الهيمنة المفروضة.

وإلى أن تستعيض النظم التعليمية عن رؤيتها الأساسية للعالم بأخرى أكثر انسجاماً مع الرؤية التقليدية للقبائل الأصلية ، مثل رؤى العالم لدى الشعوب الأمريكية الأولى، ستواصل المدارس العمل على تآكل الديمقراطية وليس تقويتها.

وأنا لا أقول أن أى عرق أو ثقافة أو دين أو أيديولوجيا أفضل من غيرها. فالناس من كل الأعراق والثقافات معرضون للعيش وفقًا لفرضيات غير صحية. لكننا إذا درسنا نتائج رؤى العالم الخاصة لكل منهم، أعتقد أن المنظورات التقليدية للسكان الأصليين، كتلك التى تتبناها القبائل الهندية الأمريكية الشمالية، قد أثبتت أنها أكثر فائدة للصالح العام من تلك التى تقود الثقافات المهيمنة على مدى الألفيتين الماضيتين. لنرى منظورات الهنود الأمريكيين التالية واختلافها عن رؤية العالم المهيمنة التى تقود السياسة التعليمية الآن[٨]. إن النموذج الهندى الأمريكى التقليدى:

- يرى أن الديمقراطية الحقيقية تتعلق بالحقوق المتساوية لكل أعضاء الجماعة الديمقراطية، وليس الملاك فحسب.
- يركز على النظم التعاونية، وليس المنافسة و"الفوز".
- يؤكد على الصالح العام من أجل تداخلات الحياة المعقدة، وليس تراكم المكسب المادى الفردى أو القوة الاستبدادية.

- يفترض أن الأطفال مقدسون، وليسوا سيئين أو غير أكفاء نسبياً.
- يعتقد أن النساء نماذج عظيمة للقوة الأخلاقية.
- يرى أن تأمل الخبرة الشخصية فى ضوء الوعى الروحي، وليس العقيدة الدينية، هو مصدر السلطة. وليس شخصيات أو مؤسسات السلطة الخارجية المطلقة.
- يؤكد على الدافعية الداخلية لتلبية مبادئ الحق العمومية، وليس المكافآت والعقوبات الخارجية كدافعية لفعل الخير.
- يعكس وعيًا بأن كل الأشياء مترابطة: الناس والصخور والأشجار والأنهار والحيوانات.
- يؤدى إلى عالم مكون من علاقات مبهجة، وليس ثقافة تقوم على الخوف.
- يتمحور حول التوازن ولا يميل إلى الوسائل التى تؤدى إلى الانتشار الكبير للمرض الشخصى والبيئى أو الاعتلال الصحى.
- يقول أن الروحانية تسترشد بالسر العظيم، وليس بعقيدة تدعى معرفتها هى وحدها بالله أو تسمح لجماعة واحدة بأن تفرض الهداية الدينية على غيرها.

إن كل الثقافات تحتوى فى مكان ما من ذاكرتها على مبادئ عمومية مماثلة. لكن ثقافات كثيرة نسيت مبادئها، وهو ما يُمَكِن سياسة القوة والدعاية من أن تخلق أنساق معتقدات جديدة أو حتى لامبالاة تسمح بتحمل المدارس كأدوات للفرض. والقهر من جانب الثقافة المهيمنة لا يزال متواصلاً عبر أشكال كثيرة، خاصة فى نظمنا التعليمية. لكن الأمل لا يزال قائمًا إذا قام العدد الكافى منا بإصلاح مدارسنا وفقًا للسعى العمومى إلى التناغم، الذى لا يزال إخواننا وأخواتنا من الشعوب الأصلية من مختلف أرجاء العالم يتذكرونه فى قلوبهم.

ذات مرة سُئل أوهيسيا Ohiyesa، أول هندى من داكوتا الجنوبية يحصل درجة جامعية فى الطب من جامعة بوسطن فى عام ١٨٩٠: "أليس هناك شيئًا يستحق التخليد فى روحنا الهندية الديمقراطية، التى كانت أمنا الأرض فيها متاحة للجميع، ولا يسعى أحد إلى إفقار أو استعباد جاره(٩). فى اعتقادى أننا جميعًا نعرف بقلوبنا الإجابة عن هذا السؤال. لقد حان وقت العمل.

الهوامش

(1) Don Jacobs, "Dance of Deception" in Mother Jones on Line, available at www.motherjones.com/reality-check/pineridge-contradiction.html on July 7, 2002.

(٢) اليوم يتم تدريس هذه الرؤية فى الغالب فى المدارس الأمريكية، وفى بعض الأحيان حتى فى المحميات الهندية. ويتم تناول الموضوع على النحو التالى : فى عام ١٤٩٢ أبحر كولبس فى المحيط الأزرق ثم "اكتشف" أمريكا. لكن لا يُقال للطلاب شيئًا عن رحلته البحرية الثانية ١٤٩٣ التى جاء فيها بقوة احتلال مكونة من ١٧ سفينة وقيام الرجل نفسه على تنسيق عمليات الإبادة الجماعية للسكان المحليين فى جزر الكاريبى التى أفنت الشعب المكون من حوالى ٨ مليون شخص إلى ١٠٠٠٠ خلال سبع سنوات، ثم إلى ٢٠٠ فقط خلال خمسين سنة. وبالطبع خلال القرن التالى، قُتِل ١٠٠ مليون آخرين من الأمم الأمريكية الأصلية بفعل المرض والعنف. وهذا أيضًا ليس من الموضوعات المفضلة فى الفصول الدراسية الأمريكية، لكنه بالتأكيد يضع حدًا لعبادة كولبس.

(3) Quoted in Ward Churchill, A Little Matter of Genocide (San Francisco: City Lights Books, 1997), 44.

(4) T. C. McLuhan, Touch the Earth (New York: Outerbridge and Dienstfray, 1971), 57.

(5) Don Trent Jacobs, Teaching Virtues: Building Character Across the Curriculum. (Lanham, Md.: Scarecrow Press, 2001).

(6) Vine Deloria, Jr. and Daniel Wildcat, Power and Place: Indian Education in America (Golden, Colo.: Fulcrum, 2001).

(7) Don Trent Jacobs, Primal Awareness (Rochester, Vt.: Inner Traditions International, 1998).

(8) Don Trent Jacobs, "The Indigenous Worldview as a Prerequisite for Effective Civic Learning in Higher Education" Volume 2, 2002. Journal of College Values, available at www.collegevalues.org (July 7, 2002); see also Teaching Virtues.

(9) Alexander Charles Eastman, "The Ways of the Spirit," in The Wisdom of the Native Americans, edited by Kent Nerburn (Novato, Calif.: New World Library, 1999), p. 115.

الفصل الثامن

انتشار فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار

إصلاح تعليمى أم عسكرة؟

مارفين بيرلويتز وناتان لونج(*)

إن الهدف الأساسى لفيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار Junior Reserve Re-serve Officer Training Corps (JROTC) هو أن يعمل كأداة للتجنيد العسكرى. وقد كانت هناك محاولات لحجب هذا الهدف وتصوير البرنامج وكأنه إسهام فعال فى الإصلاح التعليمى. لكن أحداث ١١ سبتمبر خلقت مناخًا يمجد ويعطى الشرعية والضرورة لهدف التجنيد. فإحياء هدف ريجان المتمثل فى تحطيم إمبراطورية الشر، بما فى ذلك بقايا الاشتراكية فى كوريا الشمالية وكوبا، إضافة إلى تعديات جورج دبليو بوش على أجزاء كبيرة من العالم العربى، منها ليبيا وإيران والعراق، سوف يحتم فتح جبهات عسكرية متعددة حول العالم فى وقت واحد.

لقد أدى التراجع العالمى للاشتراكية إلى انبعاث أيديولوجيا محافظة تفترض أن اقتصاد المشروع الحر هو الطريق الفعال الوحيد إلى التنمية الاجتماعية والاقتصادية.

(*) مارفين بيرلويتز Marvin J. Berlowitz أستاذ بقسم أصول التربية بكلية التربية بجامعة سنسيناتى، ومدير مركز تربية وبحوث السلام بها.

ناتان لونج Nathan A. Long طالب دكتوراه بقسم أصول التربية بجامعة سينسناتى وزميل معهد دراسات السياسات بواشنطون ونائب مدير مركز تربية وبحوث السلام بجامعة سينسيناتى.

وبهذا المنطق يعتبر أى مظهر لدولة الرفاه، فى شكل برامج اجتماعية أو فرض قيود تنظيمية على الشركات أو شبكات الأمان الاقتصادى، دخيلاً فى أحسن الأحوال، وفى أسوأها عقبة لا مبرر لها. فإلغاء القيود التنظيمية والخصخصة المتعجلَين للمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية هما السمة المميزة للحقبة الراهنة. وقد بات هذا التوجه العالمى يُعْرَف بالأيديولوجيا الليبرالية الجديدة.

وقد أثرت السياسات والتشريعات الليبرالية الجديدة على أكثر أطفال العالم عوزًا، حيث تُفقِرهم وتقودهم فى الغالب إلى السخرة فى ورش العمل الشاق وصناعة الجنس والقوات المسلحة. وفى الدول الأكثر تقدمًا، مثل الولايات المتحدة، يكون الإكراه الاقتصادى العنيف للأطفال المُفْقَرين على الالتحاق بالقوات المسلحة أكثر مكرًا. وقد ابتكر جوهان جالتونج ohan Galtung لمصطلح "العنف البنائى" structural violence لوصف العنف الماكر غير المباشر الذى يرتب المؤسسات بحيث تمارس بانتظام التمييز ضد جماعات معينة، بينما يكتسب هذا التمييز الشرعية عن طريق أيديولوجيات تنزع الصفة الإنسانية عن هذه الجماعات، مثل التمييز العنصرى.

إن انتشار فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار ودمجه كجزء من حركة الإصلاح التعليمى الأمريكية الحالية يمثل شكلاً من العنف البنائى الذى يوظف الإكراه الاقتصادى والخداع من أجل تجنيد الشباب من الأمريكيين الأفارقة والجماعات الأخرى المقهورة عرقيًا فى الجيش الأمريكى بأعداد تفوق نسبهم فى المجتمع الأمريكى.

تاريخ موجز لفيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار

منذ بدايتها أضفت الحكومة الأمريكية طابعًا استراتيجيًا على التلقين العسكرى military indoctrination لشبابها بغرض الاستعداد والتجنيد. وقد بدأت الحركة الرسمية الأولى لتطبيق التدريب على الجيش والعملية الديمقراطية مع الرئيس جورج واشنطن الذى سعى منذ وقت مبكر جداً، تحديداً عام ١٧٨٩، إلى إنشاء "جامعة

وطنية". كانت فلسفة واشنطن أن مثل هذه المؤسسة سوف تفرض مُثل الديمقراطية والحاجة إلى حماية حدود أمريكا من الاعتداءات الخارجية ضد الجمهورية الحرة، سواء فكريًا أو عسكريًا. لكن هذه الفكرة لم تجد طريقها بالكامل إلى الواقع، وذلك فى المقام الأول بسبب سوء التخطيط المالى وعدم توافر التأييد العام.

وأخيرًا أثمر مفهوم تدريب الشباب على خدمة أمريكا عندما أنشأ توماس جيفيرسن والكونغرس الأمريكى أكاديمية ويست بوينت العسكرية (التى تُعْرَف أكثر باسم الأكاديمية العسكرية الأمريكية). والأكاديمية العسكرية الأمريكية، التى وُلِدت بدافع القلق من ضعف تعليم ضباط الجيش وافتقارهم إلى المهارات التى من شأنها أن تفيد القوات الأمريكية فى وقت الحرب، سعت إلى تصحيح ذلك عن طريق التربية العسكرية المؤسسية. وعلى مدى القرنين التاليين شهدت البلاد توسعًا امتد من الأكاديمية البحرية وأكاديمية الأسطول وأكاديمية خفر السواحل وأكاديمية القوات الجوية إلى أكاديميات الإعداد بالولايات التى رسخت نفسها بقوة فى كافة أنحاء أمريكا مؤسسةً التربية العسكرية كجزء من طريقة الحياة الأمريكية.

وجاء قانون موريل Morrill Act لعام ١٨٦٢ ليسمح بتخصيص ملايين الهكتارات من الأراضى العامة لبناء كليات وجامعات منحة الأرض، ويوجب أن يشكل التعليم العسكرى جزءًا من منهج كل كلية أو جامعة جديدة (بما فى ذلك التدريبات العسكرية وتاريخ الجيش والتكتيكات والإستراتيجيات)[١]. ومع مرور الوقت شكّل هذا التطور الإطار لفيالق تدريب ضباط الاحتياط الصغار والكبار فى المؤسسات التعليمية العامة.

غير أن الجمهور الأمريكى، خاصة فى جنوب ما قبل الحرب، كان ينظر إلى الأكاديميات، والمؤسسة العسكرية ككل فى الغالب، بعين الشك. فكثير من المواطنين، الذين كانوا لا يزالون يتألمون من حقد الحرب الأهلية، اعتبروا وجود ميليشيا فيدرالية فكرة تبعث على القلق. فهؤلاء كانوا ينظرون أحيانًا إلى التدريب فى الميليشات والجيوش الدائمة على أنه "خَطِر"، وحتى غير دستورى، ويمثل تهديدًا للحقوق المدنية

فى حال سيطرة حكومة فاسدة على السلطة (لنلاحظ السخرية فى قلق الجنوبيين على الحقوق المدنية). هذا الشك، إلى جانب الميول الانعزالية المتزايدة للشعب الأمريكى، أجبر الحكومة على التصدى لما يقترحه الجيش من أهداف ومشروعات.

ومع اقتراب نهاية القرن (١٨٩٨)، حثت الحرب الأسبانية - الأمريكية بعض التحول فى الاتجاه. فأداء أمريكا العسكرى فى هذه الحرب كان مشتتًا، وفى الغالب عشوائيًا. لذلك روج المسئولون العسكريون، ومنهم "مروض الجياد(*)" تيودور روزفيلت، لقلق شديد حول استعداد القوات الأمريكية. أدى هذا القلق (الذى بلغ حد الهستيريا) إلى ثمانى عشرة سنة من المواجهة السياسية بين أنصار السلام ونشطاء الاستعداد. وعلى مدار السنوات القليلة الأولى من القرن العشرين اكتسب أنصار الاستعداد زخمًا، مدعين أنه إذا أرادت أمريكا أن تظل قوة بارزة فى الشئون العالمية وتواصل حماية شعبها من الهجوم الخارجى، فمن المهم جدًا تعزيز العمليات العسكرية، بما فى ذلك تدريب الشباب فى العمليات العسكرية[٢]. لكن انتخاب وودرو ويلسون رئيسًا للولايات المتحدة كان ضربة قاسمة لخطاب الاستعداد. فويلسون المرتبط بالمُثُل الجنوبية، كان يعرف جيدًا المخاوف التى تساور الكثيرين من وجود جيش دائم قوى، فضلاً عن نفوره العام من الحرب[٣]. وبدلاً من ذلك دافع ويلسون عن الحضور الأمريكى فى الخارج كقوة محايدة. وقد كان موقفه نابعًا من دوافع اقتصادية وسياسية. وقد ازداد موقفه قوة بوصول الصناعة الأمريكية إلى الدول الأوربية المختلفة، وهو ما أدى إلى زيادة الأرباح والاستقرار الاقتصادى للولايات المتحدة.

وقد أثرت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ بشدة على الميول السلامية للرئيس ويلسون، حيث دفعته إلى أن يقلب فلسفته تدريجيًا. ومع أن أمريكا ظلت غير متورطة

(*) مروض الجياد Rough Rider لقب مُنِح لأول ثلاثة أفواج فرسان تطوعية فى أمريكا، تشكل الفوج الأول منها فى الحرب الأسبانية الأمريكية ١٨٩٨][المترجم].

فى الحرب، على مدى السنتين التاليتين، أبدا أعضاء بارزون فى إدارة ويلسون، خاصة الجنرال ليونارد وود Leonard Wood، معارضتهم لأنصار عدم الاستعداد. فقد رأى وود أنه إذا انجرت أمريكا إلى حرب مع أوروبا أو هوجمت من جانب أية قوة، فسوف تكون قواتها العسكرية عديمة الفائدة. وبدأ الرجل حملة قومية لسحب البساط من تحت أقدام أنصار حركة الحياد، مبرزًا للأمريكيين خطر أن الجيش غير مستعد لأى حرب أو الدفاع عن الحدود. وواصل وود تنفيذ معسكرات التدريب العسكرى للشباب والحديث فى كثير من الكليات والجامعات فى محاولة منه لتوليد الدعم لبرنامج الاستعداد الذى يتبناه(٤). وفى النهاية حصل وود على تأييد مديرى الشركات والنوادى المرتبطة بالجيش، إضافة إلى هيئة التعليم القومية التى اعتبرت الانضباط والتدريب العسكريين جزءًا مهمًا من تعليم الصبية الأمريكيين.

جاء نجاح المعسكرات التى ضمت مئات الشباب فى السنة الأولى، إلى جانب الهجمات على السفن التجارية الأمريكية، وإغراق السفينة لويزيانا، و"الغموض" الاقتصادى الممتزج بـ"الحياد" الأمريكى، جاءت جميعها لتحث تأييدًا أكثر (وإن ظل مقيدًا) من الكونجرس وويلسون نفسه. ونتيجة لذلك صدر فى الثالث من يونيو ١٩١٦ أوسع القوانين التى أصدرها الكونجرس فى التاريخ لإعادة تنظيم الجيش، الذى عُرِف باسم قانون الدفاع الوطنى(٥). ومن بين المكونات الأخرى الكثيرة للقانون (مثل تقوية الجيش وإعادة تنظيم الحرس الوطنى وتقوية سلطات وزارة الحرب)، أدخل التشريع فيالق تدريب ضباط الاحتياط الصغار والكبار. وقد كان التصور الأصلى يعتبر فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار كيانًا مغذيًا لفيلق تدريب ضباط الاحتياط. ومع أن تأثير البرنامج كان ضعيفًا فى البداية، فقد كانت أهدافه واضحة فى إقامة صف من ضابط الاحتياط المتعلمين. وقد لاحظ آرثر كومب ولى هارفورد Arthur Coumbe and Lee Harford فى كتابهما "قيادة الطلاب العسكريين الأمريكيين: تاريخ السنوات العشر"، أن وحدات فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار كانت "تتطلب ثلاث

ساعات أسبوعيًا من التعليم العسكرى على مدى ثلاث سنوات كحد أدنى. وخريج الفيلق الذى أكمل هذا المقرر فى التعليم العسكرى يحصل على شهادة رتبة الاحتياط ليحصل على درجة الشرف عند عمر ٢١ سنة"[٦]. وكانت المدارس تشترك فى تحمل العبء المالى مع الحكومة الفيدرالية، بما فى ذلك النصوص والأسلحة والأزياء الرسمية وما شابه ذلك.

فى البداية لم يكن فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار يتمتع بالدعم الشعبى أو المؤسسى الذى يحظى به اليوم. وحتى كفاءة البرنامج فى تحقيق أغراضه المزعومة كانت دائمًا محل شك. حتى أن مسئولين عسكريين وسياسيين كثيرين شككوا فى جدواه من لحظة التصديق على قانون الدفاع الوطنى. ودائمًا ما كان يُثار نقد متزايد حول استنزاف التجنيد وبرنامج الفيلق لموارد الجيش. وفى عام ١٩١٧ أجرى تقرير لمكتب التعليم مسحًا للجهود الدولية لتدريب الشباب، وخَلُص إلى أن هذا التدريب يحسن الاستعداد والعمليات العسكرية[٧]. ويمكن أن نفترض أن هذا العمل كان محاولة لتعزيز كفاءة الفيلق لمواجهة المخاوف التى أثارها نقاد الفيلق. ومع ذلك، ونتيجة للأعمال الحربية والنقد المتزايد تم تفكيك برنامجى فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار والكبار، ولم يبق منها إلا حوالى ثلاثين وحدة فى كل أمريكا.

لم يحقق فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار وجودًا قويًا فى المدارس الثانوية إلا عام ١٩٦٤، عندما وقع الرئيس جون كندى القانون العام رقم ٨٨-٦٤٧ المعروف باسم قانون إحياء فيلق تدريب ضباط الاحتياط. عزز هذا القانون مقدار الموارد المقدمة للفيلق، مع أن كثيرًا من نقاده أثاروا حقيقة أنه لم يحقق إلا القليل جدًا من حيث التجنيد فى الجيش. لكن قانون الإحياء لعام ١٩٦٤ أثبت جدواه، حيث أعاد روبرت مكنمارا (وزير الدفاع) ومسئولون عسكريون آخرون توجيه الفيلق لكى يكون أكثر ارتباطًا بعمليات التجنيد. ولذلك تزايد عدد وحدات الفيلق "بين السنة الدراسية ١٩٦٣-١٩٦٤ والسنة الدراسية ١٩٧٣-١٩٧٤ ... من ٢٩٤ إلى ٦٤٦ وحدة، بينما زاد قيد

الطلاب فيه من ٧٤٤٢١ إلى ١١٠٨٣٩ طالبًا"[٨]. وبداية من هذه الفترة وحتى أوائل التسعينيات، حظى الفيلق بالتوسع والإصلاح بدعم من رؤساء الجمهورية ونواب الكونجرس. فقد وسع الرئيس جيرالد فورد وحدات الفيلق من ١٢٠٠ إلى ١٦٠٠ وحدة، ووقع الرئيس جورج إتش دبليو بوش المبادرة التالية لزيادة وحدات الفيلق إلى ٢٩٠٠ وحدة. وكانت مبادرة بوش لتوسيع عدد وحدات الفيلق ناتجة عن مبادرة جديدة ناجحة حملت اسم "رأسمال العمليات" استهدفت مدارس قلب المدينة الحضرى فى واشنطن العاصمة بوحدات الفيلق. "اليوم ... نضاعف حجم برنامج فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار ... كنا سنوسعه (من ١٥٠٠) إلى ٢٩٠٠ مدرسة ... إنه برنامج عظيم يزيد معدلات إكمال المدارس الثانوية، ويقلل استخدام المخدرات، ويزيد احترام الذات، ويضع هؤلاء الأطفال بحزم على الطريق الصحيح"[٩].

لقد زيد عدد الوحدات التى كان بوش ينوى إضافتها بسبب مذكرة أصدرها الجنرال كولن باول حول برنامج "رأسمال العمليات". أكد باول فى مذكرته "أن]فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار[يجب أن يتركز فى مناطق معينة ... التى تزدهر فيها المخدرات والعصابات وجنوح الأحداث"[١٠].

لذلك أعاد الجيش كتابة المبادرة لتجهيز وتمويل عملية فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار كوسيلة لتوفير القيادة وبرامج التنمية للشباب المعرضين للخطر. وقد عزز الجنرال باول هذا الموقف بدعمه لانتشار برنامج "رأسمال العمليات"، بنجاحاته الكبيرة، فى عموم البلاد. وهكذا توفرت قوة الدفع لوحدات الفيلق فى كل المدارس ولكل النوايا والأغراض. ومن المهم أن نشدد هنا على أن الفيلق يقرر على السطح أن مهمته ليست التجنيد بالجيش، وإنما "تحفيز وتنمية الشباب". وفى ١٩٩٩ وسع الرئيس بل كلنتون الوحدات إلى أكثر من ٣٥٠٠ وحدة، وابتداءً من ٢٠ سبتمبر ٢٠٠١ أصدر الكونجرس لائحة جديدة لقانون الدفاع الوطنى، مع دعم كامل من السلطة التنفيذية ورفع لكل القيود[١١].

العنف البنائى كإكراه اقتصادى

لقد أدت العولمة الأخيرة للاقتصاد الأمريكى إلى تغييرات بنائية درامية. فقد تحول الاقتصاد من اقتصاد صناعى فى الأساس إلى اقتصاد تسيطر عليه تكنولوجيا وخدمات المعلومات. وقد أفادت الزيادات الكبيرة فى الثروة ومعدل الإنتاج الأقلية الغنية، بينما أدت إلى تراجع الطبقة الوسطى وتكثيف التباينات الاقتصادية بين أفقر شريحة وأغنى شريحة. وأخذت حركات الإصلاح التعليمى الحالية فى الولايات المتحدة تركز على إعداد الولايات المتحدة للدخول فى منافسة عالمية أكثر نجاحًا، كما تتجسد فى تقرير "أمة فى خطر". ومن أجل ذلك تم حذف التركيز على "التعليم الحضرى" الذى كان مركزيًا جدًا فى "الحرب على الفقر" فى الستينات من جدول أعمال الإصلاح الحالى. وليس مصادفة أنه بين تلاميذ المدارس الحضرية أنفسهم يوجد أعلى تركز للفقر والجماعات المقهورة عرقيًا.

وبعد نصف قرن تقريبًا من قرار براون الشهير الذى وضع حدًا للفصل العنصرى وتفاوت الفرص فى المدارس العامة الأمريكية، لا تزال غالبية تلاميذ المدارس الحضرية يحضرون فى مدارس منفصلة عرقيًا، حيث تَحُول أشكال الجور فى التمويل والتسهيلات دون مشاركتهم الفعالة فى اقتصاد تهيمن عليه الثورة العلمية والتكنولوجية الحالية. وبالنسبة لهؤلاء الأطفال يزيد اقتصاد التمييز العنصرى التفاوتات المتنامية بين الشريحة السكانية الأكثر غنى والفقراء لدرجة أن العلماء الاجتماعيين أخذوا يشيرون إلى الفقراء باسم "الطبقة الدنيا" underclass الحضرية. وتأتى الأيديولوجيا الليبرالية الجديدة لتسهم فى هذه التباينات الاقتصادية من خلال تبنى خصخصة المدارس العامة كبؤرة مركزية لها فى الإصلاح التعليمى.

إن أنصار فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار الذين يسعون إلى تحويل مدارسهم إلى أكاديميات عسكرية يستهدفون تلاميذ مدارس هذه "الطبقة الدنيا الحضرية" من أجل التجنيد. فتعليمات وزارة الدفاع للفيلق تستهدف خصيصًا

"المدارس الحضرية الكبيرة الأقل غنى" وقطاعات السكان "المعرضة للخطر". ويتعرض هؤلاء الأطفال لشكل من الإكراه الاقتصادى يُعْرَف باسم "ظاهرة الدفع-الجذب" push-pull phenomenon، حيث يدفعهم الفقر واقتصاد التمييز العنصرى ويجذبهم الوعد بمزايا الجيش[١٢]. وما أن يقيد هؤلاء الأطفال فى فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار حتى يجدوا أنفسهم محبوسين داخل متطلبات الفيلق التى تستهلك الوقت لدرجة تحول دون معظم مقررات الإعداد للكليات. كما يقيد الفيلق هؤلاء الطلاب أكثر بإغرائهم بقائمة من المقررات الأكاديمية "المخففة". وسوف تكون وظيفة هؤلاء الأطفال فى الاقتصاد العالمى الجديد أن يكونوا طلقات مدفع فى "الحروب المحدودة" المتكاثرة التى تُشَن ضد القوى التى قد تتدخل فى الحماية والتوسيع الأمريكيين للسوق الحر.

إن مدخل حكومتنا الفيدرالية الحالى إلى الإفقار المتزايد لشباب الطبقة الدنيا الحضرية هو أن تبدأ أكبر إصلاح رفاه فى التاريخ القصير لنظام الرفاه. فالأسر محرومة حتى من أقل فوائد الرفاه، ثم تُرْسَل لكى تنافس فى سوق عمل أكثر مطالب بكثير من الاقتصاد الصناعى الذى كان يتيح للمتسربين من المدرسة توظيفًا جيدًا طويل المدى. بينما هم الآن يُطْلَب منهم أن يدخلوا فى هذه المنافسة فى مناخ يعمل فيه التقشف الحاد والخصخصة على تفكيك مدارسهم العامة.

وفى مقابل إفقار هذه الأسر، تغدق وزارة الدفاع الأمريكية المال على حملتها لنشر فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار. ووفقًا لصحيفة واشنطن بوست زادت ميزانية الفيلق أكثر من الضعف، من ٧٦ مليون دولار إلى ١٥٦ مليون دولار، فى العقد الماضى[١٣]. وآخر تقديرات الميزانية من قيادة الطلاب العسكريين بوزارة الدفاع تشير إلى زيادة قدرها ٧ مليون دولار فى السنة المالية ٢٠٠١ عن السنة السابقة، لتبلغ الميزانية ١٠٨ مليون. وإضافة إلى ذلك وافق الكونجرس على زيادة قدرها ٦٥ مليون دولار إضافية من صناديق الاحتياطى، ليصل الإجمالى إلى ١٧٣ مليون دولار. وقد ارتفع عدد المدارس الثانوية التى بها وحدات الفيلق من ١٤٦٤ إلى ٢٢٦٧ مدرسة، مع

٣٢٪ زيادة فى قيد الطلاب ليصل عدد المراهقين المسجلين بالوحدات إلى ٣١٠٣٥٨(١٤). وآخر مذكرة من وزارة الدفاع (٥ يونيو ٢٠٠١) طالبت برفع كل القيود عن توسع فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار، معطية الفيلق الضوء الأخضر للتوسع فى نظام المدارس الثانوية. وأخيراً ثمة ضرورة لأن نفهم العلاقة الممكنة بين الإحصائيات المذكورة أعلاه وجهود التجنيد بالجيش. فعلى مدى العقد المنصرم واجه الجيش واحدة من أكبر نوبات الانحسار فى التجنيد منذ تطبيق قانون الدفاع الوطنى. أدى ذلك إلى تقلص حاد فى جهود وميزانيات التجنيد. وفى دراسة بحثية حديثة لاتجاهات التجنيد أجرتها مؤسسة راند صورت لغز التجنيد كمشكلة كبيرة تلحق ضرراً فعلياً بالاحتياجات التجنيدية نتيجة للتراجعات المذكورة أعلاه وخفض الميزانية وقلة المُجَنِدين الجيدين وضعف تدريبهم. وتقرر الدراسة الحاجة إلى عمليات تجنيد أكثر جدية للشباب فى المدارس الثانوية (والوصول إلى الطلاب فى عمر أصغر من ذلك). حتى أن المرء يمكن أن يفترض أن فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار بميزانيته المتزايدة وانتشار وحداته ربما يعد أفضل استجابة من الجيش لـ"أزمة التجنيد" ، حيث يوجه البرنامج جهوده إلى طلاب السنة الأولى والثانية بالمدرسة الثانوية. وقد ورد فى تقرير عام ٢٠٠٠ حول الجيش الذى أعده لويس كالديرا أمين سر الجيش فى إدارة كلنتون (ومن دواعى السخرية أن جاء ذلك تحت عنوان "مواجهة تحديات التجنيد والاحتفاظ بالمجندين") أن " البرنامج]فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار[قد يساعد فى تحفيز الشباب الأمريكى على الخدمة العسكرية ... فهو [الفيلق]. سوف يُطْلِع الشباب الأمريكى على الفرص المتاحة فى الجيش، بينما يقدم تأثيراً إيجابياً فى سنوات المدرسة الثانوية"(١٥). وقيادة الطلاب العسكريين، وهى تحاول أن تفرض "حجاب السرية" على نواياها الحقيقية المتمثلة فى التجنيد، تذكر فى عرض داخلى للوكولونيل كارلوس جلوفر قائد فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار أن الهدف الرئيسى هو "تجنيد مجندين جيدين والاحتفاظ بطلاب عسكريين جيدين ودعم القوات المسلحة"(١٦). وبغض النظر عن صدق نخبة الجيش حول اعتبار فيلق تدريب

ضباط الاحتياط الصغار مصدراً "غير تجنيدى"، تشير الأدلة إلى أن التجنيد هو الهدف الرئيسى والفائدة الأساسية من البرنامج.

وفى هزلية سريالية من النوع الذى كان يكتبه الروائى هوراشيو ألجير Horatio Algier، تم اختيار الجنرال كولن باول، الأمريكى الأفريقى، ليكون ممثل وزارة الدفاع فى قيادة فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار. وتبدو هذه الإستراتيجية واعدة، حيث تجاوزت نسبة الطلاب العسكريين من الأمريكيين الأفارقة ٥٤٪ مؤخراً. أما بالنسبة للمهاجرين الأمريكيين اللاتينيين، فإن الحكومة الفيدرالية صريحة حول التنازل عن مطلب شهادة المدرسة الثانوية كشرط للانضمام إلى الجيش، بينما لا تزال مترددة فى دعمها للبرامج ثنائية اللغة المهمة جداً لنموهم الأكاديمى[١٧].

تقصى مزاعم التجنيد العسكرى: الأساطير فى مواجهة الحقائق

كان الخداع دائماً إجراءً عملياً قياسياً لمن يعملون من أجل التجنيد فى الجيش. وهناك أربعة على الأقل من أشكال الخداع الأساسية فى انتشار فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار. يتجسد الشكلان الأولان فى تأكيد أن الفيلق سوف يساهم فى خفض العنف وسوء استخدام المخدرات فى المدارس العامة، ويحسن التحصيل التعليمى والنجاح الأكاديمى. بعد أعمال الشغب فى لوس أنجليس عام ١٩٩١، أسهم كولن باول فى هذه الأسطورة بإدعاء أن القوات المسلحة يمكن أن تقدم بديلاً يؤدى إلى خفض تهريب المخدرات ونشاط العصابات. لكن بعد أن انكشف الخداع، أوضحت وزارة الدفاع الأمريكية نفسها مظهر النجاح الكاذب باستبعاد كثير من الطلاب الذين تدعى أنها تساعدهم. حيث تتضمن متطلبات الفيلق تقدير "سي" كحد أدنى للتسجيل وعدم وجود تاريخ سابق مع المشكلات السلوكية[١٨]. علاوة على أن صورة وزارة الدفاع الأمريكية كنموذج لخفض العنف يتطلب تعليق العقل والمنطق. فوزارة الدفاع الأمريكية تؤسس مركزية العنف كشكل لتسوية النزاع. والفيلق على وجه التحديد يطرح رسائل مشوشة إلى مستويات غير مسبوقة، حيث تعتبر دراسة الأسلحة

والرماية والعضوية فى جمعية الرماه القومية أساسية فى منهج الفيلق، وذلك فى نظم مدرسية تحاول أن تفرض سياسة لاتسامحية إزاء حيازة الأسلحة.

ومن المفيد فى هذا الصدد أن نلاحظ أنه على الرغم من القاعدة المعرفية والبحثية والبرامج الوفيرة التى تتعهد الحل السلمى للنزاع ومنع العنف، اختارت الحكومة الفيدرالية عسكرة المدارس الثانوية العامة كأولوية لها. وهذا القرار السياسى لم يُؤَسَس بالتأكيد على البحوث والتقويم. فعملية بحث واحدة فى قواعد بيانات العلوم الاجتماعية كشفت عن وجود ١٥٧ دراسة تؤكد كفاءة برامج تسوية النزاع ومنع العنف. ورغم تنوع النتائج، تميل هذه البيانات إلى دعم فكرة مؤداها أن برامج تسوية النزاع ومنع العنف لها بعض التأثير القابل للقياس فى خفض مستوى العنف فى المدارس، وتحسين مناخ المدرسة والإنجاز الأكاديمى. وفى عملية بحث مشابهة تضمنت مكتب المنشورات الحكومية، وُجِد أربع دراسات فقط حول فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار. وقد كانت هذه الدراسات تركز على أهداف الفيلق فيما يتعلق بالتدريب على "مهارات القيادة". ولم تحدث أية محاسبية حول إدعاءات النجاح الأخرى التى يرفعها الفيلق لأن كل الدراسات لم تتضمن أية مخرجات مدرسية مثل خفض العنف، أو سوء استخدام المخدرات فى المدارس أو تحسن مناخ المدرسة أو مقاييس الإنجاز الأكاديمى أو التحصيل التعليمى(١٩).

لكن حتى إذا اعترفنا بقدرة فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار على نقل مهارات القيادة، فلا بد أن نسجل أيضًا حقيقة أن القيادة الماهرة لا تضمن حدوث نتائج بناءة. فأدولف هتلر وتشارلز مانسون Charles Manson وآل كابون Al Capone يقدمون أمثلة ممتازة للقادة الماهرين جداً. فكتب وأدلة القيادة تؤكد على "إتباع أوامر مَنْ هم أعلى منك" باعتبارها العنصر المركزى للقيادة. وقد أثبت التاريخ أن خلط الاستبداد بالقيادة يسهل أعمال وحشية من نوع معسكرات الموت النازية والمذبحة سيئة السمعة التى وقعت بحق القرويين فى ميلاى Mylai بفيتنام. وتهمل وزارة الدفاع هذه الارتباطات فى كتب التاريخ التى تقدمها لفيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار.

وقد جمعت اللجنة المركزية لمعارضى برنامج الفيلق أدلة قصصية ذات صلة من الصحف، ووجدت أن الأدلة تثبت الإدعاء بأن مأسسة وتمجيد العنف فى الفيلق يسهم فعلاً فى إزكاء العنف بين طلابه. وقد جاء من بين هذه الحوادث ما يلى(٢٠):

١ - فى ديترويت بمشيغان، قيل أن قائد فرقة فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار فى مدرسة كولى الثانوية قد شكل عصابة تسمى قتلة مافيا فينكيلى Fenkeli Mafia Killers. وبالفعل قام قائد الفرقة بإطلاق النار على شخص وإصابته. تقول الشرطة أنها فى ٢٦ سبتمبر ١٩٩٤ "اقتحمت" مدرسة أُصيب فيها طالب برصاصتين فى فخذه.

٢ - شكّل أعضاء من وحدة فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار بمدينة لونج بيتش بكاليفورنيا عصابة تحمل اسم "الجرافات" Ace of Spades (على غرار وحدة قوات خاصة فى فيتنام كانت مشهورة بأنها تترك بطاقات على جثث قتلاها)، انغمست فى الجريمة (مثل تخريب حانة)، ثم قتلت أليكس جيرالدو ابن السادسة عشر من العمر الذى كان أحد أعضائها لأنها اعتقدت أنه كان يتحدث مع الشرطة.

٣ - بعد عام، وأيضًا فى لونج بيتش، فى أغسطس ١٩٩٣ تم القبض على عضو فى الفيلق واتهامه مع عضو سابق من الفيلق باختطاف وقتل حارس مدرسة ابتدائية.

٤ - فى أريزونا قام جوناثان دودى ابن السابعة عشر وأحد المهووسين بالفيلق بقتل تسعة من سكان معبد بوذى. كان الشاب يرتدى ملابس عسكرية عندما ارتكب الجريمة.

٥ - فى كلفتون بنيو جيرسى تآمر أحد أعضاء فرقة الطلاب البحرية، وهو برنامج للأسطول موجه لشباب المدرسة الثانوية، مع عصابته على قتل عضو آخر فى البرنامج بطريقة الإعدام.

٦ - فى مقاطعة جنوب سان دياجو قام طلاب الفيلق وهم يرتدون ملابس التمويه العسكرية بلعب "ألعاب حربية" هاجموا فيها وسرقوا مهاجرين قادمين عبر الحدود من المكسيك.

٧ – فى ٢٢ فبراير ١٩٩٤ اعتدى طلاب الفيلق فى مدرسة بالبو الثانوية فى سان فرانسيسكو جسديًا على ثلاثة منهم بأمر من القائد العسكرى. أصيب أحد الطلاب بثقب فى طبلة الأذن. وقد أقام الطلاب الثلاثة دعوى قضائية. وقد كشف تقرير المحقق السرى للمدينة الذى سُرب إلى أحد المراسلين أن تدريبات الفيلق القائمة على الإرهاق والسخرية كانت تتضمن قفز الطلاب فوق ضحاياهم ونزع ملابسهم وضربهم على نحو متتالى بأيديهم وبكتل خشبية من مقعد مكسور. وقد وجدت التحقيقات أيضًا أن أعضاء الفيلق بمدرسة بالبو الثانوية كان يشيع بينهم ضرب زملائهم فى الفريق كنوع من العقاب".

٨ – اعترف طالب مجهول فى الفيلق بمدرسة ثانوية ثانية فى ويلسون بسان فرانسيسكو بالاشتراك فى إرهاق الطلاب بدنيًا فى تلك المدرسة فى ١٩٩١.

٩ – وفى مدرسة ثالثة بها فيلق فى سان فرانسيسكو أوردت صحيفة الطلاب عن انتشار تقاليد إرهاق بدنى "خفيفة" للطلاب.

١٠ – وفى هيوستن بتكساس، ورغم مشكلات مماثلة فى سنوات سابقة، تلقت فرق التدريب المجمعة فى مايو ١٩٩٣ أوامر بالوقوف فى تشكيل فى الشمس الحارة. وقد أصيب أكثر من خمسين طالبًا بالدوخة و/أو الإغماء، ودخل ستة وعشرين طالبًا المستشفى.

١١ – وآخر حادثة وقعت فى أبريل ٢٠٠١ وتورط فيها طالب من الفيلق فى عمر ثمانية عشر سنة من مدينة نيوبدفورد بماسوشوستس. وجهت الشرطة الاتهام لهذا الطالب بعد أن وجدت فى بيته ترسانة صغيرة من المتفجرات ورصاص الرشاش. ومن باب السخرية ظهر الشاب فى المحكمة المحلية مرتديًا قميصًا عسكريًا وملابس داخلية يصدرها فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار[٢١].

ورغم أن التعميم من هذه الحوادث يبدو أمرًا غير مؤكد، فإنها إلى جانب الأدلة الأخرى التى أوردناها تشكك بجدية فى اتخاذ عسكرة مدارسنا الثانوية كأولوية قومية.

أما الخداع الثالث حول التجنيد فى فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار فهو فكرة أن هذا التدريب يحسن فرص التوظف. فأنصار برنامج الفيلق يلعبون على وتر الاعتقاد الشعبى بأن الخدمة العسكرية تزيد فرص التوظيف من خلال زيادة الانضباط وتنمية مهارات قابلة للانتقال إلى سوق العمل المدنى.

بينما تشير الأدلة المتوفرة إلى أن هذه الحجة ضعيفة تمامًا مثل الحجتين الأوليين. فبين الأمريكيين الأفارقة من عصر فيتنام يبلغ معدل البطالة ٩٪ بين كل من المحاربين القدامى وغير القدامى، وذلك فى مقابل ٤,٣٪ بين البيض[٢٢]. وفى دراسة طولية لأفواج حديثة بتمويل من مساعد وزير الدفاع، لم يذكر إلا ١٢,٤٪ من المحاربين الذكور و٥,٠٪ من الذكور الذين تركوا الجيش فوائد للمهارات المهنية التى اكتسبوها فى الجيش فى وظائف ما بعد الجيش. وعلى أية حال فإن بيانات الذكور الذين لم يخدموا فى الجيش، كما وردت فى هذه الدراسة، كشفت عن درجات أعلى فى المشاركة فى قوة العمل وكذلك دخل أعلى. ولا عجب إذن إذا علمنا أن الجيش أوقف تمويله للدراسة فى عام ١٩٨٤[٢٣].

أما الخداع الرابع للتجنيد فى فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار فيتمثل فى أسطورة تقول أن القوات المسلحة ملجأ من الانتهاكات العنصرية السائدة فى الحياة المدنية. فى حين أن وزارة الدفاع باستخدام الجنرال كولن باول الأمريكى الأفريقى ناطقًا رسميًا باسمها حاولت أن تصور الجيش وكأنه ملجأ الجدارة لأولئك الين يبحثون عن مأوى من أنماط التمييز العنصرى فى الحياة المدنية. ورغم إدعاء الجيش بأنه مكان عمل يقوم على تكافؤ الفرص، يشكل الملونون حاليًا ٣٢٪ من الأفراد المجندين، بينما يشكلون ١٣٪ فقط من الضباط[٢٤]. ومعدلات الإدانة فى المجالس العسكرية وحالات الإعفاء لأسباب تتعلق بالشرف والاحتجاز فى السجون العسكرية أكثر ثلاثة أضعاف بين الملونين عنها بين البيض[٢٥]. وبالتالى فإن أنماط التمييز العنصرى فى الجيش لا تقل عن مثيلاتها فى نظام العدالة الجنائية المدنى. ولا يجب أن يفاجئنا أن مجتمعًا

تحتل الأنماط العنصرية للعنف البنائى مكانة مركزية فيه يعيد إنتاج هذه الأنماط فى جيشه. وربما كانت أسطورة الجيش القائم على الجدارة هى الخدعة الأكبر.

ولعل أبشع تجليات التمييز العنصرى فى الجيش وأكثرها فتكًا هو ذلك الذى يتضح فى التفاوت فى إصابات القتال. ويزداد هذا المشهد تعقيدًا إذا وضعنا فى الحسبان أن الإمبريالية الأمريكية تضع الملونين بأعداد لا تتناسب مع نسبتهم داخل المجتمع فى قتال مميت مع الملونين الآخرين هنا وهناك عبر العالم. وقد أدرك الدكتور مارتن لوثر كنج الابن جوهر تقاطع الإكراه الاقتصادى فى الداخل والتفاوت فى إصابات الحرب فى بيان يعارض فيه الحرب فى فيتنام بثته محطة الإذاعة الكندية:

> **لقد كانوا يرسلون أبناء وأخوة وأزواج الفقراء لكى يحاربوا ويموتوا بأعداد أعلى كثيرًا من بقية السكان. فقد كنا نأخذ الشباب السود الذين طحنهم مجتمعنا ونرسلهم على بعد ثمانية آلاف ميل عن الوطن من أجل ضمان الحريات فى جنوب شرق آسيا، تلك الحريات التى يفتقدونها فى جنوب غرب جورجيا وشرق هارلم. ولذلك كانت تواجهنا سخرية قاسية ونحن نشاهد صبية زنوج وبيض على شاشات التلفزيون وهم يقاتلون ويموتون جنبًا إلى جنب من أجل أمة لم تستطع أن تُجْلِسهم جنبًا إلى جنب فى مدارس واحدة[٢٦].**

وفى ورقة معلومات من إعداد الجيش بعنوان "السود فى حرب فيتنام" ورد أنه فيما بين عامى ١٩٦١ و١٩٦٦ كانت نسبة الإصابة بين الأمريكيين الأفارقة ٢٠,١٪، بينما كانت نسبتهم بين السكان فى تلك الفترة ١٠٪ فقط وفى القوات المسلحة ١٣,٧٪[٢٧].

وفى آخر خطاب رئاسى له فى مؤتمر القيادة المسيحية الجنوبية أورد الدكتور مارتن لوثر كنج الملاحظات السكانية التالية:

من حيث الخبرات السلبية للحياة، يحصل الزنوج على نصيب مضاعف. فهم الضعف فى البطالة، ومعدل وفيات الأطفال بين الزنوج ضعفه بين البيض، وفى فيتام يموت من الزنوج ضعف عدد البيض بالنظر إلى نسبتهم إلى السكان[٢٨].

وتكشف أنماط المشاركة فى حرب الخليج أن اتجاه تعرض الأمريكيين الأفارقة غير المتكافئ لأخطار الحرب يتسارع. فبينما كانت نسبتهم إلى السكان ١٢,٤٪ كانوا يشكلون ٣٠٪ من القوات فى الخليج. حيث كانت مشاركة الأمريكيين الأفارقة فى الجيش ٢٩,١٪، وفى القوات البحرية ١٦,٩٪، وفى الأسطول ٢١,٣٪، وفى القوات الجوية ١٣,٥٪[٢٩].

لقد كانت حرب الخليج فاتحة لعصر جديد من حرب التكنولوجيا المتقدمة المحدودة فى مدتها ومصابى الحرب الأمريكيين. وقد صُورت بالطبع كـ"نصر" حاسم للرئيس بوش والقادة المستقبليين للنظام العالمى الجديد. لكن ما كشفه الجيش التشيكوسلوفاكى، والصراع الطويل بين مجموعات المحاربين الأمريكيين والكونجرس وإدارة المحاربين، كشف عن الرعب غير المسبوق الذى أُطلِق عليه "عقدة حرب الخليج". فالناجون من حرب الخليج و"الانتصارات" المستقبلية عليهم أن ينتظروا جروحًا وإصابات عضال تغطى أجسامهم وسرطان مزمن مُعَوِق وصداع وفقد للبصر وتوريث عيوب خلقية لأطفالهم[٣٠]. وفى ضوء الاتجاهات التى ناقشناها سيعانى الملونون من هذا الرعب بأعداد غير متكافئة.

خاتمــة :

كما قررنا فى موضع سابق، فإن الإكراه فى الدول المتقدمة مثل الولايات المتحدة يأخذ شكل العنف البنائى، ويقع التمييز العنصرى فى القلب من تأبيده لنفسه. ولذلك فثمة ضرورة للتغلب على نقص التنوع العرقى فى منظمات السلام إذا أرادت أن تكون فعالة فى كفاحها ضد الإكراه. وإستراتيجية التغلب على نقص التنوع يجب أن تكون

متعددة الوجوه. فمفهوم السلام الإيجابى الذى يعترف بالعلاقة الجدلية بين الكفاح من أجل العدالة الاجتماعية والكفاح من أجل السلام يجب أن يحل محل مفاهيم السلام السلبى التى تُعَرِف السلام بأنه غياب العنف فحسب.

فى تحليله لعيوب المنظمات الاشتراكية ومنظمات اتحاد العمال، نادى وليام فوستر William Z. Foster بالكفاح ضد شوفينية البيض، الذى من شأنه أن يؤدى إلى قبول أكبر للقيادة من الملونين. ومنظمات السلام عليها أيضًا أن تقبل بوجود قيادة متزايدة من جانب الملونين. وباحثو السلام ومنظمات السلام يجب أن يبدءوا فى دراسة إسهامات قادة سلام من أمثال مارى تشرش تيريل Mary Church Terrell وكوريتا سكوت كينج Coretta Scott King وديان ناش Diane Nash وبايارد روستين Bayard Rustin ورالف بونش Ralph Bunche وجيمس فارمر James Farmer والاحتفاء بهم مثلما تدرس وتحتفى بإسهامات الدكتور مارتن لوثر كينج الابن. فالسلام لا يمكن أن يتحقق "داخل الجلد الأبيض بينما يوصم السود بالدونية".

الهوامش

(1) Russell Weigley, History of the United States Army (Bloomington: Indiana University Press, 1984), 282.

(2) Ibid., 342-54.

(3) Ibid., 378-80.

(4) Ibid., 342-54.

(5) The United States Statutes at Large (Washington, D.C. Government Printing Office) (39), 191-94.

(6) Arthur Coumbe and Lee Harford, U.S. Army Cadet Command: The 10 Year History (Washington, D.C.: Government Printing Office, 1996), 258.

(7) W.S. Jeswein, Military Training of Youths of School Age in Foreign Countries, Report prepared for Bureau of Education, Bulletin 17, No. 25 (Washington, D.C.: Government Printing Office, 1917).

(8) Coumbe and Harford, U.S. Army Cadet Command, 261.

(9) President George H. W. Bush, Speech to Lincoln Technical Institute Students, August 24, 1992.

(10) Coumbe and Harford, U.S. Army Cadet Command, 276.

(11) Congressional Record, House, National Defense Authorization Act for Fiscal Year 2002 (147:123), (Washington, D.C.: Congressional Record, September 20, 2001), sec. 538.

(12) Marvin J. Berlowitz, "Racism and Conscription in JROTC," Peace Review 12, no. 3 (2000): 394.

(13) Coleman McCarthy, "ROTC and the Three Rs: A Bad Mix," Washington Post (April 18, 1995): C9.

(14) Ibid.

(15) Louis Caldera. "Report of the Secretary of the Army," available at www.dtic.mil/execsec/adr2000/army.html (December 13, 2000).

(16) Col. Carlos R. Glover. "Junior ROTC: Forging Leaders and Citizens," available at www.acc.mil (December 10, 2001).

(17) Catherine Lutz and Leslie Bartlett, Making Soldiers in the Public Schools: An Analysis of the JROTC Curriculum (Philadelphia: American Friends Service Committee, 1995), 6.

(18) Ibid., 12.

(19) Daniel Kmirta, "Effects of JROTC Programs: Negative Evidence," University of Cincinnati, unpublished paper presented at the second annual International Education Conference (1994), 1.

(20) These incidents were compiled by the Central Committee for Conscientious Objectors (CCCO) Western Region located at 655 Sutter Street, San Francisco, CA 94102.

(21) Megan Tench, "On the Defensive JROTC Says it Teaches Discipline, Critics Say Violence," Boston Globe (April 13, 2001), Bl.

(22) Sharon R. Cohaney, "Employment and Unemployment Among Vietnam Era Veterans," Monthly Labor Review 113, no. 4 (1990): 22-29.

(23) Stephen L. Magnum and David E. Ball, Military Service, Occupational Training, and Labor Market Outcomes (Columbus: Center for Human Resources Research of the Ohio State University, 1986).

(24) Judy Rohrer, "JROTC Expansion: The Defense Department's Plan for the Public Education," Z Magazine (June 1994): 36.

(25) Martin Binkin and Mark Eitelberg, Blacks and the Military (Washington, D.C.:Brookings Institution, 1982), 170.

(26) Martin Luther King, Jr., "A Trumpet of Conscience" in A Testament of Hope: The Essential Writings of Martin Luther King jr., edited by Melvin J. Washington (San Francisco: Harper and Row Publishers, 1986), 635.

(27) Martin Binkin and Mark Eitelberg, Blacks and the Military (Washington, D.C.: Brookings Institution, 1982), 76.

(28) Martin Luther King, Jr., A Testament of Hope: The Essential 'Writings of Martin Luther King Jr., edited by Melvin J. Washington (San Francisco: Harper and Row Publishers, 1986), 245.

(29) Marc Crawford, "Fighting Wars Abroad," Emerge Magazine (April 1991): 16.

(30) Gregory Jaynes, "Walking Wounded," Esquire Magazine (May 1994): 70-75.

الفصل التاسع
التربية من أجل الحرب فى إسرائيل
إعداد الأطفال لقبول الحرب كمكون طبيعى فى الحياة

هاجث جور(*)

بعد اتفاقات أوسلو اجتاحت المدارس الإسرائيلية موجة من مبادرات التربية من أجل السلام أو التربية على السلام. وأعلنت وزارة التعليم السلام باعتباره الموضوع الرئيسى فى المدارس عام ١٩٩٤، واعْتُبِرت كل المدارس ملزمة بمعالجة هذا الموضوع بطرق متنوعة. وكان باستطاعة أى زائر للمدارس فى هذا العام أن يشاهد

(*) هاجث جور Haggith Gor رئيسة مركز التربية النقدية بكلية التربية فى كيبوتزيم Kibbutzim. ألفت جور مناهج مختلفة للتربية من أجل السلام وحقوق الإنسان والمساواة بين الجنسين. تعمل أيضًا مستشارًا أكاديميًا للعديد من المشروعات التربوية فى مجال العدالة الاجتماعية.

(**) تجدر الإشارة إلى أن المترجم قام منذ سنوات بترجمة فيلم تسجيلى طويل حول التربية على الحرب فى إسرائيل من إعداد أحد أنصار السلام الإسرائيليين، وعرضه فى سمنار موسع فى المركز القومى للبحوث التربوية والتنمية. يبرز هذا الفيلم كيف يغرس نظام التعليم الإسرائيلى فى نفوس الأطفال بداية من مرحلة ما قبل المدرسة كراهية العرب والفلسطينيين ويصفهم بالأوغاد والخونة ومحبى الدماء، وكيف تُصَوَّر حروب إسرائيل كلها على أنها حروب دفاعية لصد عدوان العرب الناشئ عن نزوع فطرى فيهم نحو الدم والقتل. فالرسالة الرئيسية للتربية الإسرائيلية عبر كافة المؤسسات المربية، كما يقرر الفيلم، هى أن البقاء يعتمد فى المقام الأول على القوة والحرب والاستعداد الدائم للحرب. ويعرض الفيلم مشاهد لعمليات القولبة وغسل الأدمغة التى يتعرض لها الأطفال الإسرائيليين منذ سنوات حياتهم المبكرة من خلال طقوس منتظمة مثل الأعياد الوطنية والدينية وزيارة المعالم العسكرية ونصب الجنود المجهولين وإحياء ذكرى الحروب التى خاضتها إسرائيل. وفى هذه الطقوس يأخذ المعلمون فى ترديد عبارات تمجد القوة والحرب وتحض على كراهية العرب، بينما يردد الأطفال الأبرياء ورائهم هذه العبارات الشوفينية، فى مشهد ربما لم يحدث فى أعتى النظم الفاشية على مر التاريخ [المترجم].

حمامات بيضاء وأغصان زيتون مصنوعة من الورق المقوى وقصائد للأطفال تزين الجدران. وقد أطلقنا على هذا العام بطريقة ساخرة "عام الحمامة". بينما عالجت معظم المدارس موضوع السلام بشكل سطحى مقدمة إياه كحلم يوطوبى نسعى جميعًا من أجله، ولكن فى نفس الوقت بمعزل عن قضايا الصراع الواقعية، ومع تجاهل الثقافة الفلسطينية واللغة وحقوق الإنسان والتنوع الإنسانى والعدالة الاجتماعية. ومعالجة موضوع السلام بهذه الطريقة لم يغير أى من الاتجاهات الأساسية فى نظامنا التعليمى(١).

وبعد اغتيال إسحاق رابين عام ١٩٩٥، تمثل رد فعل المدارس فى تصميم ركن تذكارى فى كل فصل لرابين، وإقامة ذكراه فى الرابع من فبراير. ومعظم الفضاء المادى المكرس لذكرى رابين، بما فى ذلك محتوى الطقوس التذكارية، كان يشدد على تاريخه العسكرى البطولى. بينما تم تهميش الخطوات التى قطعها على طريق السلام، والتى كانت محل خلاف وجدل داخل المجتمع الإسرائيلى، وكانت من الأسباب المزعومة لاغتياله، ونُحّيت جانبًا فى إحياء ذكرى رابين كزعيم. وبذلك تم تضمين أسطورة الرجل فى التربية العسكرية التى تميز نظامنا التعليمى، بدل أن تكون حافزًا للتربية من أجل السلام.

قد يكون من التضليل أن نناقش التربية من أجل السلام فى إسرائيل دون أن نفهم البنية السياسية – الاجتماعية التى تمثل الأساس العميق للتربية المعسكرة، تلك البنية المدمجة بمهارة فى البنية التحتية لمدارسنا، التى لهذا السبب يصعب ملاحظتها على غالبية المواطنين. وعلى ذلك فإننى أعتقد أن فهم العمود الفقرى السياسى – الاجتماعى للتعليم الإسرائيلى، الذى يعد فى جوهره تعليمًا من أجل الحرب، ضرورى للغاية لكى نكون قادرين على إحداث التغيير والتحويل على مستوى الجذور. وأية محاولة لتطبيق التربية من أجل السلام دون ذلك ستسير فى الاتجاه المعاكس، تمامًا كما أصبحت ذكرى رابين عبادة وإعجاب بأعماله وأسطورته العسكرية.

إننا فى حاجة إلى تحسين قدرتنا على التعرف على التربية العسكرية القائمة اليوم وفهمها. إن التربية العسكرية تبنى تفكيرًا واستعدادًا وجدانيًا لتقبل استخدام القوة كإجابة على المشكلات السياسية[٢]. وهذه التربية تعلم الفرد ألا يفكر فى تأثيرات الحرب على حياته الشخصية، وأن ينظر إليها باعتبارها مسارًا طبيعيًا وعاديًا، بل وحتى صحيًا للحياة. ودون تحليل نقدى للتربية من أجل الحرب التى تهمين على نظام التعليم الإسرائيلى، سيكون من غير الوارد إحداث تغيير كبير.

وأنا أرى أن هناك ارتباط بين التربية من أجل الحرب ونفسية القوة والعجز التى تحكم حياتنا. ففى إسرائيل يتم إعداد الأطفال نفسيًا للحرب عبر عدة طرق. والرسالة التى تُنْقَل من خلال تدريس الأعياد والأدب والتاريخ والتوراة، وحتى من خلال الطقوس فى المدارس، هى أن القوة تمثل الخيار الوحيد الذى يضمن الحياة. فالذى يتعرض للتهديد هو بقاؤنا المادى، إنها مسالة البقاء للأقوى. فليس ثمة بديل آخر: عليك أن تكون قويًا وجاهزًا للحرب. وتلك الرسالة تؤيد وتقوى عقلية الضحية لدينا. والحرب عادلة لأننا جُرِرنا إليها، ولأننا ضحاياها، تمامًا كما كنا ضحايا المحرقة[٣].

فنتيجة لصدمتنا الجماعية، يقوم نظامنا التعليمى بإعداد الأطفال للحرب، وإن كان بشكل غير شعورى وغير متعمد. فالرسالة التى يرسلها، والتى تعززها فى الغالب التربية فى البيت، تقدم مبررات عقلانية ووجدانية للحرب. فهى تعد البنين للتضحية الشخصية، ومن أجل المجموع تعد البنات لخدمة البنين -الجنود- وإنجاب أطفال وإرسالهم إلى الجيش. وذلك يرتبط بقوة بالتشوش الذى نعانى منه نحن اليهود، فى ظل المحرقة، بين القوة power والعجز powerlessness.

وتعليمى أنا نفسى يضرب المثل للطريقة التى يقوم من خلالها التعليم فى إسرائيل ببناء ثقافة تقبل الحلول العسكرية للقضايا السياسة. فقد ولدت وكبرت فى هذه الثقافة وكنت أقبلها حتى بواكير مرحلة البلوغ. هاجر أبى عام ١٩٣٦ إلى ما كان يُعْرَف آنذاك بفلسطين، عندما كانت لا تزال تحت الحكم البريطانى. وكانت أسرته التى تنتمى إلى الطبقة الوسطى النمساوية تمتلك إدراكًا واضحًا وواقعيًا للظهور المستقبلى

للفاشية فى ألمانيا، فقررت الأسرة أن تأخذ عقيدتها الصهيونية وتهاجر من النمسا. ولدى وصوله إلى هنا تطوع أبى فى قوة الشرطة البريطانية المحلية كغيره من الشباب اليهود للحصول على تدريب شبه عسكرى. وفيما بعد تطوع فى اللواء اليهودى بالجيش البريطانى الذى تم نشره لقتال القوات الألمانية فى شمال إيطاليا. ثم أخذته المرحلة التالية من عمله العسكرى إلى الهجانة - التنظيم اليهودى السرى النشط قبل تأسيس الدولة اليهودية - ثم إلى البالماخ: أبرز الوحدات المقاتلة فى الهجانة. وبعد أن تأسست دولة إسرائيل وقوة الدفاع الإسرائيلية عمل والدى فى الأخيرة برتبة مقدم. وقد كبرتُ على قصصه البطولية، لدرجة أننى وأنا بنت صغيرة كنت أشعر بالخيانة لأننى لم أولد ذكر، ولأننى حُرِمت من "المعارك الباسلة". ثم جاء نمو وعيى النقدى وإدراكى للعسكرة العميقة للتعليم الإسرائيلى كعملية بطيئة ومؤلمة تقتطع أجزاءً أصيلة من نفسى.

إن الرسالة التى وصلتنى فى البيت من أبى، والمتمثلة فى إدراك أهمية القوة العسكرية، هى نفسها التى تُنْقَل فى مستوى رياض الأطفال فى نظام التعليم الإسرائيلى. ففى هذا التعليم تنتشر رسائل معرفية ووجدانية من نوع "يجب أن نكون أقوياء ومتحدين لأنه فى غياب الوحدة نتعرض لخطر الإبادة". كما تنتشر الفكرة الضمنية أنه ليس هناك إلا الضحايا ("العالم بأكمله ضدنا"، "لقد خرج الجميع ليدمروننا") والأبطال، ويتم التعامل معها على أنها حقيقة "طبيعية" معطاة. وبذلك تعمل ممارسة القوة كاستجابة ملائمة للشعور بالعجز وانعدام القوة. وهنا يصبح الخيار العسكرى الإجابة المنطقية على المشكلات. بينما لا تُقَدم مراعاة حقوق الإنسان كإجابة ممكنة للاضطهاد الذى عانى منه اليهود. فنظامنا التعليمى لا يقدم موقفًا وسطًا، فلا يقدم إلا حلول الأسود والأبيض للمنتصر والمهزوم. وهو يصور نزاع اليهود مع العرب كلعبة صفرية يكون الخير الذى يعود على أحد الطرفين فيها بالضرورة شر للطرف الآخر(٤).

إن تدريس الأعياد اليهودية، وهى بؤرة مركزية بداية من مستوى ما قبل المدرسة، يدور حول أساطير البطولة ويثير فى الأطفال مشاعر قوية. فالحانوكة Hanukkah، أى مهرجان الأضواء، على سبيل المثال، يحيى ذكرى ثورة اليهود ضد الحكم اليونانى عام ١٦٧ قبل الميلاد. اندلعت هذه الانتفاضة بعد عقود من السيطرة اليونانية، رداً على فرض الديانة الهيلينية على اليهود. وهنا يتعلم أطفال رياض الأطفال أن اليونانيين اضطهدونا، ولم يقهرهم إلا أسرة ماكابى اليهودية الباسلة. والتركيز هنا ينصب على التوحد القوى مع قوة أسرة ماكابى التى هزمت اليونانيين الأشرار. وإلى جانب ذلك يتمحور قدر كبير من اللعب الدرامى فى مراكز رياض الأطفال حول أبناء أسرة ماكابى الذى ثاروا وكانوا مقاتلين شجعان. وهنا يُعْطَى للأولاد أدوار المحاربين الباسلين، بينما يقتصر دور البنات على صنع فطائر البطاطس ودعمهم. أما أدوارهن كأمهات مضحيات تتحملن ألمهن البطولى بشجاعة فتنقل إليهن من خلال قصة "حنا والأبناء السبعة". (وفقًا للأسطورة شاهدت حنا أبنائها وهم يُعْدَمون أمامها واحداً بعد الآخر وهى ترفض أن تنحنى لتمثال لتنقذ حياتهم). وبدلاً من أن تشدد هذه القصة على الرسالة العمومية حول حرية العقيدة، ينصب التركيز على أهمية القومية اليهودية والقوة وقوة أسرة ماكابى.

يحيى عيد البوريم Purim، عيد الأزياء والملابس فى جو كرنفالى، ذكرى القصة التوراتية التى وقعت فى بلاد فارس القديمة. تقول هذه القصة أن الملك أشاسفيروش، بتأثير من أحد مستشاريه، أمر بتدمير اليهود. ومن المهم هنا أن نلاحظ أن كل من الأفكار القومية والمفاهيم الشوفينية تُنْقَل معًا بإعطاء البنات والنساء موقعهن التابع التقليدى فى المجتمع. لقد طُرِدت فاشتى الملكة الجميلة الأولى لأشاسفيروش من القصر لأنها تجاسرت وقالت "لا" لملكها. والرسالة التى تتلقاها البنات عبر القصة قوية وواضحة: "كونى مطيعة لمليكِ وإلا ستُطرَدين من القصر، ودون ملك تخدميه لن تكون حياتكِ جديرة". وتقول القصة أيضًا أن إستر الملكة الجميلة المختارة بعد طرد فاشتى أنقذت شعبها (اليهود) باستخدام الجنس للتأثير على الملك أشاسفيروش. فحماية

الجماعة اليهودية تبرر أى فعل، حتى ذلك الذى يمر عبر مخدع الملك. فكما ذكرتُ تسير القومية والشوفينية جنبًا إلى جنب(٥).

وفى عيد البوريم يتم التأكيد على اضطهاد اليهود ("الأخيار") من جانب هامان ورجاله ("الأشرار"). وفى نظامنا التعليمى لا يُنْقَل من هذه القصة الرسالة العمومية المتمثلة فى رفض الحكومات المطلقة أو رفض التمييز ضد الأقليات العرقية. وفى يوم الاستقلال يتعلم الأطفال أن العرب كانوا يريدون أن يرمونا فى البحر، وأن جيوش كل الدول العربية السبعة التى تحيط بنا قامت بغزو إسرائيل. ويتم الاحتفال بهذا اليوم فى رياض الأطفال كعيد عسكرى، حيث يزور الأطفال معسكرات الجيش ويعرض المعلمون أعلام الأفرع العسكرية المختلفة. ويسمع الأطفال حكايات بطولية عن حرب التحرير ويرسلون هدايا إلى جنودنا. وبدلاً من الاحتفال بتأسيس دولة ديمقراطية تقدس -كما فى إعلان استقلالها- الحقوق المتساوية بصرف النظر عن العرق أو الجنس أو الدين، ينحنى الأطفال للقوة. ويتعلم الأولاد أن يحترموا الجنود ويتوحدوا معهم، ويُشَجَّعون على تنمية تخيلات يمثلوا فيها أدوار قادة طائرات مقاتلة أو دبابات أو غواصات. وتُشجَّع البنات على أن يرسلن الحلوى إلى الجبهة، وينتظرن عودة جنودهن الأبطال من الجيش. ويُنْتَظر منهن أيضًا أن يقدمن دعمًا غير مشروط(٦).

وفى بعض دور رياض الأطفال يكون موضوع الاحتفال هو الإعجاب بالجيش: "يستعرض المعلم الأطفال وهم يرتدون ملابس تشبه ملابس جيش الدفاع، ويسيرون ذهابًا وإيابًا فى طوابير، ويصيحون "شمال يمين شمال" و"انتباه" و"استرح". يصاحب الاستعراض العسكرى أطفال يغنون بأعلى أصواتهم: "يا جنود إسرائيل تقدموا وظلوا على أهبة الاستعداد ليل نهار". وفى روضة أطفال أخرى فى بلدة صغيرة بالقرب من تل أبيب كانت حفلة التخرج تتضمن تمزيق أهدافًا بسيوف]لعبة.[وهنا أيضًا أخذ الأطفال يرددون نصوصًا محفوظة يتغنون فيها بأن يكونوا مقاتلين فى خدمة دولة إسرائيل(٧).

إن التأثير الوجداني في عمر مبكر جداً قبل نمو الملكات النقدية يجعل من المستبعد جداً في عمر لاحق أن يبدى الأطفال أية شكوك، أو يسألوا أية أسئلة، أو يعيدوا فحص ما بُذِر فيهم وهم صغار. وقائمة المفاهيم غير الممحصة التي تُنْقَش في عقول الأطفال من عمر مبكر بسيطة وواضحة: الإعجاب بالجيش وقوته والازدواجية التبسيطية والنظر إلى الواقع القومي لطائفة العرب بوصفهم أعداء وتخصيص أدوار الأولاد كجنود أبطال والبنات كأمهات/زوجات صابرات متقبلات يتفانين في الحب والإخلاص.

وفي الصفوف الأعلى يُدَرَّس التاريخ القومي من منظور صهيوني - يهودي. وهذه المدرسة الفكرية تعتبر معاداة السامية العنصر الرئيسي الذي يربط إسرائيل بالأمم الأخرى. فرؤيتنا للتاريخ تقوم على ألفين سنة من معاداة السامية تآمر علينا خلالها مضطهِدون مختلفون. وتضاف "حقائق" عقلانية في دروس التاريخ إلى المعرفة الوجدانية الخبراتية التي تكونت في أعمار أصغر. فالتاريخ عبارة عن متصل من المؤامرات ضد اليهود في الدول المختلفة نتيجة لمعاداة السامية، مثل طرد اليهود من أسبانيا في العصور الوسطى وأعمال الشغب في تشمليننتيزكي Chemelnitzky وما إليها[٨]. وهناك أيضاً قصة ماسادا Massada التي قام فيها متحمسون يهود كانوا يتحصنون على جبل ماسادا بذبح زوجاتهم وأطفالهم ثم قتلوا أنفسهم لكي لا يقعوا في أيدي الرومان. وقد أصبحت هذه القصة أسطورة حول الثبات البطولي أمام العدو ورمزاً للقوة والبطولة. وتأكيد أن "ماسادا لن تقع ثانية" اتخذ مغزى إضافي في علاقته بتأسيس دولة إسرائيل وانتصاراتها في الحروب ضد العرب: الكبرياء والاستقلال يساوي أكثر من الحياة ذاتها.

وبشكل ثابت، من خلال دراسة التاريخ، يتم تعريفنا من الخارج، بالطريقة التي ينظر بها الآخرون إلينا (معاداة السامية)، وليس من الداخل، من خلال تصوراتنا وقيمنا الخاصة. ومع أن السردية التاريخية المتعلمة ربما يكون لها معنى في أوقات سابقة، فإن تجاهل السرديات الأخرى في أيامنا لا يخدم في فهم الآخر والاقتراب من

السلام. فنظام التعليم الإسرائيلى يقدم النزاع العربى الإسرائيلى كحرب فُرِضَت علينا بسبب الرفض العربى للسلام. أما المنظورات الأخرى والتفسيرات التى تتضمن مصالح ووجهات نظر معقدة فلا تجد طريقها إلى مدارسنا.

من الواضح أن الرسالة التى يتم تشربها منذ الصغر رسالة خصوصية وليست عمومية: أن اليهود يواجهون أعداءً، ولا توجد أية إمكانية لتقليل الاضطهاد. ويتم سرد الأحداث من منظور ما حدث لليهود كيهود، وليس اليهود كأقلية. فنحن نعتنق القوة وليس النزعة الإنسانية، والوجدانى وليس العقلانى. وتفتقر الرسائل إلى النقد الذاتى وإعادة النظر، وهى تُفْهَم من منظور واحد فقط، منظور تاريخى يجب أن يتقبله الطلاب باعتباره حقيقة مطلقة، بما لا يترك مجالاً لخطوط فكرية أخرى.

لقد مر منهج التاريخ وكتبه الدراسية فى المدرسة الثانوية بتغييرات كبيرة منذ عام ١٩٧٥. فقد أعطى مزيداً من الاستقلال للمعلمين، بما فى ذلك تنويعات طرق التدريس- التعلم وإدراك أن الأهداف يجب أن تُحَدد وفقًا لبنية الفرع المعرفى. ومع ذلك فقد تم توظيف المحتوى من أجل السردية الصهيونية التى تحظى بالإجماع. فقد حافظ المنهج الجديد على الروح الصهيونية لليهودى الإسرائيلى الجديد، وبذلك ظل المنظور القديم دون أن يمسه تغيير. ورغم الاعتراف المعلن بضرورة التعددية، فلم يتم تضمين الآخر فى قصة الهيمنة[٩].

لقد أدت التغييرات فى الأكاديمية إلى نشر كتابين دراسيين جديدين فى التاريخ الحديث فى التسعينيات، أحدهما نشره قسم المناهج بوزارة التعليم، والآخر نشره دارس التاريخ إيال نيف Eyal Nave[١٠]. حاول هذان الكتابان أن يُضَمِنا المنظور الفلسطينى لحرب ١٩٤٨، وهما بذلك يهددان القصة الصحيحة الرسمية، وتعرضا نتيجة لذلك إلى نقد قاسى جداً تسبب فى "عاصفة سياسية". وصل النقاش العام الساخن إلى لجنة التعليم بالبرلمان، وأدى إلى تردد المدارس فى استخدام الكتابين. وعند توليها وزارة التعليم أمرت الوزيرة ليمور ليفنات Limor Livnat بمنع الكتاب الدراسى الجديد الذى أعده قسم المناهج بالوزارة وأمرت بتمزيقه[١١]. وهى بذلك

أوصلت رسالة واضحة إلى المدارس مؤداها أن أى انحراف عن القصة القومية المهيمنة لن يكون مقبولاً، وأن النسخة "الحقيقية الرسمية" للتاريخ يجب أن تُدَرَّس دون استثناءات[١٢].

وبذلك فشلت محاولة تقديم بعض من النقد الذى يطرحه المؤرخون الجدد وجهود تنمية عقل متسائل لدى المتعلمين الصغار. فإمكانية النظر، على سبيل المثال، إلى الحركة الصهيونية فى سياق الخلفية الاستعمارية الأوروبية التى بدأت فى إطارها، تُحْجَب باعتبارها غير شرعية فى المناخ السياسى لعام ٢٠٠٠, وقدرة الأكاديمية الإسرائيلية على التناول النقدى للاستشراق[١٣] الذى ميز الحركة الصهيونية لا يُسْمَح بتدريسها لطلاب المدرسة الثانوية.

وتلعب المحرقة دوراً مركزيًا فى متصل الأحداث، وتوفر أدلة على دور اليهود باعتبارهم ضحايا تاريخ معاداة السامية[١٤]. وترمز المحرقة إلى خلاصة الشعور اليهودى بالعجز وانعدام القوة، حيث خلقت أسطورة اليهود "الذين اقتيدوا إلى الذبح كالخراف". يوفر تدريس المحرقة برهانًا حاسمًا أيضًا على أطروحة القوة: لقد عانينا من كل ذلك لأنه لم تكن لنا دولة. إنها أسطورة الضعف وانعدام القوة فى مقابل أسطورة القوة، أى "لقد اقتيدوا إلى الذبح كالخراف" فى مقابل "إذا تأسست دولة إسرائيل فسوف يختلف كل شىء". وفى العقلية التى تُكتسب نتيجة لهذه التربية، يُفَضَل أن تكون جلاداً على أن تكون ضحية: "لن نكون ضحايا مرة أخرى"، كما غرسوا فى رأسى بقوة وأنا طفلة. لقد عاشت أمى فترة المراهقة تحت الحكم النازى فى أثناء الحرب العالمية الثانية. كانت أمها ممن نجوا من معسكر الحشد فى أوسشويتز Auschwitz، بينما كانت أمى نفسها هاربة تنتقل من مخبأ إلى آخر طوال فترة الحرب. وقد تربيتُ على الاستماع إلى مناظرة متكررة بين أمى وأبى. كان أبى ينتقد اليهود الذين أخفقوا فى الثورة ضد النازيين، وكان يكرر القول الشائع "لقد اقتيدوا إلى الذبح كالخراف"، بينما كانت أمى تصر على أن رأيه كان حكمًا جاهلاً متغطرسًا. وقد كان رأى أبى يؤذيها ويدفعها حتى إلى الصراخ والبكاء. لقد كان أبى

فى الحقيقة يعبر عن اعتقاد بأن التنظيم والتحول إلى جيش كان الحل لعجز اليهود. وهذا الاعتقاد يقع فى صميم العسكرة الواسعة للتعليم فى إسرائيل. وأنا كطفلة كنت أعانى من الانقسام، فأنا عقليًا كنت مع أبى وجدانيًا مع أمى. ومن الدعائم القوية التى يقوم عليها النظام الأبوى المصداقية الأعلى التى تُضْفَى على التفكير العقلانى (الذكور كما هو مفترض) والتقليل من شأن العواطف.

إن الاقتناع بأن البقاء المادى مهدد يعمل كتبرير لكل شيء يفعله جيشنا. فرغم أن هتلر لم ينجح فى إبادة الشعب اليهودى ماديًا، فقد ربح بالفعل بأن غرس فينا الخوف الدائم من الدمار المادى وشربنا نفسية البقاء، التى تتمحور حول الجوانب المادية لذلك البقاء أكثر منها حول طبيعته ونوعيته. ففى ظل المحرقة يجد الشعب اليهودى صعوبة فى قطع الطريق بين القوة وانعدام القوة، أو كما عبر عن ذلك وزير الخارجية الإسرائيلى السابق آبا إبان Abba Eban بطريقة ذكية "أن نميز بين نفسية الضعف وواقع القوة لدينا". فصدمة انعدام القوة الشامل الذى عايشناه كأفراد وكشعب دفعتنا إلى قلق متصاعد حول فقدان السيطرة، وهى مشاعر يقويها نظامنا التعليمى.

ففى أثناء المحرقة كنا نحن المقهورين. ولن نسمح لذلك بأن يحدث مرة ثانية. فوجود خيارات أخرى غير الضحايا والجناة ليس جزءًا من عقليتنا. فإمكانية أن تكون هناك طرق أخرى لحماية أنفسنا (مثل السلام) لا توجد فى وعينا، وبالتالى لا تظهر فى مناهجنا. فبالنسبة لمعظم اليهود تعد دولة إسرائيل الإجابة الوحيدة للمحرقة. وأصبح العرب، عن قصد أو غير قصد، بدائل ترمز إلى القوى التى خرجت لتدمرنا (فضلاً عن النازيين)[١٥]. وبذلك يصبح مبرر قتالهم واضحًا. وتاريخ حروبنا مع العرب يُدَرَّس بهذه الطريقة. فتأريخنا للأحداث، الذى يبدأ من عام ١٩٤٥، يُدَرَّس كتاريخ عسكرى[١٦]، حيث تُعَدد الحروب وتُوجَد تبريرات لها. أما الجوانب الأخرى للتاريخ، مثل الجوانب الاجتماعية أو الاقتصادية أو الثقافية، فلا يتم تناولها. والفكرة المركزية

واضحة وتبلغ حد التبسيط المخل: اليهود يجب أن يدافعوا بنجاح عن أنفسهم ضد المعتدين العرب.

إن التاريخ الذى يُقَدم من هذا المنظور يخدم فى تبرير الحرب وإعداد الأولاد، عقليًا ووجدانيًا، "للموت من أجل دولتنا". والبنات لدعمهم فى هذا العمل. هناك، إذن، توحد وجدانى مع الحاجة إلى الحرب، فعلى كل "لا يوجد أمامنا بديل آخر". وبعد سنوات من التعلم من التاريخ أن الحروب وحدها يمكن أن تجنبنا الموت، لا تُقَدم فكرة أن حربًا معينة قد لا تكون ضرورية، أو أن هناك طريقة أخرى لحل النزاع، كخيار المناقشة مثلاً. فالهوية الجماعية للجيل الأول والثانى والثالث من الناجين من المحرقة[١٧] تجعل من الصعب على الكثيرين منا أن يميزوا بين مشاعر الضحية التى انبثقت عن المحرقة والمشاعر التى تنبثق عن واقعنا الحالى.

من أمثلة ذلك، فى المواجهات اليهودية العربية، أن عرب إسرائيل يتحدثون عن المعاناة التى مروا بها نتيجة للنزاع، بينما يتحدث اليهود عن المحرقة. فاليهود فى حاجة لأن يُظْهِروا أن تضحياتهم ومعاناتهم كانت أكبر[١٨]. وفى موقف لا يتم فيه التمييز بين حالة معاناتنا الماضية وواقعنا الحالى، يأخذ كل عمل إرهابى أو حرب معنى المؤامرات ضد اليهود لكونهم يهوداً. والنتيجة المنطقية لذلك هي: إن الكفاح ضد العدو هو كفاح حتى الموت، وهو ما يبرر أى عمل، بغض النظر عن ثمنه: فرض حظر التجوال على شعب كامل أو انتهاك حقوق الإنسان أو الرأى العام المعادى.

إن قلقنا على البقاء المادى له جذوره فى الواقع. فقد مرت فترات فى التاريخ كان بقاؤنا المادى فيها معرضًا للخطر، كأفراد وكشعب. وكثير من استجاباتنا للواقع الحالى تنبع من قضايا عالقة من الماضى. فالمشاعر الشديدة التى أثارتها المحرقة، حتى وإن كانت مكبوتة، لا تزال تجرى فى العمق من عقليتنا وتفكيرنا[١٩].

لقد مرت سنوات كثيرة على تعرض بقائنا المادى للخطر. لكننا مع ذلك لم نكيف منظوراً نعلم أطفالنا من خلاله وفقًا لهذا الواقع المتغير. فتأسيس دولة إسرائيل نفسه

يقوم على مقولة العجز وانعدام القوة. ونظامنا التعليمى يحاول أن يُخَرِج إسرائيليين ليسوا عاجزين أو معدومى القوة كجماعة، إسرائيليون لن "يُقْتَادوا إلى الذبح كالخراف". فهو نظام تعليمى لا يعلم الصغار حول الأدوات التى تحتاجها الأمم من أجل البقاء فى عالم اليوم. والخوف من الإبادة المادية يجرى عميقًا، وفى حالات كثيرة يكون أصيلاً، لكنه مع ذلك يأتى أصلاً من واقع داخلى. وفى الوقت الحالى يخدم هذا الخوف كآلية سيطرة فى نظام التعليم. وبهذه الطريقة يدخل نظام التعليم فى حالة من فرض التكرار غير المتمايز، حيث نرمى بأطفالنا فى دائرة مفرغة من النبوءات العسكرية التى تحقق ذاتها.

إن من الصعب علينا أن نتخلص من تصورنا لأنفسنا كضحايا، ذلك التصور الذى يطبع بعمق نفسية الجيل الثانى من الناجين من المحرقة فى إسرائيل. وهو يخدم فى تبرير وإقناع الناس وجدانيًا بمواصلة القتال. فالجنود اليهود لا يحاربون فقط من أجل أنفسهم هنا والآن، وإنما يحاربون أيضًا من أجل اليهود الذين أبيدوا فى معسكرات الاعتقال الذين لم يعد بمقدورهم أن يحاربوا عن أنفسهم.

تُنْقَل هذه الرسائل فى التعليم حول المحرقة بطريقة تترك انطباعًا وجدانيًا عميقًا. ولذلك فإننا فى حاجة إلى استبطان نقدى يسمح لنا بالتمييز بين نفسية الضعف الناتجة عن صدمة المحرقة والواقع القائم الآن.

وطريقة تناول المحرقة تساعد فى إخفاء فهم المصالح العالمية التى تلعب دوراً رئيسيًا فى النزاع الفلسطينى الإسرائيلى، ومنها مصالح صناع السلاح على سبيل المثال. فإسرائيل حقل اختبار نشط وحيوى للأسلحة الجديدة. فنحن نعمل كفئران تجارب لصناعات السلاح الأمريكية والأوروبية. ومن خلال تأكيد فهم أن الحروب مع الفلسطينيين حتمية تضمن صناعات السلاح العالمية أن الشباب الإسرائيلى لن يتساءل حول مصالحه قبل أن يجندوا بالجيش ويعرضوا حياتهم للخطر.

إن التربية فى كل من البيت والمدرسة تساعد دون دراية فى خلق عقلية تسهل التضحية بالابن أو الشريك، وهى عقلية تجد دعمًا من الضغوط الاجتماعية. فاليهود

الذين يُجْبَرون على إرسال أطفالهم إلى الجيش ربما يدفعون ثمنًا باهظًا جدًا: حياة أبنائهم. وهذه التضحية تثير ذكريات المحرقة المؤلمة وذكريات الضياع المرعبة. ولذلك فإننا نحتاج إلى رؤية منظمة للعالم تقوم على اعتقاد راسخ بعدالة أفعالنا. وإلا فكيف يمكن أن نبرر التضحيات الهائلة المتضمنة؟ فالمبررات بالضرورة يجب أن تكون أقوى من الحاجة الفطرية لأن نحمي أطفالنا. كما نحتاج في ذلك إلى إستراتيجية محكمة الصياغة، إستراتيجية تُطَبق على الأطفال الصغار جدًا لكي تصل إلى مستوى الضرورة اللاشعورية للتضحية التي يجب أن نقوم بها. وهذا النظام يُبْنَى خلال سنوات تمدرس الأطفال ويغطي جوانب شخصيتهم المعرفية والوجدانية والحركية. ويستخدم هذا النظام الضغوط الاجتماعية من كل من جماعة الرفاق وعالم البالغين.

ثمة تعاضد بين البيت والمدرسة في هذا الجهد. ويستخدم نظام التعليم وسائل واتجاهات متنوعة: التاريخ والرحلات والأعياد والعطلات والتوراة والأدب. وهو يعمل وفقًا لكل القواعد التربوية الفعالة. وفي هذا النظام يُحظَر التساؤل، ذلك لأن أي مدخل نقدي وإثارة للشكوك يمكن أن تقوض النظام ككل. لكن مثل هذا المدخل لا يُسْمَح له بالعبور من أبواب المدارس.

إن التاريخ الذي يتم تعلمه في نظام كهذا يقوم في الأساس على الحقائق المطلقة: كتاب مغلق لا مجال فيه للنقد أو الشكوك. وهو لا يدعو إلى تساؤلات من نوع مَنْ الذين كتبوا هذا التاريخ؟ أو ما هي مصالح الذين يقدموه؟ أو هل ثمة تواريخ وسرديات أخرى؟ إن الأطفال في إسرائيل يتعلمون رؤية تبسيطية للواقع، رؤية لا ترى إلا الأسود والأبيض، والعادل والظالم، والصواب والخطأ. وهي رؤية تقوي الحاجة إلى الحرب. فغياب السلام هنا يعني الحرب بالضرورة. فليس ثمة موقف وسط.

ومع ذلك فإن قدرة إسرائيل على فهم حدود القوة هي المفتاح إلى تغيير الرسالة التي تؤيد الحرب والقوة القومية التي ينقلها نظام التعليم.

عندما أعلن رئيس الوزراء رابين أن السلام ممكن مع العدو، وأن منظمة التحرير الفلسطينية هي الشريك الفلسطيني الوحيد الذي يمكن أن نصنع سلامًا معه، كان نشطاء تعليم حقوق الإنسان يسخرون من أنه أخذ هذه العبارة من دليل المعلمين للتربية من أجل السلام. ومع ذلك فإن التعليم لم يصبح موضوعًا للتفاوض من جانب أية جماعة تناقش اتفاقية السلام. فبين الجماعات المختلفة التي تتفاوض حول الجوانب المختلفة للسلام، لا يوجد فريق للتعليم لإدخال التغييرات الضرورية في نفسية التربية على الحرب. إن مصافحة رئيس الوزراء رابين مع قائد منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات خلقت للمرة الأولى بديلاً للرؤية المزدوجة التي لا ترى إلا فائزين وخاسرين. فقد أتاحت تلك المصافحة خيارًا لم يكن موجودًا قبل ذلك في مخزوننا النفسي. وثمة ما يثير الخوف والقلق، حتى بين اليسار في إسرائيل، أولئك الذين يناضلون منذ عقود من أجل السلام. فالرصاصة التي قتلت رابين اسْتُلت من نفس الترسانة التربوية التي تقوم على نفسية الضحية.

وبعد أكثر من عشر سنوات عادت غالبية الجمهور في إسرائيل إلى قناعة بأننا لا نجد شركاء للسلام، وأننا فعلنا كل ما في وسعنا للوصول إلى السلام، وأن الفلسطينيين ظلوا يرفضون جهودنا الأصيلة والمخلصة. وبعد أكثر من عشر سنوات لم يجد رئيس وزراء إسرائيل أريل شارون، مثل سلفه إيهود باراك، (كلاهما جنرالان سابقان) صعوبة في إقناع الجمهور الإسرائيلي بأن إرهاب الدولة الذي يمارسه الجيش الإسرائيلي بحق الفلسطينيين في الأراضي المحتلة يمثل حربًا دفاعية حتمية، وأن الهجمات الإرهابية الفلسطينية على المدنيين جزء من خطتهم لإبادة دولة إسرائيل. فغالبية الإسرائيليين تربوا وتعلموا على أن هذا التفسير التاريخي هو السردية الوحيدة. والافتراق عن هذه السردية، وفحص سرديات أخرى ممكنة، يعني تحدي التربية العسكرية التي تحظى بإجماع واسع(٢٠).

بعد ١١ سبتمبر شعر إسرائيليون كثيرون بأن "الأمريكيين سيفهموننا أفضل الآن، سيفهمون معنى أن تعيش في ظل الإرهاب، وسيعرفون أن القوة العسكرية التي

تُمارَس على الفلسطينيين المدنيين فى الضفة الغربية وغزة هى حرب "حتمية" مع عدو لا يفهم إلا لغة القوة". فالدرس المتعلم من المحرقة والدرس المتعلم من التفجيرات الانتحارية والهجمات الإرهابية هو درس واحد، فوفقًا لهذه العقلية يجب أن نرد بالقوة ويجب أن نسحق العدو، بنفس الطريقة التى تُبَرر بها الهجمات الأمريكية على المدنيين الأفغان بأنها رد فعل على هجمات ١١ سبتمبر. فليس ثمة بديل آخر. وهذا الموقف القوى يطيح بكل المقاربات الأخرى.

الهوامش

(1) Vered Vinizky-Sarusi, "The Commemoration of a Violent Narrative: Rabin's Memorial Ceremonies in Schools," in Militarism and Education, edited by Haggith Gor (Tel Aviv: Babel, 2003).

(2) Peter Kraska and Victor Kappeler (1997) العسكرة هي نسق من المعتقدات والقيم يشدد على "استخدام الحرب والهيمنة باعتبارها الوسيلة الملائمة لحل المشكلات والحصول على القوة السياسية. Militarizing American Police: The Rise and Normalization of Paramilitary Units" Social Problems, February 1997, vol. 44, no. 1, 1-16.

(3) Avner Ben Amos, ed., History, Identity and Memory, Past Images in Israeli Education, School of Education, Israel Polack's unit for sociology of education and community, Tel Aviv University, 2002.

(4) Rela Mazali and Haggith Gor, "Man, Woman, War and Peace," Panim, Quarterly for Society, Culture and Education (Summer 2001).

(5) Haggith Gor, "Purim Scroll," Davar Aher 38 (March 1995).

(6) Haggith Gor and Rela Mazali, "Militarism in Israeli Education," Mifnae.

(7) Aviv Lavie, Up on the Jungle Gym, Charge! Ha'aretz (June 28, 2002).

(8) Ruth Firer, Agents of the Zionist Education (Tel Aviv: Hakibutz Hameuchad, 1985).

(9) Avner Ben Amos, "Impossible Pluralism," History of European Ideas 18, no. 1 (January 1994): 267-76.

(10) Eyal Nave, "The 20th Century," Tel Aviv: Sifre Tel Aviv, 1999; Dan Yakobi and Nava Dekel, eds. World of Changes, History for 9th Grade (Jerusalem: Ministry of Education).

(11) Rally, Sa'ar, "Livnat Decided to Ban the History Textbook: World of Changes" · Haartz, 13.3.2001.

(12) Eyal Nave, Ester Yogev, Histories: Toward a Dialogue with the Israeli Past (Tel Aviv: Babel, 2002).

(13) Edward Said, Orientalism (Tel Aviv: Am Oved, 2000).

(14) Keren Nili, "Influences of Public Opinion and Holocaust Research on Teaching of the Holocaust in High Schools and Informal Education in Israel between 1948-1981," Hebrew University, Jerusalem, 1985.

(15) Phillip Lopate, "A Distance from the Holocaust, Resistance to the Holocaust," Tikun (May-June 1989).

(16) Eli Podeh, The Israel-Arab Conflict in the History and Civic Textbooks, 1953-1995, 1997.

(17) Avner Ben Amos, ed., History, Identity and Memory, Past Images in Israeli Education, School of Education, Israel Polack's unit for Sociology of Education and community, Tel Aviv University, 2002.

(18) Haggith Got and Rela Mazali, "Reflections on Encounter Groups of Jews and Palestinians from Israel," Research Report to the Ford Foundation, April 1998.

(19) Refael Yoel, ed. Concealed Memory and Unconcealed Memory, Holocaust Conciseness (Tel Aviv: Ministry of Education, 1998).

(٢٠) لكى نحارب العسكرة يجب أن نقاوم التطبيع socialization وغسيل العقول فى ثقافتنا اللذان يعلمان القبول السلبى للعنف فى الحياة اليومية ومواجهة العنف بالعنف Feminism and Militarism: A Comment" in Women Studies Quarterly 23 (fall/winter 1995) 58-64.

الفصل العاشر

تأملات ما بعد كولمباين

حول عنف الشباب كحركة قومية وعابرة للحدود

جولى ويبر(*)

لقد رأينا بالفعل، فى أفغانستان وأماكن أخرى، أن عدم الاستقرار والصراع الداخلى فى الدول الضعيفة أحد العوامل التى تخلق بيئة مواتية للإرهاب. والأهم من ذلك أن الاتجاهات السكانية تعلمنا أن أفقر مناطق العالم وأبعدها عن الاستقرار السياسى، تلك التى تشمل أجزاءً من الشرق الأوسط وأفريقيا جنوب الصحراء، سوف تحتوى على أكبر نسبة من الشباب فى العالم على مدى العقدين القادمين وما بعدهما. ومعظم هذه الدول لن يكون فيها مؤسسات أو موارد اقتصادية تُمَكِن من الدمج الناجح لهؤلاء الشباب فى المجتمع.

"التهديد العالمى: المخاطر المتجمعة فى عالم ما ١١ سبتمبر"، شهادة مدير المخابرات المركزية جورج تينت أمام لجنة الاستخبارات بمجلس الشيوخ.

(*) هاجث جور "جولى ويبر Julie Webber أستاذة السياسة والحكم بجامعة ولاية إلينويز، تتمحور بحوثها حول التقاطعات بين السياسة والتربية، خاصة نظريات العنف فى التعليم. من مؤلفاتها: Failure to Hold: The Politics of School Violence (Rowman & Littlefield, 2003).

لقد اقتحم "حادث كولمباين" حاضرنا الجماعى فى ٢٠ أبريل ١٩٩٩، ومما زاد من تعقيد فى هذا الحادث، وعدم القدرة على فهمه، أن المؤلفَين اختارا يوم ميلاد أدولف هتلر ليُخْرِجوا غيظهم من طلاب مدرسة كولمباين الثانوية الكائنة بمدينة لتلتون Littleton فى كلورادو. وقد شَكّل هذا الحادث نقطة الذروة فى حوادث إطلاق النار بالمدارس، لدرجة أنه أخذ العنف المدرسى خارج الحدود المألوفة التى ظل بداخلها فى السابق. كما أن اختيار تاريخ تنفيذ الحادث وَحّد بينه وبين الفاشية. فى السنوات السابقة على حادث كولمباين عملت تفسيرات الخبراء، التى تحجب أكثر مما تكشف، على تحييد تأثيرات حوادث إطلاق النار السابقة. فمن خلال التركيز على موضوعات محددة طرحتها أساليب العنف، استغل هؤلاء الجوانب الظاهرة (أفلام العنف والمسدسات والاضطراب النفسى)، متجاهلين الدور الذى يمكن أن تلعبه المدرسة والمجتمع فى إثارة العنف. وقد تمكن الجمهور من احتواء القلق والهستريا بابتلاع هذه التفسيرات، واستطاع أن يباعد خبرات تلك الجماعات المريضة عن تلك الخبرات التى يمكن أن تحدث بالقرب من بيوتهم. وقد قدمت التفسيرات الإعلامية هذه الحوادث للمُشَاهِد باحتوائها داخل محددات/مُحْدِثات معينة لمؤشرات العنف المدرسى. وبعد كولمباين أصبحت المدرسة بؤرة التدخل,لكن عندما تحولت النظرة الناقدة إلى الداخل، لم تكن المدارس هى ما أُخْضِع للفحص، وإنما الطلاب أنفسهم.

وفيما بعد كولمباين ظل الجرح مفتوحاً بسبب طقوس الشهادة القصصية على طول البلاد وعرضها، ومن خلال حملات الذعر التى قادتها جماعات مكافحة الأسلحة، وقد كانت هذه الأشكال من التجديد الجماعى مقصورة فى المقام الأول على جماعات المصالح المحددة التى كانت ترعاها. وأوضح مثال على ذلك هو الحملة التى اقترحها السيناتور جيسى هيلمز Jessie Helms، والتى صيغت فيما بعد فى مشروع قانون عدالة الأحداث، الذى فرض تعليق الوصايا العشر فى المدارس(١). وقد وسع مجلس بحوث الأسرة Family Research Council هذه الحملة بتشجيع نماذج أدوار إيجابية (المُشَرِعين والمعلمين وغيرهم) لتعليقها فى مكاتبهم. وفى ربيع عام ١٩٩٧ لم يكن

الطلاب الملتفين فى حلقات الصلاة بعد حادث إطلاق النار فى ويست بادوكه West Paducah بكنتاكى مهتمين فى المقام الأول بمشاهدة حوادث إطلاق النار من أجل منع حدوثها فى المستقبل، ولم يكونوا يتحدثون من أجل التنفيس عن شحنتهم العاطفية، وإنما ليُشهِدوا الآخرين بوجود الله فى حياتهم. لكن هذه الشهادة تختلف كليًا عن الشهادة التى يمكن أن تحدث بعد كولمباين. فبدلًا من الشهادة باعتبارها ممارسة للإقناع (إقناع الطلاب بأن يعيدوا الله إلى المدارس، وأن يشعروا بوجوده فى حياتهم، وأن يعملوا كرسل للقضية المسيحية)، جاءت شهادات ما بعد كولمباين لتعكس الحادث وتمزق دفاعات الجمهور. فقد مزقت كولمباين الحدود بين الحزن العام والكياسة، وأظهرت الانفصال الهش بين الكنيسة والدولة وبين الإيمان والسياسة[٢]. والجمهور لأنه لم يعد قادرًا على الاحتفاظ بالمسافة الضرورية بينه وبين العنف المدرسى بدأ فى الكلام بلا انقطاع[٣].

إن ما يتم تجاهله فى معظم تفسيرات عنف الشباب هو ارتباطه الوثيق بالإعلام وبالسياسة. ففى ظل غياب ما تسميه مارى كالدور Mary Kaldor المشروع السياسى الطَموح، يصبح عنف الشباب عبر العالم معسكرًا على نحو متزايد، حيث يُبرَّر عنفهم باللجوء إلى صور من الحنين إلى الحركات السياسية السابقة التى لم يعيشوها أو يعايشوها[٤]. يناقش هذا الفصل كيف أسهمت اللامبالاة العامة بالشئون العالمية والعسكرة السلبية فى تحويل العلاقات الاجتماعية داخل الولايات المتحدة. يستخدم الفصل رد فعل الجمهور على العنف المدرسى كمثال شارح للطريقة التى من خلالها تساوى العقلية الشعبية بين استراتيجيات الاحتواء فى الحرب الباردة وإجراءات السياسة العامة الفعالة فى مجتمع ديمقراطى نظريًا. ومع أن الاهتمام الإعلامى المتواصل قد وصف مراحل ما بعد صدمة كولمباين بأنها وسيلة للتداوى، فقد تم اختيار الدواء الأكثر عدوانية للتعامل مع تهديد تكرار الحادث فى أى مكان آخر. فداخل المدارس تم تنفيذ أى وكل الوسائل المتاحة لاحتواء عنف الطلاب، دون النظر إلى الصعوبات التى يمكن أن تسببها للطلاب، وكيف يمكن أن تسهم فى حوادث عنف

مستقبلية. ويمكن أن نرى كيف أن هذا الاتجاه الجديد فى تعبئة الشباب للعنف، الاتجاه الارتجاعى والخيالى بالكامل، يطفو إلى السطح فى حادث كولمباين. ولذلك فإن الأمر الثالث، وربما الأهم، هو أن نوضح الارتباط بين ميل الطلاب نحو العسكرة وأهداف السياسة الخارجية الأمريكية، حتى وإن بدا هذا الارتباط هشًا. (حتى المعلمون والمديرون يشكلون "دمارًا مصاحبًا"(*) من منظور الطلاب الذين يطلقون النار، فهم يتعاملون مع الطلاب بالجملة). ومن خلال تفضيل مصادر مصاحبة للدوافع مثل الثقافة الافتراسية والذكورية العنيفة والمسدسات وألعاب الفيديو وأفلام الجنس والبيولوجيا والمرض النفسى، تجاهل الخبراء الأدلة المادية فى حوادث إطلاق النار. والواقع هو أن حوادث إطلاق النار تقع فى المدارس وضد الزملاء فى مجالات ليس لها علاقة بالمنهج الرسمى. وغايتى فى هذا الفصل هى أن أوضح أن البيئة التى يحدث فيها التعليم (التى لا تقتصر بحال على موقع المدرسة، وإنما تعكس امتصاص المدرسة فى البيئة السياسية الحاضنة) تحدد طرق المقاومة من جانب الطلاب. ومن أجل فهم هذا التأثير على المدارس لا بد أن نفهم تأثير السياسة الخارجية والعسكرة على السكان المحليين. ذلك أن الشكل الذى تتخذه هذه المقاومة يتحدد عن طريق الثقافة المعسكرة فى الولايات المتحدة. ومن خلال فحص كتب كثيرة تبحث الارتباطات بين السياسة الخارجية والممارسات المدنية الداخلية، سنرى أن الطريقة التى نتصرف بها "كأمريكيين" تعد نتيجة لمشروعات السياسة الخارجية والاستعداد العسكرى الضرورى لتنفيذ أهداف السياسة الخارجية الأمريكية، خاصة عن طريق جيش أعيد تنظيمه يعتمد على حرب الجيل الرابع التى يعضدها الاستغلال الرأسمالى الليبرالى لأى مصدر متاح بدءًا من الفضاء الخارجى إلى الأفكار حول الحياة اليومية(٥). إن ما كان ولا يزال مطلوبًا هو طريقة جديدة فى تناول المنهج الخفى فى سياق التغيرات فى

(*) الدمار المصاحب collateral damage عنوان كتاب لكين سولتمان ورد فى أكثر من موضع فى الكتاب الحالى [المترجم].

السياسة الخارجية والداخلية فيما قبل وفيما بعد ١١ سبتمبر ,طريقة تطبق مفاهيم جديدة على شكل مختلف جذريًا من المنهج الخفى، ولا تقوم على اعتبار الدولة القومية كيان إمبيريقى له قيم ومصالح ثابتة مرتبطة به (مثل النزعة القومية)، وإنما مفهوم متغير للولاء السياسى يتوجه دلاليًا عن طريق الأحداث المتَوَسَطة.

ومن أجل تفسير تعامل النخبة الحاكمة مع الجمهور، يستعير هذا الفصل مصطلح الاحتواء من محللى السياسة الخارجية، ذلك المصطلح الذى أُسىء استخدامه كثيرًا. يقال أن المصطلح اسْتُخدِم لأول مرة من جانب جورج كينان George Kennan عام ١٩٧٤ لـ"بدء" الحرب الباردة(٦)، وتوسع استخدامه من جانب باحثى الدراسات الأمريكية حديثًا لوصف احتواء المدارس من جانب الشركات داخل المجتمع الأمريكى(٧). وهناك عدد من الاستخدامات الأخرى لمصطلح الاحتواء، لكننا فى هذا الفصل سوف نرسم بإيجاز شكلًا محددًا جدًا من الاحتواء يستخدم كما هو واضح بغرض تسكين السكان المحليين، خاصة جماعات الطلاب، لأنهم الغذاء الممكن لآلة الحرب، وأيضًا لأنهم الجيل التالى من العسكريين الذين يجب أن تتشكل ميولهم بغرض مواصلة تبرير العسكرة المستقبلية، وبالتالى تأييد الحكومات الأمريكية التى تدعم مجمع المعلومات العسكرى .military information complex لكن علينا قبل ذلك أن نوجز ونناقش ثلاثة مصطلحات مهمة لفكرة التعليم كفرض، وفيها تكون سردية الاحتواء فعالة لأقصى درجة: التناظر الداخلى، وما يسمى الثورة فى الشئون العسكرية، والعسكرة.

التناظر الداخلى

يوجد مفهوم التناظر الداخلى domestic analogy فى نص واقعى شهير من تأليف هانز مورجنثاو Hans Morgenthau بعنوان "السياسة بين الدول". يدفع مورجنثاو بأن العلاقات بين الدول تختلف عن العلاقات بين الأفراد داخل المجتمع الواحد. وهذا الاختلاف يرجع إلى الترتيب المتفرد للقوة فى كل من الفضائين: ففى

الفضاء الداخلى يوجد القانون، بينما فى الفضاء الخارجى لا يوجد قانون (توجد الفوضى التى تعنى ببساطة غياب السيادة). وهذه الحجة تسير على النحو التالى: العوامل الداخلية لا يجب أن تلوث السياسة الخارجية الأمريكية، لأنها تحجب قدرة المحلل على قراءة توازن القوة فى المجال الدولى وتحديد أين ومتى يكون التدخل ضرورياً. والتناظر الذى تقوم عليه هذه الضرورة هو الجماعة المحلية الصغيرة التى تشترك فيها معظم المجتمعات: الأسرة (وليس الأفراد). فوفقًا للمنطق الواقعى، كان البشر دائمًا (وسيظلون) ينظمون أنفسهم فى جماعات من أجل أغراض الصراع، وأن الجماعة يجب حمايتها من القوى الخارجية، لكن تكوين الجماعة ذاتها والعلاقات بين أعضائها ليسا مهمَين. تتضمن هذه الفرضية بالطبع فكرة أن الجوانب الداخلية للجماعة غير مهمة لأنها متماسكة وسليمة نسبياً مقارنة بالعدوان القادم من الجماعات الأخرى خارج وحدة الأسرة(٨). وفى أثناء الحرب الباردة اكتشفت حركات التحرر الوطنية والحركات المخربة حول العالم العيب فى هذه الفرضية: فالسكان المحليون يمكن أن يقوموا ضد بعضهم فى حروب خارجية لا يرى معظم المواطنين فى الدولة الإمبريالية - الولايات المتحدة - قيمة فى تأييدها سواء لأسباب اقتصادية أو بسبب إزهاق الأرواح على كلا جانبى الصراع. وكل ما يمكن أن تفعله الجماعات الأضعف فى هذه الحروب هو أن توسع الحرب وألا تخسرها(٩). فعندما تصوغ إدارة بوش ومؤسسة الدفاع حججًا لإعادة صياغة العلاقات بين الكونجرس والسلطة التنفيذية، وإعادة تنظيم البناء والقيادة العسكريين، وزيادة الميزانية المخصصة للدفاع القومى، فإنهم يقولون أن ذلك لخوض "صراعات غير قياسية". والحرب غير القياسية asymmetrical هى مجرد اسم آخر لإستراتيجية حرب الشوارع وحركات التحرر الوطنى، التى توسعت الآن فقط لتشمل الهجمات والجماعات الإرهابية التى لا تزعم أنها تسعى إلى "تحرير" شعب أو أرض معينة(١٠). نعم إنها فيتنام من جديد، لكن باستثناءات ملحوظة. ويجب أولًا أن نفهم كيف ولماذا تصور الجيش الأمريكى فترة ما بعد الحرب الباردة بهذه الطريقة المحددة.

ها نحن فى عام ٢٠٠٢ نخوض الحرب الأولى فى القرن الحادى والعشرين، وعاد الفرسان وعاد استخدامهم ,لكنهم الآن يُسْتَخدَمون بطرق لم تكن متخيلة من قبل. فهذه الحرب توضح أن الثورة فى الشئون العسكرية لا تتعلق فحسب ببناء أسلحة تكنولوجية متقدمة، وإن كان ذلك جزءًا منها بالتأكيد ,بقدر ما تتعلق بطرق جديدة فى التفكير وطرق جديدة فى القتال.

وزير الدفاع دونالد رامسفيلد ,تحول القوات المسلحة الأمريكية فى القرن الحادى والعشرين، جامعة الدفاع الوطنى ٣١ يناير ٢٠٠٢.

إن الاستراتيجية الجديدة للجيش تقوم على أن الحرب غير القياسية لابد أن تصحبها ثورة فى الشئون العسكرية، كما عبر دونالد رامسفيلد عن ذلك مرارًا فى خطبه العامة. وقد دار نقاش حاد حول هذه الثورة من جانب الدارسين ومحللى السياسات ومؤسسة الدفاع من حيث كونها ثورة بالفعل، أو ما إذا كانت مدخلًا جديدًا ممكنًا أو محتملًا للحرب، أم مجرد وسيلة أخرى لإنفاق أموال دافعى الضرائب. وما لم يعد محل نقاش فيما بعد ١١ سبتمبر هو مسألة تطبيق هذا المدخل، فقد ذهبت إدارة بوش بعيدًا فى الوسائل التكنولوجية والإستراتيجية والتمويلية اللازمة لتنفيذ هذه الثورة (إنها تشبه إصلاح لينين لنظرية ماركس عن الثورة الرأسمالية: إن السلسلة تكون بقوة أضعف حلقة فيها). رغم أنه يمكن أن يُقال إن إدارة كلنتون وضعت الأساس لهذه الثورة بدعمها لتحرير صناعة الاتصالات والسماح للشركات المستقلة بأن تعسكر الفضاء بلا ضمان(١١).

وعلى ذلك فإن ما يُقْصَد بالثورة فى الشئون العسكرية RMA هو إصلاح القوات البرية الأمريكية وقيادتها الإستراتيجية ومصادرها الاستخباراتية. فالثورة لا تستهدف تغيير الجيش فى ضوء الطبيعة المتغيرة للصراع حول العالم، التى نتجت عن التفاوت الاقتصادى والعولمة ,وإنما يُقْصَد بها زيادة الميزة النسبية للولايات المتحدة فى

التكنولوجيا العسكرية بغرض الحفاظ على الاستقرار فى مختلف مناطق العالم من خلال تكنولوجيا المراقبة. وهذه الميزة المتزايدة "من أعلى" تعمل كنوع من السجن العالمى الخاضع للرقابة الشديدة، بما يسمح للولايات المتحدة بالتخلص من التهديدات غير القاسية المكنة التى تفرضها الجماعات المعادية للعولمة فى شكلها الحالى. لكن لماذا تفعل الولايات المتحدة ذلك؟ السبب أنه قبل أن تُنشأ الأسواق لابد من بسط الاستقرار على المناطق التى ستضع فيها الشركات مقارها.

إن أهم اتجاه دشنته ثورة الشئون العسكرية، والذى سوف ترسخه السياسة الليبرالية الجديدة لإدارة بوش، هو تحويل العلاقات الاجتماعية داخل الولايات المتحدة وربما خارجها. فنجاح الثورة سوف يعتمد على استعداد المواطنين الأمريكيين لأن يمولوها بميزانيات زيدت بالفعل ٢٠٪ للإنفاق العسكرى وحده. وهذا الاستعداد سوف يعتمد بدوره على قدرة الإعلام على التأثير على المواطنين لتأييد زيادة الإنفاق العسكرى، على حساب جوانب أخرى من الرفاه الاجتماعى مثل المدارس العامة والإعانات. والتغلب على انقسام الجمهور الناتج عن زيادة الإنفاق العسكرى رغم غياب تهديد واضح يعتمد على شيئين: النجاح فى عسكرة المواطنين الأمريكيين، والتهديدات الضرورية للحفاظ على هذه العسكرة. وهذه العملية من شأنها أن تُحَوِل العلاقات الاجتماعية فى الولايات المتحدة وخارجها، من خلال تغيير طبيعة علاقات النوع gender، ومن خلال نشر تكنولوجيا الحرب ومفاهيم الواجب والتضحية، وسوف تؤثر بشكل غير متناسب على الخطوط العرقية والطبقية من خلال تلوين التهديدات واتخاذ إجراءات شديدة واسعة النطاق فى سوق أمريكى متقلص. وسوف يؤثر ذلك بشكل غير متناسب أيضًا على علاقات النوع، حيث نشهد حركة رجعية مستمرة لإعادة النساء إلى الفضاء المنزلى واحتوائهن كما تفرض ضرورة التقدم فى العسكرة. وأمثلة الحركة الرجعية فيما يتعلق بالنوع تمتد من الثقافة الشعبية إلى مبررات شن الحرب على أفغانستان(١٢). فقد أظهر عرض تليفزيونى حديث الانقسام بين ثورة الشئون العسكرية وتأثيرات العسكرة المتزايدة على العقلية الأمريكية. وبالنسبة لمن يتساءلون

عن السبب الذى جعل مسلسل Meet the Folks عرضًا تلفزيونيًا شعبيًا، عليهم أن يسألوا أنفسهم كيف أساء الإعلام تفسير الفيلم الأصلى Meet the Parents بشكل مخيف: يقوم عميل متقاعد حديثًا من وكالة الاستخبارات المركزية باستجواب وتعذيب ابن زوجته وفى نهاية الفيلم يطلب يده للزواج. إن الأب، الذى يلعب دوره روبرت دينورو، الذى ينقل عقليته المعسكرة إلى الفضاء الداخلى، يعرض صورة كاريكاتيرية لفترة الحرب الباردة البائدة، وليس نموذجًا يقتدى به كل أب أمريكى كما يقدمه العرض التلفزيونى الجديد. لكن ما الذى يجعل الأمريكيين الآن يتخيلون أنهم عملاء لوكالة الاستخبارات المركزية يتحتم عليهم أن يحققوا مع غيرهم من الأمريكيين؟

العسكرة

لكى تنجح ثورة الشئون العسكرية يجب على جميع الشعوب عبر العالم أن يؤيدوا العسكرة على نطاق واسع. غير أن طبيعة هذه العسكرة لا تدور حول أفكار "نحن" فى مقابل "هم" التى كانت تميز الحرب الباردة القديمة، تلك الأفكار سهلة التحديد والتحليل عن طريق الأيديولوجيات، بقدر ما تدور حول الخوف من الآخر أيًا كان شكله. وهذا النزوع الجديد إلى الحرب (على الجبهات الأربع كما تصوره الآن إدارة بوش، وليس على جبهتين) لا يعتمد على الوحدة الوطنية. وقد كانت المدارس فى السابق تزود الدولة بمكوناتها الوطنية: تماسك الجماعة الذى حافظ على المنافسة فى الحرب الباردة. وهذا يفسر لماذا يتشابه الجمهوريون والديمقراطيون فى موقفهم من مدارس الضامن وتفكيك التمدرس العام. ففى السابق كانت المدارس مؤسسات لبناء المواطنين، مؤسسات تغرس القومية فى الناس منذ نعومة أظفارهم. وقد بنت المدرسة جزء "القومية" من مفهوم الدولة القومية nation-state [أو الأمة من مفهوم الدولة-الأمة] . وكما يشير منظرو العلاقات الدولية النقديون كثيراً، فإن مفهوم الدولة القومية ذات السيادة مفهوم جديد نسبيًا، ويتم تصويره فى الغالب على أنه الوسيلة إلى الأهداف والدعاوى التقدمية للتنوير(١٣). هذه الجدة يجب أن تنبه الدارسين والنشطاء

إلى عدم استقرار الكيان الذى تشير إليه: السكان والأقاليم والقوميات التى يفترض أنها تنبثق من مقدمتها المنطقية. ولذلك فإذا أردنا أن نفكر فى السياسة الخارجية، خاصة السياسة الخارجية الأمريكية، باعتبارها سياسة مستقرة وثابتة تساندها الإرادة أو المصلحة الوطنية، فإننا على اعتبار جدة كل من الولايات المتحدة والمفهوم تكون لدينا مبررات لوقفة تأملية طويلة. علاوة على أننى ألاحظ أنه فى بداية الحرب الباردة أشار المنظرون بالفعل إلى شكوكهم فى افتراض وجود مصلحة وطنية مستقرة فى صنع قرارات السياسة الخارجية(١٤). وبالمثل أوضح باحثون آخرون أن مصطلح "خارجى" لم يكن يقترن بالسياسة الوطنية إلى أن ابتكر بنتام المصطلح واستخدامه الفعلى من جانب الدول(١٥). وبإيجاز فإن الدولة القومية جديدة، والوحدة الوطنية تقوضت بالفعل بسبب العولمة منذ سبعينات القرن العشرين على الأقل. والحكومة لم تعد فى حاجة إلى الوحدة الوطنية لكى تواصل عملية صنع الحرب، وإنما تحتاج فقط إلى عسكرة السكان المحليين، ويمكنها أن تقوم بذلك دون الحاجة إلى المدارس. ومن الضرورى الآن أن نفهم كيف سيتم الحفاظ على هذه العسكرة وإدامتها (ذلك لأنها تحققت بالفعل).

يرى مايكل مان Michael Mann أننا يجب على الأقل أن "نُعَرِف العسكرة بطريقة تجعلها منفصلة عن الدول"، ثم يذهب إلى تعريفها قائلاً إن: "العسكرة هى الاستخدام المتواصل للعنف العسكرى المنظم من أجل أهداف اجتماعية"(١٦). إن التغيير الوحيد الذى حدث فيما بعد الحرب الباردة فيما يتعلق بالعسكرة هو أن تنظيم العنف قد تغير، حيث لم يعد يُمارَس من جانب الدول القومية، وإنما من خلال جماعات يتحول ولائها ويتغير باستمرار وفقًا للموارد ورأس المال. ومن حسن حظ المخططين العسكريين أن هناك تماثل تام بين النمو الرأسمالى والعسكرة، حيث يضع كلاهما ولائه الإنتاجى فى الفرد. وكل ما يلزم استمرار الدعم للعسكرة هو أن تجعل الفرد خائفًا من تهديدات ممكنة فى الحياة المدنية. وعلى المستوى العالمى يشكل المدنيون ٨٠٪ من ضحايا المغامرات العسكرية، التى تقع فى أفقر مناطق العالم التى تمتلك، كما يوضح اقتباس

جـورج تينت، أكبــر متـوسط من الشبـاب وأضـعف اقتصـادات فى العـالم. ومع ذلك فـإننا إذا نظرنا إلى مـعدل الخـوف الذى يثـار فى السكان نجـد أن الولايات المتحـدة تمتلك النصــيب الأكــبر. إن ذلك يمكن أن يُرَد إلى هجـمـات ١١ سـبـتـمـبر، مع أن الولايات المتحدة كـانت محـرومة من الإرهـاب مـقارنة بدول أخـرى فى أوروبا الغربية وبريطانيا وآسيا[١٧].

إن ما أود أن أدفع به تحديداً هو أن العسكرة الداخلية الجديدة ناتجة عن الدمار النفسى الذى لحق بالأمريكيين خلال الحرب الباردة، أولئك الأمريكيون الذين ما أن تحرروا من عدو واضح المعالم حتى جدوا أنفسهم يراقب أحدهم الآخر بغرض الأمن. فبعد الحرب الباردة أُغْرِق الناس، خاصة فى الولايات المتحدة، فى أفكار العسكرة دون هدف عسكرى واضح المعالم يستطيع أن يؤسس إدعاءاته على المصلحة الوطنية[١٨]. والنزوع العسكرى المنفصل هو المسئول عن هذه العقلية[١٩]. وهذه العقليــة منفصلة detached بسبب الحاجة إلى جعل المواطنين الأمريكيين ينظرون إلى أنفسهم كأفراد، أى "فاعلين اجتماعيين محددين بوضوح" مسئولين عن أمنهم، الذى يتحول إلى وحدة جسـدية ووجـدانية. والمواطنون من خـلال النظر إلى أنفسـهم على أنهم منفـصلون (ومعرضـون للأذى) يتولون مراقبة أنفسهم. وكما لاحظت مارى كالدور فإن عدد أفراد الأمن الخاص فى الولايات المتحدة يبلغ ضـعف عدد البوليس. وفى ظل غياب تهديدات واضـحة، فـإننا نخـاف من أنفسنا. إن توم ريدج Tom Ridge وهو يحث الأمـريكيين على أن يخـافـوا ويراقـبـوا ويبلغوا عن بعضـهم البعض، يمكن أن نرى فـيـه أنه أخـذ صـفـحة من كـتاب العنف المدرسى. ووزارة الأمن الداخلى التى كـان يترأسـها ريدج آنذاك والتى أُنْشِئت لكى تستأصل الإرهـابيين من بيننا، يحتمل أن تكشف الحساسيات العـادية بين المواطنين فى وسط أخـلاقى لم نشـهـد مـثله منذ حـقبـة الماكـارثيـة. ومع استمرار هروب ومراوغة أسامة بن لادن من الاستخبارات الأمريكية، سيظل الإعلام يحـافظ على الأمل فى أنه سـيتم اعـتـقـاله وعـقـابه، ومع تخلى حلفـاء أمريكا عن دعم الحرب على الإرهاب يتمـحـور خطاب الإعلام حول اسـتراتيـجيـات التدخل من جانب

إمبراطورية منهارة أكثر منه علــى ١١ سبتمبر. وأخيراً فإنه مع استمرار مسيرة العولمة، التى أقصد بها الدعم غير المتناهى لأيديولوجيات المنافسة وتثبيت تكنولوجيا المعلومات واستغلال والعمال على مستوى العالم، فإن الشباب الذى لا يجد ما يفعله سيجد الخلاص فى حمل السلاح وشن حروب لا تسهم بشىء فى التقدم العالمى(٢٠). إن حركات الشباب العالمية سوف تتزايد، وتلك حقيقة ديموغرافية، لكن عسكرة هؤلاء الشباب من عدمها سوف تتوقف على أولئك الذين يحكمون العالم والناس الذين يدعمونهم. وأخيراً، فإننا سنظل نشهد عنف الشباب فى الولايات المتحدة، ليس لأن الشباب "أشرار"، ولكن لأن الثقافة التى تتعهدهم ثقافة غير مدنية ومقاتلة على نحو متزايد، وبها اتجاهات تنافسية أكثر وأكثر واحتمالات أقل وأقل للتقدم المستقبلى.

إننا يجب أن ننظر إلى العنف المدرسى بوصفه أحد نتائج توسع السياسة الخارجية بصرف النظر عن مدى امتداد السلسلة الدلالية إلى الفضاء العام. ففى عالم معولم لا يكون من المقبول أن نفكر فى المدرسة العامة كمكان لبناء الأمة والإجماع بناءً على النماذج القديمة للحرب الباردة. فقد أوضحت الأدبيات الحديثة أن المدرسة لم تعد مؤسسة لبناء المواطنين بقدر ما أصبحت موقعاً لاستغلال الشركات وتدريب الأفراد على التفكير فى أنفسهم كمستهلكين فى السوق وأنهم يحتاجون إلى أن ينافس أحدهم الآخر وأن يخافوا من المجهول.

كان مدخلى إلى هذه المناقشة هو أن الدول لا تصوغ وتستخدم السياسة الخارجية فحسب من أجل تعزيز سيادتها وتوسيعها(٢١). فالدول تستخدم السياسة الخارجية أيضاً كأساس لسياستها الداخلية، وهذا هو ما يعزوه كينان Kennan إلى الاتحاد السوفيتى فى بداية الحرب الباردة. فالجهاز المفاهيمى للسياسة الخارجية أصبح يؤطر أية أزمة داخلية تواجهها الولايات المتحدة اليوم. فسياسة الاحتواء السابقة للولايات المتحدة نحو الكتلة السوفيتية كانت الأساس للسياسة الداخلية تجاه الحركات المناضلة داخل الولايات المتحدة. يتضح ذلك فى حالة الولايات المتحدة فيما بعد الحرب الباردة. ففى ظل غياب نموذج دولى مهيمن تؤسس عليه سياستها

الخارجية، اجتهدت الولايات المتحدة (ودارسو السياسة الخارجية الأمريكية) ليجدوا نموذجًا لصنع القرار بناء على حالة توازن القوة فى النظام الدولى (هل هو ثنائى القطبية أم أحادى القطبية أم متعدد الأقطاب أم قائم على الهيمنة أم على إمبراطورية آفلة؟). فمع ذبول أحد النماذج وتلاشيه، بدأ المكتب التنفيذى للولايات المتحدة فى التركيز على الداخل، مع محاولة للاحتفاظ بـ"قبضة" هشة فى الخارج. ودون وجود سياسة متماسكة، غرقت الولايات المتحدة فى بعثاتها الدبلوماسية وتدخلاتها العسكرية (الصومال والبوسنة واتفاقات دايتون والأزمات المالية فى جنوب شرق آسيا)، وكان النصر الواضح الوحيد فى عام ١٩٩٢، عندما شكَّل الرئيس بوش حملة قصف ضد الغزو العراقى للكويت[٢٢]. وقد عُرِفَت هذه الفترة بأنها فترة "تراجع"، حيث فشلت كل مشروعات السياسة الخارجية، كما فشلت فى إثارة الخيال السياسى، ولعل ذلك كان الفاتحة لـ"نهاية التاريخ" (فوكوياما)، حيث أصبح على كل الدول الأخرى أن تتبع مسار التطور الأمريكى، وحيث قيل أن التاريخ سيظل ينطلق على نفس المسار الرأسمالى الليبرالى الممل[٢٣]. لكن أحداث ١١ سبتمبر غيرت كل ذلك، حيث بدا أن من يُطلَب منهم أن يتبعوا المسار يقاومون.

الاحتواء كسياسة خارجية داخلية

كانت الحكومة الفيدرالية تتجاهل التعليم تمامًا فى أثناء الحرب الباردة، باستثناء بداية هذه الحرب عندما كانت تشجع المنهج على أن ينافس منهج الاتحاد السوفيتى (مثل سبوتنيك وسباق الفضاء) فى أواخر الخمسينات. لكن ما أن انتهت الحرب الباردة رسميًا حتى أصبح التعليم مجددًا قضية مهيمنة فى المناظرات الرئاسية. وقد كانت "أهداف ٢٠٠٠"، باعتبارها وسيلة لمساعدة الطلاب الأمريكيين على المنافسة فى الأسواق العالمية، أداة مهمة فى هذا الجدل. وفى النهاية تم التعويض عن فشل الولايات المتحدة المتكرر فى حيازة سياسة خارجية باحتواء الداخل (مثل هوية الطلاب). ورغم أن هوية الطلاب كانت من الهويات الكثيرة التى كانت تُراقَب فى أثناء

فترة الحرب الباردة (مثل الهويات السياسية لليسار، والنساء كربات بيوت، والرجال كجنود وعمال، وما إلى ذلك)، فقد كانت هوية الطلاب دائمًا الأهم بالنسبة لدولة الأمن القومى national security state لأنها تحتاج إلى سكان معسكرين لتأييد حروبها، والأهم من ذلك جيش احتياطى من العمال لخوض هذه الحروب، حتى وإن كانت الولايات المتحدة تستخدم تكنولوجيا الأقمار الصناعية والطائرات التى تطير بلا طيارين.

الاحتواء

إنها ميزة لا تنكر لأى إنسان أن يثبت أنه محق فى فرضية أن العالم عدوه، لأنه عندما يكررها بما يكفى ويجعلها خلفية لسلوكه يكون بالتأكيد أقرب لأن يكون محقًا.

Mr. X, "The Sources of Soviet Conduct"

يشير الباحثون التربويون كثيراً إلى أحداث الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى باعتبارها محددات تطوير المنهج. فالإشارات إلى القمر الصناعى السوفيتى سبوتنك باعتباره الحد الفاصل فى التعليم الأمريكى، على سبيل المثال، غالبًا ما تصاحبها اتهامات بأن سباق الفضاء أعاد توجيه المنهج لكى يركز بشكل مفرط على مجالات ومواد معينة: الرياضيات والعلوم. وإلى جانب هذه التغييرات فى المنهج، تعرض المربون لقدر كبير من النقد بسبب قرعهم ناقوس المنافسة بين القوتين العظميين. وقد كانت مجازات الحرب الباردة أدوات بلاغية مهمة جداً استخدمت فى دفع، وفى بعض الأحيان إجبار الدارسين والممارسين التربويين على التخلى عن معاييرهم التربوية لصالح المعايير التى تحددها السياسة الخارجية الأمريكية. تجلى ذلك حتى فى التعليقات المؤيدة مثل تأكيد ريجان المبتهج بأن المعلمين هم "موظفو الإمبراطورية".

وحتى بعد انتهاء الحرب الباردة فلا تزال سياساتها تعتمل فى أذهان صناع السياسة الأمريكيين، خاصة أولئك الذين اسْتُدعوا للتعامل مع مشكلة العنف المدرسى. ففى أعقاب حادث إطلاق النار فى كولمباين دار فى الإعلام جدل حول مستوى الحكومة الذى يجب أن يتدخل لتقييم وتحديد السياسات اللازمة لمنع عنف الطلاب فى المستقبل. وكانت الإجابة الكاسحة هى أن الحكومة الفيدرالية يجب أن تتعامل مع المشكلة بشكل مباشر. فطلب الرئيس كلنتون من النائب العام جانيت رينو Janet Reno أن تحدد خيارات التقاضى التى يفرضها الحادث (ما إذا كانت القضية يجب أن تحاكم شخصاً ما، وفى هذه الحالة هل تكون المحاكمة على المستوى الفيدرالى أم لا). فنحا الكونجرس أعماله العادية جانبًا لكى يصوغ قانون عدالة الأحداث الذى من شأنه بالفعل أن يهدم نظم عدالة الأحداث المعمول بها على مستوى الولايات. والجمهور الذى لم يعد قانعًا بجلسات المحلفين التى تناقش عنف الطلاب تحت رعاية السيدة الأولى وكلاريون ماكارثى Carolyn McCarthy دعا الحكومة الفيدرالية إلى سن سياسات واسعة النطاق لمنع العنف. وفى نفس الوقت أدى ذلك الانتباه المركز إلى إجبار مديرى المدارس على أن يتبنوا مبادرات السياسات التى توصى بها الحكومة الفيدرالية. وكجزء من هذه المبادرة طُلِب من المدارس أن تبحث عن نماذج للأمن المدرسى، مثل مدارس بوسطن العامة وتلك النظم التى تبنت بالفعل استراتيجيات المراقبة.

وربما كان تباطؤ السياسات هو الذى جعل السياسة الخارجية الأمريكية فى فترة هيمنتها العالمية تعمل على مستوى وجودى لدرجة جعلتها جزءاً من الهوية الوطنية. وهذا الادعاء يتضمن أن الولايات المتحدة لا تعرف نفسها دون احتواء مقاومة قوة معادية. والتأثيرات التى كانت تقدم نفسها فى السابق على أنها تناقضات رأسمالية، أصبح يشار إليها الآن بوصفها "خلل" نظامى. فالآن، وبعد انتهاء الحرب الباردة والانتصار الكاسح للمنطق الرأسمالى، لم يعد هناك ما يُفْعَل غير تتميم النموذج على حد تعبير بودريلارد(٢٤). وقد كان ولا يزال جزءاً من هذا النموذج يتمثل فى المواطن- المستهلك المثالى الذى تضبطه وتسكنه المنتجات الاستهلاكية. وهذا النزوع يمثله المنهج الخفى للمدارس. فعندما يكرر الإعلام الدعوة لكل الأمريكيين لكى يدعموا الحرب على

الإرهاب، فإنه يطلب منهم أن يؤيدوا طريقة حياة محددة تكمن خلفها فلسفة سياسية ونسق قيمى متماسكين ,وهو الحق فى الاستهلاك دون مقاطعة من جانب القوى الخارجية، حتى وإن كانت تعانى بسبب عاداتنا الاستهلاكية. وسواء أكانت سياسة الحرب الباردة القديمة التى أوصى بها كينان Kennan، أو تلك التى طبقتها وزارة الدفاع بالفعل برئاسة بول نيتز Paul Nitze، والتى نفذت سياسة احتواء تشبه تلك التى تُمارَس فى المدارس استجابة لتهديد العنف الذى تفرضه حوادث إطلاق النار، فإن موضوع السياسة هو ألا تثق أبدًا فى موضوع السياسة policy object أو تستشيره مباشرة]مثل الطلاب فى حوادث العنف[، وإنما أن تحدد موضعه ببطء وعناية وتصفيه وتجبره على الانصياع إلى المبدأ المهيمن فى المجتمع (مثل عقلية القطيع والعدالة الانتقامية)، أو كما دفعتُ هنا نسخة من النظام العالمى تتخيل الآخرين وكأنهم مكملات accessories للرغبات الأمريكية، بما فى ذلك جماعات الطلاب.

إن الخارج يحدد الداخل، أو بالأحرى يُستخدَم لحسم الانتخابات فى الداخل، وزيادة مخرجات أسواق معينة، كما فى رأسمالية البنتاجون. وفى ذلك كتب ديفيد كامبل David Campbellأن "السياسة الخارجية هى نوع الأداء الذى ينتج الحدود"، وهى تستخدم الخارج أو مفهوم "الأجنبى" أو "المختلف" لإدراك هوية الدولة(٢٥). لكننى أود هنا أن أذهب أبعد من ذلك لأدفع بأن السياسة الخارجية تخدم وظيفة مراقبة الحدود ,وإلى جانب ذلك تقدم للسكان المحليين جرعة مكثفة من النزعة القومية المفرطة تستهدف المواطنين وتُزاد بفعل التأثيرات الاجتماعية لمنافسة السوق والعسكرة. فعندما وقع حادث إطلاق النار فى مدرسة كولمباين كانت التغطية الإعلامية تنتقل بين صور الطلاب الذين يسقطون من النوافذ المهشمة وتغطية قصف كوسوفو بقيادة الولايات المتحدة. وعلاوة على ذلك كانت الأمثلة المُتوَسطة للذكورية تنتشر بلا قيمة أثناء هذه الأزمة، كما يتم تبادل علامة ذكورية بأخرى فى اقتصاد الرغبة المنفصل كليًا عن أى نظام واضح للنوع الاجتماعى[٢٦].

وفى المدارس التى ترى جالياتها وموظفوها أن إجراءات الأمن العلنية أمرًا غير مقبول أو مزعج، يتم نشر برامج مصممة لاستهداف الطلاب ذوى السلوك غير الممتثل. وكذلك برنامج إدارة الصراع التى تُسَوق باعتبارها البديل "الإنسانى"، والتى تمثل الرقابة على السلوك فيها خصائص مهمة لمنع العنف الطلابى، تُصَمَم لكى تتوسط المشكلات بين الطلاب الذين يتداخل غضبهم مع عمل المدرسة. ولا يُطْلَب من الطلاب فحسب أن ينصاعوا لشواغل الضبط الصارم لدى إدارة المدرسة من خلال برامج إدارة الصراع، وإنما يُطْلَب منهم أيضًا أن يشوا ويبلغوا عن بعضهم. والشىء الماكر فى هذا البديل الأيديولوجى هو أنه يتم تبريره كعمل وقائى يُقْصَد به رعاية صالح الطلاب غير الممتثلين. فمن أجل مصلحتهم يكافئ مديرو المدارس الطلاب على الوشاية والإبلاغ عن رفاقهم. والطلاب فى برامج "القيادة" الجديدة يبلغون عن الطلاب الذين ينحرف سلوكهم أو ملبسهم أو أدائهم فى الأنشطة المصاحبة للمنهج عن معيار المدرسة. والأكثر إزعاجًا من ذلك هو المراقبة المنتظمة للطلاب الذين يتلقون علاجًا لضمان ألا ينسوا أخذ مضادات الاكتئاب. وذلك قد لا يكون مزعجًا إذا لم تورد الدراسات أن ٢٥٪ من الطلاب يأخذون علاجًا للاكتئاب. ومع ذلك يزعم أحد مديرى المدارس أن الموقف تحت السيطرة الآن لأن الطلاب العاديين يتعاونون مع الجهاز الضبطى، حيث قالت هذه المديرة إن الإبلاغ عن الرفاق يعطينا "١٣٠ عينًا"[٢٧]. وهذه الاستجابة سوف تسم فيما بعد نشر الحكومة لصور الإرهابيين وعرضها على الجمهور ومطالبتهم بأن يتعرفوا على أصحاب هذه الصور ويساعدوا فى القبض على الإرهابيين المكنين الذين يندسون بيننا.

ثمة أشكال أخرى من الرقابة لا تتلازم عادة مع تكنولوجيا الأمن، وهذه يتم تبنيها بسهولة أكبر، وإن كانت تنتهك حقوق الطلاب. فسياسات مثل قواعد الزى تمنع الطلاب من ارتداء ملابس يمكن أن تخفى أسلحة أو تظهر تفضيلات استهلاكية. كما أن حظر حقائب الظهر أو تبنى سياسة "حقائب الظهر الشفافة فقط" يضعف ثقة الطلاب. وهذه الأشكال من الضبط هى الأكثر انتشارًا، لأنها على خلاف أجهزة الكشف عن المعادن والتفتيش الذاتى لا تشبه إجراءات أمن السجون. لكن هذه

الأشكال من الرقابة والسيطرة تؤدى إلى تآكل ثقة الطلاب فى أنفسهم وفى بعضهم البعض، بما يسهم فى العسكرة الإجمالية للسكان المحليين فى الولايات المتحدة. وبشكل محدد تعمل هذه الإجراءات الضبطية كأشكال ماكرة من التنميط القائم على الخوف. وبعيداً عن الأذى الناتج عن هذه الإجراءات، فإنها تقوض الثقة العامة الضرورية لتنمية المهارات التى يحتاج الطلاب إلى صقلها لكى يعيشوا أو يشاركوا فى ديمقراطية صحية. فضلاً عن أن هذه الإجراءات توجد أيضًا خارج المدارس العامة، فى الشركات والمشروعات التى يُضْطَر موظفوها إلى حمل حقائب شفافة خوفًا من أن يسرقوا السلع والبضائع. وكما يؤكد ليبشوتز Lipshutz فإن "أزمة انعدام الأمن"، أى الإحساس المعمم والمنتشر بالخوف من مصدر غير معلوم، شجع مشاركة المواطنين النشطة فى المتابعة والرقابة خلال الحيز العام. وهذه الاستجابات الانفعالية هى التى تنعش ردود الفعل على الجريمة والمأساة والعنف. فبدلًا من أن نتساءل بجدية حول التأثيرات الممكنة لهذه الإجراءات على نمو المهارات الديمقراطية لدى الطلاب، يتم سن هذه الإجراءات باسم الأمان والوقاية. فقد أصبح الأمن الاستجابة الوحيدة للعنف المدرسى، لكنه لن يحل المشكلة أبداً. بينما سيكبر جيل جديد كما لو كانوا نزلاء فى سجون، وليس مواطنين فى مجتمع ديمقراطى.

الهوامش

(١) للمـزيد حـول هـذا الموضـوع انظر: William Chaloupka, Everybody Knows: Cynicism in America (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1999) . .

(٢) تصوير أجهزة الإعلام القاسى للمعركة بين أباء الطلاب القتلى وأولئك الذين يؤيدون علنًا إنقاذ أرواح الجناة تم تمثيلها مع بناء صلبان وتعليقها على تل يشرف على موقع المدرسة.

(3) See Friedrich Nietzsche, On the Genealogy of Morals. Ecce Homo, trans. W. Kauf mann (New York: Vintage, 1967 [1887]).

(4) Mary Kaldor, Old and New Wars (Palo Alto, Calif.: Stanford University Press, 1999), 7.

(٥) يكشف عن ذلك دونالد رامسفيلد عندما يتحدث حول تحويل وزارة الدفاع، يقول "يجب أن نتعهد مدخل المقاولات والشركات لتطوير قدرات الجيش، مدخل يشجع الناس، كل الناس، على أن يبادروا بالأفعال وليس ردود الأفعال، وأن يتصرفوا ليس كبيروقراطيين وإنما كرأسماليين مغامرين، مدخلاً لا ينتظر التهديدات لكى تحدث وتصدق وإنما يستبق إليها قبل أن تظهر ويطور قدرات جديدة يمكن أن تحبط وتردع تلك التهديدات الناشئة" available at www.defenselink.mil/speeches/2002/ s20020131-secdef.html, p. 8.

(٦) ثمة جدل كبير يحيط بأصول الحرب الباردة. وقد أصبح هذا الجدل الآن صناعة منزلية. انظر: Ernest May Interpreting NSC-68 (Cambridge: Harvard, 1993), the Cold War Museum Project, and any book by revisionist historian John Lewis Gaddis.

(7) Alan Nadel, Containment Culture: American Narratives, Postmodernism and the Atomic Age (Chapel Hill, N.C.: Duke University Press, 1995) and Kenneth J. Saltman, Collateral Damage: Corporatizing Public Schools_A Threat to Democracy (Lanham, Md.: Rowman 8c Littlefield, 2000) (respectively).

(٨) لفت النقاد النسويون الانتباه إلى حقيقة أن الحدود ليست مستقرة لأن الحيز الداخلى ليس المنطقة "الآمنة" التى يحتاجها مورجنثاو لكى يكون الخارجى غير مستقر. فضلاً عن أن الحيز الداخلى الفعلى

الذى يستخدمه مورجنثاو كمثال -الأسرة- حيز إشكالى لأن هذا الفضاء ليس آمنًا أو خاليًا من الصراع. انظر: J. Ann Tickner Gender, "International Relations" in Women and War, edited by Jean Bethke Elstain (New York: Basic, 1987). وقد عمل المجتمع الأمريكى كما لو كان الداخل يجب أن يكون مستقرًا بمناقشة ديمقراطية ضئيلة نسبيًا للمسألة.

(9) See Andrew J. R. Mack, "Why Big Nations Lose Small Wars: The Politics of Asymmetric Conflict," World Politics 27, no. 2 (1975): 175-200.

(١٠) تذهب مارى كالدور إلى أن الفرق بين الحروب "القديمة" و"الجديدة" وقدرتنا على إدراك مغزاها على الناس الذين يخوضونها هو أن الحروب الجديدة يدفعها الفراغ الاقتصادى والسياسى فى الدول النامية الفقيرة التى يستخدم قادتها الحنين إلى الماضى لكسب الولاء من أجل خوض الحروب. فالفرق بين الجماعات الإرهابية والفئات الثائرة الآن هو أنها لم تعد تستهدف أن تأسر "قلوب وعقول" الناس، وإنما تستغل فحسب خوفهم من الآخر وكراهيته. Kaldor, Old and New Wars.

(11) See Jack Hitt, "The Coming Space War," New York Times Magazine (August 5, 2001). إن أهم تحليل لهت هو تحليله لإلغاء القيود التنظيمية التى كانت مفروضة على فضاء الشركات وتفسير كيف كان ذلك طريقة استخدمتها الحكومة الأمريكية لتجنب انتهاك معاهدة الفضاء الخارجى ١٩٦٧ التى تنص بشكل واضح على أن الحكومات يجب ألا تستخدم الفضاء لأغراض عسكرية. فى حين أن الشركات التى ترغب فى استخدامه للاستغلال التجارى من خلال تكنولوجيا الأقمار الصناعية، التى تمثل الأساس لحروب الجيل الرابع، يمكن أن تؤجره للحكومات لكى تستخدمه فى الأغراض العسكرية.

(12) .See Joan Wallach Scott, "Feminist Reverberations," keynote address at Twelfth Berkshire Conference on the History of Women, June 7, 2002, Storrs, Connecticut, available at berksconference.org/programs/scott.htm (July 16, 2002). This speech will appear in Differences 13, no. 3 (February 2003).

(١٣) يمكن الدفع بأن الدولة كمصطلح قانونى تسبق التنوير بأكثر من مائة سنة، لكن من الناحية السياسية، والأهم من ذلك من الناحية الوجودية، حدث إدراك التنوير وفقًا لهيجل من خلال وسيلة الدولة الحديثة.

(14) Arnold Wolfers, " 'National Security" as an Ambiguous Symbol," Political Science Quarterly 67 (1952): 481-502.

(15) David Campbell, Writing Security: U.S. Foreign Policy and the Politics of Identity (Minneapolis: University of Minnesota, 1992), 42.

(16) Quoted in Ronnie D. Lipschutz, After Authority (New York: Suny, 2000), 175.

(17) Andrew J. Bacewich, "Terrorizing the Truth," foreign Policy 125 (August 2001): 74-75. إن الأرقام أعلى فى آسيا، لكنها كانت صفر فى أمريكا الشمالية قبل ١١ سبتمبر، والنسب الأعلى التالية فى أفريقيا وأمريكا اللاتينية، والأقل كثيراً فى أوربا الغربية.

(١٨) لكننا مع ذلك نرى العسكرة فى كل مكان: فى العسكرة المتزايدة للشباب فى الجنوب المعولم الذى لا يجد مدخلاً إلى الأمن الاقتصادى إلا بأن ينضم إلى جيوش المرتزقة أو يبيع نفسه للدعارة أو العبودية، وفى عمليات إطلاق النار فى المدارس فى شمال أوروبا كما فى هولندا وألمانيا وكذلك الجيوب الأوروبية فى جنوب أفريقيا، وفى إدخال الشابات إلى القوات المسلحة باعتبار ذلك الوسيلة الأكيدة لإنجاز الحراك الاجتماعى لأعلى والأهم من ذلك المساواة بين الجنسين، واستخدام الاغتصاب كإستراتيجية حرب، وإدراج النساء المحليات فى حركات التحرر المسلحة فى المكسيك أيضاً كوسيلة للإفلات من أدوار النوع القائمة، وفى تأثير فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار فى المدارس فى جميع أنحاء الولايات المتحدة، وفى الحوافز المقدمة من أجل المشاركة المتواصلة فى دولة الأمن القومى، وغير ذلك. انظر: Cynthia Enloe, Maneuvers (Berkeley: University of California Press, 2000). ويرى إنلو أن السبب الذى يجعل الولايات المتحدة ترفض التوقيع على اتفاقية الأمم المتحدة لحقوق الطفل (أو تبدأ حتى فى عملية التصديق عليها) أن هذه الاتفاقية سوف تفكك برنامج فيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار لأنها تشترط ألا يتم استخدام الأطفال لأغراض عسكرية.

(١٩) لمزيد من المناقشة النظرية حول هذه العملية انظر: العمل الكلاسيكى لجورجيس باتيلى: "The Psychological Structure of Fascism," in Visions of Excess Selected Writings, 1927-1939, edited, introduced, and trans, by Allan Stoekl (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1993).

(٢٠) لمزيد من الشرح لهذه الأيديولوجيا "النزعة العولمية" globalism انظر Manfred B. Steger, Globalism (Lanham, Md.: Rowman & Littlefield, 2001).

921) Cynthia Weber, Simulating Sovereignty (London: Cambridge, 1993).

(22) Timothy W. Luke "The Discipline of Security Studies and the Codes of Containment: Learning From Kuwait," Alternatives\6 (1994): 315-44. Enloe 2000, 12-14; 242_44. For an example of the tropes deployed during the Gulf War, see Avital Ronell, "Support Our Tropes" in Rhetorical Republic: Governing Representations in American Politics, edited by Frederick Dolan and Thomas L. Dumm (Amherst: University of Massachusetts Press, 1993).

(23) Arthur Kroker and Michael A. Weinstein, Data Trash: The Theory of the Virtual-Class (New York: St. Martin's, 1993).

(24) Jean Baudrillard, The Perfect Crime, trans. Chris Turner (New York: Verso, 1996).

(25) Campbell, Writing Security, 69.

(26) R. W. Connell, The Men and the Boys (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 2000), p. 150-55.

(27) "A Week in the Life of a High School: What It's Really Like Since Columbine,"Time (October 25, 1999): 75.

(28) Ronnie D. Lipschutz, After Authority (New York: SUNY, 2001).

الفصل الحادى عشر
سَجْن العقول
عنف التربية الليبرالية الجديدة
أو أنا "لست للبيع"

شيلا لاندرز ماكرين(*)

ألیس من الهزلی أن تكون أبواب المصانع
موصدة طوال الوقت،
وتكون أبواب المدارس موصدة طوال الوقت،
بينما تكون أبواب الزنازين مفتوحة على مصارعها
لتحييك مثل آلة الحصاد

Rage Against the Machine, "Ashes in the Fall"

على مدى السنوات القليلة الماضية كانت إدارة فيلادلفيا التعليمية تئن تحت حصار يمتد من آفة الفقر إلى تهديدات الاستيلاء على المدارس. فهذه المدارس تترنح منذ فترة طويلة نتيجة لنقص الموارد وقطع أموال الولاية والأموال الفيدرالية عنها. وبعد ذلك فى ديسمبر ٢٠٠١ استولت ولاية بنسلفانيا على مدارس المدينة ووضعتها على منصة المزاد العلنى. لكن الولاية لم تكن تنوى أن تدير المدارس. إنها فحسب تنفذ

(*) شيلا لاندرز ماكرين Sheila Landers Macrine أستاذة بمدرسة التربية بجامعة القديس جوزيف فى فيلادلفيا. تدور اهتماماتها حول تقاطعات التربية النقدية وعلم النفس والتربية الخاصة.

مقترحات إدارة بوش بخصخصة التعليم وفتح المدارس العامة للسوق. وبالفعل كان لدى الولاية خطط لبيع إدارة المدارس لصاحب أعلى عرض فى المزاد. وفى تحويل لا لبس فيه للمال العام إلى الأيدى الخاصة استعاضت الولاية عن إدارة وتنظيم المؤسسات العامة، كالمدارس والمستشفيات وحتى السجون، بنموذج الإدارة الشركاتية دائم التوسع فى الليبرالية الجديدة. وليست حالة مدارس فيلادلفيا إلا مثالاً آخر للمؤسسات العامة التى تواجه هذه الهجمة.

وعندما تقدمت شركات كثيرة ربحية وغير ربحية من شركات إدارة المدارس من أجل إدارة مجمعات مدرسية من مدارس فلادلفيا منخفضة الأداء، منحت لجنة إصلاح المدارس المعينة من قبل الولاية شركة إديسون للمدارس Edison Schools Inc، وهى أكبر شركة غير ربحية على مستوى البلاد لإدارة المدارس العامة، عقداً بمبلغ ١٠١ مليون دولار لمدة ست سنوات لإدارة ٤٥ من مدارس المدينة الأكثر احتياجًا، بالتعاون مع جماعات محلية. وهناك شركتى إدارة صغيرتين سوف يتم التعاقد معهما: شركة النصر Victory وأكاديميات بيكون .Beacon Academies لجأت الولاية إلى هذا الإجراء على أمل أن طرق الإدارة الشركاتية من شأنها أن تحسن إدارة مدارس فيلادلفيا. وعندما بدأ العام الدراسى ٢٠٠٢ كانت الإدارة التعليمية قد دشنت أكبر تجربة حتى تاريخه فى الخصخصة واسعة النطاق لنظام تعليمى فى البلاد.

يقول كريستوفر ويتل Christopher Whittle مؤسس ومدير شركة إديسون إن خططه تتضمن فرصًا للجميع: المعلمين والطلاب وأولياء الأمور والإدارات التعليمية والحكومات، خاصة مستثمرى الشركات. وفى يوم الثلاثاء الموافق ١٤ مايو ٢٠٠٢ أعلنت شركة إديسون للمدارس عن تحقيق عوائد صافية عن ربع العام الذى انتهى فى ٣١ مارس ٢٠٠٢ قدرها ١٢١,٩ مليون دولار مقارنة بـ ٩٢,٨ مليون فى العام الماضى[١]، بزيادة قدرها ٣١٪. وقد زاد الإسهام الإجمالى للموقع عن هذه الفترة إلى ٢١,٧ مليون دولار من ١٨,١ مليون دولار[٢] عن نفس هذه الفترة العام الماضى.

وبعد أشهر قليلة من استيلاء الولاية على المدارس مارست رؤية الولاية لإصلاح المدارس تأثيرات عميقة وعنيفة على إدارة فلادلفيا التعليمية. وحتى الآن أدت هذه الإجراءات إلى اضطرابات (إضرابات مدرسية ومئات من استقالات المعلمين وطلبات نقل ودعاوى قضائية وأشكال احتجاج أخرى) أكثر من أى إصلاح تعليمى آخر. وعندما كان هذا الفصل من الكتاب فى طريقه إلى النشر كانت شركة إديسون متورطة فى سلسلة من الفضائح الخطيرة المتعلقة بالحسابات ونشر درجات الاختبارات وممارسات مالية مشبوهة، أدت إلى انخفاض سعر السهم وطرحت شكوكًا كثيرة حول التمدرس الربحى.

إن ما يشغلنى، بعيداً عن حالة شركة إديسون، هو كيف تسلل صنع السياسة التعليمية على الطريقة الليبرالية الجديدة إلى الإصلاح التعليمى، وكيف أضر بالمعلمين والطلاب والمديرين. فهذه الأيديولوجيات تتسلل فى هدوء، فتجرد المعلمين من دورهم فى صنع القرار، وتنظر إلى الطلاب باعتبارهم مستهلكين ممكنين يجب تدريبهم على الولاء للعلامات التجارية. وعلاوة على ذلك فإن النموذج الشركاتى للإدارة التعليمية يكافئ المديرين على تبنى النموذج الشركاتى الذى يجرد تساؤلات الكفاءة من العدالة والهدف الأوسع للتمدرس. وأيضًا نتيجة للمناقشة المتَوَسَطة للتعليم حول النموذج الشركاتى، يقع المديرون فى حبائل العقلية الشركاتية المتخندقة فى خفض التكاليف والمحاسبية المُعَرَفة بطريقة ضيقة من خلال "المخرجات" والاختبارات عالية الرهان والأداء فى الاختبارات المعيارية، والتى تفشل بالتالى فى إدراك أنه فى مجتمع ديمقراطى تكون هناك ضرورة لأن ينمو الطلاب كمفكرين وأن يتم فهم التعليم على أنه عملية تهذيب ذاتى واجتماعى، وليس مخرجات فحسب.

يناقش هذا الفصل نتائج الإصلاح الليبرالى الجديد فى فلادلفيا، مستفيداً من مقابلات أجرتها الباحثة مع معلمين ومديرين وطلاب من فلادلفيا حول الطريقة التى أثرت بها خصخصة الإدارة التعليمية على حياتهم. والفصل بذلك يوضح كيف تعيد الأيديولوجيات الشركاتية اختراع المدارس من خلال الإصلاحات القائمة

على الضبط التى تهدد إمكانية إعادة تأهيل التعليم العام لكى يكون عملاً قائمًا على إعداد الطلاب للمشاركة والتجديد الديمقراطيين. فضلاً عن أن الإصلاحات الشركاتية تهدد أيضًا إمكانية التدريس باعتباره عملاً عقليًا يستهدف تحقيق تحول اجتماعى أكثر عدلاً.

الاستيلاء على المدارس

لقد عملت لمدة سبع سنوات كأستاذة فى إحدى الجامعات متوسطة الحجم فى فلادلفيا، وكانت لى تعاملات كثيرة مع الإدارة التعليمية. فقد تطوعت بعدة طرق، مثل أساتذة آخرون، فى المدينة للمساعدة فى تطوير المناهج وفى تعزيز الشراكة بين الجامعة والإدارة التعليمية. وكان من دواعى دهشتى أن أجد أن بعض المدارس التى عملت معها لم يكن فيها حتى الورق والأقلام الرصاص. ومع الدفع الفيدرالى فى اتجاه التعليم الدمجى inclusive education، كان على الإدارة أن تدمج طلاب التربية الخاصة فى الفصول العادية. ومع ذلك فلم يُعطَى المعلمون نسخًا من خطط التربية الفردية IEP للأطفال الذين تم دمجهم، وهذا خرق لقوانين الولاية. وقانون التربية الخاصة واضح وصارم، ويذهب إلى حد اعتبار المعلمين مسئولين شخصيًا عن عدم تنفيذ خطط التربية الفردية أو إتاحتها، ويفرض على من يخالف ذلك غرامة شخصية تصل إلى ١٠ آلاف دولار. ومعظم المعلمين الذين تحدثت إليهم قالوا أنهم لا يعلمون أين توجد خطط التربية الفردية، وأنهم يعتقدون أنها محجوزة فى مكان ما. لذلك أقول نعم كانت هناك بالفعل مشكلات فى مدارس فلادلفيا.

كانت الإدارة التعليمية بفلادلفيا لها دائمًا نصيب من المعلمين المخلصين الرائعين. فبعض المعلمين يصلون إلى المدرسة فى السادسة والنصف صباحًا لكى ينظموا نوادى الأدب أو لكى يتشاركوا فى كتب قيمة مع طلابهم. والطلاب أيضًا كانوا يفعلون أقصى ما فى وسعهم فى نظام تعليمى فقير نسيت أموال الولاية طريقها إليه. فغالبية الطلاب

يذهبون لكى يتعلموا بدون كتب أو مصادر، حيث تقع على رؤوسهم الجدران والأسقف المكونة من ألواح الاستبتس. وقد ظلوا على هذا الحال: مُفْقَرين ومهجورين ومرفوضين. ومن الضرورى أن نبحث الإصلاح المدرسى الليبرالى الجديد فى علاقته بالمستقبل الغامض الذى يَعِد به تقويض شبكة الضمان الاجتماعى، والفرص الحقيقية التى تنتظر الشباب بعد أن يتركوا مدارس فلادلفيا. ولسوء الحظ فإن استمرار النماذج الحالية لا يهمش فحسب الجماعات غير المهيمنة، وإنما يؤبد أيضًا الفروق الطبقية والعرقية وفروق النوع التى تتغذى عليها ضرورات الربح فى الاقتصاد ما بعد الصناعى. ففى النهاية تخدم الليبرالية الجديدة فى تبرير نظام تعليمى يعزز الاقتصاد الأمريكى الناشئ القائم على شركات إدارة الخدمات والعمالة الممتازة والمقاولين والرأسماليين المضاربين، هذا الاقتصاد الذى يتربع فوق طبقة دنيا ضخمة من عمال محلات البرجر وحراس الأمن وهذا بالتأكيد ليس هو الوعد ببناء مجتمع متعلم(٣).

داخل شركة إديسون يوجد كريستوفر ويتل Christopher Whittle مقاول فى مجال الإعلام ومؤسس شركة ويتل للاتصالات، وهو رجل له تاريخ مع التعليم. أنشأ ويتل القناة الأولى المثيرة للجدل التى تبث برامج مدرسية مصممة لجعل الطلاب جمهور أسير للإعلانات عن الأغذية المعلبة والسلع الاستهلاكية الأخرى. وفى عام ١٩٩١ قدم ويتل مشروع شركة إديسون. وكان المشروع يخطط لبناء ألف مدرسة جديدة ربحية، مائتان منها خلال خمس سنوات بتكلفة مقدرة ٢.٥ مليار دولار. وعلى مدار السنوات الأربع التالية استثمر إديسون ٤٤ مليون دولار من مستثمرين خاصين فى البحوث والتطوير. وقد نجح ويتل فى استمالة رئيس جامعة يل السابق بينو شميديت Benno Schmidt عام ١٩٩٢ لكى يترأس مجموعة من التربويين ورجال الأعمال أمضت السنة فى تطوير منهج مدارس إديسون.

وقد تم حفظ دعاوى قضائية عديدة، لو كتب لها النجاح لحالت دون تنفيذ الخطة. فقد رفع غالبية أعضاء مجلس المدينة وكثير من جماعات الدفاع قضية فى المحكمة الفيدرالية لإبطال الاستيلاء على المدارس من جانب الولاية. وقد دفع هؤلاء بأن

الاستيلاء ينتهك الحقوق الدستورية للمقيمين. كما أعلنوا عن خطط لاستصدار حكم قضائى أولى يضع حداً لإدارة مدارس المدينة من جانب الولاية عن طريق شركات خاصة بنهاية مارس ٢٠٠٢. وقد رفعت اتحادات الموظفين وجماعات أخرى قضيتين أخريين فى محكمة الولاية، الأولى تطعن فى دستورية الاستيلاء، والثانية تسعى إلى منع أحد شركات الإدارة المدرسية من القيام بمشروعات مع المدنية بناءً على تعارض المصالح.

إن المدارس فى الولايات المتحدة وأماكن أخرى توضع الآن ضمن منطق نظام السوق، حيث أدى تفويض الميزانيات ودعوات الإصلاح وغزو الشركات للنظم المدرسية إلى تمهيد الطريق إلى سيطرة الشركات على التعليم. فى القسم التالى يعرض الفصل نتائج مقابلات أجريت مع المعلمين حول خبراتهم مع إصلاحات الخصخصة فى فلادلفيا.

المعلمون

فى إطار نموذج الفرض يتم توجيه المعلمين على نحو متزايد من جانب الإدارة التعليمية ومديرى المدارس إلى التركيز على رفع درجات الاختبارات أكثر من التدريس من أجل الفهم، أو التدريس - وفقًا للتقاليد الطويلة لجون ديوى وجرامشى وجيرو وغيرهم من التربويين التقدميين - باعتباره نشاط عقلى يتعهد التحول الاجتماعى الديمقراطى.

إن المعلمين قلقون جداً من نتائج هذه الإصلاحات. ومن عمليات خفض التكاليف الواردة هنا ما يعمد إلى تقليل عدد المكتبات وأمناء المكتبات.

> **المعلم ج: أنا لا أفهم لماذا يفكرون فى حرمان أطفال هذه المدرسة من المكتبة وأمينها. ففى ظل كل الاهتمام بالمعرفة المبكرة بالقراءة والكتابة ونقص هذه المعرفة، يكون آخر شىء يتم**

تخفيضه هو المكتبات. إننا الآن ليس لدينا كتب فى الفصول، فقد أخذوا حتى آخر المصادر التى كانت لدينا ... إنه شىء لا يصدق.

لقد أخذت وزارات التعليم على مستوى الولايات تتدخل على نحو متزايد فى حياة المعلمين ومعلمى المعلمين من خلال المزيد والمزيد من القواعد والتعليمات. وهذه التعليمات تتجلى فى الطرق الفنية مثل المحاسبة وتنفيذ التكليفات والمراجعة. ويحدث هذا التقييد من خلال أساليب فنية مثل المعايير والاختبار والقياس.

ومؤخرًا أخبرتنى خريجة كانت طالبة معى (المعلمة أ) إنها سوف تترك إدارة فلادلفيا التعليمية. وقالت أنها تريد أن تستمر فى التدريس فى إدارة فلادلفيا لكنها لا تستطيع.

المعلم أ: أنتِ تعلمين أن حاكم الولاية ريدج باع هذه الإدارة التعليمية إلى شركة إديسون قبل أن يترك منصبه. إنه لم يكن يحترم المعلمين ... أنت تعلمين أنه قال ذات مرة أنه سيضع أى شخص غير مؤهل فى الفصول ,وهذا ما فعله حقيقة، وبعد ذلك يخرج ليشهر بنا ويشكوا من انخفاض درجات الاختبارات.

فى الأول من أغسطس ٢٠٠١ وقع اختيار الحاكم توم ريدج (حاكم بنسلفانيا السابق ووزير الأمن الداخلى حاليًا) على شركة إديسون للمدارس، أكبر شركة خاصة لإدارة المدارس العامة على المستوى القومى، لكى تقوم بمراجعة مكثفة على مدى شهرين للإدارة التعليمية والمالية بإدارة فلادلفيا التعليمية. قال ريدج -الجمهورى - أن "شركة إديسون للمدارس تعرف ماذا يتطلب الأمر لكى تحقق نتائج تعليمية أفضل للأطفال، وتعرف كيف تحقق ذلك فى حدود الميزانية"، ولذلك كلف شركة إديسون بإجراء دراسة بتكلفة ٢.٧ مليون دولار لمدارس الإدارة، وقد أصبحت هذه الدراسة الأساس للخطة التى وضعها خليفته شويكر Schweiker. وعن هذا المشروع قال ريدج

لن يكون هذا المشروع مجرد مراجعة أخرى لكتب إدارة فلادلفيا، وإنما سيكون تحليل إدارى خبير قائم على الأداء لم تشهده مدارس فلادلفيا من قبل. والمشروع مصمم ليس للإشارة بالأصابع، وإنما لكى يقترح أفكاراً جديدة ومنظورات إبداعية لإدارة فلادلفيا، أفكاراً ومنظورات تُؤَسَس على الواقع اليومى للإدارة وتحسين نظام تعليمى حضرى يتقدم بصعوبة"(٤).

المعلم ب: إن المعلمين يهربون من هذه الإدارة. أنتِ تعلمين أن الجميع يعرفون أنه توجد مشكلات، حتى أن هناك كثيرون يرون أنها مشكلات حادة. أنا أيضًا سوف أستقيل (وتتنهد). كتبت ذلك فى خطاب إلى مدير المدرسة، وقال لى مستشار الإدارة أن "المديرين والسياسيين والبيروقراطيين الكثيرين الذين يجلسون فى أبراج عاجية فى مجمعات المكاتب ومقار الاتحادات وإدارة المدينة يصوغون حلولاً للاستهلاك الجماهيرى. لو أنهم يتنازلون ويسألون المعلمين والطلاب الذين يعملون بلا ورق أو أقلام رصاص فى مدارس ملوثة بالاسبتوس، ويستمعون لأرائهم ومنظوراتهم، لربما سمعوا الحقيقة ووجدوا بداية الطريق إلى النور. لكنهم لا يفعلون ذلك، ولن يفعلوا ذلك، إلى أن يتوقف النظام تمامًا عن مكافأة الكذب والخداع. لن يفعلوا ذلك إلا عندما لا يُسْمَح لمن يُسَمون قادتنا بأن يدوسوا على أرواح وآمال أطفالنا وهم يهرولون فى جشع إلى مزيد من القوة والتأييد فى استطلاعات الرأى.

إن المعلمين يحتجون وهم ساخطون على ما آلت إليه الأمور. فالمعلمون لا يتم استبدالهم بآخرين فحسب، بل إن من يبقى منهم يعيش تحت رحمة خفض النفقات. وقد قال بعضهم أنهم أُجْبِروا فى العام الماضى على أن يضعوا التدريب على

الاختبارات محل الرسم والموسيقى. إن هناك سخط عارم. فالمعلمون يعرفون أن التعليم ليس مجرد أخذ اختبارات.

المعلم ب: هذه الاختبارات متحيزة ثقافيًا ولا تقيس الأنوار الساطعة التى أراها فى عيون أطفالى. فهل هى تقيس المعرفة التى يمتلكها تلاميذى ولا يزالون يدخرونها؟

المعلم إى: أنا مستشارة توجيه هنا منذ أربع سنوات، وكنت معلمة على مدى ٢٦ سنة قبل ذلك، وبذلك أكون قد عملت فى إدارة فلادلفيا لمدة ثلاثين سنة. وأنا أيضًا نتاج لهذا النظام التعليمى. لكننى سوف أتقدم بطلب تقاعد مبكر فى نهاية هذا العام. لقد عملت بجد لكى أساعد طلابى فى التحصيل، سواء فى الفصل أو فى مكتب التوجيه. وسوف أترك العمل لأننى لا أقبل ما يحدث فى إدارة فلادلفيا التعليمية. فأنا أشعر أنهم فى إدارة فلادلفيا أو المدينة أو الولاية لا يقدروننى كمهنية مجتهدة. (تنهال الدموع من عينيها). لم يهتم أحد بطلب رأى هؤلاء الذين يعملون فى الخطوط الأمامية -المعلمين- أولئك الذين يعملون فى المدارس يوميًا، ويحاولون أن يقدموا للطلاب أفضل تعليم ممكن. من الواضح أن آراءنا ليست مطلوبة. ولذلك، ولأسباب يصعب حصرها، لن أكون فى هذا المكان عندما يبدأ العام الدراسى فى سبتمبر. وأنا أتمنى الخير للطلاب وأولياء الأمور والمعلمين الباقين، لكن صراحة كل ما أراه يحدث هو الأسوأ بالفعل. وأنا أرفض أن أكون جزءًا من عملية تأخذ من الطلاب فى نفس الوقت الذى تُثْمِر فيه أرصدة أشخاص آخرين.

المعلم د: ماذا عن المواد التعليمية للصف السادس؟ ليس لدينا أى من مواد الصف السادس. ليس لدينا شيء نبدأ به مع هؤلاء الأطفال. والمعلمون لا يعودون لأن الباب مفتوح لخروج المعلمين.

إن هؤلاء الرجال والنساء الذين أفنوا حياتهم فى التدريس فى قلب المدينة يجرى إسكاتهم واستبدالهم بمعلمين عديمى الخبرة. فإدارة فلادلفيا ستواجه نقص حاد فى المعلمين فى الخريف مع تقاعد واستقالة ونقل مئات من المعلمين، وسوف يجف مستودع المتقدمين المؤهلين نتيجة لتخبط الإصلاحات المزعومة التى ابتُليت بها مدارس المدينة. ووفقًا لاتحاد المعلمين فى بنسلفانيا فإن "ذلك سوف يتسبب فى كارثة لأطفال فلادلفيا عندما تفتح المدارس فى سبتمبر القادم"، ويضيف تيد كيرش Ted Kirsch من الاتحاد أن "لجنة إصلاح المدارس لن تجد من تلومه إلا نفسها. فتصميمها العنيد على مواصلة هذه التجربة الخطرة فى الخصخصة سوف يكلف فلادلفيا كثيراً من أفضل المعلمين وأكثرهم خبرة وتأهيلاً[٤].

توضح إحصائيات الإدارة التعليمية أن ٤١٦ معلمًا تقدموا حتى الخامس عشر من أبريل بطلبات للتقاعد أو الاستقالة فى الثلاثين من يونيو، وذلك مقارنة بـ ٢٩٠ فى العام الماضى. كما تقدم حوالى ٧٢٠ معلمًا بملء طلبات نقل إرادية قبل السابع عشر من مايو، كثيرون منهم من المدارس التى سيعاد تنظيمها أو تُحَوَل إلى مدارس وثيقة أو تُسلَم إلى الإدارة الخاصة. وفى العام الماضى تقدم ٣٦٩ موظفًا بطلبات نقل بحلول السابع عشر من مايو. ومن بين الـ ٧٢٠ طلب نقل، كان ٢٠٠ منها من معلمى القراءة والكتابة بالمدارس المستهدفة، وقالت الإدارة أنها بصدد إرجاع تلك الطلبات لأنه لن يُسمح بالنقل إلا للمعلمين المعينين الذين قضوا ثلاث سنوات أقدمية فى المدرسة.

وفى ذلك قال تيد كيرش: "الجميع يقولون أن الإدارة بدأت عملية ملء حوالى ٨٠٠ وظيفة تدريس شاغرة. ونحن نتوقع استقالات أكثر بحلول الخريف القادم عندما ينقطع المعلمون المتقدمون للوظائف فى إدارات تعليمية مجاورة. إن الآلاف من أطفال فلادلفيا

سوف يبدءون العام الدراسى الجديد دون أن يجدوا معلمًا مؤهلاً يستقبلهم ويهنئهم بالعام الجديد. والجميع يعرف أنه من غير الممكن رفع درجات الاختبارات دون معلمين مؤهلين ومهتمين ومحبين".

وقالت أرلين كيبمن Arlene Kempin مسئولة الموظفين باتحاد المعلمين ببنسلفانيا تعليقًا على استقالة أحد معلمى الصف الرابع بإحدى المدارس التى أُخْضِعت للإدارة الخاصة:

> **قال إنه فى ظل الحمى المحيطة بخصخصة المدارس العامة وعدم الاحترام الواضح للمعلمين، لا يستطيع أن يتحمل وسوف يترك العمل. وإذا كان هدف لجنة إصلاح المدارس هو أن توفر معلم جيد التأهيل فى كل فصل، فإنها لن تنجح فى ذلك بإلقاء المدارس فى الفوضى وحرمان المعلمين من حقهم فى أماكن عمل خالية من المضايقة والمعاملة التعسفية غير العادلة. إنك عندما تجمع عدد حالات الاستقالة وإنهاء العمل من جانب واحد مع الوظائف الشاغرة فعلاً الآن فى معلمى الفصول التى تبلغ ١٠٠-٢٠٠ وظيفة، ستجد ٨٥٠ وظيفة تدريس مطلوب شغلها هذا الصيف. هذا قبل أن تلفظ المدارس الحضرية مزيدًا من المعلمين المؤهلين.**

المديرون

إن فلادلفيا تفقد مديرى المدارس أيضًا. تحدث إلى أحد طلابى السابقين الذى يعمل حاليًا مديرًا وقال إنه يعرف أنه لا يلاءم نوع المديرين الذى تبحث عنه "الشركة أمريكا".

إن الناس يعودون إلى الفصول ... إنهم يتخلون عن الإدارة، فليس هناك ما يبرر أن تستغنى الشركات عنهم بعد قضاء كل هذه السنوات فى إدارة فلادلفيا التعليمية. وليس هناك ما يبرر أن يبقى المديرون الحاليون فى ظل نظام الجيستابو. سيدخل علينا إديسون مثل ملكة القلوب برؤوسها المقطعة ... فهؤلاء عديمى الرحمة ولا يهتمون بإجراء أى مناقشة. بل يمكننى أن أقول لك أنهم يدوسون الناس بأحذيتهم.

وقال أحد المديرين إن "مدارس فلادلفيا العامة ليست فى طريقها إلى استبدال مدارس عامة فاشلة بمدارس خاصة فاشلة، إنما هى بصدد إعمال المحاسبية من خلال السيطرة على المعلمين عبر التهديد. وتعيين المحاسب والمدير السابق لمدارس شيكاغو العامة بول فالاس فى فلادلفيا يأتى خصيصًا من أجل أسلوب اليد القوية. وفالاس له سجل سابق فى هذه السيطرة من خلال أساليب التهديد بفصل المعلمين وتفكيك المدارس و"إعادة تنظيم المدارس" (بنقل المعلمين إلى مدارس أخرى تعانى من إيقاف الاستثمار) عندما لا يحققون الدرجات المطلوبة. وفالاس لدى وصوله إلى فلادلفيا "أعلن الحرب" على التحصيل المنخفض (تحصيل المقررات كما يتجسد فى درجات الاختبارات).

الطلاب: هجوم مضاد

لعله قد يكون مفاجئًا لكثير من البالغين أن فاعلية الطلاب حية وقوية فى فلادلفيا، عبر طلاب المدارس الأولية والثانوية. فطلاب المدارس العامة بفلادلفيا هم من تزعموا المعارضة ضد استيلاء الولاية على المدارس، كما ذكر المراسل الطلابى لصحيفة كشكول Notebook المدرسية المحلية المستقلة. ففى السابع عشر من أبريل ٢٠٠٢ نظم أعضاء اتحاد طلاب فلادلفيا سلسلة من الاحتجاجات فى الشارع تضمنت

إضراباً طلابياً واعتصاماً وحصاراً سلمياً لمكاتب الإدارة التعليمية احتجاجاً على خصخصة المدارس.

وفاعلية الطلاب، كما تتضح فى هذه الأمثلة، يمكن أن تلهب البالغين للعمل هم أيضاً. وقد قيل أن الطلاب من اتحاد طلاب فلادلفيا وجماعة "الشباب المتحدين من أجل التغيير" كانوا فى طليعة البالغين فى الحصول على الحقائق والبحث عن المعلومات وطلب الإجابات، وحتى الدخول فى عصيان مدنى سلمى. وقد تظاهر الطلاب من هذه التنظيمات وغيرها وأقاموا مسيرات ونظموا زملائهم بشكل مستقل وعقدوا منتديات تربوية وتحدثوا عن نوع التعليم الذى يريدونه. وقد قاموا فى مناسبتين بمنع الدخول إلى مكاتب الإدارة التعليمية احتجاجاً على خصخصة المدارس.

كان أحد الطالبين اللذين تحدثت إليهما طالبة بالصف الأول الثانوى. وقد أخبرتنى أن الطلاب (الملونين فى المقام الأول) يشعرون أنهم قد بِيعوا كالعبيد لصاحب أعلى عطاء من أجل زيادة أرباح الشركات الكبرى. ومن المؤسف أن أعضاء اتحاد طلاب فلادلفيا الذين قدموا نقضاً للمحكمة فى التاسع عشر من أبريل ٢٠٠٣، يواجهون قضية رفعتها الإدارة التعليمية وغرامات مالية قد تصل إلى ٥٠.٠٠٠ دولار بسبب حصار مكاتب الإدارة التعليمية. فقبل يومين نام حوالى ٢٥ طالباً طوال الليل أمام المبنى وحاصروا كل المداخل فى الصباح الباكر. كان ذلك احتجاجاً على اجتماع مخطط فى ذلك اليوم لمجلس ممثلى المدارس SRC كان من المتوقع أن يعلن فيه المجلس عن خططه للخصخصة وتغييرات إدارية درامية أخرى فى سبعين من مدارس فلادلفيا.

ورغم أن مجلس ممثلى المدارس نقل مكان الاجتماع إلى مكان آخر، استدعت الإدارة قوة من الشرطة لإجبار الطلاب على الابتعاد عن مداخل المبنى. وفى الرابع من أبريل ٢٠٠١ أصدر المدعى العام ألبرت سنايت أمراً يسرى حتى أغسطس ٢٠٠٢ يأمر كل المحتجين بأن يبقوا على بعد سبعة أقدام من مداخل المبنى، ويمنعهم من تعليق لافتات على المبنى. ولم تقف الإدارة عند هذا الحد بل رفعت دعوى قضائية

ضد البالغين الذين اشتركوا فى الاحتجاجات مطالبة بتعويض قدره ٢٠٠ ألف دولار تقول أن الإدارة التعليمية خسرتهم بسبب عدم تمكن الموظفين من الوصول إلى أماكن عملهم.

كتبت طالبة بالمدرسة الثانوية وعضو باتحاد طلاب فلادلفيا تدعى سارا القصيدة التالية حول مدارس فلادلفيا تحت عنوان "أنا لست للبيع":

٢,٧ مليون دولار تُلْقَى فى المجارى
لكننا لا نستطيع أن نخبركم أننا نتألم
لكنكم أردتم ذلك من أجل الشركات الربحية
التى تحسن المدارس من خلال عملية تنوير
إن رجال شركة إديسون مدينون بالفعل
لذلك ستوضع علينا بطاقات أسعار حتى يشبعون
هذه ليست طريقة للتعامل مع رجال ونساء المستقبل
إن تمويل مدرسة "فيلى" شىء مخزى بالفعل
إن محنة مدارسنا تجعل الثلج الأبيض نفسه يشيب
لذا قولوها الآن... أنا لست للبيع
أنا لست للبيع
أريد كتاباً دراسيا من التسعينات
إن ذلك حقنا لكننا نستجديه
ألا أستحقُ تعليماً ملائماً

البعض يقول أن إديسون ساعد بعض المدارس
لكن هؤلاء مخطئون ومغفلون بالتأكيد
لأنه في المدارس التي ساعدها إديسون
كان ١٤ من الـ١٥ طالب المطرودين سوداً
انظروا مدرسة إديسون في سان فرانسيسكو أحذركم
أنها من أسوأ المدارس في الدرجات في كاليفورنيا
هل تلك هي الإجابة التي نريد
إن مديري ويتل غارقون في جشعهم
أنا لا أحتاج هؤلاء الذكور البيض الأثرياء
لذا قولوها الآن... أنا لست للبيع
أنا لست للبيع
إن الولاية تفرض ما ترى أنه الحل
لكنكم تسببون لنا مشكلات كالسرطان
إنكم تجلسون باردين في مكاتبكم المكيفة
لكن فلتذكري يا ولاية
لكل فعل رد فعل
إننا طلاب وصغار لكن لدينا كبرياء
إننا أذكياء وأقوياء وقياديين وصوتنا عال

من أفضل منا فى معرفة ما نحتاج إليه

ولتأكلى نفسك يا حكومة فأنا أستطيع أن أقرأ

فنحن صغار لدينا إرادة وقوة

وسوف نرد الهجوم بكل البطاقات التى على الطاولة

إن الكبار هم الذين داسونا، وسوف نكون تحتهم كالمسامير

لذا قولوها مدوية أنا لست للبيع

إنها ليست مدرسة قذرة أو خروقات للحقوق المدنية

ماذا فعلت لتضعونى فى هذه الورطة

لدى بطاقة حول عنقى وأنتم تحددون لى

كيف يجب أن ألبس

هذه ليست طرق لإدارة مدارسنا

فنحن بشر لنا احتياجات ولسنا أدوات لجمع الأموال

وهذا الفأر الصغير الذى هو أنا لن يذهب أبداً إلى]جامعة [يل

لذا قولوها الآن ... أنا لست للبيع

أنا لست للبيع

سارا ديفيسون Sara Davidson طالبة بالمدرسة الثانوية الوسطى، فلادلفيا، ٢٠٠٢

إن سارا، مؤلفة هذه القصيدة، ليست الطفلة الوحيدة التى تنقل هذه التجربة المريرة مع شركة إديسون، والولاية والقطاع الخاص بوجه عام، ويناضلون من أجل إحياء الفعل العام. فمنظمات مختلفة مثل "بحوث من أجل الفعل Research for Action وأكرون ACORN و"أولياء أمور يؤيدون محاسبية المدارس"، وكذلك طلاب كثيرون آخرون تجاوبوا مع تلك الطرق التى بدلاً من أن تقدم الموارد تقدم القواعد. إن الدرس الذى يمكن تعلمه من هؤلاء الناشطين هو أن النضال من أجل تقوية المدارس العامة كجزء من جهد حماية القطاع العام أساسى للعمل من أجل صوغ مجتمع أكثر ديمقراطية يضع الناس فوق الربح.

الهوامش

(1) Revenues for 2001 reflect the reclassification of approximately S6.8 million.

(٢) حسابات الربع الثالث من العام الماضى أكدت أنه تم خفض فاقد العمليات بحوالى ٦٠٠ مليون.

(3) Patrick Shannpn, Becoming Political, Too: New Readings and Writings in the Politics of Literacy Education (Portsmouth, NH: Heinemann, 1989), available at:

www.heinemann.com/shared/authors/302.asp

(4) Arlene Kempin, "Major Teacher Shortage Looms: Record Numbers Retire, Resign, Transfer," The Reporter: A Publication of the Pennsylvania Federation of Teachers, June 2002. Available at: www.pft.org/archrept0602/p2.html

(5) Ibid.

(6) Ibid.

(7) Edison Schools Corporation Press Release, August 1, 2001.

الفصل الثانى عشر
السيطرة
مرض الهوية والفاعلية فى الثقافة الافتراسية

رون سكاب(*)

... إن الشخص التكيفى هو الشخص باعتباره شىء، والتكيف يمثل فى الغالب شكلاً ضعيفًا من الدفاع عن الذات.

Paulo Freire, Education for Critical Consciousness

لا شىء من هذه الجوانب - لا العملية ولا الآلية الصناعية أو المالية - لا يكشف عن جنون الآلة الرأسمالية والخاصية المَرضية لعقلانيتها، إنها ليست عقلانية زائفة، وإنما عقلانية صحيحة لهذه الحالة المَرضية، هذا الجنون ...

Gilles Deleuze and Felix Guattari, Anti-Oedipus: Capitalism and Schizophrenia

إن العلاقة المتجددة بين التعليم والجيش وقطاع الشركات فى الولايات المتحدة أصبحت أكثر بروزًا رغم كارثتى إنرون Enron ووردكوم WorldCom والقلق الدائم على الأمن القومى منذ ١١ سبتمبر. ولنا أن نفكر فقط فى العدد المتزايد من الأمريكيين الذين أصبحوا يعتبرون مؤسسات الجيش والشركات علامة الإنجاز والنجاح،

(*) رون سكاب Ron Scapp مدير برنامج الخريجين فى التربية الحضرية ومتعددة الثقافات بكلية ماونت سينت فينسنت Mount Saint Vincent ومؤلف .. Teaching Values (Routledge, 2003)

ويتبنونها كنماذج مقبولة لتوجيه إصلاح مدارس الأمة. ويمكن الوقوف على أمثلة لذلك فى (١) الشعبية المتجددة لفيلق تدريب ضباط الاحتياط الصغار، (٢) توسع مشروع شركة إديسون، الشركة التعليمية الربحية التى تدير الآن مدارس الوثيقة فى أكثر من عشرين ولاية، (٣) الدعم الواسع والحماسى للمبادرة القومية للرئيس بوش لاستخدام العسكريين ورجال الأعمال لشغل الوظائف الإدارية والتدريسية فى المستويين الأولى والثانوى، (٤) العدد المتزايد من الكليات والجامعات "غير الربحية" التى تتبع نموذج جامعة فونيكس Phoenix الربحية فى تسويق تعليم بلا أهداب، خاصة للمستهلكين على طريقة الوجبات السريعة. فبداية من مرحلة ما قبل المدرسة وحتى مدارس التخرج، يتحول المسئولون عن التعليم أكثر فأكثر إلى القيم والاستراتيجيات والبناء التنظيمى للجيش والشركات من اجل إنقاذ التعليم، وهم بذلك لا يتركون طفلاً (اقرأها أنت "مستهلكًا") يتخلف"(*).

إن السياسيين ومديرى المدارس والمعلمين وأولياء الأمور والطلاب على السواء يبحثون عن بيئة أفضل وأكثر أمنًا للتدريس والتعلم. لكن السؤال هو: لماذا اتجه كثير من الناس إلى الجيش وقطاع الشركات لتحسين المدارس؟ لماذا أصبح الانضباط والنظام والمحاسبية والفعالية وخفض التكلفة العلامات الإرشادية لتحويل المدارس، وليس الشواغل الديمقراطية التقليدية مثل الاهتمام بالعدالة الاجتماعية والمساواة وتربية مواطنين ذوى عقول ناقدة. بمعنى آخر لماذا تم التخلى عن التربية لصالح "السيطرة" taking command على حياوات الطلاب والمعلمين وكذلك المدارس التى يقطنونها؟

سوف أدفع فيما يلى بأن السبب فى اعتماد السيطرة على منظورات وقيم الجيش والشركات هو الظروف الوجودية النابعة مما اسماه بيتر ماكلارين Peter McLaren

---

(*) يلمح إلى قانون "لن يُتْرَك طفل يتخف"[المترجم].

"الثقافة الافتراسية" predatory culture وهى ثقافة لا تزال تزدهر وتهيمن على كل جوانب السياسة العامة الأمريكية.

فى إدانته القوية لعسكرة المدارس العامة وإخضاعها للشركات تحت عنوان "الدمار المصاحب: إخضاع المدارس العامة للشركات تهديد للديمقراطية"، يدفع كينيث سولتمان على نحو مُقْنِع بأن جزءًا من التركيز الحالى على إصلاح التعليم يمكن إرجاعه إلى حقيقة أنه اليوم فى الولايات المتحدة:

> **تعمل لغة ومنطق السوق النافذان على إعادة تعريف الحيز العام باعتباره فرصة أخرى للربح. ففى النظام الليبرالى الجديد الحالى تحجب مُثُل المشروعات والشركات المتمثلة فى المنافسة والمحاسبية والفعالية الاهتمامات الديمقراطية بتنمية مواطنين نقديين ومؤسسات تتعهد العدالة الاجتماعية والمساواة(١).**

بهذه اللغة وهذا المنطق المهيمنان على النقاش حول الحيز العام، بما فى ذلك النقاش حول إصلاح المدارس، تأتى إعادة صب، أو إذا شئت إعادة إنتاج، الطلاب، والمواطنين عمومًا، بوصفهم مجرد مستهلكين يجب حماية حقوقهم فى الاستهلاك من أى وكل تهديد، بما فى ذلك نوع التساؤل "الفوضوى" الذى تستحدثه وتشجعه التربية.

ويواصل سولتمان ملاحظته مؤكدًا أن:

> **انتصار لغة السوق يفرض رؤية واحدة للمستقبل ومجموعة واحدة من القيم، وهى تحديدًا الإيمان بالرأسمالية. وعندما يحدث ذلك لا يبقى هناك ما نناقشه. فالسلطة تصبح غير قابلة للنقاش، والمعارضة التى هى شريان الحياة للديمقراطية تؤخذ على أنها فوضى وتهديد. ويصير السؤال الوحيد هو كيف يُفْرَض هذا الإيمان بالسوق. وهنا يتحول التعليم إلى مسألة فرض(٢).**

وجهود تحويل المدارس فى هذا السياق تصبح جهوداً للسيطرة والتوجيه. حيث يحل الفرض محل الإدارة، وتحل الإدارة والضبط محل التدريس. ويقرر سولتمان صراحة أن:

التركيز على الضبط يتضمن قيود المنهج المحكمة مثل موجهات المنهج المفروضة من الحكومة الفيدرالية والولاية والمستوى المحلى، والمناهج الأكثر تقنيناً الموجَهة نحو اختزال التدريس كعمل عقلى. وفى المناخ الحالى تتجاوز القيود من أعلى لأسفل حتى أكثر الضوابط التقليدية تقييداً لعمل المعلمين. فقد تجاوزنا عصر فردريك تايلور، ودخلنا عالم جديد تماماً يتميز بالوسائل المعادية للنقد والقاتلة للتفكير(٣).

وفى هذا السياق يتم التضحية بالتربية من أجل القانون والنظام كما يُعَرَفان بلغة ومنطق السوق، أى التدفق السلس والمتواصل للإنتاج والاستهلاك. وفى هذا المناخ يجد الطلاب والمعلمون أنفسهم حتماً عرضة للتعرية والضبط المنظمين لحياتهم وإخضاعها للسيطرة نتيجة لجهود الخصخصة لتحويل المدارس، وتحديداً جهود تقليص، إن لم يكن نسف الدعم الحكومى للتعليم العام والخدمات العامة على وجه العموم. ويصبح هذا الهجوم أكثر فورية وعينية بسبب العسكرة التالية للحيز العام، التى تحدث بشكل مراوغ باسم ضمان الأمن فى المدارس غير المستقرة، ولعله بالتأكيد ضمان أمن الاستثمارات فى "سوق التعليم" حديث التأسيس، وتوسعاً أمن رأس المال المستثمر فى أى مكان حول العالم.

إن الحفاظ على "هذا الإيمان بالسوق"، كما يذهب سولتمان، يتطلب فرض ما يسميه هنرى جيرو "أيديولوجيا ثقافة الشركات". ومعنى ذلك باختصار أن تغيير المدارس يصبح جزءاً من عملية أكبر هى تعزيز وحماية القيم الأمريكية، وجزءاً من الدفاع ضد ما يزعم اليمين الدينى والسياسى أنه الشر ذو الحدين الذى يفسد أمتنا: النسبية الأخلاقية والرفاه الاجتماعى. ويتمثل إحدى نتائج فرض وصيانة هذه

الأيديولوجيا فى انتشار ما يصفه بيتر ماكلارين Peter McLaren بـ"الثقافة الافتراسية"، التى يقول عنها:

> **فى الثقافة الافتراسية تُصاغ الهوية بشكل رئيسى، وفى الغالب بطريقة عنيفة، حول الإسراف فى التسوق والاستهلاك والعلاقات الاجتماعية الطبيعية للرأسمالية ما بعد الصناعية ... والثقافة الافتراسية هى الفتات الباقى من الثقافة البرجوازية، مجردة من تظاهرها المتغطرس بالمدنية والحماسة الثقافية، التى تركت مكانها لاستحواذ القوة الصارخ الذى يغذيه شره الرحلة العالمية للرأسمالية(٤).**

فى مثل هذه الثقافة يجد التعليم نفسه مغموراً فى رغبات ومخاوف أولئك الذين يكافحون من أجل السيطرة على المصير الأخلاقى لأمتنا، أولئك الذين يعلن ماكلارين أنهم واقعون تحت استحواذ "القوة الذى يغذيه شره الرحلة العالمية للرأسمالية". وفى مثل هذه الظروف يتحول التعليم سريعًا إلى مجرد فرض للقيم التى تُعَرَف ويتم الدفاع عنها بشكل دوغمائى من جانب أولئك الذين يتعهدون بالولاء أولاً وقبل كل شىء للربح والأمن، والذين لا يكونوا بالضرورة ملتزمين بالديمقراطية.

ويمكن للمرء أن يذهب أبعد من ذلك إلى أن الثقافة الافتراسية هى فى الحقيقة الابن الشرعى "لجماعة" أكثر التزامًا بالربح والأمن –اليمين الدينى والسياسى– جماعة توصف بسخاء بأنها معادية للحيز العام. وكما ينبه هربرت شيلر Schiller فى كتابه حول استيلاء الشركات على التعبير العام، فإنه:

> **رغم أن ذلك كان جليًا فى كثير من الإجراءات التى تبناها الكونجرس قبل عام ١٩٨٠، فقد كانت سياسة إدارة ريجان هى التى دمرت القطاع العام. فالتخفيضات الضريبية الضخمة فى ١٩٨١–١٩٨٢، مصحوبة بزيادة مذهلة فى الإنفاق العسكرى،**

خلقت العجز الضخم فى الثمانينات: الذى بلغ تريليون دولار فى ثمان سنوات. وفى مواجهة هذا العجز غير المسبوق صوروا لنا الاستقطاعات الكبيرة التى حدثت فى الإنفاق الاجتماعى والعام على أنها لازمة ويستحيل تجنبها. وكان ذلك حقيقةً هو القصد من هذه السياسة منذ بدايتها.

وعلى ذلك يجب أن ننظر إلى ميلاد الثقافة الافتراسية على أنه يرتبط بشكل معقد بالسياسات التى روجت لها الجماعة التى رفعت ريجان إلى الرئاسة وقامت بقسوة وبطريقة غير شرعية (إن لم تكن غير قانونية) بتقليص دور الحكومة فى خدمات عامة مثل الرعاية الصحية والتعليم، وأرست لغة الهوية والفخر الوطنيين بالموارد المطلوبة بشدة. وفى نقدهم لفرض هذه الهوية الثقافية القومية، يدفع ستانلى أرونوفيتز Stanley Aronowitz وهنرى جيرو فى كتابهما "تعليم ما بعد الحداثة: السياسة والثقافة والنقد الاجتماعى" بأنه:

بداية من المدة الرئاسية الثانية لإدارة ريجان اتخذ النقاش حول التعليم منعطفًا جديدًا. فالآن، وكما فى السابق، أصبح اليمين هو الذى يوجه النقاش، لكن موقعه تغير جذريًا. فأهمية ربط الإصلاح التعليمى باحتياجات الشركات الكبرى ظلت تؤثر على النقاش، فى حين أن المطالبة بأن تقدم المدارس المهارات الضرورية للإنتاج المحلى وتوسيع رأس المال إلى الخارج أفسحت المجال ببطء لتأكيد أهم على كون المدارس مواقع للإنتاج الثقافى. والتأكيد على الإنتاج الثقافى يمكن أن يُرَى فى المحاولات الحالية للتعامل مع قضية المعرفة الثقافية، وفى تطوير المنهج القومى، وفى مبادرات الإصلاح التى تنزع إلى تزويد الطلاب باللغة والمعرفة والقيم الضرورية للحفاظ على التقاليد الأساسية للحضارة الغربية(٦).

ومع هذا التحول ينجر الناس بعيداً عن الاحتياجات العينية للطلاب والمعلمين ويُدْفَعون دفعًا إلى حروب الثقافة. فقد كان اليمين، ولا يزال، قادراً على إدعاء السمو الأخلاقى عن طريق تحريف نقاش التعليم وإلهاء كل الأطراف بمطالب "المعايير" و"المحاسبية" و"المعرفة الثقافية" على طريقة هيرش.

إن رؤية اليمين الجديدة لأمريكا كانت حلم ريجان بغد أكثر إشراقًا، أو "صباح جديد" كما تم تأطيره. لكنه كان يومًا جديداً يقوم على ضرورة شراء الجماعة كلها لهذا الحلم والنظر إلى نفسها بوصفها الجماعة الوحيدة التى تمتلك القيم والقدرات الملائمة لتصور ولتأسيس غد أفضل. وأولئك الذين يسيطرون على مصير أمريكا الأخلاقى والسياسى أخذوا ينظرون إلى أنفسهم على نحو صحيح باعتبارهم أعضاء "ذوى امتيازات" فى جماعة ذات عقلية يمينية. فى كتابه ذى البصيرة النافذة "الجماعة: البحث عن الأمان فى عالم غير أمن"، يحذر زيجمونت بومان Zyg-munt Bauman من أنه:

> **لا بد من دفع ثمن لميزة "كوننا جماعة"، وهذا الثمن يكون بسيطًا أو حتى غير مرئى طالما تبقى الجماعة فى الحلم. والثمن يُدْفَع بعملة الحرية ... "(٧)**

وبالطبع بدأ ريجان وجماعته فى إضعاف الحيز العام باسم الحرية ذاتها (اقرأها أنت "حرية المشروع"). وقد أدت كلمة ريجان السحرية "إلغاء القيود التنظيمية" deregulation وتطبيق الكونجرس لها عن طريق حزمة تحفيز غالية الثمن لإفادة الصناعات الخاصة (تحديداً خفض الضرائب بدرجة غير مسبوقة) إلى ميلاد الثقافة الافتراسية وقرينها: الرغبة فى درجة أكبر من الأمن للسوق الذى أصبح الآن "محرراً" وخارج السيطرة.

ومع إلغاء القيود التنظيمية اتُهِم الأمريكيون بهوس الاستهلاك المنفلت والمسئولية عن صنع ذلك فى أنفسهم. نتجت هذه التهمة المزدوجة عن الثقافة الفصامية:

الأمريكيون الآن توجههم الرغبة فيما لا يملكونه، لكنهم أيضًا متخمين بالقلق حول مستقبلهم، أى ما لا يعرفونه. ففى أمريكا التى ألغيت فيها القيود التنظيمية وُعِد الناس بالحرية، لكنهم فى الحقيقة أُجْبِروا على الإذعان لديناميات السوق القلقة والمتقلبة. لقد كان المستقبل غير محدود وغير واضح، وتم تسكين القلق بمجرد أن بدأت الحرية للجميع المدعومة من الحكومة. و"فى وسط عدم اليقين وعدم الأمان"، كما يلاحظ بومان، "يكون الضبط (أو بالأحرى الاستسلام لحالة 'ليس ثمة بديل آخر') قائمًا على الدفع الذاتى وإعادة الإنتاج الذاتية ولا يحتاج إلى مشرفين أو مراقبين للإشراف باستمرار على إعادة إنتاجه"(٨). والسياسات المحررة من القيود التنظيمية، تلك السياسات التى حررت رأس المال ومكنته من الاستثمار والانتقال إلى ومن السوق بسرعة ودون رقابة تذكر، لم تنتج فحسب بيئة شركاتية وعسكرية تقوم على الضبط الذاتى، وإنما أيضًا ثقافة افتراسية خارجة عن السيطرة. فقد غدت ثقافتنا تتوجه بقوى تغرى الكثيرين من الناس بألا يحلموا أو يرغبوا، ذلك أن الحرية فى الاستهلاك أبعد من وسائلنا. ومع ذلك فقد أصبحت أيضًا ثقافة، بما ينم عن التناقض، مُسْتَحوذة بالثروة والأمن وقلقة بشأنهما، ثقافة تذعن لديناميات دفع وإعادة إنتاج نفسها استنادًا إلى انعدام اليقين وانعدام الأمان فى "السوق الحر".

وفى لحظة فى التاريخ الأمريكى، عندما كان أولئك الذين اِنتُخِبوا فى الحكومة منهمكين فى تفكيك الحلم، كان أمريكيون كثيرون منهمكين فى شراء هذا الحلم. انهارت القيود أمام المشروعات، وانهار حائط برلين، وانهارت أيضًا نوعية الحياة للمواطن المتوسط، الذى لم يجد، كما فعلت الحكومة، إلا أن يتهم طريقته فى الجرى وراء الحلم. ومع تنامى الدَين المُنْهِك، تنامى أيضًا المجال المُضَلِل للثقافة الافتراسية. وذلك، كما يدفع ماكلارين، لأن:

> **الثقافة الافتراسية هى المُضَلِل الأكبر. وهى علامة على صعود الخيال المُجَفَف الذى فقد قدرته على الحلم بطريقة مغايرة. إنها ثقافة الضحايا المثارين جنسيًا والثوريين المخدرين. ونحن جميعًا**

أبنائها وبناتها. والخوف الرأسمالى الذى يشعل الثقافة الافتراسية يُفَعّل على المستوى العالمى من خلال افتعال الأزمات الضرورية، المالية والاجتماعية. لقد أصبحت الحاسبات المقاولين الجدد للتاريخ، بينما تم اختزال مستخدميهم إلى نفايات لماكينة رمزية وموضوعات جزئية فى محل النفايات فى الثقافة الافتراسية، والمجازات المانوية لـ"نحن" فى مقابل "هم" و"الذات" فى مقابل "الآخر". وقد طُمِر الاجتماعى والثقافى والإنسانى فى الرأسمالى(٩).

إن الاضطراب والأزمات المالية والاجتماعية "الضرورية" التى تحدث لأننا نحلم فقط بهذه الطريقة وليس طريقة أخرى، تعزز، كما فى رثاء ماكلارين، حبناء ذوات تبدو غير راغبة أو غير قادرة على أن تسحب نفسها من لولب الاغتراب الذى أطلقته قوى الطمع والخوف المُدَومة. ومع ذلك فمن داخل دوامة التشويش والرغبة والقلق الافتراسية يسعى أمريكيون كثيرون اليوم إلى إعادة تنظيم وإصلاح حياتهم، بالطريقة التى تمنوا أن تكون عليها حياتهم (سحر الفوز بيانصيب أو الاستفادة من وول ستريت لاستمرار الدفع الذاتى وإعادة الإنتاج الذاتى).

والثقافة الافتراسية، كما تبدو معقدة وحتى متناقضة، تحرر نفسها فى ذات الوقت من القيود التنظيمية فى حالة من الغزارة الجنونية، بينما تسعى بشكل مسعور لأن تسيطر على تجاوزاتها، فقد حان الوقت لوضع وإزالة الحدود والقيود على الحياوات الممزقة والمكشوفة، الحياوات التى تقترب من – وتبتعد فى نفس الوقت عن– "القيم الأساسية" الأثيرة. وهذا هو الامتصاص الاقتصادى – الاجتماعى – النفسى الذى يدفع تحويل كل شىء، بما فى ذلك التعليم. إن كل شىء أصبح متمدد بشكل زائد بل بشكل مفرط، وقد حانت اللحظة لإعادة تكوين وإعادة بناء واستعادة ترتيب الأشياء. ومن يتولى السيطرة أفضل من مصادر صيانة حلم الثروات والحماية؟ ومن المؤهل أكثر لإعادة الأوضاع إلى النظام لكى ينقذنا من أعدائنا: من أنفسنا؟ ومن

أفضل من الجيش والشركات اللذين جعلونا افتراسيين قبل غيرهما؟ من أفضل من أولئك الذين خلقوا ودفعوا فى اتجاه الحلم أبعد من وسائلنا؟ وعلى ذلك فإن التحول انعكاسى بطبيعته. وهذا حقيقة هو ما يطلق عليه ديلوزى وجواتارى Deleuze and Guattari دون سخرية "عودة العقلانية المَرَضية"!

كانت نتيجة ذلك إننا وجدنا أنفسنا اليوم فى وسط حركة إصلاحية تطلب بشكل مَرضى مدخلات من أولئك الذين أطلقوا لوالب كثيرة خارج السيطرة. والكثيرون فى هذا المرض يعودون "عقلانيًا" إلى الجيش بسبب سمعته فى الاستعداد للأزمات عن طريق الانضباط والاستقامة والشجاعة. ويعود كثيرون أيضًا إلى الشركات بسبب خبرتها فى المنافسة والمسئولية (المالية) و(ضبط) الجودة. وعلى نحو مفهوم، وإن كان ذلك مبنيًا على خطأ، يعود الكثيرون إلى الجيش والشركات بسبب سجل نجاحهما "المثبت" وتاريخ "تميزهما". وهم يعودون إليهما، هكذا تسير حجتهم، لأن الجيش والشركات فقط يمكنهما أن يحولا التعليم، وهما يستطيعان أن يعيدا الضبط والمحاسبية والكفاءة، وهما فقط يستطيعان أن ينقذونا (مما اقترفته أيديهم: الثقافة الافتراسية).

إن حقيقة أن كثيرين جداً من الأمريكيين لا يزال يعميهم الوعد الوضاء للحلم - الحلم بغد أفضل تأسيسًا على عام ماضى أفضل- ربما تكون جزءًا من التفسير. فأمريكا لا تزال كما هو واضح تتوق إلى ماضى لم يكن، وحاضر غير قائم، ومستقبل ليس من المحتمل فى أحسن الأحوال أن يثمر ما لم يحدث شيء راديكالى. يوجز ماكلارين هذه الحالة دراميًا بالطريقة التالية:

> **إننا نعيش الآن فى المستقبل السالف future anterior الذى نكتشف فيه أننا لدينا حنين عميق إلى لحظة لم تحدث بعد، حتى فى الخيال. لقد وصلنا إلى قمة حاضر غائب من الرعب الذى لا يوصف والمتع غير المسماة. لم تعد الديمقراطية هى القوة الدافعة فى حياتنا اليومية، وانتسابها إلى البراءة انكشف منذ وقت**

طويل على أنه موقف الشرير الوقح. لقد تخلينا عن البحث عن تصور شامل وغير متمايز ومتجاوز للعدالة الديمقراطية. وقد غدونا الآن لا نرغب فى العدالة، وإنما فى الإتاحة. ونطالب بأن يتاح لنا كل شىء، بما فى ذلك الماضى والحاضر والمستقبل فى لمحة واحدة. فقد أخفقت النزعة الإنسانية فى تقييد رغبة المواطن البرجوازى فى القوة. والقوة المتنكرة فى ثوب التحرير أصبحت مفوضة من منطق الاستغلال الذى يدفع قوى السوق. والإمبريالية هى اسم هذه القوة(١٠).

وفى مثل هذه الحالة من الشوق والرغبة والحاجة، هنا والآن، وما أنتجه واستهلكه الآخرون، يجد الكثيرون أنفسهم يُبْعَدون عن الأمل والوعد الذى تدفعه أحلام اليقظة الديمقراطية الأصيلة، ويتقدمون بدلاً من ذلك نحو ما سيكون وما سيأتى (الهواتف الخلوية والسيارات العملية الرياضية SUVs وأجهزة المساعد الرقمى الشخصى اليدوى PalmPilots من بين المنتجات الكثيرة الأخرى التى تمثل القوة)، فقط إذا تمكن المرء من الوصول إليها جميعًا. فإتاحة الأشياء، أو إمكانية الوصول إليها، أصبح مهم تمامًا، إن لم يكن أهم من الأشياء ذاتها. فالأشياء، على كل، تأتى وتذهب، وتظهر وتختفى، بينما إمكانية الوصول إلى ما سيكون وما سيأتى، أيًا كان هو، وفى أى يوم سيأتى، يصبح المؤشر المثالى للقوة ذاتها، مؤشر الوجود والهوية فى الثقافة الافتراسية، حيث تصبح إمكانية الوصول هى الفاعلية.

إن أمريكيين كثيرين يريدون نصيبًا فيما سيكون، أن يكونوا أصحاب أسهم. وهم بذلك يعيدون أنفسهم إلى الآلية التى بدأت عملية الإنتاج والاستهلاك التكرارية، عملية الاستهلاك ثم الاستهلاك، عملية الاستهلاك والتماهى، حيث يتحولوا حتمًا إلى ما اسماه جيرو "ذوات مستهلكة" .consuming subjects فرغبتهم لم تعد فى تملك ذلك الذى لم يتملكوه بعد، وإنما أن يكونوا ذلك الذى لم يتملكوه بعد، لأن طريقة وجودهم فى العالم أصبحت مشوشة ومشوهة: "عقلانيين بشكل مَرَضى". أنهم يفهمون أنفسهم

على أنهم فقط ما يملكون، وما يمكنهم الوصول إليه، فهذا ما تصير إليه قيمتهم الوجودية فى الثقافة الافتراسية. وهذا هو السبب وراء أفعال الاستهلاك المتواصلة والرغبة التى لا تشبع فى الإتاحة. وفى الثقافة الافتراسية تكون الهوية سريعة الزوال تمامًا مثل الأشياء التى تستهلك، ومعها فاعلية الإنسان. إن قيمة الإنسان بذلك تتحدد فى المقام الأول بالأشياء التى يستهلكها، ذلك أنه بدون هذه الأشياء يكون الإنسان لا شيء فى الثقافة الافتراسية. فبدونها يتعذر التعرف على الإنسان، بل لا يكون موجودًا، أو يكون خاملاً، لأن هوية وفاعلية الإنسان تُدْمَج وتُشَبَّك بشكل شرير فى الأشياء التى يستهلكها (فالإنسان يُعْتَرف به ويكتسب الفاعلية، وهو وبدوره يعترف بفاعلية الآخرين عن طريق نظام من الدلالات يرادف المكانة الاجتماعية المعاصرة: منتجات نايك Nike وجاب Gap وأرمانى Armani ورولكس Rolex وما إليها: فأنت ما تستطيع أن تصل إليه).

فى معرض تقييم المضمون الوجودى لهذه الذاتية يتعجب سولتمان قائلاً:

هل هذه هى ذروة ونهاية النزعة الاستهلاكية عندما لا يرغب الأفراد فى السلع فحسب وإنما أيضًا يرغبوا فى أن يكونوا مرغوبين هم أنفسهم كسلع؟ فنحن لا نريد هذه الأشياء المقدسة فحسب، بل نريد أن نكون الأشياء ذاتها. نريد أن نكون مرغوبين كما هى مرغوبة، ونُستَهلك كما تُستَهلك، ونُشْتَهى كما تُشْتَهى، ونُلْتَمَس كما تُلْتَمَس ونُجَل كما تُجَل ونُثْمن كما تُثْمن، وأن يعاد إنتاجنا إلى ما لا نهاية تماما كما نتعامل مع اللاتناهى المتطاول لهذا القدير (الله/السلعة). وتلك هى المشكلة الرئيسية فى الثقافة الاستهلاكية: أنها تنتج الرغبة فى خدمة الاستيعاب والمجانسة والتنازل عن التفرد الفردى، حيث تنزع إلى التكتيل massification واللاتمايز والانقياد البهيمى[11].

لهذا السبب يعود الكثيرون بطريقة مَرضية إلى الجيش والشركات طلبًا للدعم والتوجيه. إنهما النظامان والقوتان الكامنتان خلف تأسيس وتأمين وفرض النزعة الاستهلاكية التى أصبحت الآن مشروعًا عالميًا، مشروعًا شموليًا، مشروعًا طالما كان يسيطر ويوجه الإصلاح التعليمى كجزء مما اسماه ماكلارين "شره الرحلة العالمية للرأسمالية". ولذلك فإن الرغبة فى السيطرة على المدارس جزء من مرض الثقافة الافتراسية، لأن هذه الرغبة تقوم فقط على رد الفعل والتكيف الذى يعتبره باولو فريرى "شكلاً ضعيفًا للغاية من الدفاع عن الذات".

إن المدخل الحالى إلى إصلاح المدارس مدخل يتولد من داخل الضباب الوجودى المُشَوش والمُدَوِخ للثقافة الافتراسية، الغيامة التى تشوه هوية الإنسان وفاعليته وإحساسه الديمقراطى بالذات وقدرته على إعمال دعوة بالو فريرى إلى اتخاذ "التربية كممارسة للحرية". إننا يجب أن نتجاوز مرض الهوية والفاعلية كما تحددها الثقافة الافتراسية، ونتجاوز "تربية المرض" pedagogy of pathology المسيطرة على الإصلاح التعليمى. ولا بد أن نواصل التطلع إلى "تربية الأمل" التى يقدمها باولو فريرى وهنرى جيرو ودونالد ماسيدو كإستراتجية لاستعادة التربية باعتبارها عملية ذات معنى تيسر الوعى الناقد، عملية تُمَكِن من عودة القيم التى لا تسيطر عليها "قوى السوق". وكما يحثنا بل هوكس Bell Hooks فنحن يجب أن:

> **نفتح عقولنا وقلوبنا بحيث نستطيع أن نصل بمعرفتنا خارج حدود ما هو مقبول، وبحيث نستطيع أن نفكر ونعيد التفكير، وبحيث نتمكن من أن نخلق رؤى جديدة، إذ يجب علينا أن نهتم بالتدريس الذى يُمَكِن من أفعال المخالفة، أى الحركة ضد وخارج الحدود. إنها الحركة التى تجعل التربية ممارسة للحرية(١٢).**

إننا لا بد أن نواصل التحرك خارج وأبعد من حدود الثقافة الافتراسية، نحو العدالة والديمقراطية والحرية. لا بد أن نواصل التقدم مؤمنين بالتربية والأمل فى المستقبل. لا بد أن نواصل التحرك ضد وخارج حدود أولئك الذين يسيطرون.

الهوامش

(1) Kenneth J. Saltman, Collateral Damage: Corporatizing Public Schools_A Threat to Democracy (New York and Oxford: Rowman & Littlefield Publishers, 2000), ix.

(2) Ibid., x.

(3) Ibid., 80.

(4) Peter McLaren, Critical Pedagogy and Predatory Culture: Oppositional Politics in a Postmodern Era (New York and London: Routledge, 1995), 2.

(5) Herbert I. Schiller, Culture Inc.: The Corporate Takeover of Public Expression (Oxford: Oxford University Press, 1989), 66.

(6) Stanley Aronowitz and Henry A. Giroux, Postmodern Education: Politics, Culture and Social Criticism (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1991), 24.

(7) Zygmunt Bauman, Community: Seeking Safety in an Insecure World (Cambridge: Polity Press, 2001), 4.

(8) Ibid., 42.

(9) McLaren, Critical Pedagogy and Predatory Culure, 2.

(10) Ibid., 172.

(11) Saltman, Collateral Damage, 69.

(12) bell hooks, Teaching to Transgress: Education as the Practice of Freedom (New York and London: Routledge, 1994), 12.

الفصل الثالث عشر

تعليق على خطاب الإصلاح

عشرون عامًا من الإصلاح

ساندرا جاكسون(*)

ميراث أمة فى خطر

ترتبط السياسات التعليمية فى الولايات المتحدة بشكل وثيق بالسياسات الاجتماعية والاقتصادية، كما ترتبط المصالح الداخلية والخارجية بشكل لا ينفصم. وعلى مدار القرن العشرين وُظف التعليم والتمدرس فى الولايات المتحدة فى زيادة كفاءة العمل والعمال، وانتقاء وتمرير الأفراد فى برامج تعليمية وتدريبية متمايزة وفقًا للاحتياجات الوطنية من القوة البشرية، وتصنيف الأفراد وفقًا لمطالب قوة العمل. وقد كان الاختبار وقياس الذكاء والمهارات والقدرات أداة هذا التصنيف والترتيب، وهو ما كان يجرى فى إطار خطاب تعليمى يزعم أنه يستهدف خدمة المواطنين بتحسين نموهم الفردى ومصالحهم الفردية، كما لو كان هؤلاء المواطنين مستقلين ومنفصلين عن أية

(*) ساندرا جاكسون Sandra Jackson أستاذة الدراسات النسائية بجامعة ديبول DePaul بشيكاغو. من أهم المؤلفات التى شاركت فيها: Talking Back and Acting Out: Women Negotiating the Media Across Cultures; I've Got a Story to Tell: Identity and Place in the Academy; and Beyond Comfort Zones: Confronting the Politics of Privilege as Ed ucators. وتكتب الآن كتابًا حول العرق والنوع فى الأكاديمية.

أجندة قومية. لكن من منظور مفارق، وفى مراجعته العامة لمراحل السياسة العامة القومية حول التعليم فى الولايات المتحدة فى فترة ما بعد الخمسينات، ميز سبرنج Spring بين الاستخدامات التالية للمدارس: (١) للقضاء على الفقر فى الستينات، (٢) لترسيخ القانون والنظام والقضاء على البطالة فى السبعينات، (٣) لحل مشكلات التجارة الدولية فى الثمانينات[١]. ويجادل سبرنج بأنه بداية من منتصف الأربعينات وقادة الجيش والشركات والعلم والسياسة يدفعون بقوة من أجل إعطاء الحكومة الفيدرالية دورًا حاسمًا فى تشكيل السياسات التعليمية التى كانت متجذرة فى "احتواء الشيوعية وحماية مصالح الشركات الأمريكية فى التوسع فى الأسواق الخارجية"[٢]. ومع زوال الاتحاد السوفيتى السابق، بقيت القوة الدافعة للسيطرة على السوق العالمى، وظلت المدارس الأمريكية مكلفة بمهمة إنتاج قوة عاملة وقادة مستقبليين من أجل تعزيز القوة.

واليوم فى مجال السياسة العامة فى الولايات المتحدة تتعرض الأمور المتعلقة بالمصلحة العامة والرفاه الاجتماعى والخدمات الاجتماعية لنقاش حاد، وفى الغالب مثير للنزاع، حول ذلك الذى يكون فى مصلحة الأمة ومواطنيها. ويقع التعليم، خاصة المقدم للأطفال والشباب، فى القلب من الجدل العنيف بين دوائر مختلفة، خاصة بين أولئك الذين يرغبون فى استثمار فيدرالى والتزام فيدرالى أكبر بالكفاءة، وأولئك الذين يرغبون فى استقلال أكبر للولايات والمحليات، وأيضًا باسم التفوق. والسؤال الذى أطرحه هو من أجل مصالح مَنْ ومَنْ الذى ستستفيد من هذه المقترحات؟

ردًا على إطلاق الروس للقمر الصناعى سبوتنيك (١٩٥٧)، شرعت الولايات المتحدة، التى كانت حينذاك فى سباق لكى تكون الدولة الأولى على المستوى العالمى، فى صب أموال هائلة لتحسين منهج المدارس الثانوية، مع التركيز بدرجة أكبر على الرياضيات والعلوم، إضافة إلى تدريس اللغات الأجنبية. وقد كانت نفس هذه الدعوة لأن تظل الولايات المتحدة الدولة الأولى هو القوة الدافعة لتقرير "أمة فى خطر" (١٩٨٣) الذى كلّف به وزير التعليم تيريل بيل فى عهد إدارة الرئيس رونالد ريجان،

وكذلك خطة "لن يُتْرَك طفل يتخلف" No Child Left Behind (2001) فى عهد الرئيس جورج دبليو بوش. ورغم اختلاف لغة وفحوى هذين التقريرين، فسوف أدفع فى هذا الفصل بأن الفرضيات والحجج التحتية واحدة فيهما: أن يكون هذا التقرير أو ذاك دليلاً واضحًا على الحاجة إلى التغيير، مع إعلان فوائد اجتماعية كبيرة للجميع، بينما هو فى الواقع يحافظ على الوضع الراهن. وذلك لأن الحواجز البنائية أمام عدالة إتاحة الفرص، وكذلك المخرجات، تمر دون أن يُلْتَفت إليها، وبالتالى دون أن تُعالَج أو تُفْحَص، بما يؤدى إلى تأبيد التفاوت.

إن لغة تقرير "أمة فى خطر" القائمة على العسكرة والنزعة القومية تعمل كصرخة مدوية محذرة من أن الولايات المتحدة لم يعد بمقدورها أن تأخذ مكانتها المهيمنة عالميًا مأخذ التسليم. حتى أننى كلما قرأت هذه الوثيقة أسمع فى الخلفية دوى الأبواق وقرع الطبول وهما يستدعيان الأمة إلى الزحف كأننا فى حالة حرب. فالمسلمة الأساسية للتقرير هى أن الأمة ستقع قريبًا تحت الحصار، وسوف يُنْثَر التراب فى وجوهنا، إذا نحن لم نفعل شيئًا الآن. وكمثال على ذلك انظر الاقتباس التالى من التقرير: "لو حاولت قوة أجنبية معادية أن تفرض على أمريكا الأداء التعليمى العادى القائم اليوم فى مدارسنا، لربما اعتبرنا ذلك عملاً عسكريًا". وعلى ذلك يقترح هذا التقرير المكون من ٦٣ صفحة تغييرات كاسحة فى المدارس الثانوية الأمريكية والكليات والجامعات الخاصة والعامة، بما يُمَكِن كما يزعمون من إعادة تنصيب الولايات المتحدة فى موقع الصدارة بين أكثر دول العالم تقدمًا.

إن لغة التقرير هى المنافسة الاقتصادية والعسكرية وشبح فقدان مكانة الولايات المتحدة فى مقابل الدول الأجنبية القوية التى تدفعها محركاتها الاقتصادية إلى النجاح - اليابان وكوريا الجنوبية وألمانيا- التى أُفْرِدت باعتبارها المصادر الأساسية للقلق. والمنطق التحتى للتقرير هو أن أزمة أمريكا الاقتصادية هى فى المقام الأول عَرَض لفشل التعليم العام. والهدف من التركيز على المدارس باعتبارها بؤرة المشكلات المتجذرة فى الولايات المتحدة هو تحويل انتباه الجمهور بعيدًا عن

السياسات والممارسات الاقتصادية والاجتماعية التى تقوض الأمان الوظيفى للعمال الأمريكيين وتدفع الآلاف إلى الفقر والبطالة والعمل بشروط مجحفة فضلاً عن الدمار المالى.

ومع أن التقرير يصرح بأنه لا توجد دولة تقترب حتى من الولايات المتحدة من حيث أعداد الشباب الذين يكملون المدرسة الثانوية وينتقلون إلى التعليم العالى، فإنه يزعم أننا تخلفنا(٣). ومن أجل علاج أعراض الإهمال البادية يقترح التقرير أدواءً فى شكل المعايير والمحاسبية والتعددية والمنافسة والاختيار. وخطة بوش "لن يُتْرَك طفل يتخلف" متجذرة هى الأخرى فى نفس نوع التفكير، وهو ما يتضح من أقسامها العشر: تحقيق التفوق من خلال المعايير العالية والمحاسبية، تحسين معرفة القراءة والكتابة بوضع القراءة أولاً، تحسين جودة المعلمين، تحسين تدريس الرياضيات والعلوم، نقل الطلاب محدودى المهارة فى اللغة الإنجليزية إلى الطلاقة فيها، تعزيز خيارات الوالدين والبرامج الابتكارية، تشجيع مدارس آمنة للقرن الحادى والعشرين، تحسين التعليم من خلال التكنولوجيا، تقديم معونة التثبيت [تُقَدَم للفئات المحرومة]، تشجيع الحرية والمحاسبية. وباستثناء التلميح إلى القراءة والكتابة ومهارات القراءة لدى تلاميذ الصف الرابع فى قلب المدن الفقير، لا يقدم التقرير أدلة حقيقية حول المشكلات التعليمية أو ثقلها، وبدلاً من ذلك يأخذ هذه المشكلات مأخذ التسليم. وذلك يضع التقرير فى صف واحد مع خطط الشركات التى تحدد أهدافًا للسياسة وخطوات سوف تتخذ، لكن هنا من أجل تحسين جودة التعليم فى المدارس الأمريكية.

تحدد خطة "لن يُتْرَك طفل يتخلف" سبعة أهداف قائمة على الأداء لغلق فجوة التحصيل: تحسين الأداء الأكاديمى للطلاب المحرومين، رفع جودة المعلمين، نقل الطلاب محدودى المهارة فى اللغة الإنجليزية إلى الطلاقة فيها، ضمان أن يتمكن كل الأطفال من القراءة فى الصف الثالث، تعزيز برامج اختيار الوالدين والبرامج الابتكارية، تشجيع مدارس آمنة للقرن الحادى والعشرين، زيادة التمويل لمعونة التثبيت، تشجيع الحرية والمحاسبية. وتتعهد خطة بوش التعليمية بـ"زيادة المحاسبية

عن أداء الطلاب عن طريق التركيز على ما يثبت نجاحه وتقليل البيروقراطية وزيادة المرونة"[٤]. ولأنه يعتقد أن "الحكومة الفيدرالية لا تعمل بما يكفى للإثابة على النجاح والعقاب على الفشل فى نظامنا التعليمى ... ولأنها لا تتقصى حول ما إذا كانت البرامج تعطى النتائج المرجوة أو تعرف تأثيرها على الاحتياجات المحلية"(٥)، فقد أكد بوش نواياه لإصلاح قانون التعليم الأولى والثانوى بحيث يقصر الأموال الفيدرالية على برامج وأهداف معينة من أجل ضمان نتائج مُحَسَّنة.

ونظرًا للاعتقاد بأن الولايات المتحدة متخلفة عن غيرها، يقترح بوش ضرورة غلق فجوة التحصيل وفرض المحاسبية والمعايير العالية من خلال الوسائل التالية: تقييمات أكاديمية سنوية، وعواقب للمدارس التى تفشل فى تعليم الطلاب - وهى تحديدًا فقدان الأموال التى تأتى من الباب الأول فى الموازنة التى ستُحَوَّل فى هذه الحالة إلى مدارس عامة أو خاصة أعلى أداءً أو علاوات محاسبية للولايات والمدارس مكافأة لها على النجاح الذى تظهره فى إغلاق الفجوة - وتقييمات سنوية فى القراءة والرياضيات (بعد الصفين الرابع والثامن)، والتركيز على القراءة فى الطفولة المبكرة والصفوف الأولى، والتأكيد عبر المنهج على الرياضيات والعلوم، وتدريس القراءة، وزيادة الأموال للمدارس من أجل التكنولوجيا بناءً على الاحتياجات، وتعزيز تداخل ومضاعفة برامج المنح الفئوية، وخيارات جديدة للولايات والمحليات فى شكل مدارس الوثيقة التى سوف تعمل على أساس اتفاقات أداء مدتها خمس سنوات، وتقارير مدرسية إلزامية لأولياء الأمور، والاستثناء من المتطلبات الفيدرالية للمدارس المنزلية والمدارس الخاصة.

وتتضمن تفاصيل برنامج بوش للمكافآت والعقوبات ما يلى: إعطاء حرية التصرف للولايات والمدارس لإصلاح متطلبات إجازة أو الترخيص للمعلمين بمزاولة المهنة، وتقديم برامج إجازة بديلة، وإصلاح تثبيت المعلمين وتطبيق نظام أداء قائم على الجدارة، وتبنى أجور وعلاوات تفاضلية للمعلمين فى المجالات وبرامج التدريب ذات الضرورة العالية، والتميز فى مكافآت التدريس، والحصانة من المسئولية القانونية

الفيدرالية للمعلمين والمديرين وأعضاء مجالس إدارة المدارس إزاء الأفعال التى تتخذ ضد الطلاب الذين يُعَرَفون بأنهم مُعَرقِلين ويمثلون مشكلات انضباطية، طالما أنهم لا ينخرطون فى سلوك متهور أو إجرامى، وتخفيضات ضريبية للمعلمين تصل إلى ٤٠٠ دولار عن النفقات الجارية للتجهيزات المدرسية والتنمية المهنية، وإطلاع الوالدين حول جودة معلمى أطفالهم كما تحددها الولاية(٦). وفى جملة أمور مرتبطة تشجع خطة بوش تأسيس شراكات علمية بين الولايات ومؤسسات التعليم العالى.

وفى القلب من خطة بوش توجد وعود بإنجاز تغيير سريع من خلال التطبيق الواسع للاختبار عالى الرهان، واستئصال المعلمين السيئين، والتهديد بتقليص الموارد ثم إغلاق المدارس بعد ذلك، وما يتضمنه ذلك من فكرة البقاء للأقوى فى السوق، تلك الفكرة الداروينية الاجتماعية، وما ينتج عن ذلك من طرد المدارس السيئة من السوق التعليمى. وهنا تأتى مدارس الوثيقة ومستندات الضامن وإعانات المدارس الخاصة وكذلك التمدرس المنزلى ليملأ الفراغ الناتج عن إغلاق المدارس ويقدم اختيارات لأولئك الذين يحصلون على خدمة غير مُرْضية من المدارس العامة السيئة. ولا يرد فى خطة بوش أى تعليق حول عواقبها على العدد الكبير من الأطفال الفقراء وأطفال الطبقة العاملة والأطفال الملونين، خاصة أولئك الذين سيُحاصَرون فى المدارس المأزومة والمجردة من الموارد وذات المعلمين والموظفين الواقعين تحت الحصار، وكذلك عدم كفاية الأموال لسد الفجوة بين مستندات الضامن والمصروفات فى المدارس الخاصة أو مدارس الوثيقة المميزة(*).

وبذلك يقع إعداد المعلم أيضًا تحت فحص دقيق ويُوصف بأنه "منخفض الحال ويفتقر إلى الصرامة"، فى حين أن المعلمين فى الواقع "محرومون من الفضاء الحى ومجردون من الأموال ويتعرضون للتجريح العلنى"(٧). ومجدداً يتعرض المعلمون

(*) حول فكرة مستندات الضامن ومدارس الوثيقة راجع حواشى سابقة للمترجم [المترجم].

ومؤسسات إعداد المعلم، وفى المقام الأول تلك التى تنتمى إلى مؤسسات بحثية، للهجوم باعتبارها المذنب المسئول عن الأداء السيئ للطلاب والمدارس على طول البلاد وعرضها.

فى هذا الخطاب يتخذ الاختبار باعتباره العلاج، وكأنه اختبار ورقة عباد الشمس لتقييم وضمان الجودة فى الطلاب والمدارس والمعلمين. وفكرة التركيز على ما يثبت نجاحه (لتحسين درجات الطلاب فى الاختبارات) تقوم على فرضية أن درجات ونتائج الاختبارات هى المؤشرات الموثوقة لتعلم وتحصيل ونمو الطلاب. ولا يزال الإيمان بالاختبار قائمًا رغم تأكيد البحوث أن "الاختبار يفتقر غالبًا إلى الموضوعية والصدق والإنصاف والملائمة ونادرًا ما يخلو من السياسة ... ومعيب بدرجة خطيرة، مع وجود اختبارات كثيرة غير متوافقة وغير قابلة للمقارنة، ووجود مشكلة الانتقال المرتبطة بالعلاقة بين المهام والاختبارات والأداء الفعلى، مع قلة الانتباه إلى الاختلافات الثقافية"(٨). وعلاوة على ذلك هناك إغراء التبسيط المخل فيما يتعلق بحل المشكلات، حيث تزعم الخطة أن من السهل التعرف على التعلم والتحصيل وتكميمهما، وأنهما يمكن أن يُقاسا بدقة ويُخْتَزلا إلى درجات عددية، على أساسها يتم الحكم على الطلاب والمعلمين والمدارس بأنها ناجحة أو فاشلة، وبالتالى تستحق المكافأة أم العقاب.

ووفقًا للتشخيص ووصفات العلاج التى يقدمها تقرير أمة فى خطر وخطة لن يُتْرَك طفل يتخلف، فإن العلاج لتحسين المدارس وتحقيق التميز فى تحصيل الطلاب وتدريس المعلمين يحتكم إلى الحس العام، حيث يجادلان بأن مسألة التعليم الجيد شيء يسهل التعامل معه، وأن النتائج ستكون قابلة للتحقيق بسهولة من خلال الاختبار ثم مزيد من الاختبار، على أن يُكَمَّل ذلك بنظام للعقوبات والمكافآت. فالمسألة لا تتعدى تحسين أو استئصال الطلاب السيئين والمعلمين السيئين والمدارس السيئة.

وضع مقترحات الإصلاح فى السياق الأوسع للتمدرس

قليلة جداً هى مقترحات التقارير والإصلاحات التعليمية الكبرى على مدى العقدين الماضيين (أمة فى خطر، فريق العمل حول التعليم من أجل النمو الاقتصادى، لجنة التعليم فى الولايات، منحة القرن العشرين، لجنة كارنجى لتنمية المعلمين ...) التى أعارت أى انتباه إلى العالم الذى يعيش فيه الأطفال والشباب اليوم، من حيث جودة الحياة فى بيوتهم ومجتمعاتهم، وما إذا كان آبائهم وأمهاتهم يجدون عملاً يحصلون منه على حد الكفاف من الأجور، وما إذا كانوا يتمتعون بتغطية تأمينية طبية أم لا. وغالبية هذه التقارير والمقترحات التى تنبثق عنها تتسرع فى إلقاء اللائمة، خاصة على الأطفال ومعلميهم. وإذا لم يكن الأطفال والمعلمين هم هدف اللوم، يكون هدفه أولياء الأمور المهملين، خاصة أولئك الذين ينتمون إلى الطبقة العاملة والفقراء والأمريكيين السود واللاتينيين والمهاجرين، وتحديداً أولياء الأمور الذين لا تمثل اللغة الإنجليزية لغتهم الأم. ومع اعتبار قضايا التحصيل التعليمى المشكلة المميزة لتلك الجماعات، ومع التناقضات الثابتة فى نتائج الاختبارات فى القراءة والرياضيات وكذلك امتحانات القبول بالكليات بين أبناء هذه الجماعات وأبناء الطبقة الوسطى البيضاء، فإن الإصلاحات التى تروج للاختبار عالى الرهان والعودة إلى الأساسيات لا تخرج عن وهم المركزية العرقية(٩) وتكشف الخوف المرضى من الأجانب(١٠). فلكى يُحَصِل الطالب فى أمريكا لا بد أن يتحدث الانجليزية وينبذ كل اللغات الأخرى، ويتبنى سلوكًا معينًا ويعتنق قيمًا معينة، ويتنازل عن عاداته الثقافية عند باب المدرسة، ويعمل بجد ويجتاز بثبات سيل من الاختبارات وبدرجات عالية. ووفقًا لهذه الرؤية للتحصيل يحتاج المعلمون إلى قضاء وقت أكثر فى إعداد الطلاب لأخذ الاختبارات، وتحتاج الإدارات التعليمية لاستثمار أموال أكثر فى تطبيق وتصحيح الاختبارات. فضلاً عن أنه وفقًا لهذا التفكير لا بد من حدوث تحول حاد عن الماضى، خاصة الستينات والسبعينات الحقبة التى يلقى عليها اللوم على التراجع والانتكاس الأخلاقيين والثقافيين بسبب "التساهل والتسيب"، وكذلك فقدان التماسك فى الشخصية القومية بفعل تأثيرات حركة

الحقوق المدنية والاحتجاجات الطلابية والحملات المناهضة للحرب (خاصة فى فيتنام) وحركة النساء وحركة المثليين والسحاقيات، إضافة إلى التدفق المتصل للمهاجرين من نصف الكرة الأرضية الجنوبى.

ففى مقترحات الإصلاح "لا يرد ذكر القطاع الأكبر والأسرع نمواً فى الاقتصاد العالمى – الإنتاج والتجارة العسكريين – ولا ذكر تكاليف الحفاظ على صحة اقتصاد الأمة والإهمال المقابل لرفاهنا الاجتماعى والفردى"(١١). كما "لا يرد ذكر المواطنة الديمقراطية وما تستلزمه من حيث الفحص النقدى لمشكلات وقضايا عصرنا واسعة الانتشار، ولا نقد الشراكات الغامضة بين الشركات والمدارس والفشل الذريع للبرامج السابقة"(١٢). فى حين أن ما يلقى الدعم هو الربط الوثيق بين التعليم وحاجات المشروعات، بدلاً من مناقشة ما نحتاج إليه فى القرن الحادى والعشرين من حيث مهارات التواصل والمهارات المعرفية عالية المستوى ومهارات حل المشكلات وأدوات التفكير العلمى والثقافة التقنية من أجل فهم النظام العالمى. علاوة على أنه فى الوقت الذى تُشَجَع فيه المدارس بقوة على أن تعمل بطريقة الشركات، لا يرد تماماً ذكر الأعداد الغفيرة من الشركات التى تفشل، ناهيك عن ممارسة الإنقاذ الحكومى لشركات معينة والنتائج المقابلة لذلك بالنسبة للمدارس.

ومع كل ذلك يُقَدم الاختبار بوصفه الدواء الناجع لإصلاح المدارس وتحسين تعلم الطلاب، رغم حقيقة أن كثيراً من الاختبارات واسعة الاستخدام معيبة بالفعل من عدة نواحى رئيسية، فى ظل "تواصل تقدم طاغوت الاختبار ساحقاً المنطق والعقل، بغض النظر عما يقوله الباحثون"(١٣). ومما يميز خطة بوش عن التقارير السابقة، خاصة أمة فى خطر، أنها تزعم تحديداً أن "أحد أعظم سمات أمريكا تكمن فى تنوعنا"، وتستمر هذه الفكرة لتعلق على أهمية "مخاطبة احتياجات الأطفال والشباب الذين ينتمون إلى الأقليات"(١٤). وفيما يتعلق بالطلاب الذين لا يتحدثون اللغة الإنجليزية كلغة أولى، تؤكد الخطة على حاجة الطلاب محدودى الكفاءة فى اللغة الإنجليزية إلى "إتقان اللغة الإنجليزية فى أسرع ما يمكن" من أجل ضمان "انسياب برامج التعليم ثنائى اللغة

المنصوص عليها فى قانون التعليم الأولى والثانوى، وفقًا لنظام التمويل بالمنح للولايات والمحليات القائم على الأداء" الذى من شأنه أن يمارس سيطرة تؤثر على استمرار هذه البرامج. وكجزء من ضمان السيطرة المحلية، تسعى خطة بوش أيضًا إلى "إعطاء الإدارات التعليمية حرية اختيار مداخل التدريس التى تلبى احتياجات الطلاب" مع "حظر القيود على الأموال التى تفرض طرق تدريس معينة لتعليم الطلاب"(١٥). ومع أن هذا المقترح يبدو على السطح منطقيًا ويتفق مع الحس العام، فإنه يحوى نية خفية للقضاء على تلك البرامج ثنائية اللغة التى تدعم النمو ثنائى اللغة. فالخطة مشربة بانتقادات ضمنية للتعددية الثقافية، حيث تنظر إلى تغيير المنهج استنادًا إلى تضمين أفكار وقضايا ومواد من خبرات الأطفال المتنوعة على أنها تقوض القراءة والكتابة والمعرفة والاحترام لفكرة رومانسية عن الحضارة الغربية، وتختزل المنهج إلى خبرات حساسة ثقافيًا تستند إلى الاتجاهات والمشاعر، وليست مبررة عقليًا وبالتالى ليست سليمة سياسيًا وأيديولوجيًا أو تربويًا. فخطة بوش تقدم قيم الفردية والمنافسة والجدارة المزعومة المطمورة بعمق فى رؤية العالم السائدة القائمة على المركزية الأوروبية بوصفها موضوعية ومتحررة من القيم، بينما تصم منظورات أخرى بأنها متحيزة ومحدودة وخاصة، وبالتالى تصلح لجماعات مصالح خاصة وليس للصالح العام. وبينما يجرى، من ناحية، فحص المعلمين وإخضاعهم لقيود تنظيمية وتقييم أدائهم فى ضوء درجات طلابهم فى الاختبارات، فى الوقت الذى يُوعَدون فيه بحماية مصالحهم ودعمهم عن طريق "منحهم السيطرة على فصولهم للتخلص من الطلاب العنيفين أو المُعَرقِلين من خلال تنفيذ سياسات لاتسامحية فى أنشطة المنهج والأنشطة المصاحبة للمنهج لتسهيل منع الجريمة والتقاضى، وذلك من خلال برامج الشراكة بين المستوى الفيدرالى والولايات للتعرف على الأحداث الذين ينتهكون قوانين الأسلحة النارية وعقابهم ومراقبتهم"(١٦). وإكمالاً لهذه المبادرة سيُزاد تمويل برامج تربية الشخصية. لكن مَنْ هم الذين سيقررون معنى الشخصية، ووفقًا لأية أطر ثقافية، ومَنْ الذين سيعدون المنهج ويحددون المواد التعليمية وطرق التقييم؟

هذه الإجراءات مصممة لتقديم علاجات سهلة وإيجاد مدارس وساحات لعب آمنة يتمناها أى أب أو أم لأطفالهم. لكن ما يغيب عن النقاش هو الانتباه إلى مضامين هذه المقترحات، وعلى وجه التحديد الاعتبارات التالية: مَنْ هم الأطفال الذين سوف يُسْتَهدَفون لكونهم "فى خطر" أن يكونوا مُعَرقلين وعنيفين، فى ضوء الممارسات الماضية للتعامل على أساس العرق والتناقضات العرقية فى ممارسات الضبط المدرسى المتعلقة بالعقاب والتعليق التى جعلت الشباب السود واللاتينيين، خاصة الذكور، أكثر من غيرهم هدفًا للضبط والطرد من المدرسة؟ وكان هؤلاء الشباب يواجهون أيضًا إجراءات تأديبية وعقوبات بطريقة أسرع وأكثر صرامة من الشباب البيض. أين سيحدث تصحيح ذلك؟ فنحن عندما ننظر إلى رد الجمهور على العنف فى مدارس قلب المدن الحضرى، وهرب البيض وخوفهم وغضبهم المبرر من المجازر التى تنتج عن انتشار الأسلحة فى المدارس، نجد أن العنف الذى انفجر فى بيئات الضواحى، مثل كولمباين بكولورادو والجاليات المشابهة، التى تتكون فى الأساس من الطبقة الوسطى البيضاء، ومعاملة الطلاب والطريقة التى تم بها تصوير آباء هؤلاء الطلاب ومجتمعاتهم جالياتهم، كانت مختلفة تمامًا. فرغم وقوع حوادث عنف كثيرة انتهت بموت ومجازر فى هذه الجاليات، يتم التعامل مع هذه الأشياء باعتبارها أشياءً شاذة واستثناءات للقاعدة تسوغ الشفقة والفهم لهؤلاء الشبان الفرديين المضطربين. فلا توصم هذه الجاليات بكونها مراتع للعنف تعيش فيها مجموعات خطرة من الشباب خارج السيطرة. فيما تُصَوَّر المدارس والإدارات التعليمية التى يرتادها الأطفال الملونون، خاصة السود واللاتينيون، والتى ينتمى غالبية معلميها إلى الطبقة الوسطى البيضاء، على أنها تحت الحصار، ويُصَوَّر المعلمون فيها على أنهم يستحقون بدل قتال، ويحتاجون إلى الحماية من الأطفال والشباب الخطرين والمنفلتين. إن ما سينتج عن هذه الجوانب فى خطة بوش هو طرد أطفال أكثر من الملونين، والذكور تحديداً، من المدارس، حيث لن يجدوا مأوى إلا الشارع، وحيث يوصمون بأنهم لا يستحقون استثمار الوقت والجهد. وبعد طردهم ستتحسن الأرقام المتعلقة بمواظبة الطلاب ودرجات الاختبارات وتستخدم كمؤشرات على تحسن المدارس. وفى غضون ذلك سيتم استهلاك هذا الشباب من

جانب ماكينة الاقتصاد غير الرسمى، حيث ينتهى كثيرون منهم إلى السجون، ويوصفون بأنهم لا أمل فيهم ولا خلاص لهم.

ومن أجل علاج مشكلة الطلاب مثيرى المشاكل والمُعَرقلِين والأوغاد ستُمنح الإدارات التعليمية "مرونة غير مسبوقة فى تحديد طريقة إنفاق أموال التعليم الفيدرالية". وهنا أيضًا تواجهنا اللغة الإغرائية للسيطرة والاختيار، لكن من جانب مَنْ ومن أجل مَنْ؟ ومَنْ الذين يشكلون أعضاء مجالس إدارة المدارس العامة والخاصة؟ وكيف ستُحَدَد الأولويات؟ ومصالح مَنْ التى ستخدمها؟ وفى العصر الحالى، عصر الاختبار عالى الرهان والحاجة لإظهار النتائج، وبأعداد أكبر، أين ستكون ضمانات الإتاحة والعدالة والإجراءات السليمة والوعود بـ"زيادة التمويل للأفراد ذوى الإعاقات"، ولتقديم أموال إضافية للتكنولوجيا ولزيادة الأموال لتحسين جودة مبانى وتسهيلات المدارس العامة؟ وأين الضمانات على أن الطلاب الذين سترى المدارس أنهم سيخفضون درجات الفصل والمدرسة فى الاختبارات سوف يُعطَون الدعم التعليمى وأشكال الدعم الأخرى اللازمة لتمكينهم من البقاء فى المدارس والنجاح فيها؟ ومع ازدياد تغلغل الاختبارات ودرجات الاختبارات فما الذى سينفذ لمنع عودة التشعيب tracking والممارسات الرسمية التى تسمح بوجود منهج مختلف لأولئك الذين يُوصَفون بأنهم فى حاجة إلى علاج؟ وعندما يمكن استثناء مدارس معينة من القواعد الفيدرالية لتصنع اختياراتها بناءً على مصالحها، فماذا ومَنْ سيضمن إذا ما توفرت التكاليف الضرورية أن تستمر الاستثمارات الموجهة للطلاب ذوى صعوبات التعلم، فى وقت ستتوفر فيه خيارات أخرى لاستخدام الأموال الثمينة؟

وكما هو الحال مع تقرير أمة فى خطر، تقترح خطة بوش إصلاحات لا تخاطب عواقب المبادرات الكاسحة ونتائجها على الأطفال والشباب العاديين. فكلاهما يزعمان أن الأمور واضحة وأن الحلول ستكون بسيطة وأن الأشياء يجب أن تُجْرَى الآن لإحداث التغيير المطلوب. فهما يَعِدان بحلول سريعة لمشكلات معقدة. ورغم ذلك، وكما ينعكس فى تعليق ألبرخت Albrecht حول تقرير أمة فى خطر، فإن "سحر الجمهور

وأجهزة الإعلام عمى وحجب التقارير الرائعة والمتروية والجيدة التى أعدها إيرنست بوير Ernest Boyer وجون جودلاد John Goodlad وتيودور سيزر Theodore Sizer وغيرهم"[١٧]. إن تقرير أمة فى خطر المشبع بلغة الحجج المضللة ينخرط فى النفى والإنكار، متبنيًا فكرة أن هناك شيء موحد اسمه المدرسة الثانوية الأمريكية، ومن خلال إصدار الحكم بعدم الملائمة يقترح علاجات ضرورية من خلال استخدام لغة تعاويذ من نوع "يجب وينبغى والحقوق والالتزامات"[١٨]. وقد مرت الردود النقدية على هذا التقرير من جانب دارسين ومنظمات مهنية مختلفة دون أن يلتفت إليها أحد[١٩]. فقد أثار متخصصو فنون اللغة الإنجليزية، على سبيل المثال، نقدًا حول حدود الحجج والتوصيات المتعلقة بالمنهج والمعايير والتوقعات واستخدام الوقت ومهنة التدريس والقيادة والدعم. وهم يشككون على وجه التحديد فى حكمة المنهج الموحد الذى لا يضع فى الاعتبار الخبرة الشخصية والنمو الوجدانى والعقلى للأفراد، وتنمية متعلمين وقراء وكُتاب للحياة على طولها، والممارسات التمييزية طويلة المدى فى المدارس، وتحديات الاختبار والقياس الذى يعتمد على أسئلة الاختيار من متعدد التى تشدد على معرفة حقائق منفصلة بدلاً من الفهم، وعدم الانتباه إلى قضايا الرقابة على المواد التعليمية والكتب الدراسية، وعدم وجود تقدير للتكاليف التى سوف تستجد نتيجة لتطويل اليوم والعام الدراسيين، وأمور القيادة وأنواع الدعم الأخرى، والفشل الإجمالى للإرادة والرغبة فى الحفاظ على الوضع الراهن والتدثر بخطاب التغيير.

ومن العيوب المشتركة فى تقرير أمة فى خطر وقانون لن يُتَرَك طفل يتخلف "قلة الانتباه إلى السياق الأوسع للتمدرس، والحاجة إلى التغيير البنائى، والاعتراف بأن المدارس لا تستطيع أن تفعله وحدها، وأن المؤسسات الأخرى يجب أن تتغير هى الأخرى، وأن المدارس يجب أن تشدد على أهداف تحقيق الذات والتربية الاجتماعية على نحو بارز"[٢٠]. وثمة إجماع بين نقاد "أمة فى خطر" على أنه أخفق فى معالجة الأغراض الأوسع للتربية، وكذلك احتياجات الطلاب المحرومين وحساب التكاليف المالية للإصلاحات المقترحة وتحليل المشكلات الجهازية systemic problems [الديناميات

الاجتماعية والسياسية والاقتصادية] التى تؤثر على المدارس(٢١). وربما قُصِد بالتقديس الأعمى للاختبار والدرجات كجزء من شبكة الخداع أن يُقَدم للجمهور برنامجًا يزعمون أنه يحل المشكلة بينما هو يحجب حقيقة أن الذكاء لا يمكن تكميمه بسهولة وأن "السمات العقلية لا يمكن أن تُقاس بنفس طريقة الأسطح الخطية"(٢٢). لقد تعرض الطلاب الذين حصلوا على درجات منخفضة إلى نقد وتوبيخ شديدين، وكذلك معلميهم الذين وُصِفوا بأنهم الأضعف أكاديميًا بين طلاب الكليات وذوى أقل درجات فى امتحانات دخول الكليات، وذلك باستخدام بيانات مسحية من طلاب السنة النهائية فى المدرسة الثانوية وليس الطلاب المسجلين حاليًا فى برامج إعداد المعلمين أو الذين أكملوا هذه البرامج(٢٣). وقد أدى الهجوم الناتج عن ذلك على المعلمين الذين أُخْضِعوا لنظم تقويم مشحونة بممارسات مشكوك فيها ولا تطاق إلى تدمير معنوياتهم. ومن هنا يحدث تبليد deskilling المعلمين الذين يشعرون دائمًا أنهم تحت حصار التدريس من أجل الاختبارات، والتربح من مواد الإعداد للاختبار، والمقاومة الناتجة والدفاع عن النفس بالغش من جانب المعلمين، وكذلك المديرين الذين يتمنون الهرب من شبكة الإجراءات التأديبية، مثل تعليق المدارس ونقل الموظفين والتهديد بتقليص الميزانية، والأخطر من ذلك إغلاق المدارس(٢٤).

وفى خطتى إصلاح التعليم الأمريكى اللتين نخضعهما للفحص، يُوَجَه نقد حاد للمدارس الأمريكية، خاصة فى تقرير أمة فى خطر، بلغة اتهام وإدانة. ومن باب الرد على الحجة بالحجة يشدد هنت وستاتون Hunt and Staton أن "أمتنا بالفعل فى خطر، لكن جذور هذا الخطر تكمن ليس فى مؤسساتنا التعليمية، وإنما فى العوالم الأخرى، منها على سبيل المثال التناقضات بين الديمقراطية والرأسمالية"(٢٥). فمن ناحية يوجد الدفع فى اتجاه تربية المواطنين على المشاركة النشطة فى الحكومة والحياة العامة للبلاد من خلال توفير التعليم فى المدارس الثانوية وفرص التعليم و/أو التدريب ما بعد الثانوى للجميع لضمان معرفة القراءة والكتابة، وكذلك تنمية التفكير المستقل والناقد للتدريب على صنع آراء واعية. ومن الناحية الأخرى توجد الرغبة فى ضمان

الامتيازات والقوة المناسبة للحفاظ عليها عن طريق تأبيد نظام يضمن التفاوت الذى يستحضر الفردية والمنافسة والنبذ ليس لأفراد فحسب وإنما أيضًا لجماعات كاملة على أساس الانتماء العرقى والإثنى والنوع والطبقة وكل أبعاد الاختلاف الأخرى. وفى المجتمع ما بعد الصناعى الذى تصبح فيه تكنولوجيا المعلومات خط الفصل الجديد فى المعرفة والعمل، وتصبح الأشياء فيه مأتمتة على نحو متزايد، ويصبح المتخصصون فى المعرفة هم الأكثر جاذبية للتوظيف فى الوظائف المربحة، فى هذا المجتمع سيتم نفى الأفراد ذوى المهارات السيئة أو المحدودة إما إلى الوظائف منخفضة الأجر فى قطاع الخدمات أو إلى سلة مهملات فائض العمالة، حيث يُجْبَرون على العيش فى الاقتصاد غير الرسمى، وأن يكونوا مفترسين أو فرائس فى عالم الشوارع، أو يتعرضوا للإقامة المتكررة أو طويلة المدى فى المؤسسات العقابية، حيث يتم تسكين فائض العمالة.

يرى ألبرخت أن "تقرير أمة فى خطر يحتوى على بذور ضارة فى اتهامه الصريح للمدارس الأمريكية، والمدارس الثانوية تحديداً، ذلك أننا لو اتبعنا وصفاته بعمى سنضلل أنفسنا بالاعتقاد بأننا أنجزنا الكثير، فى حين أن شيئًا لم يتحقق"[٢٦]. فبدلاً من إحداث تحسين فى تعلم وتحصيل كل الطلاب تسعى الإصلاحات المقترحة "إلى إضفاء الشرعية على طرد الأطفال من المدارس، والتعجيل بحرمان الطلاب الفاشلين والمحبطين بالفعل من حقوقهم، لأن أولئك الذين لن تكون لديهم القدرة أو الرغبة فى الوفاء بالمعايير الصارمة الجديدة سيُطْرَدون مع إعفاء المدارس من أية مسئولية"[٢٧]. ونتيجة ذلك سوف تتمثل فى تفاقم التفاوتات بين الجماعات العرقية والإثنية وكذلك الطبقات الاجتماعية، حيث سيظل الطلاب الملونون يعايشون مستوى عالى من التسرب والإعداد السيئ للكليات لا يتناسب مع أعدادهم فى المجتمع، وحيث يُدَرِس المعلمون من أجل الاختبارات، وحيث يركز المنهج على الإعداد للاختبارات[٢٨].

إن اللغة القومية لتقرير أمة فى خطر القائمة على الإثارة تضرب على الوتر الحساس وتعمل كنداء حشد لأولئك الذين أضيروا من أداء المدارس العامة، أولئك

الذين يبحثون عن بدائل أو مهرب بسبب وجود الآخرين -الأقليات والمهاجرين- والذين كانوا قلقين من انحراف المنهج عن الكلاسيكيات بسبب تضمين التعددية الثقافية، وكانوا غير راضين عن الضرائب المتصاعدة وفقدان الأجور الحقيقية، ولذلك اقتنعوا بخطاب التقرير بأنه بدلاً من دعم استثمار أموال أكثر فى مدارس عامة فاشلة، يجب دعم خيارات أخرى مثل المدارس الخاصة والدينية والتمدرس المنزلى ومدارس الوثيقة ومستندات الضامن باعتبارها الحل. وهذا يعنى فى الأساس أن المدارس العامة، خاصة تلك الموجودة فى مناطق حضرية كبيرة، سوف تُحْرَم من التمويل الذى تحتاج إليه بشدة، الذى سوف يُمْتَص ويُحَوَل إلى مؤسسات أخرى، وأن أصحاب الامتيازات والقادرين على ممارسة الاختيار سوف يتم دفعهم أكثر إلى الأمام بالإعانات الحكومية، وسيكونوا قادرين على الذهاب إلى أى مكان آخر يغيب عنه "الآخرون". لقد جذبت هذه الممكنات الطبقة الوسطى، البيضاء بالدرجة الأولى، وكذلك الأسر الصاعدة من الطبقة العاملة التى طورت رؤية ساخرة للتعليم العام الذى تقوض بفعل سنوات من نقص التمويل لتحقيق تعليم جيد. والقوى السياسية المحافظة بقدحها فى الحكومة الفيدرالية، وما يتضمنه ذلك من دعوة إلى إطلاق قوى السوق فى المجتمع المدنى ورفض الاستثمار فى الرفاه الاجتماعى والمؤسسات العامة، تتوعد بخفض الضرائب وعدم تأييد ضرائب جديدة، وما يحمله ذلك من تأثيرات سلبية تابعة على التعليم العام. وفى هذا المناخ لا يفاجئنا أن تصبح لغة الكفاءة والسيطرة والمعايير والاختيار والمكافأة والعقاب هى السمة المميزة لخطاب الإصلاح: صنع الكثير بالقليل من الأموال، والبحث عن صيغ تمويل بديلة، وإطلاق التجارب فى الإنفاق العام بتمرير الأموال عبر مبادرات المصلحة الخاصة. باختصار دع السوق ينظم الأشياء باعتباره الحَكَم النهائى.

وإلى جانب ذلك جاء التأكيد على الاختبار والقياس: اختبار الطلاب ومعلميهم، ونشر نتائج الاختبارات من باب إطلاع أولياء الأمور حول جودة مدارسهم ومعلميهم، ومساعدتهم بذلك فى التعرف على المدارس الجيدة والسيئة. أما المفاتيح الحقيقية إلى

تحسين التعليم (مثل إشراك الطلاب بشكل نشط فى عملية التعلم وصقل عمليات التفكير عالية المستوى لديهم) فيصعب أن تجد طريقها إلى الأجندة العامة التى تئن الآن تحت ركام تقرير أمة فى خطر ورفيقه لن يُتْرَك طفل يتخلف. ونظرًا لأن هذين المقترحين لإصلاح التعليم الأمريكى يركزان على الأمور السطحية، فإنهما يحاولان اختزال مسألة معقدة إلى أخرى تتسم بالبساطة وأحادية الاتجاه. وهما بذلك يضللان الجمهور بجعله يعتقد أن الحل بسيط وواضح: اختبر وقس وميز وصنف الطلاب، وكذلك المعلمين والمدارس، وكافئ وعاقب. وتلك السياسات تبالغ عن قصد فى تبسيط القضايا لكى تُحَوِل الانتباه العام عن القضايا الجوهرية.

تساؤلات كثيرة لم يُجَب عنها وعواقب لم تُفْحَص

إننا عندما ننظر إلى أوجه اللامساواة الضخمة فى جودة ونوعية التعليم الذى يعايشه الطلاب المختلفون فى مدارس الأمة، لا بد أن نُحَوِل انتباهنا إلى أشياء مثل طريقة تمويل المدارس فى الولايات المتحدة بناءً على ضرائب الملكية. ففى ولاية إلينويز، على سبيل المثال، وفى مقارنة عُقِدت فى مقال صحفى بين خبرات الطلاب فى النظم المدرسية المختلفة، ورد أن الإنفاق لكل تلميذ يتراوح من ٣,٩٨٧ دولارًا إلى ١٧,٩٩١ دولارًا(٢٩). وتلك الاختلافات الشاسعة تُتَرجَم إلى تمايزات حادة فى جودة التسهيلات المدرسية، ومقتنيات المكتبات، والمواد التعليمية، ووجود أو عدم وجود معامل لفصول العلوم، وعدد ونوع أجهزة الحاسب المتاحة للتدريس فى الفصول، ومرتبات المعلمين. ومن دون تغيير سياسة التمويل كيف، إذن، "لن يُتْرَك طفل يتخلف"، فى الوقت الذى يبدأ فيه كثيرون منهم من مكانة متأخرة كثيرًا عن الآخرين المتميزين؟ ثم أن هناك أبعاد أخرى لمشكلة التمويل: أحجام الفصول وعدد موظفى الدعم وما إلى ذلك. وكيف يمكن معالجة الاختلافات فى التدريس فى سياقات يصل متوسط أحجام الفصول فى بعضها بين ١٥ و٢٠ طالبًا وفى أخرى بين ٢٥ و٣٠ طالبًا؟ ونتائج هذه الاختلافات على تعلم وتحصيل الطلاب تغيب عن الانتباه، وهذه الأنواع من التفاصيل لا تخضع

للفحص والتفسير لا "فى أمة فى خطر" ولا فى "لن يُتْرَك طفل يتخلف". ودون الانتباه إلى مثل هذه الأمور كيف يمكن أن نقبل بأن كل الأطفال ستتاح لهم المشاركة فى مبادرات تعليمية قابلة للحياة تحمل اسم التفوق والتميز؟

وهناك أيضًا مسألة معدلات التسرب العالية بين الطلاب الملونين. خاصة بين الأمريكيين الأفارقة واللاتينيين، خاصة الذكور منهم، وكذلك أنواع مختلفة من المهاجرين. وهنا أيضًا يجب أن نتساءل كيف سيتمكن الطلاب الذين يمرون ببرامج تعليمية مختلفة جداً، فى المدارس الابتدائية على سبيل المثال، من اللحاق بأولئك الذين يدخلون بامتيازات تراكمت مع الزمن؟ وكمثال جيد على ذلك، تؤكد الأدبيات حول القراءة والكتابة أن الصف الثالث يمثل خط الفصل فى تباعد الدرجات فى اختبارات القراءة، ذلك الافتراق الذى يواصل التوسع مع دخول الطلاب الصفوف الأعلى بالمدرسة الأولية والمدرسة الثانوية. ماذا سيكون التدخل عند هذه النقطة لإيقاف الافتراق المستمر فى الدرجات؟ وعندما يتم اختبار الطلاب ويتضح أنهم أدنى من الآخرين، أو أدنى من مستوى الصف أو المتوسط القومى، فما نوع التدريس الذى سيُقَدم لهم لتحسين التعلم؟ وماذا ستكون طبيعة المنهج الذى يوصف لهم؟ وعندما يتم اختبار هؤلاء الطلاب مرة ثانية، حتى وإن أظهروا بعض التحسن، فهل سيعتبر هؤلاء الطلاب ومعلميهم ومدارسهم ممن يستحقون مزيداً من الاستثمار؟ وفقًا لخطة بوش، فإنه بعد وقت معلوم -بعد مرور ثلاث سنوات تقريبًا- ولم تتعافى المدارس بما يكفى لإنتاج طلاب يجتازون الاختبارات الضرورية، فإن المال سوف يُسْحَب ويُحَوّل إلى مؤسسات وكيانات بديلة. وعندما يستفيد بعض الأفراد من هذه الخيارات، فماذا سيحدث مع أولئك الذين "تُركوا ليتخلفوا" فى هذه المدارس؟ وأكثر من ذلك عندما يصل هروب القوارض من المدارس المأزومة ذروته ويُنْقَل المعلمون والمديرون إلى مدارس أخرى - مدارس خاصة أو مدارس وثيقة أو جاذبة أو بديلة - فماذا سيحدث مع المربين الذين يبقون؟ أولئك الذين يوصمون هم وطلابهم بأنهم خاسرون؟

أما بالنسبة للمدارس الناجحة، والتى ينجح كثير منها بفضل الطبقة الاجتماعية لطلابها والامتيازات التى يجلبونها معهم إلى المدرسة والتى تتلقى علاوات على "تميزها"، ألا تضمن هذه المكافآت مزيداً من اللامساواة بينهم وبين المدارس الأخرى الأقل تمويلاً؟ ومع زيادة التركز الناتج للطلاب مرتفعى التحصيل فى المدارس مرتفعة التحصيل، مع معلمين ومديرين مرتفعى الأجور، ألا يعنى ذلك يقينًا أن الآخرين "يُتْرَكوا ليتخلفوا"؟ وكيف ستُعالَج التفاوتات الناتجة؟ إن أمثال هذه الأمور لا تُعالَج لا فى "أمة فى خطر" ولا فى "لن يُتْرَك طفل يتخلف".

وحتى إذا قبلنا فكرة أن مستندات الضامن ومدارس الوثيقة كبدائل ممكنة للمدارس العامة، كيف سنضمن الإتاحة الواسعة للطلاب الملونين والطلاب الذين لا تمثل الإنجليزية لغتهم الأولى والطلاب المهاجرين وطلاب الطبقة العاملة وكذلك الطلاب ذوى الإعاقات؟ وفيما يتعلق بالقبول فى المؤسسات البديلة ومبادرات الاختيار، فإن طلاب معينين، تحديداً أولئك الفارين من المدارس المأزومة أو الموصومة، سيكونوا مشبوهين، وبالتالى لن تجرى معاملتهم باعتبارهم مرشحين مثاليين للقبول. وتأسيساً على الممارسات التاريخية أكاد أجزم بأن هؤلاء الأفراد سيجرى استبعادهم. ومع احتمال أن تُعفى المؤسسات البديلة ومؤسسات الاختيار من المتطلبات الفيدرالية، فما هى السياسات والإجراءات والممارسات التى ستطبق لضمان أن الأفراد الذين يُنْظَر إليهم ويُحْكَم عليهم بأنهم مختلفون سوف تجرى معاملتهم بإنصاف ويتمكنون من دخول المدارس عالية المكانة؟ ومع التركيز على درجات الاختبارات وتحديد المستويات ماذا سيضمن أن الطلاب المتنوعين الذين يستطيعون أن يستفيدوا من التعليم الجيد سيتم قبولهم بالفعل؟ ألن تجرى غربلة هؤلاء الطلاب بحيث لا يتمكنوا من الحصول على فرصة لكى لا يتسببوا فى خفض متوسطات درجات الطلاب فى الاختبارات ودرجات المدارس وترتيبها فى السباق؟ وإلى أين سيذهب هؤلاء الطلاب؟ وكيف سيتم توجيههم إلى التفكير فى خيارات أخرى؟

ومن منظور أكثر تفاؤلاً افترض أن بعض الطلاب الملونين وبعض طلاب الطبقة العاملة والمهاجرين وبعض ذوى الإعاقات الذين يبحثون عن خيارات للمدارس العامة تم إعطائهم مستندات الضامن للحضور فى مدارس من اختيارهم. هل ستتاح لهؤلاء الطلاب وأسرهم نفس الخيارات المتاحة لأقرانهم الأكثر تميزًا من الناحية المالية؟ وماذا سيحدث عندما تكون مصروفات المدرسة التى وقع عليها اختيارهم أكبر كثيرًا من قيمة مستند الصرف؟ كيف سيتم توفير الفرق بين الاثنين؟ هل بالمنح؟ أم بالقروض؟ وبخصوص الأخيرة ماذا سيحدث لأولئك الذين لا تؤهلهم دخول أسرهم المحدودة أو ديونها وما إلى ذلك للحصول على القروض؟ وهل سيتم استبعاد الطلاب فى هذه الحالة على أساس الاقتصاد فقط؟ وماذا عن خيارات أولئك الذين لا يستطيعون أن يجمعوا الأموال الضرورية؟ إلى أين سيذهبون؟ إلى اختيارهم الثانى أم الثالث أم الرابع؟ أم يعودون إلى مدارس عامة مُفْقَرة؟ ألن يُتْرَك هؤلاء ليتخلفوا؟

دعونا الآن نبحث ما ينتظر المعلمون والمديرون أيضًا وفقًا لهذه الخطة. بعد أن يكون أولئك الذين حققوا درجات عالية مثلاً فى امتحان المعلمين القومى قد حصلوا على وظائف، كما يُقال لهم، فى أفضل المدارس، التى ستكون على الأغلب قد تم خصخصتها، فإلى أين سيذهب الآخرون؟ إلى مدارس الوثيقة أم المدارس الجاذبة أم البديلة؟ وكيف سيتم تصنيفهم بين الفضاءات الباقية؟ ونفس التساؤل يجب أن يُثار بخصوص الإداريين والمديرين. وفقًا لخطة بوش، فإن أولئك الذين حققوا أفضل نتائج فى رفع درجات الطلاب فى الاختبارات سيكونوا الأكثر جاذبية. وهؤلاء سوف يحصلون على علاوات. لكن ماذا سيكون مصير المديرين والإداريين الآخرين الذى كانوا فى مدارس أظهر الطلاب فيها تحديات فى تحصيلهم كما يتبدى فى درجات الاختبارات، لكنهم مع ذلك حققوا بعض التحسن فى درجات بعض الصفوف خلال سنة لكن ظلوا دون المتوسطات المطلوبة؟ ماذا سيكون مصير هؤلاء؟ وبالنسبة لأولئك الذين كانوا يديرون مدارس ظل تحصيل الطلاب فيها دون مؤشرات النجاح، ماذا ستكون الاختيارات المتاحة أمامهم؟ وفى مسألة مرتبطة بذلك ماذا ستكون

العواقب على الروح المعنوية بين المعلمين الذين أُجْبِروا على المنافسة مع بعضهم البعض بسبب الإسراع إلى خط النهاية فى اختبار "كيف تصرع الآخرين"؟ ماذا سيترتب على الجهود التعاونية والزمالة بين المعلمين؟ وماذا سيترتب على ذلك فى شكل العلاقات بين المدارس والمدارس المغذية لها عندما توصف إحداها بأنها متخلفة عن الأخريات أو فاشلة؟

إن القضايا المتعلقة بالمنهج وطرق التدريس تثير هى الأخرى شواغل كثيرة. فيما يتعلق بالأولى ثمة مترتبات جدية على محتوى المنهج وطبيعة المقررات التى يأخذها الطلاب. ومع العودة إلى الأساسيات الخمسة الجديدة، كما يقترح تقرير أمة فى خطر، ثمة افتراض بأن ذلك سوف يضمن أن يحصل الطلاب على المعرفة التى سوف يحتاجون إليها لاجتياز الاختبارات، وفيما بعد النجاح فى الحياة. علاوة على أننى يمكن أن أتنبأ بحركة تنادى بالعودة إلى التركيز على الأيام الخوالى للحضارة الغربية، مع مجانسة المحتوى كعلاج للانجراف نحو النشاز الناتج عن التعددية الثقافية وقضايا التنوع والاختلاف، التى قيل أنها مسئولة عن انخفاض المعايير وانخفاض درجات القراءة والكتابة. وفى هذا الصدد يدفع ستوتسكى Stotsky على نحو محدد بأن الفصول القائمة على التعددية الثقافية قوضت قدرة أطفالنا على القراءة والكتابة والتفكير[٣٠]. وفى سبيل إعادة النظام إلى المنهج ألا يعتبر هذا الهجوم على تضمين التنوع والاختلاف مقدمة للعودة إلى منهج كلاسيكى وتقليدى تعاد فيه منظورات وقيم المركزية الأوروبية ثانية إلى صميم المنهج؟

وبعد تحقيق السيطرة على المنهج يكون التركيز على المعلمين هو الخطوة المنطقية التالية. وعندما نرى أن إعداد المربين، والمعلمين تحديداً، لا يقوم على التدريب ونقل الاستراتيجيات والأساليب واستدماج أفضل الممارسات، وإنما على الإعداد الأكاديمى والمهنى من أجل فهم والتغلب على تعقيدات التدريس والتعلم، وكذلك العمل فى منظمات معقدة وديناميية لها ثقافات معينة[٣١]، لا بد أن نتساءل عن مستقبل أولئك الذين يعتبرون التربية عملية كلية يُقْصَد بها أن تولد النمو العقلى والوجدانى والأخلاقى

والجمالى والبدنى لدى الآخرين، وليس مجرد اجتياز الاختبارات؟ هل ستتمكن المدارس من الاحتفاظ بهيئة من المربين تجعل التدريس مهنتها الحياتية، إذا كان يتوجب عليهم أن يخضعوا دائمًا للاختبار والضبط والمكافأة والعقاب بناءً على درجات طلابهم فى الاختبارات؟ هل سيبقى المعلمون الذين يؤمنون بالتربية على المُثُل الديمقراطية التحويلية الابتكارية، أم ستلفظهم السياسات والممارسات المصممة بغرض تبليدهم وجعلهم مجرد امتدادات لصناعة الاختبار؟ وإذا بقى هؤلاء فأين سيكونون؟ فى المدارس الناجحة؟ أم البدائل؟ وإذا اختاروا البقاء فى المدارس الفاشلة، فإلى متى سيبقون؟ وما الذى سيحفظ لهم روحهم المعنوية فى مدارس واقعة تحت التعليق وتحت تهديد الإغلاق وتآكل التمويل؟ وعندما يغادرون من سيظل للطلاب الباقين وما نوع التعليم الذى سيقدم لهم؟

ونفس التساؤلات يجب أن تُطْرَح بخصوص الإداريين، ومديرى المدارس بوجه خاص. ربما يرى بعضهم إغراءً فى إمكانات زيادة التمويل والعلاوات على النجاح كمكافآت على رفع درجات الطلاب فى الاختبارات. فبقاؤهم سيعتمد على ذلك فى المقام الأول. وفى هذا المناخ ما نوع التعليم الذى سيتعهدونه ويروجونه؟ وما الأهداف التعليمية التى سيسعون إلى تحقيقها؟ وما نوع القيادة الذى سيقدمونه فى تصميم المنهج والمقررات والمتطلبات والمقررات الاختيارية؟ ومَنْ المعلمون الذين سيوصى هؤلاء المديرين ببقائهم؟ أو طردهم؟ أو الاستعانة بهم فى حالة التعليق؟ كيف سيكافئون ويعاقبون على ممارسات تعليمية معينة؟ كيف سيتجاوبون ويتعاملون مع الاختلافات بينهم وبين المعلمين حول غايات وأغراض التربية؟ هل مَنْ يَتَحَدَوْن طاغوت الاختبار سيتم وصمهم أم إسكاتهم أم طردهم من المهنة؟ وبالنسبة لأولئك الذين فى مواقع القيادة التعليمية ماذا سيكون مصير أولئك الذين يتشككون هم أنفسهم فى الحكمة من اختزال تقييم نجاح وفشل المدارس والمعلمين والطلاب إلى درجات الاختبارات؟ وفضلاً عن ذلك بالنسبة لتوزيع القيادة فما هى المدارس التى ستكون قادرة على جذب المديرين والإداريين "الأفضل" و"الأعلى تأهيلاً"؟ وبالتالى من الذين سيُتْرَك لإدارة المدارس الأقل نجاحًا والمدارس الفاشلة؟

خاتمــة :

إن التساؤلات التى طرحتُها آنفًا حول مضامين الإصلاحات التعليمية المقترحة وتأثيراتها على الطلاب والمعلمين والأفراد فى الأدوار الإدارية كالمديرين تخاطب قضايا تتطلب وقفة وتأمل جديين على اعتبار تأثيرها قصير وطويل المدى على التعليم فى الولايات المتحدة. وبدلاً من ركوب قطار الاختبار ثم الاختبار ثم المزيد من الاختبار والمدخل الاختزالى إلى التعليم والتعلم، يجب على الأفراد والجماعات التى تتشكك فى فرضيات مقترحات الإصلاح التعليمى وعواقبها أن يدخلوا فى نقاش يتحدى الاتجاه المهيمن، وأن يعملوا على صياغة اتجاه جديد. وفى رأيى أن الولايات المتحدة تحتاج لأن تطور ثقافة جديدة للتعليم والتعلم والتحصيل تقوم على وضع المحلى فى سياق العالمى، مع تقدير خاص لمعنى العيش فى نظام يقوم على نحو متزايد على الاعتماد المتبادل. ونحن كأمة فى حاجة لأن ندخل فى حوار جدى نعاود فيه مناقشة ذلك الذى نعتقد أنه يجب أن يشكل رؤيتنا للشخص المتعلم للقرن الحادى والعشرين: ما أنواع المعرفة والمهارات والميول وعادات العقل والقيم التى نعتقد أنها مهمة وضرورية لإعداد الأفراد كمواطنين ليس فقط فى هذه الأمة ولكن أيضًا فى المجتمع العالمي؟ والحوارات يجب أن تدور فى المنازل والجاليات والمدارس والمنتديات العامة الأخرى، بين المربين وصناع السياسة وأولياء الأمور وغيرهم من أطراف المؤسسات التعليمية.

ومن أجل هذه الأسباب، فضلاً عن قلة الانتباه الواضحة لمضامين القضايا السابقة التى طرحها الفصل، فإن مقترحات إصلاح التعليم، مثل "أمة فى خطر" و"لن يُتْرَك طفل يتخلف"، تمثل بالفعل لغة فارغة، بل مجرد حيل، تُصَوَّر على أنها فى صالح الأمة وبالتالى فى صالح الجميع، بينما هى فى الحقيقة تصمم بقصد تأبيد النظام القائم والحفاظ على الامتيازات وتقديم أموال إضافية إلى الموسرين، وبالتالى توسيع الفجوة بينهم وبين المعدومين. وهذا ما يجعلنا نشك فى أنه عندما يتم تنفيذ هذه المقترحات، فإنها سوف تزيد الاختلافات العرقية/الإثنية والطبقية الحالية على المستوى

الداخلى، وتعمل فى نفس الوقت على فرض النظام العالمى القائم: مجتمعات عصر المعلومات ما بعد الصناعية المتقدمة جداً من جانب. وعلى الجانب الآخر الاقتصادات المكافحة المتخلفة الفقيرة ضعيفة التصنيع والتى لا يزال كثير منها زراعياً ينتج سلع ومنتجات البقاء. فالسياسات التعليمية والدور المكمل للمؤسسات التعليمية فى الولايات المتحدة سوف يعملان على تعزيز هرمية تتميز بفرص متمايزة جداً للتعليم الجيد ونوعية الحياة والمشاركة النشطة فى الحياة العامة للأمة.

إن عواقب مقترحات الإصلاح التعليمى الذى يُفْرَض علينا ستكون مروعة. فهى لن تؤدى فحسب إلى ترك كثير من الأطفال ليتخلفوا على مستوى الأمة، وإنما أيضاً كثير من الدول والمجتمعات على المستوى العالمى. فتلك العواقب الأكيدة لنظام تعليمى يشدد على المنافسة، والفائزين والخاسرين، والمكافآت والعقاب، والرغبة والحاجة لأن نكون الدولة الأولى، والدفع لاستهلاك المزيد من الموارد واحتكار الوصول إليها؛ وما ينتج عن ذلك من تجاهل فاضح لصالح الآخرين انطلاقاً من اعتقاد بأن الفرد قد ربح ويستحق بالتالى الامتيازات على حساب الآخرين.

الهوامش

(1) Joel Spring, The Sorting Machine Revisited (New York: Longman, 1989), viii.

(2) Joel Spring, The Sorting Machine Revisited (New York: Longman, 1976), 2.

(3) Daniel Tanner, "The American High School at the Crossroads," Educational Leadership 41, no. 6 (March 1984): 6.

(4) George W. Bush, No Child Left Behind (Washington, D.C.: Committee on Education and the Workforce, 2001), 2.

(5) Ibid., 2.

(6) Ibid., 13.

(7) Doran Christensen, The Politics of Educational Reform: What Vested Interests Are at Stake? (Chicago: American Educational Studies Association, 1987), ERIC Reproduction Service ED 290735, 5.

(8) Melvin Howards, Testing: Illusions of Measurement, ERIC Reproduction Service, 1987ED300393, 1.

(9) See Abdul A. A-Rubaiy, Current Voices of Reforms in American Education: Ethnocentrism Or Globalism (Houston Tex.: Comparative and International Education Society); ERIC Document Reproductive Service, 1984, ED265646.

(10) See Gerald W. Bracey, "Why Can't They Be Like We Were?" Phi Delta Kappan 73, no. 2 (Octobenl991): 104-17.

(11) Tanner, "The American High School at the Crossroads," 7.

(12) Ibid.

(13) Howards, Testing, 17.

(14) Bush, No Child Left Behind, 16.

(15) Ibid., 17.

(16) Ibid., 20-21.

(17) James E. Albrecht, "A Nation at Risk: Another View," in Phi Delta Kappan 65, no. 10 (June 1984): 684.

(18) Clifford Adelman, War and Peace among the Words: Rhetoric, Style and Propaganda in Response to National Reports on Higher Education (ERIC Document Reproductive Service, 1985), ED264758, 46.

(19) Fran Lehr, Responses of the English Language Arts Profession to A Nation at Risk, Urbana, 111.: ERIC Clearinghouse on Reading and Communication Skills; Springfield, Va.: ERIC Document Reproductive Service, 1984, ED250690, 1.

(20) William E. Gardner, "A Nation at Risk: Some Critical Comments," Journal of Teacher Education 35, no. 1 (January_February 1984): 15.

(21) Sandra L. Hunt and Ann Q. Staton, "The Communication of Education Reform: A Nation At Risk," Communication Education 45, no. 4 (October 1996): 9.

(22) Howards, 2.

(23) Christensen, The Politics of Educational Reform, 11.

(24) W. James Popham, The Truth about Testing: An Educator's Call to Action (Alexandria, Va.: Association for Supervision and Curriculum Development. 2001)

(25) Hunt and Staton, "The Communication of Education Reform," 12.

(26) Albrecht, "A Nation at Risk," 684. '

(27) Ibid., 685.

(28) Pauline Lipman, "Bush's Education Plan, Globalization, and the Politics of Race,"Cultural Logic 4, no. 1 (2001): 10.

(29) Stephanie Banchero. "Equity Not in School-Funding Equation," Chicago Tribune (December 30, 2001): sec. 1, 19.

(30) Sandra Slotsky, Losing Our Language: How Multicultural Classroom Instruction Is Undermining Our Children's Ability to Read, Write, and Reason (New York: Free Press, 1999).

(31) Gary Griffin, editor "Changes in Teacher Education: Looking to the Future," The Education of Teachers. The Ninety-Eighth Yearbook of the National Society for the Study of Education. Chicago, 111.: Distributed by the University of Chicago Press, 1999).

الفصل الرابع عشر
سيطرة الصور
سلطة الاختبار عالى الرهان

كيفين فينسون وواين روس(*)

المراقبة والعرض وقوة الاختبار عالى الرهان

يعتمد فهم التمدرس العام اليوم على نحو متزايد على تأثير الصور images المهيمنة والموجِهة أكثر منه على الفهم الأصيل للواقع المعقد للحياة داخل الفصول. فنحن نصوغ تفسيراتنا لما هو قائم، وما كان وما يجب أن يكون، تأسيسًا على ما يقدم فى أجهزة الإعلام "الإخبارية" المهيمنة وما نشاهده فى السينما والتليفزيون. ينطبق ذلك بوجه خاص على البيئات الاجتماعية/الثقافية/السياسية/الاقتصادية/التربوية المعاصرة للإصلاح التعليمى القائم على المعايير(١). وهو ما يتجلى فى أوضح صوره فى النقلة الحالية نحو الاختبار المعيارى عالى الرهان، وهو نظام يُخْضِع المعرفة الثقافية وسلوك الطلاب والمعلمين والمديرين وأوليا الأمور والفصول والمدارس والإدارات التعليمية للفحص والضبط. وقد تحدد نطاق هذا الفصل فى تقارب عدد من الظواهر

(*) كيفين فينسون Kevin D. Vinson أستاذ بقسم التدريس وإعداد المعلم بكلية التربية بجامعة أريزونا.

واين روس E. Wayne Ross أستاذ ورئيس قسم التدريس والتعلم بمدرسة التربية والتنمية البشرية بجامعة لويزفيل Louisville.

المرتبطة بالصورة والاختبار عالى الرهان، من بينها الوسائل المختلفة التى يبحث الدارسون من خلالها عن استبصار نقدى وعملى، والآليات التى من خلالها تعكس الصورة والاختبار عالى الرهان الظروف المجتمعية وينعكسان فيها، والعواقب القسرية لهذا الواقع، والأساليب التى يمكن من خلالها مقاومة الاثنين.

لا بد أن نعترف أولاً بأن "هيمنة الصورة" تعكس - وتنعكس فى - تطورات عديدة فى الولايات المتحدة والمجتمع الدولى المعاصرين، خاصة فى ميدانى التكنولوجيا والعولمة، وكذلك تعززها هذه التطورات وتتعزز من خلالها. تنتج هذه الهيمنة، على سبيل المثال، عن إتاحة شاشات وكاميرات الفيديو ٢٤ ساعة على مدار أيام الأسبوع السبعة للأفراد، سواء كمشاهِدين أو مشاهَدين. كما ينتج عن انتشار كاميرات الإنترنت، والبث على مدار الساعة، وتليفزيون الكابل (والقمر الصناعى والإنترنت)، ومراقبة الخصوصية المدعومة من الدولة، (مثل نظام الرقابة على الاتصالات الإلكترونية من جانب مكتب التحقيقات الفيدرالى المعروف باسم Carnivore) وتكاثر المنافذ الإخبارية media outlets والانفجار فى برامج تليفزيون الواقع (مثل برامج Survivor وبرنامج Big Brother)، علاوة على أن ذلك ينبنى داخل بيئة اقتصادية قائمة على الاندماجات واحتكار القلة، وهى بيئة معولمة يدمج فيها عمالقة الإعلام إمكاناتهم بغرض السيطرة بقوة أكبر على كل من التكنولوجيا وإعادة إنتاج الصور العامة.

والنظم المعاصرة للاختبار عالى الرهان يجب أن تُفْهَم فى هذه السياقات على أنها تعزز/تفرض وتنتج/تعيد إنتاج بعضها البعض، كحالات محددة لسيطرة وهيمنة الصور الإعلامية. فكم مرة، على سبيل المثال، يقوم الأفراد والجماعات بتحديد "فعالية" مدارس معينة اعتماداً على درجات الاختبارات التى ترد فى الإعلام - الصور الإعلامية - سواء أكانت لدى هذه الأجهزة الإعلامية معلومات مستقاة مما يحدث بالفعل فى أية مدرسة أم لا؟ ومع سيطرة التعليم العام المتنامية على الخطاب السياسى الأمريكى، فإلى أى مدى تسهم سياسات التقنين من هذا النوع فى تعميم المصالح الثقافية والسلوكية للأقوياء اقتصادياً وسياسياً وثقافياً، خاصة مع استمرار الليبراليين

والمحافظين فى الالتقاء حول رؤية واحدة للتمدرس يضفون عليها طابعًا مثاليًا (مثل قانون لن يُتْرَك طفل يتخلف)[٢].

ومع التئام حكام المجتمع واستخدامهم لكل من المراقبة surveillance (ملاحظة القلة للكثرة بغرض ضبطهم) والعرض spectacle (ملاحظة الكثرة للقلة بغرض ضبطهم) كوسيلة مشتركة للسيطرة على الأفراد والجماعات، يأتى الاختبار عالى الرهان ليمثل الإطار الذى يتم فيه ربط المدرسة بالمجتمع، وليمثل أيضًا سياق التعزيز الذى تعمل فيه مصالح الأثرياء والأقوياء على إضفاء الشرعية على ما يعتبر معرفة حقة وسلوكًا مقبولاً[٣]. ينطبق ذلك بوجه خاص على سياسة التعليم القومية التى لا تزال تُحَدد من جانب ممثلى الأيديولوجيات الثقافية والاقتصادية للنخبة (كما فى لجان ما بعد تقرير "أمة فى خطر" التى تتألف عادة من قادة الشركات الكبيرة [مثل لو جيرستنر Lou Gerstner من شركة أى بى إم] ومسئولى الاتحادات [مثل الرئيس السابق للاتحاد الأمريكى للمعلمين آل شانكر Al Shanker] والسياسيين ([مثل جمعية الحاكم القوميين]) التى تُشَكل لتحديد طبيعة ومعانى التمدرس العام الأمريكى. بل إن هذه النخب القوية كما تسيطر على الصور العامة/الإعلامية للتعليم، تسيطر كذلك على طريقة إنتاج/إعادة إنتاج هذه الصور عبر "المعرفة الرسمية"[٤] والسلوك المدرسى "الملائم"[٥].

فى هذا الفصل سنبحث العلاقات التبادلية بين صور التمدرس العام وعمليات الاختبار عالى الرهان، وتحديداً من حيث درجة توظيفهما فى فرض كل من المعرفة الثقافية والسلوك والسيطرة عليهما وضبطهما. كما سنبحث المدى الذى يذهب إليه كلاهما فى "تطبيع" normalize مصالح الأقوياء اقتصادياً وسياسيًا بوصفها "صحيحة". وبناءً على الأدبيات المتاحة حول الصورة والمراقبة والعرض والاختبار المعيارى عالى الرهان، سوف نتتبع (١) دور الصورة فى الاندماج (أو التعايش) المجتمعى المعاصر للمراقبة والعرض، (٢) الاختبار عالى الرهان باعتباره صورة مُسَيقة contextualized، (٣) عواقب ومترتبات هذه الظروف، (٤) مفهوم ديبورد Debord حول التجوال والتحوير كأشكال للمقاومة.

سندفع فى هذا الفصل بإيجاز بأن الاختبار عالى الرهان ودرجات الاختبارات تعمل كصورة، ويجب أن تُفْهَم على هذا النحو، وكيف تتبنى الصورة بيئيًا فى نظام المراقبة–العرض الحالى. وعلى ذلك فإن الاختبار عالى الرهان باعتباره صورة تُسْتَحث عن طريق المراقبة – العرض يُوَظَف فى السيطرة على الجماعات والأفراد عن طريق آليات محددة وتكنولوجيا التحديق – أن تشاهِد وتشاهَد – ويعمل على دعم عواقب خطرة وقاهرة لا بد من مقاومتها. وكما نَخْلُص فى النهاية فإن التجوال والتحوير –كما عند ديبورد– يقدمان مناورة مضادة غير كاملة وإن كانت ممكنة ومعقولة تستهدف إبطال المكانة التربوية المقفرة للتقنين ودرجات الاختبارات المعيارية.

الصورة: التمدرس والمراقبة والعرض

إن صورنا عن التمدرس تعمل فى الأساس من أجل السيطرة، فهى تعمل موضعيًا وديناميًا وبطريقة مشروطة كسبب ونتيجة، وهدف ومُخْرَج للقوة (وبذلك فإن كل من الصورة والقوة يعيد إنتاج إحداهما الأخرى). وعندما توضع القوة والصورة ماديًا وأيديولوجيًا فى المركب السياقى للتعدديات الذى يسم المجتمع الفائق/الافتراضى الرأسمالى الأمريكى/العولمى الحديث (ما بعد الحديث). فإن الحدود بينهما تتلاشى، فإذا بالقوة تصنع الصورة وتُصْنَع من خلالها، وفى نفس الوقت تصنع الصورة القوة وتُصْنَع من خلالها. وموضوعنا تحديداً هو سيطرة الصور، بمعنى السيطرة على الصور والسيطرة عن طريق الصور(*).

(*) مما تجدر الإشارة إليه أن العنوان الرئيسى لهذا الفصل Controlling Images استلزم وقفة من المترجم، حيث يحتمل ترجمتين وفقًا للوظيفة اللغوية لكلمة controlling فلو أُخذت على أنها عملية process فسوف تكون ترجمة العنوان "السيطرة على الصور"، ولو أُخذت على أنها محدد لغوى modifier (صفة مثلاً) فسوف تكون ترجمة العنوان "الصور المسيطرة"، وشتان ما بين المعنيين. لكن مطالعة الفصل، كما فى هذه الفقرة، تثبت أن المؤلف يقصد الاستخدامين اللغويين معًا: السيطرة على الصور والصور المسيطرة [المترجم].

إن فـهم الصـورة يتطلب الانـخراط فى الأوسـاط التى تُنْتَج فـيـهـا الصـورة. وذلك يعنى، فى تفسيرنا، التركيز على الظروف الاستثنائية للمجتمع العالمى الحديث (ما بعد الحـديث). وعلى وجـه التـحـديد فـإننا نبـحث الخلفـيـة الضـبطيـة disciplinary الحـاليـة للمراقبة والعرض. فمن خلال التقائهما واندماجهما، تُنْتَج الصـور وتُحْفَظ وتتوالد، وفى هذا الالتقاء تؤسس وتمارس قوتها فى التعزيز (الفرض). ودرجات الاختبارات، بما هى صور، لا يمكن أن تقترب من التعقيدات الكاشفة واليومية للتمدرس المعاصر، مهما كانت نوايا صناعها. لكنها مع ذلك يمكن أن تتكاثر كآليات للسيطرة، بل هـى تتكاثر على هذا النحو بالفعل.

المراقبة والعرض:

> **كانت العصور القديمة حضارة عرض. فـ"الحاجة إلى إخضاع عدد قليل من الأشخاص لمعاينة جماهير كثيرة" كان المشكلة التى تجاوبت معها عمارة المعابد والمسارح ودور السيرك. ففى العرض كانت الغلبة للحياة العامة وكثافة الأعياد والقرب الحسى. وفى هذه الطقوس، التى كانت تفيض بالحياة، وجد المجتمع حيوية جديدة، وشَكَّل للحظة كيانًا كبيرًا واحدًا. لكن المجتمع الحديث يفرض المشكلة المقابلة: أن ينقل لعدد صغير أو حتى شخص واحد المشاهدة الآنية لحشد كبير. ففى مجتمع لم تعد فيه العناصر الأساسية هى الجماعة والحياة العامة، وإنما الأفراد الخاصين من جانب والدولة من جانب آخر، يمكن تنظيم العلاقات فى شكل مناقض تمامًا للعرض: فمن أجل العصر الحديث ومن أجل التأثير دائم النمو للدولة تم الحفاظ على هذه المهمة وأُحكِمت ضماناتها باستخدام (والتوجيه نحو الهدف الكبير المتمثل فى) بناء وتوزيع الأبنية بقصد ملاحظة حشد كبير من الناس فى نفس الوقت"(٦).**

إن الصور التعليمية المعاصرة، ومن بينها تلك التي تصاحب الاختبار عالى الرهان، يجب (بل يمكن فقط) أن تُفْهَم سياقيًا وفى مقابل تيارات ثقافية - اجتماعية واقتصادية وسياسية معينة متداخلة ومتماسة، مثل التغيرات التكنولوجية ومجىء تكنولوجيا المعلومات المدعومة من الدولة والرأسمالية العالمية والشركاتية وانتصار "نظام الحزب الواحد" الأمريكى. وبشكل أكثر تحديدًا يجب أن نفهم أن هذه الصور تعكس - وتنعكس فى - هذه الأماكن وهى تصنع - وتُصْنَع عن طريق- الخاصية المميزة لحياة القرن الحادى والعشرين فى الولايات المتحدة الأمريكية، وهى تحديدًا ضرورة (من حيث الرغبة والفرصة) أن تشاهِد وتشاهَد. وهذه الضرورة تستحث ضبطًا أساسيًا، وامتثالاً مفروضًا، وضرورة مدركة لأن تُقَنِن الآخرين وتُقَنَن من جانبهم.

لكن ما هى هذه السياقات والتغيرات؟ تكنولوجيًا يمكن أن نفكر فى تطورات حديثة كثيرة، مثل مجىء "البث" التليفزيونى ٢٤ ساعة طوال أيام الأسبوع من خلال مئات من قنوات الكابل/القمر الصناعى والإنترنت، وتكاثر كاميرات الإنترنت التى جعلت من الممكن للمرء أن يشاهِد الآخرين ويشاهده الآخرون فى نفس اللحظة وعلى نحو متواصل.

ومن الناحية الاقتصادية - فى بيئة الرأسمالية الشركاتية العالمية المدعومة من الدولة - انظر كيف تكشف التحديثات اليومية على دار الساعة مدى ارتفاع أو تراجع أسعار الأسهم وأرقام السوق بصرف النظر عن الربح أو إمكانية الربح. ويتضح فى هذا المثال أن صورة الشركات، بمعنى كيف تتم مشاهدة هذه المؤسسات (مثل مناورات "الثراء السريع")، تكون أهم من السلامة الأساسية أو الأداء الماضى والحالى (ناهيك عن الوعى والحساسية الاجتماعيين والسياسيين والبيئيين و/أو الثقافيين). وقد انكشف ذلك فى أعقاب انهيار شركات إنرون Enron وإمكلون ImClone ومارتا ستيوارت Martha Stewart.

ومن الناحية السياسية لاحظ كيف أن السباق الحالى إلى متوسطى الدخل بين الأحزاب السياسية الرئيسية (مثل مرشحى حملة الرئاسة عام ٢٠٠٠ بوش وجور) لم يكن يعتمد على مناصرة قضايا حقيقية بقدر ما كان يعتمد على الطريقة التى كانا يُشَاهَدان بها (وكيف كان المرشحان نفسهما يشاهدان الناخبين). وذلك يؤدى حقيقةً إلى تأسيس نظام الحزب الواحد، نظام يسعى فيه الجمهوريون الأقوياء إلى استرضاء الجناح اليمينى (مثل باتريك بوشنان Patrick J. Buchanan والائتلاف المسيحي)، بينما يعلنون فى نفس الوقت أنهم فى الوسط (مثل "النزعة المحافظة المعتدلة")، ويسعى الديمقراطيون الأقوياء إلى استرضاء جناحهم اليسارى (مثل رالف نادر Ralph Nader وأنصار البيئة وحركة "الديمقراطيين الجدد"). ونتيجة لذلك يتضاءل الفرق الحقيقى وتتفسخ التحالفات التقليدية (مثل انفصال نادر عن الديمقراطيين وبوشنان عن الجمهوريين)، وتُجْبَر على أن تقبل وجوداً يُنْظَر إليها فيه بوصفها متطرفة وبعيدة عن الاتجاه السائد. قد لا يمثل ذلك إشكالية إذا كان الأمر يقتصر على الصورة (مثل بيانات استطلاعات الرأى ونتائج مجموعات النقاش والعلاقات العامة والإعلان)، وليس الإيمان القلبى بقضايا ومعتقدات وخلافات هامة. فبالنسبة لكلا الطرفين لم يكن الهدف هو الدفاع عن الصالح الاجتماعى الجمعى وتعزيزه، وإنما أن يضمن كل منهما أولاً أنه يشاهَد بالفعل، وثانياً كيف يشاهَد (الديمقراطيين والجمهوريين على السواء) على أنه "محافظ"، لكن ليس محافظاً جداً، وليبرالى، لكن ليس ليبرالياً جداً.

فى الحقيقة تؤسس هذه السياقات (الثقافية-الاجتماعية والاقتصادية والسياسية) وتعيد تأسيس أولوية النظر - "التحديق"- كآلية للضبط والسيطرة الاجتماعية. وعلى نحو أكثر تحديداً فإن هذه السياقات تخلق -وتتخلق عن طريق - الشروط التى يحدث فيها تقارب المراقبة والعرض، وتشكل جزئياً بيئة ما يمكن أن يُسمى "الضبط الجديد" new disciplinarity، وهو شكل من الإكراه الماكر يؤسس غالباً فى الممكنات المتطرفة للمشاهدة ثنائية الاتجاه المتواصلة لكل من المراقبة والعرض. وهنا بالطبع تقبع الصور، بما فى ذلك الصور المرتبطة بالتمدرس، وهنا أيضاً يجب أن تواجَه.

بالنسبة لفوكو تمثل المراقبة قوة ضبط تنبنى على إمكانيات (آلية وغير مرئية) رؤية القلة للكثرة (على طريقة السجن الحديث الذى بُنى وفقًا لتصميم سجن بنتام(*)). وفى الوقت الحالى توجد عناصر المراقبة فى خصائص لمجتمعنا مثل الكاميرات الخفية nannycams ونظام الرقابة على الاتصالات الإلكترونية (من جانب مكتب التحقيقات الفيدرالى) والبرنامج الحكومى (وكالة الفضاء الأمريكية) لمراقبة كل الاتصالات عن بعد على مستوى العالم المعروف باسم إيكلون Echelon، وهذه جميعها يجب أن توضع فى سياق إنشاء إدارة بوش فيما بعد ١١ سبتمبر لوزارة الأمن الداخلى وقانون باترويت ونظام معلومات ومكافحة الإرهاب، الذى يتخذ من المواطنين جواسيسًا على بعضهم البعض)(٧).

وعلى العكس من ذلك يمثل العرض عند فوكو شكلاً للضبط يعتمد على عمليات العصور القديمة القائمة على مشاهدة الكثرة للقلة (على طريقة التصميمات القديمة للمسارح ودور السيرك والمعابد ما إليها). بينما يرى الفيلسوف جاى ديبورد فى كتابه "مجتمع العرض" أن العرض يميز المجتمع المعاصر أيضًا.

> **إن كل حياة تلك المجتمعات التى تسود فيها شروط الإنتاج الحديثة تقدم نفسها كتراكم مهول للعروض. فكل ما كان يعاش بشكل مباشر فى السابق أصبح الآن مجرد تمثيل.**
>
> **والعرض ليس مجرد مجموعة من الصور، وإنما علاقة اجتماعية بين الناس يتم توسطها عن طريق الصور ... والعرض من حيث الشكل والمضمون يخدم كتبرير كلى لشروط وأهداف النظام القائم. كما يضمن الوجود الدائم لهذا التبرير، لأنه يحكم كل**

(*) انظر تصميم السجن الذى أعده بنتام المسمى panopticon وتطبيق حديث له على أحد السجون الأمريكية ألحقهما المترجم فى آخر هذا الفصل.

الوقت الذى يُقْضَى خارج عملية الإنتاج نفسها. علاوة على أن لغة العرض تتكون من إشارات التنظيم المهيمن للإنتاج، وهى إشارات تمثل فى نفس الوقت منتجات نهائية لهذا التنظيم[٨].

يرى ديبور أن العرض يُعَرِف مجتمعًا تحل فيه الصور فى كل مكان محل الواقع، وهى صور لها "حياة قائمة بذاتها" ومتمايزة (ولا تنصهر مع الواقع). ويقدم العرض شكلاً من الاغتراب يتحول فيه "الوجود" إلى "الظهور"، فضلاً عن أن الصورة بوصفها محرفة ومنفصلة تتوسط كل العلاقات الاجتماعية. وكما يذهب ديبور فإن مكونات وخصائص ذلك العرض تتضمن:

١- أسبقية الصورة على الخبرة المعاشة.

٢- المكانة المتميزة للسلعة.

٣- رفع القيمة (التبادلية) المجردة والعمل.

٤- التغريب.

٥- الملاحظة السلبية (من جانب المشاهدين) والتأمل (الحياة أو المعايشة).

٦- اقتصاد وأيديولوجيا محددَين.

٧- العزلة والانفصال والتجزيء وغياب الجماعة.

٨- إنكار التاريخ.

وبالنسبة لديبور يكون للعرض نظام للسيطرة والضبط خاص به، وهو نظام يقابل المراقبة وسجن بنتام، ويتأسس على حقيقة أنه يوجد فقط من أجل إعادة إنتاج نفسه، وبذلك يُخْضِع كل الحياة الإنسانية لاحتياجاته. وهو يمارس السيطرة عن طريق العزل والتجزيء وإنكار التاريخ وتحريف الواقع والتغريب واحتكار الاتصال (أو الطريق من أجل صالحه). وهو يعمل فى النهاية على إنكار ذلك الذى يمكن أن يعزز التغيير (مثل الجماعة والحوار وما إلى ذلك)، حيث أن أولئك الذين لا يريدون التغيير يسيطرون على

الصور – الشكل المهيمن للحياة الاجتماعية– وبذلك يستطيعون أن يُعَموا علاقات القوة التحتية والهرمية. والعروض بذلك تسيطر على العلاقات الاجتماعية، وتفعل ذلك من خلال آليات العرض الضخم spectacular.

لكن ما يجعل اليوم متفرداً عن الماضى هو دمج، أو على الأقل تعايش، الاثنين، وهو ما يجعل من الممكن، وحتى من المرغوب لدى بعض الناس، أن تشاهد وتشاهَد آنيًا طوال الوقت (مثلاً بفضل الإنترنت وتكنولوجيا الكابل والأقمار الصناعية واللاسلكى). وفى الحالات المتطرفة يصبح الإمكان أكثر واقعية لدرجة أن المجتمع سوف (أو على الأقل يمكن أن) يُفْهَم على أنه ليس أكثر من وسيط يمكن للجميع من خلاله أن يشاهدوا الجميع طوال الوقت وعبر ومن خلال كل الفضاء، وليس أكثر من مجموعة من الصور وعلاقات العرض. والإصلاح التعليمى القائم على المعايير Standards Based Educational Reform يمثل فى الحقيقة المدى الذى يمكن أن يصل إليه هذا الواقع، ويقدم حالة يمكن من خلالها فهم هذا الدمج، وكذلك فهم الإصلاح نفسه فى مقابل المراقبة والعرض ووفقًا لهما (من أمثلة أعمال المراقبة هنا "المراقبة" الرسمية لإجراءات الاختبار، ويوجد مثال للعرض فى نقل الإعلام لدرجات الاختبارات. فكلاهما فى النهاية يعطيان للصورة ميزة على الواقع، ويعملان كوسيلة للسيطرة الاجتماعية والهيمنة السياسية/الاقتصادية والامتثال).

فى الجزء التالى سنتناول الاختبار عالى الرهان ودرجات الاختبارات التى تُورَد فى أجهزة الإعلام بوصفها صور تُنْتَج عبر اندماج العرض والمراقبة. وسنبحث أيضًا كيف يعمل الاختبار المقنن عالى الرهان فى هذه البيئة كنظام للفرض، وكيف يعمل وفقًا للصور المسيطرة.

الاختبار عالى الرهان والفرض

إن الاختبار المقنن عالى الرهان، إلى جانب نشر درجات الطلاب الفرديين والمدارس والإدارات التعليمية والولايات، يسعى إلى إضفاء الشرعية على الصور

المهيمنة والداعمة للهيمنة حول الثقافة والمعرفة والسلوك والاقتصاد والسياسة فى جهد إجمالى يُقْصَد به الضبط وفرض قواعد معينة تتفق مع المصالح المتميزة للأثرياء والأقوياء. ونظرًا لانتشار هذه الاختبارات، التى تشكل عناصر مخططات الإصلاح التعليمى القائم على المعايير، فإن الأمر يستلزم تساؤلات تتعلق بالمراقبة والعرض. فهى تسمح، على عدة مستويات، بقيام علاقة هرمية يرعاها الإعلام بين جماعات النخب القوية والمدارس بما فيها من مساهمين متنوعين يلعبون فى نفس الوقت دور ملاحَظة (ضبط) القلة من جانب الكثرة، وملاحَظة (ضبط) الكثرة من جانب القلة.

الصورة - القوة والمراقبة - العرض والتمدرس:

إن الاختبار المقنن عالى الرهان/الإصلاح التعليمى القائم على المعايير وأولئك الذين يقرونه ويتبنونه يستهدفون فرض مجموعة معينة من الصور تتعلق بالتعليم "الجيد" أو "الفعال"، وكذلك الطالب "الجيد" والمعلم "الجيد" والمدرسة "الجيدة" وولى الأمر "الجيد" والمنهج "الجيد" والتدريس "الجيد". وتنقل هذه الصور دلالات معينة مقنَّنَة ومقنِنَة للمعرفة والتعلم والسلوك، وهى دلالات تعمل عضويًا من أجل مصالح الأقوياء اقتصاديًا وسياسيًا. وضغوط المراقبة - العرض تجبر أولئك المنخرطين على الامتثال خشية أن يُنْتَقدوا بأنهم غير جيدين وغير أكفاء وفى حاجة إلى بصيرة سلطوية أكثر (مثل استيلاء الولايات على المدارس وإعادة التنظيم والخصخصة وما إلى ذلك).

والأكثر إشكالية من ذلك هو البعد الأخلاقى للنظام. فهو يتضمن أن بعض المعلمين والطلاب والمدارس والمناهج أفضل من الآخرين. ولا شك فى أن ذلك صحيح. لكن المشكلة تنشأ عندما تُؤسَس هذه الأحكام فقط على درجات الاختبارات التى تَرِد فى الإعلام. والتضليل هو أنه دون أن يدخل أحدهم فصلاً دراسيًا طيلة حياته يعتبر نفسه مؤهلاً لتقويم مرتادى المدارس وأفعالهم وشخصياتهم وعلاقاتهم، فقط فى ضوء الدرجات. وهذا هو حال كثير من صناع السياسات والصحفيين (وغيرهم من

"الناظرين" و"المحدقين"). فبناء على درجات الاختبارات، يصوغ الناس استنتاجات حول المدارس الجيدة والسيئة، والمعلمين الفاعلين وغير الفاعلين، والطلاب المُجِدين والكسالى، وأولياء الأمور المنخرطين وغير المنخرطين، والمناهج التى تبعث على التحدى والتى لا تبعث على التحدى. وهم يتجاهلون حقيقة أن كثيرًا من المدارس منخفضة الدرجات تحقق معجزات بالفعل وأن طلابها ومعلميها لا يقلون تفانيًا والتزامًا (ذكاءً) عن المدارس الأخرى، وأن المدارس ذات الدرجات العالية لا تحتكر أولياء الأمور المهتمين. وأن المحتوى - المقنن فى كثير من الأحيان- ليس بالضرورة "أفضل" أو "أسوء" مما فى المدارس مرتفعة الدرجات.

توظف هذه الأطر ممثلين للأيديولوجيات السياسية والاقتصادية المهيمنة لكى يعكسوا مصالحهم من خلال المدارس العامة. وهى تقدم هدفًا مقنَنًا (مثل "بيان رسالة المدرسة") ومحتوى مقنَنًا (مثل معايير وأدلة المنهج الإلزامية) وطرق تدريس مقنَنة (فى بعض الحالات يجيز حتى الطريقة الصوتية فى التدريس phonics) وتقييمات مقنَنة (الاختبارات عالية الرهان). فصور النخبة والصور المهيمنة لما هو "جيد" أصبحت مقنَنة. والاختبار عالى الرهان وسيلة لفرض هذه الصور/المصالح. ويتم فرض هذه الصور على المعلمين والطلاب وأولياء الأمور والمديرين عن طريق أدوات المراقبة والعرض. تعمل المراقبة (فى المقام الأول) على المستوى الصغير micro level، حيث يقوم مديرو التعليم بملاحظة وتشجيع أنشطة وإجراءات معينة. ويعمل العرض على المستوى الكبير macro level حيث تورد أجهزة الإعلام درجات الاختبارات، وفى الغالب للمدارس والإدارة التعليمية واحدة بواحدة. وفى حالة التمدرس تقوى المراقبة والعرض أحدهما الآخر، حيث تكون العملية دائرية، وتضعان المعلمين والطلاب (وكل الآخرين) فى موقف ضعيف أمام العين الضابطة disciplinary gaze، حيث تلاحظهم أعداد صغيرة من المسئولين الأقوياء وأعداد كبيرة من الجمهور العام. ولا حاجة لتأكيد قوة الضغوط التى تُمارَس عليهم لكى "يظهروا" فى شكل معين، ولكى يمتثلوا للصورة المهيمنة.

يتجاهل هذا الوضع التعدديات المعقدة للسياق وللتفاعل بين الاقتصاد والتاريخ والمعتقدات والتقاليد والثقافات والأيديولوجيات، وما إليها. كما يتجاهل حقيقة أنه فى معظم الحالات لا تكون درجات الاختبارات مؤشرًا على التعلم ذاته، وإنما الظروف السائدة، مثل ظروف الثروة المحلية والقوة السياسية والتنوع العرقى والثقافى والأثنى واللغوى، وليس الجدارة أو الذكاء أو الجدية فى العمل كما يزعم أنصار الإصلاح التعليمى القائم على المعايير والاختبار عالى الرهان، وإنما بالأحرى مدى "تشابه" المعلمين والطلاب والمجتمع المحلى مع واضعى الاختبارات. وذلك يسمح فقط بزيادة تميز المتميزين فعلاً، ويعكس ويكافئ قواعد الهيمنة.

وتقدم أعمال منظرين من أمثال باختين وبرات وبروستين وماكلوهان وبودريلارد نظرات قيمة تساعد فى فهم تعقيدات الاختبار عالى الرهان/درجات الاختبارات ليس كصور فحسب وإنما أيضًا كأدوات للفرض التعليمي-الاجتماعى. يتحدانا باختن Bakhtin[٩] لكى نتعقب العمليات التى من خلالها تقوم هذه الصور بتضمن تمثيلاً معينًا للمكان - الزمان وهو تمثيل يفيد واقعًا سياقيًا معينًا (واقع أولئك الذين يريدون أن يسيطروا استراتيجيًا على وصولنا إلى الزمان والمكان والتمدرس وتفسيرنا لها). ويطالبنا برات Barthes بأن ننقد ليس فقط التمثيلات ("الحرفية") المعلنة denoted للصور التعليمية (مثلاً ما إذا كانت درجات الاختبارات "موضوعية"، سواء ارتفعت أم انخفضت، والتحصيل ارتفع أم انخفض)، وإنما أيضًا تمثيلاتها ("الثقافية") المتضمنة connoted (مثل القول بأن بعض الطلاب أفضل بطبيعتهم من غيرهم). وينكل بروستين Boorstin بقضية الاختبار باعتبارها "حدثًا مزيفًا" pseudo-event، بمعنى أنه "وهمى" unreal ويوجد فى المقام الأول بغرض إعلانه ونشره، وذلك على اعتبار أن "شخصًا ما (الإعلام ذاته ومسئولى الحكومة) يهتم بنشر وتضخيم وتمجيد الاختبارات كأحداث تستحق المشاهدة وتستحق التصديق"، بحيث يعتقد شخص ما أنه "حصل على قيمة ماله". ويصف ماكلوهان McLuhan عدداً من العواقب تخص كل وسيط إعلامى محدد (مثل التقارير الصحفية حول نجاح المدارس)، ويجادل بأننا نواجه تأثيراتها على

التفاعل الإنسانى بوصفها تمديداً لحواسنا، وقدرتها على أن "تزيل عوامل الزمان والمكان فى الاجتماع الإنساني"، وبذلك تتغير الخصائص الاجتماعية والنفسية للتمدرس: "الوسيط هو الرسالة". ويجبر بودريلارد Baudrillard الجمهور على أن يروا كيف يمكن أن تصير درجات الاختبارات "أكثر اقعية" من "الواقع"، أى واقع الفصول والمدارس والمعلمين والطلاب أنفسهم، لدرجة أنها توجد كنسخ/صور ليس لها أصل ولا تشير إلى واقع أساسى.

العواقب:

ثمة عواقب كثيرة ممكنة ومعروفة بالفعل لامتزاج الصورة/الاختبار عالى الرهان/المراقبة - العرض. وكما أوضح نقاد من أمثال هانى Haney وكون Kohn وماكنيل McNeil واوهانين Ohanian[١٠] وآخرون، فإنه فى ظل هذا النظام يضيق المنهج والتدريس، وتضعف التربية، ويتراجع الإبداع، وتتسع "فجوات التحصيل"، ويزداد التمركز حول المعلم، و"يتخلف" كثير من الأطفال (ولعله من دواعى السرية أن ذلك يحدث أكثر هذه الأيام فى ظل قانون "لن يُتْرَك طفل يتخلف"). وأيضًا كما أشرنا بالفعل تتقوى الارتباطات بين المعرفة المدرسية الرسمية والاقتصاد عمومًا (فى الغالب من خلال إشراك قادة الشركات والقادة الماليين مع السياسيين والقادة التعليميين). وأيضًا كما لاحظنا تكمن بالطبع مخاطر أن يكون الإصلاح التعليمى القائم على المعايير (معايير المنهج والاختبار عالى الرهان) قهريًا[١١] وضبطيًا[١٢] وغير ديمقراطى[١٣] وغير أصيل ويتعارض مع الصالح الجماعى[١٤].

وعلاوة على ذلك توجد أيضًا عواقب ترتبط تحديداً بالتلازم بين المراقبة والعرض. فالطبيعة اللولبية أو الدائرية (إن لم تكن التقاربية) التى تقوم على إعادة الإنتاج المتبادل للعلاقة بينهما تساعد فى (١) ضمان أن يتقوى كل منهما، (٢) وبذلك يشتد الضبط والفرض المدرسيين (من حيث كل من المحتوى والسلوك) ويصبحا بالتالى أكثر فعالية، خاصة عن طريق تكنولوجيا الصورة[١٥].

إن مقاومة خصائص الفرض فى الصور المسيطرة، كتلك المتأصلة فى نظم الإصلاح التعليمى القائم على المعايير/الاختبار المقنن عالى الرهان تفرض عدداً من التحديات التربوية الجديدة والمتفردة بالفعل. يتعلق التحدى الأول بالائتلاف الشاذ والواسع نسبيًا للنخب التى تدعمها. فهذه الجماعة تتضمن جماعات وأفراد أثرياء وأقوياء يقعون عبر كامل الطيف السياسى - الاقتصادى. وفى هذا السياق تفقد التحالفات "الطبيعية" معناها، كما حدث عندما حارب نادر Nader الديمقراطيين وحارب بوشنان الجمهوريين فى انتخابات عام ٢٠٠٠. وهنا يكون من الصعب جداً أن يحدد المرء أعوانه وخصومه. أما التحدى الثانى والأهم فينتج عن الانتشار الواسع لمركب المراقبة - العرض. ورغم أن الفلسفات المختلفة حول الصورة التى قدمها باختن وبرات وبورستين تقدم نظرات حول الأسئلة التى يجب أن تُسأل والإجابات التى يجب أن تُطلَب، فإن الأعمال النظرية لفوكو و(خاصة) ديبورد وزملائه هى التى تقدم منطلقات نقدية لمقاومة سلطة التحديق التكنولوجى والسياسى والتعليمى والاقتصادى - الاجتماعى.

التجوال والتحوير كتربية نقدية:

إن أعمال فوكو حول "المقاومة" ربما كانت مباشرة أكثر مما هو متوقع، رغم أنه لم يضع برنامجًا صريحًا للتحرير أو الثورة. وكما يرى جوردون " Gordon يمكن أن يقال أن فوكو لم يُقِم مشروعه النظرى فى جانب المقاومة عن طريق الشروع فى صياغة إستراتيجية للمقاومة". وهذا يعنى حقيقةً إمكانية أخذ "مكر أى إستراتيجية (ثورية معينة) بوصفه الخاصية الحصرية لأشكال الهيمنة [المميزة][١٦] . بمعنى أن هذه الإستراتيجية تكون موضعية ومحددة ومشروطة. لكن بالنسبة لفوكو لا يعنى ذلك أن المقاومة الثورية لا يمكن أن تحدث، بل إنها تحدث. لكن يعنى فقط أن أى فعل من أفعال المقاومة لا يكون جيداً بشكل متأصل وعمومى أو سيئًا بشكل متأصل

وعمومى، إذ لا يكون أفضل أو أسوء بشكل متأصل من أى فعل آخر. فـ"الناس يثورون"[١٧]. لكن لا الثورة ولا المقاومة قابلتين للتنبؤ ولا محتومتين ولا موضوعيتين. لكنهما تحدثان.

يقوم تفكير فوكو على عدد من المسلمات، من أهمها فهم أن "القوة بآلياتها غير متناهية"، لكنها ليست بالضرورة "شر" أو "مطلقة السلطة"[١٨]. ويحذر فوكو من ميول المقاومة المتنوعة التى يعطى الأفراد فيها لأنفسهم سلطة تمييز السلوك الثورى الملائم على حساب الآخرين، ويدرك أن الثوريين يجب أن يضعوا فى حسبانهم ليس فقط تلك الأفعال التى ترتبط مباشرة بـ"السياسي"، ولكن أيضًا تلك التى تعد مجرد "مراوغة أو دفاع". كما يحذر من إشكاليات بعض الاستراتيجيات الثورية التى يُسْتَعاض فيها عن نظام يُتَهم بالتطبيع normalizing بنظام آخر يُتَهم بنفس الأفعال الإكراهية. ومع ذلك، فإن القوة بكل أشكالها تتطلب، عند فوكو، شكلاً من المقاومة من أقوى الأنواع: "القواعد الموجودة لتحجيم]القوة [لا يمكن أبدًا أن تكون قوية بما يكفى، والمبادئ العمومية لاستئصالها من كل المواقف التى تستحوذ عليها لا تكون أبدًا صارمة بما يكفى. وفى مقابل القوة يجب أن يضع الفرد قوانين لا تُخترَق وحقوق لا تُقَيد"[١٩]. إن فوكو يشير بمكر إلى إمكانية وجود "منطق للثورة أكثر عمقًا" وحتى أكثر فوضوية أو مفرط الديمقراطية، منطق يمكن فيه جعل "كل جنس العقلانية ومكانة كل نظام الحقيقة يفتح نفسه للاستجواب"[٢٠]، وتلك مقاومة ضاربة وراديكالية تستهدف كلية القوة الضبطية.

وفيما يتعلق بالاختبار عالى الرهان بما هو صورة، وفى إطار تقارب المراقبة والعرض، فإن هذه الرؤية تسمح بعدد من الأساليب الملموسة والمعتادة، مثل المقاطعة والرفض والتنظيم والفعل السياسى، وما شابه ذلك. إن ما يفنده فوكو صراحة هو القوامة العمومية والأصيلة أو الطبيعية لفرد على آخر، وامتياز فعل على آخر، واليقين بأن ما سيحل محل النظام الحالى سيكون بالضرورة تحسنًا، والثقة العمياء بأن الإشكاليات الأساسية للقوة التربوية سوف تتلاشى ببساطة.

ويوضح جوى ديبورد وغيره من أعضاء الجمعية الموقفية الدولية[٢١] أسلوباً آخر أقل انتشاراً يتعلق بإبطال "مجتمع العرض" وتأثيراته، وهى أساليب لم تُبْحَث بعد بشكل مكثف من حيث قيمتها التربوية النقدية، لكنها مع ذلك ذات أهمية خاصة فى ضوء وعودها فى مقابل نزوعات السيطرة والفرض من جانب الاختبار عالى الرهان.

أول هذه الأساليب هو التجوال derive الذى يعنى حرفيًا التنقل drifting، وهو يشير إلى شكل من السلوك التجريبى يرتبط بظروف المجتمع الحضرى: إنه أسلوب المرور العابر عبر بيئات مختلفة[٢٢]. ووفقا لديبورد فإن:

التجوال يستلزم سلوكًا لعبيًا - بنائيًا ووعيًا بالتأثيرات الجغرافية - النفسية التى تميزه عن الأفكار الكلاسيكية مثل الرحلة والتجول.

فى التجوال يلقى شخص أو أكثر فى فترة معينة عن كاهلهم دوافعهم المعتادة للحركة والفعل وعلاقاتهم وأعمالهم وأنشطة فراغهم، ويتركوا أنفسهم لكى تسحبهم مفاتن التضاريس والمصادفات التى يجدونها هناك. إن عنصر الصدفة أقل حسمًا مما نعتقد، ومن منظور التجوال تحتوى المدن على راحة جغرافية - نفسية وتيارات ثابتة ونقاط ودوامات ثابتة تحبط بقوة الدخول فى، أو الخروج من، مناطق معينة[٢٣].

تشير "الجغرافية - النفسية" psychogeography لدى أعضاء الجمعية الموقفية الدولية إلى "دراسة التأثيرات المحددة للبيئة الجغرافية، سواء المنظمة عن قصد أو غير قصد، على مشاعر وسلوك الأفراد"[٢٤].

أما الأسلوب الثانى فهو التحوير detournement الذى يعنى حرفيًا التحويل diversion، وحوله كتب أعضاء هذه الجمعية:

بإيجاز يشير إلى التحوير إلى العناصر الجمالية سابقة الوجود. إنه دمج الإنتاج الفنى الحالى والماضى فى بناء سامى للوسط. وبهذا المعنى لا يمكن أن يكون هناك رسم موقفى أو موسيقى موقفية [فى ذاتها]، وإنما فحسب استخدام موقفى لهذه الأساليب. وبمعنى بدائى أكثر فإن التحوير فى الفضاءات الثقافية القديمة يعد طريقة للدعاية، طريقة تثبت تهرؤ وفقدان أهمية هذه الفضاءات(٢٥).

والتحوير وفقًا لجيب Jappe " يتضمن اقتباسًا، أو بشكل أكثر عمومية إعادة استخدام تُكَيف العنصر القديم مع سياق جديد"(٢٦).

وهو أيضًا طريقة لتجاوز العبادة البرجوازية للأصالة والملكية الخاصة للفكر. ففى بعض الحالات يمكن إعادة توظيف منتجات الحضارة البرجوازية، وحتى أهم هذه المنتجات مثل الإعلانات، بطرق تعدل معناها، وفى حالات أخرى قد يكون المطلوب هو تعزيز المعنى الحقيقى للعنصر الأصلى عن طريق تغيير شكله(٢٧).

وبالنسبة لديبورد فإن التحوير يقترح:

إعادة استخدام العناصر الفنية سابقة الوجود فى طاقم جديد عن طريق القانونَين الأساسيين للتحوير: ... فقدان أهمية كل عنصر مستقل مُحَوَّر -الذى يمكن أن يصل إلى فقد معناه بالكلية - وفى نفس الوقت تنظيم طاقم جديد يمنح كل عنصر مجاله وتأثيره الجديدين(٢٨).

وإلى جانب التجوال والتحوير تنبثق عن ديبورد وزملائه "أحلام بعالم أعيد اختراعه"، عالم يمكن للمرء فيه أن "يبطل الزمن الميت"، عالم التجربة واللعب، و"اكتشاف أن عالم الجدة الدائمة يمكن أن يوجد، وإيجاد الأساليب اللازمة لإيجاده"(٢٩). ووفقًا لماركوس Marcus فإن:

> **هذه الأساليب تتمثل فى اثنين: "التجوال" وهو التنقل عبر شوارع المدن بحثًا عن علامات الجذب أو النفور، والتحوير وهو سرقة المنتجات الجمالية من سياقاتها وتحويرها إلى سياقات من ابتكار المرء...**
>
> **إن ممارسة التحوير - كتابة بالونات حوار جديدة للمسلسلات الهزلية فى الصحف، والإصرار فى نفس الوقت على "بخس" الفن و"إعادة استثماره" فى نوع جديد من الكلام الاجتماعى، وهو "تواصل يشتمل على نقده الخاص" وأسلوب لا يمكن أن يُلَغّز بسبب شكله المعادى للتلغيز - ومواصلة التجوال -أن تسلم نفسك لوعود المدينة وأن تجدها واعدة- وأن تتجول عبر المدينة، وأن تسمح لعلاماتها بأن تحرفك و"تحور" خطواتك، ثم تحرف هذه العلامات بنفسك، وأن تجبرها على أن تعطى مسالك لم تكن موجودة من قبل. ليس ثمة نهاية لذلك. وذلك قد يكون بداية للحياة بطريقة حديثة حقًا، مكونة من الرصيف والصور والكلمات والطقس: طريقة حياة يمكن لأى شخص أن يفهمها وأن يستخدمها(٣٠).**

لكن بالنسبة لأساليب المقاومة المصوبة ضد عناصر الفرض فى الاختبار عالى الرهان (كصور مسيطرة فى بيئة المراقبة - العرض) ماذا يمكن أن يعنى التجوال والتحوير؟ وكيف يمكن أن يكون شكلهما؟ وكيف يمكن أن يطبقا؟ وكيف يمكن أن يعملا؟

عند تطبيقه على التمدرس والاختبار عالى الرهان يتطلب التجوال -وهو الأصعب بين الاثنين - أولاً إعادة فهم التحولات الجغرافية التى أحدثتها التغييرات فى تكنولوجيا التحديق وما يرتبط بها من التوسع العالمى للرأسمالية الأمريكية. يتطلب التجوال التفكير فى التطور المعمارى الذى أحدثته المراقبة-العرض وتأثيراته (كما ناقشنا فيما سبق). واليوم، وفيما يخص التعليم، يستلزم التجوال "التنقل" ليس فقط عبر البنية البعيدة teletecture والبنية الكونية cosmotecture للمدارس المعاصرة (المدارس كفضاء افتراضى والمدارس ككازينوهات)، وإنما أيضًا عبر "مدينة" الفضاء الافتراضى التى تتيحها الإنترنت. إنه يتطلب مواجهة نقدية مع مجموعة جديدة تمامًا من الجغرافيات النفسية.

وفى كل حالة لاحظ أنت مجددًا أن الصورة تهيمن والمراقبة-العرض يتقاربان أو يتعايشان. هذا يعنى أن التجوال فعل اجتماعى، وأن الطلاب والمعلمين يمكنهم أن يتقدموا جماعيًا وتعاونيًا ويتنقلوا كما لو كان ذلك عبر بنايات وأيضًا عبر الفضاء الافتراضى والفضاء المفرط، وخلال البنية الكونية والبنية البعيدة للتمدرس المعاصر، كما لو كانوا ينجذبون أو ينفرون، مع إثارة مشاعرهم وسلوكهم. وهؤلاء المتجولون يمكن، على سبيل المثال، أن يكونوا "أحرارًا" فى دخول أو الخروج من مواقع الاختبار (المادية أو الافتراضية)، وهم يُشَجَعون ويُحْبَطون عن فعل ذلك، ويمكن أن يكونوا يسعون فحسب إلى أن يعايشوا خبرة أو يعطلوا أو يلعبوا. ويمكنهم أن يركبوا أمواج مواقع الشبكة، ويواجهوا الصور ذات الصلة، ويجيئوا ويذهبوا، ويستخدموا شاشات وكاميرات الإنترنت من أجل "السفر" وأن يُدْفَعوا إلى أو يُبْعَدوا عن مناطق مختلفة، مثلاً عن قواعد الصور "الرسمية" أو عن السيطرة أو عن تأثيرات الفرض فى مخططات التقنين. ومن المتخيل، وإن كان ذلك متطرفًا، أن ينجرفوا إلى ومن أماكن الاختبار - أو حتى يتقرصنوا عليها - ويعطلونها ويتلاعبوا بها ويلعبوا بها. ويمكنهم علاوة على ذلك أن يدخلوا ويخرجوا من الفصول والمدارس والمكاتب الرئيسية ودواوين الحكومة وأماكن أجهزة الإعلام، التى يُسَن فيها الاختبار عالى

الرهان، والتى تُسَن فيها فى النهاية الصور المسيطرة بطريقة قهرية للغاية. كل ذلك يصلح كأساليب للمقاومة.

أما فيما يتعلق بالتحوير فإن مضامين المقاومة تكون أكثر وضوحًا، خاصة فى سياقات الصورة والمراقبة والعرض. وهنا أيضًا، وباستعارة كلمات جيب، فإن التحوير يتضمن "اقتباس أو بعمومية أكثر إعادة استخدام تُكَيِّف العنصر الأصلى مع سياق جديد"، بحيث أن الصورة المعينة (١) "إما أن يعاد توظيفها بطريقة تعدل معناها"، (٢) أو "تعزيز المعنى الأصلى للعنصر عن طريق تغيير شكله"[٣١]. انظر مثلاً هذا العنوان الصحفى الممكن مع أنه مختلق:

الرئيس بوش يعلن برنامجًا تعليميًا باسم "لن يُتْرَك طفل يتخلف"، وهو خطة تؤكد على مزيد من الاختبار.

إن هذا الإعلان فى ذاته يبدو (أو قد يبدو للبعض) غير ضار، بل وقد يبدو حتى إيجابيًا، حيث أن الإدارة سوف تعير انتباهًا فدراليًا للمدارس وتسعى إلى ضمان ألا يُتْرَك طفل يتخلف عن طريق اختبارهم جمعيًا بشكل منتظم لقياس تقدمهم. لكن افترض أنه من باب المقاومة تم وضع هذا العنوان بجانب شكل بيانى يقدم بيانات حول درجات الاختبارات والثروة والانتماء العرقى واللغوى ومعدلات "التسرب" مثلاً فى تكساس موطن الرئيس بوش. إن قوة ومغزى الصورة عندئذ سوف يتغيران، حيث يتضح أنه فى تكساس، فى ظل نظام يحاول الرئيس أن يفرضه على الأمة كلها، تخلف بعض الأطفال بالفعل، وأن هؤلاء الأطفال مشتركون فى خصائص الثروة واللغة والعرق. وبهذا تكون الصورة قد "أعيد استخدامها" أو "أعيد توظيفها" وتحور معناها وأهميتها[٣٢].

وكمثال ثانى تخيل العنوان الصحفى التالى:

درجات الاختبارات بالولاية تكشف عن فشل كثير من المدارس

وافترض أيضًا وجود شكل بيانى مصاحب بأسماء المدارس والإدارات التعليمية فى عمود ومتوسط درجات الاختبارات فى عمود آخر، ربما مع الإشارة إلى درجات النجاح والفشل.

والآن انظر التقارير الصحفية الحديثة (المُغَيِّبة للعقل وإن كانت صحيحة) حول توفير الولاية للتمويل من أجل تزويد إدارة المدارس الأولية العليا بأجهزة اتصالات عن بعد لا سلكية شخصية (بتكلفة آلاف الدولارات)، لكن بسبب تقليص الميزانيات على مستوى المدارس طُلِب من أولياء الأمور أن يتبرعوا بأشياء من نوع ورق الحمام كوسيلة لتوفير المال الذى يمكن أن يُحَرَّف بعيدًا عن التدريس. (وفقًا لبعض التقارير دخلت بعض المدارس بالفعل فى نظام المقايضة على التبرعات، ومنها أيضًا ورق الحمام، من أجل الحصول على المواد التعليمية الضرورية). والآن أعد تخيل الصورة. العنوان:

درجات الاختبارات فى الولاية تكشف عن فشل كثير من المدارس

شكل بيانى: العمود الأول يتضمن أسماء المدارس والإدارات، والعمود الثانى عدد لفات ورق الحمام التى تم التبرع بها (مع الإشارة إلى مستويات النجاح والفشل تعسفيًا). وكما فى الحالة الأولى، فقد تغير كل من المعنى والمغزى.

فى القلب من التحوير تكمن فكرة أنه فى كل الحالات إما أن تُعَدل الصورة "لتلاءم" السياق أو يُعَدل السياق "ليلاءم" الصورة. وهذه العمليات - أو الاستراتيجيات التربوية - تمكن الطلاب والمعلمين وغيرهم من أن يواجهوا ويصارعوا سمات الفرض فى الاختبار عالى الرهان بما هو صورة. إن ما يحتاجون إليه هو إتاحة الوصول إلى تلك التكنولوجيا التى تجعل هذا الفرض ممكنًا - الحاسبات والإنترنت/الشبكة العنكبوتية العالمية وكاميرات الإنترنت وما إليها- وكذلك فهم -

الوعى النقدى - الصور المسيطرة والمراقبة والعرض. والتحوير عندما يُجْمَع مع التجوال وأساليب فوكو يمكنه أن يوفر شكلاً غير مقيد لمقاومة نقدية ومتموضعة بشكل نسبى وموثوق: الممارسة العملية praxis. (يجب أن نلاحظ أيضًا أنه ليس ثمة ما يبرر عدم انطباق ذلك على الصور الأخرى كتلك التى تنشر عن طريق الأفلام والتليفزيون وما إلى ذلك).

ملخص واستنتاجات

إن عصرنا عصر الصور وعصر "من يستغلون الصور"[٣٣]. إنه زمان ومكان تحتل فيه المشاهدة المتبادلة (أن تشاهد وأن تشاهَد) أهمية كبيرة، عصر يحكمه الإعلام البصرى وتوجد فيه أدوات تُمكِّن من صنع عالم جديد عبثى، إن لم يكن مرعبًا أيضًا، عالم يمكن فيه لكل الناس أن يشاهِدوا (ويسيطروا) على كل الناس طوال الوقت، عالم جديد لا هو محايد ولا هو قابل للتنبؤ، عالم حافل بمشكلات وممكنات ومخاطر وعواقب غير مرئية ولم يُنَظَّر لها. إنه عصر يتسم جزئيًا بما أطلق عليه فرانك ريتش "التوسط" mediation و"التغطية الكاملة طوال الوقت" والتعامل الترفيهى - المعلوماتى infotainment مع أحداث مثل محاكمة سيمبسون وعلاقة كلنتون - مونيكا لوينسكى وفضيحة جارى كوندت - شاندرا ليفى المتواصلة (التى لم توقفها إلا الكارثة الضخمة لبرجى مركز التجارة العالمى والبنتاجون فى ١١ سبتمبر). إنه عصر الواقع المفرط hyperreality، عصر يتعرض فيه الفرد إلى وابل لا نهائى من صور الإعلام المتعددة التى لا تنتهى وفى بعض الأوقات يصعب التمييز بينها، عصر تقوم فيه النسخة بوظيفة الأصل (إذا كان لا يزال هناك أصل) بشكل أكثر واقعية ومصداقية، عصر يكون فيه موردى الإعلام/الصورة "الجادة" فى موضع شبهة (مستحقة) غالبًا.

وكما تبين الموضات واتفاقات الرعاية وجراحات التجميل وتأثيرات هوليود الخاصة وتليفزيون "الواقع" وحتى العمليات العسكرية، فإن الصورة لها تأثير كبير.

انظر مثلاً كلام الكولونيل جريجورى سيمينسكى Gregory C. Sieminski حول أهمية الصورة حتى فى تسمية العمليات العسكرية:

> **إن تطبيق المعايير الأربعة]لاختيار الاسم[سوف ينتج عملية لها اسم مؤثر، وتلك نتيجة يمكن أن تساعد فى الفوز فى حرب الصور. ففى الحرب يكون اسم العملية هو الطلقة الأولى - والحاسمة أيضًا. لذا فإنها يجب أن تصاغ وتسدد بعناية[٣٥].**

إن المؤسسة العسكرية وأنصارها يعرفون أن "الواقع" نفسه قد لا يكفى لحث الدعم لأية مهمة، وبالتالى لا بد من "إقناع" (أو إكراه) الجمهور على أسس أخرى "تخيلية" أكثر (مثل "عملية الحرية الدائمة" وليس "عملية اقتل ابن لادن"، أو وزارة الأمن الداخلى وليس وزارة المراقبة الداخلية). إنها تتعلق بالمظهر بقدر ما تتعلق بخصائص وأهمية الهدف والتهديد والإستراتيجية والتكتيكات. ومن سوء الحظ أن نفس الشىء يمكن أن يقال عن التمدرس والاختبار عالى الرهان.

إن هيمنة الصورة لا بد أن تُفْهَم فى السياق الذى تهيمن عليه المراقبة والعرض، وهو سياق يعزز -ويتعزز بدوره عن طريق- وجود الصور المهيمنة والداعمة للهيمنة. وفى هذه البيئة تتصارع الآليات والتكنولوجيا القائمة على أن تشاهِد وتشاهَد ضد تلك غير القائمة على ذلك وفقًا لتفاعل متعدد ومعقد بين الرغبة والإمكان والوجود والضرورة.

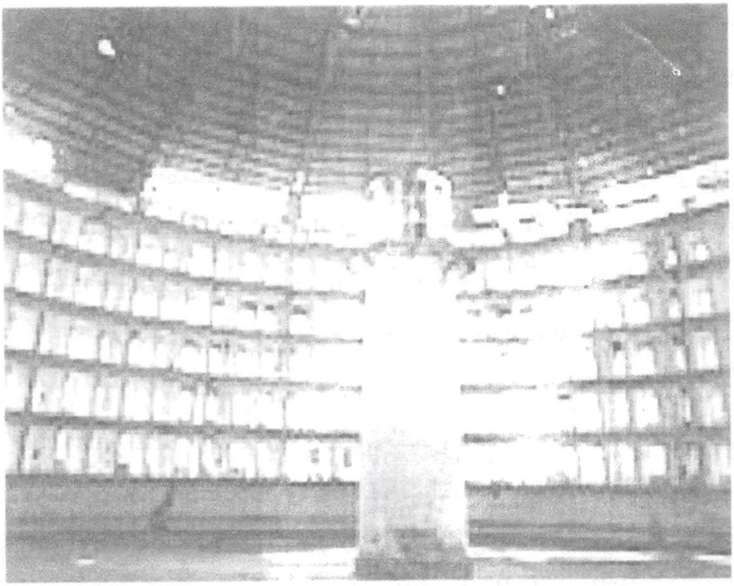
والتمدرس المعاصر كموقع للصراع يتحرك داخل وعبر هذه الحدود. فالمشاركون فيه ينخرطون فى القهر والمقاومة، فهو دراما ضبطية أو قائمة على الضبط يوضعون فيها فى نفس الوقت فى موضع الكثرة التى تراقبها القلة والقلة التى تراقبها الكثرة. إن نظم التقنين تكره أطراف العملية التعليمية على صورة متميزة تُدْعَم من جانب - وتدعم - مصالح الأكثر ثراءً وقوة بيننا، كل ذلك باسم الديمقراطية والتحصيل والفرص الاقتصادية. وبما لا يفاجئنا تصير "النسخة" أكثر واقعية كثيرًا من الأصل.

ومع تقارب المراقبة والعرض، يعمل الاختبار عالى الرهان كآلية فرض، ويتقدم كمسألة سيطرة عن طريق الصور وسيطرة على الصور، وهى حركة دائرية تكون القوة فيها ناتجة عن الصورة والصورة ناتجة عن القوة: قوة الصورة أو صورة القوة. وثمة صور مهيمنة معينة يؤسسها ويديمها مديرو التعليم النخبويين تفرض امتثالاً ضبطيًا وغير ديمقراطى على المعلمين والطلاب والمدارس (من بين آخرين) فى اتجاه مصالح نفس الأقلية الثرية والقوية التى تجيز المحتوى والسياسات والإجراءات وعواقب الاختبار عالى الرهان فى المقام الأول. فأولئك الذين يسيطرون على الصور ينتجون صورًا تسيطر - فالقوة تنتج (وتديم وتعزز) الصور، والصور تنتج (وتديم وتعزز) القوة، كل وفق مصالحه المحملة بالقوة.

إننا نقدم ممارسات التجوال والتحوير ليس كصيغ مطلقة أو تقريرات نهائية، وإنما كممارسة يومية وتصاعدية، ومجموعة مؤقتة من الخطوات نحو إعادة تأسيس مكان الحياة والأصالة فى مقابل الاغتراب والسلبية واللاديمقراطية والامتثال والجور. لأنه فى الأخير لا يعد الاختبار عالى الرهان والإصلاح التعليمى القائم على المعايير كل القصة كاملة، وإنما مجرد جزء من القصة الأكبر، القصة التى نكون فيها نحن وأطفالنا المؤلف والشخصية والفاعل والمفعول به واللاعب والملعوب به فى نفس الوقت. وربما كان ذلك هو اختبارنا الحقيقى. وفى هذه الحالة فإن الرهان عالى بالفعل.



مخطط بناء السجن الذى أعده جيرمى بنتام والذى أطلق عليه اسم **panopticon** ليسمح بالمراقبة الدائمة لكل الزنازين وهو ما يتضح أكثر من الصورة التالية لأحد أبنية السجون التى طبقت تصميم بنتام [المترجم].



صورة من الداخل لأحد السجون الأمريكية التى طبقت تصميم بنتام الذى يسمح بالمراقبة الدائمة لكل الزنازين طوال الوقت [المترجم].

الهوامش

(1) See Kevin D. Vinson and E. Wayne Ross, "In Search of the Social Studies Curriculum: Standardization, Diversity, and a Conflict of Appearances," in Critical Issues in Social Studies Research for the Twenty-First Century, edited by W. B. Stanley (Greenwich, Conn.: Information Age Publishing, 2001): and Kevin D. Vinsoo, Rich Gibson, and E. Wayne Ross, High-Stakes Testing and Standardization: The Threat to Authenticity (Burlington, Vt.: John Dewey Project on Progressive Education/University of Vermont, 2001, available at www.uvm.edu/-dewey/monographs/ProPer3n2.html

(2) See also Kevin D. Vinson, "Image, Authenticity, and the Collective Good: The Problematics of Standards-Based Reform," in Theory and Research in Social Education 29 (2001): 363-74; and Vinson and Ross. "In Search of the Social Studies Curriculum."

(3) See E. Wayne Ross, "The Spectacle of Standards and Summits." Theory and Research in Social Education 27, no 4 (1999). 440-46

(4) See for example, Michael W. Apple Official Knowledge Democratic Education in a Conservative Age (New York Routledge 1993)

(5) See for example, Alfie Kohn. The Schools Our Children Deserve: Moving Beyond Traditional Classrooms and "Tougher Standards" (Boston and New York: Houghton Mifflin, 1999).

(6) Michel Foucault, Discipline and Punish: The Birth of the Prison, trans. Alan Sheridan (New York: Vintage Books. 1979). 216 17.

(7) For a critical view of the "new surveillance, see Jeffrey Rosen, "A Watchful State," New York Times Magazine (October 7. 2001) 38-43, 85, and 92-93.

(8) Guy Debord. The Society of the Spectacle, trans. D. Nicholson-Smith (New York: Zone Books, 1995), 12-13.

(9) Mikhail M. Bakhtin, The Dialogic Imagination: Four Essays by M. M. Bakhtin, edited by Michael Holquist, trans. C. Emerson and M. Holquist (Austin: University of Texas Press, 1981); Roland Barthes, Image-Music-Text, trans. S. Heath, (New York: Hill and Wang, 1977); Daniel J. Boorstin, The Image: A Guide to Pseudo-Events in America (New York: Vintage Books, 1987), 40; Marshall McLuhan, Understanding Media: The Extensions of Man (Cambridge, Mass, and London, UK: MIT Press, 1994), 9; Jean Baudrillard, Simulacra and Simulation, trans. S. F. Glaser (Ann Arbor: University of Michigan Press, 1994).

(10) Walt Haney, "The Myth of the Texas Miracle in Education," Education Policy Analysis Archives 8, no. 41 (2000), available at epaa.asu.edu/epaa/v8n41; Alfie-Kohn, The Case Against Standardized Testing: Raising the Scores, Ruining the Schools (New York: Heinemann, 2000); Linda McNeil, Contradictions of School Reform: Educational Costs of Standardized Testing (New York and London: Routledge, 2000); Susan Ohanian, One Size Fits Few: The Folly of Educational Standards (New York: Heinemann, 1999).

(11) See Iris Marion Young, "Five Faces of Oppression," in Rethinking Power, edited by T. E. Wartenberg (Albany: State University of New York Press, 1992); and Paulo Freire, Pedagogy of the Oppressed (New York: Continuum, 1970).

(12) See Foucault, Discipline and Punish.

(13) John Dewey, Democracy and Education: An Introduction to the Philosophy of Education (New York: Macmillan, 1966).

(14) See Vinson, "Image, Authenticity, and the Collective Good"; and Vinson, "National Curriculum Standards and Social Studies Education: Dewey, Freire, Foucault, and the Construction of a Radical Critique," Theory and Research in Social Education 23 (1999): 50-82.

(15) See Kevin Vinson and E. Wayne Ross, "In Search of the Social Studies Curriculum."

(16) Colin Gordon, "Afterword," in Power/Knowledge: Selected Interviews & Other

Writings 1972-1977, edited by Colin Gordon (New York: Pantheon, 1980), 256.

(17) Michel Foucault, Michel Foucault: Power, edited by J. Faubion, trans. R. Hurley, et al., (New York: New Press, 2000), 452.

(18) Ibid.

(19) Ibid., 453.

(20) Gordon, "Afterword," 258.

(21) For example, see Len Bracken, Guy Debord: Revolutionary (Venice, Calif.: Feral House, 1997); Anselm Jappe, Guy Debord, trans. D. Nicholson-Smith (Berkeley: University of California Press, 1999); Ken Knabb, Situationist International Anthology, edited by and trans. Ken Knabb (Berkeley, Calif.: Bureau of Public Secrets, 1981); and Greil Marcus, Lipstick Traces: A Secret History Of The Twentieth Century (Cambridge: Harvard University Press, 1989).

(22) Situationist International, "Definitions," in Situationist International Anthology, edited by Ken Knabb (Berkeley, Calif.: Bureau of Public Secrets, 1981), 45.

(23) Guy Debord, "Theory of the Derive," in Situationist International Anthology, edited by Ken Knabb (Berkeley, Calif.: Bureau of Public Secrets, 1981), 50.

(24) Situationist International, "Defintions," 45.

(25) Ibid., 45-46.

(26) Ibid., 59.

(27) Ibid.

(28) Debord, "Theory of the Derive," 55.

(29) Marcus, Lipstick Traces, 168, 170.

(30) Ibid., 170.

(31) Jappe, Guy Debord, 59.

(32) See Haney, "The Myth of the Texas Miracle"; and Kevin D. Vinson and E. Wayne

Ross, "What We Can Know and When We Can Know It," Theory and Research in Social Education 29, no. 2 (2001): 204-11.

(33) Maureen Dowd, "We Love the Liberties They Hate," New York Times (September 30, 2001): 13.

(34) Frank Rich, "The Age of the Mediathon," New York Times Magazine 84 (October 29, 2000): 13; Francis Fukyama, Our Postmodern Future: Consequences of the Biotechnology Revolution (New York: Farrar, Strauss and Giroux, 2002); Todd Gitlin, Media Unlimited: How the Torrent of Images and Sounds Overwhelms Our Lives (New York: Henry Holt/Metropolitan, 2001).

(35) Gregory C. Sieminski, "The Art of Naming Operations, Parameters (U.S. Army War College Quarterly) (Autumn 1995): 81-98, available at carlisle-www.army.mil/usawc/parameters/1995/sieminsk.htm.

الفصل الخامس عشر

المخبر السرى

العسكرة وسيطرة الشركات والرواية البوليسيّة

روبين تروث جودمان(*)

فى أعقاب الهجمات الإرهابية فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ على برجى مركز التجارة العالمى والبنتاجون، اتخذت السياسة العالمية شكل التحقيق الجنائى. فما يسمى الحرب على الإرهاب لم يتضمن فحسب ما أطلقت عليه مجلة النيو يوركر New Yorker "أكبر تحقيق جنائى فى التاريخ الأمريكى"، بل أيضًا فُتِح المجتمع المدنى كميدان للمفاتيح الخفية والشبهات والأسرار الجنائية لمحاولات العدوان الخارجى. وتذهب النيويوكر إلى أن جزءً من ذلك يتعلق "بقانون مكافحة الإرهاب الجديد، الذى أُصْدِر بعد عدد قليل جدًا من جلسات الاستماع والمناقشات، ليزيل إلى درجة غير مسبوقة الحواجز التى كانت قائمة طوال فترة الحرب الباردة بين الاستخبارات الخارجية وأجهزة فرض القانون الداخلية". معنى ذلك أن الأدلة التى كانت تُجمَع فى السابق فى عمليات

(*) روبين تروث جودمان Robin Truth Goodman أستاذة بقسم اللغة الإنجليزية بجامعة ولاية فلوريدا. من مؤلفاتها Infertilities: Exploring Fictions of Barren Bodies (University of Minnesota Press, 2000) ومنها أيضًا World, Class, Women: Feminism, Global Literature, and the Politics of Education (Routledge, 2003). كما شاركت مع كينيث سولتمان فى كتاب Strangelove: Or How We Learn to Stop Worrying and Love the Market (Rowman & Littlefield, 2002).

الاستخبارات على الحكومات الأجنبية، تلك العمليات التى لم تكن تتطلب ضمانات ولا تلتزم بالحريات المدنية ،يمكن أن تكون الآن جزءًا من القضايا الجنائية. يقول مورتون هالبيرين Morton Halperin خبير الدفاع والمسئول السابق فى إدارة كلنتون أنه "على خلاف شرطة فرض القانون، لا تكون الحكومة مضطرة أبدًا لأن تخبر المشتبه بهم بأى شيء عن تحقيقاتها حولهم. فإذا رأت الحكومة أنك واقع تحت سيطرة حكومة أجنبية، يمكنها أن تتجسس عليك دون أن تخبرك، وأن تفتش منزلك دون أن تخبرك، وأن تقتحم منزلك، وأن تنسخ ملفات الحاسب الخاصة بك دون أن تخبرك بأنها فعلت شئ من ذلك"[١]. ويواصل هالبيرين ملاحظته قائلاً إن "الحكومة كانت دائمًا تنظر إلى الأشخاص الذين يعارضون سياساتها على أنهم يفعلون ذلك نيابة عن حكومة أجنبية وتفتح تحقيقات استخباراتية مضادة حولهم". فالاحتجاج السياسى الذى اتخذ معناه من العمل الدءوب من جانب إدارة نيكسون من أجل تجريمه[٢]، والتعارض المبنى بين الحريات المدنية والأمن العام أو الشخصى، أصبح الآن يظهر أكثر من أى وقت سابق وكأنه فعل حرب.

غير أن انهيار الحدود بين العمل البوليسى الداخلى والتدخلات الخارجية الذى لاحظه مقال النيو يوركر ليس من مترتبات ١١ سبتمبر وإنما كان يشق طريقه إلى الحس العام الشعبى من خلال ما يسمى الآن سياسات الشُرطى العالمى World Cop. فالتطورات التى حدثت فى العمل البوليسى فى مرحلة العولمة تعيد صف أو تنظيم القوة والقانون والدولة القومية، وتخلق بالتالى سرديات جديدة تسمح بتسلل أخلاق الحرب إلى الوعى الشعبى. وفضلاً عن ذلك فإنها تشارك فى إخضاع فكرة "القانون" باعتباره يدافع عن المصلحة العامة أو المشتركة فى الدولة القومية إلى -أى إخضاعه إلى- نسخة أكثر عولمة للقانون باعتباره أداة معسكرة فى يد الإمبريالية. وكما أوضح مايكل هولكويست Michael Holquist فـ"لا يمكن أن يكون هناك أدب بوليسى قبل أن يوجد البوليس السرى"[٣]، ولا يمكن أن يكون هناك عملاً شُرطيًا عالميًا دون أن يكون هناك إنتاج إيديولوجى لتأطيره. كيف يتعلم الجمهور أن يفكر فى الشرطة، وكيف

توضح هذه الدروس المعانى الكامنة خلف الطرق التى من خلالها يقود النظام الدولى الجديد القانون الداخلي وكيف يؤطر القانون الداخلى بدوره السعى وراء العدالة العالمية؟ وكما يدفع هنرى جيرو فإن:

> **العمل التربوى لا ينفصل عن السياسة الثقافية، بل هو شريك فيها، لأنه فى عالم الثقافة تتشكل الهويات، وتُسَن حقوق المواطنة، وتُطَوَّر ممكنات لترجمة أفعال التفسير إلى أشكال من التدخل ... إن سياسة الثقافة لا تعيد فحسب تكوين وتخطيط طريقة إنتاج المعنى، بل تبحث أيضًا الارتباطات بين خطابات وأبنية القوة المادية وإنتاج المعرفة والتأثيرات التى تنتجها عندما تترجم إلى الحياة اليومية[٤].**

يلتفت هذا الفصل إلى الأدب البوليسى ليتعقب كيف أصبحت فكرة الشرطة تسيطر على السياسة الدولية، ومضامين ذلك على الفعل الديمقراطى المستقبلى. ويتناول الفصل على وجه التحديد الرواية البوليسية الشعبية "رؤية النفق" Tunnel Vision (١٩٩٤) لمؤلفتها سارا باريتسكى[٥]. تسرد الرواية سطوة المقاول/المخبر السرى "النسوى" على قوات الفساد الحضرى والاضطرابات الداخلية والأعمال غير القانونية وعصابات المخدرات الدولية وعصابات غسيل الأموال، بغرض إعادة تأسيس الحرية الأخلاقية لكى تعمل المشروعات فى كل مكان. إن بطلة الرواية – المخبرة السرية الخاصة فيك ورشاوسكى – تواعد شُرطيًا أسود[٦]، بما يلمح إلى التعاون، وكذلك التوتر، بين حرية القطاع الخاص بنزعته المالية المغامرة البيضاء وكآبة القطاع العام الواقع فى مستنقع الجيتو وهو يفرض القانون الداخلى. والعمل البوليسى للمخبرة السرية الخاصة فيك Vic يوجه دعوة أخلاقية للمراقبة الحرة تتجاوز القيود القانونية والإقليم المحلى، وترفع خصوصية واستقلالية وعضلات البوليس السرى الخاص ومشروعه فوق القطاع العام البائس المعتمد بشكل مفرط على الدولة وتفاهاتها ومسئولياتها ومؤسساتها وحدودها وقوانينها. وقبل نهاية الرواية تفترق فيك

عن الشُرطى لأنها ترفض أن تلتزم بالقانون الأخلاقى. ومن خلال تقديم الاختيار الوحيد بين مؤسسات عامة غير ملائمة وثقافة معسكرة للقاعدة، أى بين الفرد ذو القوة الفائقة والدولة العاجزة، فإن تحقير وظائف الدولة من جانب الرواية له انعكاسات واسعة على مستقبل الحيز العام. فهو يقوض ممكنات تخيل مجتمع مدنى ناشط سياسياً وديمقراطياً لا يغوص فى مستنقع بيروقراطية الدولة والروتين القانونى، ولا يخضع لأخلاق الربح الخاص من خلال النصر العسكرى البطولى. إن ضعف الدولة القومية والتحول الضرورى نحو تجاوز القانون فى الرواية يرمز إلى السخرية من الحياة العامة، وهى سخرية تطرح فى الوعى الشعبى شكوكًا حول كل الأشياء العامة وكل الأماكن العامة لتطوير ثقافات ديمقراطية، من الرفاه إلى المدارس إلى الشرطة ذاتها.

من الشرطى العالمى إلى الحرب العادلة

إن تدويل العمل البوليسى يلتقى مع تدويل رأس المال لتغيير العلاقة بين الأخلاق والسيادة، مع إعادة صياغة أيديولوجيات الدولة القومية ومؤسساتها العامة باعتبارها قوى ذات اختصاص قانونى محدود أو خصوصى. فى كتابهما "الإمبراطورية" أرجع مايكل هاردت وانطونيو نيجرى Michael Hardt and Antonio Negri توسع الوظيفة البوليسية فى فكرة "الشرطى العالمى" إلى تحولين أساسيين فى النظام العالمى: "إضفاء طابع مبتذل على الحرب أو تتفيهها، والاحتفاء بها كأداة أخلاقية". ويذهب المؤلفان إلى أن ثمة "عنصران متمايزان يجتمعان فى هذا المفهوم. أولاً شرعية الآلة العسكرية طالما أنها مبررة أخلاقيًا، وثانيًا فعالية العمل العسكرى فى تحقيق النظام والسلام المنشودين"(٧).

ومع أن أخلاق الحرب ليست جديدة، كما أنها لا تسود أو تحصل على مصداقيتها اليوم فقط، فإن من المغرى، مع ذلك، أن نبذل محاولة لتحديد الأساس المنطقى "للحرب العادلة" وأسبابها وأبعادها الممكنة وطريقة خوضها. يذهب ريتشارد

فولك Richard Falk إلى أن الوثيقة التأسيسية للأمم المتحدة عَرَّفت "الحرب العادلة" بأنها العمل متعدد الأطراف، مع احترام السيادة، الذى يخلق الشروط اللازمة للتفاوض على وقف العدوان على امتداد العالم، أو كما وعد المؤسسون أنفسهم "لإنقاذ الأجيال المتعاقبة من ويلات الحروب". ومع ذلك، والكلام لا يزال لفولك، فإن ثقة مجلس الأمن فى قدرته على إيقاف الحرب من خلال التحالف القائم على الإجماع لم تكن موفقة، حيث أن بعثات "حفظ السلام" للمجلس بداية من كوريا وحتى حرب الخليج "كانت تستلزم مجموعة طموحة من التجاوزات لحرية التصرف السيادية التى بدا أنها تتجاوز ... مؤسسات السياسة الخارجية لكل الدول القائدة. وذلك من شأنه أن يقوض الثقة فى الأمم المتحدة، إذا تحدد مدى سلطتها تعسفيًا وحالة بحالة وفقًا للإرادة السياسية لاعضائها الأقوياء"[٨]، أى وفقًا لمنطق الاستثناءات وليس القواعد. و"العمل البوليسى"، كما يشير مايكل كلير Michael Klare، قد أكد على نحو متزايد على العمل متعدد الأطراف، الذى يعنى محاربة الإرهاب ومحاربة التمرد والحرب منخفضة المستوى المصممة لضمان هيمنة الولايات المتحدة على العالم وإخضاع حلفائها مع الوقت. وهذا يعنى (مع أن الجيش الأمريكى لا يزال يستثمر أموالاً فى الأسلحة التقليدية) أن الميزانية العسكرية لعام ٢٠٠٣ سوف تتضمن قدرات "إظهار القوة" power projection وكذلك "مجموعة متنوعة من المعدات الحديثة ... أربع منصات مدافع طائرة من طراز AC-130U (من النوع الذى يستخدم فى دك مواقع الأعداء فى أفغانستان) وتحويل أربع غواصات صواريخ باليستية إلى "غواصات هجومية" تحمل صواريخ طوما هوك للهجوم البرى، وتكون قادرة على تسلل مجموعات صغيرة من القوات الخاصة إلى المناطق الساحلية للقوات المعادية، وسوف تمول الميزانية أيضًا "الحرب النووية والنظم الفضائية"، و"سوف تتوقف وزارة الدفاع عن تنظيم قواتها من أجل مواجهة تهديدات عسكرية محددة يفرضها أعداء محددين بوضوح، وإنما ستكتسب القدرة على دحر أى نوع ممكن تخيله من الهجوم يفرضه أى عدو ممكن تخيله فى أى وقت، من هذه اللحظة وحتى المستقبل البعيد. وإن أردنا أن نعبر عن ذلك بلغة مختلفة لقلنا أنه أمر بالسعى إلى ضمان التفوق العسكرى الدائم"[٩].

ويعرف هاردت ونيجرى Hardt and Negri " الحرب العادلة" استناداً إلى تقاليد الكتاب المقدس التى "يقوم المفهوم فيها فى الأساس على فكرة أن الدولة عندما تجد نفسها تواجه تهديداً بالعدوان يمكن أن يعرض سلامة أراضيها الإقليمية أو استقلالها السياسى للخطر، يكون لها ... الحق فى أن تخوض حرباً عادلة"، ثم يرفض هذا التعريف لكونه "إشكاليًا"(١٠). فهذا التعريف للحرب العادلة، كما يستكمل المؤلفان فكرتهما، يجعل القمع أمراً روتينيًا فى نفس الوقت الذى يعطى فيه للعدو صفة المطلق. وبسبب مبدأ الحق الأصيل فى تقرير المصير، فإن الإسهاب فى اللغة البوليسية والتكنولوجيا البوليسية يثبت الحاجة الماسة إلى مبررات أخلاقية خلف "النموذج الامبريالى للسلطة"(١١)، والنظرة العاطفية إلى التكنولوجيا العسكرية، حتى وإن كانت تقوض الحجة الأخلاقية للإمبريالية. كما أن الوظيفة البوليسية الدولية لدولة الليبرالية الجديدة تدعو إلى سلام دائم ظاهريًا مدعوم أيديولوجيًا بالحرب الدائمة.

ومن الناحية الأخرى، كما يضيف هاردت ونيجرى، "تميل الامبريالية سواء بشكل مباشر أو غير مباشر إلى اختراق وإعادة ترتيب القانون المحلى للدول القومية، وبذلك فإن القانون الدولى يحدد بقوة القانون المحلى"(١٢). على سبيل المثال، يحتوى مشروع قانون باتريوت، الذى سُنَ كقانون بعد هجمات ١١ سبتمبر الإرهابية، على بنود تنتقص من السيادة القومية، وعلى وجه الخصوص القسم الذى يوسع استخدام المحاكم الأمريكية إلى الدول الأخرى لمقاضاة الشركات على التجارة غير القانونية والتهرب الضريبى، مع التأكيد على مراقبة غسيل الأموال والاحتيال والتهريب وشبكات الإرهابيين المالية. وعندما لم يحظى القانون بتأييد المجلس التشريعى، ثم تمت استعادته جزئيًا فقط كنسخة مصغرة فى مجلس الشيوخ(١٣). وترتيبات "التجارة الحرة" من هذا النوع وغيره تقيد بشدة قدرات الدولة القومية على حماية مؤسساتها العامة وإنتاجها المحلى"، وتعطى الشركات القدرة على تجاوز قوانين ومسئوليات الدولة القومية. ومؤخراً أدت حماية الشركات على هذا النحو إلى

السماح لصناعة التبغ بتفادى التعريفات والضرائب فى دول أجنبية مثل كولومبيا والبيع بسعر أقل من المنتجات المحلية، مع أنها لدرجة معينة تحمى الحسابات المصرفية للمنظمات الإرهابية.

إن تعاظم قوة الشركات العالمية لا يمكن أن ينفصل عن عسكرة العدالة. فالاحتياجات المتزايدة إلى الطاقة، على سبيل المثال، لتلبية احتياجات سوق استهلاكى دائم التوسع، أدت إلى إنشاء قواعد عسكرية فى الشرق الأوسط. وفى أفغانستان فى التسعينيات أدى الدعم الأمريكى لمشروعات خط أنابيب النفط فى أونوكال Unocal، فى محاولة لنقل النفط من تركمانستان والدول الأخرى الغنية بالنفط فى منطقة بحر قزوين مع تفادى إيران، إلى دعم حركة طابان والمجاهدين فى الأغلب لضمان الاستقرار. وحول ذلك قال أحد الدبلوماسيين الأمريكيين حينذاك أن "طالبان سوف تتطور كما فعل السعوديون. سيكون هناك شركة أرامكو للبترول وخطوط أنابيب وأمير وقدراً وافراً من الشريعة الإسلامية، لكن لن يكون هناك برلمان. ونحن يمكن أن نتعايش مع ذلك"(١٤). إن ذلك يوضح أن بناء ثقافة مفتوحة لقوى السوق أكثر أهمية من خلق مؤسسات ديمقراطية.

كان السؤال الذى واجهه الساسة الأمريكيون هو ما إذا كان يجب أن يتدخلوا فى مهمة حفظ السلام من أجل إخراج شركة النفط الأرجنتينية بريداز Bridas وكذلك شبكات النقل الروسية والإيرانية من المنافسة، أو أن يتركوا باكستان تسلح طالبان إلى أن يتحقق الاستقرار. كان قرار إتباع سياسة عدم التدخل فى أفغانستان يعنى القطع النهائى للدعم، بما يؤدى إلى أزمة مالية فى نظام طالبان، وما ينتج عن ذلك من نقص الخدمات الحكومية، ومنها المدارس. ونتيجة لتضاءل فرص العمل وإغلاق المدارس فى وجه كل من الأولاد والبنات، عبر الشباب الأفغانى الذكور الحدود إلى باكستان، وهناك تلقوا تعليمهم فى مدارس دينية خاصة تدربوا فيها على الأصولية والقتال. وتحت إشراف مادلين أولبرايت وإدارة كلنتون فى ١٩٩٧، غيرت الولايات المتحدة مسارها مستهدفة طالبان لكونها تسبب عدم الاستقرار فى المنطقة من خلال

تهريب المخدرات والإرهاب والأصولية الإسلامية. والعالم الآن يترنح تحت التأثيرات اللاحقة لهذه القرارات. وفى وسط الحرب على الإرهاب، التى تقوم فيها أغنى دولة على الأرض بضرب أفقر دولة، ومع العدد الكبير من القتلى المدنيين، وتنصيب حكومة جديدة مؤخراً، حكومة تم تحديها بالفعل عن طريق الاغتيالات والتجزيء وضعف الدعم الجماهيرى، ومع ملايين اللاجئين البائسين الذين يواجهون شتاءً قاسيًا، ومع وضع أسرى الحرب فى أقفاص ثمانية فى ستة أقدام فى جوانتنامو، ومع قول مهنيين محترمين مثل ألان ديرشويتز Alan Dershewitz فى برنامج ٦٠ دقيقة بأن التعذيب يجب أن يصبح قانونيًا باسم الدستور، ومع وعد الحكومة بامتداد الحرب إلى أجل غير مسمى، مع ذلك كله هناك شيء مزعج فى فكرة العمل البوليسى الذى يُعَرِف مبادئ العدالة العالمية. ومن المؤكد أن السيادة القومية ليست المبدأ الحاسم أو الهدف النهائى للحرب البوليسية.

من المؤكد أن التقاليد التوراتية للدفاع عن السيادة لا تصمد فى وجه البوليس، حيث أن البوليس ذاته يشارك فى الاعتداء على سلامة أراضى الدول الأخرى واستقلالها السياسى ومصلحتها العامة. والاحتياط ضد انتهاكات "سلامة الأراضى الإقليمية أو الاستقلال السياسي" للدول ذات السيادة قد ينطبق على الأعمال الأمريكية فى نيكاراكوا وبنما، على سبيل المثال، التى وضعت البوليس الدولى فى الجانب الخاطئ للمعادلة، جانب "تهديد" سلامة الأراضى الإقليمية والاستقلال السياسى، أى جانب المجرم، بدلاً من الجانب الصحيح لصنع العدالة. كما أن احترام السيادة القومية قد يعنى وضع قيود قانونية على إدارة الشركات للنظم القانونية والسياسية والاقتصادية والمالية للدول الأخرى، بما فى ذلك التجارة والضرائب.

كما أنه ليس من الواضح بشكل خاص فى المشهد الداخلى الأمريكى المعاصر أن فكرة الشرطة تفترض التصرف الأخلاقى، عندما يوثق تقرير منظمة العفو الدولية عام ١٩٩٩ "أنماطًا من المعاملة السيئة عبر الولايات المتحدة الأمريكية، منها الضرب وإطلاق النار غير المبرر واستخدام أساليب قمع خطرة لإخضاع المشتبه بهم"[١٥]،

أو عندما يعترف تقرير منظمة العفو الدولية لعام ٢٠٠٠ بأن "استمرار استخدام عقوبة الإعدام" فضلاً عن وجود "نمط قومى لوحشية الشرطة، والاعتداء المادى والجنسى على السجناء، وظروف الاحتجاز المهينة وغير الإنسانية، وسوء معاملة طالبى اللجوء" تمثل "انتهاكات خطيرة لحقوق الإنسان"(١٦). هل هناك تناقض بين تقديس العمل الإمبريالى باسم العمل البوليسى والارتياب الشعبى العام فى أن الشرطة المحلية توفر الأمان؟ كيف يبدو الانتشار العالمى للإدارة الشركاتية كجزء من تقاليد قضائية قومية، حتى مع أن العمل البوليسى داخل الدولة القومية يُثْبِت أنه فوضوى، ويعمل فى الأساس وبقسوة ضد الجمهور الذى يفترض أنه يحميه؟

الدولة والبوليس

تركز الأدبيات حول الأدب البوليسى على واحد من ثلاثة أساليب للتحليل: الأول ينخرط فى تخطيط الخصائص العامة لهذا النوع الأدبى، والثانى ينخرط فى كشف الأدب البوليسى باعتباره مثال لمجتمع الرقابة أو الضبط وميلاد الذات الحديثة التى وصفها ميشيل فوكو فى أعماله، والثالث يرى فى الأدب البوليسى تطور الطرق الحديثة للمنطق مثل الاستدلال، أو الدلالات semiotics فى حالة جاك لاكان وأومبيرتو إيكو. تطور المدخل الأول فى السبعينات كجزء من اهتمام جديد بالثقافة الشعبية ضمن نظرية ما بعد الحداثة، حيث يحلل الانقطاع بين الأشكال الثقافية العالية والمنخفضة. يحاول هذا المدخل أن يطور ما أسماه جون كاويلتى John Cawelti " الأسلوب النمطى للرواية البوليسية" مثل "الاستدلال والتلغيز"، و"تناسب التحقيق مع الفعل"، و"التوتر بين العنف والنظام"(١٧) وما إلى ذلك، بغرض خلق الإحساس بالجدية، بل حتى العلمية، فى دراسة ما هو شعبى ومصنوع من جانب الجماهير.

يميل المدخل الثانى إلى الاهتمام أكثر بما هو اجتماعى، لكن بطرق تنكر الممارسة الفعلية للعمل البوليسى. وهذا ينتج فى الغالب عن محاولات فوكو للتنظير للقوة بأنها تحدث فى مواقع صغرى microsites وشبكات محلية خارج الفكرة المركزة للقوة كما

تتجسد فى الدولة. وفى دراسة ميلير Miller النموذجية بعنوان "الرواية والبوليس"، على سبيل المثال، يميل العمل البوليسى إلى الإشارة إلى كل شيء ما عدا العمل البوليسى، حيث يقول ميلير أن "القوة الضبطية التى تعبئ تكتيك البراعة، والقوة البوليسية لا تصل أبداً إلى ذلك، لكنها تكون إما غير مرئية أو مرئية فقط تحت ستار مقاصد أخرى أكثر نبلاً أو لطفًا (مثل التعليم أو المداواة أو الإنتاج أو الدفاع)"(١٨). ومؤخراً أخذ كرستوفر ويلسون مفهوم المراقبة من فوكو إلى الشوارع، وقرأه فى ضوء تاريخ العمل البوليسى من أيام احتفال ستيفن كرين الصاخب فى باورى Bowery فى منتصف العقد الأخير من القرن التاسع عشر إلى الحاضر، ليستنتج فحسب أن العمل البوليسى ليس مسألة رغبة الجماعة فى التخلص من الجريمة، وليس مسألة سياسة تكتيكية بقدر ما هو "مراقبة تمثيل" السرديات الثقافية أو السمات الواقعية للسجن من نوع سجن بنتام. وحتى مع الاعتراف بأن "العمل البوليسى الذى كان يقوم فى السابق على الحراسة ... للمدن قد تحول إلى حِرَفية جديدة تقوم على أعمال شبه عسكرية والدورية والخفر المتجولين العدوانيين وجمع المعلومات الاستخباراتية حتى حول أكثر المواطنين بعداً عن الشبهة"، ويواصل ويلسون تحليله لاستنتاج أن "الكلمة السحرية السياسية الحالية 'ضباط بوليس أكثر فى الشارع'"(١٩) ليست أكثر بشاعة من الرغبة فى المراقبة فى مجتمع الإعلام. ومن خلال البناء على اللغويات الكلاسيكية، كما ظهرت فى التحليل النفسى ثم الهدم بعد ذلك، يذهب النوع الثالث من النقد أبعد فى اختزال سياسة العمل البوليسى إلى آلية لغوية أو تمثيلية، وفيها كما يقول لاكان نفسه "تقوم إزاحة الدال [signifier] [مثل الجثة أو التمثال المفقود] بتحديد الذوات بأفعالها"(٢٠).

إن ما تفشل هذه الأمثلة النظرية فى عرضه هو كيف يسهم الاستحواذ الحالى بالعمل البوليسى فى تشكيل الهويات السياسية لمواطنى اليوم. لقد سألت مجموعة طلاب مؤخراً عن السبب الذى جعل قلب المدن خطراً، فقالوا الشرطة. وقد كتبت طالبة ورقتها البحثية النهائية حول "مدونة السلوك" لشرطة مدينة نيويورك. اتصلت هذه الطالبة بإدارة المنطقة التى تعيش فيها وطلبت من بعض أقاربها الذين يعملون فى قوة

الشرطة أن يحضروا لها نسخة من هذه الوثيقة، وعندما لم يحضرها لها أحدهم، بدأت تسأل الشرطة من أهل المنطقة إذا كان يمكنهم أن يخبروها أى شيء حول هذه المدونة. فوجدت أن أفراد الشرطة الذين سألتهم لا يعرفون شيئًا عن هذه المدونة. وقد شرح برنامج "ساعة إخبارية" صعوبات حساب وتقييم إحصائيات الجرائم فى فيلادلفيا. وكانت الصور التى ترافق القصة عبارة عن رجال بيض يرتدون بدلات فى غرف ومكاتب فخمة يناقشون طرق التحقيق ثم تأتى مشاهد لسيارات شرطة تنطلق عبر جزء حضرى به آثار تفجيرات وأجساد سوداء مريبة تتوارى عن الأعين. وفى خلفية المشهد يجلس ثلاثة رجال بيض بنظارات أمام أجهزة حاسب يكتبون برامج تحدد مناطق تركز الجرائم وكذلك الأحياء المضطربة التى يمكن أن تقع فيها جرائم فى المستقبل، وعلى الشاشة تتسع بقع حمراء وكأنها الدم. إن وظيفة الشرطة هى أن تعزل الجاليات الخطرة، تلك المناطق التى يقوم القانون والنظام بوصفهما ذراع للدولة بفرض السيطرة عليها.

لقد أخذ دور الشرطة يتحول على نحو متزايد إلى بؤرة للجدل، حيث تفرض قوة الشرطة فى كثير من أجزاء البلاد سيطرة شديدة القسوة على الفضاءات العامة والحياة الخاصة. وكما يقرر ديفيد كول فإن:

> **تسجيل الفيديو الذى يُصَوِر ضرب ضباط من شرطة لوس أنجليس للشاب رودنى كنج(*) نقل إلى كثير من السود نوع**

(*) فى ٣ مارس ١٩٩١، وبعد مطاردة بالسيارات أنهال عدد من أفراد شرطة لوس أنجليس على الشاب الأمريكى الأفريقى رودنى كنج بالضرب بالهراوات والعصى الكهربائية بعد أن أمسكوا به. كان أحد سكان الشقق المجاورة لمكان الحدث قد صور صور الضرب من مسكنه. وفيما بعد، وعندما برأت المحكمة الضباط، بناءً على تأكيدهم أن كينج قاومهم فى الوقت الذى سبق تسجيل الفيديو [الفيديو يبدأ بعد بداية الضرب بالفعل، حيث لم يلحق بداية الضرب]، وقعت أحداث شغب لوس أنجليس عام ١٩٩٢ تعرف باسم الاضطراب المدنى فى لوس أنجليس Angeles Civil Unrest وفيها قام آلاف الأشخاص بأعمال شغب على مدى ستة أيام متواصلة وقعت فيها أعمال سلب ونهب وحرق للممتلكات. انتهت أعمال الشغب بخسائر مادية تصل إلى ١ مليار دولار ومقتل ٥٣ شخصاً وإصابة الآلاف.

المعالجة التى يتوقعونها ويخافونها من الشرطة. وفى عام ١٩٩٤ أثبتت لجنة مولن Mollen فساد ووحشية زائدَين من جانب الشرطة فى برونكس Bronx فى أقصى شمال نيويورك ... وجدت لجنة مولن أن فساد الشرطة ووحشيتها وعنفها كانت حاضرة فى كل مناطق تجارة المخدرات ذات المستوى العالى للجريمة التى أخضعتها اللجنة للدراسة، وتتكون هذه المناطق بالدرجة الأولى من سكان الأقليات. وقد وجدت اللجنة أنماطًا مقلقة لفساد ووحشية الشرطة، منها السرقة من تجار المخدرات وإجراء عمليات تفتيش واحتجاز وتوقيف سيارات غير قانونية، وتجارة واستخدام المخدرات، والكذب من أجل تبرير عمليات التفتيش والتوقيف غير القانونية وإحباط شكاوى الإساءة والضرب الذى لا يميز بين الأبرياء والمذنبين. كما وجدت اللجنة أن ضباط ومراقبى الشرطة فى الغالب يقبلون الكذب والوحشية كجوانب ضرورية لعملهم(٢١).

إن الحاجة المُدْرَكة إلى العمل البوليسى والأخطار المُدْرَكة فى شوارع المدينة، رغم إحصائيات الجرائم التى توضح تراجع معدلات الجريمة على المستوى القومى، تعكسان إحساسًا عامًا بعدم الأمان اشتد أكثر مع إلغاء القيود التنظيمية عن رأس المال وإضعاف الدعم العام والمنافذ الديمقراطية. وربما تكون مرونة القوة العاملة المعاصرة أحد تفسيرات ارتفاع الخطر المُدْرَك ومشاعر عدم الأمان، فضلاً عن الارتياب الشعبى والساخر من المؤسسات العامة والسياسة التى تستهدف العمل من أجل المصلحة العامة. وكما يلاحظ زيجمونت بومان فإن "المؤسسات السياسية الموجودة التى يُقْصَد بها أن تساعد [المواطنين] فى نضالهم ضد عدم الأمان لا تقدم إلا مساعدة ضئيلة. ففى العالم سريع التعولم الذى يُنْتَزَع فيه جزءًا كبيرًا من القوة، الجزء الأكثر تأثيرًا، من السياسة، لا تستطيع هذه المؤسسات أن تقدم الكثير لتوفير الأمن أو الثقة. وما تفعله فى غالب الأحيان هو أنها تنقل القلق المبعثر والمتفرق إلى

مكون واحـد ... أى الأمـان، وهو المجـال الوحـيـد الذى يمكن فـيـه أن يتم فـعـل شـيء مـا وأن يُرَى هذا الشـيء الذى يُفْعَل"[٢٢]. إن الخـوف من الجـريمـة والمطالبـة بـعـمل بوليـسى أكثـر صـرامـة وقـسـوة يزيح اللـوم عن عدم الأمـان إلى الفـقـراء، وبذلك يعطل نقـد أبنيـة وتوزيعـات القـوة. وهـو أيضـاً عـلامـة على تراجـع حـقـوق تقـرير المصـيـر للمـواطنين فى وجـه تنامى حكم الشركات.

إن مـؤسـسـة الشـرطـة باعـتـبـارهـا ذراع الـدولـة المسـئـول عن حـمـايـة المـدن ظهـرت فى لندن عـام ١٨٢٩ وفـى الأغلب كـ"تجـسـيـد رمـزى لنظام القـانون الناشئ"، ثم أضـيـف فـرع البوليـس السـرى عـام ١٨٤٢، وكـان يتكـون من ضـبـاط يرتـدون مـلابس عـادية يُجَنَّدوا على الأغلب من أجل أعـمـال العـسـس فى صـفـوف مـعـارضـة الطبـقـة العـامـلة[٢٣]. وفى الولايات المتـحـدة تتـبـع المؤرخ الثـقـافـى روبـن كـيـلى Robin Kelley تاريخ الشـرطـة إلى الخـفـر المدنيين فى الجـنوب الأمـريكى فى فـتـرة مـا قـبـل الحـرب الذين كـانوا يُسـتـأجَرون تحـديداً من أجل إعـادة العـبـيـد الفـارين حـيـث كـانوا "مـسـخـرين بـالكامل تقـريبًـا للحـفـاظ على العبـودية". وبينمـا كـان التـحـرى الخـاص فى شـكـل وكـالة بنكرتون(*) يتـحـالف مـع سـيـاسـة إلغـاء العـبـودية والحـركـات العـمـالية فى الشـمـال، يجـادل كـيلى بـأن الشـرطة الحـضـرية المعـاصـرة انبـثـقت عن مـا يسـمى "الجـمـاعـات الإرهـابيـة .... لطبـقـة المزارعين"[٢٤] مثل جـمـاعـة كـو كلوكس كـلان وفـرسـان زهـرة الكامليـا البـيـضـاء(**). وتمـأسـست الشـرطة

(*) وكالة بنكرتون Pinkerton جهاز بوليس خاص أسسه آلان بينكرتون بداية من خمسينات القرن التاسع عشر وعمل لصالح الحكومة الفيدرالية وحكومات الولايات وأصحاب المصانع وكان عدد أفراده يفوق عدد أفراد الجيش الأمريكى الدائم [المترجم].

(**) جماعتا Ku Klux Klan و Knights of the White Camellia من الجماعات الإرهابية التى كونها البيض للانتقام من الأمريكيين الأفارقة وغيرهم ممن ينتقصون من حقوق السيادة التى يتمتع بها البيض. تكونت أولى هذه الجماعات فى تينيسى عام ١٨٦٥ من المحاربين القدامى، ثم انتشرت هذه الجماعات فى ولايات الجنوب، وكذلك الشمال. مارست الإرهاب والعنف والإعدام دون محاكمة [المترجم].

الحضرية فى الولايات المتحدة مع منعطف القرن من خلال الاستعاضة عن التعيينات السياسية من جانب رؤساء الأحزاب بأكاديميات رسمية، ثم جاء فرانكلين ديلانو روزفيلت الذى مَهَن قوة الشرطة من خلال الامتحانات والأزياء الرسمية والتفتيش والتمرين على استخدام البنادق، ثم نيكسون الذى عَسكَر الشرطة لمواجهة انفجار العصيان المدنى فى صراع الحقوق المدنية وحركة السلام، والذى استطاع بذلك لأول مرة أن يربط بين خطر الجريمة والمخدرات من جانب وظهور سياسة المقاومة من جانب آخر. وقد أدى ذلك إلى فدرلة federalization وتبرير وعسكرة فرض القانون.

ومع تحول العمل البوليسى باطراد إلى حضور ثقافى يُجْبَر معظم الناس من خلاله اليوم على أن يتفاوضوا حول علاقاتهم مع القوة، وفى نفس الوقت مع استخدام العمل البوليسى كأسلوب للعلاقات الدولية والتسربات الإمبريالية، غدا من المهم اليوم أكثر من أى وقت مضى أن نفكر فيما يستتبعه الخيال الشعبى للشرطة، وما نوع الأخلاق التى تتضمنها هذه المجابهات المستمرة، وكيف يمكن أن تصاغ الأنواع الأخرى من المنظمات الاجتماعية. لقد كانت الحركات السياسية اليسارية المعاصرة تنتظم وتحتشد بقوة ضد ما تحول سريعًا إلى ثقافة أورويلية(*): إيقاف أساتذة الجامعة الذين يؤيدون المعارضة، ومراقبة طلاب الجامعة الأجانب فى اختيارات المقررات، واحتجاز المهاجرين على ممارسة حرية التجمع، وإلقاء القبض على أكثر من ١٢٠٠ شخص واحتجازهم واستجوابهم فى الغالب دون تهم رسمية، وإمكانية المحاكم العسكرية السرية التى تعطى السلطة التنفيذية بالحكومة الفيدرالية سلطات موسعة لتخويف الجمهور. وفى ذلك يحذر ديفيد كول من أن:

(*) نسبة للروائى جورج أورويل الذى كرس أعماله الأدبية مثل رواية "مزرعة الحيوانات" ورواية "١٩٨٤" للتشهير بكبت النظم الشيوعية للحريات وتزييف الوعى [المترجم].

> السرية أصبحت السمة الذى تميز حياتنا اليوم. فالإجراءات الجنائية تحكمها أوامر السرية – وهى نفسها سرية – التى تحرم المتهمين أو محاميهم من قول أى شئ للجمهور حول قضيتهم ... وقانون باترويت يجيز عمليات تنصت على الاتصالات وعمليات تفتيش سرية لا يتم الكشف عنها أبدًا فى التحقيقات الجنائية، دون أى سبب ممكن للجريمة، وهو الأساس الدستورى لأى عملية بحث أو تفتيش ... وقد كان الدافع الرئيسى وراء الأمر الرئاسى من جورج دبليو بوش الذى يجيز محاكمة الإرهابيين المشتبه بهم فى محاكم عسكرية هو الرغبة فى تفادى الضرورة الدستورية للكشف عن الأدلة المجمعة ضد المتهم فى المحاكمة الجنائية العادية. ففى المحاكم العسكرية لا يتاح للمتهمين الحق فى محاكمة عامة، ولا الحق فى المحاكمة أمام هيئة محلفين، ولا الحق فى مواجهة الأدلة أو الاعتراض بعدم قانونية طرق الحصول على الأدلة، ولا الحق فى الطعن أمام محكمة مستقلة[٢٥].

وحتى فيما قبل ١١ سبتمبر، ومع وجود مليونى شخص فى السجون، وإطلاق أربعة شرطيين بيض النار على رجل أسود غير مسلح وإردائه قتيلاً فى برونكس، ومع اعتداء رجال الشرطة جنسيًا على رجل من هايتى فى بروكلن، ومع حوادث رودنى كينج وليونارد بلتير(*) وموميا أبو جمال(**)، ومع اتخاذ الشرطة إجراءات صارمة

(*) ناشط أمريكى وعضو فى حركة الهنود الأمريكيين، اتهم وحكم عليه عام ١٩٧٧ بحكمين متتاليين بالسجن مدى الحياة لقتل موظفين بمكتب التحقيقات الفدرالى. يثار جدل حول نزاهة المحاكمة التى تعرض لها بلتير، ويعتبره البعض سجينًا سياسيًا [المترجم].

(**) ناشط وصحفى أسود اتهم عام ١٩٨٢ بقتل ضابط أبيض فى فلادلفيا، حكم عليه بالإعدام ، ثم خفف إلى السجن مدى الحياة، وقد أثير حول محاكمته جدل كثير [المترجم].

وقاسية ضد المتظاهرين ى ليلة ماثيو شيفرد(*) فى نيويورك وفى مؤتمرات الديمقراطيين والجمهوريين عام ٢٠٠٠ فى لوس أنجليس وفلادلفيا وفى الاحتجاجات فى سياتل وواشنطن العاصمة وكذلك فى براغ وجنوه ضد الطبيعة غير الديمقراطية للرأسمالية العالمية، ومع تعامل شرطة نيو جيرسى مع المجرمين على أساس العرق، فى ظل ذلك كله كان الاستخدام المفرط للقوة من جانب الشرطة أحد الإجراءات القمعية السائدة، وهو ما أثر سلبًا على نوعية حياة الناس وإحساسهم بالأمن وطبيعة الحرية التى يتمتعون بها. وحتى مع إخضاع أقسام الشرطة للتحقيقات والإصلاحات وإعادة الهيكلة والإجراءات التأديبية نتيجة لهذه المشاهد التى تملأ أجهزة الإعلام، فلا يزال قمع الشرطة مستمرًا عبر إطلاق النار الوحشى على المراهق الأسود غير المسلح تيموثى توماس فى سينسيناتى الذى أدى إلى اضطرابات عنيفة وفرض الأحكام العرفية، وكذلك فى لقطات الفيديو التى تصور الشرطة فى إنجلوود بكاليفورنيا وهم يرطمون المراهق الأمريكى الأفريقى المريض عقليًا دونوفان جاكسن فى سيارة ثم يأخذون فى ضربه.

إن التكثيف الحالى للعمل البوليسى الذى بدأ حقيقة عام ١٩٦٧ عندما أخذ الرئيس ليندون جونسن الشرطة من إدارة الخزانة والأغذية والأدوية ووضعها فى يد "وكالة جديدة ذات مكانة عالية" بإمكانها أن تنفق "مليارات الدولارات فى إعادة تشكيل وإعادة تجهيز وتبرير العمل البوليسى الأمريكي" بإعطاء الشرطة "أسلحة عسكرية وتكنولوجيا اتصالات وتدريب خاص"، واستهداف أفراد العصابات ومهربى المخدرات، وكذلك مستخدمى الشوارع العاديين والمتظاهرين ضد الحرب. ومنذ ذلك الحين، كما يوضح كريستيان بارنتى، والفضاءات العامة معسكرة: "فـ'النظام' يتحقق بإغراق أحياء السود بحشود الشرطة، بما فى ذلك فرق الأسلحة والتكتيكات الخاصة ووحدات

(*) شاب اختطفه شابان متعصبان وعذباه حتى الموت عام ١٩٩٨. قال شهود فى المحاكمة أن شيفرد كان مستهدف لأنه من المثليين. وعلى ذلك أثار مقتله اهتمام أمريكى وعالمى بقانون جرائم الكراهية [المترجم].

الكلاب. إنها إستراتيجية الحرب الاستعمارية: السلام من خلال القوة النارية الفائقة"[٢٦]. فالمدارس أصبحت تحرسها الشرطة، مسلحة أو غير مسلحة، والمتنزهات العامة مثل ساحة واشنطن بنيويورك تُصَوَّر تليفزيونيًا طوال الليل والنهار بكاميرات الشرطة المركبة على أسطح البنايات المجاورة لاستكشاف تجار المخدرات الصغار. وفى ظل السوابق القانونية الجديدة أصبحت حقوقنا فى السرية أضيق كثيراً من ذى قبل بفعل قيود التفتيش - الاحتجاز. والآباء والأمهات يُشجَعون على الإبلاغ عن أطفالهم خشية مقاضاتهم أو توجيه تهم جنائية لهم، بل ويُشجَعون على طلب اعتقال أبنائهم إن هم ارتدوا ملابس خاطئة أو كتبوا ما يتعبر كلمات وعبارات خطرة أو مثيرة للجدل. إن أية نظرية حول الشرطة تقف عند حد السياسة التمثيلية أو تحجب العمليات والترتيبات الجديدة للدولة المركزية تهدد، على أقل تقدير، بفقدان لب الموضوع.

تقع روايات ساره باريتسكى ضمن تقاليد الكتابة البوليسية الواقعية التى ظهرت فى الثلاثينات وكانت تركز على سكان الحضر، إضافة إلى استخدام محقق من نوع شرلوك هولمز يعمل كعبقرى وبطل خارق ملهم شبه نيتشوى يستطيع أن يحل الجرائم عن طريق تركيب أجزاء من المعرفة الإمبيريقية معًا وإخضاعها إلى منطق الاستدلال. وبداية من الثمانينيات دخلت الروايات أيضًا فى اتجاه جديد فى الأدب البوليسى يضع مخبر سرى نسائى ضد قوة شرطة أبوية، وطبقة إجرامية أبوية هى الأخرى، ويفرض النسوية كشرط للاستقلال والعدالة والتعاطف والحرية التى سوف تُخْرِج الرأسمالية من أشكال الفساد الأنانية والمعوقة. وكما أشارت بريسيلا والتن ومانينا جونز "ففى أثناء الفترة من ١٩٧٦ إلى ١٩٨٠ زاد عدد روايات الألغاز النسائية بحدة من ١٦٦ إلى ٢٩٩ رواية، وبلغت الذروة بين ١٩٨١ و, ١٩٨٥ لكن الزيادة فى المحققين المهنيين واضحة أكثر: زادت أكثر من ثلاثة أضعاف من ١٣ (بين ١٩٧٦ و١٩٨٠) إلى ٤٣ رواية بين ١٩٨١ و١٩٨٥، وظلت على نفس المعدل، حيث تضاعفت ثلاث مرات تقريبًا ثانية بين ١٩٨٦ و١٩٩٠ إلى ١٢٤، وتضاعفت مرة أخرى فى فترة ما بين ١٩٩١ و١٩٩٥ إلى ٣٦٦ رواية"[٢٧]. لكن ما لم يلحظه والتن وجونز هو كيف يقابل هذا

الازدهار فى الأدب البوليسى النسائى أو النسوى نمو وعسكرة العمل البوليسى، فضلاً عن توسع الثقافة الليبرالية الجديدة. ومع أنهما يزعمان أن هذا الاتجاه فى الأدب البوليسى يمثل حماسة متجددة لقيم النسوية التى ميزت السبعينات، فإن الطريقة التى تربط بها فعالية فيك ورشاوسكى النسوية بين الأخلاق وانكماش الحمايات العامة لصالح بطولة رأس المال المتجاوزة والسريعة لا تبشر بالضرورة بالخير لمستقبل التحرر للجميع.

إن فيك ورشاوسكى محامية تتمتع بضمير اجتماعى أخلاقى تعمل مخبرة خاصة لأنها وجدت أن هناك حرية فى العمل بالتعاقد أكثر منها فى العمل كمحامية عامة. تبدأ رواية "رؤية النفق" ببناية وارشاوسكى فى شيكاغو وهى تُجْتَث لتفسح مكانًا لبنايات أكثر ربحية، ثم تتحول الرواية سريعًا إلى حبكة الانحطاط الحضرى وشركات التنمية الدولية الفاسدة فى مقابل المستضعفين والكيانات غير الربحية والنساء والأطفال المنتهكين والمستبعدين وبطلهم: المقال. إن فيك وهى تتحرى حول سبب رفض مصرف سنشرى بانك Century Bank طلب هيئة هوم فرى Home Free [بيوت مجانية] غير الربحية لقرض من أجل مشروع لاميا (Lamiaمجمع سكنى خشبى للنساء المعيلات)، تدخل إلى مكتبها فى يوم ما لتجد جثة ديردر مسنجر على مكتبها ومخها يسيل على لوحة المفاتيح، والشهود الوحيدين على الجريمة أسرة مشردة كانت تعيش فى البناية المغطاة بالألواح، لكن هذه الأسرة اختفت دون أن يعرف أحد لها أثر. وفى النهاية يتضح أن المصرف، الذى يتمتع بحماية أصحاب مصالح مالية كبار وسياسى مخادع، كان يستخدم هيئة بيوت مجانية كواجهة لغسيل مبالغ ضخمة، إلى جانب استضافة جرائم أخرى، منها تسخير المهاجرين الرومانيين غير الشرعيين العاطلين كعمال بناء وكسر العقوبات المفروضة على العراق.

من المعهود فى الأدب البوليسى أن يُصَوَّر أفراد الشرطة كمهرجين غير نافعين كما فى روايات شرلوك هولمز، أو بيروقراطيين بطيئين يصلون دائمًا متأخرين جداً كما فى كثير من الروايات الواقعية. وكما فى حالة البطل فى أفلام الغرب الذى يخرج على

القانون لكى يستعيده، يوجد عادة توتر بين المخبر السرى والقانون، حيث يميل المخبر لأن يعمل على حافات القانون فى مكان أقرب إلى الخروج على القانون والجريمة، وفى الغالب يستمد حكمته وبصيرته وبطولته وتكتيكاته من صلته بالجيتو. والشرطة فى رواية "رؤية النفق" تعمل بمستوى عالى من الكفاءة لدرجة ترهق منفذى القانون أحيانًا بأعباء عمل زائدة. وتنبثق قوة المخبرة السرية من حقيقة كونها توازى الشركات الدولية والتمويل الدولى الخارج عن القانون. فقدراتها على تعدى وتجاوز الأقفال والاقتحام والدخول والقرصنة على أقراص الحاسب الحاسب توازى قدرات خصومها على اقتحام مكتبها وإتلاف قواعد البيانات الخاصة بها من ناحية، ومن ناحية أخرى الاستيلاء على القانون وخرق التعديل الدستورى للسيناتور أليك جانتنر الذى يحرم الصفقات المالية مع المنظمات الإرهابية التى تنتهك قوانين الدولة القومية. إن شركة الإنتاج الزراعى التى تملكها أسرة جانتنر المعروفة باسم شركة جانتنر الزراعية Gant-Ag تنتهك الحواجز التجارية ببيعها القمح لصدام حسين فى مقابل دفعات نقدية تحول إلى مصرف بعيد فى جزر كيمان. ثم يقوم هذا المصرف بغسيل هذه الأموال ونقلها بالطائرة إلى مهبط الطائرات الخاص بالشركة الزراعية، ومن هناك يمكن أن تودع فى مصرف سنشرى بانك، وهو مصرف صغير كان فى السابق يدعم مشروعات تجديد الإسكان ومشروعات النساء والملاجئ الأسرية والخدمات الاجتماعية وما شابه ذلك فى شيكاغو. وعندما علمت ديدر مسنجر بذلك وهددت بإفشائه قتلت.

من أجل مصلحة الشركة الزراعية، وكذلك بالنسبة لفيك، تمثل الشرطة "تدخلاً فى حياة الناس"(٢٨). تواعد فيك شرطيًا أسود يدعى كونراد راولنجز. إن مدير المصرف، وهو ابن السناتور، ومدير هيئة بيوت مجانية يجد كونراد يتعدى حدوده ويدخل فى حقول القمح التابعة للشركة الزراعية، فيخطط لقتله لعرقلته عملهم: إذ من المنتظر أن تصل طائرة فى منتصف الليل من جزر كايمان محملة بالأموال. إن بلاكلى الرأس الكبيرة وراء عمليات الشركة الزراعية يتهم كونراد بانتهاك حقوقه فى السرية، وبذلك يتم عرض الحق فى السرية باعتباره يخدم فقط فى تسهيل المصالح الإجرامية: يقول

بلاكلى لكونراد "أنت قد تكون من أفراد شرطة شيكاغو، لكن قوة الأمن الخاصة بالشركة وجدتك تتعدى على أملاكنا"(٢٩). وبالطريقة نفسها تجد فيك أن الشرطة، وكذلك القطاع العام عمومًا يتعدى على عملها، حيث يفتشها بسبب الاشتباه ويهدد باعتقالها بسبب قيامها بتحقيقات غير قانونية، ويقيد إمكانية وصولها إلى أولئك الذين تحتاج لأن تحميهم. وعندما تحاول أن تحصل على أدلة من أحد معلمات إيميلى ابنة ديدر، على سبيل المثال، ترفض المعلمة متعللة بحق الطلاب فى السرية. وتحتج فيك بأن حياة إيميلى الخاصة مهمة ويجب أن تُفْتَح للتحقيق، بينما هى تُغْلَق من جانب الشرطة والمحامين الذين يركزون على الجوانب العامة والمبادئ القانونية(٣٠). يشبه كونراد بين طرق فيك وطرق المجرمين قائلاً "أتذكر أنه فى العام الماضى اقتحم شخص هذا المكان وحطمه تمامًا. وهذا يبدو معقولاً بالنسبة لك(٣١)، ويبرز تيرى فينكلى شريك كونراد الأسباب التى تجعل الشرطة متلكئة بقوله "لأننى لست مواطنًا خاصًا مثل فيك فأنا أحتاج إلى تفويض"(٣٢). فعلى خلاف فيك، يمكن للشرطة فقط أن تجمع الأدلة بإتباع إجراءات وقواعد الدولة القومية: احترام السرية والحدود المحلية، وتكوين "أسباب مقنعة" وملء "مئات من الاستمارات"(٣٣)، بينما يمكن لفيك أن تلتف حول القوانين وتتجاوزها وتجسد الشرطة، لكنها شرطة تتمتع بحصانة. بمعنى أن القيود الموضوعة على الشرطة لحماية حق المواطنين فى السرية تعرقل، بدل أن تساعد فى تحقيق العدالة.

إن التشابهات بين فيك وعصابات المخدرات والمافيا المالية الدولية لا تقف عن حد ميلها إلى خرق القانون. بل إن قبضها المتكرر على التنظيمات الإجرامية يفرض عليها فى الغالب أن تحمل مسدسًا. ففى بعض الأحيان تجد نفسها فى وسط عمليات إطلاق نار وانفجارات خطرة قد تؤدى إلى الإصابة أو الموت. وخبرة فيك فى القدرة على الرد على ما يتطلبه الموقف، والتفكير بسرعة، واستخدام الأجهزة التى تقع تحت يدها، تجعلها قادرة دائمًا، كشأن المجرمين أنفسهم، على الابتكار، بكل من العقل والقوة الصرفة، على التغلب على الأخطار التى تواجهها مهما كانت استثنائية. فعندما

طاردتها طائرة وجدت أمامها عربة، وسرعان ما عرفت كيف تقودها ونجحت فى إدارة أذرع السيطرة والفرامل وغيرها بيدها اليمنى بينما هى تطلق النار بيدها اليسرى[٣٤]. وحاجة فيك لأن تحمل أسلحة يبررها احتمال تعرضها لتهديد مفاجئ، دون أى قاعدة أو قانون، وبالتالى لا بد أن تكون مستعدة للدفاع غير المتوقع: "لقد سمعتهم قبل أن أراهم بلحظة، لحظة أتت بسميث وويسون فى يدى. لاحظت ثلاثة أشباح مقنعة، فأطلقت النار"[٣٥].

معنى ذلك أن النزعة النسوية والقيم النسوية أعطت النساء الحق والتشجيع فى أن تكن قاسيات، لأنهن أخيراً حققن استقلالهن الاقتصادى. هذا الاستنتاج يناقض إدعاءات أخرى للنزعة النسوية الشعبية أو الأكاديمية تؤكد أن تحدى النساء لثقافة "القسوة" سينقذ العالم من العسكرة. ففى مقال لاقى استحساناً كبيراً فى الدوائر النسوية كرد على أزمة ١١ سبتمبر (مع أنه كتب فى أثناء إدارة كلنتون)، دفعت الدارسة النسوية الشهيرة سينثيا إنلو Cynthia Enloe بأن "إعطاء الاهتمامات العسكرية أولوية على الأهداف الدولية الأخرى المهمة لأمريكا" مثل إنهاء استخدام الألغام الأرضية، والتوقيع على المحكمة الجنائية الدولية، ودعم اتفاقية الأمم المتحدة التى تعترف بحقوق الأطفال فى حالة الحرب، ينشأ عن "قلق السياسيين الذكور من ألا يظهروا 'رجوليين' بما يكفي". فلو أن المسئولين عن قرارات السياسة الدولية يشاركون فى تحليل نسوى، كما ترى إنلو، "لسارعت الثقافة السياسية الأمريكية المعاصرة الشاذة التى تساوى بين الخبرة العسكرية والقيادة السياسية" إلى هدم نفسها بنفسها، ولانتهت الحرب من تلقاء نفسها. معنى ذلك أن الحرب تنتج عن شكل ثقافى أمريكى شاذ من الرجولة يتطلب القسوة والعدوان والنظم الدفاعية الصاروخية والسياسات اللاتسامحية، أو مجرد "المنافسة السياسية لتبدو 'قاسياً'"[٣٦]، ولا تنتج عن الاقتصاد أو عن تأكيد السيطرة على الموارد والعمال، بينما لو أخذت النساء القوة لاختفى الطلب العالمى على النفط فجأة، على سبيل المثال، باعتباره وجهاً آخر للرجولة. لكن يغيب عن تحليل إنلو ثلاث نقاط مهمة: (١) أن النسوية

دعت إلى "القسوة" فى النساء كعلامة على الاستقلال الاقتصادى ونجاح النسوية، كما تبين رواية "رؤية النفق"، (٢) أن العسكرة لا تنبع من رغبات الرجال فى أن يظهروا "رجوليين"، وإنما من توسع النزعة الاستهلاكية واحتياجاتها من العمالة من كل من النساء والرجال وفرضها "للصلابة"، بل وحتى "الرجولة" على النساء كعلامة على النسوية، (٣) أن عزو وتطبيع سمات النوع - سواء الذكورة أو الأنوثة - هى الإستراتيجيات نفسها التى استخدمتها الرأسمالية العالمية نفسها من أجل تعميق الاستغلال الذى تمارسه. وترى إنلو أن الذكورة "قاسية"، بينما الأنوثة والنسوية "علاقية" و"ناعمة"، لكن عن طريق تعبئة سمات النوع على هذا النحو يقوم النظام الاقتصادى حاليًا باستغلال النساء والأنوثة سعيًا وراء المصالح الاقتصادية باسم الأخلاق. والعدل إلى النساء لا يعتمد على "تأنيث" الجمهور، وإنما إلغاء نظام اقتصادى يعتمد على علاقات الهيمنة والخضوع. ولذلك يجب على النقد النسوى أن يكون فى الطليعة فى البحث عن طرق جديدة للنظر إلى الجمهور أبعد من مجازات الأنوثة أو آلة الأمن التكنولوجية العضلية.

إن لجوء فيك إلى العسكرة وهى تسقط الطائرة أو تحارب أحد المعتدين يُبرَر على أساس "مفهوم مجرد للعدالة"، حيث تعيد القانون الذى انتهكته هى نفسها. والفرق بين تجاوزات فيك وإجرام أولئك الذين تطاردهم هو أن فيك تتصرف من أجل مصلحة - كما يشير كونراد- "نسختها الخاصة من العدالة"[٣٧]: أن تدافع عن أولئك الذين تعتبرهم هى وآخرون أناس عزل. يقول كونراد لفيك:

> **انظرى يا فيك إن السبب فى وجود القوانين وإعطاء وظائف لأناس مثلى لفرض هذه القوانين هو ألا يكون هناك مجالاً لأى شخص لأن يتسكع فى الشوارع ويُعَرِف العدالة بما يناسبه هذا الصباح. يكفى سوءً أن هناك مليون مسدس فى هذه المدينة، بما يعطى لكل شخص أحمق الفرصة لأن يلعب "دور الرجل" وقتما يشاء**[٣٨].

إن الشيء غير الفعال في مفهوم فيك المجرد عن العدالة المخصخصة هو الحيز العام القابل للحياة. فبعيداً عن الشرطة بأيديها المكبلة بالقواعد القانونية، يظهر الجمهور في "رؤية النفق" بوصفه عنيفًا وإجراميًا من ناحية، ومن ناحية أخرى مشرد ومجني عليه ومؤنث ومنتهك وعاجز. وفيك وهي تنقذ المرأة المشردة تامار وإيميلي والأطفال الذين معهما من النفق الموجود تحت المكان الذي اختفوا فيه، تصفهم بأنهم عاجزين تماماً، بل غارقين في بؤسهم:

أمسكت أقرب شبح لي، كان طفلاً صغيراً. قاومني قليلاً ثم وقف بلا حراك وبدأ يبكي باستعطاف. توقف بقيتهم. كانوا أكثر من أربعة، لكني لا أستطيع أن أجزم بعددهم بالضبط بسبب ضعف ضوء بطاريتي. وفوق رائحة العفن والفحم والجرذان، كانت الرائحة الكريهة للبول والخوف تكاد تخنقني ... حاول أحد الأشباح الأكبر حجمًا أن يفك يدي عن ذراع الطفل، لكن أصابعها كانت ضعيفة ولم تستطع أن تحرره مني. حتى ذراعه تحت يدي كان هشًا ... "إنها إيميلي؟" لو لم تبدأ بالكلام لما عرفتها. فشعرها المجعد التصق برأسها ووجهها أصبح ذابلاً ومسوداً من الجوع والقذارة. وأصبح بنطلونها الجينز الأزرق وقميصها واسعين على جسمها الذي انكمش(٣٩).

لقد هربت تامار وإيميلي تحت الأرض لتفرا من القانون، تامار كشاهدة على مقتل ديردر، وإيميلي كمتهمة بريئة بقتل أمها. وهما أيضًا ضحيتين للإساءة، حيث كان زوج تامار يضربها ووالد إيميلي يغتصبها. والبرامج العامة التي آلا إليها بعد أن أنقذتهم فيك وظيفتها أن تقدم لهم العلاج وليس الفعل والتنظيم الجماعيين بغرض إنهاء العنف الأبوي patriarchal والإساءة المحلية. إن التقصير البدني والعقلي والوجداني الذي يُظهِرونه – فرديًا وجماعيًا – إضافة إلى ضعفهم الأنثوي يبرر عدم

فعالية العمل السياسى لتحقيق العدالة، ويدعو بدلاً من ذلك أن يتعلموا أن "يلتئموا" ويتقلوا الرعاية لكى يجدوا لأنفسهم مكانًا فى النظام القائم.

إن النزعة النسوية فى الرواية تتوقف على قدرة فيك على أن تكون "فاعلاً فرديًا"(٤٠). ترى بريسيلا والتن ومانينا جونز أن "ذلك يلفت الانتباه إلى دور المخبر الخاص الأنثوى الذى تتقدم تحقيقاته، وتلك فى الحقيقة نسوية عملية توفق بين النظرية النسوية والممارسات اليومية"(٤١). إن "فيك مصممة جداً على أن تكون موظفة جيدة"(٤٢)، واستقلال فيك النسوى لا يعتمد فقط على سعيها الخاص إلى العدالة بارتيابها فى المحامين والمحاكم والشرطة، وإنما أيضًا فى طموحاتها للعمل فى القطاع الخاص، فى الأغلب عن طريق التعاقد معها على مهام معينة. لكنها تكسب مالاً من العمل بالتعاقد أقل مما تكسبه فى شركة، فحسها المشروعاتى وروح المغامرة والموهبة لديها، الذى تسميه "أخلاق أصحاب الياقات البيضاء لديها"(٤٣)، التى تدعى أنها ورثتها عن أمها، تضعها فوق تقاليد الأنوثة، خاصة فيما يتعلق بالأمومة. وكما تؤكد ديردر نفسها: "كلكن أيها النساء اللاتى خرجتن للعمل لا تختلفن فى شىء ... فأنتن لا ترين أن من بقيت منا فى البيت وأعطت الأولوية لأطفالها وزوجها تستحق أى شىء"(٤٤).

وبينما تكتشف ديردر مؤامرة الجسر الجوى وهى تعمل لدعم عرض زوجها لمنصب القاضى، فإن اعتمادها على زوجها وإنفاقه عليها إضافة إلى ولائها لأسرتها أدى إلى فنائها. ففى مقابل استقلال فيك المشروعاتى النسوى، انتهى اعتماد ديردر الأنثوى على دخل زوجها تأديبيًا بخروج مخها من رأسها، حقيقةً وليس مجازًا، وعدم جدوى عقلانية ديردر الاقتصادية تتأكد أكثر بتناثر رأسها المهشمة على أدوات العمل المختلفة بمكتب فيك، لوحة المفاتيح وشاشة الحاسب والملفات وقواعد البيانات، وكذلك سلاح القتل. فعمل فيك حررها من الأشكال الأنثوية للمرض العقلى التى تتجلى فى عدم استقلال النساء الذى يعد عرضًا لنفسية الضحية (ديردر لا تترك زوجها السيئ القاسى وتنتهى بتهشم رأسها) والاعتماد المادى (كانت ديردر مدمنة خمور).

ثم تشرح الرواية العقاب الذى تستحقه ديردر نتيجة لاعتماديتها المفرطة، وذلك بمنطق الرواية يعنى أنها فشلت فى أخلاقها النسوية. وتفيض معاقبة النساء على جريمة الاعتماد المفرط "اللانسوى" antifeminist عبر الخطوط الطبقية وتنتهى إلى: (١) نسونة الحيز العام أكثر بسبب ما يسوده من هستيريا واعتماد مفرط، (٢) الطعن فى الأمومة بأنها شيء يستحق العقاب بسبب الاهتمام والتدليل المفرط للأطفال والتضحيات للأسرة، حتى مع الكلام فحسب عن تطوير مؤسسات لحماية الأمهات بدلاً من تفكيك النظام الأبوى[٤٥]، (٣) استهجان احتياجات كل النساء إلى التدخلات العامة، مثل ظهور المرأة المشردة تامار هاوك ثم إيميلى المتكرر فى أماكن المساعدة العامة والمدارس والمستشفيات العامة وجلسات العلاج والملاجئ. لكن فى النهاية لا تتحدى "رؤية النفق" أدوار النوع، أو تقترح بدائل للقهر العام للنساء، فالنساء لا يزلن هن الضحيات والمحتاجات واليائسات والعاجزات. وبدلاً من تقديم نظرية جديدة فى علاقات النوع والمساواة بين الجنسين، كما تفعل معظم نظريات النسوية المعاصرة، اعتادت هذه النسخة من النسوية على إظهار الأنوثة وكأنها مريضة بالضعف والاحتياج والتابعية، حيث تُصَوَّر الأنوثة على أنها تشكل انحطاط وفساد الحيز العام. وميل فيك إلى دعم المنظمات الخيرية ومنظمات العمال النسائية الممولة بقروض ومنح خيرية لا يشير إلى نهاية استغلال عمل النساء أو نهاية عدم المساواة أو نهاية الإساءة إلى النساء أو التسوية المفاجئة للفرص والأجور، وإنما يشير إلى أن فيك يمكن أن ترتفع فوق هذا الوجود النسائى المنحط وتصبح وعد تقرير المصير والاستقلال والتفرد والبطولة والنجاح، وذلك يتحقق فقط عندما تكون -على خلاف غالبية النساء الأخريات- مسلحة برأسمالها الخاص. ومكافأتها فى النهاية شيك بعشرة آلاف دولار من أحد المحسنين، وهو ما مكنها من إضافة موظفَين اثنين إلى قائمة المرتبات فى مشروعها الصغير. إن تصوير الجمهور على أنه نساء مستغَلات ومنتهكات ومرعوبات يتطلب حماية فيك العضلية ويبرر نمو مشروعها وكذلك التفافها - مثل رأس المال الإجرامى - حول قواعد سلوك الشرطة الأبوى وقانون الدولة القومية والحقوق المدنية للناس الآخرين.

إن مفهوم فيك المجرد عن العدالة ينجدل مع تطبيق القانون من جانب الشرطة، بل وحتى يلقى حماية الأخير، لكنه لا يزال أعلى منه. بل إن وظيفة كونراد كمنفذ للقانون محدودة لأن العمل فى الجيتو أصبح روتينياً مثل العمل الخدمى، فعندما سألته فيك عن ليلته فى المكتب سرد لها "ست طلقات نارية، إحداها قاتلة، وطعنة، وضرب وهروب، حيث كان الرجل يجر الجثة إلى منتصف الطريق فى الشارع الغربى، وطفل يخرج من القمامة"(٤٦). وفى غضون ذلك يثنى مانفريد يو Manfred Yeo أستاذ فيك على عملها فى تحقيق العدالة بأنه يرتبط بالحدث أو الأزمة المتفردة والاستثنائية، وليس عالم العمل اليومى للشرطة الحضرية أو البيروقراطيين، ويعلنها مانفريد صريحة أن "القفز من الجسور أكثر إثارة بكثير من تنظيم ملفات القضايا وإرسالها إلى المحاكم"، ويواصل كلامه "أشعر بالخجل من غالبية خريجينا الذين يضيعون وقتهم أمام العدالة"(٤٧). وكما تشير هاردت ونيجرى فإن حق الشرطة فى التدخل فى السياسة العالمية اليوم "بغرض السيطرة والهيمنة على هذا الموقف المائع تماماً، يستلزم أن تُمْنَح سلطة التدخل فى كل مرة وعلى نحو استثنائى القدرة على تعريف متطلبات التدخل ... بما يختزل الحق والقانون إلى مسألة فعالية"(٤٨). ومن خلال إضعاف دور الدولة القومية فى إنتاج المعايير والقواعد القانونية، يتشكل القانون على نحو متزايد من خلال الطوارئ والاستثناء، كما حدث فى انتخابات الرئاسة الأمريكية عام ٢٠٠٠ عندما أصدر قضاة المحكمة العليا قراراً باعتبار أنفسهم استثناءً لقاعدة السابقة، أو فى الحرب على الإرهاب التى يُعَرَف العدو فيها من خلال قدرته الممكنة على تنفيذ عنف غير متصور. وهذا النظام الجديد تشكل بفعل أزمة نتجت عن حدث استثنائى وحيد تمثل فى إرهابى عرقى أو أحد كبار تجار المخدرات انتقلا الآن من الأماكن الحضرية إلى المجال العالمى، والقوة البوليسية ما بعد الامبريالية تستطيع السيطرة من خلال ما يبدو أنه عمل أخلاقى، لكنه فى الحقيقة حالة التفوق أحادى الجانب(٤٩). وخارج مؤسسات العدالة والقانون والحكم، كما هى معممة فلسفياً فى الدولة الحديثة، يتموضع العدو بما هو استثناء فى موقع المجرم الذى يجب ممارسة العمل البوليسى عليه، ويُمْتَدَح المخبر الخاص على أنه يمسك المجرم من خلال العمل خارج القانون.

إن تهميش الشرطة المحلية، أو تهميش قانون الدولة القومية، يعني عدالة بلا عدالة، أو عدالة مُعَرَفة من خلال التفوق العضلي ومن خلال قوة السلاح ومن خلال الفوز، وهنا تفقد إمكانية النقاش العام أو الفحص العام تحت الحماية القانونية للدولة قوتها الأخلاقية وتنسحق بقاياها تحت خروج الشركات على القانون. وفي نفس الوقت فإن تكثف العمل البوليسي الدولي باعتباره حجر الزاوية للسياسة الخارجية قد أنتج أيديولوجيا العسكرة بوصفها القوة الأخلاقية الوحيدة ضد البربرية والإرهاب والإفراط، في حين أن العسكرة هي التي تخلق هذه النتائج نفسها. ولذلك فإن ثمة حاجة إلى أن نعمل من أجل الدفع غير المشروط وغير الاستثنائي للعدالة وللمعايير الأخلاقية ولمؤسسات تطبيقها محليًا وعالميًا. ولا بد من بذل جهد لإعادة تعريف الممارسات العادلة في النظام الدولي الجديد، آخذين في الحسبان أن النقاشات العامة حول دور الشرطة تثير مخاوف حول حلول الكيانات متعدية الحدود محل القوة الحمائية الآفلة للدولة القومية والجمهور الذي ستحميه والأشكال الجديدة من العدالة التي سوف تتخلق. ونظرًا لأن الحمائية والانعزالية ليست خيارات مثالية أو أخلاقية أو قابلة للحياة، فلا بد أن تتشكل مؤسسات عالمية -المدارس والمحاكم وشبكات المعلومات والجمعيات التشاورية وترتيبات الثقة وصناعات الثقافة والهيئات التشريعية وتنفيذ القانون- بغرض حماية المصالح العامة والديمقراطية في كل مكان. والسؤال هو كيف يمكن تخيل هذا المجتمع المدني ومؤسساته وممارساته وكيف يمكن أن يُبْنَى بطريقة مختلفة عن كل من المنافسين الفرديين المتعطشين إلى الدماء الذين يتحاربون على قطعة من الفطيرة، أو قنافذ البحر الضعيفة والمثيرة للشفقة التي تنشج طلبًا لحب الأم الشحيح من جانب الدولة؟

الهوامش

(1) Jeffrey Toobin, "Crackdown: Should We Be Worried About the New Antiterrorism Legislation?" New Yorker (November 5, 2001), available at www.newyorker.com/FACT/?011105fa_FACT2.

(2) Christian Parenti, Lockdown America: Police and Prisons in the Age of Crisis (London and New York: Verso, 1999), 6-7.

(3) Michael Holquist, "Whodunit and Other Questions: Metaphysical Detective Stories in Postwar Fiction," in The Poetics of Murder: Detective Fiction and Literary Theory, edited by Glenn W. Most and William W. Stowe (San Diego, New York, London: Harcourt Brace Jovanovich, 1983), 154.

(4) Henry A. Giroux, Stealing Innocence: Youth, Corporate Power, and the Politics of Culture (New York: St. Martin's Press, 2000), 25-27.

(5) Sara Paretsky, Tunnel Vision (New York: Dell, 1994).

(6) Robin D. G. Kelley, Yo' Mama's DisfunktionaU: Fighting the Culture Wars in Urban America (Boston: Beacon Press, 1998), 2.

(7) Michael Hardt and Antonio Negri, Empire (Cambridge, Mass, and London, England. Harvard University Press, 2000), 12, 13.

(8) Richard Falk, "Reflections on the Gulf War Experience: Force and War in the UN System," in The Gulf War and the New World Order: International Relations of the Middle East, edited by Tareq Y. Ismael and Jacqueline S. Ismael (Gainesville, Fla.: University Press of Florida, 1994), 32.

(9) Michael Klare, "Endless Military Superiority," The Nation (July 15, 2002): 15, 12.

(10) Hardt and Negri, Empire, 12.

(11) Ibid., 17.

(12) Ibid.

(13) See Mark Schapiro, "Big Tobacco: Uncovering the Industry's Multibillion-Dollar Global Smuggling Network," The Nation (May 6, 2002): 18.

(14) Ahmed Rashid, Taliban: Militant Islam, Oil & Fundamentalism in Central Asia (New Haven, Conn.: Yale University Press, 2000), 179.

(15) Amnesty International, United States of America: Race, Rights and Police Brutality (New York: Amnesty International USA, 1999), 1.

(16) Amnesty International, The Case of Mumia Abu-Jamal: A Life in the Balance (New York: Seven Stories Press, 2000), 8.

(17) John G. Cawelti, Adventure, Mystery, and Romance: Formula Stories as Art and Popular Culture (Chicago and London: University of Chicago Press, 1976), 106, 107, 108.

(18) D. A. Miller, The Novel and the Police (Berkeley: University of California Press, 1988), 17.

(19) Christopher P. Wilson, Cop Knowledge: Police Power and Cultural Narrative in Twentieth-Century America (Chicago and London: University of Chicago Press, 2000), 217, 10.

(20) Jacques Lacan, "Seminar on 'The Purloined Letter,' " in The Poetics of Murder: Detective Fiction and Literary Theory, edited by Glenn W. Most and William W. Stowe (San Diego, New York, London: Harcourt Brace Jovanovich, 1983), 154.

(21). **David Cole, No Equal Justice: Race and Class in the American Criminal** Justice System (New York: New Press, 1999), 23-24.

(22) Zygmunt Bauman, In Search of Politics (Standford, Calif.: Standford University Press, 1999), 5.

(23) Dick Hobbs, Doing the Business: Entrepreneurs, the Working Class, and Detectives in the East End of London Oxford: Clarendon Press, 1988), 34, 40.

(24) Kelley, " 'Slangin' Rocks ... Palestinian Style': Dispatched from the Occupied Zones of North America," in Police Brutality: An Anthology, edited by Jill Nelson (New York and London: W. W. Norton & Company, 2000), 25, 26.

(25) David Cole, "National Security State," The Nation (December 17, 2001), available at www.thenation.com/doc.mhtml?i=200112178cs=cole.

(26) Christian Parenti, Lockdown America (New York: verso, 1999), 6, 87.

(27) Priscilla L. Walton and Manina Jones, Detective Agency: Women Rewriting the Hard-Boiled Tradition (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1999), 28.

(28) Paretsky, Tunnel Vision, 34.

(29) Ibid., 437.

(20) Ibid., 148.

(31) Ibid., 250.

(32) Ibid., 155.

(33) Ibid., 104, 217.

34. Ibid., 440.

35. Ibid., 261.

(36) Cynthia Enloe, "Masculinity as a Foreign Policy Issue," Foreign Policy in Focus 5, no. 36 (October 2000), available at www.foreignpolicy_infocus.org.

(37) Paretsky, Tunnel Vision, 447.

(38) Ibid., 250.

(39) Ibid., 311.

(40) Ibid., 438.

(41) Walton and Jones, Detective Agency, 37.

(42) Paretsky, Tunnel Vision, 437.

(43) Ibid., 70.

(44) Ibid., 86.

(٤٥) المشكلة هى أن هناك بالفعل ملاجئ للنساء والأطفال، لكنها فى بعض الأحيان لا تكون أماكن آمنة. ومعظمها يفتح فى الليل فقط بحيث تجد شيئًا تفعله بالنهار. (Paretsky, Tunnel Vision, 11.)

(46) Ibid., 70.

(47) Ibid., 48-49.

(48) Hardt and Negri, Empire, 16-17.

(49) Carl Schmitt and the Age of Post-Politics," in The Challenge of Carl Schmitt, edited by Chantal Mouffe (London and New York: Verso, 1999), 32-33).

الفصل السادس عشر

الحرب الفاضلة

المحاكاة وعسكرة اللعب

يوجين بروفينزو(*)

فى خطابه الأخير عام ١٩٦١ قال الرئيس أيزينهاور إن ثمة "تكتل لمؤسسة عسكرية ضخمة" يحدث حاليًا فى الولايات المتحدة، وهو شىء جديد فى التجربة الأمريكية. ووفقًا لأيزينهاور فإن "التأثير الإجمالى لذلك - اقتصاديًا وسياسيًا وحتى روحيًا - يمكن أن يُحَس فى كل مدينة ومجلس تشريعى وفى كل مكتب للحكومة الفيدرالية". وقد كان أيزينهاور يرى أننا يجب أن نحتمى من هذا الاتجاه. وقد حذر من أن هيمنة المؤسسة العسكرية على علماء الأمة عن طريق مخصصات المشروعات الفيدرالية والتمويل المصاحب لها يهدد بقاء الديمقراطية الأمريكية(١).

ربما تبدو ألعاب الفيديو وصناعة التسلية بعيدة جدًا عن ذلك الموقف الذى حذر منه ايزينهاور. لكن التقاربات الأخيرة بين الأكاديمية وصناعة ألعاب الفيديو والجيش

(*) يوجين بروفينزو Eugene F. Provenzq. Jr. أستاذ بجامعة ميامى. حظيت بحوثه حول أجهزة الحاسب وألعاب الفيديو باهتمام كبير من وسائل الإعلام المقروءة والمرئية. من أهم مؤلفاته: Video Kids: Making Sense of Nintendo (Harvard University Press, 1991) and Beyond the Gutenberg Galaxy: Microcomputers and the Emergence of Post-Typographic Culture (Teachers College Press, Columbia University, 1986).

تشير إلى نفس الظاهرة. وأنا أذهب فى هذا الفصل إلى أن إنشاء معهد التكنولوجيا الابتكارية Institute for Creative Technologies (ICT) مؤخراً بجامعة جنوب كاليفورنيا يمثل نوع التكتل الذى حدث للمؤسسة العسكرية والذى حذر منه أيزنهاور قبل أربعة عقود. وأدفع بأنه عندما يشوش الجيش الخط الفاصل بين الحرب والتسلية، من خلال استخدام ألعاب الفيديو فى تدريب الجنود، وبعد ذلك إتاحتها لصناعة التسلية والمتعة، فإنه بذلك يسهم بالفعل فى عسكرة جوانب مهمة للعب ووظيفة اللعب كخبرة تعلم.

إن جزءاً كبيراً من هذه الظاهرة يرتبط بالدور المتنامى للمحاكاة فى بناء الثقافة ما بعد الحديثة، وبالنشوء والتطور السريعين للحاسبات ومحاكاة الحاسب. والمحاكاة فى الأساس تضع نموذج أو صورة مكان الحقيقة. وكما يذهب المُنَظِر الاجتماعى والثقافى الفرنسى جين بودريلارد، فإن ما تبقى هو "توليد نماذج لواقع دون أن يوجد أصل أو واقع: أى الواقع المفرط hyperreal . فلم يعد الإقليم يسبق الخريطة أو حتى يبقى بعدها. فمن الآن فصاعداً ستسبق الخريطة الإقليم، بل وستكون الخريطة هى التى توجِد الإقليم"(٢).

إن الجيش له تاريخ طويل فى استخدام المحاكاة فى العصر الحديث. ففى العشرينات طور الجيش البريطانى سيناريوهات مفصلة لألعاب حربية من أجل تدريبات الدبابات والدروع المتحركة خارج سالسبرى بإنجلترا. وقبل عامين من حرب الخليج، أعد العراق محاكاة بالحاسب لغزو الكويت. وقبل أسابيع قليلة من اجتياح العراق للكويت تبنى الجنرال نورمان شوارسكوف تدريباً للقيادة عن طريق محاكاة الحاسب يحمل اسم "تدريب النظرة الداخلية ٩٠" يقوم فيه ٣٥٠ عضواً من الضباط مرتفعى الرتب من كل قطاعات الجيش بشن حرب على العراق.

واستخدام المحاكاة لتدريب أفراد الجيش ينقل لهم إحساساً كاملاً بالعملية الحقيقية. فجعل طيارى الأسطول يمارسون عمليات الهبوط على حاملة طائرات فى

محاكى الطيران flight simulator يعد طريقة ممتازة لإعطائهم خبرة ما قبل الطيران قبل أن يدخلوا كابينة الطائرة الحقيقية. والمحاكاة الواقعية للحرب ربما تعد أفضل طريقة لإعطاء المتدربين العسكريين إحساساً بالحرب دون أن تعرضهم لخطرها.

على أن الارتباط بين المحاكاة وصناعة التسلية والمتعة والجيش الأمريكى ليست جديدة بحال من الأحوال . ففى عام ١٩٣١ اشترى الأسطول أول محاكى طيران من ادوارد لينك Edward Link. ولعله من المفيد أن نعلم أنه فى الوقت الذى اشترى فيه الأسطول هذا المحاكى، كانت متنزهات التسلية عبر الولايات المتحدة قد اشترت ٥٠ ماكينة من هذا النوع. فالآلة التى قُصِد بها التدريب العسكرى غدت متعة شعبية للجمهور العام. ويؤكد جيمس ديرديريان James Der Derian أن هذا التقليد لا يزال باقياً إلى اليوم، حيث أن ألعاب الفيديو التى تعتمد على المعدات العسكرية مثل الطائرة الهليكوبتر كومانشى والمقاتلة إف-٢٢ والغواصة ذئب البحار إس إس إن-٢١ تظهر على أرفف المتاجر بمجرد أن تظهر هذه النظم التسليحية.

والارتباط بين ألعاب الفيديو والثقافة العسكرية قائم بالفعل منذ عقدين من الزمان. ففى أوائل الثمانينات لعب مجندو الجيش فى فيرجينيا لعبة فيديو تعرف باسم "منطقة المعركة" Battle Zone نشنوا فيها على دبابات وطائرات العدو وحاملات جنوده المدرعة ودمروها. وقد أكد رونالد ريجان، القائد العام للجيش، فى هذه الفترة أن ألعاب الفيديو يمكن أن تساعد فى إعداد الأفراد للجيش(٤).

غير أن استخدام ألعاب الفيديو فى تدريب الأفراد على خوض الحروب وتسلية وإمتاع الجمهور العام أمر مزعج بالفعل. فقد تشوش تعريف ذلك الذى يعد لعبة حرب وذلك الذى يعد حرباً حقيقية. ففى أثناء حرب الخليج، على سبيل المثال، عُرِضت الحرب على الجمهور الأمريكى كما لو كانت لعبة فيديو "أخرى". فعلى امتداد الجزء الأول من عام ١٩٩١ أمضى الأمريكيون ليال متتالية وهم يشاهدون القنابل والصواريخ الذكية تنهال على الأهداف العراقية. فقد بدت الحرب كما لو كانت أحد ألعاب الفيديو. وبعد حرب الخليج، أصبحت ألعاب الفيديو القائمة على السيناريوهات العسكرية لهذه الحرب

منتشرة جداً. فقد أصدرت شركة سبتكرم هولوبايت Spectrum Holobyte، على سبيل المثال، لعبة دبابات تعتمد على برنامج تدريب الجيش على المعركة البرية، وهى لعبة تضع اللاعب فى كابينة الدبابة أبراهام إم-١ أى فى الكويت. وكما يشرح هيرز J. C. Herz فى كتابه "أمة على ذراع اللعب" Joystick Nation فإن:

عملية عاصفة الصحراء لم تكن إلا البداية. لقد كانت أعظم شىء يحدث فى مجال التسلية التفاعلية منذ لعبة Sonic the Hedgehog. فكل الأمريكيون شاهدو على التليفزيون خط سير الصواريخ من خلال المواقع الموجهة بالليزر. والآن يمكنهم أن يلعبوا هذه الحرب على حاسباتهم الشخصية فى المنزل. وفى غضون عام من حرب الخليج أصدرت شركة سبكترم هولوبايت لعبة دبابات تعتمد على برنامج الجيش للتدريب على الحرب البرية. وبعد ذلك بفترة قصيرة جاءت لعبة الدبابات المعروفة باسم دبابة الميدان الفائقة Super Battletank لتضع اللاعب فى كابينة الدبابة أبراهام إم-١ أى فى الكويت، حيث يمكنه أن يلعب دور القوات الأمريكية.

لقد تمت ترجمة عنف حرب الخليج إلى ألعاب فيديو "شبيهة" للجمهور العام. لكن ما لم تظهره ألعاب الفيديو وتغطية الحرب من جانب الحكومة هو الموت والدمار الواسعين اللذين تسببت فيهما القنابل الذكية والصواريخ وهى تنهال على أهدافها، وهى نقطة وقف أمامها طويلاً جين بودريلارد فى كتابه الصادر عام ١٩٩١ بعنوان "حرب الخليج لم تحدث"(٦).

لقد تشوش الخط الفاصل بين واقع الحرب والتسلية أكثر وأكثر بسبب جهود الجيش الأمريكى لربط تطوير المحاكاة العسكرية بصناعة التسلية. ففى أغسطس ١٩٩٩ أعلن سكرتير الجيش لويس كالديرا Louis Caldera أن الجيش سيمنح جامعة جنوب كاليفورنيا ٤٥ مليون دولار لإنشاء مركز بحثى لإعداد المحاكيات العسكرية.

وفى المركز الجديد - معهد التكنولوجيا الابتكارية- يجتمع طلاب السينما ومصممى ألعاب الفيديو معًا لإعداد نظم وسائط متعددة متقدمة يمكن استخدامها فى تدريب الجيش. وجزء من الفكرة الكامنة خلف البرنامج هو أن التكنولوجيا التى تُطَوَّر من أجل الجيش يمكن أن تستخدم أيضًا من جانب صناعة التسلية. وهو المدخل الذى وصفه لويس كالديرا بأنه "مكسب للجميع".

ووفقًا لموقع المعهد على الشبكة فإن "صناعة التسلية تأتى بالخبرة فى مجالات القصة والشخصيات والتأثيرات البصرية واللعب والإنتاج" إلى المعهد، بينما "تسهم جماعة علوم الحاسب بالابتكار والتجديد فى التشبيك والذكاء الصناعى وتكنولوجيا الواقع الافتراضي". والمدارس التابعة لجامعة جنوب كاليفورنيا التى تعمل مع المعهد تتضمن مدرسة السينما والتلفزيون ومدرسة الهندسة ومعهد علوم المعلومات ومركز نظم الوسائط المدمجة ومدرسة أنينبرج للاتصالات. وما يحدث هناك هو دمج قطاعات الأكاديمية والتسلية والجيش من الثقافة الأمريكية.

وفى اعتقادى أن ثمة تساؤلين لابد من الإجابة عنهما حول هذا الاندماج: (١) ما مضامين ربط الجيش بصناعة التسلية والأكاديمية؟ (٢) كيف أسهم إدخال فن المحاكاة من خلال تكنولوجيا ألعاب الفيديو فى تغيير فهم الجمهور لمعنى الحرب؟

ما مضامين ربط الجيش بصناعة التسلية والأكاديمية؟ إن الحرب تتعلق فى الواقع بقتل العدو. وكما يشرح مُنَظِر الحرب الافتراضية جيمس دير ديريان فإن "ما يميز الحرب ويرفعها على الأوهام هو علاقتها الحميمة بالموت. فالجثث فى ميدان المعركة، وفى قبر الجندى المجهول، وفى الذاكرة الجماعية، وحتى على شاشة السينما، هى التى تعطى الحرب نكهتها المميزة، وهى التى تضخم الأمور الصغيرة"[٧]. وبالنسبة لدير ديريان فإن "الثقل الجسدى للحرب" هو ما لا يمكن تجنبه.

ومن خلال دمج محاكاة الحرب مع تكنولوجيا ألعاب الفيديو يتشوش الفرق بين الحرب واللعب والتسلية بشدة. ولا يتضح ذلك فى شىء أكثر منه فى حالة تطوير ألعاب الفيديو التى تقوم على إطلاق النار. إن قتل الخصم هو النشاط الرئيسى فى معظم الألعاب من هذا النوع، ومن أمثلتها لعبة الهلاك Doom التى ظهرت لأول مرة على الإنترنت عام ١٩٩٣ . كان تسويق هذه اللعبة من جانب منتجها [Id Software] رائعًا حقًا. فقد كان بمقدور المستخدمين أن يُحَملوا أو يُنَزلوا الجزئين الأولين من اللعبة مجانًا. وعندما تقع فى أسر اللعبة يكون عليك أن تدفع ثمن الأجزاء التالية. وقد تم تنزيل ١٥ مليون لعبة على مستوى العالم ، بينما بيع ١٥٠ ألفًا منها بالطريقة المباشرة(٨).

إن الإعلان عن الجزء الثانى من لعبة الهلاك (Doom II) يوجز بالفعل اتجاه الألعاب: "شياطين متعطشين للدماء خرجوا لتوهم من الجحيم. أروقة مليئة بأحشاء آدمية. والبندقية البغيضة فى يدك(٩)" وعندما تريد أن تلعب اللعبة يمكنك أن تختار من بين خمس مستويات مهارة مختلفة تبدأ بـ"أنا لا زلت صغيراً على الموت"، ثم "مرحبًا أنا لست صلبًا جدًا" ،ثم "وجه لى إصابات كثيرة" ،ثم "العنف المفرط" ،ثم "الكابوس".

لقد بيع من الجزء الثانى من لعبة الهلاك ١,٥ مليون نسخة(١٠). وقد اكتملت السلسلة بلعبة الهلاك الأخير Final Doom. وقد انعكست الواقعية الشديدة التى توفرها لعبة الهلاك فى تبنى القوات البحرية للعبة من أجل تدريب المجندين. فقد تمتعت اللعبة بعدة خصائص جعلتها جذابة للجيش.

وفى عام ١٩٩٥، وفى ظل ضغوط مالية لخفض التكاليف مع الحفاظ على جودة التدريب، لجأت القوات البحرية إلى ألعاب الفيديو والحاسب لترى إمكانية تكييفها من أجل الاستخدام العسكرى. وكما يقول الكولونيل ريك ايزنمنجر قائد فريق مكتب النمذجة والمحاكاة بالأسطول: "إن مهمتنا هى البحث عن ألعاب الحاسب التجارية التى يمكن أن تعلم المجندين الحرب كفن وعلم"(١١). وقد تمت مراجعة عشرات

الألعاب، وتقرر أن الجزء الثانى من لعبة الهلاك يمكن أن يُكَيف بسهولة لاحتياجات القوات البحرية.

وفى نسخة القوات البحرية من اللعبة تم إدخال الصور والأسلحة العسكرية على اللعبة الأصلية باستخدام صور رقمية. يلعب هذه اللعبة فريق مكون من أربعة أفراد، تماماً مثل السفينة الحقيقية أو "وحدة إطلاق النار" الحقيقية. ومقارنة بتدريب الأفراد بالذخيرة الحية، يوفر تدريب الجيش باستخدام ألعاب مثل "الهلاك ٢" وسيلة رخيصة وآمنة تقدم للمجندين ساعات من التدريب بتكلفة منخفضة نسبيًا. كما أن الذين تعاملوا مع هذه اللعبة اعتبروها فعالة جداً. وفى ذلك يؤكد الكولونيل ديفيد جروسمان أستاذ علم النفس السابق بأكاديمية ويست بوينت العسكرية أن ألعاب الفيديو من النوع الذى يقوم على إطلاق النار مثل سلسلة الهلاك "تعد محاكيات قتال murder simulators يمكن لها بمرور الوقت أن تعلم الفرد كيف ينظر إلى الشخص فى عينه وينهى حياته"(١٢).

إن تعليم الشخص كيف يقتل غيره كجزء من المحاكاة -وتحديداً من خلال استخدام ألعاب الفيديو- ربما يمثل بالفعل نشاطًا مفيداً للجيش. ومن المعقول أن نسلم لمنظمات مثل معهد التكنولوجيا الإبداعية بأن يكون هدفه إعداد ألعاب محاكاة واقعية ودقيقة قدر الإمكان (فمثلاً عندما يُقْتَل شخص يريد العاملون فى هذه المنظمات أن تكون خبرة القتل أقرب ما تكون إلى الواقع).

لكن هذه التكنولوجيا عندما تُوَزَع على صناعات التسلية والمتعة تكون لها مضامين خطيرة. فنحن فجأة جعلنا واقع الموت، أو "الأثقال الجسدية للحرب" على حد تعبير دير ديريان، تسلية أو متعة. وبذلك تشوش الخط الفاصل بين واقع الموت والخيال واللعب فجأة. ومما تجدر ملاحظته فى هذا السياق أن إريك هاريس المسؤل - مع ديلان كليبولد - عن عملية إطلاق النار بمدرسة كولومباين الثانوية فى أبريل ١٩٩٩، أنتج نسخته الخاصة من ألعاب الفيديو من نوع الهلاك. لكن نسخة هاريس كان بها لاعبان يطلقان النار وأسلحة إضافية وذخيرة غير محدودة، وكذلك ضحايا لا يمكن أن

يعودوا إلى اللعب مرة ثانية. إن تعديل هاريس للعبة أدخل الخصائص الأساسية لعملية إطلاق النار فى كولمباين التى نفذها هو وكليبولد(١٣).

فرغم أن استخدام تكنولوجيا المحاكاة وألعاب الفيديو ربما يمثل طريقة فعالة جداً لتدريب الأفراد على الحرب، فإن إتاحة هذه التكنولوجيا لصناعة التسلية يبدو شيئًا غير مسئول بالمرة، حيث تجد هذه الألعاب طريقها إلى استخدام الأطفال والمراهقين، ناهيك عن البالغين المدنيين. هل سيستخدم القتلة المستقبليين من أمثال هاريس وكليبولد ألعاب المحاكاة للتدريب على أعمالهم الوحشية؟ هل سيعد الجيش الجيل الثانى من ألعاب المحاكاة التى ستتحول فيما بعد إلى ألعاب يلعبها الأطفال؟ أم سيقصر الجيش تطويره للألعاب لتكون كما يجب: ماكينات تدريب كئيبة وإن كانت ضرورية فى فن الحرب المأساوى؟

إن القضايا التى تثيرها المناقشة السابقة ترتبط بوضوح بسؤالنا الثاني: كيف يسهم فن المحاكاة من خلال تكنولوجيا ألعاب الفيديو فى تغيير فهم الجمهور لمعنى الحرب؟ إننا نشوش واقع الحرب، وتحديداً موت البشر الآخرين. لقد ناقش دير ديريان هذه النقطة، ويؤكد أن ثمة نوع جديد من الحرب - التى يطلق عليها "الحرب الفاضلة"- يخلقه الجيش والأكاديمية وصناعة التسلية. ووفقًا لدير ديريان فإنه:

> **على خلاف الأشكال الأخرى من الحرب، تتضمن الحرب الفاضلة virtuous war قدرة فائقة على إحداث الموت وجعله يحدث بعيداً عن أعيننا وخارج أذهاننا. وهنا يكمن خطرها الأخلاقى الفادح. ففى تمثيلات المحاكاة والتطبيقات الفعلية للحرب يكمن خطر أن يتعلم الفرد كيف يقتل، لكنه لا يكون مسئولاً عن ذلك. فهو يعايش "الموت" دون نتائجه المأساوية. ففى الحرب الفاضلة الآن لا نواجه التشوش فحسب، بل أيضًا اختلاط الحرب واللعب على نفس الشاشة(١٤).**

وفى هذا السياق أتذكر بوضوح شديد مشاهدة حرب الخليج تعرض أمامى على جهاز التلفزيون فى مطلع عام ١٩٩١ ففى كل ليلة كانت القنابل والصواريخ الذكية تدك أهدافها العراقية. وكانت الصور التى ظهرت فى الموجزات العسكرية وكجزء من النشرات الإخبارية الممتدة مغرية جداً. وعلى شاشات التلفزيون ظهرت الحرب مثل السيناريوهات التى شاهدناها فى لعبة أركيد arcade game. وقد أدت هذه الصور إلى جعل حقيقة الموت جزءاً من المتعة. لقد أصبحت الحرب مسألة ضربات جراحية خاضعة لسيطرة دقيقة. فقد تم استهداف مراكز الاتصالات والتجمعات العسكرية والدبابات بشكل انتقائى، إلى جانب الأشياء والأماكن التى اعْتُقِد أنها لن تلحق ضرراً بالمدنيين العراقيين أو بقواتنا.

ومن المؤكد أن الواقع الذى تعلمناه بالفعل هو أن حرب الخليج لم تكن لعبة فيديو، وإنما حدث مأساوى تضمن الموت غير المرئى لآلاف الأشخاص. يتضح ذلك من التغطيات الإخبارية التى لم تعرف طريقها إلا مؤخراً إلى صحف ومجلات العالم، التى تعرض صوراً لدبابات مقصوفة وبقايا ممزقة لجنود عراقيين.

إن الحرب التى أعيد تعريفها من خلال استخدام تكنولوجيا المحاكاة، التى تغيرت حقيقتها بسبب اختلاط الأشياء التى تجرى عبر شاشة الحاسب أو التلفزيون، لها مضامين خطيرة على العسكريين والجمهور العام. فكما أحضر التلفزيون حرب فيتنام إلى بيوت الأمريكيين، حيث أمكن مشاهدتها والتفكير فيها، وبالتالى تغيير خاصية الحرب وطبيعتها، كذلك الحرب الفاضلة تغير معنى الحرب.

فى مقدمته للترجمة الإنجليزية لكتاب "حرب الخليج لم تحدث"، يدفع بول باثون بأنه من خلال تحويل حرب الخليج إلى حدث وسائط/إعلامى تغيرت حقيقتها جوهرياً. فقد قُدِم للجمهور محاكاة للحرب، وبالتالى:

> **فمع أن الإعلام المرئى يزعم أنه يوفر إتاحة فورية لأحداث حقيقية، فإن ما يفعله حقيقة هو أنه ينتج أحداثًا إخبارية ترمز إلى الحقيقى و"تشكل" الرأى العام الذى يؤثر بدوره على مسار**

الأحداث التالية: الحقيقية والإعلامية. ونحن كمستهلكين للإعلام الجماهيرى لا نعايش أبدًا الحدث المادى الحقيقى، ولكن فقط التغطية الإخبارية التى "تجعله لزجًا وغير ملموس"(١٥).

إن إدخال مجاز ألعاب الفيديو فى تغطية حرب الخليج، بمعنى ما، يمثل إعادة تشكيل عميقة لمجاز الحرب. فإذا كانت الحرب تتعلق بالموت، فإن تمثيلها كلعبة محاكاة - وهو شىء رقمى وليس تناظرى - يغير معنى الحرب. وبالتالى يتم توسط حقيقة الحرب والموت والرعب والعنف. إننا يمكن أن نقبل فكرة بوديلارد بأنه "عند سرعة معينة، سرعة الضوء، تفقد ظلك. وعند سرعة معينة، سرعة المعلومات، تفقد الأشياء معناها"(١٦). فيتحول وجه الحرب "مثل عملية جراحية" تغير وتعدل شبح الموت"(١٧).

يذهب جيمس دير ديريان إلى أن الحرب الفاضلة لها "قدرة فائقة على تغيير الموت، وإبعاده عن العين والعقل"(١٨). وهو لذلك قلق من "أننا نتعلم كيف نقتل، دون أن نتحمل المسئولية عن القتل"(١٩). لقد شاهدنا مبادئ الحرب الفاضلة مطبقة فى حرب الخليج وفى كوسوفو، حيث أثرت المحاكاة بقوة على التخطيط وعلى الخيال العنيف لأريك هاريس وديلان كليبولد فى حادث إطلاق النار بمدرسة كولومباين فى أبريل ١٩٩٩.

فى رواية أورسون سكوت كارد Orson Scott Card الرائعة "لعبة إندر وظل إندر" Ender's Game and Ender's Shadow(٢٠)، يوضع أطفال المستقبل فى محاكاة يعتقدون فيها أنهم يُدَرَّبون على أداء لعبة، بينما هم فى الحقيقة يخوضون حربًا. ومأساة الرواية - وفى نفس الوقت قوة القصة - هى أننا نمارس الفعل دون أن نعرف بالكامل ماذا نفعل. وأنا أكاد أجزم بأن نفس المأساة يمكن أن تنتج عن استخدام الجيش لألعاب الفيديو وتعاونه مع صناعة التسلية ومع الأكاديمية. فعن طريق تحويل الحرب إلى لعبة، نقوم بتشويش معنى الحرب. فنجعل من السهل على

الناس أن يشاركو شخصيًا فى فعل قتل الآخرين، وأن يقبلوا صور الحرب على شاشات التلفزيون. كما نجعل من السهل أيضًا تقبل واستدماج هذه الصور فى خبرتنا وحياتنا اليومية.

إن مجرد قبول محاكاة الحرب وأنواع الأنشطة الأخرى التى يرعاها معهد التكنولوجيا الابتكارية، يعنى أننا لا نسمح فقط بتخفيف معنى الموت، بل نوسع أيضًا دور الجيش فى صنع أنشطة وقت الفراغ والتعلم الذى يحدث من خلال عملية اللعب، حتى فى لعب أشياء بريئة ظاهريًا مثل ألعاب الفيديو. ونتيجة لذلك فإننا نرى تجليات التأثيرات الاجتماعية والثقافية تنبثق، وهى تجليات تُرَجِع صدى تحذير الرئيس أيزنهاور منذ جيل حول التأثير الممكن للجيش على ثقافتنا.

وختامًا، فى ضوء الموضوعات التى عولجت فى الفصول الأخرى فى هذا الكتاب، وكذلك الحجج الخاصة بالفصل الحالى، أجد أنه يجب علينا أن نتأمل حجة دير ديريان بأن "تكتل مؤسسة عسكرية ضخمة وصناعة أسلحة ضخمة" كجزء من تطور نظام "الحرب الفاضلة" يعد:

> **جديدًا فى التجربة الأمريكية. فتأثيره الإجمالى -الاقتصادى والسياسى وحتى الروحى - يمكن أن يُحَس فى كل مدينة وكل مجلس محلى وفى كل مكتب للحكومة الفيدرالية. ونحن فى مجالس الحكومة لا بد أن نحتمى من التأثير غير المبرر، سواء المقصود أو غير المقصود، للمجمع الصناعى العسكرى. فإمكانية الظهور الكارثى للقوة فى غير موضعها قائم وسيظل قائمًا ... إننا نريد للديمقراطية أن تبقى لكل الأجيال القادمة، لا أن تكون الشبح المفلس فى الغد(٢١).**

إن محاكاة الحرب، أى لَعِب الحرب على سبيل التسلية والمتعة، يشوش حقيقة الحرب ويهدد سلامة ديمقراطيتنا. ونحن نحتاج إلى أن نتساءل حول ارتباط الجيش

بصناعات التسلية والمتعة وبالأكاديمية. إن هذه القضية ليست تافهة، وإنما تعد تأملاً عميقًا لطريقة إعادة تعريف معنى الحرب من جانب ثقافة المحاكاة وإحلال الواقعى محل الواقعى المفرط hyperreal.

الهوامش

(1) Quoted in James Der Derian, Virtuous War: Mapping the Military-Industrial-Media-Entertainment Network (Boulder, Colo.: Westview Press, 2001), viii.

(2) Jean Baudrillard, Simulations, trans. Paul Foos, Paul Patton, and Philip Beitchman (New York: Semiotext(e), 1983), 2.

(3) Der Derian, Virtuous War, 89.

(4) Eugene F. Provenzo, Jr., Video Kids: Making Sense of Nintendo (Cambridge: Harvard University Press, 1991) 133.

(5) J. C. Herz, Joystick Nation: How Videogames Ate Our Quarters, Won Our Hearts and Rewired Our Minds (Boston: Little Brown, 1997), 207-208.

(6) Jean Baudrillard, The Gulf War Did Not Take Place, trans, and with an introduction by Paul Patton (Bloomington: Indiana University Press, 1995).

(7) Der Derian, Virtuous War, 166.

(8) Herz, Joystick Nation, 84.

(9) Ibid., 86.

(10) Id Software web site: http://www.idsoftware.com.

(11) Rob Riddell, "Doom Goes to War," Wired 5, no. 4 (April 1997). Available at www.wired.com/wired/archive.

(12) Deborah Claymon, "Video-Game Industry Seeks to Deflect Blame for Violence," Miami Herald (July 2, 1999): 3E; and David Grossman and Gloria DeGaetano, Stop Teaching Our Kids to Kill: A Call to Action Against TV, Movie & Video Game Violence (New York: Crown Publishers, 1999).

(13) Craig A. Anderson and Brad J. Bushman, "Effects of Violent Video Games on Aggressive Behavior, Aggressive Cognition, Aggressive Affect, Physiological Arousal, and Prosocial Behavior: A Meta-Analytic Review of the Scientific Literature," Psychological Science 12, no. 5 (September 2001): 353.

(14) Der Derian, Virtuous War, xvi.

(15) Baudrillard, 1995, 10.

(16) Ibid., 48.

(17) Ibid., 28.

(18) Der Derian, Virtuous War, xvi.

(19) Ibid.

(20) Orson Scott Card, Ender's Shadow (New York: Tom Doherty Associates, 1985); Orson Scott Card, Ender's Shadow (New York: Tom Doherty Associates, 1999).

(21) Der Derian, Virtuous War, p. viii.

الفصل السابع عشر

كنا جنودًا

إعادة كتابة الذاكرة ونظام الشركات

وليام رينولدز وديفيد غاربارد(*)

إن الحركة المناهضة للحرب التى نتجت عن حرب أمريكا العدوانية الاستعمارية ضد شعب فيتنام فرضت قيودًا جديدة على قدرة الحكومة على بدء تدخلات عسكرية مباشرة ضد أى أمة أو شعب يتجرأ على رفض دوره المحدد فى الاقتصاد العالمى. ففيما قبل فيتنام كانت أمثال هذه التدخلات تحدث بشكل مكشوف، وذلك لأن غالبية الشعب كانت تُصوَّر على أنها تؤيد إجراءات الحكومة كجزء من "الحرب العادلة". لكن فيتنام غيرت كل ذلك، حيث أحدثت موجة واسعة من المعارضة العامة ضد استخدام

(*) وليام رينولدز William M. Reynolds أستاذ دراسات المناهج بقسم المناهج والأصول والبحوث بجامعة جنوب جورجيا. من الكتب التى ألفها وشارك فى تحريرها وتأليفها Reading Curriculum Theory: The Development of a New Hermeneutic (1989), Understanding Curriculum as a Phenomenological and Deconstructed Text (1992), Inside/Out: Contemporary Critical Perspectives in Education (1994), Understanding Curriculum: An Introduction to the Study of Historical and Contemporary Curriculum Discourses (1995) and Curriculum: A River Runs Through It (Peter Lang, forthcoming). Expanding Curriculum Theory: Dis/positions and Lines of Flight (Lawrence Erlbaum, forthcoming). تدور اهتماماته الحالية حول فلسفة ديلوزى ودراسات الأفلام وارتباطاتها بدراسات المنهج.

القوة العسكرية لأى شىء غير الأغراض الدفاعية الواضحة. هذا الشعور القوى المناهض للحرب ظهر إلى السطح حتى فى النقاش حول الإنفاق العسكرى، وكان بذلك يشكل تهديدًا خطيرًا لنظام التخطيط الاقتصادى لوزارة الدفاع. ومنذ نهاية الحرب العالمية الثانية والدولة تعتمد على تجارة الخوف والدعاية المناهضة للشيوعية فى أثناء الحرب الباردة لتبرير إنفاق أموال عامة هائلة على بحوث وتطوير التكنولوجيا المتطورة. وفى أعقاب فيتنام حتى الخوف من "الشيوعيين الملحدين" لم يستطع أن يضع حدًا للمد المتنامى للارتياب العام فى دور الحكومة الأمريكية وجيشها فى الشئون العالمية. وقد غدت هذه المعارضة العامة للعسكرة الصريحة تُعْرَف باسم "عقدة فيتنام". وحيث أن "هذه الكوابح الضعيفة ضد استخدام القوة العسكرية"[١] يمكن أن تتداخل بشدة مع قدرة الدولة على الدفاع عن مصالح الشركات فى الخارج ورعايتها، فقد بذلت جهودًا كبيرة لعلاج الجمهور من هذه الحالة، أو على الأقل لمساعدة الحكومة فى الالتفاف حولها.

كانت إدارة ريجان، على سبيل المثال، تفهم هذا الموقف جيدًا. وقد كانت هذه الإدارة محبطة بشكل خاص من القيود التى كان هذا الموقف يفرضها على قدرتها على الدخول فى تدخلات عسكرية مباشرة فى أمريكا الوسطى فى أوائل الثمانينات. وبعد عقدة فيتنام، دخل فريق ريجان فى مستويات غير مسبوقة من العمليات الصريحة فى دول مثل نيكاراجوا، وقد كان الكونجرس قد حظر المعونات الأمريكية عن تنظيم الكونترا Contras تلك الأقسام من الجيش التى أيدت الديكتاتور السابق الجنرال اناستاسيو ساموزا. وضمن جهوده لحث مزيدًا من التأييد الشعبى للسياسات التى كانت ترعاها هذه التدخلات الصريحة، أنشأ مجلس الأمن القومى بإدارة ريجان مكتب الدبلوماسية الشعبية Office for Public Diplomacy وعين به أعضاءً من مجموعة قيادة العمليات النفسية الرابعة PSYOPS بالجيش الأمريكى. هذا المكتب الذى ترأسه أتو ريخ Otto Reich كوبى المولد[٢] كانت "مهمته الرسمية تتمثل فى إلهاب المخاوف من نيكاراجوا وحكومة الساندينستا اليسارية بها التى وصلت إلى السلطة عن طريق

الإطاحة بدكتاتور فاسد تدعمه الولايات المتحدة (ساموزا)[٣]. وعلى نحو أكثر تحديداً بث مكتب الدبلوماسية الشعبية قصصًا في الإعلام الأمريكي تؤيد سياسيات إدارة ريجان في أمريكا الوسطى في الثمانينات. وفيما بعد وصف ريخ مكتب الدبلوماسية الشعبية بأنه "عملية حربية سيكولوجية واسعة من النوع الذي ينفذه الجيش للتأثير على الناس في أرض معادية". تلك، إذن، هي رؤية الدولة لتلك القطاعات من الشعب الأمريكي التي لا تزال متأثرة بعقدة فيتنام.

كان من بين الأكاذيب التي روجها ريخ ومكتب الدبلوماسية الشعبية تلك "الأخبار" التي سُرِبَت إلى الصحافة حول وصول مقاتلات ميج سوفيتية وأسلحة كيماوية إلى نيكاراجوا ,وكذلك اتهامات كاذبة حول تورط أعضاء كبار في حكومة نيكاراجوا في تجارة المخدرات. وقد كان هذا الاتهام الأخير مثير للسخرية بوجه خاص، ذلك أن وكالة الاستخبارات المركزية CIA نفسها كانت متورطة في تجارة المخدرات بغرض المساعدة في تمويل متمردي الكونترا (الذين منحهم ريخ ومكتب الدبلوماسية الشعبية وريجان نفسه لقب "مقاتلي الحرية") وعملياتهم العسكرية. ومن خلال الحفاظ على مستويات الدعاية التي كانت سائدة في الحرب الباردة، كان هدف هذه الجهود في مجال "الدبلوماسية الداخلية" هو التغلب على عقدة فيتنام لدى الشعب وحث التأييد لسياسات إدارة ريجان في أمريكا الوسطى. ومن أجل ذلك حاولوا أن يقنعوا الشعب الأمريكي بأن جماعات الساندينستا والجماعات الأخرى في المنطقة التي كانت تهدد بزعزعة "المناخ المواتي للمشروعات" في المنطقة تمثل "خطراً واضحاً وفورياً" على أمن الولايات المتحدة. أما التغطية الصحفية التي كانت تتعارض مع هذه الرسالة، وكانت بالتالي تعزز عقدة فيتنام، فقد استدعت العقاب من جانب مكتب الدبلوماسية الشعبية، ذلك لأن ريخ لم يتورع حتى عن استخدام منصبة لممارسة البلطجة على الصحافة حتى لا تقص القصة "الصحيحة". ففي أبريل ١٩٨٤ التقى ريخ مع مديري شبكة CBS لكي يوبخهم على التغطية غير الوطنية للأحداث في نيكاراجوا من جانب القسم الإخباري بالشبكة خلال هذا الشهر. وفعل الشيء نفسه مع مراسلي ومحرري الإذاعة العامة

القومية فى أكتوبر من نفس العام. وفى العام التالى روج ريخ ومكتبه قصة تتهم المراسلين الأمريكيين بإنتاج تغطية مؤيدة لحكومة الساندينستا فى نيكاراجوا فى مقابل تسهيلات جنسية من عاهرات نكيارجويات(٤).

ومع أن مكتب الدبلوماسية الشعبية أُغْلِق بعد جلسات استماع حول فضيحة إيران لأسباب واضحة، فقد أعادت إدارة الرئيس جورج بوش البنية والوظيفة الأساسيتين لهذه المجموعة. فباستخدام ١١ سبتمبر كذريعة لتأكيد الحاجة إلى منظمة من هذا النوع (الحاجة إلى الدعاية والترويج لمنظور الحكومة الأمريكية حول الحرب على الإرهاب)، أنشأ فريق بوش ما أطلقوا عليه مكتب التأثير الاستراتيجي Office of Strategic Influence. ورغم تغير اسم المنظمة، فإن نفس الأشخاص الذين كانوا يديرون مكتب الدبلوماسية الشعبية هم الذين يديرون الآن مكتب التأثير الإستراتيجي: مجموعة قيادة العمليات النفسية الرابعة بالجيش الأمريكي. والمهمة الأساسية لهؤلاء هى، بالطبع، أن يضمنوا أن كل الوسائط الإخبارية على امتداد الولايات المتحدة والعالم تقول القصة الصحيحة حول الحرب على الإرهاب، بما فى ذلك تبرير بوش للحرب على العراق. حتى إن أتو ريخ أُعِيد إلى العمل، حيث اعتمد بوش وظيفته الحالية كوكيل وزارة فى أثناء عطلة الكونجرس ليتجنب جلسة استماع ممكنة قد تسبب له بعض الحرج. وفى نفس الوقت يترأس جون بويندكستر Poindexter مكتب الوعى المعلوماتى Information Awareness Office بإدارة بوش، وهو شخصية ظل أخرى من فضيحة إيران. وتشرف شاروليت بيرز Charlotte Beers على وكالة أخرى ذات صلة، وهى مكتب الدبلوماسية الشعبية والشئون العامة ,بينما يتعاقد جون ريندون وشركة العلاقات العامة التابعة له – مجموعة ريندون – بمائة ألف دولار شهرياً لمتابعة التقارير الإخبارية الخارجية وتقديم النصح حول الاستراتيجية الإعلامية.

كل ذلك يوفر معلومات تمهيدية ضرورية لفهم مغزى اجتماع كارل روف Karl Rove(٥) مع كبار مسئولى هوليود فى أعقاب ١١ سبتمبر فى فندق بيننزولا الأنيق على مرتفعات بيفرلى فى السابع عشر من أكتوبر ٢٠٠١. ومما له أهمية خاصة فى ضوء

تحليل هذا الفصل لفيلم "كنا جنوداً" أن شيرى لانسنج Sherry Lansing رئيسة قسم الأفلام بشركة باراماونت للأفلام Paramount Pictures وجوناثان دوجلن Jonathan Dolgen رئيس مجموعة فياكوم Viacom للتسلية هما اللذان استضافا هذا اللقاء. ورغم أن الإعلام قلل من أهمية اللقاء ووصفه بغير المثمر، فقد أعطى هذا اللقاء روف الفرصة لتجنيد هوليود وكسبها فى صف الحرب على الإرهاب. وكما أورد مارك كوبر فى صحيفة الأمة، فإن روف أكد على:

أنه لا ينوى أن يصدر أوامر عسكرية لهوليود فـ"الصناعة سوف تقرر ما سوف تفعله ومتى ستفعله"، كما قال روف عندما خرج من اجتماع صباح يوم الأحد. وبدلًا من ذلك أطلع روف مديرى هوليود على رسالة مكونة من سبع نقاط قال أن البيت الأبيض يريد التأكيد عليها.

١ - أن هذه الحرب على الإرهاب وليس الإسلام.

٢ - أن الأمريكيين يجب أن يُطَلَّبوا للخدمة الوطنية.

٣ - أن الأمريكيين يجب أن يؤيدوا الجيش

٤ - أنها حرب عالمية تحتاج إلى استجابة عالمية

٥ - أنها حرب ضد الشر

٦ - أنه يجب طمأنة الأطفال الأمريكيين

٧ - أنه بدلًا من الدعاية (البروباجندا)، يحتاج المجهود الحربى إلى أن تقص هوليود سردية مؤثرة. هذا ما قاله روف ذا الوجه المستقيم بدقة وأمانة(٦).

ببساطة طلبت إدارة بوش تعاون هوليود فى حربها المتواصلة ضد عقدة فيتنام، على أمل أن الإنتاج المستقبلى لهوليود سوف يقدم كل الصور الصحيحة ويرسل كل الرسائل الصحيحة إلى الجمهور حول أى تدخلات أو ضربات عسكرية مستقبلية قد تنفذها الدولة فى حربها اللانهائية ضد الإرهاب. معنى ذلك أن لقاء روف مع كبار

مديرى صناعة السينما والتسلية يجب النظر إليه باعتباره جهد من جانب الإدارة الأمريكية لتوجيه هوليود إلى الطريقة التى يجب أن تبدأ التفكير بها حول تمثيل (تقديم) المستقبل قبل أن يحدث. وتمشيًا مع نقاط روف السبعة، فإن هذه التمثيلات يجب أن تتجنب إثارة أى معارضة شعبية للسياسة الخارجية والعسكرية الأمريكية التى يمكن أن تقود إلى العودة إلى الارتماء بعمق فى عقدة فيتنام. وبذلك فبينما بدأت إدارة بوش فى تشكيل كيف سيتم تمثيل أو تصوير المستقبل، بدأت هوليود بالفعل فى إعادة كتابة الماضى.

إعادة كتابة/إعادة بناء الذاكرة

كنا جنودًا

أن الذاكرة لا تُمْحَى، وإنما يُعاد بنائها(٧).

إن الحياة الحقيقية أصبح من الصعب تمييزها عن السينما(٨).

ثمة أهمية كبيرة لأن نحلل الطرق التى من خلالها تعاد كتابة وبناء الذاكرة فيما بعد هجمات ١١ سبتمبر الإرهابية عام ٢٠٠١. إن أفلام ما بعد ١١ سبتمبر مثل "كنا جنودًا" We Were Soldiers و"الدمار المصاحب" Collateral Damage وغيرها ساعدت فى بلورة فكرة عسكرية للبطولة الفردية وحنينًا إلى النصر، وهى بذلك تعيد كتابة الذاكرة بطرق تؤكد المصالح المادية لنظام الشركات والدولة التى تحارب من أجل تعظيمها. فنظام الشركات، من خلال شركات سينمائية اندماجية مختلفة، ينتج أفلامًا تعيد كتابة التاريخ.

إن شركة باراماونت بيكتشرز Paramount Pictures التى أنتجت فيلم "كنا جنودًا" واحدة من الشركات الأربع الكبار فى مجال الإنتاج والتوزيع السينمائى. وفى عام ١٩٩٣ قامت شركة فياكوم الدولية (شركة تسويق منزلية) بشراء برامونت. وبذلك أصبحت الشركة تملك باراماونت بيكتشرز وسبلينج فيلمز Spelling Films

وباراماونت هوم فيدو Paramount Home Video وشركات أخرى كثيرة، وتشترك فى ملكية شركات أخرى فى مجال الإنتاج والتوزيع السينمائى، وفى مجال النشر تمتلك شركة سيمون وسكستر Simon and Schuster وماكميلان، وفى مجال شركات التجزئة والتسلية تمتلك بلوكبستر Blockbuster ومتنزهات باراماونت، وسلسلة من المسارح والمطاعم. كما تمتلك أيضًا شركات متنوعة مثل فياكوم للمنتجات الاستهلاكية (باراماونت للعب الأطفال والقمصان والألعاب) ومحلات فياكوم للتسلية، وغير ذلك. هذه القائمة توضح أن باراماونت بيكتشرز شركة عملاقة فى صناعة السينما وأن الأفلام التى تنتج فى هذه الفترة التاريخية تخضع لمفاوضات وتعبئة وتوزيع مكثف.

ومما يمثل أهمية خاصة لنا هنا طريقة استخدام أفلام حرب فيتنام التى أنتجتها الشركات فى مجتمع ما بعد ١١ سبتمبر من أجل إعادة كتابة التاريخ وتوصيل جوانب معينة للبطولة والعسكرة لكل من الشباب والبالغين بغرض تنمية الميول والاتجاهات الضرورية من أجل الحرب الطويلة على الإرهاب التى قد تتضمن الحرب على الدول "المارقة". من أمثلة هذه الأفلام فيلم "كنا جنودًا" الذى عُرِض فى نفس اليوم الذى بدأت فيه عملية أناكوندا فى أفغانستان. وقد حلل هنرى جيرو بطريقة مثيرة الأفلام حول فيتنام وأظهر جوانب معينة للطرق التى من خلالها عملت هذه الأفلام على إعادة كتابة وتحويل ذاتيتنا فى عهد ريجان(٩).

> **فى أوج عهد ريجان أعادت هوليود كتابة حرب فيتنام فى صورة حرب رجولة وكبرياء مطلقة العنان. فقد عمدت أفلام مثل "بسالة نادرة" Uncommon Valor (١٩٨٣) و"مفقود فى العملية ٢" Missing in Action 2 و"البداية" The Beginning(١٩٨٥) "ورامبو الدم الأول، الجزء الثانى" Rambo: First Blood, Part II(١٩٨٥) و"فندق هانوى" The Hanoi Hilton (١٩٨٧) (، عمدت إلى استخدام فيتنام كمنصة للاحتفال بعمليات الإنقاذ البطولية.**

وقد استُبعِدت الحرب الكيماوية والمعسكرات الإجبارية وحرق القرى من جانب الجيش الأمريكى من التاريخ، عندما اخترعت هوليود الرجال المصممين على إنقاذ ضحايا فيتنام الحقيقيين من الفيتناميين الشياطين(١٠).

ويؤكد جيرو أن ما يُقَدَّم فى عملية إعادة كتابة التاريخ التى يقوم بها هؤلاء هو عملية بناء ريجانية [نسبة لرونالد ريجان] الصورة للذكورية تتفق مع صورة محافظة للوطنية والهوية القومية. وقد تغير الزمن، وأصبح لدينا رئيسًا "محافظًا متحمسًا" هو جورج بوش. وفى زمن "النزعة المحافظة المتحمسة" والقيم الأسرية والتعليم القائم على الإيمان والحرب طويلة المدى على الإرهاب، لا بد للأفلام من نوعية "كنا جنودًا" أن تبدأ أولًا ببناء أفكار مختلفة عن المحاربين. فالجنود فى هذا الفيلم من أفلام فيتنام ليسوا الجنود الهيبز المدمنين الذين كانت تقدمهم أفلام السبعينات. وليسوا هذا النوع من القادة المسعورين من أمثال شخصيات فيلم "الرؤيا الآن" Apocalypse Now، ولا جنود فيلم "الوحدة الجوية" Air Calvary الذين يحبون رائحة النابالم فى الصباح ويدندنون بالموسيقى وهم ينفذون هجماتهم. وليسوا حتى من نوعية رامبو Rambo الصلب، ذلك النوع من ماكينات القتل الذى ميز الثمانينات والتسعينات. إن جندى حرب فيتنام الجديد جندى طيب، رب أسرة، بطل من أبطال الحياة اليومية، يحارب من أجل بلده. هذا النمط تعززه فكرة محافظة مؤداها أن فيتنام لم تكن مستنقعًا من البداية، ولم تكن عدوانًا. لقد كانت حربًا خاضها رجال نبلاء وأبطال. ولا تزال هناك محاولات لإعادة كتابة حرب فيتنام، لكن لأهداف مختلفة. ففى الوقت الراهن تؤدى تصورات الجنود الطيبين وتصوير الأفلام لهم إلى بناء أفكار تتفق وتنسجم مع الحرب على الإرهاب. تسمح تلك الصور بحرب طويلة ممتدة وقبول ضحايا كثيرين وتوسيع الحرب إلى مناطق ودول أخرى لاقتلاع الشر. فوفقًا للسردية المحافظة تم قهر إمبراطورية الشر فى زمن ريجان – الشيوعية – وحل محلها الآن شر أكثر خداعًا ومكرًا وحركية. وهذا سبب وجيه للتجول والانتقال هنا وهناك. إننا يجب، كما فى الشعار الأول للحرب، أن

نسعى إلى "العدالة المطلقة". وفى أحد المشاهد الأخيرة فى الفيلم نرى علمًا أمريكيًا صغيرًا مزقته المعركة لكنه لا يزال يرفرف. إن الرموز قوية، ولذلك لا تغيب عن الفيلم الأعلام الأمريكية من أجل البيئة الحالية. فالأفلام يمكن أن تساعد فى تعبئة الميول اللازمة للحرب عن طريق إعادة كتابة الحروب التى حدثت من قبل والصور المصاحبة لها. وما سبق عرض الفيلم من ترويج وبرامج حوارية على التلفزيون تذكرنا بأن صدق هذا الفيلم وحقيقته الساطعة مستمدان من حقيقة أنه يقوم على معركة حقيقية من معارك فيتنام وكتاب "كنا جنودًا وصغارًا: لا درانج المعركة التى غيرت الحرب فى فيتنام" We Were Soldiers Once and Young: la Drang, The Battle that Changed the War in Vietnam الذى كتبه هارولد مور وجوزيف جالاوى. وشأنها شأن الأفلام الوثائقية الواقعية التى تحجب الدوافع الحقيقية وراء إنتاجها، تحجب مزاعم الواقعية هنا عملية إعادة كتابة الذاكرة التى يمارسها العمل الثقافى.

ثمة قضايا كثيرة تنبثق عن فيلم كنا جنودًا ,وفى هذا الفصل سوف نركز على قضيتين فقط: (١) الانتقال الذى تم فى هذا الفيلم من المنقذ البطل الذكر الوحيد إلى الأب/الجندى رب الأسرة (٢) تقديم البطولة الفردية بوصفها طريقة لتحقيق النصر العسكرى أيًا كان الثمن ,وهى رؤية تتفق مع فكرة نظام الشركات عن نجاح الفرد والتغلب على المحن فرديًا.

يتعامل الفيلم مع الظروف المحيطة بحادثة وقعت فى نوفمبر عام ١٩٦٥، حيث حوصر ٤٥٠ جنديًا أمريكيًا من الكتيبة الأولى بالوحدة السابعة فى منطقة صغيرة فى وادى لا درانغ من جانب ألفى جندى فيتنامى شمالى. يعرض الفيلم الأعمال البطولية للجنود وقائدهم الكولونيل هارولد مور. ويصور الفيلم الجنود الفيتناميين الشماليين بوصفهم بشر أكثر من أفلام فيتنام السابقة، لكن ذلك ليس الهدف الرئيسى للفيلم. ورغم أن الفيلم مثير عاطفيًا، فإن الجوانب المهمة هى تلك التى تعيد كتابة هويتنا من أجل عصر ما بعد ١١ سبتمبر.

لقد ولت أيام رامبو ١ (١٩٨٢) ورامبو ٢ (١٩٨٥) ورامبو ٣ (١٩٨٨). إن "صورة سلفستر ستالون فى دور محارب فيتنام جون رامبو الذى يطلق الصواريخ وهو يستعرض عضلاته" أصبحت أيقونة للذكورية الأمريكية فى منتصف الثمانينات[١١]. لقد ترك هذا البطل مكانه فى الفترة الحالية لبطل أكثر عاطفية، مزيج من الشخص الحقيقى وأبطال الأفلام. ونحن نشاهد ذلك حتى فى أفلام الحركة مثل فيلم "التدمير المصاحب" Collateral Damage الذى يلعب فيه أرنولد شوارزنجر دور رب الأسرة/المحارب الذى يريد الثأر من الإرهابيين الكولومبيين على قتل زوجته وابنه الصغير. هنا يحارب البطل/الأب الفردى كفرد. لكننا عندما ننظر إلى شخصية مور فى فيلم "كنا جنودًا" لا نجده مخلوق مفتول العضلات مثل جون رامبو، بل رب أسرة. ومور عنده خمسة أبناء وزوجة مخلصة. وهذا المكون الأساسى لقيم أسر الطبقة الوسطى المحافظة حاضر فى الفيلم بطريقة يشيع فيها الحنين إلى الماضى. ففى أحد مشاهد الفيلم يدخل مور إلى أحد غرف الأطفال وهم يلعبون على لعبة الحصان ويقول لهم إن وقت النوم حان. لكن قبل أن يتوجه الأطفال إلى أسرتهم، كان عليهم أن يتلوا صلواتهم. ولحل صراع ممكن بين كاثوليكية مور وميثودية Methodism زوجته تقترح الزوجة أن يصليا من أجل الأسرة. وهنا أيضًا تُعَزز قيم الأسرة.

إن مور رجل عسكرى بكل معنى الكلمة ,لكنه أيضًا الأب/الزوج الطيب. وهذه الخاصية تلازمه كقائد عسكرى. ففى أحد مشاهد الفيلم يراقب مور ضباطه الصغار وهم يتدربون، وهو يعبر عن قناعة بأن الضابط الصغير العاطفى، ذلك الضابط الذى يميل على أقدام جنوده المجروحين بحنو ,سيكون ضابطًا بارزًا، وأن الضابط القوى الذى "يريد أن يكون بطلاً" لا يرقى إلى أن يكون ضابطًا عطوفًا. وذلك تحول عن صيغة جون رامبو. فمور الذى لا يفارقه نزوعه الأسرى، يصف لرجاله أنهم، كشأن الأمريكيين الأصليين، يجب أن يحاربوا كأسرة، وأن ضباطه وجنوده لا بد أن يتعلموا كيف يعتنوا ببعضهم البعض.

مور: "عندما يحدث ذلك فإنه سيكون كل شيء بالنسبة لنا.

وقد تكررت هذه العاطفة طوال السنة التى تلت ١١ سبتمبر فى كثير من السياقات، وحتى على القمصان الشبابية المكتوب عليها "أننا نقف متحدين United We Stand.

ثمة جانب أخير لصورة الأب/الجندى يظهر عندما يكون الضابط الشاب جاك جاجين فى الكنيسة ويدخل مور لزيارته بمناسبة عيد ميلاد ابنته. يدور بينهم حديث حول الأسرة والجيش.

جاجين: ما رأيك فى كون الواحد منا جندى وأب فى ذات الوقت.

مور: أعتقد أن النجاح فى واحدة يؤدى إلى النجاح فى الأخرى.

ثم يسأل مور جاجين عن رأيه فيرد الأخير بأنه هو وزوجته باربرا أمضوا سنة فى أفريقيا يبنون مدرسة لأطفال تيتموا على يد أمير حرب لا يحب قبيلتهم يعيش على الحدود. ويقول جاجين أنه متأكد من أن الله لن يتركه وتمنى من الله أن يحمى الأيتام. وهنا يقترح مور أن يدعوا الله ليحميهم. وأخذ مور يصلى:

> **يا أبانا الذى فى السماء، قبل أن ندخل المعركة سيتجه إليك كل جندى منا ,كلُ بطريقته. وأعداؤنا أيضًا، وفقا لفهمهم، يطلبون حمايتك ونصرك. ولذلك فإننا ننحنى أمام حكمتك المطلقة ونقدم صلاتنا على أفضل ما نستطيع. أدعو إليك أن ترعى الرجال من أمثال جاك جاجين الذين أقودهم فى المعركة وأن تستخدمنى كيد لك فى هذه الحرب الجهنمية لرعايتهم، خاصة إذا كانوا رجالًا من نوع الرجل الذى يقف بجوارى يستحقون مستقبلًا فى رحمتك وإرادتك الخيرة. آمين. آه نعم، ثمة شئ آخر يا إلهى العزيز حول أعدائنا: تجاهل صلاتهم الوثنية وأعنا فى قذف هؤلاء الملاعين إلى الجحيم، آمين مرة ثانية.**

ليس ذلك هو نوع الجنود الذى شاهدناه فى أفلام مثل "الفصيلة" Platoon و"الرؤيا الآن" Apocalypse Now . إنهم أرباب الأسر فى أفلام فيتنام فيما بعد ١١ سبتمبر كما أعيدت كتابتهم ,إنهم أبطال ينسجمون أكثر مع الحاجة إلى هوية خاصة من أجل الحرب على الإرهاب، وهى أجندة عسكرية شركاتية محافظة جديدة ,تعكس كل قيم والتزامات القيم الأسرية والمعتقدات الدينية والاتجاه القوى نحو الأعداء.

وقبل أن يغادر مور إلى فيتنام، يقضى بعض الوقت مع ابنته فى الحديث حول الحرب. تسأل الابنة والدها ما هى الحرب؟ فيرد مور بأنها عندما يحاول أناس من دولة أخرى أن يحصدوا أرواح أناسًا آخرين ,عندئذ ينهض أناس مثله يعرفون أن واجبهم هو أن يوقفوا هؤلاء. وهنا تتحول ذكرياتنا حول السنوات الأولى من حرب فيتنام إلى صورة ملائمة أكثر لعصر الإرهاب.

ثمة وجه آخر لقيم الأسرة هو أن تعمل الزوجات فى البيت فى الوقت الذى يخوض الرجال فيه الحرب. وبعد بدء المعركة تصل التلغرافات بالفاكس إلى منازل أسر الجنود معلنة الوفيات بين الضباط. وتقرر زوجة مور وجاجين أن توصلا هذه التلغرافات معًا إلى أسر الرجال الذين قتلوا فى المعارك,وهى لحظة مؤثرة فى الفيلم وتتفق مع تعزيز قيم الأسرة والأفعال الفردية الشجاعة التى سأتحول إليها فيما يلى.

إن البطولة الفردية التى تتفق مع النزعة الفردية لرأسمالية الشركات التنافسية تُقَدَّم بطريقة مختلفة فى فيلم "كنا جنودًا". إن الفيلم وهو يصور هذه القصة يشكل ويعيد كتابة ذكريات أولئك الذين عاشوا فى فترة فيتنام، ويبنى ذكريات الجيل الأصغر الذى لم يعاصر فيتنام. والفيلم ملىء بالأعمال والتضحيات البطولية الفردية. ومن المؤكد أن أعمالًا بطولية من هذا النوع حدثت فى حرب فيتنام، لكن مثل المراحل الأخرى لأفلام حرب فيتنام تستبعد هذه الأفلام فحص السياق السياسى للحرب الباردة وتاريخ العدوان الامبريالى الأمريكى. وهو يبين أن البسالة والبراعة الفرديتين مهمتان للغاية من أجل النصر بغض النظر عن الثمن. ويتحدث الرقيب أول بلمبلى فى

النهاية مع أحد الجنود الصغار، بعد أن أمضى يومًا وليلة تحت حصار العدو وتحت إطلاق نار متواصل، ويكشف أن البطولة الفردية هى التى تصنع الجندى الجيد. لقد قُتِل الضابط الحنون جاجين وهو يحاول ببسالة أن يجلى كل الجنود، حيث أُصيب إصابة قاتلة وهو يحاول أن يحمل رفيقة المصاب من أرض المعركة حتى لا يموت. وتنجح القلة الشجاعة الباقية فى النهاية، من خلال كثير من حالات الشجاعة الفردية، فى أن تقلب ميزان المعركة عن طريق الهجوم الكاسح. إن النزعة الفردية الفجة، ذلك المطلب القديم والباقى للمجتمع العسكرى الشركاتى الرأسمالى، يعاد بنائها أيضًا فى هذا الفيلم. إنها الطريقة التى تُمَكِن من النجاح فى الشركات والطريقة التى تُمَكِن من النجاح فى ميدان المعركة.

إعادة بناء الذاكرة:

> **إن السبب فى تلاشى الخبرة هو أن الأشياء، فى ظل قانون الوظيفية البحتة، تنتحل شكلًا يقيد التواصل معها إلا من خلال الفعل، ولا تتحمل فائض، سواء فى حرية السلوك أو فى استقلالية الأشياء، وهو ما يبقى ويستمر باعتباره جوهر الخبرة. لأنه لا يُستَهلك فى لحظة الفعل[١٢].**

أن الأفلام من نوع "كنا جنودًا" تحتاج لأن تُحَلَل لأنها توفر إمكانية لقراءة نقدية للطرق التى من خلالها تقوم أفلام الحرب بإخفاء المبادئ الأيديولوجية والهيمنة المستخدمة لإضفاء الشرعية على العسكرة ونوع خاص من البطولة يدعم أيديولوجيات سياسية محددة. إن الأفلام من هذا النوع تعمل على تغيير ذكرياتنا حول طريقة عمل الحرب. وكما عملت أفلام حرب فيتنام على إنتاج صورة محافظة معينة للقومية والوطنية فى الثمانينات، يمكن لأفلام حرب فيتنام فيما بعد ١١ سبتمبر أن تقوم بنفس هذه الوظيفة، ولكن من أجل صورة مختلفة. وهذا الفيلم كأحد نصوص الثقافة الشعبية يعمل:

من خلال الممارسات المطردة والممارسات الأيديولوجية: التربوية والسياسة فى ذات الوقت، وكجزء من جهاز ثقافى أكبر يؤكد مركزية الفيلم كوسيط للثقافة الشعبية ,وهى مركزية يجب أن تُعَالج ليس فقط كجهاز تربوى ينخرط بنشاط فى تشكيلات هوية متنوعة ,ولكن أيضًا بسبب الدور الأساسى الذى تلعبه فى بناء الهويات الوطنية فى خدمة التوسع العالمى والاستعمار(١٣).

إن تصوير البطولة والنصر الفرديين يصبح شائعًا، وتكتيكات رأسمالية الشركات والعسكرة تصبح أقل سوءً، إن لم يتم قبولها بالكامل. إن الثقافة الشعبية يجب أن تُؤخذ بجدية لأنها من خلال إعادة بناء ذكرياتنا وأفكارنا حول ما يشكل العسكرة والبطولة تقوم بإنتاج هوياتنا. إن أفلامًا شعبيه من نوع "كنا جنوداً" الغارقة فى النظام العسكرى الشركاتى العالمى تساعد فى خلق وتأييد هذا النظام، كما يخلقها هذا النظام نفسه. والنقد المطرد للأفلام يمثل عملًا تربويًا مهمًا. فبينما تتقاذفنا الممارسات السينمائية الكثيرة المطردة التى تغير باستمرار مواقفنا كمربين وأكاديميين وعمال ومواطنين وآباء وأمهات وأطفال، نحتاج إلى أن نطور نقد لمنتجات الثقافة الشعبية، مثل الأفلام، مع إدراك أنها أيضًا تُطَوَر فى إطار فترة تاريخية وسياسية وأيديولوجية معينة. وهذه الارتباطات والتعقيدات قد تكون المكان الذى يجب أن نبدأ منه أن نناقش مع الطلاب انخراطهم وانغمارهم فى النظام العسكرى الشركاتى العالمى. وعلينا أن نبدأ مما يعتبروه معرفة شرعية.

إن ما نحتاج إليه هو رؤى بديلة للوجود الديمقراطى. هناك لحظات نجد فيها مؤقتًا فضاءات لأن نكتب بأنفسنا ونُخرِج أنفسنا من الأشياء التى تسحبنا، حتى وإن كانت هذه اللحظات مؤقتة. تلك الرؤى للوجود لا تقوم على مبادئ عسكرية محافظة أو صور زائفة لأسلوب حياة استهلاكى، أو الاحتفال بمجتمع يجد الأمن فى التخلى عن الحرية، ولا الرؤى الضيقة لحياة الطبقة الوسطى العليا بملكياتها المادية وخوائها. إن المربين يجب أن يتذكروا أن هوليود لا تحتكر إعادة كتابة الذاكرة العامة. فمنتجات

هوليود تقدم نقطة انطلاق ممكنة للمربيين النقديين لكى يتحدوا نسخ التاريخ المحافظة فى أفلام مثل "كنا جنوداً". ومنتجو الدراسات الثقافية ودراسات المناهج أمامهم فرصة عبر ممارساتهم التربوية لأن يعيدوا كتابة الذاكرة بطرق تعزز القيم العامة الديمقراطية والفضيلة المدنية والفعل الجماعى عن طريق تشجيع ذاكرة الماضى التقدمى للنضال من أجل العدالة الاجتماعية والانخراط فى النضال.

الهوامش

(1) Norman Podherz, quoted in Noam Chomsky, "Media Control" (1991/1993). Available at www.zmag.org/chomsky/talks/9103-media-control.html#apr.

(2) Otto Reich also helped write the Helms-Burton Act that maintains the U.S. embargo against Cuba.

(3) Jeff Cohen, "The Return of Otto Reich: Will Government Propagandist Join Bush Administration?," FAIR (June 8, 2001), available at http://www.fair.org/articles/otto-reich.html.

(4) Ibid.

(٥) عمل كارل روف كمخطط استراتيجي لحملة جورج بوش الرناسية ويعمل الآن كأحد كبار مستشارى الرئيس بوش ويدير مكتب الشئون العامة ومكتب الاتصال العام ومكتب المبادرات الاستراتيجية.

(6) Marc Cooper, "Lights! Cameras! Attack! Hollywood Enlists," The Nation (December 10, 2001), Available at http://www.brycezabeLcorn/mediapage/thenation.htm.

(7) Henry A. Giroux, Impure Acts: The Practical Politics of Cultural Studies (New York: Routledge, 2000), 10.

(8) Theodor Adorno and Max Horkheimer, "The Culture Industry: Enlightenment as Mass Deception," in The Cultural Studies Reader, 2nd ed., edited by S. During (New York: Routledge, 1999), 31-45.

(9) Henry A. Giroux, The Mouse that Roared: Disney and the End of Innocence (New York: Rowman 8c Littlefield Publishers, 1999); and Henry A. Giroux, Breaking into the Movies:iFilm and the Culture of Politics (Maiden, Mass.: Blackwell Publishers, 2002).

(10) Giroux, The Mouse that Roared, 151n.

(11) Yvonne Tasker, Spectacular Bodies: Gender, Genre and the Action Cinema (New York: Routledge, 1999).

(12) Adorno and Horkheimer, "The Culture Industry."

(13) Giroux, Breaking into the Movies.

الفصل الثامن عشر

سياسة الوطنية الإلزامية

حول المعانى التربوية لأحداث ١١ سبتمبر

مايكل آبل(*)

إن حجم المادة التى نشرت حول مأساة ١١ سبتمبر مهول بالفعل. ورغم أن بعضها سوده القبول غير الناقد للرؤى الرسمية للموضوع، فقد كان قدرًا كبيرًا منها مفارق ويتسم بالنقد الذاتى للدور الذى لعبته الولايات المتحدة فى المساعدة فى إيجاد الظروف التى أدت إلى أنواع اليأس التى جعلت بعض الناس يعتقدون أن هذا العمل يمكن أن يكون ردًا "شرعيًا" على الهيمنة الأمريكية. أنا لا أقول إن هناك أى شىء يبرر أحداث ١١ سبتمبر. لكنى أعتقد أن هذه الأحداث لا يمكن أن تُفْهَم فى معزل عن السياقات الدولية والقومية التى انبثقت منها. وسوف أترك استكشاف السياق الدولى للآخرين(١).

فأنا فى هذا الفصل أريد أن أقوم بشىء آخر. أود أن أركز على أكثر المستويات محلية: الطرق المعقدة التى من خلالها عايش معلمون مثلى أحداث ١١ سبتمبر

(*) مايكل آبل Michael W. Apple أستاذ المناهج وطرق التدريس ودراسات السياسة التربوية بجامعة جون باسكوم. John Bascom وهو من أعلام الاتجاه النقدى منذ عقود. من أحدث مؤلفاته: Educating the "Right" Way: Market, Standards, God, and Inequality (RoutledgeFalmer, 2001), Official Knowledge: Democratic Education in a Conservative Age (Routledge, 2000).

ظاهراتيًا، وتأثيراتها القليلة المعروفة على التربية وعلى الدفع فى اتجاه جعل المدارس تشارك فى مجموعة معقدة من الخطابات والممارسات الوطنية التى اكتسحت الولايات المتحدة فى أعقاب الكارثة. وبسبب هذه البؤرة ستأتى أجزاء من تحليلى شخصية بالضرورة. وأنا أفعل ذلك ليس لأنى أعتقد أننى أمتلك الحقيقة أكثر من القارئ، لكن لأننا جميعًا نستطيع أن نفهم التأثيرات المعاشة لأحداث ١١ سبتمبر من خلال استكشاف ماذا كانت تعنيه لفاعلين اجتماعيين محددين مثلى. لذلك سأبدأ من المستوى الشخصى، لكن هدفى هو أن أشارك فى مشروع جماعى يقوم فيه أناس من مواقع اجتماعية كثيرة مختلفة بسرد قصصهم لما كانت تعنيه أحداث ١١ سبتمبر وما لا تزال تعنيه لحياتهم وممارساتهم التعليمية.

الرعب وهوليود

"اللعنة، من الذى يتصل الآن؟" إننى منزعج فعلاً. كان هذا الصباح واحداً من تلك الأيام القليلة التى أكون فيها قادراً على أن أختلى بنفسى للكتابة الجادة. تركت الحاسب مسرعًا إلى الهاتف، متمنيًا ألا أفقد الفكرة التى كنت أحاول الإمساك بها. كانت المكالمة من أحد أكثر طلابى فى النشاط السياسى.

> **"مايكل هل تلفزيونك مفتوح؟ افتحه بسرعة، إن مركز التجارة العالمى ينهار. إنه أمر لا يصدق. إننا مقبلون على مكارثية جديدة! ماذا يجب علينا أن نفعل فى رأيك؟"**

فتحت التلفزيون. "اللعنة" كانت الكلمة الأولى التى خرجت من فمى، وجلست من هول المفاجأة. أخذت أشاهد عن كثب. لكنها بالتأكيد لم تكن مشاهدة سلبية. فبينما أنا أقف مشدوهًا فى مكانى، والبنايات تنهار، كان عقلى يموج بعالم كامل من العواطف والمعانى المتنافسة والمتناقضة. إن الأمر لا يشبه خبرتى عندما كنت معلمًا شابًا حينما اغتيل كندى. كنت حينذاك أعطى تلاميذى اختباراً فى الهجاء عندما أُعلِن عن إطلاق النار على كنيدى فى مكبر الصوت الخاص بالمدرسة. واصلت إعطاء الاختبار، حيث

منعتنى الصدمة من أن أفعل أى شىء آخر. نعم كما فى خبرتى عن مقتل كنيدى أعيش الآن صدمة حادة وأنا أرى الطائرة بالحركة البطيئة السريالية والأبراج المنهارة، والأسوأ من ذلك الناس وهم يقفزون من البنايات. لكننى تغيرت، وكذا تغيرت جملة الظروف الثقافية التى كنا نفسر فى ضوئها ما يحدث.

وفى نفس الوقت تقريبًا الذى أحسست فيه برعب مهول من كارثة مركز التجارة العالمى، كان شيئًا آخر يتسلل إلى العدسات التى أشاهد بها الصور المعروضة على الشاشة. الشاشة ... نعم إنها الكلمة المعبرة تمامًا هنا. فقد بدا الأمر وكأنه غير حقيقى. لم تكن الانفجارات كبيرة بما يكفى أو فاجعة بما يكفى لأن تبدو "حقيقية". كان المشهد يستتبع، هكذا ذهب عقلى، أن يخرج بروس ويليس راكضًا من البنايات الآخذة فى الانهيار بعد أن تضاء السماء بكرة نارية هائلة. كانت الكرة النارية "صغيرة جدًا". وكان مشهد الطائرة وهى تتجه إلى البرج الثانى - وهو مشهد أخذ التليفزيون يبثه مرارًا وتكرارًا كما لو كان فى الأمر شىء من سياسة منحرفة تجد متعة فى هذا العمل- غير درامى بالمرة و"غير عاطفى" (كما لو أنه كان يحتاج إلى تصعيد فى الموسيقى لينبئنا بالمأساة الوشيكة). إن الكلمة الوحيدة التى أستطيع أن استخدمها لوصف ذلك الجزء من فوضى المعانى والانفعالات التى عشتها حينئذ هى أننى رغم افتخارى بوعى النقدى بتلك الطرق التى عملت بها أشكالنا الثقافية المسلعة المهيمنة، كنت قد "تهليدت" Hollywoodized أيضًا. فرعب الموت كان يذكرنى بفيلم "الجحيم الشاهق(*) The Towering Inferno. لكن الأجسام المتساقطة كانت تعيدنى إلى الواقع. كان هذا المشهد هو الذى أعادنى إلى المجزرة الحقيقية.

مثل كثير من الناس، على ما أظن، جلست وأخذت أشاهد لساعات. المقابلات، والناس الذين يصرخون وهم يهربون بعيدًا، وأولئك الذين يركضون نحو أى شىء بحثًا

(*) فيلم من أفلام الكوارث أنتج عام ١٩٧٤ تدور أحداثه حول احتراق برج مكون من ١٣٨ طابقًا فى يوم افتتاحه [المترجم].

عن غطاء. ثمة طائرة أخرى، لكنها تُفْقَد. ماذا كان هدفها يا ترى؟ ثم جاءت الأخبار بأن البنتاجون قد ضُرِب. وقد أنتج ذلك مجموعة أكثر تعقيدًا من التفسيرات والقراءات. لماذا ازدادت مشاعرى تعقيدًا الآن؟ لقد اشتركت فى مسيرات إلى البنتاجون احتجاجًا على حرب فيتنام. لقد أطلقوا علينا الغاز المسيل للدموع هناك. إنه عقر دار القوة العسكرية الأمريكية. إنه يستحق بطريقة ما أن يكون هدفًا للضرب. لكن أناس حقيقيون قُتِلوا هناك. أناس حقيقيون يعملون هناك، ليس باختيارهم، لكن لأنه فى الاقتصاد الأمريكى الذى يوصف على أفضل نحو بالكينزية العسكرية military Keynesianism (استخدام التمويل الحكومى لإسناد الاقتصاد، مع تحويل كميات ضخمة من ذلك المال إلى المشروعات ذات الصبغة العسكرية) تتوفر فى البنتاجون والمواقع المماثلة وظائف كثيرة.

بعد ذلك، على مر تلك الليلة والأيام والليالى التالية، تولى مثقفو الحكومة التعبير العام عن التفسيرات الشرعية للكارثة. والبناء البصرى للسلطة على الشاشة والنصوص المنطوقة ذاتها سوف تقدم للمحللين الإعلاميين النقديين بيانات كافية ليثبتوا مجددًا كيف تُؤدَى القوة علنًا، وكيف تعمل تشكيلة من الخلفيات المعتمة وأصوات القوامة righteousness ومجازات الوطنية والثأر، كيف تعمل معًا لكى تخلق دعوة قوية ليس إلى العدالة وإنما إلى الثأر[٢]. (كان ذلك من الأسباب التى دفعتنى أنا وآخرين لكى نوحد قوانا لخلق حركة العدالة وليس الثأر فى كل مدن وبلدات الأمة).

إننى وأنا أفهم من حدث، أحاول أن أتذكر أن أجهزة الإعلام لا تساعدنا فحسب على فهم طبيعة المشكلات التى نواجهها، لكنها أيضًا أدوات تعبئة قوية. ففى كل مكان يتحول إليه المرء بعد ١١ سبتمبر يجد أصوات أجهزة الإعلام تقول نفس الشىء. لكن الأصوات المعارضة لا يتم إسكاتها تمامًا، مع أن الصدمة أثرت عليها هى الأخرى، فأُخْرِست رسائلها. إننا فى حالة حرب. وقد وصل الإرهابيون إلى هنا. لقد تلقت الحرية ضربة مروعة. لكن الله معنا. ونحن لا نستطيع أن نتحمل ترف الانشغال

بالحريات المدنية. كانت السياسات المخففة نحو المهاجرين وتراجع تمويل وقوة مكتب التحقيقات الفدرالى FBI ووكالة الاستخبارات المركزية CIA وضعف قوتنا العسكرية، كانت هذه وكثير مما يشابهها هى الرد الرسمى الوحيد على الهجمات. يجب أن يكون الرد موحداً. "تعقبهم" فى كل الأماكن وبأى ثمن. أخرِج مؤيديهم حيثما كانوا، خاصة لو كانوا هنا. وأية تساؤلات حول الأسباب التى تجعل أناس كثيرون جداً فى كثير من الأمم ترتاب فى - أو حتى تكره - الولايات المتحدة تعتبر مخالفة للوطنية، ولن يتم التسامح معها فى هذا الوقت. نعم هذه الأسئلة قد تستحق أن تُطْرَح لكن بعد أن نكون قد دمرنا التهديد الموجه إلى طريقة حياتنا الذى يشكله الإرهاب الدولى. وبالطبع فإن إثارة السؤال "لماذا يكرهوننا؟" هو نفسه جزء من المشكلة. وفى نفس الوقت فإننى أدرك أيضًا أنه من خلال بناء ازدواجية "نحن/هم"، فإن طبيعة السؤال ذاتها تؤسس علاقات المركز/المحيط التى تتورط بالكامل فى إنتاج حس عام قائم على رد الفعل. وقد هيمنت مصطلحات الجيد/السيئ على المشهد السياسى الأمريكى، خاصة فى العلاقات الدولية.

كيف نفسر ذلك؟ بوجه عام فإن الجمهور الأمريكى قليل الصبر حيال تعقيدات العلاقات الدولية، وقليل المعرفة بتورط الولايات المتحدة فى دعم وتسليح النظم الدكتاتورية، وليس لديه فهم متطور ودقيق للهيمنة الأمريكية على الاقتصاد العالمى والتأثيرات السلبية للعولمة وتأثيراتها البيئية وسياساتها وممارساتها الإسرافية فى الطاقة، وكثيراً من القضايا الأخرى، رغم الجهود البطولية لنقاد السياسة الدولية الأمريكية من أمثال نعوم تشومسكى[٣]. وهذا يفصح عن حقيقة التقاليد الانتقائية فى المعرفة الرسمية حول العالم خارج حدودنا الذى تصوره لنا الأخبار. وحتى عندما تكون هناك مكاسب فى المنهج المدرسى (كما فى الوعى البيئى على سبيل المثال)، فإنها إما تكون فى أكثر أشكالها أمانًا[٤]، أو تفشل فى تدويل مناقشاتها. فإعادة تدوير الزجاجات والعلب "جيد"، والارتباطات بين استهلاكنا المسرف لحصة من موارد العالم لا تتكافأ مع نسبتنا إلى عدد سكان العالم وسلوكنا اليومى تغيب تقريبًا عن

المدارس أو أجهزة الإعلام السائدة. ولعله من المفيد فى هذا الخصوص أن نعرف أن غالبية العربات التى تشترى فى الولايات المتحدة الآن هى من نوع الشاحنات الصغيرة والكبيرة والسيارات المغطاة الصغيرة والسيارات الرياضية، بما يضمن ألا يغيب خطاب الحفاظ على الطاقة عن الممارسات اليومية للمستهلك الأمريكى، ويضمن أكثر من ذلك أن ينز تفسير العلاقة بين الإستراتيجيات الاقتصادية والعسكرية الأمريكية والدفاع عن الأسواق وموارد النفط، مثلاً، على أنه معركة من أجل حماية "طريقة الحياة الأمريكية" بأى ثمن.

إننى أتذكر ذلك لأن من المهم أن نضع ما حدث فى أعقاب ١١ سبتمبر فى سياق النفسية "الأمريكية" وفهم الذات الأمريكى السائد للدور الذى تلعبه الولايات المتحدة فى العالم(٥). ففى الأحداث المحلية التى أحاطت بـ١١ سبتمبر، تحولنا إلى مظلومى العالم. فقد تخلصنا الآن من الاعتراف (الضعيف نسبيًا فى العادة) بالواقع الذى يعيشه الفلسطينيون أو الفقراء فيما نسميه بغطرسة "العالم الثالث". وفجأة بدا لنا أن هناك حالات كثيرة فى كافة أنحاء الأمة لأناس "يبدون عربًا" أصبحوا يتلقون التهديدات والمضايقات فى الشوارع وفى المدارس وفى أماكن عملهم. والأمر الأقل بروزًا من ذلك، لكنه فى رأيى ذو أهمية كبيرة حيث يكشف تعقيدات التزامات الناس الأخلاقية فى علاقات الوجه بالوجه فى الحياة اليومية، كان الحالات المتكررة للتضامن، بما فى ذلك مظاهرات الجامعات، تأييدًا للطلاب والأصدقاء وأعضاء الجماعة المسلمين. لكن لحظات التضامن من هذا النوع، رغم أهميتها، لا تستطيع أن تعوض تهديدات "الانتقام" التى تعرض لها الطلاب المسلمين والسيخ والبنجابيين وطلاب آخرين فى المدارس الثانوية وفى الجامعات، بل والتهديد بالاغتصاب "انتقامًا" لأحداث ١١ سبتمبر كما حدث مع بعض طلاب المدارس الثانوية البنجابيين. وذلك يوثق الارتباطات بين بعض عناصر الهوية القومية وأشكال الذكورة، وهى علاقة تتطلب تحليلاً جادًا(٦).

فى الجامعات تجاهل بعض المعلمين الرعب، ربما لنفس السبب الذى تعاملت أنا به مع اغتيال كنيدى، فاحتموا ببساطة بالحالة الطبيعية كشكل من الدفاع ضد الشلل.

وفى فصول أخرى قُضيت الأيام فى مناقشة الأحداث. كان الحزن وعدم التصديق والصدمة هو الغالب. لكن كما فى غالبية الأحوال من هذا النوع، تقدم الغضب والوطنية المنبعثة إلى الصدارة. وأى تحليل نقدى للأحداث وجذورها الكامنة فى يأس وقنوط الشعوب المضطهَدة -كما فعلت أنا وعدد من زملائى فى فصولنا وحلقاتنا الدراسية- كان لا بد أن يتم بحذر شديد، ليس فقط بسبب البيئة المشحونة انفعاليًا وسياسيًا، حتى فى جامعة تقدمية كتلك التى أعمل بها، لكن أيضًا لأن كثيرين منا لم يكونوا فى منعة كليًا من بعض مشاعر الغضب والرعب من نفس النوع السابق. فحتى بالنسبة للمربين التقدميين أخرجت أحداث ١١ سبتمبر العناصر المتناقضة للحس الجيد والسيئ الذى نحمله بداخلنا نحن أيضًا، فكان هناك خطر أن ننجرف فى اتجاهات تبدو فى أوقات أخرى تبسيطية وشوفينية. لكن على الأقل بالنسبة لى والغالبية الساحقة من زملائى وطلابى الخريجين كانت الغلبة لعناصر الحس الجيد.

وفى ضوء عناصر الحس الجيد good sense بدا واضحًا ضرورة القيام بعمل تعليمى. لكن ذلك لم يكن مسألة بسيطة، وذلك بسبب وجود سؤال وتوتر دائمين فى عقلي: كيف يمكن لأحدنا أن يدين هذه الأحداث المهلكة، ويعطى طلابه إطارًا تاريخيًا وسياسيًا يضع هذه الأحداث فى سياقها النقدى الأكبر، ويقدم منتدى جادًا يحدث فيه الخلاف والنقاش بطريقة مثمرة بحيث لا تحدث سياسة التهميش فى الفصول، وفى نفس الوقت لا يبدو وكأنه يبرر الهجمات بطريقة أو بأخرى؟ وبينما كانت لدى مشاعر قوية جدًا حول الحاجة لاستخدام ذلك كوقت نوضح فيه تأثيرات السياسات الاقتصادية والسياسية والثقافية الأمريكية العالمية، كانت لدى أيضًا ميول قوية من نوع ميول "المعلمين" بأن ذلك الوقت ليس وقت الانخراط فى تربية الفرض imposition. فلا يمكن لأحد أن يخرج إلى الطلاب أو الجمهور ليقول لهم "فهمكم خاطئ، ومشاعر التهديد والغضب لديكم أنانية، وأى تعبير عن هذه العواطف وهذا الفهم لن يكون مقبولاً". إن تلك الطريقة ستأتى بالتأكيد بأكثر نتيجة عكسية تتخيلها. فذلك لن يؤكد فقط التصورات السطحية لدى كثير من الناس بأن اليسار غير وطنى، وإنما أيضًا

يمكن أن يدفع الناس إلى مواقف يمينية، بالطريقة نفسها التى وظفتُها فى تفسير السبب فى تحول الناس إلى "اليمين"[٧]. وقد كان ذلك يتطلب حسًا إستراتيجيًا عاليًا بالطريقة التى أتحدث وأتصرف بها فى تدريسى وفى ظهورى فى وسائل الإعلام القومية.

خذوا عملى التدريسى كمثال. كنت أريد من طلابى أن يقدروا حقيقة أن الحظر بقيادة الولايات المتحدة على العراق كان يتسبب فى موت آلاف وآلاف من الأطفال فى كل عام يُمدد فيه تطبيقه. كنت أريد منهم أن يفهموا كيف ساعدت السياسات الأمريكية فى الشرق الأوسط وفى أفغانستان ذاتها فى التسبب فى نتائج مدمرة حقًا. لكنهم إذا لم يُعْطَوا الفرصة للتعبير عن مشاعرهم وفهمهم، وإذا لم تؤخذ هذه المشاعر وهذا الفهم بجدية، فإن النتيجة قد تكون معاكسة تمامًا لما يريده أى معلم محترم. فبدلاً من محاولة تحقيق فهم معقد لحياة شعب من بين أكثر شعوب العالم اضطهاداً [الشعب الفلسطينى] وهذا نفسه يرجع فى الأغلب إلى السياسات الاقتصادية والسياسية الغربية والشمالية[٨]، قد يرفض الطلاب أى فهم سياقى نقدى، فى المقام الأول لأن السياسة التعليمية تبدوا متغطرسة. ومن خبراتى كناشط ودارس، حدث ذلك أكثر كثيرًا مما قد يعترف بعض منظرى "التربية النقدية"[٩]. لا أحد منا معلم مثالى، وأنا على يقين من أننى وقعت فى تحركات كثيرة خاطئة فى محاولاتى لتنظيم المناقشات فى فصولى بحيث تكون مفتوحة ونقدية فى نفس الوقت. لكننى تأثرت برغبة الغالبية العظمى من الطلاب فى أن يعيدوا فحص غضبهم، وأن يضعوا أنفسهم فى مكان المضطهَدين، وأن ينتقلوا بفهمهم النقدى إلى مرحلة التطبيق. وكان من الأشياء المؤثرة حقيقة أن تَشكَل ائتلاف من الطلاب فى فصولى ليدخلوا فى أفعال عينية فى مدارسهم وجماعاتهم، وكذلك فى الجامعة، للتصدى للدينامية الشوفينية ومعاداة الإسلام المتنامية التى كانت موجودة حتى فى مناطق تقدمية مثل ماديسون وجامعة ويسكونسن.

لقد أضحت سياسة التصدى هذه أكثر أهمية نظرًا لأن هذه القضايا التعليمية المعقدة والعواطف المتناقضة والسياسة التى أُنْتِجت بعد ١١ سبتمبر كانت حاضرة

بقوة داخل فصول الجامعة. وفى بعض الأحيان أدت إلى تغيير جذرى فى سياسة إدارة المدارس على المستوى المحلى فى كافة أرجاء الولايات المتحدة. ويمكن لمثال واحد أن يعمل كرسالة تذكير قوية بالتأثيرات الخفية لانتشار خطابات الوطنية و"التهديد" وهى تنتقل من أجهزة الإعلام إلى حياتنا اليومية.

الوطنية والعلَم والسيطرة على المدارس

ازدحمت القاعة بأكثر من ١٢٠٠ شخص. كانت الأعلام فى كل مكان، فى الأيدى، وعلى الصدور، وملصقة على السترات. إن العبارة القديمة البالية التى تقول "إنك يمكن أن تقطع التوتر بسكين" بدت ملائمة هنا. كان التوتر بدنيًا نوعًا ما، ويمكن لك أن تتحسسه بالفعل مثل تيار كهربى يسرى فى جسمك. وبالنسبة لبعض الحضور كانت الشخصيات القابعة خلف المنصة الأمامية تستحق ذلك فعلاً. فقد كانوا يحتاجون إلى صدمة كهربية، بل ويستحقون فى الحقيقة شيئًا مثل الكرسى الكهربى.

قبل أشهر من كارثة ١١ سبتمبر، كانت بذور هذا النزاع قد زُرعت بطرق بدت بريئة وغير مؤذية. سرب المشرعون المحافظون فى مشروع موازنة الولاية جزئية مؤذية لكى يكسبوا بعض النقاط للانتخابات التالية. كان مشروع إقرار الموازنة يتضمن قسمًا يفرض على الطلاب فى كل المدارس العامة (الممولة من الولاية) إما أن يرددوا قسم الولاء أو يغنوا النشيد الوطنى (السلام الوطنى، المسمى العلَم ذى النجوم المتلألئة، عبارة عن أغنية عسكرية للغاية يستحيل على معظم الناس، وبالتأكيد معظم الأطفال، أن يغنوها). ومع أن التشريع أجاز "عدم المشاركة" فى هذه الممارسة، بسبب التاريخ الطويل وغير المشرف للتشريعات من هذا النوع فى الولايات المتحدة، فقد كان واضحًا أن عدم المشاركة سيواجه سخطًا. كان الأمر شبيه بقنبلة موقوتة تنتظر الانفجار. وهو ما حدث بالفعل. ففى وسط حمى الوطنية المتنامية بعد ١١ سبتمبر، صوتت لجنة المدارس فى ماديسن بولاية ويسكونسن بإتباع القانون بأدنى حد ممكن. فالنسبة لبعض أعضاء اللجنة كان هذا القانون الطريقة الخاطئة لتعليم الوطنية. فالحفظ الصم

ليس أفضل مدخل إذا أردنا بالفعل أن نوفر الشروط لنمو مواطنة واعية. وبالنسبة لآخرين كان القانون بوضوح حيلة سياسية من جانب المشرعين المحافظين لكسب تأييد أكثر بين الناخبين اليمينيين فى الانتخابات التالية، حيث كان تأييدهم لهذا القانون محاولة أخيرة لكسب اليمين. وبالنسبة لأعضاء آخرين فى اللجنة كان هذا القانون يهدد عدداً من المبادئ. فالولاية يجب ألا تتدخل فى محتوى القرارات من هذا النوع الذى يخص لجان المدارس المحلية. علاوة على أن القانون الجديد لم يكن يخضع فحسب لفحص عام مكثف ونقاش جدى، وإنما كان أيضاً يهدد الحق الدستورى الأثير (نظرياً على الأقل) فى حرية المعارضة. لكل هذه الأسباب صوتت غالبية أعضاء لجنة المدارس لعدم ترديد قسم الولاء أو غناء السلام الوطنى(١٠).

فى خلال ساعات وصل الغضب من قرارهم إلى درجة الغليان. فقد جعلت أجهزة الإعلام من هذا الموضوع قصتها الرئيسية. وجاءت العناوين البارزة فى صحيفة محلية محافظة تقول أشياء من نوع "لجنة المدارس تمنع قسم الولاء"، مع أن اللجنة امتثلت فعلاً للنص الرسمى للقانون، ومع أن اللجنة عقدت جلسات عامة قبل إجراءاتها، اعترض فيها أشخاص كثيرون على كل من القانون وترديد القسم وغناء النشيد. وسرعان ما احتشد السياسيون والناطقون الرسميون المحافظون، الذين استعمروا فضاء الخوف والرعب فى دمار مركز التجارة العالمى. "لا يمكن أن نتحمل ذلك". إن المسألة أكثر من مجرد عدم الوطنية، إنهم لا يقدرون النساء والرجال الذى ماتوا فى الكارثة، ولا جيشنا فيما وراء البحار. وبالنسبة لأولئك الذين تعبئوا، كان ذلك أيضاً علامة على أن اللجنة مقطوعة الصلة بالأمريكيين "الحقيقيين"، واتخذوه مثالاً آخر على سيطرة نخبوية على المدارس تجاهلت رغبات "الغالبية الصامتة" من الأمريكيين "محبى الحرية" والوطنيين.

إن اللافتات الشعبوية التى أُلصِقت هنا مهمة لأن تحالفات الهيمنة لا تنجح إلا عندما ترتبط بعناصر "الحس الجيد" لدى الناس(١١). فالقلق الشعبى على الأطفال والمدارس التى يحضرون فيها، فى وقت تتدهور فيه الشركات ويهرب رأس المال،

ويتزايد القلق على الاستقرار الاجتماعى والتقاليد الثقافية التى تُخَرب بشكل متواصل بفعل العمليات التسليعية commodifying ومنطق رأس المال، وأشياء أخرى كثيرة تسمح للجماعات المحافظة بدمج هذه المخاوف فى أجندتها المعادية لكل ما هو عام. وعلى ذلك فإن النزعتين المحافظة والوطنية المتفشيتين والخائفتين ليستا الدينامية الوحيدة التى تعتمل فى هذا الموقف، رغم أن القضية العلنية تتعلق بالقسم والنشيد. فما كان لشىء من ذلك أن يحدث لولا خوف الأهالى المتزايد على مستقبل أطفالهم وعلى طبيعة سوق العمل المأجور غير المستقر، وبشكل خاص لولا المشروع الأيديولوجى الذى روجه اليمين على مدى عقود ليجعل كثيراً من الناس يعتقدون أن "الحكومة الضخمة" هى مصدر المشكلات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية التى نواجهها[١٢].

هناك أيضًا أسباب أخرى لهذا الرد ترتبط أكثر بخصوصية الولاية. فلا بد أن نتذكر دائمًا أن ولاية ويسكونسن كانت موطنًا لكثير من التشريعات الأكثر تقدمية ولأجزاء مهمة من التقاليد الاشتراكية فى الولايات المتحدة، وهى كذلك موطن السيناتور جوزيف ماكارثى، نعم الشخص الذى اشتقت من اسمه الماكارثية. ولذلك فخلف الدفعات الديمقراطية الشعبية والاجتماعية التى لها هذا التاريخ الطويل هنا، يكمن نوع آخر من الشعبوية populism. هذا النوع هو ما أسميه، اتباعًا لستيوارت هول Stuart Hall[١٣]، "الشعبوية الاستبدادية"، وهى توليفة رجعية من القيم تجسد رؤى "للناس" تقوم على النزعة القومية ومناهضة المهاجرين ومناهضة النزعة الكونية ومناهضة الشيوعية وتأييد الجيش، وهى رؤية محافظة جداً من حيث القيم الدينية[١٤]. وفى أوقات الأزمات تتقدم هذه النزعات إلى الصدارة. وهو ما حدث فعلاً مع الرغبة فى الثأر.

إننا لا نستطيع أن نفهم أى من ذلك إذا لم نفهم التاريخ الطويل للكفاح حول معنى الحرية والمواطنة فى الولايات المتحدة[١٥]. فما كان فى خطر بالنسبة لكل الأنصار فى الخلاف الذى دخلته لجنة المدارس كان "الحرية" ذاتها. وبالنسبة للبعض

كان خطر الإرهاب الدولى هو الذى يدمر طريقتنا "الحرة" فى الحياة. ولا شىء يجب أن يتداخل مع الدفاع عن "الحرية الأمريكية"، والمدارس كانت على الخطوط الأمامية فى هذا الدفاع. بينما رأى آخرون أن مثل هذه الحرية تكون بلا معنى إذا كانت تعنى أن المواطنين لا يستطيعون أن يمارسوا حرياتهم، خاصة فى أوقات الأزمة. فأفعال مثل إسكات المعارضة وفرض أشكال الوطنية الإلزامية وما شابهها هى نقيض الحرية. والمنهج الخفى للوطنية الإلزامية يفعل نفس الشىء.

إن ذلك يوثق نقطة مهمة هى أن مفاهيم مثل الحرية مصطلحات زلقة. فهذه المصطلحات ليس لها معنى ثابت، وإنما هى جزء من أرض مُتَنافَس عليها توجد فيها رؤى مختلفة للديمقراطية فى الميدان الاجتماعى للقوة الذى تتوفر فيه موارد غير متساوية للتأثير على التعريفات المقبولة جماهيرياً للكلمات الأساسية. وبتعبير واحد من أبرع مؤرخى هذه المفاهيم فإن:

> **عمومية لغة الحرية ذاتها تموه وتعمى مجموعة كبيرة من الدلالات والتطبيقات المتباعدة. ولا جدوى من محاولة تحديد معنى "حقيقي" وحيد يمكن فى مقابله الحكم على المعانى الأخرى. وبدلاً من الحرية كفئة ثابتة أو مفهوم سابق التحديد ... تمثل الحرية "مفهومًا متنازع عليه"، مفهوم يكون بطبيعته ذاتها موضوع خلاف. واستخدام مثل هذا المفهوم يفترض آليًا حوارًا متواصلاً مع معانى متنافسة أخرى[١٦].**

إن إدراك إن مفاهيم مثل الديمقراطية والحرية تعمل كمصطلحات زلقة ويمكن أن تُوَظَّف من جانب الجماعات المختلفة ذات الأجندات المختلفة يعيدنا إلى نقطة أثرتها آنفًا، وهى المشروع الأيديولوجى الذى انخرط فيه اليمين الاقتصادى والثقافى. إننا نحتاج لأن نفهم أن التأثيرات الناجحة جداً لما أسميته أنا وروجر ديل Roger Dale "التحديث المحافظ" كانت بالفعل ناجحة جداً[١٧]. فنحن نشهد – أو بالأحرى نعيش خلال – مشروع اجتماعى/تعليمى يستهدف تغيير حسنا العام، وتحويل فرضياتنا

جذرياً حول دور "النخب الليبرالية" والحكومة والاقتصاد، وحول ما هى القيم "الملائمة"، ودور الدين فى الشئون العامة، ودور النوع والجنس و"العرق" ومجموعة كبيرة من المجالات المهمة الأخرى. لقد تحولت الديمقراطية من مفهوم سياسى إلى مفهوم اقتصادى. فقد تم على نطاق واسع الاستعاضة عن المعانى الجماعية للحرية التى كانت واسعة الانتشار من قبل (مع أننا يجب أن نَحْذر من إضفاء طابع رومانسى على ذلك) بأفكار فردية عن الديمقراطية بحسبانها مجرد "اختيار استهلاكي". ومع أن لذلك تأثيرات كبيرة على قوة اتحادات العمال وعلى الأنواع الأخرى من الحركات الاجتماعية الجماعية المهمة، فقد خلق أيضًا حاجات ورغبات خفية أخرى إلى جانب حاجات ورغبات الفاعل الاقتصادى العقلانى الذى يصنع قرارات فردية محسوبة فى السوق[18]. وفى رأيى أن هذه الحاجات والرغبات لعبت أيضًا دوراً عميقًا فى تعبئة العاطفة اليمينية ظاهريًا التى أتناولها بالوصف.

فتحت خلق النزعة الفردية المنفصلة للسوق، توجد رغبة غير شعورية فى الجماعة. فتَشَكُّل الجماعة، على أية حال، يمكن أن يتخذ أشكالاً عديدة، سواء تقدمية أو رجعية. وفى أثناء ١١ سبتمبر طفا كلاهما إلى السطح. فقرار لجنة المدارس بماديسون شَكَّل تهديداً "للجماعة المتخيلة" للأمة، فى وقت كانت الأمة فيه تواجه بالفعل تهديداً ماديًا[19]. قدم ذلك أيضًا دافعًا لتشكيل جماعة "حقيقية"، أى منظمة "لاستعادة" فضاء التمدرس إلى حظيرة الوطنية. وهنا يُلْحَق الدفاع عن الحرية بمشروع الدفاع عن الأمة، الذى يُلْحَق بمشروع محلى لتشكيل جماعة مضادة (يمينية) لتنقض القرارات غير الوطنية ذات الدوافع الأيديولوجية للنخب الليبرالية الحضرية. ولذلك فإن الحاجة لأن "تكون مع الآخرين"، وهى ذاتها تأثير خفى للعلاقات الانعزالية للرأسمالية المتقدمة، تحتوى بداخلها عناصر من الحس الجيد والسيئ. وفى ظروف تاريخية معينة يمكن تعبئة عناصر الحس الجيد هذه تأييداً لرؤية للديمقراطية غير ديمقراطية أصلاً فى تأثيراتها الفعلية على أولئك الناس داخل الجماعة الذين يؤيدون رؤية للحرية لا تضفى الشرعية على الاختلاف فحسب، بل توفر فضاءً للتعبير عنه[20].

ولا ينبغى لأحد أن يفهم ذلك على أننى أعارض تماماً أفكار الأمة أو بناء جماعات متخيلة. فالنقد الاجتماعى، فى رأيى، هو أقصى أفعال الوطنية. وكما أقول فى كتابى "المعرفة الرسمية"، فإن النقد الشديد لسياسات الأمة يظهر التزاماً نحو الأمة نفسها. فهذا النقد يقول أن الواحد منا يطلب العمل وفقًا للمبادئ التى يفترض أنها تشكل جزءاً من السرديات التأسيسية للأمة والتى تُوَظَف فى إضفاء الشرعية على تبنيها لأنوا ع معينة من الحكم. إنه يشير إلى "أننى/أننا نعيش هنا"، وأن هذه بلدنا بالفعل، وهذا علَمنا أيضاً. إن سردية قومية تستبعد التاريخ الثرى للخلاف والمعارضة كجزء مُقَوِم لهذه الأمة لا يمكن بحال أن تعتبر شرعية. وعلى ذلك فبدلاً من الزعم بأن اللجنة تصرفت بطريقة مخالفة للوطنية، كان الحشد الملوح بالأعلام والحركة الوليدة التى تقف ورائه فى رأيى هما اللذان انخرطا فى فعل مخالف للوطنية حقًا، حيث اظهر فعلهم أن السردية القومية للحرية والعدالة تخضع "لإعادة تفاوض" وصرا ع دائمين على معناها ذاته[٢١]. ومأساة ١١ سبتمبر قد وفرت ظروفًا لمثل هذه الصراعات على المستوى المحلى، ليس فقط فى فصول جامعات مثل جامعتى، وإنما كذلك فى الطرق العادية التى نحكم بها مدارسنا.

إن وصف ما حدث مع لجنة المدارس يمكن أن يغطى صفحات. لكن رغم القوى التى اصطفت ضدها، توقف التهديد بالدعوة إلى انتخابات خاصة لطرد كل أعضاء اللجنة الذين صوتوا ضد فرض قسم الولاء والنشيد الوطنى على المدارس. وقد فشلت الدعوة إلى انتخابات جديدة فشلاً ذريعًا. فلم يستطع منظمو الحملة المحافظون أن يقتربوا من عدد الأصوات المطلوب لفرض انتخابات جديدة. وهذا عنصر مهم فى أى تقييم للتأثيرات الباقية لأحداث ١١ سبتمبر. ففى وجه الوطنية والغضب المنبعثين، وفى وجه الدعوات إلى تعزيز دولة الأمن القومى، وأن تكون المدارس جزءاً من خط الدفا ع الأول، كانت الغلبة على المستوى المحلى فى أنحاء كثيرة للعقول الحكيمة التى تمتلك رؤية أكثر رحابة للديمقراطية. لكن ذلك ليس نهاية هذه القصة. فالضغوط من اليمين أثرت بالفعل. فقد تركت اللجنة لكل مدرسة فردية أن تقرر إذا ما كنت ستفرض

الوطنية الإلزامية وكيف ستفرضها. نزع هذا القرار فتيل الخلاف بطريقة لها تاريخ طويل فى الولايات المتحدة. ستكون الغلبة للقرارات المحلية إذن، لكن ليس ثمة ما يضمن أن القرارات فى كل مدرسة محلية ستتفق مع رؤية رحبة للديمقراطية ترحب بالاختلاف كشكل من الالتزام الوطنى.

ولذلك فمن غير الواضح من الذى فاز ومن الذى خسر فى هذه الحالة. لكن الشىء الواضح هو أنه لا يمكن لأى تحليل لتأثيرات ١١ سبتمبر على المدارس أن يستقيم دون فهم طرق الارتباط الدينامى بين العالمى بالمحلى. فمثل هذا التحليل لا بد أن يفهم بالكامل العمل والتاريخ الأيديولوجيين الواسعين لمشروع الليبرالية الجديدة والمحافظين الجدد وتأثيراته على الخطابات التى تنتشر وتصبح حسًا عامًا فى مجتمعنا. ولا يستطيع أى تحليل أن يتجاهل الحاجات المتناقضة والتناقضات التى أوجدها هذا المشروع.

وثمة شىء أخير وهو أن التحليل الكامل يتطلب منا أن نتناول تأثيرات المنتجات المُسلَّعة للأشكال الثقافية الشعبية للترفيه التى يستخدمها كل واحد منا لكى "يرى" الأحداث بالغة الأهمية التى تحدث حولنا. لقد علمنا المحللون الثقافيون النقديون أشياءً كثيرة. نعم نحن نشارك فى متع أثيمة (وإلا فكيف تفسر تأطيرى لأحداث ١١ سبتمبر الكارثية من منظور صور هوليود؟). نعم أيضًا يمكن لنا أن نقرأ أى شكل ومحتوى ثقافى بالطريقة المهيمنة أو طريقة متفاوض عليها أو طريقة معارضة. لكن قد يكون من الحكمة أن تتذكر أنه - على الأقل فى حالة طريقة معايشة مايكل آبل للرعب والطائرات والبنايات والأجسام فى ١١ سبتمبر- كل الأشياء الثلاثة -طرق القراءة المهيمنة والمتفاوض عليها والمعارضة - حدثت فى نفس الوقت. وإدراك استجاباتنا المتناقضة ربما يكون الخطوة الأولى فى إيجاد استراتيجيات تعليمية ملائمة ونقدية اجتماعيًا للعمل مع كل طلابنا للتصدى لمشروعات الهيمنة الأكبر التى سنظل نواجهها فى المستقبل، مثل إعادة تعريف الديمقراطية بوصفها "حمى وطنية"(٢٢).

الهوامش

(1) See for example, Noam Chomsky, 9-11 (New York: Seven Stories Press, 2002).

(2) Michael W. Apple, Official Knowledge, 2nd ed. (New York: Routledge, 2000).

(3) Noam Chomsky, Profit Over People (New York: Seven Stories Press, 1999).

(4) Nancy Fraser, Unruly Practices (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1989).

(٥) رغم أننى استخدمت هذه الكلمة قبل ذلك فى كتابتى، فقد وضعت الكلمة "أمريكى" بين علامتى تنصيص لغرض اجتماعى فى هذه الجملة، حيث إنها تفصح عن الواقع الذى أود أن أعلق عليه عند هذه النقطة من المناقشة. فكل أمريكا الشمالية والوسطى والجنوبية على حد سواء جزء من الأمريكتين. لكن الولايات المتحدة (ومعظم العالم) يسلمون بأن الكلمة تشير إلى الولايات المتحدة. فاللغة ذاتها التى نستخدمها تعتبر دليلاً على الماضى والحاضر الإمبرياليين. انظر كتاب "الاستشراق" لإدوارد سعيد (New York: Random House, 1978) للحصول على واحد من التحليلات المبكرة والتى لا تزال مقنعة حول هذا الموضوع.

(6) Marcus Weaver-Hightower, The Gender of Terror and Heroes? (New York: Teachers College Record, forthcoming).

(7) Michael W. Apple, Cultural Politics and Education (New York: Teachers College Press, 1996).

(8) William Greider, One World, Ready or Not (New York: Simon and Schuster, 1997).

(٩) هذا أحد الأسباب التى تجعلنى أتعاطف مع بعض الحجج التى أوردتها كارمن لوك وجينيفر جور Carmen Luke and Jennifer Gore فى كتابيهما النسوية والتربية النقدية (New York: Routledge, 1992)، رغم أن أجزاءً من النقاط ربما تعتمد على قراءة محدودة لأجزاء من تقاليد التربية النقدية، ولا تجعلنى أتعاطف كثيراً مع ردود الفعل الدفاعية المفرطة من جانب عدد من كتاب "التربية النقدية".

فالمشروعات السياسية/التربوية، إذا أريد لها أن تكون ديمقراطية وفعالة، لا بد أن تكون جماعية. وهذا يتطلب الترحيب بالنقد الجدى والمشتبك.

(١٠) كان الواقع أكثر تعقيدًا من فعل المنع البسيط. فقد امتثلت لجنة المدارس بماديسون للقانون فعلاً بموافقتها على تشغيل موسيقى السلام الوطنى فى ميكروفون المدرسة. وهكذا فإذا قررت مدرسة، مثلاً، أن تُشَغِّل السلام الوطنى، فلا بد أن تكون نسخة موسيقية منه. وذلك بغرض استبعاد كلمات الحرب التى ترافق الموسيقى. فقد شعر بعض أعضاء اللجنة أنه فى وقت مأساة راحت فيها أرواح بريئة كثيرة، فإن آخر شىء يحتاجه الطلاب والمدارس هو القصائد الغنائية التى تمجد العسكرة. كان الحل هو المساومة: تشغيل نسخة موسيقية من السلام الوطنى. وقد أدى ذلك نفسه إلى ردود مضادة. فى أحد المدارس تم تشغيل نسخة جيمى هيندريكيس الشهيرة من نشيد العلّم ذى النجوم المتلألئة عبر ميكرفون المدرسة. وهذه النسخة، المتنافرة والخشنة، كانت جزءًا من تقاليد الموسيقى المناهضة للحرب فى أثناء الاحتجاجات فى حقبة فيتنام. وقد أثار ذلك غضبًا أكثر من جانب "الوطنيين" الذين كانوا غاضبين للغاية بالفعل من تصويت لجنة المدارس.

(11) See Apple Cultural Politics and Education (1996), and Michael W. Apple, Educating the "Right" Way: Markets, Standards, God. and Inequality (New York: Routledge, 2001).

(12) See Michael B. Katz, M. B., The Price of Citizenship (New York: Metropolitan Books, 2001); Apple Cultural Politics and Education; and Apple, Educating the "Right" Way (2001).

(13) Stuart Hall, "Popular Democratic vs. Authoritarian Populism," in Marxism and Democracy, edited by Alan Hunt (London: Lawrence and Wishart, 1980).

(14) See Apple, Educating the "Right" Way (2001).

(15) See Eric Foner, The Story of American Freedom (New York: Norton, 1998).

(16) Ibid., xiv.

(17) Roger Dale, "The Thatcherite Project in Education," Critical Social Policy 9 (1989-90): 4-19 and Apple, Educating the "Right" Way.

(18) See Apple, Educating the "Right" Way; and Linda Kintz, Between Jesus and the Market: The Emotions that Matter in Right-Wrong America (Durham, N.C.: Duke University Press, 1997).

(19) Benedict Anderson, Imagined Communities (New York: Verso, 1991).

(٢٠) يمكن بالطبع للجماعات المحافظة التى احتشدت ضد القرار الأولى للجنة أن تدعى أنها تمارس المعارضة وأن أعضاءها ينخرطون هم أيضًا فى عمل ديمقراطى. وهذا صحيح طالما أنه لم يتجاوز ذلك. لكن إذا كانت المعارضة تؤيد القمع واللامساواة، وإذا كانت المعارضة تسمى أفعال الناس الآخرين المؤيدة لحقوقهم الدستورية بأنها "غير وطنية"، فإن هذه المعارضة لا تقوم بالتأكيد على رؤية "رحبة" للديمقراطية. وهى رؤية يمكن أن توصف بأن فهمها الذاتى ليس وافيًا.

(٢١) من المهم، فى هذا الخصوص، أن نعرف أن قسم الولاء نفسه كان دائمًا موضع خلاف. تقول كلمات القسم:

أقسم بالولاء إلى علّم الولايات المتحدة الأمريكية، وإلى الجمهورية التى يرمز إليها، أمة واحدة، بمشيئة الله، بها الحرية والعدالة للجميع.

وقد أضيفت عبارة "بمشيئة الله" فى أثناء الحقبة الماكارثية فى أوائل الخمسينيات كجزء من المعركة ضد "الشيوعيين الملحدين". وحتى عبارة "إلى علّم الولايات المتحدة الأمريكية" تعد إضافة متأخرة. فقد كتب القسم فى الأصل اشتراكى معروف وكان فى بادئ الأمر يحتوى فقط على كلمات "أقسم بالولاء إلى العلّم". وفى العشرينيات نجحت مجموعة محافظة من النساء، تُدْعَى "بنات الجمهورية الأمريكية" Daughters of the American Republic فى الضغط من أجل إضافة كلمات "الولايات المتحدة الأمريكية" كجزء من حملة مناهضة للمهاجرين. حيث كن يخشين من أن يقسم المهاجرون بالولاء لعلم أمة أخرى، وهن، وغيرهم، بذلك يستخدمون القسم للتعبير عن أفكار تحريضية.

الفصل التاسع عشر

التربية الثورية النقدية عند نقطة الصفر

تجديد اليسار التربوى بعد ١١ سبتمبر

بيتر ماكلارين ورامين فراهماندبور(*)

يعالج هذا الفصل أهمية أن ينمى المعلمون قدراتهم على إشراك الطلاب فى مناقشات حول الإرهاب، وخلق فضاءات تعليمية داخل الفصول يمكن للطلاب من خلالها أن يعبروا عن قلقهم حول مأساة ١١ سبتمبر ومخاوفهم من إمكانية حدوث هجمات مستقبلية. ويتمثل أحد طرق إنجاز هذه المهمة فى أن نناقش ونحلل ونتأمل البناء الاجتماعى والتاريخى لمفاهيم مثل الإرهاب والوطنية. فنحن نرى أن هذه المفاهيم منبنية أيديولوجياً، وأنه يُقْصَد بها أيضًا أن تمثل رؤية ضيقة للعالم الاجتماعى المعقد الذى نعيش فيه. والمعلمون يمكن أن يساعدوا الطلاب فى تنمية "لغة النقد"[١] لكى

(*) بيتر ماكلارين Peter McLaren أستاذ التربية بقسم التربية الحضرية بالمدرسة العليا للتربية ودراسات المعلومات. ألف وشارك فى تأليف حوالى اربعين كتابًا وبحثًا فى التربية النقدية وعلم اجتماع التربية والمعرفة النقدية والدراسات الثقافية والنظرية الاجتماعية. وترجمت أعماله إلى ١١ لغة. كان أول من حصل على جائزة باولو فريرى فى العدالة الاجتماعية فى ٢٦ أبريل ٢٠٠٢.

رامين فراهماندبور Ramin Farahmandpur أستاذ التربية بقسم السياسات وأصول التربية والدراسات الإدارية بجامعة ولاية بورتلاند. ألف وشارك فى تأليف عدد من الكتب حول العولمة والليبرالية الجديدة والتربية النقدية والتعددية الثقافية. يشارك مع بيتر ماكلارين حاليًا فى تأليف كتاب بعنوان: Globalization and the New Imperialism: Towards a Revolutionary Pedagogy (Rowman &: Littlefield, forthcoming).

توجـهـهم فى أثناء تقصى كيف تُسْتَخدَم هذه المفاهيم "انتقائيًا" من جانب الطبقة الحاكمة لكى تمثل وتعيد إنتاج علاقات القوة القائمة بين الجماعات المهيمنة والمُخَضَعة فى المجتمع. فمثلاً يمكن للمعلمين أن يساعدوا الطلاب فى فهم كيف استغلت القوى اليمينية المعاصرة مأساة ١١ سبتمبر لجعل الوطنية مرادفة لأيديولوجيا الأمركة Amer-icanism، وكيف يُصَوَّر الإرهاب على أنه يمثل العنف من جانب العرب ضد الغربيين، وليس العكس.

إننا نؤمن بأن المربين يقع عليهم التزام أخلاقى بأن يقدموا منتدى يمكن للطلاب فيه أن يبحثوا ويناقشوا جهود اليمين لحشد الناس حول مبادراته للسياسة الأمريكية الداخلية والخارجية. وهذا يتطلب فحص جهود نخبة الإعلام والعناصر اليمينية لجعل الوطنية مرادفة للرأسمالية والنزعة الاستهلاكية. وفى هذا السياق يمكن للثقافة الإعلامية النقدية أن تلعب دوراً مهمًا فى تعميق فهم الطلاب للأحداث المأساوية المحيطة بهجمات ١١ سبتمبر، من خلال تزويدهم بالأدوات التربوية الضرورية لفك تشفير وتفسير الصور والتعليقات القصيرة والنصوص التى تنتجها أجهزة الإعلام السائدة. ومن أجل كشف التناقضات بين الوطنية والنزعة الاستهلاكية وبين الوطنية والديمقراطية وبين الوطنية والأمركة يحتاج الطلاب إلى أن تتوفر عندهم لغة النقد. ومن خلال كتابة هذا الفصل نتمنى أن نسهم فى تطوير هذه اللغة من خلال إلقاء الضوء على ما نعتبره بعض الارتباطات الأساسية بين العسكرة والإخضاع للشركات: بؤرة هذا الكتاب. ونتمنى أيضًا أن نقدم إستراتيجيات تعليمية، هى لغة الإمكان، يمكن للمربين ذوى العقلية النقدية أن يستخدموها لمنع أى إحساس بالعجز قد ينتج عن استكشاف هذه الموضوعات.

إرهاب مَنْ؟

يشكل فهم أسباب الإرهاب الخطوة الأولى التى يمكن أن يتخذها الطلاب والمعلمون لاستئصاله. ونموذج "التوابع" blowback لتشالمرز جونسن(٢) (وهو

مصطلح اِسْتُخدِم لأول مرة من جانب وكالة الاستخبارات المركزية CIA وكما تبناه بعض اليساريين للإشارة إلى الأعمال التى تنتج عن نتائج غير مقصودة للسياسات الأمريكية تظل سرية على الشعب الأمريكى) يقدم إطارًا واضحًا لتحليل هجمات ١١ سبتمبر. يجادل جونسن بأن ما تصفه أجهزة الإعلام السائدة بالأفعال الخبيثة "للإرهابيين" أو "أمراء المخدرات" أو "الدول المارقة" أو "تجار السلاح غير الشرعيين" يتضح فى الغالب أنها "توابع" لعمليات أمريكية سرية سابقة". والتوابع المرتبطة بالسياسة الخارجية الأمريكية وقعت عندما ربطت الولايات المتحدة نفسها بدعم الجماعات الإرهابية أو النظم الاستبدادية فى آسيا وأمريكا اللاتينية والشرق الأوسط، ثم استدار زبائنها على راعيتهم. وكما يرى جونسن فإن هجمات ١١ سبتمبر تعتبر مثالاً كلاسيكيًا للتوابع، حيث أحدثت السياسات الأمريكية نتائج غير مقصودة كان لها تأثيرات كارثية على المواطنين الأمريكيين واقتصاد مدينة نيويورك والاقتصاد الأمريكى والعالمى ككل. فأحداث ١١ سبتمبر يمكن النظر إليها كمثال نموذجى للتوابع، ذلك أن أسامة بن لادن والقوى الإسلامية الراديكالية المرتبطة بشبكة القاعدة كانت تتلقى الدعم والتسليح والتدريب والتمويل من عدة إدارات أمريكية ومن وكالة الاستخبارات المركزية. والفشل المهول لوكالة الاستخبارات المركزية لم يتمثل فقط فى أنها لم تكتشف الخطر وتتخذ تدابير لمنعه، ولكن أيضًا أنها أسهمت بقوة فى إنتاج نفس الجماعات التى تورطت فى الهجمات الإرهابية على الولايات المتحدة فى ١١ سبتمبر. يكشف كتاب "العاصفة: المخدرات والصحافة" لمؤلفيه كوكبيرن وسينت كلير Cockburn and St. Clair كيف ساعدت وكالة الاستخبارات المركزية أمراء الأفيون الذين سيطروا على أفغانستان وساعدت فى وصول طالبان إلى السلطة، وساعدت أخيرًا فى تمويل شبكة القاعدة التابعة لأسامة بن لادن(٣).

تفرض الولايات المتحدة عقوبات اقتصادية حادة على الدول الإسلامية التى ترتكب انتهاكات لحقوق الإنسان، وكذلك على شراء أسلحة الدمار الشامل. وفى نفس الوقت تتجاهل الولايات المتحدة الضحايا المسلمين لانتهاكات حقوق الإنسان فى

فلسطين والبوسنة وكوسوفو وكشمير والشيشان. ومن خلال مبيعات السلاح الكبيرة تسند الولايات المتحدة اقتصادها. وفى نفس الوقت تصر على العقوبات الاقتصادية لمنع تطوير السلاح فى ليبيا والسودان وإيران والعراق. وكما يشير ستيف نيفا Steve Niva فإن "السياسة الأمريكية المؤيدة لإسرائيل تفرض على الفلسطينيين بشكل غير عادل مطالب بالتخلى عن العنف أكثر مما تفرض على الإسرائيليين مطالب بإيقاف بناء المستوطنات الجديدة والالتزام بقرارات الأمم المتحدة الداعية إلى الانسحاب الإسرائيلى من الأراضى الفلسطينية"(٤).

وبوجه عام أكثر فإننا نرى أن أحداث ١١ سبتمبر يجب أن تُفْحَص فى سياق أزمة الرأسمالية العالمية. ونحن هنا لا نشير إلى مديرى الشركات -"فيروسات إيبيولا التى أصابت الرأسمالية"- بقدر ما نشير إلى عولمة قوى الإنتاج فى ظل تحرير التجارة. ونحن فى ذلك نتبع عدداً من التأكيدات الرئيسية لوليام روبنسن William Robinson، وتحديداً أنه فى العقود الأخيرة أصبحت عملية الإنتاج الرأسمالى نفسها عابرة للحدود على نحو متزايد(٥). فقد انتقلنا من الاقتصاد العالمى world economy إلى حقبة جديدة تُعْرَف باسم الاقتصاد العولى global economy. فبينما كان الاقتصاد العالمى فى السابق يقوم على تنمية الاقتصادات الوطنية ودوائر التراكم الوطنية التى كانت ترتبط ببعضها من خلال تجارة السلع وتدفق رأس المال فى سوق دولى متكامل، وكانت الدول القومية تتوسط الحدود بين أنماط الإنتاج المختلفة، أعيد تنظيم نظم الإنتاج الوطنية اليوم وتم إدماجها وظيفياً فى الدوائر العالمية، بما أدى إلى خلق ميدان وحيد ومشوه جداً للرأسمالية العالمية. ونحن هنا نتحدث عن مجاوزة الحدود transnationalization الوطنية فى إنتاج السلع والخدمات (العولمة globalization)، وليس فقط توسع التدفق التجارى والمالى عبر الحدود الوطنية (التدويل internationalization). والنظام المالى العولى الجديد ينثر الأرباح حول العالم، حيث أصبح العالم موحداً فى نمط إنتاج وحيد، وحيث يؤدى النظام العالمى الواحد إلى إحداث الدمج العضوى للدول والمناطق المختلفة فى الاقتصاد العالمى.

إن النتائج المترتبة على إعادة هيكلة الجهاز الإنتاجى العالمى مهولة بالفعل. ونحن نتفق مع روب`نسن على أن التغيرات التكنولوجية تنتج عن الصراع الطبقى، وهو فى هذه الحالة القيود على التراكم المفروضة من جانب الطبقات الشعبية حول العالم. فنحن أمام تشكل طبقى عالمى، حيث يحدث التكامل العابر للحدود بين الطبقات الوطنية مصاحبًا للتكامل العابر للحدود للأبنية الإنتاجية الوطنية. وقد عجل ذلك بانقسام العالم إلى طبقة برجوازية عالمية (الشريحة الطبقية العالمية المهيمنة) وطبقة عاملة عالمية. بمعنى أن الجماعات المهيمنة تنصهر فى طبقة أو شريحة طبقية فى فضاء متجاوز للحدود. وهناك كتلة تاريخية رأسمالية منبثقة تؤازرها طبقة رأسمالية عالمية وتمثلها البرجوازية العالمية. والولايات المتحدة تلعب دور القيادة نيابة عن النخبة الصاعدة متجاوزة الحدود، بمعنى أن الولايات المتحدة تأخذ مركز الصدارة فى تطوير السياسات والإستراتيجيات نيابة عن الأجندة الرأسمالية العالمية للنخبة متجاوزة الحدود. وينتج عن ذلك أن النضال الاجتماعى الثورى يجب أن يصبح متجاوزًا للحدود كقوة من أسفل من أجل مواجهة القوة الرأسمالية متجاوزة الحدود من أعلى.

يمثل سوق اليوم بالتأكيد استمرارًا للأيديولوجية الريجانية Reganism التى يصفها مانينج ماربل Manning Marable بالأسواق الحرة والشركات غير المقيدة تنظيميًا والعسكرة العدوانية فى الخارج، وإخماد الحريات المدنية والحقوق المدنية فى الداخل. والولايات المتحدة الآن أقرب إلى المثال الريجانى لدولة الأمن القومى، "حيث تقتصر الوظائف الشرعية للحكومة على أمور الدفاع القومى والأمن العام وتقديم إعانات ضريبية للأغنياء"(٦). إنه ازدهار "الكينزية العسكرية" الريجانية: "إنفاق مئات المليارات على المعدات العسكرية ومخططات تسليح خيالية مثل 'حرب النجوم'"(٧).

من الواضح أيضًا أن الرأسمالية العالمية اليوم تحاول أن تعيد تأسيس نفسها فى تكوينات عابرة للحدود، وذلك لأن أشكالها الحالية يتعذر الدفاع عنها. معنى ذلك أن

النخب الرأسمالية عابرة الحدود تصادر فرص استخدام القوة العسكرية لحماية أسواقها وخلق أسواق جديدة. حقيقةً ثمة تهديد أخطر من الأعمال الإرهابية الفردية يكمن اليوم فى التناقضات المتنوعة داخل نظام الرأسمالية العالمية. وعلى مدار تاريخها، كانت الرأسمالية الأمريكية تحاول النجاة فى أوقات الأزمات بإزالة الإنتاج والوظائف، بما يجبر العاملين على قبول ظروف عمل أكثر سوءً، ومصادرة الفرص التى قد تنشأ ويؤيد الجمهور فيها العمل العسكرى لحماية ما تُعَرِفه الولايات المتحدة بأنه مصالحها الحيوية. وجماعات السكان المتقدمة والمتخلفة التى تحتل مواقع متناقضة وغير مستقرة فى بيئة آخذة فى التعولم أكثر فأكثر، إلى جانب العداوات الثقافية والدينية بين الفاعلين الرأسماليين، تخلق ظروف اليأس والغضب بين الشرائح المضطهَدة. ونحن لا نقول ذلك لنعطى مصداقية للإرهاب بوصفه استجابة لهذا الغضب، وإنما نحاول أن نفهم ونمنع الظروف التى يشتعل فيها الإرهاب. ويحذر ماربل من أن "السؤال لماذا يكرهوننا؟ يمكن أن يجاب عليه فقط من منظور من الفقر والجوع والاستغلال الاقتصادى المتفشى فى العالم الثالث"[٨].

وفى ضوء هذا التحدى العالمى الرهيب، يكون من المهم أن يسأل المربون الأسئلة التالية: هل ثمة بديل اشتراكى ممكن للرأسمالية؟ كيف يمكن أن يكون العالم بدون العمل المأجور؟ هل العالم بدون انتزاع فائض القيمة والاستغلال الذى يصاحبه سيكون أكثر أمانًا وأكثر عدلاً وتقل فيه الظروف التى تولد الإرهاب؟

فضح العولمة الليبرالية الجديدة

على النقيض من الأساطير التى روجتها أجهزة الإعلام المملوكة للشركات، لا تُحْدث العولمة بأى شكل من الأشكال الظروف المواتية للانسجام السياسى أو الاستقرار الاقتصادى. وكذلك لا توفر العولمة النمو الاقتصادى المتبادل لتلك الأمم، خاصة دول العالم الثالث، التى تُجْبَر على المشاركة فى الاقتصاد العالمى الذى تتزعمه الولايات المتحدة. والفضيحة الكبرى فى عصرنا، كما يكتب بتراس وفيلتميير[٩]، هى

أن العـولمة تلفـق أيديولوجـيـا تقـول أن كل الدول تسـتـفـيـد بنفس القـدر من عـولمة التجارة. لكن العولمة، على خلاف ما يقوله لنا مثقفو الشركات مراراً وتكراراً، ليست بأى حال من الأحوال عملية "غير قابلة للنقض" ولا يمكن إيقافها، نشأت عن ظروف اجتماعية وتاريخية معينة. لكننا نؤكد أن العولمة عملية ينظمها أنصار السياسات الاجتماعية والاقتصادية الليبرالية الجديدة. لكننا لا يجب أن نسلم أنفسنا لحتمية العولمة الليبرالية الجديدة.

ومما تجدر ملاحظته أنه تحت راية العولمة، يزعم أنصار الشركات العالمية أن تدويل رأس المال هو الحل لتراجع معدل الربح. فبالنسبة لأنصار السوق الحر، ومنهم ميلتون فريدمان، تعتبر العولمة العلاج لأزمة تراكم رأس المال. لكننا نرفض كليةً مزاعم أن العولمة تمثل بأى حال من الأحوال قفزة نوعية فى الإنتاج الرأسمالي. ونرى بدلاً من ذلك أن العولمة تمثل عدداً من التطورات الأساسية فى الأزمة الاقتصادية الرأسمالية. تتضمن هذه التطورات، من بين أشياء أخرى:

- حل قصير المدى لتراجع معدل الإنتاج طويل المدى.
- تركيز المنافسة بين الدول الإمبريالية القيادية، وعلى الأخص بين الولايات المتحدة واليابان وألمانيا (أكبر الاقتصادات الصناعية الغربية التى حولت جزءاً من إنتاجها إلى دول العالم الثالث).
- تدويل الاستثمار ورأس المال المضارِب.
- التقسيم الدولى للعمل نتيجة لإدماج التكنولوجيا الجديدة بغرض رفع معدل الإنتاج.
- توظيف طرق جديدة للإنتاج المرن مستمدة فى الأساس من نظم التراكم ما بعد الفوردية.
- وأخيراً وليس آخراً هجمات شديدة على الطبقة العاملة والفقراء من جانب اليمين نيابة عن الطبقات الحاكمة.

إن مفهوم العولمة يفيد، فى رأينا، فى صرف الانتباه عن الأهداف الأوسع للإمبريالية الأمريكية: تأسيس الهيمنة السياسية، وتسهيل الاستغلال الاقتصادى، ونهب الموارد الطبيعية لدول العالم الثالث. بمعنى أن مفهوم العولمة يعمل كتستار دخانى يخفى الأهداف الرئيسية لسعى الامبريالية الأمريكية إلى الهيمنة العالمية. وعلى ذلك فنحن نؤمن بأن مفهوم الإمبريالية يعكس على نحو أدق أهداف السياسة الخارجية الأمريكية.

وأخيرًا لا بد أن نذكر أيضًا أن أحد أهداف السياسات الاجتماعية والاقتصادية الليبرالية الجديدة هى أن تحرر رأس المال من أية قيود تنظيمية قد تُفْرَض عليه من الأجهزة الحكومية. وجزء من السياسات الاجتماعية والاقتصادية الليبرالية الجديدة يُنَفذ من خلال الخصخصة، أى بيع المشروعات والصناعات المملوكة للدولة والسلع والخدمات المملوكة للقطاع العام إلى القطاع الخاص، الذى يُنفَذ فى الأساس تحت دعاوى "الكفاءة" و"الإنتاجية"، هاتان الكلمتان الرنانتان اللتان تستخدمان لإخفاء سرقة الشركات للموارد الاجتماعية. وعلاوة على ذلك يعمل إلغاء القيود التنظيمية deregulation كـ"منطقة حاجزة" لتجنب أية تهديدات كبيرة ضد أرباح الشركات رغم البطالة والأضرار البيئية المتزايدة التى سببتها، ناهيك عن تقليص الإنفاق العام على الخدمات الاجتماعية، التى تتضمن على سبيل المثال لا الحصر التعليم العام والخدمات الصحية ورعاية الطفولة. كل ذلك فى النهاية من أجل تمكين اليمين من إلغاء مفهوم "المصلحة العامة" والاستعاضة عنه بأيديولوجيا "المسئولية الشخصية" التى تمثل جزءًا من النزعة المحافظة المتحمسة لجورج بوش.

السوق الجديد: العبودية العالمية

إن الرأسمالية أكثر من مجرد درس رصين للمؤرخين، فهى توفر المعرض المثالى لمأساة النوع الإنسانى. وهى لا تتضمن فقط الرجال والنساء الذين يُجْبَرن على العمل فى ظروف عمل شاقة لساعات لا تطاق وفى مقابل أجر لا يكفى ضرورات الحياة، لكن

أيضًا الأطفال الذين يكدحون فى ظروف خطرة داخل المصانع والورش التى تصنع السلع الاستهلاكية العديدة (مثل أحذية نايك) التى تُشْحَن إلى الأسواق الاستهلاكية الواقعة فى الدول الرأسمالية المتقدمة. والرأسمالية لا تميز بين ضحاياها، فهى لعبة عادلة فى ذلك، وهى "تطول" الجميع. وجميع البشر ناضجون بما يكفى للاستغلال من جانبها. ولذلك لا يجب أن يُفاجئ أحدنا أن الرأسمالية تنخرط وهى سعيدة فى حرب ضد الأطفال. فحول العالم هناك ٢٥٠ مليون طفل تقريبًا يعملون فى الوقت الحاضر (بعض التقديرات ترفع هذا العدد إلى ٤٠٠ مليون)؛ ٩٠ مليون تقريبًا من الـ١٧٩ مليون طفل فى الهند يعملون؛ والأطفال فى المنطقة الجنوبية من الهند يعملون ستة عشر ساعة يوميًا لمدة ستة أيام فى الأسبوع فى مقابل ١,٣٠ دولار فى الأسبوع؛ وفى بانغلادش يبلغ عدد الأطفال العاملين ٦,١ مليون طفل؛ وفى تايلاند يوجد ١٣٠٠٠ طفل تقريبًا يعملون بالدعارة (بعض التقديرات ترفع هذا العدد إلى ٨٠٠٠٠٠ طفل)؛ وفى نيروبى يعيش ٣٠٠٠٠ طفل فى الشوارع؛ وفى كولومبيا ٢٨٪ من عاهرات بوجوتا بنات صغيرات بين عمر عشر سنوات وأربعة عشر سنة؛ وفى الولايات المتحدة يعمل ٢٩٠٠٠٠ طفل تقريبًا بشكل غير قانونى فى صناعات مختلفة، منهم ٥٩٦٠٠ طفل تحت عمر أربعة عشر سنة[١٠]. فبالنسبة للمستغلين الرأسماليين تعتبر الحرب على الأطفال مربحة، ولذلك فلا بد لها أن تؤدى جيدًا لكى تكون قادرة على استغلال أكثر سكان العالم عجزًا.

وعلى النقيض من الرأى الشعبى، لا تزال العبودية بعيدة عن الفناء. فحوالى ٢٧ مليون شخص حول العالم لا يتقاضون أجورًا وتخضع حياتهم بالكامل لسيطرة الآخرين عن طريق العنف. ووفقًا لكيفين بيلز Kevin Bales فإن "العبودية لا تتوقف عن التغير والنمو"[١١]. لقد اختفت العبودية باعتبارها "الملكية القانونية لشخص على آخر"، لكن يظل حقيقيًا أن العبودية صناعة متنامية حول العالم، من مواخير تايلاند إلى مناجم الفحم بالبرازيل، إلى النساء فى الغرب اللاتى تم خطفهن من أوروبا الشرقية. وكما يورد بيلز فإنه:

بـ ٢ دولار أمريكي تكون الشابات في مواخير تايلاند من أغلى عبيد العالم. والناس اليوم، خاصة الأطفال يمكن أن يُسْتَعبَدوا بـ ٤٥ دولارًا أمريكيًا. إن الصبي ابن الحادية عشر من العمر الذي قابلته في الهند قبل ستة أسابيع وضعه أبواه في الرق في مقابل ٣٥ دولارًا أمريكيًا. وهو الآن يعمل ١٤ ساعة يوميًا، سبعة أيام في الأسبوع، في صنع سجائر البيدي beedi. لقد اسْتُرِق هذا الفتى بسبب "عبودية الدَين"، وهي أحد التنويعات الأكثر شيوعًا لموضوع العبودية. وعبودية الدَين هي عبودية ملتوية، فبدلاً من أن يكون العبد ملكية، يكون ملازمًا لسيده. فالولد وكل عمله ملك لصاحب العبد إلى أن يتم سداد الدين. وإلى أن يجد أبواه المال يظل هذا الولد ماكينة لف سجائر، ولا يأكل إلا ما يقيم أوده لأداء مهمته. كما يمكن أن يُسْتَعبَد الناس باسم الدِين مثل طائفة الدفداسي Devdasi الهندية أو التروكوسي trokosi من غرب أفريقيا. وكذلك يمكن للحكومات أن تستعبد الناس، مثل مئات الآلاف من الأشخاص الذين تتحدث عنهم منظمة العمل الدولية في بورما. وأيًا كان من يستعبدهم، وأيًا كانت الخدعة، عقد مزيف أو الدَين أو القرابة، فإن الواقع بالنسبة للعبيد لا يتغير(١٢).

إن السبب الذي يجعل العبودية تتخفى عن ناظرنا هو أن الوظائف الغربية غير مهددة وأن الشركات متعددة الجنسيات ليست مشروعات قائمة على العبيد. في حين أن مواطني ٧٤٪ من الدول ذات عبء الدين الدولي العالي يُنقَلون بانتظام إلى نظام العبودية. بينما الرقم المقابل في الدول ذات عبء الدين الدولي المنخفض هو ٢٩٪. وفي ٥٠٪ من الدول ذات عبء الدين الدولي العالي تمثل العبودية سمة منتظمة للاقتصاد، مقارنة بـ ١٢٪ فقط في الدول ذات الدين الدولي المنخفض(١٣). ويلاحظ تقرير تم

تسريبه حديثًا عن وكالة الاستخبارات المركزية أن حوالى ٥٠٠٠٠ امرأة وطفل يُجْبَرون على العمل كعمال رقيق فى الولايات المتحدة فى كل سنة. وهؤلاء يُغْرَون بالسفر إلى الولايات المتحدة من آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وأوروبا الشرقية، ويعملون بشكل أساسى كمومسات وخدم فى البيوت أو عمال محتجزين. ومن أمثلة ذلك أنه فى عام ١٩٩٥ تم العثور على ٧٢ عامل ملابس تايلاندى مسجونين فى أحد الورش فى لوس أنجليس، كانوا يُجْبَرون عل العمل ٢٢ ساعة يوميًا بـ ٦٢ سنت فى الساعة[١٤].

إن أولئك الذين يعتقدون بسذاجة أن العبودية اختفت فى الولايات المتحدة قد يتفاجئوا عندما يعلموا أنه فى كثير من السجون عبر الولايات المتحدة تم تحديث العبودية إلى "عمل المتحجزين". وهناك عدد من الشركات، منها جى سى بينى J.C. Penney وآى بى إم IBM وغيرها، تتربح دون خجل من عمل السجون. ثم ماذا عن الـ ٥٠٠٠٠ امرأة وطفل الذى يُجْبَرون على الدعارة والعبودية المنزلية والعمل الشاق فى كل عام؟

إن ظروف العمل والمعيشة المتدهورة للعمال فى دول العالم الثالث تشبه – وفى نواح عديدة تتجاوز – ظروف العمل والمعيشة المروعة للطبقة العاملة الإنجليزية كما وصفها فريدريك إنجلز فى كتابه[١٥]. ففى سريلانكا، كثير من العمال يجب أن يعملوا ١٤ ساعة يوميًا، وفى إندونيسيا والفلبين يعملون نوبات عمل مدة الواحدة ١٢ ساعة فى اليوم، وفى المناطق الجنوبية من الصين يعملون ١٦ ساعة فى المتوسط. وظروف عمل كثير من النساء فى الولايات المتحدة ليست أفضل بكثير منها فى الدول النامية. ففى ليتل سيجون Little Saigon الواقعة فى أورانج كونتى Orange County بكاليفورنيا ورد أن الحد الأدنى المتوسط لأجور المهاجرين غير الموثَّقين الذين يعملون فى الورش غير القانونية هو ١ دولار فى الساعة[١٦]. وداخل الورش والمصانع حول العالم يتم إخضاع الشابات لرقابة متواصلة وظروف عمل مذلة من جانب مديرى المصانع لكى يضمنوا العمل الكفء لخطوط الإنتاج. من أمثلة ذلك أنه كثيرًا ما تُعْطَى الشابات منشطات amphetamines لإطالة ساعات العمل، كما توضع دورات الحيض

لديهن تحت إشراف مستمر لمنع الحمل الذى يضر بالعمل لأنه يبطئ خطوط الإنتاج(١٧). وفى خطوط التجميع يتم تنظيم التكاثر البيولوجى للنساء وتوفيقه مع نبض الطرق الجديدة للإنتاج بغرض زيادة الربحية وتقليل تكاليف العمل. وتُجْبَر الشابات على تقديم أدلة على أنهن يحضن شهرياً من خلال المشاركة فى "عمليات فحص الحفاضات الصحية"(١٨). وكجزء من قوة العمل المشروطة يتم توظيف النساء بعقود مدتها ٢٨ يوماً تتزامن مع دورات حيضهن. ومن ينكشف أنهن حوامل يُفْصَلن آليًا ويُطْرَدن من مبنى المصنع.

فى عام ١٩٩٨ استطاعت شركة نايك بجيشها العالمى المكون من ٥٠٠٠٠٠ عامل شبه ماهر مؤقت فى دول العالم الثالث أن تحقق عائد قياسى قدره ٦,٤ مليار دولار بـ"مساعدة" القوانين البيئية غير المقيدة والعمل الرخيص غير المحمى نقابياً. وفى دول نامية فقيرة مثل هايتى قيل أن أجر الساعة كان ١٢ سنتًا، فى مقابل ٣١ سنتًا فى هندوراس. وتكلفة تصنيع الزوج من أحذية نايك التى تباع بسعر ١٢٠,٠٠ دولار تقدر بحوالى من ٧٠ إلى ٨٠ سنتًا فى الورش شديدة الرطوبة بإندونيسيا.

والهجمات الأخيرة على برامج الرفاه والتعليم ثنائى اللغة والتعليم متعدد الثقافات والفعل التوكيدى تصور بقوة عدم توافق الرأسمالية مع الديمقراطية. يرسم مارك درى Mark Drey صورة مخيفة للرأسمالية المعاصرة فى نهاية القرن العشرين:

> **ربما تكون الشيوعية قد أُودِعت فى سلة المهملات بسطح مكتب التاريخ(*)، كما يذكرنا أنصار السوق الحر دون ملل، وربما يكون ماركس قد تحول إلى أيقونة ساخرة فى التسعينيات، لكن الشيطان الملتحى القديم قد تكون له الضحكة الأخيرة. فمع منعطف الألفية تنبثق الحرب الطبقية والسخط الشديد من جانب**

(*) تشبيهًا بجهاز الحاسب ومصطلحاته [المترجم].

"عمال العالم" باعتبارهما القضيتين الاجتماعيتين الأساسيتين فى القرن التالى. فالتفاوت المتزايد فى الدخل، مصحوبًا بنزيف الوظائف الصناعية فى أمريكا بسبب الأتمتة أو ترحيل المصانع إلى "العالم النامى" منخفض الأجر غير المحمى نقابيًا، يبذر أسنان التنين. واختفاء حتى عمل المصنع غير الماهر فى وقت يعجز فيه النمو الاقتصادى عن امتصاص العمال المخلوعين ينذر بكارثة، لأنه يحدث فى لحظة انقطعت فيها قيم الأمان التقليدية، بسبب ضياع الحركة العمالية وتفكيك المحافظين للخدمات الاجتماعية لصالح "حلول السوق" للأمراض الاجتماعية، والاستيلاء المستمر من جانب قوى الشركات على الحكومة التمثيلية، وكل ذلك خلق تربة خصبة لسياسة مدمرة من جانب الساخطين(١٩).

وعلى خلاف الأساطير الشعبية فليس المال هو مصدر ثروة الرأسمالية، وإنما هو عرق ودم العمال المستغَلين. فالتلاعب الوحشى بقوة عملهم هو الذى يخلق العائد لأقطاب المال فى الغرب الرأسمالى المتقدم. وفى ذلك يكتب دانيال سنجر أن "التساوى الفاحش بين ثروة مليارديرات العالم الكبار الذين لا يتجاوز عددهم بضع مئات ودخل حوالى ثلاثة مليارات من تعساء الأرض يصور هذه النقطة"(٢٠).

وفى أثناء كتابة هذا الفصل كان هناك تقدير يقول أن خمسة مليارات رجل وامرأة وطفل يُجْبَرون على أن يتعيشوا على ٢ دولار فى اليوم. وبينما تستحوذ أكبر مائتى شركة فى العالم على ٢٨٪ من احتكار الأنشطة الاقتصادية العالمية، فإنها لا تُوَظِف إلا ٠,٢٥٪ فقط من القوة العاملة العالمية. ولكى نضع الأمور فى نصابها لا بد أن نعرف أن إجمالى ثروة أغنى ٨٤ فرد فى العالم تتجاوز إجمالى الناتج المحلى لدولة الصين التى تضم سكان يقدرون بـ ١,٣ مليار.

إن التبـاينات المذهلة بين الأغنيـاء والفقـراء لم يعـد من الممكن السكوت عليـهـا. فالتناقضات المتأصلة فى علاقات الإنتاج الاجتماعية الرأسمالية واضحة وجلية لأولئك الذين يمتلكون الشجاعة الكافيـة لمواجهة الحقيقة حول الأزمة الحالية للرأسمالية العالمية. وللاستشهاد بمثال واحد على ذلك، نقول أنه بين عامى ١٩٩٧ و١٩٩٩ زاد متوسط ثروة الأغنياء الذين أسعدهم حظهم بأن جاءو فى قائمة الـ ٤٠٠ بمجلة فوربز بحوالى ٩٤٠ مليون دولار. وفى تناقض صارخ مع ذلك، تراجع، فى السنوات الاثنى عشر الماضية، صافى دخل أدنى ٤٠٪ من الأسر فى الولايات المتحدة بمقدار ٨٠٪. أو خذ مثال المدير التنفيذى لشركة ديزنى مايكل إيزنر Michael Eisner الذى قُدِر مرتبه السنوى عام ١٩٩٨ بحوالى ٥٧٥,٦ مليون دولار. ولك أن تقارن ذلك بمتوسط المرتب السنوى لموظفى شركة ديزنى الذى يبلغ ٢٥٠٧٠ دولار. ولا بد أن نتساءل، على سبيل المثال، لماذا يكون أجر الساعة للعامل فى غواتيمالا ٣٧ سنتًا، بينما يجمع فل نايت Phil Knight المدير التنفيذى لشركة نايك ثروة تقدر بـ ٥,٨ مليار دولار.

إن تناقضات رأس المال بوجه عام، ونقائص السوق فى الدول الرأسمالية المتقدمة فى الغرب، تتجلى بشكل خاص فى الولايات المتحدة. ففى كل ليلة جديدة يكون ٧٠٠٠٠٠ شخص تقريبًا مشردين فى الولايات المتحدة. وسنويًا يعايش مليونا شخص خبرة التشرد بلا سكن. ومن المأساوى أن واحدًا من كل أربعة أشخاص مشردين يكون طفلاً بريئًا. وفى غالبية المدن الحضرية الكبيرة فى الولايات المتحدة يعتبر التشرد جريمة. وقد تم ابتكار عدد من الطرق الإبداعية لإخفاء المشردين. ففى شيكاغو على سبيل المثال يتم القبض على المشردين ومحاكمتهم يوميًا. وهؤلاء هم ضحايا الطرد الاقتصادى غير الرسمى. ورودولف جيليانى Rudolph Giuliani قبل أن يعاد اختراعه كتجسيد عتيق لمدينة نيويورك نفسها، كان قد بدأ حملة "نوعية الحياة" فى مدينة نيويورك، التى تضمنت عمليات تمشيط وضبط ليلية للمشردين لضمان ألا ينتهكوا الحدود التى تفصل الأحياء الغنية عن الأحياء الفقيرة.

وبرغبة محضة فى طمس الماضى، قام الرأسماليون المعاصرون بمدرسة إنرون Enron للأخلاق بتحرير التاريخ من تعقيداته وزمنيته، ونقوه من رائحة الضحايا الكريهة. فالتراكم الرأسمالى يمكن أن يُعايَش بوصفه "حاضراً" أبدياً ينتج المتعة والسرور ذاتياً ولا يخلف أبداً وعده بالسعادة الأبدية. وإذا كانت هناك أية عدالة فى ثنايا النظام المتعال للأشياء فهو أنه عندما يُدعى أخو بوش الكبير كينيث لى أو "الولد كينى"(*) لأن يشرب من نهر النسيان الأفلاطونى، يقنعه نبى الضرورة prophet of Necessity بالعودة إلى الجمهورية فى تجسيده غير المزخرف، أى كخنزير يئن فى المذود فى انتظار أن يُقدَّم كعشاء يوم الأحد لكل "أولئك الذين اسِتُنزَفت صناديق التقاعد الخاصة بهم لملء مراغة الخنزير بالغنائم"(٢١).

إن الولايات المتحدة هى أقوى دولة رأسمالية فى العالم. فقائمة الـ٤٩٧ ملياردير (التى انخفضت من ٥٥١ ميلياردير عام ٢٠٠١ بسبب الكساد العالمي) فى العالم تضم ٢١٦ ملياردير من الولايات المتحدة، ثم ٣٥ من ألمانيا، ثم ٢٥ من اليابان. والثروة المجمعة لهؤلاء المليارديرات الـ٤٩٧ تساوى دخول نصف سكان العالم الأكثر فقراً. وحتى فى أغنى دولة على الأرض – الولايات المتحدة – يعيش طفل من كل ستة أطفال فى فقر. فوفقاً لتقرير نشره معهد أبحاث تقدمى – معهد السياسات الاقتصادية Economic Policy Institute. فإن واحداً من كل أربعة أمريكيين كان يحصل على أجر فى مستوى الفقر فى عام ٢٠٠٠، وبينما يطور مقدمو الرعاية الصحية الكبار مثل مستشفى جونز هوبكنز فى بالتيمور برامج تغطية صحية خاصة تقدم "خدمة ممتازة" للأغنياء (تتضمن وقتاً للتدليك وحمام بخار مجانى وفحوصات طبية فى أحدث معامل الاختبار)، لا يتمتع أربعين مليون أمريكى تقريباً بالتأمين الصحى من أساسه.

(*) كينيث لى Kenneth Lee رجل أعمال أمريكى معروف بدوره فى فضيحة الفساد الضخمة التى أدت إلى انهيار شركة إنرون التى عمل كمدير لها من عام ١٩٨٥ حتى استقالته فى ٢٣ يناير ٢٠٠٢ حُكم عليه بالسجن ٤٥ سنة وغرامات ماليه، لكنه مات فى ٥ يوليو ٢٠٠٦ مما أسقط الاتهامات.

لقد أعلنت الولايات المتحدة أن هجمات ١١ سبتمبر عمل حربي. وهذه الأفعال رغم أنها كانت بالفعل قاسية وتشبه الحرب وجريمة حقيرة ضد الإنسانية لا تشكل فعل حرب - أى هجومًا مسلحًا من دولة على أخرى - وإنما مجرد أفعال إرهابية (وذلك لا يجعلها أقل قبحًا بالتأكيد). وبعد أن فشل بوش الابن وإدارته فى الحصول على تفويض باستخدام القوة العسكرية من مجلس الأمن، حاول أن يحصل على إعلان حرب رسمى من الكونجرس، بينما أعطاه الأخير تفويض سلطات الحرب (عضو واحد فقط من الكونجرس هى باربرا لى Barbara Lee النائبة الأمريكية الأفريقية من أوكلند أظهرت الشجاعة للتصويت ضد هذا القرار، وفقط كمسألة مبدأ). بعد ذلك أقنعت إدارة بوش منظمة حلف شمال الأطلنطى بأن تُفَعِل المادة الخامسة من ميثاق الحلف فى محاولة منها للحصول على شكل من التبرير متعدد الأطراف للعمل العسكرى الأمريكي. وبعد الفشل فى محاولتين أخريين للحصول على موافقة مجلس الأمن على العمل العسكرى، بعث السفير الأمريكى بالأمم المتحدة جون نيجربونتى رسالة إلى مجلس الأمن زاعمًا أن المادة ٥١ من ميثاق الأمم المتحدة تعطى الولايات المتحدة الحق فى استخدام القوة ضد أى دولة تريد كجزء من حربها ضد الإرهاب الدولى (نيجروبونتى سفير سابق للولايات المتحدة فى هندوراس فى أثناء حرب الكونترا وأشرف على تمويل الكتيبة ٣١٦(*) التى أبادت المعارضة الديمقراطية).

المواطنة الجديدة

إن الرئيس بوش يحمل الآن تفويض حرب وشيك على بياض لتسليح الآلة العسكرية حتى بأسنان اليورانيوم المنضب لإطلاقه على أى فرد أو دولة يزعم أنه

(*) الوحدة من الجيش الهندوراسى المسئولة عن الاغتيالات السياسية والتعذيب لخصوم الحكومة السياسيين فى الثمانينات. يتلقى أفراد هذه الكتيبة التدريب والدعم من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية فى القواعد العسكرية الأمريكية فى هندوراس وخارجها.

تورطت فى هجمات ١١ سبتمبر أو حتى قدمت الحماية أو الملجأ أو المساعدة للأفراد الذين نفذوا تلك الهجمات[٢٢]. وقد قالها الرئيس بوش صريحة لا لبس فيها: من ليس معى فهو ضدى.

يوصل هذا الموقف رسالة مشئومة إلى الشباب الأمريكى حول أدوار ومسئوليات المواطنة الديمقراطية. فقد انحدرت إدارة بوش إلى أحط مستويات الانتهازية السياسية باستخدام هجمات ١١ سبتمبر كذريعة لتدشين عهد جديد للمواطنة كسر بشكل يتعذر إصلاحه الارتباط الذى لا ينفصل بين الديمقراطية والعدالة. وقد تمت التضحية بالعقل على مذبح العمل الطائش. إن كراهية الآخر، التى كانت تتطور على مدى عقود منذ عصر ريجان، انطلقت الآن من عقالها، مع هجوم عصبة بوش/تشينى العنيف على الإرهاب وكل الأشياء المعممة [ذات العمم]، مع حلول الإرهابيين محل أعدائنا السابقين: الخطر الأحمر من السهول الجورجية. كان أعضاء الطبقة الحاكمة هم مدافعى الخط الأمامى عن الحرب على الإرهاب، وكانوا جميعًا مستعدين للتضحية بالحقوق المدنية، إذا كان ذلك يحمى موقعهم فى تقسيم العمل العالمي. وسرعان ما دخل توازن مدننا المعقد بالفعل فى انقباضات مسعورة بسبب إمكانية وقوع الموت والدمار فجأة لأبريائنا. والأمل الوشيك دائمًا، وإن كان غير مُعرَّف، بأن يتحسن العالم أخرسته أحداث ١١ سبتمبر إلى الأبد. والإفقار العقلى للجمهور الأمريكى الذى تربى على مدى أجيال على الواقعية الإعلامية الفارغة وأدب مقطورات المتنزهات واعتدال نظام بيبسى الغذائى، أثبت أنه مفيد للرئيس بوش الذى ارتفعت شعبيته كصليبى مسيحى وفقًا لاستطلاعات الرأى الأخيرة. غير أن جليد بوش العقلى لن يذوب بفعل الاحترار الكونى. ولا يزال الرجل يروج الأفكار الأكثر تشددًا منذ رونالد ريجان حتى جعل الجمهور مقتنعًا بأنه الوحيد الذى يمتلك القوة لتنظيف الكوكب من ميليشيا محمد المقدسة.

فى عصر بوش أصبح من الخطر أن تفكر أو تسأل أسئلة كثيرة أو تتطلع أبعد من المعنى الظاهرى لما يقوله لنا السياسيون أو الجيش أو ما يسمى وكالات

استخباراتنا أو أجهزة الإعلام التابعة لهم. وبين معظم المعلقين الإعلاميين أصبح الفكر الجدلى قليل القيمة. فهو عالم أصبح من الأحوط فيه أن ننخرط فى ردود فعل مكررة ومحفوظة لما نواجهه على شاشات التلفزيون. فمن الأحوط أن نتجاوب بالطرق التى يحددها لنا المذيعون وضيوفهم السطحيون على أنها الوطنية: صفق لكل أعمال السلطات الحكومية (خاصة أعمال الرئيس)، كما لو كانت كهنوتية أو دامغة أخلاقياً. وقد أعلنت شبكة سى إن إن الإخبارية أن من "الفساد" التركيز على المعاناة المدنية التى تمارس حساباً عنصرياً يجعل الإصابات بين المدنيين فى الولايات المتحدة أدنى من تلك التى فى أفغانستان. ومن الواضح أن تلفزيون فوكس بالنسبة لإدارة بوش يقوم بوظيفة صحيفة برافدا Pravda للحكومات السوفيتية، فهو يحمى جورج بوش الابن من النقد العام ويؤيده بثبات فى عداواته وخصوماته المتجددة.

وقد غدا وزير التعليم السابق ومرشح الرئاسة فى الانتخابات الأولية داخل الحزب الجمهورى ٢٠٠٠ وليام بينيت William Bennett أحد أقوى المدافعين العامين عن بوش، وارتدى عباءة "فيلسوف الملك" بالنسبة للحزب الجمهوري. وبينيت الذى استفاد بوضوح من نصيحة هنرى كيسينجر بأن من يريد أن يصبح "خبيراً" معترفاً به يجب أن يتعلم أن "يردد إجماع أصحاب القوة"، نشر مؤخراً كتاب "لماذا نحارب: الوضوح الأخلاقى والحرب على الإرهاب"[٢٣]. وبصفته أحد الأنصار الغاضبين والعنيدين لآلة الحرب الأمريكية لا يزال بينيت يمثل الناطق الاستبدادى والمأجور العدوانى لجناح فى أقصى اليمين الجمهورى يرى فى نفسه القوامة الأخلاقية، ويخلط الانتصار الدينى (الكاثوليكى فى حالة بينيت) مع إحساس ساحق بأهميته والاستثناء المطلق لأى إمكانية شك فى قضية التفوق الأخلاقى الأمريكى فى العالم. وكتاب "لماذا نحارب" المفلس فلسفياً والناقم أخلاقياً والمشبوه عقلياً والخالى من الخيال والموصوم بإغراء المهنية، عبارة عن نقد مبتسر لحركة السلام، وما يعتبره بينيت قادتها الجهال والمختلين أخلاقياً الذين يلقى عليهم اللوم فى فشل الولايات المتحدة فى هزيمة الفيتناميين الشماليين ومساعدة أعداء الحضارة من خلال نقدهم المستمر لحرب

الرئيس بوش الدائمة على الإرهاب. وكتاب بينيت المصمم على الانتقام بإطلاق تبرير أخلاقى شامل و"تلقى" تفويض فلسفى -ناهيك عن موافقة النخبة الجمهورية- يعيد كتابة الامبريالية الوقحة بوصفها التزام ديمقراطى بتحرير العالم من فاعلى الشر. وتأييد بينيت الثابت لآلة الحرب الأمريكية وسياستها القائمة على الضربات الإجهاضية خبيث وحاجب للحقيقة. وأحكامه المطلقة عديمة الرحمة وتملقه النخبوى لجمهورية أفلاطون تنم عن احتقار للتفكير الجدلى وولاء أعمى لعقيدة محافظة. وبالنسبة لبينيت فإن مجرد طرح السؤال لماذا وقعت هجمات ١١ سبتمبر الإرهابية يعتبر فعل شائن أخلاقياً وخيانة للوطن. ويرفض بينيت ربط تاريخ الرأسمالية العالمية بتاريخ السياسة الخارجية الأمريكية، ويتجنب أية مناقشة للتناقض بين قيادتها المفترضة للحرب من أجل الديمقراطية ودعمها للحكام المستبدين فى أمريكا اللاتينية وتدريبها لقادة فرق الموت فى مدرسة الأمريكتين، وإطاحتها السرية بحكومات اشتراكية منتخبة ديمقراطياً، ودعمها لأمراء الحرب المعادين للشيوعية فى جنوب شرق آسيا وتكريسها الخانع لصالح الأغنياء، واستعدادها لمعاقبة كل أولئك الذين يقاومون تعديات النزعة الشركاتية العالمية.

دليل للتربية النقدية فيما بعد ١١ سبتمبر

إن دراسة الإرهاب يمكن، بل يجب، أن تُدمَج كجزء من منهج قائم على تداخل التخصصات فى الفصول الدراسية. وقد قدم بوب كوماموتو عدداً من الخطوات التى يمكن أن يستخدمها المعلمون كجزء من منهجهم لمساعدة الطلاب فى تقصى الإرهاب بطريقة منظمة[٢٤]. يتضمن مدخل كوماموتو دراسة التاريخ والاقتصاد والعلوم السياسية والجغرافيا والأنثروبولوجيا وعلم النفس الاجتماعى وعلم الاجتماع. ويمكن للمعلمين أن يبدءوا هذا المشروع بتقسيم طلابهم إلى عدة مجموعات. تركز كل مجموعة على أحد العوامل أو أحد المجالات الرئيسية المتعلقة بالإرهاب. على سبيل المثال يمكن

لمجموعة من الطلاب أن تبحث كيف يسهم النفط القادم من الشرق الأوسط ومبيعات السلاح الأمريكية إلى إسرائيل فى النزاعات والتوترات المستمرة فى هذه المنطقة من العالم. ومن منظور اجتماعى يمكن للطلاب أن يدرسوا كيف تسهم الظروف المعيشية القاسية والوحشية التى يتحملها الفلسطينيون فى مخيمات اللاجئين فى صنع الإرهاب. إضافة إلى أن الطلاب يمكن أن يبحثوا التعقيدات الجغرافية فى منطقة الشرق الأوسط التى أشعلت النزاعات والصراعات على الأرض المقدسة والأراضى المحتلة. وفى الميدان السياسى يمكن للطلاب أن يبحثوا عن ارتباطات بين ظهور القومية الفلسطينية والعربية والمصالح الاقتصادية والسياسية الأمريكية فى المنطقة. كما يمكن للطلاب أن يفحصوا الأصولية الإسلامية من خلال معارضتها التاريخية للماركسية وتبنيها لعلاقات الإنتاج الاجتماعية الرأسمالية. ومن منظور تاريخى يمكن للطلاب أن يبحثوا جذور كل من الإرهاب الفلسطينى وإرهاب الدولة الإسرائيلى فى محاولة لاستكشاف البدائل لكل منهما. وأخيراً وبالاعتماد على أدبيات علم النفس الاجتماعى يمكن للطلاب أن يتقصوا العوامل الدافعة المختلفة التى تجعل الأفراد والجماعات تنخرط فى الإرهاب والعنف ضد الرجال والنساء والأطفال الأبرياء.

وبعد التقصى الأولى يمكن لكل مجموعة أن تعرض على الفصل نتائجها وتتشارك مع الآخرين. وبعد ذلك يمكن للمعلمين أن يوجهوا الطلاب إلى صنع ارتباطات بين نتائجهم والعمليات الاجتماعية والتاريخية التى شكلت هذه المنطقة من العالم. على سبيل المثال يمكن للمعلمين أن يساعدوا الطلاب فى صنع ارتباطات بين الأعمال الإرهابية وممارسات مثل الاستعمار والامبريالية. ثانياً يمكن للطلاب أن يستكشفوا العلاقة بين التكنولوجيا الإعلامية الجديدة وطرق عرض الأعمال الإرهابية على الجمهور فى سياقات جغرافية - سياسية معينة. ثالثاً يمكن للطلاب أن يبحثوا كيف يمكن "لأسلحة الدمار الشامل" الجديدة (البيولوجية والكيماوية والنووية) التى قد تقع فى أيدى المنظمات الإرهابية أن تشكل تهديدات جديدة للسلام والاستقرار العالميين. وثمة

مجالات وموضوعات أخرى يمكن للطلاب أن يربطوا نتائجهم بها، منها الإرهاب المدعوم من الدولة والإرهاب بالمخدرات والإرهاب البيئى. فيمكن للطلاب على سبيل المثال أن يستكشفوا أى الدول التى ترعى الإرهاب من أجل حماية مصالحها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية(٢٥).

إن وضع هجمات ١١ سبتمبر الإرهابية فى السياق يفرض علينا أيضًا أن نضع سياسة الولايات المتحدة الخارجية موضع تساؤل، وكذلك مصالحها السياسية والاقتصادية الحيوية فى منطقة الشرق الأوسط، ناهيك عن دعمها لدولة إسرائيل. فنحن نعتقد أن السياسة الخارجية الأمريكية ولدت مرارة واستياءً عميقين لدى العرب، وكانت فى بعض الحالات عاملاً محفزًا لظهور التطرف الفلسطيني. هذا لا يعنى أن نحجب نقد معاداة السامية والجنسانية sexism ورهاب الأجانب لدى جماعات الأصوليين الإسلاميين (أو الأصوليين المسيحيين فى هذا الخصوص). ويمكن لطلاب التاريخ أن يحاولوا أيضًا أن يبحثوا عن ارتباطات بين نتائجهم والأسباب والتقاليد الطويلة "للخوف من الأمريكيين" Yankeephobia فى دول أمريكا اللاتينية والجنوبية. كما يمكن للطلاب أن يستكشفوا كيف أدت ممارسات العمل الظالمة من جانب الشركات الدولية فى دول العالم الثالث فى جعل المواطنين الأمريكيين أهدافًا سهلة للمشاعر المعادية للأمريكيين. وأخيرًا لا بد أن نذكر الطلاب والمعلمين بأن الهدف من هذه الأنشطة ليس إيجاد تبرير أو سبب للإرهاب والعنف، وإنما بالأحرى فهم ما يدفع الأفراد والجماعات إلى اللجوء إلى الإرهاب السياسى.

وأخيرًا يجب أن نذكر المعلمين بأن ممارسة الحقوق الديمقراطية تتطلب أن يُشرِكوا طلابهم فى حوارات ومناقشات ذات معنى حول القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى تؤثر على حياتهم. ولذلك لا بد من التمييز بين المواطنة الرسمية والمواطنة الحقيقية(٢٦) . فبينما ترتبط المواطنة الرسمية بالأبعاد القانونية للمواطنة فى ظل الديمقراطية الرأسمالية التى تنفصل فيها الحقوق السياسية عن الحقوق الاقتصادية، ترتبط المواطنة الحقيقية بشكل حميم بـ "قدرة الأفراد على

ممارسة تلك السلطات فى النقاش الفعلى، وفى تسوية القضايا السياسية"[٢٧]. ونحن نعتقد أن من المهم للمعلمين أن يوسعوا ويعززوا الفضاءات التعليمية التى يمكن للطلاب فيها أن يمارسوا "المواطنة الحقيقية". وفى إطار هذه الفضاءات الاجتماعية والسياسية والتربوية يمكن للمعلمين والطلاب والعمال أن يتولوا مهمة التمكين الذاتى من خلال مشاركتهم المباشرة فى عملية صنع القرار حول القضايا التى تؤثر بشكل مباشر على حياتهم اليومية على المستوى المحلى. وهذا يتضمن، من بين أشياء أخرى، إشراك الطلاب فى مناقشات حول قضايا مثل الإسكان والضرائب والتعليم والخدمات الصحية والبرامج الاجتماعية.

نحو تربية ثورية نقدية

يجب على المربين النقديين فى كافة أنحاء البلاد أن يقاوموا ما نراه الآن فى كافة أرجاء الولايات المتحدة: النزعة الدولتية statism الخائفة من الأجانب والعسكرة وتآكل الحريات المدنية والسعى إلى التدخلات العسكرية المتواصلة فى الخارج فى المناطق الممزقة غير المستقرة جغرافيًا-سياسيًا التى استجدت بعد الهجمات، وهى جميعها ستكون لها نتائج غير مفيدة على السلام العالمي. وذلك له أهمية كبيرة، خاصة فى ضوء تاريخ الإمبريالية الأمريكية وفى ضوء ملاحظة أخرى من ملاحظات إدوارد سعيد اللاذعة وهى أن "قصف المدنيين بلا شعور بمقاتلات إف - ١٦ والمروحيات القاذفة له نفس بنية وتأثير الإرهاب القومى التقليدى"[٢٨].

إننا كمربين نقديين يواجهنا نوع جديد من الإلحاح فى معركتنا من أجل إيجاد العدالة الاجتماعية على النطاق العالمى، وأن نؤسس ما أسماه كارل ماركس "النزعة الإنسانية الإيجابية". وفى الوقت الذى يبدو فيه أن النظرية الاجتماعية الماركسية مآلها إلى صندوق القمامة السياسى، تكون هذه النظرية مطلوبة أكثر من أى وقت سابق لكى تساعدنا فى فهم القوى والعلاقات التى تشكل مصائرنا الوطنية والدولية فى الوقت الحاضر. وفى ذلك يرى بريتل أويلمان:

أعتقد أن ما تقبل عليه الماركسية حاليًا هو تجنب إغراء اتخاذ المواقف بناءً على عواطفنا فقط. فالماركسية تشجعنا على ألا نمارس الوعظ حول الخير والشر ومن هم أكثر خيرية أو شرًا عندما نواجه أناسًا كثيرين قادرين على هذه الأفعال. فالماركسية تحثنا على أن نضع الحدث والأشخاص المنخرطين فى السياق، بمعنى كيف حدث ذلك فى عالمنا اليوم وكيف يتفق مع التاريخ ومع الزمن. وأنت عندما تمارس ذلك لا تستطيع أن تتجنب التعامل مع الدور الذى تلعبه الولايات المتحدة عبر سياستها الخارجية، وكذلك عبر الرأسمالية العالمية. إذ يجب أن نتناول ونفهم طرق التعامل معها حتى نتمكن من أن نعالج ليس فقط ١١ سبتمبر، ولكن كل ١١ سبتمبر قادم[٢٩].

إن من أهداف التربية النقدية/الثورية أن تعمل على إيجاد مجتمع عالمى لا تقع فيه أحداث من نوع ١١ سبتمبر ٢٠٠١. وهى تفعل ذلك من خلال خلق سياقات يمكن للممارسة الثورية/التحويلية أن تحدث فيها. فالتربية النقدية سياسة فهم، أى فعل معرفة يحاول أن يضع الحياة اليومية فى سياق جيوبوليتيكى أكبر، بهدف تعزيز مسئولية ذاتية جماعية إقليمية ونزعة كونية واسعة النطاق وتضامن عمالى عالمي. وهى تتطلب الشجاعة لفحص التناقضات الاجتماعية والسياسية، وربما حتى بشكل خاص تلك التناقضات التى تحكم السياسات والممارسات الاجتماعية الأمريكية السائدة. كما تتطلب أيضًا إعادة فحص بعض إخفاقات اليسار.

وفى مقابل هذا التكثيف للعلاقات الرأسمالية العالمية، وليس التحول فى طبيعة رأس المال نفسه، نحتاج إلى تطوير تربية نقدية تستطيع أن تشتبك مع الحياة اليومية كما تعاش فى قلب ميل رأس المال العالمى نحو الإمبراطورية. وهى التربية التى أطلقنا عليها التربية النقدية الثورية. والفكرة هنا ليست أن نكيف الطلاب مع العولمة، وإنما أن نجعلهم سيئى التكيف بشكل نقدى، حتى يصبحوا فاعلى تغيير فى الكفاح ضد

الرأسمالية. والوحدة الثورية العابرة لثقافات التى يطالب بها أنصار التربية النقدية تواجه دون كلل التكتل الطبقى الذى يمثله جورج بوش وكولن باول وكونداليزا رايس.

لا شك أن هجمات ١١ سبتمبر أعطت للأيديولوجية الرأسمالية والإمبريالية نصراً كبيراً وغير متوقع. فالرأسمالية الطفيلية تحت راية العولمة الليبرالية الجديدة وبرأس حربتها المتمثلة فى منظمة التجارة العالمية وصندوق النقد الدولى والبنك الدولى كانت كارثية على فقراء العالم. والكفاح أمام المربين اليساريين سيكون صعباً، لكن ثمة إشارات تبعث على الأمل. فى كتابها "طلاب ضد ورش العمل الشاق" تكتب ليزا فيزرستون:

> **إن حالات التطرف الثلاث – الحرب والإرهاب والكساد – يمكن أن تصرف انتباه الجمهور عن أشكال الجور اليومية التى تعززها الرأسمالية. لكنها فى المقابل تفاقم مشكلات النظام بالتأكيد: التخفيضات الضريبية التى فرضها بوش لصالح الشركات، والطرق الظالمة التى تجعل الطبقة العاملة تتحمل كل عبء قومى، بدءاً من التباطؤ الاقتصادى حتى الجمرة الخبيثة(٢٠).**

وفى حين لا يوجد ارتباط مباشر بين الصعوبات الاقتصادية الحالية التى نواجهها فى الولايات المتحدة وراديكالية الطبقة العاملة والمقاومة المسلحة، فقد بدأ الناس الآن فى التساؤل بجدية أكثر حول النظام الحالى. وثمة تطور مشجع آخر نشهده وهو الرايكالية التقدمية بين الشباب. وفى ذلك تقول فيذرستون:

> **يقول كثير من النشطاء أن هجمات ١١ سبتمبر تركت الناس أكثر نهماً إلى عمل اجتماعى تقدمى متفائل. وحركة العدالة الاقتصادية العالمية، على وجه الخصوص، قد تجد فرصة أفضل لأن يُسْمَع صوتها، فى وقت ينظر فيه الأمريكيون إلى العالم فجاة ويتعجبوا "لماذا يكرهوننا ...". ففى رأى الكثيرين أكدت**

أحداث ١١ سبتمبر الحاجة إلى إعادة التفكير فى دور أمريكا فى العالم وإصلاح التفاوت الاقتصادى العالمى(٣١).

إن هزيمة الإمبريالية الأمريكية سوف تتطلب من المعلمين أن ينضموا إلى الجهود المناهضة للحرب وحركات السلام عبر كافة أنحاء البلاد. فالتكاسل على هذه الجبهة قد يؤدى إلى تصاعد الأعمال الإرهابية هنا فى "الوطن" وكذلك فى كل أنحاء العالم. وفى ضوء الغموض الذى يلف مستقبلنا الجماعى، يكون من المهم أكثر من أى وقت سابق أن يشارك المربون فى الحركات الاجتماعية الشعبية - الإقليمية والقومية والدولية - لمقاومة المغامرات العسكرية وإنرنة Enronization [نسبة لشركة إنرون] الحياة العالمية التى تعززها الإمبريالية الأمريكية. وكما عبر مايكل بيرنت بلغة بليغة فإن "أولئك الذين يؤمنون بالديمقراطية لا يجب أن يثنيهم شيء عن تصميمهم على التربية والتنظيم والحض، فعلى أية حال تكون السباحة ضد التيار أفضل دائمًا من أن يجرفك الشلال"(٣٢).

الهوامش

(1) See Henry Giroux, Teachers as Intellectuals: Toward a Critical Pedagogy of Learning (South Hadley, Mass.: Bergin and Garvey, 1988).

(2) Chalmers Johnson, Blowback: The Costs and Consequences of American Empire (New York: Owl Books, 2000).

(3) Alexander Cockburn and Jeffrey St. Clair, Whiteout: The CIA, Drugs, and the Press (New York: Verso, 1999).

(4) Steve Niva, "Addressing the Sources of Middle Eastern Violence against the United States," in Common Dreams News Center (September 14, 2001), available at

www.commondreams.org/views01/0914-04.htm.

(5) See William Robinson, "Social Theory and Globalization: The Rise of a Transnational State," Theory and Society 30 (2001): 157-200.

(6) Manning Marable, "The Failure of U.S. Foreign Policies," in Along the Color Lines (NovemberlS, 2001); available from www.manningmarable.net.

(7) Manning Marable, "Terrorism and the Struggle for Peace," in The Mail Archive (October 25, 2001), available at mail-archive.com/brc-news@lists.tao.ca/msg00662.html.

(8) Ibid.

(9) See James Petras and Henry Veltmeyer, Globalization Unmasked: Imperialism in the 21st Century (Halifax, Nova Scotia: Fernwood Publishing, 2001).

(10) David Kameras, "Bringing Home Child Labor: What it Takes to Make the Products We Buy," America@Work 3, no. 5 (1998): 12-16.

(11) Kevin Bales, "Throwaway People," Index on Censorship 28, no. 1 (2000): 36-45.

(12) Ibid., 38.

(13) Ibid., 36.

(14) Barry Grey, "Leaked CIA Report Says 50,000 Sold Into Slavery in US Every Year," in World Socialist Web Site (April 25, 2000) available at wsws.org/articles/2000/apr2000/slav-a03.shtml.

(15) Friedrich Engels, The Conditions of the Working Class in England (Chicago: Academy Chicago Publishers, 1994)

(16) James B. Parks, "This Holiday Season No Sweat," America@Work 2, no. 10 (1997): 11.

(17) Ibid., 12.

(18) Naomi Klein, No Logo: Taking Aim at the Brand Bullies (New York: Picador, 1999).

(19) Mark Drey, The Pyrotechnic Insanitarium: American Culture at the Brink (New York: Grove Press, 1999), 262-63.

(20) Daniel Singer, Whose Millennium? Theirs or Ours? (New York: Monthly Review Press, 1999), 216.

(21) Alexander Cockburn, "The Hog Wallow," The Nation 275, no. 5 (2002): 8.

(22) See Francis Boyle, " No War against Afghanistan!" in Ratical (October 18, 2001) [cited October 20, 2001], available at www.ratical.org/ratville/CAH/fabll2901.html.

(23) William Bennett, Why We Fight: Moral Clarity and the War on Terrorism (New York: Doubleday, 2002).

(24) Bob Kumamoto, "The Study of Terrorism: An Interdisciplinary Approach for the Classroom," Social Studies Review 33, no. 1 (1993): 16-21.

(25) These examples have been drawn from Kumamoto, "The Study of Terrorism." Petras and Veltmeyer, Globalization Unmasked.

(26) Ibid., 121.

(27) Edward Said, "Islam and the West are Inadequate Banners," in The Observer ([September 16, 2001] [cited on September 18, 2001]), available at www.observer. co.uk/comment/story/0,6903,552764,00.html.

(28) Bertell Oilman, How to Take an Exam and Remake the World (Montreal: Black Rose Books, 2001), 7.

(29) Lisa Featherstone, Students against Sweatshops (London and New York: Verso, 2002), 104.

(30) Ibid., 104-105.

(31) Michael Parenti, The Terrorism Trap: September 11 and Beyond (San Francisco: City Lights Books, 2001), 111.

المحرران فى سطور:

كينيث سولتمان:

أستاذ الأصول الاجتماعية والثقافية للتربية بجامعة ديبول DePaul.

أهم مؤلفاته: المدارس العامة - تهديد للديمقراطية, Rowman & Linlefield, 2001 وكتاب التدمير المصاحب: إخضاع المدارس العامة للشركات (New York and Oxford: Rowman & Littlefield Publishers, 2000)، كما شارك مع روبين تروث جودمان فى كتاب الحب الغريب: كيف نتعلم أن نكف عن القلق ونقع فى حب السوق. (Rowman & Lirtlefield, 2002)

ديفيد غابارد:

أستاذ المناهج وطرق التدريس بمدرسة التربية بجامعة شرق كارولينا.

من مؤلفاته: إسكات إيفان إيلتش: تحليل فوكوى للإقصاء العقلى (Austin & Win-field, 1993)، كما حرر كتاب المعرفة والقوة فى الاقتصاد العولمى: السياسة وطاب إصلاح التعليم (Lawrence Erlbaum, 2000).

المترجم فى سطور:

دكتور مصطفى محمد عبدالله قاسم

- باحث السياسات التربوية بالمركز القومى للبحوث التربوية والتنمية، القاهرة.
- حاصل على درجة دكتوراه الفلسفة فى التربية (تخصص أصول التربية) فى موضوع التعليم والتحديث الثقافى، والماجستير فى موضوع التعليم والتحديث السياسى.
- نشر له عدد من الدراسات والمقالات فى السياسات التربوية والتربية والثقافة.
- من مؤلفاته "أزمة الثقافة العربية: محاولة تفسيرية" (تحت النشر: المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة)، "التعليم وتحديث الثقافة" (المؤسسة العربية للاستشارات العلمية وتنمية الموارد البشرية، القاهرة، ٢٠٠٩)، "التعليم والمواطنة: واقع التربية المدنية فى المدرسة المصرية" (مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ٢٠٠٦، ومكتبة الأسرة ٢٠٠٨).
- له عدد من الكتب المترجمة منها "الإعاقة العقلية: الماضى والحاضر والمستقبل" (دار الفكر للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٩)، "الأطفال واللعب" (تحت النشر، المركز القومى للترجمة، مصر)، "العلاقات الحضارية المسيحية الإسلامية بين احتمالات التعاون والصراع" (المركز القومى للترجمة، مصر، ٢٠٠٩)، "صعود الصين" (المركز القومى للترجمة، مصر، ٢٠٠٩)، "اللغة نموها وتعلمها وبحثها"، (دار الفكر للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٩)، "التاريخ الاجتماعى للوسائط من غتنبرغ إلى الإنترنت" (سلسلة عالم المعرفة، عدد ٣١٥ مايو ٢٠٠٥، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت).

الإشـراف اللغـــوى : حســام عبد العـزيز
الإشـــراف الفـــنى : حســـــن كامـــل